Bibliotheca Alexandrina

شرح
بشارة يوحنا

الجزء الثاني

(من الأصحاح الثامن ـــ الأصحاح الحادي والعشرين)

للدكتور
وليم باركلي

ترجمة
الدكتور عزت زكي

دار الثقافة
ص.ب ١٣٠٤ القاهرة

تفسير العهد الجديد

للدكتور

وليم باركلي

أستاذ العهد الجديد بجامعة كلاسكو

مجلس التحرير

دكتور بطرس عبد الملك — الأستاذ جبيب سعيد

القس صموئيل حبيب — القس فايز فارس

القس فهيم عزيز

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
الأصحاح الثامن	
بين التعاسة والمراحم	١١
يوم أخفق العالم فى معرفة النور	٢٨
عدم الفهم المميت	٤٠
التلمذة الحقيقية	٤٩
بين الحرية والعبودية	٥٣
البنوة الحقيقية	٥٧
أبناء الشيطان	٦١
الاتهام القاسى والإيمان اللامع	٦٧
الحياة والمجد	٧٢
الادعاء الكبير	٧٥
الأصحاح التاسع	
نور للعيون المظلمة	٨١
خطوات معجزة	٨٨
الرأى المتحامل والاقتناع الكامل	٩٣
يسوع يتحدى الفريسيين	٩٧
الإعلان والديونة	١٠٣
أعظم فأعظم	١٠٦
الأصحاح العاشر	
الراعى ورعيته	١١٠
الباب المؤدى إلى الحياة	١١٩
الراعى الصالح والراعى الزائف	١٢٤
الوحدة القصوى	١٢٨
اختيار المحبة	١٣٥
مختل العقل أم ابن الله	١٣٨
الدعوى والوعد	١٤١
الثقة الكاملة والحق الأعظم	١٥٠
الدعوة إلى الاختيار الحاسم	١٥٤
هدوء قبيل العاصفة	١٦٠
الأصحاح الحادى عشر	
فى الطريق إلى المجد	١٦٢
وقت كاف ولكنه ليس كثيراً	١٦٧
النهار والليل	١٧٠
الرجل الذى لم يشأ أن يترك يسوع	١٧٤
بيت النوح	١٧٨
القيامة والحياة	١٨٢

الموضوع	الصفحة
عواطف يسوع	١٩٣
النداء الذى يوقظ الموتى	١٩٩
إقامة لعازر من الموت	٢٠٢
المفارقة الساخرة	٢٠٩
يسوع الخارج على القانون	٢١٥
الأصحاح الثانى عشر	
المحبة المتلفة	٢١٩
تطرف المحبة	٢٢٥
محاولة لتحطيم الدليل الناصع	٢٢٩
استقبال ملكى	٢٣٣
اليونانيون ويسوع	٢٤٢
اللغز المذهل	٢٤٥
من الاضطراب إلى اليقين	٢٥٤
أبناء النور	٢٦١
عدم الإيمان الأعمى	٢٦٤
إيمان الجبناء	٢٦٨
الدينونة الحتمية	٢٧١
الأصحاح الثالث عشر	
التاج على رأس الخدمة	٢٧٥

الموضوع	الصفحة
الغسل الألزم	٢٨٣
عار الخيانة ومجد الإخلاص	٢٨٧
نداء المحبة الأخير	٢٩١
أركان المجد الأربعة	٢٩٨
وصية الوداع	٣٠١
الوفاء المترنح	٣٠٥
الأصحاح الرابع عشر	
موعد المجد	٣٠٨
الطريق والحق والحياة	٣١٦
رؤيا القدير	٣٢١
وعود ثمينة	٣٢٩
المعين — الوعد القديم	٣٣٤
الطريق إلى الشركة والإعلان	٣٤٠
شركة المسيح	٣٤٣
الأصحاح الخامس عشر	
الكرمة والأغصان	٣٤٧
حياة شعب يسوع المختار	٣٥٦
كراهية العالم	٣٦٤
المعرفة والمسئولية	٣٧٥

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الشهادةالبشرية و الشهادةالإلهية	٣٧٧	يسوع أمام حنان	٤٤٨
الأصحاح السادس عشر		البطل والجبان	٤٥٣
التحذير مع التحدى	٣٧٩	الأصحاح التاسع عشر	
عمل الروح القدس	٣٨٤	يسوع أمام بيلاطس	٤٦٠
روح الحق	٣٨٩	فى الطريق إلى الصليب	٤٩٤
الحزن يتحول إلى فرح	٣٩٥	مقامرون فى مشهد الموت	٤٩٧
الطريق المباشرة	٤٠٢	محبة ابن	٥٠٢
المسيح وهباته	٤٠٥	نهاية ظافرة	٥٠٦
الأصحاح السابع عشر		الماء والدم	٥١٠
مجد الصليب	٤١٠	أشوالكوزهورفى بستان الجلجثة	٥١٥
الحياة الأبدية	٤١٥	الهدايا الأخيرة ليسوع	٥٢١
عمل يسوع	٤١٩	الأصحاح العشرون	
معنى التلمذة	٤٢١	المحبة الذاهلة	٥٢٥
صلاة يسوع لأجل تلاميذه	٤٢٥	الاكتشاف الأعظم	٥٢٨
لمحة من المستقبل	٤٣٣	المعرفة الأعظم	٥٣١
العطية وموعد المجد	٤٣٦	المناداة بالأخبار السارة	٥٣٥
الأصحاح الثامن عشر		تكليف المسيح	٥٣٩
إلقاء الأيدى فى البستان	٤٤٠	إقناع المتشكك	٥٤٥

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
توما فى الأيام التالية	٥٤٩	حقيقة القيامة	٥٥٧
هدف البشارة	٥٥٢	عمومية إرسالية الكنيسة	٥٥٩
		راعى رعية المسيح	٥٦١
الأصحاح الحادى والعشرون		الشهادة للمسيح	٥٦٥
المسيح المقام	٥٥٤	المسيح غير المحدود	٥٦٧

شرح بشارة يوحنا

الجزء الثانى

ٱلْأَصْحَاحُ ٱلثَّامِنُ

بين التعاسة والمراحم

أَمَّا يَسُوعُ فَمَضَى إِلَى جَبَلِ ٱلزَّيْتُونِ

ثُمَّ حَضَرَ أَيْضاً إِلَى ٱلْهَيْكَلِ فِي ٱلصُّبْحِ وَجَاءَ إِلَيهِ جَمِيعُ ٱلشَّعْبِ فَجَلَسَ يُعَلِّمُهُمْ . وَقَدَّمَ إِلَيْهِ ٱلْكَتَبَةُ وَٱلْفَرِّيسِيُّونَ ٱمْرَأَةً أُمْسِكَتْ فِي زِناً . وَلَمَّا أَقَامُوهَا فِي ٱلْوَسَطِ قَالُوا لَهُ يَامُعَلِّمُ هٰذِهِ ٱلْمَرْأَةُ أُمْسِكَتْ وَهِيَ تَزْنِي فِي ذَاتِ ٱلْفِعْلِ . وَمُوسَى فِي ٱلنَّامُوسِ أَوْصَانَا أَنَّ مِثْلَ هٰذِهِ تُرْجَمُ . فَمَاذَا تَقُولُ أَنْتَ . قَالُوا هٰذَا لِيُجَرِّبُوهُ لِكَيْ يَكُونَ لَهُمْ مَا يَشْتَكُونَ بِهِ عَلَيْهِ . وَأَمَّا يَسُوعُ فَٱنْحَنَى إِلَى أَسْفَلُ وَكَانَ يَكْتُبُ بِإِصْبِعِهِ عَلَى ٱلْأَرْضِ . وَلَمَّا ٱسْتَمَرُّوا يَسْأَلُونَهُ ٱنْتَصَبَ وَقَالَ لَهُمْ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ بِلَاخَطِيَّةٍ فَلْيَرْمِهَا أَوَّلاً بِحَجَرٍ . ثُمَّ ٱنْحَنَى أَيْضاً إِلَى أَسْفَلُ وَكَانَ يَكْتُبُ عَلَى ٱلْأَرْضِ . وَأَمَّا هُمْ فَلَمَّا سَمِعُوا وَكَانَتْ ضَمَائِرُهُمْ

تُبَكِّتُهُمْ خَرَجُوا وَاحِداً فَوَاحِداً مُبْتَدِئِينَ مِنَ ٱلشُّيُوخِ إِلَى ٱلآخِرِينَ . وَبَقِيَ يَسُوعُ وَحْدَهُ وَٱلْمَرْأَةُ وَاقِفَةٌ فِي ٱلْوَسَطِ .
فَلَمَّا ٱنْتَصَبَ يَسُوعُ وَلَمْ يَنْظُرْ أَحَداً سِوَى ٱلْمَرْأَةِ قَالَ لَهَا يَا ٱمْرَأَةُ أَيْنَ هُمْ أُولٰئِكَ ٱلْمُشْتَكُونَ عَلَيْكِ . أَمَا دَانَكِ أَحَدٌ . فَقَالَتْ لَا أَحَدَ يَاسَيِّدُ . فَقَالَ لَهَا يَسُوعُ وَلَا أَنَا أَدِينُكِ . ٱذْهَبِي وَلَا تُخْطِئِي أَيْضاً .

(يوحنا ٨ : ١ – ١١)

لقد نصب الكتبة ، والفريسيون شباكهم ، ليأخذوا يسوع بكلمة . وهنا ظنوا أن الشباك قد أحكمت تماماً وأنه لن يستطيع منها إفلاتاً .
وغني عن القول ، إنه جرت العادة ، فى زمن المسيح ، حينما كانت تعرض مشكلة للمجتمع ، كانت ترفع للمعلم ، أو الربى ، ليتخذ قراره فيها وكان هذا أمراً طبيعياً . وهكذا أتى الكتبة والفريسيون إلى «يسوع» ، كمن يتخذ مركز الربى المعلم ، حاملين معهم مشكلة : إمرأة أمسكت وهى تزنى فى ذات الفعل . ولم تكن ثورتهم إزاء كسر الوصية السابقة ، ثورة مفتعلة . فلقد كانت جريمة الزنا ، فى عرف الناموس اليهودى ، جريمة بشعة نكراء ، وعن الربيين الأحبار نقرأ قولهم : « على كل يهودى أن يتمنى لنفسه الموت ، قبل أن يرتكب جريمة عبادة الوثن ، أو القتل ، أو الزنا » . لقد كانوا يعتبرون الزنا ، واحدة من الخطايا الثلاث الكبرى .

أما حكم الناموس فى تلك الجريمة ، فقد كان واضحاً محدداً . ومع تباين طرق تنفيذ حكم الموت ، فإن الناموس لم يترك مجالا للغموض ،

إزاء عقوبة تلك الجريمة . فى سفر اللاويين (٢٠ : ١٠) يرد القول : « إذا زنى رجل مع امرأة ، فاذا زنى مع امرأة قريبه ، فإنه يقتل الزانى ، والزانية » .

هنا لانجد تفصيلا لطريقة تنفيذ الحكم ..

وفى سفر التثنية (٢٢ : ٢٣ – ٢٤) يتحدث الناموس الموسوى ، عن تنفيذ عقوبة الموت ، فى فتاة مخطوبة ، أغراها رجل ، وسلبها أعز ماتملك . فى مثل هذه الحالة ، يخرج الإثنان خارج أبواب المدينة ، ويقتلان رجماً بالحجارة حتى الموت . « إذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل ، فوجدها رجل فى المدينة ، واضطجع معها ، فأخرجوهما كليهما إلى باب تلك المدينة ، وارجموهما بالحجارة حتى يموتا . الفتاة من أجل أنها لم تصرخ فى المدينة ، والرجل من أجل أنه أذل امرأة صاحبه » . وعن « المشنا » وهو مجموع التعليقات اليهودية على الناموس ، نقرأ أن عقوبة الزنا هى الموت شنقاً . حتى طريقة الشنق يفصلها تفصيلا ..

« يوضع الرجل فى حفرة ممتلئة بروث الحيوان حتى ركبتيه ، وتلف فوطتان ، الواحدة جافة من الخارج ، والثانية لينة فى داخلها ، حول رقبته . (وذلك حتى لاتبدو فى المتهم أية علامة خارجية ، لأن العقاب إلهى) ثم يتجاذب طرفى الفوطة المطوية رجلان ، واحد من هذا الطرف ، والثانى من الطرف الآخر ، بكل قواهما حتى تخمد أنفاسه ».

ويزيد المشنا أيضاً ، أن عقوبة الفتاة المخطوبة التى تفرط فى عفافها ، هى الموت رجما . فمن وجهة النظر الموسوية القانونية ، لم يكن الكتبة والفريسيون مخطئين فى أن الموت هو الجزاء العادل القانونى ، لتلك المرأة التى أمسكت فى ذات الفعل ، وثبت للجميع أنها مدانة .

وحينما جابه الكتبة والفريسيون شخص المسيح بتلك الحالة ، كانت المكيدة التي دبروها له على النحو التالي : لو قرر السيد أن المرأة بالفعل تستحق الموت ، فسيكون من نتيجة ذلك حدوث أمرين — الأول أنه سيفقد للابد تعاطف الجماهير معه ، ومحبتهم له . وثقتهم بأنه الرحيم ، المحب ، صاحب القلب الكبير ، صديق العشارين والخطاة . والأمر الثاني ، هو أنه سوف يصطدم مع القانون الروماني ، لأنه لم يكن لليهود السلطان على تنفيذ عقوبة الموت في أي إنسان ، إلا من تثبت إدانته أمام المحاكم الرومانية . وهكذا إن أقر يسوع شرعية إعدام هذه المرأة ، فسوف يفقد محبة ، وإخلاص ، عامة الطبقات ، كما سيظهر ، أمام السلطات الرومانية ، بصورة المتمرد على سلطان روما ، الثائر على قوانينها . ومن الجانب الآخر ، إن نادى بالعفو عنها ، ومسامحتها ، وإطلاقها حرة ، فإن هذا قد يؤول على أنه يعلم الناس ، الاستهانة بناموس موسى ، ويشجعهم على التهاون ، بصدد خطية الزنا . هذا هو الفخ الذى نصبه الكتبة ، والفريسيون ، وظنوا أنهم قد أحكموه إحكاماً ، ولن يستطيع السيد منه فكاكا . ولكن يسوع رد كيدهم إلى نحرهم ، ووجه إليهم نفس السهم الذى وجهوه إليه .

وفى سياق القصة يخبرنا البشير يوحنا أن المسيح لم يجبهم على الفور . بل انحنى ، وابتدأ يكتب بإصبعه على الأرض . ترى ما معنى هذا ؟ ولماذا تصرف يسوع على هذا النحو ؟ .

هناك افتراضات أربعة أمام هذا التصرف ، يمكن أن تلقى بعض الضوء .

١ — الافتراض الأول ، أن يسوع أراد أن يكسب وقتاً ، ولم يشأ أن يتجه إلى قرار سريع فى قضية خطيرة نظير هذه . لقد كان يبحث

المشكل من كافة جوانبه ، ولعله فى تلك الفترة ، رفع قلبه إلى الآب . فى صلاة سرية .

٢ – وفى بعض النسخ الأصلية ترد الكلمة . . « وكأنه لم يسمعهم » هذه الإضافة وردت فى الترجمة الإنكليزية المعتمدة[1] ، بحروف صغيرة ، إشارة إلى أنها غير موجودة فى معظم المخطوطات الشهيرة ، لكنها أضيفت لتوضيح معنى الفقرة ، ولتلقى ضوءاً على أحداثها . ولعل يسوع أراد بهذا الصمت ، أن يدفع أولئك الشهود ، إلى إعادة النظر فى أقوالهم ، وفى الدوافع القاسية التى تكمن وراء إتهامهم .

٣ – ولأحد الكتاب المعروفين[2] رأيه الذى يستحق الإثبات . فى هذا الصدد يقول مامعناه ، إن «يسوع » قد امتلأ بروح الخجل والألم ، إزاء خطية الإنسان ، ممثلة أيضاً ، فى قسوة المشتكين عليها ، وضمائرهم الجامدة . وهكذا تحاشى تلك النظرات النارية التى تشع بالقسوة ، والغرور والأنانية ، فأحنى وجهه إلى الأرض ، بروح الحزن ، والألم المرير . لقد اجتمعت أمامه صورة خزى المرأة ، وعارها ، وجمود متهميها ، وشرهم والخبث الذى يدفعهم إلى مجابهة السيد بمثل هذه الحالة ، ثم نظرات الجموع المتسائلة ، التى تتطلع فى انتظار وذهول – كل هذه الصور اجتمعت أمام يسوع لتعتصر قلبه فى ألم وضيق ، يمتزج بالإشفاق والمراحم . وهكذا أحنى وجهه عنهم .

٤ – على أن أوضح افتراض تبدو عليه مسحة من المنطق ، ماورد فى بعض النسخ المتأخرة من ترجمات العهد الجديد – فى الترجمة الأرمنية نقرأ الفقرة على هذا النحو : « أما هو ، فأحنى رأسه ، وابتدأ يكتب على

(١) Authorised Version

(٢) Seeley فى كتابه " Ecce Homo "

الأرض ، ليعلن لهم خطاياهم ، وهكذا رأى كل واحد خطاياه العديدة ، منقوشة على الأحجار ». هنا نرى أن «يسوع» قد رد على اتهامهم للمرأة بطريقة صامتة مفحمة ، حينما كتب لهم على الأرض مضمون خطاياهم ، أولئك الذين نصبوا من أنفسهم قضاة ، وجلسوا على كراسى الحكم ، ليصدروا حكم الدينونة على إنسانة تتساوى معهم فى المذنوبية والقصاص . وقد يكون فى اللغة الأصلية اليونانية مايسند هذا الرأى . فالكلمة المرادفة لكلمة «يكتب» فى اليونانية القديمة هى «جرافين» ، ولكن الكلمة التى وردت فى البشارة هى «كاتا جرافين» التى قد تعنى : يسجل تقريراً ضد إنسان ما (المقطع «كاتا» من أحد معانيه : ضد) — نفس الكلمة وردت فى سفر أيوب ، حينما راح يتحدث إلى خالقه بروح العتاب (أيوب ١٣ : ٢٦) قائلا ..

« لأنك كتبت على أموراً مرة » الكلمة مرادفة لكلمة «كاتا جرافين» .

وهكذا يجابه يسوع أولئك المغترين بذواتهم ، بتقرير عن خطاياهم . لقد ألح الكتبة والفريسيون عليه فى أن يقدم لهم حلا لذلك المشكل .. حكماً فى هذه القضية ، وها هو يقدمه لهم . إنه يقول لهم مامعناه :

« أتريدون أن تنفذوا الحكم فيها ؟ تقدموا . أتريدون أن تجلسوا على كراسى الحكم ؟ تعالوا . هل تلتهب قلوبكم شوقاً إلى رؤية الدماء تتفجر من جراحها ؟ أرجموها . ولكن ليلق بالحجر الأول ، من يوقن فى نفسه أنه بلا خطية » — « من كان منكم بلا خطية فليرمها أولا بحجر » .

وكلمة بلا خطية ، لاتعنى فقط أنه لم يرتكب خطية ، بل تعنى أيضاً لاتساوره حتى مجرد الرغبة الخاطئة . وكأنى بيسوع يقول لهم : « تستطيعون

أن ترجموها على أساس أنه لا يساوركم حتى مجرد الشوق إلى رجمها ، وإنهاء حياتها بأيديكم » . وساد سكون إلى فترة وجيزة . ثم تسلل الواحد منهم بعد الآخر ، وهو يلقى من يده الحجر الذى اختاره لرجمها .

ولم يبق فى المكان غير يسوع ، ، واقفاً أمام المرأة المنهارة المتهالكة على الأرض ، فى خزيها ، وعارها . وكما يقول القديس أوغسطينوس : « وقفت المراحم العظمى وجهاً لوجه أمام التعاسة العظمى » . وإذا بصوت السيد رن هاتفا « يا امرأة ، أين هؤلاء المشتكون عليك ؟ أمادانك أحد ؟ » فتجيبه بصوت أسيف « لا أحد ياسيد ؟ » فيصدر رب الأجيال والدهور حكمه عليها « ولا أنا أدينك حتى هذه الساعة . ولكن إن عادت قدماك إلى المسير مرة ثانية فى نفس الطريق ، فستكون لك الأواخر أشر من الأوائل ، إذهبى ، ولا تخطئى أيضاً واقلبى صفحة جديدة بيضاء ...

بين التعاسة والمراحم

إن الضوء الكبير الذى تقدمه لنا هذه الفقرة ، هى أنها تبين لنا عينات من مواقف البشر . فهى تكشف لنا عن حقيقتين ، بصدد موقف الكتبة والفريسيين . . .

١ — إنها تظهر لنا قبل كل شيء ، مفهوم السلطان لديهم . لقد كان الكتبة ، والفريسيون ، أخصائيي الناموس فى عصرهم ، متمرسين ، وعارفين بكل أسرار بنوده ، كان كل اتجاههم يشير إلى أنهم يفهمون السلطان على أنه نقد للآخرين ، وتجريح وإدانة لهم . أما أن يقوم السلطان على أساس العطف . . أما أن يكون هدفه اصلاح الخاطىء ، وليس تحطيمه ، فهذا ما لم يخطر لهم على بال . وعلى أساس هذا المفهوم الخاطىء ، نصبوا من أنفسهم قضاة ، وحراساً على الشعب ، يحصون كل هفوة منه فى حق الناموس ، وكل انحراف عن بنوده ، وحدوده ، ويوقعون أقسى القصاص الوحشى ، على من يحيد عنه ، أو يتهاون فى وصاياه . وهكذا ظنوا أن من حقهم محق الخطية عن طريق سحق الخاطىء . ولم يدر بخلدهم يوما ، ان من واجبهم — كمن يجلسون على كراسى القضاء والحكم — أن يعاملوا الإنسان الخاطىء كمريض يحتاج إلى العلاج ، يتقدمون إليه بالعطف والمراحم .

وحتى يومنا الحاضر ، يوجد أناس ، يعتقدون أن المجتمع قد رفعهم إلى

مراكز قيادية ليدينوا سواهم ، ويصدروا أحكامهم على من هم دونهم ، ينصبون من أنفسهم كلاب حراسة على المجتمع ، من وظيفتها أن تمزق المذنب تمزيقاً . ولكن السلطان الحقيقى ، ينبغى أن يبنى على العطف . . على شعور الإنسان بالعجز والضعف ، وإحساسه بمساواته فى المذنوبية مع سواه . . .

عن جورج هويتفيلد يروى ، أنه شاهد مجرما فى طريقه إلى حبل المشنقة ، وعندها صاح هاتفا بكلمته المأثورة . . «هنا يمضى هويتفيلد إلى مصيره لولا نعمة الله»

وهذا هو الواجب الأول ، لمن يمسكون بين أيديهم بمقاليد السلطان ، أن يضعوا انفسهم فى موضع المذنب ، والظروف التى احاطت به ، ويدركوا الدوافع الخفية التى دفعته إلى مثل هذا التصرف ، والملابسات التى خلقت من الخطية إغراء ، ومن الإغراء دافعاً لا يقاوم ، دفع بالإنسان إلى التعثر والأنهيار ، وتحطيم كل المبادىء الخلقية . لا أحد يستطيع أن يصدر حكماً صائباً عادلا على متهم ، ما لم يضع فى اعتباره ، الظروف التى جاز فيها هذا المتهم . إن عقاب المتهم ينبغى أن يأتى فى المرتبة الثانية فى اعتبار السلطة الحاكمة . وإن كانت مهمة السلطات ، هى الضغط على المتهم ، لدفعه إلى اليأس ، أو الندامة الكئيبة الحزينة فى مرارة العقاب القاسى ، فهى بلا شك تتنكب عن طريق الصواب. إن أعظم خدمة تقدمها السلطات للمجتمع لا أن تسحق الخاطىء ، بل أن تحوله إلى أداة نافعة ، واولئك الذين يحتلون كراسى السلطة ، ينبغى أن يكون شأنهم شأن الطبيب الحكيم ، الذى يرغب فى شفاء مريضه ؛ وعودته صحيحا سالما للمجتمع .

٢ ــ وهذه الحادثة تظهر بأكثر وضوح ، موقف الكتبة والفريسيين

من الشعب ، وروح العداء التى تملأ قلوبهم . اولئك الكتبة والفريسيون ، ما كانوا ينظرون إلى تلك المرأة على أنها انسان . . مخلوق بشرى ؛ لقد كانوا يعتبرونها مجرد شيء . . وفى روح العداء التى كانوا يضمرونها ليسوع ، وجدوا فيها مخلب القط الذى يوصلهم لأغراضهم . .شباك الفخ الذى نصبوه ليوقعوا السيد فيه . إنها مجرد اداة لتحقيق أهدافهم . . فهى فى عرفهم بلا اسم ، ولا ذاتية ، ولا قلب ، ولا مشاعر ، ولا عواطف .

هذه النظرة للكائن البشرى ، هى ولا شك نظرة خاطئة . نظرة غير إنسانية .. نظرة لا تشرف صاحبها . وكم يحدث أن يصدر نفس التصرف ، من أناس ينتمون إلى اسم المسيح كما قيل عن « بياتريس وب » التى عرفت فيما بعد باسم «لادى باسمور » الخبيرة الإقتصادية المعروفة إنها كانت تنظر إلى الناس كعينات ، وأصناف تتراءى أمامها . إن البشر فى نظرها ليسوا أشخاصاً، بل امثلة .. حالات .. عينات .

فى كتاب إيمان طبيب ،للدكتور بول تورنييه ، يخصص الكاتب فصلا كاملا من كتابه الشائق ، للحديث عن الكتاب المقدس وذاتية الفرد . فى هذا الفصل ، يؤكد الكاتب قيمة ذاتية الإنسان ، فى عرف الكلمة المقدسة وأحد مظاهر هذه الحقيقة ، اهتمام الكتاب بالأسماء . فالله يتحدث إلى موسى قائلا « عرفتك باسمك » (خروج ٣٣ : ١٧) . ودارس الكتاب تذهله كثرة الأسماء التى يفرد لها الوحى فصولا كاملة ، يراها القارىء العادى بلا معنى . لكن المتعمق فى الدراسة ، يرى أن ذكر هذه الأسماء ، يظهر لنا قيمة ذاتية الفرد فى نظر الله . فهو ليس صفراً فى مجموعة أرقام .. ولا قطعة غيار فى ماكينة الجهاز البشرى . وكما يقول مدللا بمثال من مهنته كطبيب : « لو جاءنى مريض ، لم أتذكر إسمه ، واكتفيت بأن أقول لنفسى هذه

حالة التهاب الحوصلة المرارية التى فحصتها أول أمس . فانى أفقد المريض اعتباره كانسان ، وأراه حالة من الحالات . إنى أهتم بعملى وفنى ، أكثر من اهتمامى بذاتيته . أى أنى أعتبره حوصلة مرارية ، أو كبداً متليفاً ، أو رئة ممزقة ، أكثر منه إنساناً حياً له ذاتيته المميزة » إن الكتاب المقدس يرفع ذاتية الفرد ، والله يقدر شخصية الإنسان . وما أمثلة الإبن الضال ، والدرهم المفقود ، والحمل الشارد عن القطيع ، والسامرى الصالح ، إلا أمثلة من قيمة الفرد فى نظر الله ، كما صورها لنا شخص المسيح فى أمثاله .

ولكن الكتبة ، والفريسيين ، لم يعرفوا حتى مجرد اسم هذه المرأة . إنها فى نظرهم لاتزيد عن كونها حالة .. حالة أغرقتها خطيتها فى طين الحمأة ، ورأوا فيها أداة .. آلة صالحة لاستغلالها فى أغراضهم — حينما تصغر قيمة الأشخاص فى أنظارنا ، نبتعد كل البعد عن روح المسيح .

ولكن الله يستخدم سلطان محبته ، ليدفع بالإنسان إلى السمو . وأحد الطرق التى يتبعها ، دفعه إلى اليقين بأنه أكثر من شىء ، وأنه لن يتحول من ذات إلى شىء . على نفس الطريق ينبغى أن نسير ، علينا أن نعمل على إعادة الضال وجبر الكسير ، وإصلاح المعوج ، وإقامة العاثر .. أن نعيد الإنسان إلى إنسانيته .. أن نرفعه من حضيض الحيوانية التى وصل إليها . أن نجعله يدرك أنه إنسان ، وليس مجرد شىء .

هنا أول خطوة فى طريق إعادة الخاطىء إلى نفسه ، وإلى مجتمعه ، وإلى إلهه .

بين التعاسة والمراحم

زيادة على ذلك ،فإن هذه الحادثة تظهر لنا موقف يسوع من الإنسان الخاطيء .

١ ــ هنا نرى المبدأ الأساسي الذى نادى به يسوع : أنه لا يحق لإنسان أن يدين سواه ، طالما كان هو أسيراً لنوع من الخطأ . فالذى يريد أن يجلس على كرسى الدينونة ، عليه أن يكون بلا عيب .. أن يكون نقى القلب ، والسريرة ، طاهر الحواس . والمشاعر . ومادمنا جميعاً فى مستوى واحد، بالنسبة للناموس الأدبى الإلهى ، فعلينا أن نترك الدينونة لمن هو أحق منا بذلك « لا تدينوا لكى لا تدانوا . لأنه بالدينونة التى بها تدينون تدانون . وبالكيل الذى به تكيلون يكال لكم ، ولماذا تنظر القذى الذى فى عين أخيك وأما الخشبة التى فى عينك فلا تفطن لها ؟ أم كيف تقول لأخيك دعنى أخرج القذى من عينك ، وها الخشبة فى عينك ؟ يامرائى أخرج أولا الخشبة من عينك ، وحينئذ تبصر جيداً أن تخرج القذى من عين أخيك » متى (٧ : ١ ــ ٥) .

إن أكثر الأخطاء شيوعاً فيما بيننا ، هى أننا نطبق على الآخرين ، مقاييس لا نحاول أن نطبقها على أنفسنا .. أن نطلب منهم مستوى ، لانستطيع نحن ، ولا نحاول ، أن نصل إليه .. أن ندين فيهم خطايا ، نغفل عن رؤيتها ،

ودينونتها فى حياتنا نحن . ألا يحدث أن والداً يعنف ابنه على خطأ ، استقاه الإبن من أبيه ، وتمثل به فى فعله ؟ ألا يشيع البعض من المتقدمين فى الكنائس مذمة عضو ، هم واقعون فيها ؟ إن أهلية الإنسان لدينونة سواه ، ليست المعرفة ، فجميعنا نمتلك المعرفة . ولكن الأهلية الحقيقية تكمن فى الصلاح ، وهذا ما لا يمتلكه واحد منا . وما يقيننا عن الله ، بأنه الديان الوحيد ، إلا استناداً على هذه الحقيقة الملزمة : إن الإنسان فى عجزه ، وضعفه ، وخطيته ، لم يصل ، ولن يصل يوما ما ، إلى المستوى الكامل ، الذى يستطيع فيه ، أن يجلس على كرسى الدينونة ، ويحكم على سواه .

٢ — وأحد المبادىء الأساسية أيضاً ، التى نادى بها رب المجد ، أن عواطفنا تجاه إنسان ضل عن الطريق السوى ، ينبغى أن تبنى أولا : وقبل كل شىء على الرحمة ، والتعاطف .

ولقد قيل عن الأطباء ، إن من واجب الطبيب قبل كل شىء ، « أن يشفى مريضه أحياناً ، وأن يخفف من كابوس المرض غالباً ، وأن يقدم التعزية له دائما » . حينما يحضرون مريضاً لطبيب ، عليه ألا يظهر له استياءه ، أو تقززه من المرض ، مهما كان المرض يثير الاشمئزاز .

بل عليه أن يتغلب على مشاعره الذاتية ويبتلع تلك المشاعر فى رغبته الصادقة لتخفيف أعباء المرض ، وإعادة المريض للشفاء . وحينما يجابهنا إنسان ارتكب خطأ من الأخطاء ، فلا ينبغى أن يكون شعورنا الأول :

« ينبغى على المخطىء أن يدفع ثمن خطيئته ، فماذا عسانى أن أفعل لأرفع

نتائج جرم ارتكبه إنسان » بل ينبغى أن يكون : « ماذا أستطيع أن أفعل له ؟ كيف أعينه على تخطى الهوة التى حفرها لنفسه ؟ كيف أعيده إلى ذاته وأعيده إلى المجتمع ؟ » ينبغى أن نضع أنفسنا فى موضعه ، ونقدم له العون الذى نشتاق أن نجده فى مثل تلك الظروف .

٣ – ومن الأمور البالغة الأهمية ، أن نفهم الدافع الذى جعل يسوع يتصرف على هذا النحو مع تلك المرأة التى أمسكت فى خطيتها . فمن اليسير ، أن ينحرف بنا تفكيرنا ، وينأى بنا عن الصواب • ونصل إلى استنتاج ، هو أبعد ما يكون عن روح المسيح ، فنظن أن السيد يتهاون مع الخطيئة ، أو يقلل من جرمها ، وشناعتها .

إن المسيح حينما قال للمرأة « ولا أنا أدينك الآن .. إذهبى ولا تخطئى أيضاً » ، إن يسوع لا يقصد على الإطلاق ، أنه أبطل الدينونه ، وأهدر العدالة ، وشطب على بنود الناموس الإلهى ، ولن يدين المخطىء بعد . إنه لا يعنى بقوله : « أيتها المرأة ، لا تقلقى بعد . لقد انتهى عهد الناموس ببنوده القاسية . وجاء عهد النعمة .. وعهد النعمة رحب متسع ،لامكان فيه للقصاص » ،كلا • لقد كانت كلمته تشير إلى إرجاء تنفيذ العدالة إلى فرصة أخرى قادمة •

وإذا جاز لنا أن نوسع كلمته ، فأننا نضعها على النحو التالى : « أيتها المرأة ، لن أصدر عليك اليوم حكما نهائياً ، ولن أدينك الآن الدينونة القاطعة ، لكننى سوف أعطيك فرصة أخرى لحياة أفضل ، وأكثر كرامة ، إذهبى : وأثبتى أهليتك لهذا العفو الكريم .

« أظهرى للملأ حياة أرفع ، ومثالا أسمى . كونى قوة بناءة للحياة لا قوة هدامة للموت ، والهلاك .

« لقد أخطأت ، هذا حق . لكن أمامك فرصة جديدة لتصلحى ما فات . إذهبي ولا تخطئي أيضاً ، وأنا سوف أعينك . وعند نهاية يوم الحياة القصير ، سوف تعطين حساباً عما استطعت أن تفعليه بالفرصة المقدمة إليك ». لقد كان موقف يسوع فى هذه الحادثة يتضمن أكثر من حقيقة . .

(ا) فهو يتضمن قبل كل شئ هبة الفرصة الثانية . وكأنى بالسيد يقول لها « إنى أعرف أن طريق الحياة قد التوى بك . وأنك تعثرت فى الطريق . ولكنى أهبك الفرصة لتبدئى من جديد . . لتلمى شتات كيانك الممزق . .

إن يسوع يقدم لكل خاطئ ، التوت به السبل وتعثر فى الطريق ، إنجيل الفرصة الثانية . وإن كان السيد يهتم بما كانه الانسان ، فانه يبدى اهتمامه بالتالى ، بما سيكونه ، أو بمكن أن يكونه . إنه لا يقلل من قيمة الأخطاء التى ترتكب فى الحياة . فهو يهتم بالناموس المكسور ، مثل اهتمامه بالقلوب الكسيرة ، ولكنه بالتالى ، يؤمن أن باب المستقبل مفتوح أمام الإنسان ليبدأ من جديد . .

(ب) وهذا الموقف يظهر روح العطف . إن الفارق الأساسى بين المسيح ، وبين الكتبة ، والفريسيين ، هو أنه يتقدم للخاطئ بروح العطف ، بينما هم يجلسون على كراسى القضاء . ومن خلال سطور هذه الحادثة نستطيع أن نلمس هذه الحقيقة بأكثر وضوح . فهم يريدون أن يصدروا حكمهم على المرأة الخاطئة بالموت رجماً ، وسعادتهم العظمى ، تكمن فى

استماعهم للصرخات المرة ، ورؤيتهم الدماء المتفجرة ، والجسد المرتعش ، والأحجار المتساقطة عليه .

لقد كان يخلب مشاعرهم سلطان الدينونة . أما يسوع فقد وجد سعادته ، وارتواء نفسه ، فى سلطان أعظم ، هو سلطان العفو ، والغفران ، لقد كانوا يسعدون باطفاء الفتيلة المدخنة ، بينما وجد هو سعادته فى بعثها إلى الحياة .. فى تغذيتها بزيت النعمة .. فى إعادتها إلى رسالة النور ، والبركة .

وهكذا نرى أن يسوع يتناول الخاطىء ، بيدى الحنان ، والحب ، والعطف ، والمشاركة الرحيمة . أما هم فقد كان يملؤهم الغرور النابع من البر الذاتى .

(ح) وموقف يسوع من المرأة الخاطئة ينطوى على روح التحدى . أما تحديه لها فهو تحدى نور الشمس الطاهرة للمستنقع الآسن العفن . لقد جابهها بحياته .. بطهارته .. ببره ، إنه لم يقل لها : « لا تضطربى ، ولا تتزعزعى . إن البشر كلهم خطاة . وأولئك الذين يتأهبون لتنفيذ الحكم فيك ، هم أنفسهم خطاة نظيرك ، يستوجبون الحكم ، استمرى فى طريقك ، بل قال لها : « إن الطريق الذى تسيرين فيه طريق خاطىء » .

«انتفضى من عثرتك ، وقومى للجهاد . غيرى برنامج حياتك من الألف الى الياء . إذهبى ولا تخطئى أيضاً » .

هنا لا نجد غفراناً سهلا ، كما يعتقد البعض .. هنا غفران يتحدى . . غفران يشير إلى القمة . . غفران يوجه الخاطىء إلى مستوى لم يخطر له على بال . إن يسوع يجابه الظلمة الدامسة ، بتحديات الحياة الطيبة النقية الساطعة .

(د) وموقف المسيح هنا ، يتضمن ثقته فى الإمكانيات البشرية. فحينما نتأمل قليلا فى الأمر الذى وجهه يسوع لتلك المرأة ، نمتلىء دهشة وتعجباً ، كيف يقول يسوع لساقطة ، ذات مثل منحلة ، لم تستتر فى عارها ، حتى تمكن الذين حولها من القبض عليها فى ذات الفعل ، كيف يقول لمثل هذه المرأة :

« إذهبى ولا تخطئى أيضاً » ؟ ألا يشير هذا القول إلى ثقة يسوع فى الإمكانيات الكامنة فى قلب الإنسان؟ إنه حينما وقف أمام هذه المرأة لم يقل لها : « أيتها التعسة البائسة ، من يأكل الحصرم ، تضرس أسنانه . لقد عشت فى عارك وخزيك ، وفى عارك وخزيك أيضاً تموتين » . لكنه قال : « إذهبى ولا تخطئى أيضاً » لقد كان يثق أنه بمعونته ، وبنعمته ، وبعمل روحه ، يستطيع الخاطىء ، أن يتحول إلى قديس . لقد كانت طريقة يسوع ، لا أن يدفع الناس إلى المعرفة اليائسة بأنهم خطاة ، لا رجاء لهم ، وليس أمامهم سوى الموت ، بل أن يوحى إليهم بالإمكانيات العظيمة الكامنة ، التى يمكنها بقوة الله أن تظهر ، وتحول يأسهم بأسا ، وهزيمتهم انتصارا بنعمة الله .

(هـ) وموقف يسوع يتضمن التحذير للإنسان الخاطىء .. ومع أن التحذير هنا ، لا نكتشفه واضحاً مسموعاً ، إلا أننا نستطيع أن نلمحه ضمناً ، فالمسيح يأتى بنا وجهاً لوجه ، فى هذه القصة ، مع الاختيار الأبدى المصيرى . لقد واجه السيد هذه المرأة بالاختيار الأعظم ، فأمامها طرقها الشائنة القديمة ، وهى تستطيع أن تعود إليها إذا أرادت ، وأمامها طريق الحياة ، والرجوع إلى نفسها . إن هذه القصة ، قصة بلا ختام ، لأن كلمة الختام فى حياة كل إنسان ، لا تسجل ، إلا حينما يقف وجهاً لوجه ، أمام الإله العظيم الديان .

يوم أخفق العالم فى معرفة النور

ثُمَّ كَلَّمَهُمْ يَسُوعُ أَيْضاً قَائِلاً أَنَا هُوَ نُورُ ٱلْعَالَمِ . مَنْ يَتْبَعْنِي فَلَا يَمْشِي فِي ٱلظُّلْمَةِ بَلْ يَكُونُ لَهُ نُورُ ٱلْحَيٰوةِ. فَقَالَ لَهُ ٱلْفَرِّيسِيُّونَ أَنْتَ تَشْهَدُ لِنَفْسِكَ . شَهَادَتُكَ لَيْسَتْ حَقًّا . أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ وَإِنْ كُنْتُ أَشْهَدُ لِنَفْسِي فَشَهَادَتِي حَق لِأَنِّي أَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ أَتَيْتُ وَإِلَى أَيْنَ أَذْهَبُ . وَأَمَّا أَنْتُمْ فَلَا تَعْلَمُونَ مِنْ أَيْنَ آتِي وَلَا إِلَى أَيْنَ أَذْهَبُ . أَنْتُمْ حَسَبَ ٱلْجَسَدِ تَدِينُونَ . أَمَّا أَنَا فَلَسْتُ أَدِينُ أَحَداً . وَإِنْ كُنْتُ أَنَا أَدِينُ فَدَيْنُونَتِي حَقٌّ لِأَنِّي لَسْتُ وَحْدِي بَلْ أَنَا وَٱلْآبُ ٱلَّذِي أَرْسَلَنِي . وَأَيْضاً فِي نَامُوسِكُمْ مَكْتُوبٌ إِنَّ شَهَادَةَ رَجُلَيْنِ حَقٌّ . أَنَا هُوَ ٱلشَّاهِدُ لِنَفْسِي وَيَشْهَدُ لِي ٱلْآبُ ٱلَّذِي أَرْسَلَنِي . فَقَالُوا لَهُ أَيْنَ هُوَ أَبُوكَ . أَجَابَ يَسُوعُ لَسْتُمْ تَعْرِفُونَنِي أَنَا وَلَا أَبِي. لَوْ عَرَفْتُمُونِي لَعَرَفْتُمْ أَبِي أَيْضاً .

هٰذَا ٱلْكَلَامُ قَالَهُ يَسُوعُ فِى ٱلْخِزَانَةِ وَهُوَ يُعَلِّمُ فِى ٱلْهَيْكَلِ . وَلَمْ يُمْسِكْهُ أَحَدٌ لِأَنَّ سَاعَتَهُ لَمْ تَكُنْ قَدْ جَاءَتْ بَعْدُ .

(يوحنا ٨ : ١٢ — ٢٠)

هذه المحاورة دارت بين يسوع وبين شيوخ اليهود تحت خزانة الهيكل. وكانت خزانة الهيكل فى رواق النسوة ، وهو ثانى أروقة الهيكل — الرواق الأول كان رواق الأمم ، والثانى رواق النساء . وكان الرواق الأخير مخصصاً للنساء ، لا تتعداه المرأة ، إلا عند تقديم ذبيحة على المذبح فى رواق الكهنة . وحول رواق النساء ، كانت توجد بواك ذات أعمدة ، حيث تقوم بجوار الجدران ثلاث عشرة خزانة يلقى فيها الناس بتقدماتهم . وكانو يطلقون على تلك الخزانات لقب الأبواق ، لأنها كانت تشبه الأبواق ، متسعة فى أسفلها وضيقة فى أعلاها . وكل خزانة من تلك الخزانات ، كانت مخصصة لنوع خاص من التقدمات . فى الخزانتين الأولى والثانية ، كان يودع نصف الشاقل ، الذى يلزم كل يهودى بايداعه لنفقات صيانة الهيكل ، وحفظه . فى الثالثة والرابعة كانت تقدم أثمان زوج الحمام الذى على كل سيدة وضعت طفلها ، أن تقدمه لمراسم تطهيرها ، (لاويين ١٢ : ٨) . فى الخزانة الخامسة كانت تودع التبرعات ، لتغطية نفقات الخشب اللازم لايقاد النيران على المذبح . والخزانة السادسة ، كانت مخصصة لأثمان البخور الذى يستخدم فى مراسم العبادة فى كافة المناسبات . أما السابعة ، فكانت لحفظ أوانى الهيكل الذهبية ، وصيانتها .

وبقية الخزانات ، كانت مخصصة للنذور ، والهدايا ، والهبات ، والتبرعات ، وتقدمات الشكر ، وتقدمات التكفير عن الخطية . وغير ذلك، ومن ثم كانت خزانة الهيكل ، مكانا يعج بالحركة ، ويموج بالعابدين الذين يريدون أن يهبوا عطاياهم لله . وما كان هناك مكان نظيره ، يضم الأتقياء المتعبدين ، الذين هم على استعداد أن يقبلوا التعليم الصحيح ، أو يناقشوا صحته ... فى هذا المكان ، وأمام جموع المتعبدين الأتقياء ، ينادى يسوع بالحق العظيم قائلا : « أنا هو نور العالم .. » ومن المحتمل جداً أن خلفية الصورة التى أحاطت بيسوع ، قد زادت هذا الحق قوة وتأثيراً . لقد كانت الفرصة التى يقرنها يوحنا بهذا الحديث ، هى فرصة عيد المظال : (يوحنا٧: ٢) ولقد عرفنا فى فصل سابق (يوحنا ٧ : ٣٧) كيف أن ذلك العيد ، كان ضمن مراسيمه تقليد استقاء الماء . وكيف أن هذا التقليد ، قد أعطى يسوع الفرصة لينادى بالحق العظيم عن كونه الماء الحى الذى يهب الرى لكل ظامىء .

ولقد كان هناك تقليد آخر ، يرتبط بمراسيم هذا العيد . ففى مساء أول أيامه ، كان هناك حفل إضاءة الهيكل ، وهذا التقليد كان يجرى فى رواق النساء . كان ذلك الرواق تحيط به ممرات كثيرة لكى تسع المتفرجين ، وفى وسط الرواق ، كانت تقام منارات أربع كبيرة . فاذا أسدل الليل ستاره ، كانت تضاء تلك المنارات . ويقول التقليد اليهودى أن نورها كان من القوة ، حتى أن كل بيت فى المدينة المقدسة ، كانت تتوهج ساحته بالنور القوى المنبعث منها ، فيتحول ليل المدينة إلى نهار . وخلال تلك الليلة ، كان الشيوخ والحكماء ، يعقدون حلقات ، يرددون فيها المزامير ، وهم يرقصون بكل قوتهم أمام الرب ، والشعب يهتف من حولهم . لقد كانت أول ليالى عيد المظال ، ليلة يخترق فيها النور كل زوايا أورشليم ، ويضىء

كل ركن فيها ، غامراً بالفرح ، والسرور والتهليل ، كل قلب ، وكل نفس .

ولكن يسوع يوجه أنظار سامعيه ، من النور المادى ، إلى نور من نوع جديد .

إنه يقول لهم : «لقد رأيتم كيف أن النور المنبعث من منائر الهيكل ، يخترق ظلام الليل فيبدده . أنا هو نور العالم ، من يتبعنى فلا يمشى فى الظلمة بل يكون له نور الحياة . ليس نوراً لليلة واحدة ، أو لعدة ليال ، بل بطول الحياة .. بطول طريق الحياة . إن نور الهيكل ساطع قوى ، ولكنه سرعان مايتضاءل حتى ينطفىء . أما أنا فانى النور الذى يبقى ، ويستمر ، ويتزايد إلى أبد الآبدين .

يوم أخفق الناس فى معرفة النور . (تابع)

(يوحنا ٨ : ١٢ — ٢٠)

يقول يسوع : «من يتبعنى فلا يمشى فى الظلمة ، بل يكون له نور الحياة» . والجملة نور الحياة تعنى أمرين . فى الأصل اليونانى قد تعنى النور الذى يصدر من ينبوع الحياة ، أو النور الذى يعطى حياة للناس ، وفى هذه الجملة تعنى الأمرين . أن يسوع هو نور الله ، وقد انبثق مضيئاً وسط البشر ، ويسوع هو أيضاً النور الذى يهب حياة للعالم . وكما أن الزهرة لن تتفتح بتلألئها فى ابتسامة مشرقة ، مالم تغمرها أشعة الشمس ، وهكذا حياتنا لن تترصع بأزهار النعمة والجمال ، مالم تتشبع بنور محضر يسوع المسيح ، ونعمه إشراقه .

فى هذه الفقرة يتحدث السيد عن إتباع خطواته . ونحن كثيراً ماننادى بضرورة اتباع خطوات المسيح .. كثيرا ماندعو الغير لاتباعه — وحينما نتحدث كذلك ، ماذا نعنى ؟

وقبل كل شىء كلمة «يتبع» هى فى الأصل اليونانى «إكولوثين» ، وحينما ندرس المعانى التى تنطوى عليها هذه الكلمة ، فاننا نستطيع أن نلقى ضوءاً على معنى اتباع المسيح ، وما يترتب على اتباعه . هذه الكلمة فى الأصل اليونانى ، لها خمسة من المعانى المختلفة ، ولكنها مع ذلك مترادفة ، مترابطة .

١ — المعنى الأول يشير إلى اتباع الجندى لقائده ، ورئيسه . والجندى يتبع قائده ، حينما يقوده ، ويرشده ، فى المسيرة الطويلة .. فى ميدان

القتال .. فى الحملات الهجومية على البلدان الأخرى . فى كل خطوة يخطوها القائد ، على الجندى أن يتبعه فى غير مناقشة ، ولاسؤال . والمسيحى كجندى صالح تحت قيادة قائده الأعظم يسوع المسيح ، عليه أن يتبعه فى طاعة ، وخضوع .

٢ — والمعنى الثانى ، يشير إلى اتباع العبد لسيده . حينما يسير السيد ، فان العبد يتبعه كظله . وحينما دعت الحاجة ، يكون فى خدمته ، وطاعته ، والقيام بكل المهام التى يطلبها منه . إنه على الدوام رهن إشارته ، وتابعه الأمين الذى لايفترق عنه . وهكذا المسيحى أيضاً ، عبد ليسوع المسيح ، سروره ، ورضاه ، وراحته ، فى سرور ، وراحة ، ورضى سيده .

٣ — والمعنى الثالث لكلمة يتبع ، يشير إلى قبول نصيحة مشير ، أو حكم إنسان عاقل حكيم . وحينما يقف الإنسان فى حيرة فى مفرق طريقين ، ولايعرف هل يتجه يميناً ، أم يساراً ، فانه يلجأ لنصح ناصح ، أو مشورة مشير ، أو حكمة حكيم ، إنسان له من الحكمة ، والدراية ، وبعد النظر ، والخبرة الطويلة ، مايمكنه من إبداء رأى ، أو إصدار حكم . فاذا كان السائل عاقلا ، فانه يعمل بذلك الرأى ، ويقبل ذلك الحكم . والمسيح ، بالنسبة لكل مسيحى ، هو المشير الحكيم ، والناصح الخبير ، وعلى كل من يؤمن به أن يقبل نصحه ، ومشورته ، ويوجه سفينته بحسب إرشاده وتوجيهه .

٤ — والكلمة تستخدم أيضاً بمعنى الطاعة لقوانين الدولة ، ونواميسها ، وشرائعها . فاذا شاء الإنسان أن يكون عضوا نافعاً فى المجتمع ، على أية صورة من الصور كان ذلك المجتمع ، فعليه أن يخضع لنواميسه ويقبل قوانينه ... والمسيحى كمواطن لمملكة عظمى ، هى مملكة السماء ،

وكعضو فى ملكوت شامل ، هو الملكوت الروحى الأسمى ، عليه أن يخضع ذاته لقوانين ذلك الملكوت ، ويتقبل ناموس المسيح ، كالناموس الذى يسيطر على حياته ، وينظم مجرياته .

٥ – والفعل أيضاً يفيد تتبع المنهاج الذى ينتهجه معلم فى نقاشه ، وتفكيره أو تتبع أفكار خطيب ، فى خطابه أو حديثه . فالمسيحى هو الإنسان الذى أدرك مغزى تعاليم المسيح إنه لايصغى لمعلمه فى جمود وعدم فهم كما يحدث للتلميذ المغلق الذهن ، حين يصغى لمدرسه فى فصل الدراسة . وهو لايصغى إليه بذهن مشتت ، كما يحدث مع إنسان له مشاغله الكثيرة التى تملأ عقله وقلبه فتدخل الرسالة من أذن ، لتخرج من الأذن الأخرى . إنه يصغى ويتشبع عقله ، وفهمه بالرسالة ، وتثبت فى ذاكرته ، وتتأصل فى أعماق قلبه ، كما يتأصل البذار الحى فى التربة ، فتثمر بالمحبة والطاعة .

أن تكون تابعاً ليسوع المسيح ، معناه أن تعطى نفسك جسدا وروحاً ونفساً فى طاعة لسيدك ، والدخول فى بركة هذه التبعية يعنى السير فى النور . إننا إذا سلكنا فى قوتنا الذاتية ، فى حكمتنا الشخصية ، فى مقدرتنا ، وذكائنا ، فإننا سرعان ما نضعف ونتعثر ، لأن الكثير من مشكلات الحياة ، هو فوق ذكائنا ومقدرتنا ولا نستطيع أن نجد له حلا . وإذا سرنا بمفردنا فإننا غالباً مانتخذ الطريق الخاطىء ، لأننا لا نمتلك خريطة الحياة بين أيدينا . فنحن بحاجة إلى الحكمة الإلهية لمسيرة الحياة . إن الإنسان الذى له قائد حكيم يسير أمامه ، والخريطة الصائبة بين يديه ، لابد وأن يصل إلى نهاية رحلته فى أمان وسلام ، ويسوع المسيح هو ذلك القائد ، الذى يمتلك وحده أدق صورة لمسالك الحياة ، فى وعورتها ومتاهاتها ، وصحاريها ومعمياتها . واتباعه فى صدق وأمانة ، معناه السير فى أمان فى هذه الحياة ، والدخول فى سلام إلى المجد العتيد .

يوم أخفق العالم في معرفة النور . (تابع)

يوحنا (٨ : ١٢ — ٢٠)

حينما أعلن يسوع عن حقه العظيم بأنه نور العالم ، ثارت ثائرة الكتبة والفريسيين . لقد كانت هذه النغمة أكثر غرابة لديهم ، مما تبدو لنا الآن . فقد كان هذا عندهم ادعاء صارخا بأنه المسيا لاسواه . بل ادعاء بصفة وأعمال ، هي وقف على الجلال الإلهي فحسب . فكلمة النور ، كانت تقترن في الفكر اليهودي ، وفي اللغة اليهودية ، بذات الجلال الإلهي . في المزمور (٢٨ : ١) يتحدث المرنم هاتفا « الرب نوري وخلاصي » ، وفي نبوات إشعياء (٦٠ : ١٩) نقرأ القول « الرب يكون لك نوراً أبديا » « بينما يتحدث أيوب هاتفا : « أضاء سراجه على رأسي . بنوره سلكت الظلمة » (أيوب ٢٩ : ٣) . وفي نبوات ميخا : « إذا جلست في الظلمة فالرب نور لي » . (ميخا ٧ : ٨) . أما الأحبار فقد أعلنوا أن أسم المسيا هو النور . وحينما نادى يسوع بأنه نور العالم ، فأنه قد أدعى لنفسه حقا لم يتطاول إليه إنسان .

وتتبع النقاش في هذه الفقرة عسير معقد ، ولكنه يبرز خطوات ثلاث رئيسية ...

١ — الخطوة الأولى نرى فيها اليهود يصرون على ان شهادة يسوع لنفسه غير صحيحة ، لأنها تنقصها شهادة الشهود . فلقد كانت شهادته ، كما ظنوها ، من جانبه فحسب . وكان الناموس اليهودي ، يصر على أن

أى تقرير ، ينبغى أن يقوم على اساس شهادة شاهدين على أقل تقدير ، قبل أن يصبح نافذاً معترفاً به . فى سفر التثنية (١٩ : ١٥) يرد القول « لا يقوم شاهد واحد على إنسان فى ذنب ما أو خطيئة ما من جميع الخطايا التى يخطىء بها . على فم شاهدين أو على فم ثلاثة شهود يقوم الأمر » . كما نقرأ أيضاً فى نفس السفر (١٧ : ٦) « على فم شاهدين أو ثلاثة شهود يقتل الذى يقتل . لا يقتل على فم شاهد واحد » ... وفى سفر العدد (٣٥ : ٣٠) « شاهد واحد لا يشهد على نفس للموت » . وهكذا كان منطق اليهود أن شهادة يسوع عن نفسه لا يمكن أن تقبل ، لأنه لا يوجد أى شاهد يؤيدها عداه . أما رد يسوع فقد كان يحمل بندين : فهو يقول لهم أولا أن شهادته حق ، ولو كانت بمفردها ، لأنه موقن بسلطانه . واثق بشركته مع الآب ، حتى أنه ليس بحاجة لشهادة أخرى . هذا ليس غروراً ، أو ثقة ذاتية كاذبة . إنه صورة لما يتكرر حدوثه معنا ، فى مجريات الحياة العادية . فقد يتقدم أحدنا إلى جراح كبير ، أو اخصائى علمى طالبا استشارته ، ويصدر الطبيب حكمه القاطع ، ويؤكد صحته . إنه يثق بكل كلمة يقولها ، فهو ليس بحاجة إلى مشورة سواه لتأييد قوله إن تقريره هو جوهر خبرته . خذ مثلا اخر ، حكم يصدره أحد كبار جال القضاء . إنه واثق من نفسه ، ومن تطبيقه لبنود القانون ، وثقته لاتعنى غروره . إنها مجرد تأكيد على أنه يعرف ما يعرف .

وهكذا كان السيد واثقا بقربه من الآب ، حتى إنه ما كان بحاجة إلى شهادة أى شاهد ، عدا شهادة هذه الشركة الحية الوثيقة .

والأمر الثانى يذكر فيه يسوع أن لديه شاهدا آخر . هذا الشاهد الثانى هو الله نفسه . وكيف يمكن أن نقول إن الله يشهد ليسوع المسيح

(ا) أول كل شيء شهادة الآب للابن ، تكمن فى أقوال الابن وتعاليمه . فلا يستطيع إنسان أن ينطق بكلمات الحكمة العلوية ، مالم يكن قد أعطى من فوق من ينبوع الحكمة الأزلى .

(ب) وشهادة الآب أيضاً للابن ، تكمن فى الأعمال التى تجرى على يديه . فلا أحد يستطيع أن يقوم بمثل هذه الأعمال ، مالم يكن الله عاملا فيه .

(ج) وشهادة الآب تكمن أيضاً فى تأثير يسوع على الجماهير . إن المسيح يجرى فى حياة البشر تغييرات جوهرية ، هى أسمى من أن يصل إليها مجهود إنسان . فلا توجد قوة بشرية تستطيع أن تحول الخاطىء إلى قديس ، أو المجرم إلى ملاك وديع . وهذا ما يفعله يسوع . وهكذا نرى فى هذا أصدق دليل على عمل الله فى شخص المسيح . فليست هذه على الاطلاق أعمال انسان بشرى عادى .

(د) وشهادة الله الآب للابن، تكمن أيضاً فى تفاعل البشر معه فحينما كرز بانجيل المسيح للناس ، وحينما رفع الصليب فى ملء قوته ، وسموه ، وجلاله ، أمام أبصار البشر ، فإنه فى الحال يلقى التجاوب السريع الفعال ، والحياة العملية الصادقة . ما الذى يوقظ هذا التجاوب فى قلوب البشر ؟ ما الذى يبعث فيهم هذه المشاعر التى تدفعهم إلى الحياة العملية المباركة ؟ هذا ولاشك هو عمل روح الله القدوس ، شاهدا ، ومؤثراً ، فى قلوب البشر . إن الله فى القلب . هو الذى يمكننا من أن نرى الله فى يسوع .

وهكذا كان رد يسوع على الكتبة والفريسيين ، الذين اعترضوا

على شهادته بأنها غير قانونية ، لأنها صادرة من جانب واحد ، من صاحبها ولاتتأيد بشهادة شهود آخرين . لقد أكد لهم بأن شهادته عن نفسه حق وصدق ، لأنها تتأيد بسلطانه اليقيني ولأنها تتأيد بشهادة الله الآب له .

ثانياً : الخطوة الثانية في مواد هذا النقاش ، نرى فيها يسوع يؤكد حقه في الدينونة . إنه قد جاء ولا شك بروح المحبة ، فهو لم يأت إلى العالم ليدين العالم . ومع ذلك ففي ذات تفاعل الأنسان تجاه المسيح ، وتجاه دعوته تكمن دينونة ذلك الإنسان . فهو ان لم ير في المسيح جمالا ، وان لم يقبله في حياته ، فإنه انما يدين نفسه ، ويصدر الحكم الرهيب على حياته . وهنا يضع السيد فاصلا للتمييز بين نوعين من الدينونة .

(ا) فهناك الدينونة التي على معرفة البشر ، ومقاييس البشر .. الدينونة التي لاتصل إلى الأعماق ، ولا تكتشف ما يكمن في الداخل . وهذه هي دينونة الكتبة والفريسيين . بل هذه هي دينونة الناس بوجه عام. إنها لا تبحث عن الدوافع ، ولاتهتم بما هو في الداخل . إن كل اهتمامها يتجه إلى الصورة الظاهرة ... إلى ما فوق السطح .

(ب) وهناك الدينونة التي تقوم على أساس المعرفة الكاملة ، ليس المعرفة الخارجية الجوفاء ، بل المعرفة الكاملة ،التي تحيط بكل الجوانب وتصل إلى أبعد الظروف أو أعمق الدوافع ، واخفى الحقائق ، وهذه وقف على الله جل جلاله . فهو وحده العارف بواطن الأمور . وهنا نصغي إلى يسوع ينادي ،بأن أية دينونة يصدرها ، هي دينونة الهية وليست بشرية لأنه والله واحد . هنا تكمن تعزيتنا . بل في هذا يكمن التحذير لنا ، فيسوع هو الوحيد الذي يكشف بواطن الأمور . هذه الحقيقة تجعله

رحيما ، أكثر من أى قلب اخر ، وتجعله بالتالى مختبراً لأفكار القلب ونياته .. مميزا لكل صغيرة وكبيرة فى حياتنا ، أكثر من أى شخص آخر فما يخفى على عيون الناس مكشوف لديه .

لذلك فان دينونة يسوع صادقة ، وعادلة ــ وكاملة ، لأنها تتأيد بالمعرفة الشاملة التى هى وقف على الله جل جلاله .

ثالثا : وفى الخطوة الأخيرة ، نرى يسوع يتحدث بكل صراحة للكتبة والفريسيين ، معلنا لهم ، أنه ليست لهم معرفة بالله . إن عدم معرفتهم له ، ولرسالته ، وللهدف من مجيئه ، كل هذه تدل دلالة واضحة ، على أنه ليست لهممعرفة بالله . هنا تكمن مأساة من يلقبون أنفسهم بشعب الله المختار . لقد اختار الله بالفعل اسرائيل ليعلن مقاصده له ، ويعلن مقاصده عن طريقه للأمم ، ويظهر ذاته قبل الكل بين ظهرانيه . وكان كل تاريخ اسرائيل ، يشير إلى هذا الهدف ويتجه إلى هذه الغاية . ولكنهم انحرفوا عن الطريق إلى مناقشة الأفكار ، إلى التمسك بهذا الرأى أو الانتصار لذاك .. إلى التعصب المقيت لمفهومهم الخاص عن معنى الديانة ، حتى أنهم أصبحوا عمياناً تجاه الخالق . إن مأساتهم تكمن فى أنهم ارادوا أن يتعالوا على فكر الله ، ويثبتوا أنهم أحكم من القدير ، وفى هذا كان رفضهم للحق الالهى .

عدم الفهم المميت

قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ أَيْضاً أَنَا أَمْضِي وَسَتَطْلُبُونَنِي وَتَمُوتُونَ فِي خَطِيَّتِكُمْ . حَيْثُ أَمْضِي أَنَا لَا تَقْدِرُونَ أَنْتُمْ أَنْ تَأْتُوا . فَقَالَ ٱلْيَهُودُ أَلَعَلَّهُ يَقْتُلُ نَفْسَهُ حَتَّى يَقُولُ حَيْثُ أَمْضِي أَنَا لَا تَقْدِرُونَ أَنْتُمْ أَنْ تَأْتُوا . فَقَالَ لَهُمْ أَنْتُمْ مِنْ أَسْفَلُ . أَمَّا أَنَا فَمِنْ فَوْقُ . أَنْتُمْ مِنْ هٰذَا ٱلْعَالَمِ . أَمَّا أَنَا فَلَسْتُ مِنْ هٰذَا ٱلْعَالَمِ . فَقُلْتُ لَكُمْ إِنَّكُمْ تَمُوتُونَ فِي خَطَايَاكُمْ . لِأَنَّكُمْ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا أَنِّي أَنَا هُوَ تَمُوتُونَ فِي خَطَايَاكُمْ . فَقَالُوا لَهُ مَنْ أَنْتَ . فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ أَنَا مِنَ ٱلْبَدْءِ مَا أُكَلِّمُكُمْ أَيْضاً بِهِ . إِنَّ لِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةً أَتَكَلَّمُ وَأَحْكُمُ بِهَا مِنْ نَحْوِكُمْ . لٰكِنَّ ٱلَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ حَقٌّ . وَأَنَا مَا سَمِعْتُهُ مِنْهُ فَهٰذَا أَقُولُهُ لِلْعَالَمِ . وَلَمْ يَفْهَمُوا أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ لَهُمْ عَنِ ٱلْآبِ . فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ مَتَى رَفَعْتُمُ ٱبْنَ ٱلْإِنْسَانِ فَحِينَئِذٍ تَفْهَمُونَ أَنِّي أَنَا

هُوَ وَلَسْتُ أَفْعَلُ شَيْئاً مِنْ نَفْسِي بَلْ أَتَكَلَّمُ بِهٰذَا كَمَا عَلَّمَنِي أَبِي. وَٱلَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ مَعِي وَلَمْ يَتْرُكْنِي ٱلْآبُ وَحْدِي لِأَنِّي فِي كُلِّ حِينٍ أَفْعَلُ مَا يُرْضِيهِ.

وَبَيْنَمَا هُوَ يَتَكَلَّمُ بِهٰذَا آمَنَ بِهِ كَثِيرُونَ.

(يوحنا ٨ : ٢١ — ٣٠)

هذه واحدة من أصعب فقرات النقاش التي تتميز بها بشارة يوحنا. والتي يعسر فهمها وتحليلها. وفى هذه الفقرة نرى اتجاهات متعددة فى الحديث تسير جنباً إلى جنب، ويضمها اطار واحد..

فى البداية يبدأ يسوع بأن يعلن أمام مقاوميه أنه ماض بعيدا عنهم. وأنه حينما يمضى، سيكتشفون خسارتهم العظمى، حينما يبحثون عنه ولا يجدونه إنهم سوف يستيقظون من غفلتهم، ولكن يقظتهم ستكون متأخرة. هذا الإعلان يحمل نغمة نبوية. وهو يذكرنا بأمور ثلاثة :

(ا) إنه يذكرنا أولا، بأن هناك فرصاً تتاح لنا تأتى بين أيدينا مرة واحدة ولا تعود. فلكل واحد منا، تعطى الفرصة ليقرر فى نفسه، أن يقبل المسيح مخلصاً وربا. وأن يخرج عزمه إلى حيز التنفيذ. ولكن هذه الفرصة، شأنها شأن أية فرصة أخرى، يمكن أن ترفض وأن تضيع للأبد.

ب — ويتضح أيضا فى هذا النقاش أن الحياة قصيرة، والزمن محدود. فلا يوجد إنسان يمتلك كل الوقت الذى يتمناه فى هذا الوجود. ولا يوجد مخلوق لا تصل حياته إلى نهايتها يوما من الأيام. إن وقتنا وحياتنا تحت قيود وحدود. وفى هذا الوقت المحدد وفى هذه الفرصة، علينا أن نقرر مصيرنا. إن الوقت محدود، والفرصة مقصرة. ولا أحد يعرف

متى يقف عند حده . لذلك فكل الأسباب تدعونا ، أن نقرر مصيرنا من الآن .

جـ — ولأن لنا الفرصة فى هذه الحياة ، فعلينا بالتالى مسئولية تأتى بنا إلى الدينونة . بل إن ذات الفرصة المرفوضة ، تتضمن الدينونة لصاحبها . وكلما كانت الفرصة عظيمة .. متاحة .. مقدمة لنا أكثر من مرة ، زادت مسئوليتنا ، وثقلت مديونيتنا. هذه الفقرة تأتى بنا وجها لوجه أمام سمو الفرصة المقدمة لنا ، وأمام محدودية الفرصة المتاحة لنا لنغتنمها فيها .

وحينما تحدث يسوع عن ذهابه، فإنه كان يتحدث عن عودته للآب، ورجوعه إلى مجده . وما كان ممكنا أن يلحق به أعداؤه إلى هناك . إنهم بعنادهم ، وشرهم ، وقساوة قلوبهم ، ورفضهم قبوله ، قد حكموا على أنفسهم بالرفض، بعيداً عن محضر الله . أما مقاوموه، فقد قابلوا كلماته بالسخرية اللاذعة . لقد قال لهم يسوع إنهم حيث يمضى لايستطيعون أن يلحقوا به ، فجاء ردهم الساخر : «لعله سيقتل نفسه» ، وكان فى هذا الرد أكثر من سخرية عابرة . لقد كانت العقيدة اليهودية تخصص أعمق أعماق الجحيم لمن يزهقون أرواحهم بأيديهم . وهكذا فى سخرية تحمل كل معانى التجديف ، القاسى ، قالوا مامعناه : « لعله سيقتل نفسه ، ولذلك فهو الآن فى طريقة إلى الهاوية ، وبطبيعة الحال من يستطيع أن يلحق به إلى هناك إلا من كان على شاكلته ؟ »

وأجابهم يسوع موضحا حديثه بأنهم إن استمروا فى رفضه سيموتون فى خطيتهم — وهذه الجملة تتردد فى كتابات الأنبياء (راجع حزقيال ٣ : ١٨ ، ١٨ : ١٨) . وهى تتضمن ، معنيين ...

١ - كلمة خطيئة فى الأصل هى « همارتيا » . وهى كلمة فى وضعها الأصلى تختص بالصيد ، واطلاق السهم على الفريسة . وهى تعنى حرفيا إخطاء الهدف . إن الذى يرفض قبول يسوع مخلصا له ، وربما ، قد أخطا هدف الحياة . إنه يموت بهدف غير محقق . بحياة لم تكمل ، ولم يكمل القصد منها . وعلى ذلك فهو يحكم على نفسه بعدم أهليته فى الدخول للحياة الأعظم مع الله .

٢ - وجوهر الخطيئة يكمن فى انفصال الانسان عن الله . وفى هذا لعنتها . فبينما أخطأ آدم ، كانت أول غريزة سيطرت عليه هى الاختباء من وجه القدير (راجع تكوين ٣ : ٨ - ١٢) . إن الانسان الذى يموت فى خطيته يموت فى حالة العداوة مع الله . . . فى حالة الخوف منه . أما الانسان الذى يقبل المسيح ، فهو الذى يسير مع الله . فيكون الموت بالنسبة له ، هو اليد التى تفتح الباب أمام شركة أعمق . إن رفض المسيح معناه أن نكون غرباء عن الله ، وقبوله معناه أن نكون فى صداقة مع القدير . وفى هذه الصداقة المباركة ينتفى الخوف من الموت إلى الأبد » ..

عدم الفهم المميت (تابع)

« يوحنا ٨ : ٢١ — ٣٠ »

ثم يستمر يسوع فى حديثه ، راسماً أمام سامعيه سلسلة من المقارنات ، فأعداؤه من الأرض ، أما هو فمن السماء . وهم من العالم، أما هو فليس من العالم . وفى بشارة يوحنا، تتردد كثيراً كلمة العالم . والكلمة هى فى الأصل اليونانى « كوزموس » . والسيد يستخدمها بطريقته الفريدة الخاصة به .

١ — فالعالم قبل كل شىء، هو الصورة المناقضة للسماء . إن يسوع قد أتى من السماء إلى العالم (يوحنا ١ : ٩) . وهو قد أرسله الله إلى العالم (يوحنا ٣ : ١٧) . وهو ليس من العالم ، أما أعداؤه فمن هذا العالم (٨ : ٢٣) والعالم هو الحياة المتقلبة العابرة التى نحياها. قصارى القول أن «الكوزموس» هو كل ما هو بشرى مادى مقابل كل ما هو إلهى روحى .

٢ — ومع ذلك ، فهذا العالم لاينفصل عن الله . فهو قبل كل شىء خليقة الله (يوحنا ١ : ١٠) . عن طريق كلمة الله خلق الله العالم . بواسطة الكلمة كان كل شىء . وبالرغم من الفارق العظيم بين العالم وبين السماء ، فالواحد أرضى ، والآخر سماوى ، فلا توجد هناك الهوة السحيقة التى تفصل بين الاثنين .

٣ — بل الاكثر من هذا ، أن العالم « كوزموس »، هو موضوع محبة الله . « لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكيلا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية » . (يوحنا ٣ : ١٦) . بالرغم

من اختلاف العالم عن كل ما هو روحى . فان الله لم يغضب عليه ، ولم يهجره ، بل أصبح موضوع محبته ، ومهد عطيته العظمى .

٤ — وكل هذا لايجعلنا نغفل وجود ماهو ردىء منحرف فى هذا الوجود . فالعالم يسوده العمى الروحى . وحين أرسل الله ابنه إلى العالم، لم يعرفه العالم : إلى خاصته جاء ، وخاصته لم تعرفه (يوحنا ١ : ١٠) والعالم لايستطيع أن يقبل روح الحق . (ص ٤ : ١٧) . وهو عنده جهالة ولايعرف الله (ص١٧ : ٢٥) . إن العالم يسوده العمى الرهيب ، الذى يجعله لايدرك الله ، ولا يرحب بحق الله ، ولا يقبل ابن الله . والعالم تسوده عداوة رهيبة من نحو الله ، وشعب الله ... إنه يبغض المسيح ، واتباع المسيح (يوحنا ١٥ : ١٨ ، ١٩) . وفى عداوة العالم، لاينبغى أن يتوقع اتباع المسيح سوى المتاعب والضيقات .

٥ — هنا نكتشف مجموعة من الحقائق الغريبة المترابطة . فالعالم منفصل عن الله ، ومع ذلك فبين الله والعالم لاتوجد الهوة السحيقة التى تفصل بين الإثنين . فالله خلق العالم ، والله يحب العالم ، والله أرسل ابنه لفداء العالم ، وبالرغم من كل هذا ، فالعالم يسوده العمى ، وتسوده الجهالة والعداوة من نحو الله — ترى لماذا يتصرف العالم على هذا النحو الخاطىء ؟ هناك استنتاج واحد محتمل ، أو كما قال أحد كبار كتاب الغرب[١] ، هناك أمر واحد يقينى بصدد تصرف الإنسان هكذا ، إنه انحرف عما ينبغى أن يكون عليه .. عن الهدف الذى وجد من أجله . هناك أمر يقينى واحد بخصوص العالم « كوزموس » ، إن العالم لم يصبح ماينبغى أن يكون عليه . لقد طرأ خلل رهيب .. خطأ غير عادى . ماهو هذا الخلل أو هذا الخطأ ؟ إنه الخطية .. الخطية هى التى فصلت بين الله والعالم . الخطية هى التى أعمت

---

(١) ى. ك. شسترتون .

العالم ، وغطت عينيه بغشارة القساوة والجهل فلم يعد يرى الله . الخطية هي في الأساس سر العداوة لله .

وإلى هذا العالم الذى انحرف ، وابتعد ، وأخطأ الهدف ،أتى يسوع معه بالتكفير عن الخطية ،وبالتطهير من الخطية ،وبالقوة والنعمة ،لينتصر على سلطان الخطية ، ويعود إلى ماينبغى أن يكون عليه . ومع ذلك فان للانسان حق الاختيار ،أن يمد يده ويتناول العلاج الشافى ، أو يرفضه . إن الطبيب يقدم الدواء للعليل . ويخبره بأن هذا الدواء فيه النعمة ، والشفاء ، وعودة القوة إليه ، بل قد يصل الأمر إلى تحذير المريض بأنه إن لم يتعاط الدواء فمصيره إلى الموت الأكيد . ولكنه لايرغم المريض على تناول الدواء . وهذا مافعله يسوع ، إنه يقول لسامعيه « إن لم تؤمنوا إنى أنا هو ، تموتون فى خطاياكم » إن لم يقبل المريض العلاج المقدم له ، فليس أمامه سوى الموت .

إن العالم قد أخطأ الهدف ، هذه حقيقة لاجدال فيها ، وعلاج العالم هو فى هذا الطريق الواحد : « أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته » . أن يعرفوا أنه لاشفاء لضربة الخطية ، إلا بالطاعة للحكمة الإلهية التى دبرت العلاج الوحيد فى المسيح . فبقبول المسيح مخلصاً ورباً ، ينال المريض الشفاء الأكيد من لعنة خطيته .

عدم الفهم الذى يؤدى إلى مأساة (تابع)

(يوحنا ٨ : ٢١ — ٣٠)

لاتوجد فى العهد الجديد فقرة تستعصى على الترجمة ، مثل الكلمات الواردة فى (يوحنا ٨ : ٢٥) . فلا أحد يستطيع أن يؤكد تماماً ماتعنيه تلك الفقرة فى الأصل اليونانى . يقول يسوع : « أنا من البدء ماأكلمكم أيضاً به » وتتفق الترجمة العربية لفانديك مع ماورد فى الترجمة الإنكليزية المعتمدة . هناك ترجمات أخرى مقترحة ، تقدم لنا هذه الصورة : « أولياً ، ومبدئياً ، أنا هو الذى أكلمكم به » — وعن موفات « إنى أعلن لكم أنى أنا البداية » « وكيف بى أتحدث اليكم على الإطلاق »

ويقترح البعض أن المعنى المقصود من الترجمة الإنكليزية المعتمدة ، المطابقة للنص العربى فى ترجمة فانديك هو « إن كل ماأقوله لكم ليس سوى البداية » . فاذا أخذنا بهذا المعنى ، يكون المقصود بالفقرة كلها ، أن البشر يستطيعون أن يكتشفوا المعنى الحقيقى لشخص المسيح ، فى صور ثلاث ..

١ — فهم يستطيعون أن يدركوه فى الصليب . فحينما يرفع المسيح على خشبة العار يستطيع الناس أن يدركوا حقاً من هو المسيح . هنا نرى المحبة إلى المنتهى ، المحبة التى لن تدع الإنسان يفلت منها .

٢ — وهم يستطيعون أن يدركوا حقيقة المسيح فى الدينونة . إن

الدينونة محفوظة له وليس لسواه. « الآب قد أعطى كل الدينونة للابن » . إنهم ينظرون يسوع فى الوقت الحاضر ، فلايرون فيه سوى النجار الناصرى ، ولكن سيأتى اليوم الذى يرونه فيه عظيماً ديانا ، يجلس على كرسى العدالة الإلهية ، ويدين الشعوب بالعدل والاستقامة .

٣ — وحينما يشاهدونه هكذا ، سيرون فيه إرادة الله المتجسدة . إن يسوع يقول عن صلته بالآب : « إنى أفعل فى كل حين ما يرضيه » . البعض قد تكون طاعتهم لله تشنجية ، فى نوبات متقطعة . أما طاعة يسوع فهى مستمرة .. رفيعة .. كاملة . لابد وأن يأتى اليوم ، حين يرى الناس ويعترفون ، مقرين بأن يسوع هو فكر الله الأزلى المتجسد .

التلمذة الحقيقية

فَقَالَ يَسُوعُ لِلْيَهُودِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ إِنَّكُمْ إِنْ ثَبَتُّمْ فِي كَلَامِي فَبِٱلْحَقِيقَةِ تَكُونُونَ تَلَامِيذِي وَتَعْرِفُونَ ٱلْحَقَّ وَٱلْحَقُّ يُحَرِّرُكُمْ .

(يوحنا ٨ : ٣١ — ٣٢)

هناك نصوص قليلة فى العهد الجديد تقدم لنا صورة كاملة للتلمذة الحقيقية للمسيح ، وهذا النص واحد منها . هنا نرى الخريطة الكاملة للتلمذة ، وطريقها وهدفها .

فالتلمذة للمسيح تبدأ بالإيمان به . إن بدايتها هى اللحظة التى يقبل فيها الإنسان ما يقوله «يسوع » كالحق الأوحد . فحين يقبل الإنسان مايقوله «يسوع » عن محبة الله .. حين يقبل بكل تصديق مايعلنه عن فظاعة الخطية وجسامتها .. حين يقبل ماينادى به عن معنى الحياة الحقيقى ، فى ذلك الوقت عينه يصبح الإنسان تلميذاً حقيقياً للمسيح .

٢ — والتلمذه الحقيقية ليسوع ، تعنى الثبات بصورة مستمرة فى كلمته. وماذا يعنى الثبات فى كلمة يسوع ؟

(ا) إنه يتضمن قبل كل شىء الإصغاء المستمر لكلمته . يقال عن

أحد مشاهير الوعاظ[1] ، إنه فى وسط حديثه ، كان يتوقف بين الحين والحين ، كأنما ليصغى إلى صوت خفى . إن المسيحى الحقيقى ، هو الإنسان الذى يقضى طيلة عمره ، وهو يصغى لصوت الحبيب ... إنه الإنسان الذى لا يتخذ قراراً فى أمر من الأمور ، قبل أن يصغى أولا لما يقوله «يسوع» له .

(ب) وهو يتضمن ثانياً ، التعلم المستمر من «يسوع» . فكلمة تلميذ فى الأصل اليونانى تعنى الذى يتعلم . وعلى المسيحى طيلة عمره ، أن يتعلم أكثر فأكثر من «يسوع» ، وأن يتعلم أكثر فأكثر عن «يسوع» . إن العقل المغلق معناه نهاية التلمذة .

(ج) والثبات فى كلمة «يسوع» يعنى أيضاً ، التغلغل فى الحق الذى تعلنه كلمة «يسوع» . ولا يستطيع مسيحى أن يصل إلى أعماق كلمة «يسوع» ، بمجرد قراءة سطحية لها . إنه لن يفهم حينذاك أعماق كلمته . إن الفارق بين الكتاب العظيم العميق والكتاب السطحى ، هو أن الأول يجتذبنا لدراسته والتعمق فيه أكثر من مرة ، بينما الثانى لانود الرجوع إليه بعد القراءة الأولى فالثبات فى كلمة «يسوع» يعنى دراستها ، والتعمق فيها ، والتأمل المستمر فى متضمناتها ، والتشبع بتعاليمها ، حتى تصبح الكلمة جزءاً لا يتجزأ من كياننا .

(ج) وهو يتضمن أيضاً الطاعة الكاملة المستمرة للكلمة . إننا ندرس كلمة «يسوع» لا لنشبع رغبتنا فى المعرفة فحسب ، ولا لنصل إلى فهم كلمات تاريخية تستحق الدراسة ، ولكن لنعرف مايريدنا الله أن نفعله . إن التلميذ هو طالب العلم الذى يتعلم ، حتى يعرف ماينبغى عليه أن يفعله . والحق الذى أتى به «يسوع» إلى العالم ، ليس بنوداً نظرية ، ولكنه حق قصد به أن يتجسم فى الحياة العملية .

---

(١) جون براون من هادنجتون

٣ – والتلمذة تتبلور فى معرفة الحق . إننا إذ نتعلم من «يسوع» نعرف الحق ، كما قال بفمه الطاهر : «تعرفون الحق والحق يحرركم» .. وما هو ذلك الحق الذى نعرفه ؟ هناك أجوبة كثيرة على ذلك السؤال ، ولكن أصدق إجابة نعرف بها حق «يسوع». هو أنه الحق الذى يعلن لنا قيم الحياة الصادقة. إن السؤال الرئيسى فى الحياة الذى ينبغى أن نجيب عنه تصريحا أو ضمنا هو هذا : «لأى هدف اكرس حياتى ؟ هل اكرس حياتى لمهنتى . لعملى . لجمع الثروة وتكديس المال والممتلكات ؟ هل اكرس حياتى للذات العالم وشهواته ؟ أم اكرسها لطاعة الله وخدمته والسير فى وصاياه؟ ان الحق الذى يأتى به «يسوع» الينا ، يعيننا على الوصول إلى القيم الصحيحة فى الحياة ففى نور حقه ، نستطيع أن نرى ما هو قيم يستحق اهتمامنا ، وما ليس بذى قيمة .

٤ – والتلمذة تنتهى بنا إلى الحرية ، «الحق يحرركم». وفى خدمة «يسوع» الحرية الكاملة . وفى التلمذة ليسوع التحرر التام . إن التلمذة له تأتى لنفوسنا بأربعة أنواع من الحرية .

(ا) فهى تأتى لنا بالتحرر من الخوف . إن الإنسان الذى اختبر التلمذة للمسيح ، لم يعد يسلك فى الحياة بمفرده ، فهو يسير فى صحبة معلمه ، فى صحبة «يسوع» . وفى هذه الصحبة المباركة ينتفى كل خوف .

(ب) والتلمذة ليسوع تأتى لنا بالتحرر من الذات . إن أكثر من واحد منا يعرف تماما أن أعدى اعدائه هو الذات . فهى سر المتاعب والتقصير ، والعثرات . وأكثر من واحد يصرخ من أعماق قلبه : «ويحى أنا الإنسان الشقى . . من ينقذنى من ذاتى . . من نفسى ، انى كلما حاولت أن اسمو أجد نفسى مقيداً إلى الأرض» . ولكن محضر «يسوع»

وقوته ، يستطيعان أن يجددا الإنسان ، حتى يصبح كل شيء بالكلية جديدا .

(ج) وهي تحررنا من سلطان الآخرين . إن الكثيرين يعيشون في رعب ، لأن الخوف من الناس يسيطر عليهم . . . ماذا يفتكرون عنهم ؟ ماذا يقولون ؟ قال الكاتب المعروف « هـ . ج . ويلز » : « إن صوت جيراننا يكاد يطغى في آذاننا على صوت الله » . أما التلميذ الحقيقي فهو الذي لا يلقي بالا لما يقوله الاخرون أو يفتكرونه عنه — إن كل اهتمامه يتركز فيما يقوله الله عنه .

(د) وهي تحطم عنا قيود الخطية . كثيرون يخطئون بمحض اختيارهم ، وأكثر منهم يندفعون في خطاياهم لأن الخطية تغلبهم . . . تسيطر عليهم . . . تقيدهم بقيود من حديد . فحينما يحاولون أن ينتفضوا من سقوطهم ، لا يجدون سبيلا الا إلى العودة لخطاياهم مرة أخرى . ولقد اصبحت الخطية فيهم طبعاً ثانيا ، وتمكنت العادات منهم ، فحولتهم إلى دواب تمتطيها وتذلها هذه العادات . وكم من واحد لسان حاله يهتف بالحكمة القديمة التي قيلت عن مدمن الخمر : «متى استيقظ أعود أطلبها بعد» .

أما التلمذة الحقيقية ليسوع ، فهي تحطم فينا سلطان العادة . إنها تكسر القيود التي تربطنا إلى عجلة الخطية ، وتمكننا من أن نصبح كما ينبغي أن نكون ، بحسب القصد الالهي المجيد . إنها تتمم لنا الأشواق التي عبر عنها أحدهم قائلا ..

ياليت انساناً جديداً غالباً في داخلي
يبطل في سلطانه فعل القديم الأول

أَجَابُوهُ إِنَّنَا ذُرِّيَّةُ إِبْرٰهِيمَ وَلَمْ نُسْتَعْبَدْ لأَحَدقَطُّ. كَيْفَ تَقُولُ أَنْتَ إِنَّكُمْ تَصِيرُونَ أَحْرَاراً. أَجَابَهُمْ يَسُوعُ ٱلْحقَّ ٱلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّ كُلَّ مَنْ يَفْعَلُ ٱلْخَطِيَّةَ هُوَعَبْدٌ لِلْخَطِيَّةِ. وَٱلْعَبْدُ لَا يَبْقَى فِي ٱلْبَيْتِ إِلَى ٱلْأَبَدِ. أَمَّا ٱلِابْنُ فَيَبْقَى إِلَى ٱلْأَبَدِ. فَإِنْ حَرَّرَكُمُ ٱلِابْنُ فَبِٱلْحَقِيقَةِ تَكُونُونَ أَحْرَاراً.

(يوحنا ٨ : ٣٣ — ٣٦)

ولقد أثار حديث «يسوع» عن الحرية مشاعر اليهود. لقد كانوا ينادون بأنهم أحرار، لم يستعبدوا لأحد قط — إدعاء يدعو للسخرية المرة. فى ذلك الحين، كانت نعال الرومان تدوس على أعناقهم. وقبل ذلك التاريخ، ذاقوا مرارة الاستعباد فى ربوع بابل، وتحت سلطان اشور. ومع ذلك فقد كان اليهود يعلقون أهمية عظمى على الحرية التى كانوا يعتقدون أنها حق موروث لكل يهودى. حتى أنه من أحد البنود الثابتة فى الناموس، إن العبرانى لن يصل إلى حد الاستعباد لأخيه مهما بلغت به الفاقة. (لاويين ٢٥ : ٣٩ — ٤٢) :

« وإذا افتقر أخوك عندك، وبيع لك فلا تستعبده استعباد عبد كأجير كنزيل يكون عندك. إلى سنة اليوبيل يخدم عندك. ثم يخرج من عندك هو

وبنوه معه فيعود إلى عشيرته إلى ملك آبائه يرجع . لأنهم عبيدى الذين أخرجتهم من أرض مصر لايباعون بيع العبيد » بل إن أحد الأسباب الرئيسية للثورات المتكررة ، التى كانت تنشب فى ربوع اليهودية ، قيام بعض القادة الثائرين ينادون فى الشعب بأنهم أحرار ، وليس عليهم أن يخضعوا لمخلوق أو يطيعوا أوامره ، فهم لا ينتمون للملكوت أرضى ، بل لملكوت سماوى . وملكهم ليس من أبناء الأرض بل هو ملك السماء ، رب السماء ، ولا يشاركه فى هذا السلطان منازع .

ويحدثنا المؤرخ اليهودى الشهير « يوسيفوس » الذى عاصر أحداث ما بعد الصلب والقيامة ، عن اتباع يهوذا الجليلى ، الذى قاد ثورة عارمة ضد (الرومان) إنهم « كانوا يتمسكون بالحرية إلى أبعد الحدود . وكانوا ينادون بأن الله هو ملكهم الوحيد وسيدهم » . فحينما قال اليهود فى كبرياء ليسوع إنهم لم يستعبدوا لأحد قط ، فقد كانوا يتمسكون ببند قوى من قانون حياتهم الاجتماعية .

وحتى لو قلنا بأن استعبادهم لدول اخرى ، كان حقيقة تاريخية حدثت فى بعض حقب تاريخية ، إلا أننا نستطيع أن نقول ، إنهم حتى وإن كانو خاضعين لروما ، أو كانوا تحت سلطان مملكة بابل ، أو تحت نير مادى وفارس ، فهم حتى فى أشد أوقات استعبادهم مرارة وقسوة ، كانوا يحتفظون فى أعماقهم بروح مستقلة عن الظروف .. روح حرة طليقة ، بمعنى أنهم كانوا عبيداً بالجسد ، ولكن أحراراً بالروح .

كتب « كيرلس الأورشليمى » عن « يوسف الصديق » : « لقد بيع يوسف عبداً فى قيود المذلة والعبودية ، ولكنه كان حراً .. حراً من كل قيد .. يشع بنور الحرية ، فى روحه النبيلة النقية الطاهرة » .

لذلك كان إتهام «يسوع» لهم بأنهم عبيد سبة لا تطاق ... ولكن السيد كان يقصد عبودية من نوع أقسى، لذلك قال «كل من يفعل الخطية هو عبد للخطية». إن كل من هو مستعبد للخطية . . لعادة شريرة . . لطبع ردىء . . لممارسة تسيطر عليه ، هو فى حالة من العبودية أقسى وأمر من ذاك الذى يرزح تحت سلطان سيد جسدى، مهما كان ذلك السيد عنيفاً قاسياً غليظ القلب. هنا يقدم يسوع مبدأ يشبه إلى حد كبير ، ما كان ينادى به حكماء الأغريق، جيلا بعد جيل. فعن الرواقيين نقرأ القول :

« الإنسان الحكيم هو الحر، أما الغبى فهو العبد الرقيق » . ويوما قال «سقراط» لتلاميذه : « كيف تعتبرون إنساناً تقيده ملاذه، وتسيطر عليه شهواته، كيف تعتبرون مثل هذا الإنسان حراً ؟ » وتحن نجد رسول الأمم فى (رومية ٦ : ١٧ — ٢٠) . يشكر إلهه ، لأن أتباع المسيح قد وجدوا فيه الحرية من نير عبودية الخطية .

هنا فكر هام يدعو للتأمل والأهتمام . فقد يحدث أن نوبخ إنساناً على خطأ إرتكبه ، أو نحذره من نتيجة هذا الخطأ ، فيكون جوابه . . « إننى حر فى حياتى أفعل بها ما أشاء » . ولكن الحقيقة التى نود أن نوجه إليها الأنظار، هى أن الإنسان حينما يرتكب الخطية فانه لا يفعل ما يريد ، بل الشر الذى يسيطر عليه هو الذى يفعل ما يريد. فقد يكون للعادة سلطانها على الإنسان فتسيطر عليه ، وتسيره كيفما تشاء ، حتى تصبح السيد الآمر الناهى فى حياته، وقد يطلق الإنسان العنان لشهوة من الشهوات حتى تتسلط عليه ، ولا يملك القدرة على التحرر من قيودها ، أو كما عبر «سنيكا» ، حتى يصل فى النهاية إلى

أن يبغض آثامه ويحبها فى الوقت عينه . وهكذا لايفعل الإنسان مايريده ، بل الشر الذى فى داخله هو الذى يفعل ، وهو الذى يسيطر . لقد فقد قوته . . حريته . . سلطانه على نفسه ، وأصبح عبداً لعاداته لشهواته . . للشر الذى تملك عليه . وهذا هو ما يعنيه السيد المسيح بقوله ، «كل من يفعل الخطيه هو عبد للخطية» .

ثم يتقدم السيد بعد ذلك بتهديد مقنع . . . تهديد يدركه كل يهودى . لحقيقة صيرورة الإنسان عبداً يقدم ضمنها معنى جديداً — فى البيت اليهودى كان هناك فارق بين العبد ، والحر . أما الإبن فهو صاحب البيت الذى يبقى فى بيته إلى النهاية ، ولاينتزعه منه إنسان . أما العبد ، ففى الأمكان التخلى عنه وطرده فى أية ساعة . إن سيده يستطيع أن يستغنى عنه ، ويطرده — لاقوة فى الوجود تنتزع من الإبن حق البنوة ، وبركاتها ، الإبن على الدوام هو الإبن ، ولكن العبد يمكن طرده فى أية ساعة .

وهكذا يقول «يسوع» لليهود : « إنكم تظنون بأنكم أبناء فى بيت الله . . . تعتقدون بأنه لا قوة فى الوجود تستطيع أن تنتزعكم منه ، استناداً إلى حق البنوة ، ولكنى أقول لكم إنكم بسلوككم . . بعنادكم . . بقساوتكم . . قد انتزعتم أنفسكم من دائرة البنين إلى دائرة العبيد . . لقد صيرتم أنفسكم عبيداً لخطاياكم . وإنى أقول لكم ، إن العبد يمكن أن يجد نفسه ملقى فى الطريق ، بعيداً عن البيت فى أية ساعة » . هنا تهديد . . تهديد رهيب . إنه يحذرنا من الاتجار فى مراحم الله . . من الأتكال على إحسانه وقلبه الكبير ، ومعاملاته السالفة . وهذا ما كان يفعله اليهود . . وهذا التحذير بالتالى يقدمه الله لنا كأفراد .

البنوة الحقيقية

أَنَا عَالِمٌ أَنَّكُمْ ذُرِّيَّةُ إِبْرٰهِيمَ . لٰكِنَّكُمْ تَطْلُبُونَ أَنْ تَقْتُلُونِي لِأَنَّ كَلَامِي لَامَوْضِعَ لَهُ فِيكُمْ . أَنَا أَتَكَلَّمُ بِمَا رَأَيْتُ عِنْدَ أَبِي . وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ مَا رَأَيْتُمْ عِنْدَ أَبِيكُمْ . أَجَابُوا وَقَالُوا لَهُ أَبُونَا هُوَ إِبْرٰهِيمَ . قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ لَوْ كُنْتُمْ أَوْلَادَ إِبْرٰهِيمَ لَكُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أَعْمَالَ إِبْرٰهِيمَ . وَلٰكِنَّكُمُ ٱلْآنَ تَطْلُبُونَ أَنْ تَقْتُلُونِي وَأَنَا إِنْسَانٌ قَدْ كَلَّمَكُمْ بِٱلْحَقِّ ٱلَّذِي سَمِعَهُ مِنَ ٱللهِ. هٰذَا لَمْ يَعْمَلْهُ إِبْرٰهِيمُ .

(يوحنا ٨ : ٣٧ ــ ٤٠)

فى هذا النص يتقدم السيد بضربة قاضية إلى ادعاء ، كان اليهود يتمسكون به ويظنون أنه الكل فى الكل فى حياتهم . لقد كان «إبراهيم» بالنسبة لليهودى ، أعلى وأسمى مثال فى تاريخه الحى . وكان اليهودى يعتبر نفسه آمناً مطمئناً فى غنى مراحم الله ، على أساس هذا الحق الأوحد : أنه ابن لإبراهيم . فنحن نجد كاتب المزامير يخاطب إخوته بالقول : «ياذرية إبراهيم عبده . يابنى يعقوب مختاريه» (مزمور ٥ ــ ١ : ٦) » وإشعياء ينادى بلسان الله .. «أما أنت ياإسرائيل .. الذى اخترته نسل إبراهيم خليلى» (إشعياء ٤١ : ٨) . ولقد كان اليهود على حق فى تقديرهم لإبراهيم . فلم تظهر شخصية عملاقة فى

تاريخ الإنسانية ، قدر هذه الشخصية . بل إن اليهود كانوا يعتقدون أن بر «إبراهيم» لايكفيه هو فحسب ، بل يكفى جميع الأجيال من بعده — لقد اعتقدوا أن صلاح «إبراهيم» ،خزلة هائلة تسحب منها الأجيال ولاتفرغ — فى مجادلةيوستينوس الشهيد مع تريفواليهودى،عن الديانة اليهودية واستحقاقاتها نجد «تريفو» يتحدث قائلا : «إنملكوت الأبدىسوف يوهب لنسل «إبراهيم» حسب الجسد ، حتى ولو كانوا خطاة ، غير مؤمنين ، وغير مطيعين لوصايا الله » . أى أن اليهودى كان بالمعنى الحرفى ، يعتبر نفسه فى أمان ، لأنه من نسل «إبراهيم» . مثل هذا الموقف العنصرى الأحمق ، قد نجد له نظائر فى حياتنا الحاضرة ..

(ا) فهناك من يحاولون أن يقيموا أمجادهم ، على اسم أو مركز سابق . فقد يكون ضمن أسرتهم ، أو فى تاريخ العائلة ، من قام للكنيسة بخدمة جليلة ، أو من كانت له خدمته الممتازة ، فى مجال الحياة الاجتماعية ، أو الوطنية ، وهم لذلك يحلمون بمركز ممتاز ، أو يطلبون مقاماً هاماً فى المجتمع ، على هذا الأساس الواحد .. إنهم يقيمون أمجادهم على غيرهم . هذا طريق خاطىء . فلا يمكن أن تكون الأمجاد السالفة ، أو الإسم الحسن ، أساساً لحياة كسولة بلا عمل . بل ينبغى أن تكون دافعاً لصاحبها على تعلية البناء ، والسمو به إلى أعلى ، وبذل مجهود أعظم ، وتحقيق منجزات أسمى .

(ب) وهناك من يحاولون أن يبنوا حياتهم، على أساس تقليد أو تاريخ ، وكم من هيئة مسيحية تظن أن لها رسالتها الهامة ، وخدمتها الفعالة ، لأنها يوماً من الأيام ، فى غابر الزمان ، كانت لها شهرتها ، وكان لها كيانها . كم من كنيسة تقليدية تحيا فى عاصمة أمجاد ماضيها ، وتنبش تراب التاريخ بحثاً عن أمجادها الدفينة التى اندثرت ، وتملأ الدنيا صياحاً، منادية بما كانت

عليه ، ولكن عاصمة أمجاد الماضى : إن لم يتعهدها أبناؤها بالعناية والجهود والعمل ، فمآلها إلى الانهيار والاضمحلال :

لا يمكن لفرد ، أو أمة ، أو هيئة دينية ، أن يحيا ، أو تحيا فى أمجاد الماضى . وهذا ما كان اليهود يحاولونه .. ولقد كان «يسوع» صريحاً معهم . لقد أعلن لهم أن نسل «إبراهيم» الحقيقى ، ينبغى أن يعمل أعمال «إبراهيم» .. أن يحيا حياته .. أن يكون له بر «إبراهيم» وليس أقل من هذا . وبنفس الروح ، نادى المعمدان من قبل . لقد أعلن للشعب أن يوم الدينونة على الأبواب . ولن يغنيهم فتيلا كونهم أبناء «إبراهيم» ، لأن الله فى إمكانه لو أراد أن يقيم من الحجارة أولاداً لإبراهيم ، (راجع متى ٣ : ٩ ، لوقا ٣ : ٨) وعلى نفس الوتيرة تحدث رسول الأمم فى أكثر من موضع من رسائله . فليس الجسد والدم هما نسل «إبراهيم» ، والكيان المادى لايجعل الإنسان سليلا له . إنها المؤهلات الروحية وليس سواها . ولقد كان «يسوع» يمهد للتصريح الذى ينادى به بعد ذلك بأنهم يريدون أن يقتلوه ، وليس هذا الفعل من أفعال «إبراهيم» ، ولا ينتسب إليه فى شىء .. فحينما أرسلت السماء رسولا إلى خليل الله قبله بكل شوق ، وبكل احترام (تكوين ١٨ : ١ – ٨) لقد رحب «إبراهيم» برسول الله . وهاهم ، من يدعون أنهم ذرية «إبراهيم» ونسله ، يرسل الله إليهم إبنه الحبيب «يسوع المسيح» ، فيدبرون المؤامرات لقتله . كيف يتجاسرون أن يلقبوا أنفسهم ذرية «إبراهيم» ، وسلوكهم يناقض سلوكه ؟

هنا نرى حقاً عظيماً ينادى به «يسوع» . فلو وضعنا فى مخيلتنا قصة «إبراهيم» كما وردت فى سفر التكوين ، فإننا نجد «يسوع» ينادى ضمناً بأنه رسول (الله) ، وهو يؤكد هذا الحق بقوله : « ما رأيته عند الآب فإنما أخبركم به » . إن الحق الأساسى فى تعاليم «يسوع» ، هو أنه لم يأت بهذه التعاليم من ذاته ، بل

أنه أتى بها من لدن الآب . فهو لايقدم آراءه الذاتية ، بل كابن الله ، يقدم للبشر فكر الله عن كل ما فى الوجود .

وفى نهاية هذا النص ، يتقدم «يسوع» إليهم بتقرير مؤلم حاسم : « أنتم تعملون أعمال أبيكم» — لقد قال لهم إن «إبراهيم» ليس أباً لهم ، فمن يكون أبوهم إذاً ؟ فى عدد (٤٤) نقرأ الجواب : « أنتم من أب هو أبليس » : إن أباهم ليس أقل من الشيطان نفسه . أولئك الذين كانوا يفخرون أمامه منذ لحظات ، بأنهم أبناء «إبراهيم» ، نجده يجابههم بأقسى إتهام واجههم به إنسان ، إنهم أبناء عدو كل خير . إن أعمالهم تعلن عن بنويتهم ، فسلوكنا ، وأعمالنا ، هى التى تثبت حقاً إن كنا أبناء الله أو أبناء الشيطان ، وليس سوى هذا .

أبناء الشيطان

أَنْتُمْ تَعْمَلُونَ أَعْمَالَ أَبِيكُمْ . فَقَالُوا لَهُ إِنَّنَا لَمْ نُولَدْ مِنْ زِناً . لَنَا أَبٌ وَاحِدٌ وَهُوَ ٱللهُ . فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ لَوْ كَانَ ٱللهُ أَبَاكُمْ لَكُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي لِأَنِّي خَرَجْتُ مِنْ قِبَلِ ٱللهِ وَأَتَيْتُ . لِأَنِّي لَمْ آتِ مِنْ نَفْسِي بَلْ ذَاكَ أَرْسَلَنِي . لِمَاذَا لَاتَفْهَمُونَ كَلَامِي . لِأَنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ أَنْ تَسْتَمِعُوا قَوْلِي. أَنْتُمْ مِنْ أَبٍ هُوَ إِبْلِيسُ وَشَهَوَاتُ أَبِيكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَعْمَلُوا . ذَاكَ كَانَ قَتَّالاً لِلنَّاسِ مِنَ ٱلْبَدْءِ وَلَمْ يَثْبُتْ فِي ٱلْحَقِّ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ حَقٌّ . مَتَى تَكَلَّمَ بِٱلْكَذِبِ فَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُ مِمَّا لَهُ لِأَنَّهُ كَذَّابٌ وَأَبُو ٱلْكَذَّابِ . وَأَمَّا أَنَا فَلِأَنِّي أَقُولُ ٱلْحَقَّ لَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِي .

(يوحنا ٨ : ٤١ — ٤٥)

إستمعنا ليسوع منذ قليل ، يقول لليهود ، إنهم بحياتهم ، وسلوكهم ، وتصرفاتهم إزاءه ، قد كشفوا عن حقيقة ذواتهم ، إنهم ليسوا أبناء لإبراهيم وأنهم يتسلسلون من أب رهيب ، وينتسبون إلى بنوية رهيبة . وكان جواب كبريائهم ، إدعاء يفوق ادعاءهم الأول . لقد نسبوا أنفسهم لله ، وقالوا

عن ذواتهم إنهم أبناء له ، وليس هذا حقاً جديداً نادى به اليهود ، فهو يتكرر تصريحاً أو تلميحاً فى أكثر من موضع من العهد القديم . إننا نقرأ فى أكثر من مكان فى الأسفار المقدسة ، أن الله هو الآب المحب لشعبه . ففى سفر الخروج (٤ : ٢٢) يأمر الله عبده «موسى» أن يجابه فرعون مصر بالقول : « هكذا يقول الرب : إسرائيل إبنى البكر .. فقلت لك أطلق إبنى ليعبدنى » ويوم وقف «موسى» موبخاً ومنذراً لشعب إسرائيل نستمع إليه يقول .. «الرب تكافئون بهذا ياشعباً غبياً غير حكيم ؟ أليس هو أباك ومقتنيك ؟ .. (تثنية ٣٢ : ٦) و «إشعياء» يتحدث عن ثقته فى الله هاتفاً أمامه «تطلع من السموات وانظر .. فإنك أنت أبونا ولينا منذ الأبد إسمك » (إشعياء ٦٣ : ١٥، ١٦) وفى سفر ملاخى يهتف كاتبه : « أليس أب واحد لكلنا ؟ . أليس إله واحد خلقنا ؟ (ملاخى ٢ : ١٠) .

وهكذا لم يكن ادعاء غريباً أن ينادى اليهود بأن الله أب لهم .

« نحن لم نولد من زنى » هكذا هتفوا بكبرياء ؛ وهنا يواجهنا احتمالان . أما الأول فاننا نفسره بالقول ، أن أحب الأوصاف التى أطلقت على امة إسرائيل فى القديم ، هو لقب عروس الرب . لأجل هذا حينما كانت الأمة تنحرف وراء آلهة الأمم ، كانت التهمة التى توجه إليها أنها راحت تزنى وراء آلهة غريبة . إن خيانتها لإلهها ليست أقل من جريمة الزنى الروحى . إنها خيانة لرباط الزوجية المقدس ، الذى ارتبطت به بإلهها . وفى هذه الحالة ، كانت الأمة المنحرفة تلقب « بأبناء زنى » (هوشع ٢ : ٤) . وهكذا حينما نادى اليهود بأنهم ليسوا أبناء زنى ، فقد كانوا يقصدون أنهم لاينتمون إلى امة من عبدة الأوثان ، وأنهم طيلة تاريخهم كانوا يتعبدون للاله الحى الواحد . ويرتبطون به ارتباطاً مقدساً — إدعاء يدعو للدهشة ، ولايمكن أن ينادى به ، إلا أناس تملكهم الغرور والبر الذاتى نظير اليهود :

أما الثانى، فلعل اليهود قصدوا بهذا القول شيئاً يمس حياة «يسوع» الخاصة فى الصميم. فنحن نعرف كيف أن المسيحيين الأولين منذ البداية لم يتوانوا فى المناداة بميلاد المسيح العذراوى المعجزى، وأمام هذا الحق أطلق اليهود أقسى الشائعات عن «يسوع»، وكيف أن العذراء خانت عهد خطيبها وكانت غير أمينة ليوسف، أما ذلك الذى سقطت معه فى غفلة من رجلها، فقد كان جندياً رومانياً يدعونه «بانثيرا» أو «بانديرا» وجاء يسوع نتيجة هذه الصلة الآثمة. — كلام قبيح ما كنا نود أن نثبته فى هذه الصفحات الكريمة. لذلك فمن المحتمل جداً أن اليهود كانوا يعيرون المسيح بأصله غير المعروف، وكأنى بهم يقولون له .. «بأى حق تتجاسر وتوجه لنا مثل هذا الحديث، ونحن نعرف من أين أتيت؟»

ويتجاوز يسوع عن وقاحتهم، ويعود إلى مناقشة إدعائهم بأن الله أبوهم، فيقول لهم: لو كان الله أباً لكم بالحقيقة لكنتم تحبوننى، وترحبون بى، هنا نجد مفتاح البشارة الرابعة، إن المحك الحقيقى لجوهر الإنسان هو موقفه من «يسوع»، فان كان يرى فى «يسوع» كلى الجمال، وإن كانت صورته تبدو فى عينيه الأبرع جمالا من بنى البشر، فهذا الإنسان ولاشك قد اختبر الولادة الجديدة من فوق، وأصبح بالحقيقة إبناً لله. إن له العينين السماويتين المفتوحتين اللتين تبصران مجد الله فى شخص المسيح. وإن كان لايرى فى المسيح جمالا، فإن عينيه مازالتا تغشاهما غشاوة الجهل، إنه لم يولد بعد من الله. فيسوع هو المحك الحقيقى الذى يدين البشر ويظهر معدنهم وحقيقتهم.

وهكذا استمر «يسوع» فى حلقات اتهاماته المترابطة، التى تظهر سامعيه على حقيقتهم، وهو يتساءل قائلا: «لماذا لاتفهمون كلامى، وتدركون

الحق الذى أنادى به؟ » أما الجواب فهو قاس رهيب . إنه لايشير إلى ذهن طبيعى مغلق ، بل إلى صمم روحى رهيب . إن السبب فى عدم فهمهم ، ليس عدم مقدرتهم على الإصغاء ، أو عدم إدراكهم للحق ، بل جمود قاس ، يدفعهم إلى عناد رفض الفهم ، — فى إمكان الإنسان أن يغمض عينيه فى عناد قلبه فلا يبصر ، وأن يصم أذنيه فلا يسمع ، وأن يغلق أحشاءه فلا يصل إليه صوت الضمير الصارخ . فاذا استمر الحال على هذا المنوال وقتاً طويلا ، فان التصامم يصل به أخيراً إلى الصمم الروحى الفعلى . قصارى القول، أن الإنسان يستطيع فقط أن يسمع ما يريد أن يستمع إليه ، فاذا أرهف أذنيه لصوت رغائبه وشهواته ، وإذا عود سمعه على الاتجاه الخاطىء ، فانه فى النهاية لايسطيع أن يوجه أسماعه إلى موجات الصوت الإلهى فتلتقطها وتتأثر بها ، وتصل إلى إطاعتها ، وتمثلها فى حياة مباركة .

ثم يأتى الاتهام اللاذع — إن الآب الحقيقى لليهود هو الشيطان لا سواه ، ويسوع يثبت فى هذا المجال صفتين للشيطان .

(ا) أما الصفة الأولى . فهى روح العمل « قتالا للناس من البدء » وقد تكون فى مخيلة «يسوع » حينما تقدم بهذا القول صورتان . الأولى جريمة «قايين »ضد أخيه «هابيل »، لقد كان «قايين » القاتل الأول فى تاريخ البشرية . ومما لاشك فيه أنه اندفع إلى جريمته المروعة بوحى من الشيطان . أو قد يكون فى فكر «يسوع »، صورة أكثر عمومية وخطورة : صورة الشيطان ، أصل كل خطية وتجربة فى حياة الإنسان ، منذ بدء الخليقة حتى الآن ، وإلى نهاية الدهر . فعن طريق الشيطان دخلت الخطية إلى العالم . وبالخطية الموت . وهكذا اجتاز الموت إلى الجميع إذ أخطأ الكل . (رومية ٥ : ١٣) فلو لم تكن هناك تجربة ، لما كانت هناك خطية ، ولو لم تكن

هناك خطية ماكان هناك موت . فحين تحدث السيد عن الشيطان ، وصوره فى صورة القاتل المجرم الأوحد، فى حياة البشرية جمعاء ربما كان فى فكره أنه أصل كل خطية فى حياة البشر ، وعن طريق الخطية تسلل الموت إلى الجميع ، فأصبح هو ، ولو عن طريق غير مباشر ، سبب وجود الموت فى تاريخ الإنسانية .

وسواء كانت الصورة الأولى المحدودة ، أو الصورة الثانية الرهيبة الشاملة ، فإن الحقيقة واحدة فى كلتا الصورتين : الشيطان هو أصل الموت وأن المسيح رئيس الحياة لأنه أصل الحياة ، وواهب الحياة ، وحافظ الحياة .. إن الشيطان هو قاتل البر والطهارة والصلاح والنقاوة والجمال فى حياة الأنسان ، وكل مامن شأنه أن يجعل الحياة حلوة مباركة مجيدة سامية . بل إن الشيطان يقتل سلام العقل، وراحة الضمير ، وسعادة القلب .. بل إنه هو عدو المحبة وقاتلها فى حياة الإنسان .

الشيطان فى جوهره هدام قتال، والمسيح فى طبيعته بناء واهب الحياة . الشر يقتل ، والمسيح يحيى .. الشر يأتى بالموت ، والمسيح يهب الحياة . كان اليهود يدبرون الخطط ، ويحيكون المؤامرات لقتل المسيح . فى الوقت الذى جاء فيه المسيح إلى العالم نوراً وحياة للناس . وهكذا نرى أنهم كانوا يسلكون طريق أبيهم الشيطان ، عدو الحياة والخير .

٢ — والصفة الثانية للشيطان ، الكذب ، فهو أصل كل كذب وخداع وباطل ، الكلمة الغاشة والفكر الباطل ، والحديث الملتوى ، والكذب الأبيض أو الأسود ، كما يصوره الناس ، كل هذا مصدره الشيطان ، إن كل كذبة وليدة إبليس ، تعمل عمل إبليس وتخدم مقاصده الرديئة ، فالكذب يبغض الحق ، ويحاول أن يهدمه ، لهذا السبب أبغض اليهود

يسوع ، فحينما التقى اليهود وجهاً لوجه مع رب المجد ، كان لقاء الليل بالنهار .. الظلمة بالنور .. الكذب بالحق . وكان طبيعياً أن يبغض الليل والظلمة والكذب ، النور والحق ، ويحاول أن ينتصر عليه ويبدده .

لقد وسم «يسوع» اليهود بميسم البنوة للشيطان ، لأن أفكارهم كانت تتجه إلى هدم كل صلاح ، وتعضيد كل ماهو كذب وضلال . وكل من يحاول أن يقف فى وجه الحق ويهدمه ، يعمل عمل عدو الخير .

الإتهام القاسى ، والإيمان اللامع

مَنْ مِنْكُمْ يُبَكِّتُنِي عَلَى خَطِيَّةٍ . فَإِنْ كُنْتُ أَقُولُ ٱلْحَقَّ فَلِمَاذَا لَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِي . ٱلَّذِي مِنَ ٱللهِ يَسْمَعُ كَلَامَ ٱللهِ . لِذٰلِكَ أَنْتُمْ لَسْتُمْ تَسْمَعُونَ لِأَنَّكُمْ لَسْتُمْ مِنَ ٱللهِ .

فَأَجَابَ ٱلْيَهُودُ وَقَالُوا لَهُ أَلَسْنَا نَقُولُ حَسَناً إِنَّكَ سَامِرِيٌّ وَبِكَ شَيْطَانٌ . أَجَابَ يَسُوعُ أَنَا لَيْسَ بِي شَيْطَانٌ لٰكِنِّي أُكْرِمُ أَبِي وَأَنْتُمْ تُهِينُونَنِي . أَنَا لَسْتُ أَطْلُبُ مَجْدِي . يُوجَدُ مَنْ يَطْلُبُ وَيَدِينُ .

(يوحنا ٨ : ٤٦ — ٥٠)

هذا النص يحتاج منا أن نحاول تصوير ما حدث وكأنه يجرى أمام عيوننا . هنا مسرحية تجرى أحداثها أمامنا . والمسرحية لا تكمن فى الكلمات فحسب ، بل نستطيع أن نراها بين السطور .. فى وقفات السكون . إن يسوع يبدأ بالمناداة بحق جبار : « هل بينكم من يستطيع أن يكتشف خطأ فى حياتى ؟ من يضع أصبعه على نقطة سوداء ؟ هل بينكم من يستطيع أن يوجه إلى أدنى اتهام ؟ » ولابد وأن فترة من السكون قد مرت بعد هذه الكلمات ، فيها جال السيد ببصره بين الجموع ، هنا ، وهناك ، باحثا عمن يقبل التحدى ، ويفتح عينه فى نور شمس البر والنقاء . ويستمر الصمت

دون أن يجرؤ واحد على رفع رأسه . ولابد وأن كل واحد ، قد أجهد ذاكرته ، وخاصة بين المقاومين ، ولكن دون جدوى . وحينما يعجز الجميع عن الجواب ، ويرين عليهم الصمت ، يتحدث إليهم «يسوع » قائلا : «إن كنتم تعترفون بأنه لا عيب فى ، فلماذا لاتقبلون كلامى ؟ هنا يسود الصمت مرة أخرى ، فيعود «يسوع » إلى محاجيهم بالقول : أنتم لا تقبلون كلامى لأنكم لستم من الله ، وروح الله لا يسكن فيكم ... ترى ماذا يقصد يسوع حين وجه هذا الاتهام إلى اليهود .؟

الجواب أنه لايوجد اختبار يتغلغل فى أعماق قلب الإنسان وفكره ، مالم يوجد فى الداخل ما يتجاوب معه ... مالم يكن هناك الاستعداد الداخلى لقبول هذا الاختبار . فإذا لم يكن هذا الأستعداد الداخلى موجوداً ، فمن المحتمل جدا ألا يتم هذا الاختبار . لنأخذ على سبيل المثال حالة انسان فقد حاسة السمع . كيف به يستمتع بأنغام سيمفونية رائعة لموسيقار عظيم نظير بيتهوفن ؟ أو لنأخذ حالة إنسان مصاب بداء عمى الالوان ، كيف نطلب منه أن يميز الألوان الأخاذة فى تحفة رائعة لمايكل أنجلو . وهكذا حينما يحل روح الله فى قلب الأنسان فإنه يعمل عملين : العمل الأول ، أنه يكشف حق الله للأنسان ويعلنه له ، والثانى ، انه يعين الأنسان على تمييز ذلك الحق وإدراكه والتمسك به . هذا يعنى بكل جلاء ، أنه مالم يحل روح الله فى قلب الأنسان فلن تكون للأنسان المقدرة على معرفة حق الله أو التمسك به . وهو يعنى أيضاً أنه حين يغلق الإنسان قلبه فى وجه روح الله ويسلك وراء شهوات قلبه ، ومسرات نفسه ، حتى لايترك مجالا لروح الله للسيطرة عليه ، فإنه حينما يرى الحق أمامه واضحا جليا لا يستطيع أن يميزه ، أو يدركه أو يتمسك به .

لقد كان «يسوع» يقول هنا لليهود ما معناه . « لقد سلكتم حسب شهواتكم . واتبعتم مشورة قلوبكم . لقد صنعتم من الذات صنما تبخرون له وتتعبدون . وهكذا لن يستطيع روح الله أن يصل إلى أعماقكم ، لأنه وجد أبواب قلوبكم موصدة أمامه ، لهذا السبب فقدتم نعمة التمييز الروحى فلم تستطيعوا أن تعرفونى ، أو تدركوا تعليمى . »

إن اليهود فى كل الأجيال والعصور ، شعب متدين ، ولكن العيب يكمن فى تمسكهم بأفكارهم .. بآرائهم .. بدلا من التمسك بفكر الله . وتعاليمه . وهذا العيب ، هو السر فى ابتعادهم عن الله ، حتى أصبحوا شعبا بلا إله . وفى نفس الوقت الذى يظنون فيه أنهم يخدمون الله صاروا بلا إله .

ولقد كان اتهاما قاسيا حين جاء «يسوع» ، ليواجه هذا الشعب المتدين بالقول بأنهم غرباء عن الله ، لاغرابة إن كان فى هذا أقسى إتهام يثير حافظتهم . وهكذا فى قحة مجنونة راحوا يوجهون إليه السباب . « أليس حسنا ما نقوله عنك أنك سامرى ، وبك شيطان » ترى ماذا يقصدون بكلمة سامرى . إنها تعنى قبل كل شئ أنه عدو لأسرائيل .. فقد كانت العداوة مستعرة بين اليهود والسامريين . وهى تعنى أيضاً أنه منكر للناموس ، ومحطم لبنوده شأنه شأن السامريين . وأقسى ما تعنيه كلمة سامرى أنه هرطوقى . فقد أصبحت الكلمتان مترادفتين فى عرف اليهود . شى رهيب أن يوجه مثل هذا اللقب المشين لمعلم الأجيال . لكنها حقيقة مرة نستقيها من واقع الظرف ، إنه لو ظهر رب المجد ثانية ، ونادى بتعاليمه بين طوائفنا ، وكنائسنا ، ووقف فى

وجه بعض التقاليد الباطلة ، لما ناله منا أقل مما ناله من اليهود . ولوجهنا إليه نفس التهمة الوقحة .

على أنة من المحتمل أن الكلمة التى ترجمت سامرى ، هى ترجمة محرفة – للكلمة – الأصلية . ونحن نلاحظ أن «يسوع» أجاب على التهمة الثانية ولم يجب على الاتهام الأول . إنه رد على اتهامهم : «بك شيطان» . ولكنه لم يجب على قولهم : «انك سامرى» . وهذا يدفعنا للعجب . على أن الاحتمال الذى اشرنا إليه، هو أن تكون الكلمة مترجمة خطأ عن الأصل . فى الأصل الآرامى ، وردت الكلمة « شومیرونی » . وهى لقب من القاب رئيس الأبالسة ، نظير القاب اشمداى . وشمائيل ، وشيطان . وضمن آيات القرآن، نقرأ أن اليهود قد انحرفوا عن عبادة الله ، إلى عبادة الأوثان بأغراء شومیرون رئيس الأبالسة . وهكذا إن كانت الكلمة على هذه الصورة ، يكون المعنيان مترادفين : « السنا نقول حسنا إنك ابن أبليس « شومیرون » وبك شيطان ؟ » ويجيبهم «يسوع» : « انى ابعد من أن اكون ابنا لعدو الخير . فانا اكرم الله ، وأنتم بسلوككم المنحرف تهينون الله . فمن منا به شيطان ؟ ومن منا يلقب بأسماء الأبالسة؟ انتم ولا شك ،لأن اعمالكم الشريرة تشهد عليكم بحق . ثم تأتى قمة الأعلان عن ايمان «يسوع» حين يقول «مجدا من الناس لست أقبل» انى لا ابحث عن المجد فى هذا العالم . انى اعرف أن مصيرى هو الرفض، والهوان، والعار ، و الصليب . ولكن سيأتى اليوم الذى يوضع فيه كل فى موضعه . سيأتى اليوم الذى يضع فيه الآب تاج المجد على جبين من يستحق . إنه سيهبنى المجد الحقيقى ، الذى هو مجده » . لقد كان يسوع واثقا بنهاية الأشياء .. كانت له النظرة البعيدة المدى التى تخترق الأجيال ، وتصل إلى ماوراء الدهور –

فى الزمن لم يكن له سوى العار والهوان .. وفى الأبد ، كان يرى التيجان التى تنتظره ، وتنتظر كل من يطيع الآب السماوى ويمجد اسمه فى غير فساد ..

لقد كان ليسوع التفاؤل العظيم ، النابع من إيمانه العظيم ، التفاؤل الذى يتعمق ويتأصل فى الأله الحى .

ٱلْحَقَّ ٱلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَحْفَظُ كَلَامِي
فَلَنْ يَرَى ٱلْمَوْتَ إِلَى ٱلْأَبَدِ . فَقَالَ لَهُ ٱلْيَهُودُ ٱلْآنَ
عَلِمْنَا أَنَّ بِكَ شَيْطَاناً . قَدْ مَاتَ إِبْرٰهِيمُ وَٱلْأَنْبِيَاءُ .
وَأَنْتَ تَقُولُ إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَحْفَظُ كَلَامِي فَلَنْ يَذُوقَ
ٱلْمَوْتَ إِلَى ٱلْأَبَدِ . أَلَعَلَّكَ أَعْظَمُ مِنْ أَبِينَا إِبْرٰهِيمَ ٱلَّذِي
مَاتَ . وَٱلْأَنْبِيَاءُ مَاتُوا. مَنْ تَجْعَلُ نَفْسَكَ . أَجَابَ يَسُوعُ
إِنْ كُنْتُ أُمَجِّدُ نَفْسِي فَلَيْسَ مَجْدِي شَيْئاً . أَبِي هُوَ ٱلَّذِي
يُمَجِّدُنِي ٱلَّذِي تَقُولُونَ أَنْتُمْ إِنَّهُ إِلٰهُكُمْ وَلَسْتُمْ تَعْرِفُونَهُ.
وَأَمَّا أَنَا فَأَعْرِفُهُ . وَإِنْ قُلْتُ إِنِّي لَسْتُ أَعْرِفُهُ أَكُونُ
مِثْلَكُمْ كَاذِباً . لٰكِنِّي أَعْرِفُهُ وَأَحْفَظُ قَوْلَهُ .

(يوحنا ٨ : ٥١ — ٥٥)

هذه الفقرة تنقلنا من مجد إلى مجد . فبين سطورها نلمح إعلانات تشبه ومضات البرق تتألق الواحدة بعد الأخرى . هنا يتقدم «يسوع» متحدثا عن ذاته بإعلان بعد إعلان ، الواحد أعظم من الذى يسبقه . فالذى يسمع كلامه ويؤمن به ويطيعه لا يرى الموت . وكان هذا الإعلان صدمة كبرى

اليهود . لقد قال زكريا النبى « آباؤكم أين هم . والأنبياء هل أبداً يحيون . »

(زكريا ١ : ٥)

لقد انتهت حياة إبراهيم : والأنبياء أيضا رقدوا تحت التراب ، ألم يحفظوا فى يومهم وفى جيلهم وصايا القدير . فمن يكون «يسوع» حتى يضع نفسه فى مركز أرفع من أبطال الإيمان هؤلاء ؟ لقد كان اليهود يتمسكون بحرفية الكلام . وفى هذا كانت عثرتهم . كان ضيق فكرهم هو السر فى غباوتهم وعدم فهمهم . فلم يكن «يسوع» يتحدث عن الحياة المادية ، والموت المادى . لقد كان يقصد بقوله هذا أن الإنسان الذى يقبله لا يوجد ما يسمى بالموت بالنسبة له . لقد فقد الموت حتميته بالنسبة له . إن الذى يدخل فى شركة الحياة الأبدية مع «يسوع» ، قد دخل فى شركة بعيدة كل البعد عن الزمن ، لا تنطبق عليها المقاييس الزمنية الذى يقبل «يسوع» قد دخل فى شركة مع ، الله لا يستطيع الزمن ولا الأبد ، ان يسيطرا عليها او يحطماها بأية صورة . مثل هذا الإنسان لا ينتقل من حياة إلى موت ، بل من حياة إلى حياة . وما الموت إلا المدخل الذى يوصله إلى صلة أقرب إلى إلهه .

ويتطرق السيد فى حديثه ، من هذه العقيدة ، ليقدم حقا عظيما بعد ذلك : إن كل اكرام حقيقى منبعه هو الآب . فليس من الصعب العسير ان يكرم الإنسان نفسه ، فى استطاعة كل إنسان أن يحيط نفسه بهالة من المجد المصطنع هذا شىء يسير ، ولكنه فى نفس الوقت خطير ، أن يحيا الإنسان فى نور أحلام رضاه ، وليس من العسير ايضا كسب مديح البشر ، فالعالم يكرم الناجحين الطموحين . ولكن المجد الحقيقى ، هو الذى تعلنه الأبدية وليس الزمن . فمقاييس الأبدية تختلف عن مقاييس الزمن .

ثم ينادى «يسوع» بدعامتين أساسيتين فى حياته . .

١ – فهو وحده الذى له المعرفة الفريدة بالله . إنه وحده الذى يعرف الله كما لم يعرفه مخلوق قبله ، وكما لن يعرفه إنسان بعده . بل الأكثر من ذلك إن اراد أحدا أن يصل إلى معرفة حقيقيه بالله فلا سبيل آخر له غير طريق المسيح . إنه وحده الطريق المؤدى إلى معرفة الله الحقيقية . قدنستطيع أن نصل بعقولنا إلى معرفة جزئية سطحية عن الله . ولكن المعرفة الكاملة تأتى عن طريق المسيح . فهو وحده إعلان الله الكامل للبشر وفيه تتمثل صورة الله فى ملء جلالها وسموها .

٢ – وهو أيضا وحده الذى وصل إلى الطاعة الكاملة لله . إنه وحده الذى يحفظ وصايا الله بلا نقص . وهكذا حين يتأمل الإنسان حياة «يسوع» يستطيع أن يقول : «هذه هى الصورة المباركة ،التى يريدنى الله ان أكون على مثالها» ، وإذ يتمثل به يصل إلى كمال خدمة الله .

فى «يسوع» وليس فى سواه ، نعرف ما يريدنا الله أن نصل إلى معرفته وفى «يسوع» وليس فى سواه ، نصل إلى ما يريدنا الله أن نكون عليه .

الادعاء الكبير

أَبُوكُمْ إِبْرٰهِيمُ تَهَلَّلَ بِأَنْ يَرَى يَوْمِي فَرَأَى وَفَرِحَ . فَقَالَ لَهُ ٱلْيَهُودُ لَيْسَ لَكَ خَمْسُونَ سَنَةً بَعْدُ أَفَرَأَيْتَ إِبْرٰهِيمَ . قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ ٱلْحَقَّ ٱلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ إِبْرٰهِيمُ أَنَا كَائِنٌ . فَرَفَعُوا حِجَارَةً لِيَرْجُمُوهُ . أَمَّا يَسُوعُ فَٱخْتَفَى وَخَرَجَ مِنَ ٱلْهَيْكَلِ مُجْتَازاً فِي وَسْطِهِمْ وَمَضَى هٰكَذَا

(يوحنا ٨:٥٦ — ٥٩)

إن كل التصريحات السابقة التي نطق بها «يسوع» ، تبدو كألسنة من البرق الخاطف ، إزاء هذا التصريح المتوهج اللامع . فحينما تحدث «يسوع» بأن إبراهيم ، رجل الطاعة والإيمان ، تطلع فرأى يومه ، فابتهج بفرح لا ينطق به ، كان يتحدث إلى اليهود باللغة التي يفهمونها . لقد كان اليهود يحيطون إبراهيم بأكثر من قصة من قصص الإيمان، وعن طريق هذه الصور نستطيع أن ندرك ما يهدف إليه «يسوع» في حديثه معهم على هذه الصورة . ولو طلبنا من اليهود أن يفسروا لنا هذه الفقرة ، لقدموا لنا خمسة احتمالات في طريق تفسيرها ..

(ا) فابراهيم منذ نهاية حياته على الأرض حتى ذلك الحين ، يحيا في الفردوس ،

وفى امكانه أن يرى كل ما يجرى على الأرض ، وإذا رجعنا الى مثل الغنى ولعازر الذى تقدم به السيد ، نراه ينحو نفس المنحى .

(لوقا ١٦ : ٢٢ — ٣١)

(ب) ولكن ليس هذا هو التفسير الصائب الذى كان «يسوع» يقصده ، لقد قال «يسوع» : أبوكم «ابراهيم» تهلل .. فرأى وفرح بصيغة الماضى ، واليهود يفسرون بعض نصوص التوراة بطريقة تشرح لنا هذا القول . لقد كانوا يفسرونه فى نور الوعد الذى نطق به الرب لأبراهيم (تكوين ١٢ : ٣) «فى نسلك تتبارك جميع قبائل الأرض» .

ويقول أحبار اليهود إنه حينما أعطى الرب هذا الوعد لعبده ، كان يقصد الأشارة الى أن المسيا الذى فيه تتبارك جميع الأمم والشعوب ، سوف يأتى من أحشائه ، وهكذا فاض قلبه بالفرح والتهليل فى ضوء أمجاد هذا الوعد المبارك .

(ج) وهناك بعض الأحبار يرجحون أن الرؤيا التى رآها «ابراهيم» كما أثبتت فى (تكوين ١٥ : ٨ — ٢١) ، قد اعلن له فيها كل مستقبل الأمة اليهودية وهكذا لابد وأنه راى عهد المسيا المشرق بالرجاء .

(د) والبعض يتجهون إلى ما ورد فى (تكوين ١٧ : ١٧) الذى يخبرنا كيف أن «إبراهيم» ضحك حينما سمع بأنه سيكون له ابن ، ولم تكن هذه الضحكة ، ضحكة السخرية او عدم الإيمان ، بل كانت ضحكة البهجة والتهليل حينما رأى بان المسيا سوف يأتى من نسله .

(هـ) وهناك تفسير آخر خيالى يتجه إليه البعض ، استناداً إلى ما ورد فى

(تكوين ٢٤ : ١) : « وشاخ إبراهيم وتقدم فى الأيام » ، وعلى هذا الأساس يتصورون أن كلمة تقدم فى الأيام ، تعنى أنه دارت به عجلة الزمن ، فوصل إلى الأحقاب القادمة ، ورأى فى تاريخ أمته يوم المسيا وعهده المجيد !

من هذه الصور مجتمعة ، نستطيع أن ندرك بوضوح ، أن اليهود كانوا يؤمنون بأن إبراهيم فى حياته ، بصورة أو بأخرى ، قد كانت له الرؤيا عن تاريخ اسرائيل ، وعن عهد المسيا . وهكذا حينما قال المسيح ، إن «إبراهيم» قد رأى يومه وفرح ، كان يؤكد ضمنا ، أنه ليس أقل من المسيا المنتظر » رجاء اليهود فى كل العصور والأجيال . .

فالمسيح يقصد هنا أن يقول لسامعيه : « إنكم تؤمنون بأن ابراهيم قد وهبه الله الرؤيا عن يوم المسيا وأنه رآه . لقد رأى خليل الله يومى . . رآنى منذ آلاف السنين » . « أبوكم إبراهيم تهلل بأن يرى يومى فرأى وفرح » .

أما بعض المسيحيين الأولين فلهم تفسير خيالى للغاية . فهم يتجهون إلى ما ورد فى رسالة بطرس الأولى (٤ : ١٨ — ٢٢) و (٥ : ٦) ، إلى الفقرتين الغامضتين ، اللتين منهما نشأت عقيدة نزول المسيح إلى الهاوية ، واللتين بسببهما دخلت كلمة «ونزل إلى الجحيم» ضمن قانون الأيمان المسيحى . ومن الملاحظ أن الكلمة التى ترجمت «الجحيم» هى فى الأصل «هادز» أى الهاوية . فكلمة جحيم تعطى الفكرة الخاطئة ، بأن المسيح قد ذهب إلى مكان العذاب المخصص للأشرار والعصاة حيث يتعذب الأثمة والفجار . إن الهاوية فى الفكر اليهودى ، هى أرض الأشباح ، أو الأرواح ، الخيرة والرديئة على حد سواء ... أرض الأخيلة التى آمن اليهود بوجودها ، قبل أن يشرق عليهم الاقتناع الكامل بالخلود . وضمن أحد كتب أبوكريفا العهد الجديد ، ويعرف باسم انجيل

نيقوديموس أو أعمال بيلاطس ، نجد فقرة تشير إلى روح إبراهيم،وكيف تهلل حينما اشرق نور «يسوع » على أرض الظلمة وظلال الموت ،وحينما نزل المسيح إلى أرض الموتى .

القصة تبدأ يوم صلب المسيح ، حين يظهر اثنان من الموتى الذين استيقظوا يوم تشققت القبور ،وقام كثيرون من الراقدين . وهذان يرويان ما حدث هناك فى وادى الأرواح ، فيبدآن القصة بالقول . .

«أيها الرب يسوع المسيح ، ياقيامة وحياة كل الوجود . هبنا نعمتك حتى نخبر بقيامتك ، وبالأعمال العجيبة التى قمت بها فى وادى الموتى فى الهاوية . لقد كنا معهم جميعا . . . مع اولئك الذين رقدوا منذ بدء الخليقة . وفى ظلمة نصف الليل التى كانت تسود هناك ، أشرق نور كنور الشمس فى وقت الظهيرة وأضاء كل شىء حتى استطعنا أن يرى أحدنا الآخر .

وعند ذاك هتف أبونا إبراهيم مع الآباء والأنبياء بفرح عظيم : «هذا النور يأتى من النور العظيم المشرق على العالم كله » .

وهكذا نرى فى هذه القصة ، كيف أن الموتى رأوا «يسوع » وأعطيت لهم الفرصة ليتوبوا عن خطاياهم ، ويؤمنوا به ،حتى لا يكون لأنسان أدنى عذر فى يوم الدين. إنه لم ير المسيح ولم يسمع عنه . . . وضمن الأرواح التى شاهدت هذا المنظر البهيج «إبراهيم » ، فرأى وتهلل وفرح . . .

هذه الآراء قد تبدو غريبة لدينا .ولكنهالم تكن كذلك بالنسبة لسامعيها . ولقد أفضنا فى ذكر الصور ، التى دعت اليهود إلى الإيمان ، بأن إبراهيم رأى يوم المسيا ،ومع ذلك استمر اولئك فى عنادهم وتمسكهم بحرفية الكلام ،

فهتفوا معترضين بالقول : « ليس لك خمسون سنة بعد فكيف رأيت إبراهيم ! » ولماذا عدد الخمسين ؟ لقد كانت سن الخمسين هى السن التى يعتزل فيها اللاويون الخدمة (عدد ٤ : ٣) . ولذلك فقد قصدوا أن يقولوا ليسوع : «إنك بعد شاب فى عنفوان قوتك ، ولم تصل بك السن إلى اكتمال خدمتك . فكيف رأيت إبراهيم؟ هذا كلام مختل فقد عقله » . فاذا بيسوع يجابههم بأروع شهادة صريحة نطق بها عن نفسه : « قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن» إن السيد رب المجد الأزلى لا يقول هنا « قبل أن يكون إبراهيم أنا كنت » بل ينادى « أنا كائن» إشارة إلى أزليته ، وأبديته ، وعدم تقيده بحساب الزمن .

فالزمن لا يحده. لا نعلم أنه وجد وقت لم يكن هو فيه ، ولن يوجد زمان ينقطع هو فيه عن الوجود . لا ينبغى أن يقال عن يسوع : لقد كان ، ينبغى أن تقول عنه هو الكائن .

ترى ماذا يعنى «يسوع» بقوله هذا ؟

إنه لا يعنى بالطبع أن «يسوع» الناسوت قد وجد منذ الأزل .

فنحن نؤمن أن «يسوع» بالجسد مقيد ببدء . فهو قد ولد فى بيت لحم . ولكن المقصود أعمق من هذا . لا يوجد فى الوجود كله إلا واحد لا يتقيد بالزمن. لا يوجد إلا واحد هو اسمى من مقاييس الزمن ، واعمق من أن تصل إليه حدود الوقت . . إنه وحده الذى يستطيع أن يقول عن نفسه : أنا الكائن الكائن . . أهيه الذى أهيه .

وهذا الواحد هو الله . .

لقد كان يسوع يقول لليهود « إن وجودى ليس أقل من وجود الله . وحياتى ليست أقل من حياة الله . وفى كيانى يمتزج الأزل بالأبد ، بصورة تسمو على مقاييس الزمن المادى . أو كما عبر عن ذلك كاتب العبرانيين بصورة أكثر بساطة : «أمسا ، واليوم ، وإلى الأبد» . فى يسوع نرى ليس فقط ابن الإنسان الذى جاء إلى عالمنا ، وجال بين الناس يصنع خيراً ، وانتهت حياته بالصليب . . لكن فيه نرى الاله غير المحدود بالزمن .. إله إبراهيم واسحق ويعقوب . . الذى كان قبل أن يكون الزمن ، والذى يكون بعد أن يبتلع الزمن فى الأبد . . هو الكائن على الدوام . . فى يسوع اعلن الاله السرمدى ذاته للبشر . .

ٱلْأَصْحَاحُ ٱلتَّاسِعُ

نور للعيون المظلمة

وَفِيمَا هُوَ مُجْتَازٌ رَأَى إِنْسَاناً أَعْمَى مُنْذُ وِلاَدَتِهِ . فَسَأَلَهُ تَلاَمِيذُهُ قَائِلِينَ يَامُعَلِّمُ مَنْ أَخْطَأَ هٰذَا أَمْ أَبَوَاهُ حَتَّى وُلِدَ أَعْمَى . أَجَابَ يَسُوعُ لاَ هٰذَا أَخْطَأَ وَلاَ أَبَوَاهُ لٰكِنْ لِتَظْهَرَ أَعْمَالُ ٱللهِ فِيهِ . يَنْبَغِي أَنْ أَعْمَلَ أَعْمَالَ ٱلَّذِي أَرْسَلَنِي مَا دَامَ نَهَارٌ . يَأْتِي لَيْلٌ حِينَ لاَيَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَعْمَلَ . مَا دُمْتُ فِي ٱلْعَالَمِ فَأَنَا نُورُ ٱلْعَالَمِ

(يوحنا ٩ : ١ – ٥)

هذه هي المعجزة الوحيدة في البشائر ، التي كان فيها المريض مصاباً منذ ولادته . في سفر الأعمال نجد أيضاً حالتين قيل عنهما إنهما كانا عاجزين منذ ولادتهما : الأعرج من بطن أمه الذي كان يستعطي عند باب الهيكل الذي يقال له الجميل (أعمال ٣ : ٢) وكذلك المقعد من بطن أمه في مدينة لسترة (أعمال ١٤ : ٨) . وهذا الإنسان هو الوحيد في البشائر الذي ورد عنه أنه أعمى من بطن أمه . ولعله كان شخصاً معروفاً للجميع لأن التلاميذ كانوا يعرفون كل شيء عنه . وحينما رأوه

انتهزوا الفرصة ليستوضحوا من معلمهم مشكلة كانت تشغل بال الفكر اليهودى ، كما أنها مازالت تشغل بال البعض منا فى وقتنا الحاضر : مشكلة الألم وعلاقته بالخطية . لقد كان اليهود يقرنون بلا تردد، آلام الإنسان بخطاياه . كانوا يستندون على أساس أنه حيثما وجد الألم فلا بد وأن تكون هناك الخطية .

« هذا الإنسان أعمى » هكذا تساءلوا «هل هذه الإصابة نتيجة لخطاياه، أم أوقعها الله عليه عقاباً لخطايا ارتكبها أبواه ؟ » أما كونه أخطأ ، فهذا غير منطقى ، لأن العمى أصابه منذ ولادته . ترى بماذا يجيب أحبار اليهود على هذا التساؤل ؟

١ — البعض يتمسكون بعقيدة غريبة عن خطايا ماقبل الولادة . فهم يعتقدون أنه فى الإمكان أن يبدأ الإنسان فى ارتكاب خطاياه حتى ولو لم يولد بعد ! وهو فى بطن أمه . وضمن الأدب اليهودى القديم ، وردت محادثة خيالية بين المدعو «أنطونيوس» وبين الحبر «يهوذا» البطريرك فيها يسأله الأول : من أى وقت يبدأ الشيطان عمله منذ لحظة تكوينه فى بطن أمه ، أم منذ ولادته؟ فيجيبه الحبر اليهودى «منذ أن يبدأ تصوره فى البطن» ويعترض أنطونيوس على هذا الرأى ، محاولا بالحجة أن يقنع محدثه بخطأ رأيه ، فيقول « لو كان الشر يبدأ منذ تكوين الجنين» ، لتضايق الجنين من السجن الذى يحيا فيه ، وراح يرفس ويمزق أحشاء أمه وربما أدى ذلك إلى موتها ، أو إلى خروجه قبل الأوان ، أما الحبر فيبحث فى كتب الناموس فلا يجد إلا الآية الواردة فى سفر التكوين (٤ : ٧) « هناك خطية رابضة عند الباب » أى أنه عند باب الرحم تكمن الخطية منتظرة اللحظة التى يتكون فيها الإنسان ، ملازمة إياه طيلة فترة الحمل ، مولودة معه بولادته . ولعل مثل هذا الفكر

كان يراود مخيلة المرنم حينما نطق بالقول المعروف : « بالآثام صورت وبالخطية حبلت بى أمى » لقد كانت لليهود الفكرة عن بداية الخطية منذ بداية حياة الإنسان ، وتكوينه .

٢ ـ وفى عصر المسيح ، تأثر اليهود بالثقافة اليونانية أيما تأثر وبنظريات «أفلاطون» عن الوجود السابق لروح الإنسان . وهكذا آمنوا بأن أرواح جميع الأجيال كانت موجودة منذ البدء فى جنة عدن ، قبل خلق العالم ، وقال آخرون إنها كانت فى السماء السابعة ، بينما اعتقد غيرهم بأنها كانت فى مكان غير معروف أعده الله لها ، وهى تنتظر وجود الجسد وتكوينه لتدخل فيه ، وكان اليونانيون يعتقدون أيضاً ، وعنهم نقل اليهود أن هذه الأرواح خيرة بطبيعتها وأنها لا تتلوث إلا عند دخولها الأجساد ولكن بعض اليهود آمن أن هناك أرواحاً طيبة وأخرى غير صالحة ، وضمن سفر الحكمة ، وهو أحد الأسفار الأبوكريفية نقرأ القول .. « كنت طفلا طيباً بطبيعتى ، وكان من نصيبى النفس الطيبة » (حكمة ٨ : ١٩) .

عصر المسيح ، كان البعض يؤمنون بأن المصائب التى تحل منذ ولادته هى بسبب خطايا نفس رديئة اتحدت به ـ عقيدة غريبه ولا شك ، لا يمكن أن يقبلها العقل . ولكن من خلفها تكمن عقيدة العالم الذى وضع فى الشرير .

وحسب عقيدتهم قد يكون من الجانب الآخر خطايا الوالدين . إن الفكر بأن الأطفال يرثون نتيجة خطايا والديهم ، نجده منتشراً فى صفحات العهد القديم . « أنا الرب إلهك إله غيور ، افتقد ذنوب الآباء فى الأبناء فى الجيل الثالث والرابع .. (خروج ٢٠ : ٥ ، ٣٤ : ٧ ، عدد ١٤ : ١٨) وعن الإنسان الشرير ، وهى نبوة طبقت فيما بعد على «يهوذا الأسخريوطى»

الذى أسلم سيده ، نجد المرنم يقول : « ليذكر إثم آبائه لدى الرب ولا تمح خطية أمه » ..(مزمور ١٠٩ : ١٤) ، يتحدث «إشعياء» بلسان الله عن خطايا الشعب وخطايا الآباء قائلا : هكذا اكتبت أمامى ولا أسكت.بل أجازى . آثامكم وآثام آبائكم معاً » (إشعياء ٦ : ٦ ، ٧) لقد كان أحد مفاتيح عقيدة العهد القديم ، أن الأطفال يرثون خطايا والديهم . ولسنا ننكر أن شر الإنسان لايكون وقفاً على ذاته : وأن نتائج فعاله لاتحيق به فحسب ، بل بالآخرين أيضاً ، وعلى الأخص أبنائه فلا أحد يحيا لذاته ، ولاأحد يموت لذاته ، وحينما يخطىء الإنسان فإنه ينشر سلسلةمن النتائج ،التى لايعلم مدى تأثيرها إلا الله .

نور للعيون المظلمة (تابع) (يوحنا ٩ : ١ — ٥)

وإذ نتقدم فى دراستنا لهذه الفقرة يتضح أمامنا مبدآن أساسيان :

١ — فنحن نرى «يسوع» لا يحاول أن يستجلى غوامض العلاقة بين الخطية والألم ، أو يفسر مدلولها . بل يقول لتابعيه إن الآلام قد حلت بهذا الإنسان لكى يعطى فرصة لقدرة الله لتظهر فيه ، حتى يتمجد الله بواسطته . وهذا حق يتمشى مع منطق البشارة الرابعة فى صورتين .

(ا) فالمعجزة فى عرف «يوحنا» هى علامة قوة الله ومجده. البشائر الثلاث الأخرى تتجه اتجاهات أخرى فى تفسيرها للمعجزة . فهى ترى فيها فيض حنان يسوع من نحو المتألم والمحتاج . فحين قام «يسوع» بمعجزة اشباع الجماهير فذلك لأنه رأى الجمرع الجائعة وتحنن عليها لأنهم كانوا كغنم لاراعى لها (مرقس ٦ : ١٤) . وحينما أتى المريض المصاب بالبرص بحالته الرهيبة إلى طبيب الأنسانية الأعظم ، طالبا منه التطهير ، نجد «يسوع» يتحنن عليه ويمد يده ويبرئه (مرقس ١ : ٤١) .

وهنا نرى منطق البشارة الرابعة فى تفسيرها للمعجزة يغاير المنطق التفسيرى الذى درج عليه البشيرون الآخرون. البشائر الأخرى ترى فى المعجزة عنصر العطف، والحنان من جانب السيد، ودافع الحاجة والألم من جانب المحتاج والمتألم. أما البشارة الرابعة فهى ترى فى المعجزة أظهار قوة الله ومجده. ولا تناقض بين هذا المنطق وذاك. فهما مجرد نظرتين متكاملتين لحقيقة واحدة. ووراء هذه وتلك يكمن الحق الأعظم: إن مجد الله يتبلور ويظهر فى فيض عواطفه وحنانه، وإن مجد الله لا يظهر فى ملء جلاله وسموه، إلا حينما يكشف عن أحاسيسه الفائضة، ويمد يده للمتعب والمتألم والمحتاج.

(ب) وهناك معنى آخر يظهر به الألم مقدرة الله ومجده. فالحزن، والمرض، والضيق، والانكسار، والخسائر، كلها تظهر مدى ما يستطيع الله أن يقدمه للانسان. فحينما يأتى سيل المتاعب، ويصدم كيان إنسان لا يعرف الله، فمن المحتمل جدا أن تتداعى قوته وينهار بنيانه. ولكنها حينما تحل بانسان يحيا مع الله، ويسير معه، فهى تزيده بهاء، واحتمالا، وصبرا، وتصهر معدنه فيزداد نقاء. وهكذا تصفيه المتاعب وتنقيه التجارب.

يقال عن أحد القديسين إنه فى ساعته الأخيرة حينما كان يتقلب على فراش الألم والمرض، أرسل يطلب أفراد اسرته قائلا: تعالوا لتنظروا كيف ينتصر المسيحى على آلامه وموته. فحينما تهب علينا عواصف الحياة فى ملء قسوتها تكون لنا الفرصة لتمجيد الله فى ملء قوته فى حياتنا وتظهر للعالم أجمع كيف يمكن أن يحيا المسيحى فى آلامه، وكيف يمكن بالتالى لو اقتضى الأمر، أن يموت. إن أى نوع من أنواع الألم، هو فرصة الله، ليظهر مجده فى حياتنا وآلامنا.

كما أن الألم يعيننا على الاحساس بآلام الغير ، وهكذا نمد لهم يد المعونة حاجاتهم ، فنظهر مجد الله في عمل الرحمة الذى نقوم به . ولفرانك لوباخ رائد محو الأمية المسيحى ، فكر عظيم فى هذا الصدد فقد كان ينادى أنه حينما يتحد المسيح بحياتنا ، وهو وحده الطريق ، تصبح نحن جزءا من طريق الله ، ويمر طريق الله السلطانى فينا . أننا حينما نمد يد المعونة باذلين نفوسنا لخدمة الآخرين فى الامهم وضيقاتهم ، وامراضهم ، واحزانهم ، يستخدمنا الله طريقا رئيسيا يوصل به عونه وتعزياته إلى قلوب شعبه . وتقديم المعونة لإنسان يحتاج إلى المعونة ، هو إظهار لمجد الله ومقدرته بواسطتنا .

ثم يستمر يسوع قائلا : إنه ينبغى عليه ، كما ينبغى على أتباعه ، أن يعملوا أعمال الله ، ما دامت الفرصة تسمح بذلك . إن الله قد أعطى الإنسان نهار العمل ، وليل الراحة ، واليوم شمسه تغرب ، وفرصة العمل فيه تنتهى . لقد كان هذا الحق صحيحا بالنسبة ليسوع ، لأن نهار حياته على الأرض كان وشيك الانتهاء ، وليل الصليب كان يزحف فى الأفق . وهو أيضا حق بالنسبة لكل واحد منا . فنهار الحياة قصير محدود .

وما ينبغى أن نعمله ، لنعمله بأوفر سرعة . هناك مزولة (ساعة شمسية) فى مدينة جلاسكو ، نقشت عليها هذه الكلمات : «فكر فى الزمن قبل أن يهرب الزمن». اننا لا نستطيع أن نؤجل واجب اليوم إلى الغد ، فقد لا يأتى الغد على الإطلاق . ومن واجب المسيحى أن يستغل كل لحظة اعطاها الرب له فى خدمة الله وخدمة اخوته . ولا صرخة يأس تعدل صرخة إنسان يهتف بعد فوات الفرصة : «مضى الصيف ، وانتهى الحصاد» .

على أن السيد يقول : مادمت فى العالم فانا نور العالم » ، وهذا يأتى بنا

إلى معنى جديد فى إستغلال الفرصة . فهذه الكلمة لا تشير إلى أن حياة «يسوع» محدودة ووقته ضيق . بل تشير بالتالى ، إلى أن فرصتنا نحن فى الأمساك بالحياة ضيقة محدودة . . . فرصتنا فى الحياة . . فى النور . . فى الخدمة الحية . فقد تأتى علينا فرصة العمر ، لنقرر إن كنا نقبل المسيح مخلصا وربا وسيدا فى حياتنا . فاذا لم نغتنمها قد تذهب ولا تعود .

يحدثنا أحد الثقات [1] ، عن السن التى يبدو فيها الإنسان أكثر قابلية للحصول على التجديد فيقول . إن التجديد يمكن أن يبدأ فى السابعة أو الثامنة من العمر وتزداد قابلية الإنسان لقبول المسيح مخلصا حتى العاشرة ، أو الحادية عشرة من عمره . حتى تصل إلى منتهاها فى سن السادسة عشرة .

فإذا وصل إلى سن العشرين بدأت تتناقص فرصة قبوله للمسيح حتى إذا تقدمت به العمر إلى الثلاثين دون أن يقبل المسيح ، كان تجديده نادراً .. إن الله يقول لنا : « هو ذا الآن وقت مقبول هو ذا الآن يوم خلاص . إن سمعتم اليوم صوته فلا تقسوا قلوبكم » . إن قوة يسوع لا تتناقص بمرور الوقت ، ونوره لا يتضاءل . ولكننا إن لم نغتنم الفرصة يوما بعد يوم ، وإن أجلنا اتخاذ القرار الحاسم فى حياتنا ، نصبح إقل مقدرة وقابلية بعد ذلك ، حينما تتقدم بنا السنون . ينبغى أن نعمل عمل الله . . . ينبغى أن نتخذ قرار الله فى حياتنا ، ما دام نهار ، لأنه يأتى ليل حين لا يستطيع أحد أن يتخذ فيه قراراً ، أو يعمل فيه عملا .

---

(١) ا. د. ستاربك .

خطوات معجزة

قَالَ هٰذَا وَتَفَلَ عَلَى ٱلْأَرْضِ وَصَنَعَ مِنَ ٱلتُّفْلِ طِيناً وَطَلَى بِٱلطِّينِ عَيْنَيِ ٱلْأَعْمَى . وَقَالَ لَهُ ٱذْهَبِ ٱغْتَسِلْ فِي بِرْكَةِ سِلْوَامٍ . ٱلَّذِي تَفْسِيرُهُ مُرْسَلٌ . فَمَضَى وَٱغْتَسَلَ وَأَتَى بَصِيراً .

فَٱلْجِيرَانُ وَٱلَّذِينَ كَانُوا يَرَوْنَهُ قَبْلاً أَنَّهُ كَانَ أَعْمَى قَالُوا أَلَيْسَ هٰذَا هُوَ ٱلَّذِي كَانَ يَجْلِسُ وَيَسْتَعْطِي . آخَرُونَ قَالُوا هٰذَا هُوَ . وَآخَرُونَ إِنَّهُ يُشْبِهُهُ ، وَأَمَّا هُوَ فَقَالَ إِنِّي أَنَا هُوَ . فَقَالُوا لَهُ كَيْفَ ٱنْفَتَحَتْ عَيْنَاكَ .

أَجَابَ ذَاكَ وَقَالَ . إِنْسَانٌ يُقَالُ لَهُ يَسُوعُ صَنَعَ طِيناً وَطَلَى عَيْنَيَّ وَقَالَ لِي ٱذْهَبْ إِلَى بِرْكَةِ سِلْوَامَ وَٱغْتَسِلْ . فَمَضَيْتُ وَٱغْتَسَلْتُ فَأَبْصَرْتُ . فَقَالُوا لَهُ أَيْنَ ذَاكَ . قَالَ لَا أَعْلَمُ .

(يوحنا ٩ : ٦ – ١٢)

هناك معجزتان، ورد فيها عن «يسوع »، أنه شفى مريضه عن طريق البصاق. هذه المعجزة ، وأيضا معجزة شفاء الأصم الأبكم ، الواردة فى بشارة مرقس (٧ : ٣٣)

واستعمال البصاق هنا قد يبدو فى نظرنا شيئاً غريباً منفراً وغير عادى، ولكنه كان شيئاً عادياً فى تلك العصور السحيقة فى القدم . لقد كان القدامى يعتقدون بأن البصاق، وبخاصة بصاق إنسان عظيم له خواصه الشافية. ويحدثنا المؤرخ الرومانى «تاسيتوس» عن الامبراطور ڤاسباسيان ، إنه حين كان فى زيارة لمدينة الاسكندرية ، جاء إليه إثنان من المرضى ، الواحد بعينين لا تبصران ، والآخر بيد شلاء جامدة ،وهما يتضرعان إليه هاتفين، بأن الآلهة طلبت منهما أن يسرعا إليه ليجدا الشفاء على يديه . أما الأعمى، فقد رجاه أن يبلل مقلتيه الغائمتين ببصاقه ، بينما توسل إليه الثانى أن «يطأ يده العاجزة بقدمه . ولكن ڤاسباسيان تردد بادىء الأمر . ولما ألح عليه الذين حوله لم يجد بدأ من القيام بهذا العمل . ويؤكد المورخ الرومانى بأن «اليد العاجزة قد عادت إليها قوتها فى الحال ، واستعادت العينان المظلمتان إبصارها[1] » .

أما «بليني» الرومانى الذى اشتهر بتحقيق كل ظاهرة ومناقشتها من الناحية العلمية ، فقد أفرد فصلا كاملا للحديث عن البصاق وجدواه ، فهو ترياق ملوكى لسم الثعابين ،وهو للوقاية من داء الصرع ؛ وإذا كان البصاق لصائم، انقطع مدة عن تناول الطعام ، فهو يشفى بقع البرص البيضاء ، أما الرمد فهو يستجيب لدهنة من هذا البصاق تطلى بها العينان كل يوم ، حتى داء سرطان العنق يمكن شفاؤه كذلك !

ثم وصل الأمر إلى أن دخل البصاق ميدان السحر . . فهو يقى من العين الشريرة . وعن الفرس نقرأ أن خالة الطفل أو جدته ، إذا كانت تقية

---

(١) أنظر كتاب تاريخ تاسيتوس .

تخاف الآلهة، تستطيع أن تقى الطفل شر الحسد، بأن ترفعه من مهده على ذراعها وتدهن جبينه بالبصاق اللامع بأصبعها الوسطى.

ولعلنا نجد أثراً لمثل هذه التقاليد، حينما يلمس الإنسان بأصبعه جسماً ساخناً، فيسرع بوضع أصبعه فى فمه، ويبلل مكان الأصابة بريقه. بل هناك البعض يعتقدون أن الثآليل يمكن شفاؤها ببصاق الصائم.

أما كون المسيح قد استخدم هذه الواسطة المعروفة فلعله أراد أن يزيد فى إيمان الرجل الأعمى باستخدام هذه الوسيلة، وهكذا تتلاقى قوته المعجزية مع إيمان المريض فتتم المعجزة.

وهناك تأويل آخر، ولا نقول عنه إنه تفسير، يرجح بأن مقلتى ذلك المولود أعمى، لم تكونا موجودتين أصلا. وكما قام الكلمة الخالق فى بدء الخليقة بخلق آدم من الطين، هكذا صنع الكلمة المتجسد من الطين واسطة لتعويض العينين الناقصتين وخلقهما. فأثبت المسيح بهذه المعجزة أنه الخالق الأزلى، الذى أبدع بأصابعه آدم من تراب الأرض..

قصارى القول، أن المسيح كالطبيب الأعظم الحكيم، لم يصدع مريضه باستخدام وسيلة فوق الطبيعة، بل كسب ثقته، وزاد فى إيمانه، باستخدام واسطة معروفة فى عصره. ليس لأنه آمن بهذه الواسطة أو تلك، بل ليزيد من ثقة مريضه فيه، ويزيد فيه روح الرغبة، والتوقع فيما سوف يتم له. ولعله أراد أن يلقننا درساً ألا نقلل من ثقتنا، فى الوسائط التى بين أيدينا، وألا ننبذ ما يقدم إلينا من وسائل فى طريق الشفاء.. وكلنا نعرف قيمة

ثقة المريض وإيمانه ، التي ربما تعادل في مفعولها : ما يزيد على فاعلية الدواء المقدم له .

وبعد أن طلى «يسوع» عيني المريض بالطين ، أمره بأن يذهب ليغتسل في بركة سلوام . ولقد كانت بركة سلوام واحدة من المعالم المميزة لأورشليم ، كما كانت ثمرة أحد الأعمال الهندسية البارعة في العالم القديم .

ونحن نعرف كيف أن ينابيع المياه ، لا وجود لها في قلب المدينة المقدسة ، فاذا حدث حصار على المدينة ، يكون مصير أبنائها الموت ظمأ ، وهناك ينبوع رئيسي واحد خارج المدينة هو ينبوع العذراء ، أو ينبوع جيحون ، ويقع في وادي قدرون . وللوصول إلى هذا الينبوع ، نحتت في الصخر درجات تبلغ الثلاثة والثلاثين درجة ، ينزل بها الإنسان إلى مستوى المياه . وهناك كانت تتوافد نسوة أورشليم ، للاستقاء ، فاذا حدث حصار ، يمكن قطع هذا المصدر الرئيسي للمياه فتكون الطامة الكبرى . .

وهكذا ، حينما هدد «سنحاريب» ملك أشور المدينة المقدسة بالحصار والهلاك ، لم يكن بد من أن يعجل «حزقيا» الملك ، باكتشاف وسيلة لنقل مياه الينبوع ، بطريقة سرية إلى داخل المدينة ، فأمر بحفر القناة المعروفة باسمه . (راجع أخبار الأيام الثاني ٣٢ : ٢ — ٨ ، ٣٠) وكذلك (أشعياء ٢٢ : ٩ — ١١ وملوك الثاني ٢٠ : ٢٠)

أما حفر هذه القناة ، فكان عسيراً للغاية لأنها تقع قلب الصخر الصلد .

ولو كان الحفر مستقيما ، لما زادت المسافة عن ثلثمائة وستة وستين ياردة . ولكن لأن المهندسين القدامى اتبعوا خطاً متعرجا . إما لصعوبة الحفر في الصخور ، أو لتجنب بعض المواقع المقدسة ، فقد وصل طول القناة إلى ما يقرب من سمائة ياردة . أما اتساع النفق أو القناة ، فهو يضيق في بعض المواضع ، فلا يكاد

يصل إلى قدمين فى الاتساع . وارتفاعه يصل إلى ستة أقدام وتوفيراً للوقت قام المهندسون بالحفر فى إتجاهين متقابلين من جانب المدينة من هنا ، ومن ناحية الينبوع من هناك، حتى تلاقى النفقان المتقابلان، وتدفقت المياه عبرها.

ولقد اكتشفت لوحة تذكارية نقشت فى جدار النفق لتخليد ذكرى هذا اللقاء الفريد ، ورد فيها « بينما كان العمال يضربون بمعاولهم فى الجدران الصخرية ، سمع الفريقان صوت أحدهما ينادى الآخر ، فقد كان هناك شق فى الصخر أوصل النداء . وفى نفس اليوم تدفقت المياه عبر القناة » .

أما بركة سلوام ، فقد كانت الصحن الذى تتدفق فيه المياه فى قلب أورشليم . وكان إتساع هذه البركة ما بين العشرين إلى الثلاثين قدما . ولقب سلوام معناه «مرسل» إشارة إلى أن المياه التى تحويها ، مرسلة من ينبوع العذراء خارج المدينة عبر قناة حزقيا .(1)

إلى هذه البركة الشهيرة ، أرسل «يسوع» ذلك الأعمى ، فمضى واغتسل هناك وعاد بصيرا . .

وحين شفى بدأت متاعبه . فلقد وصل الأمر إلى مسامع الكهنة والفريسيين وشيوخ الشعب . وكان من العسير على ذلك الرجل الأمى أن يقنع طبقة الكهنوت اليهودى ورجال الدين بأن «يسوع» هو الذى أجرى معه هذه المعجزة الفريدة ، إن السيد على الدوام يقوم بأعمال من الصعب على عديم الإيمان أن يصدقها ، لأنها أكثر صلاحاً وأكثر إعجازا من مستواه . إن عدم الإيمان يقف عاجز الفكر مكتوف اليدين ، أمام مجد «يسوع» وقوته المعجزية . .

---

(1) للاستزادة راجع الفصل الخاص بتاريخ قناة حزقيا فى كتاب « فى خطوات السيد المسيح » المعرب .

فَأَتَوْا إِلَى ٱلْفَرِّيسِيِّينَ بِٱلَّذِى كَانَ قَبْلاً أَعْمَى وَكَانَ سَبْتٌ حِينَ صَنَعَ يَسُوعُ ٱلطِّينَ وَفَتَحَ عَيْنَيْهِ . فَسَأَلَهُ ٱلْفَرِّيسِيُّونَ أَيْضاً كَيْفَ أَبْصَرَ فَقَالَ لَهُمْ وَضَعَ طِيناً عَلَى عَيْنَيَّ وَٱغْتَسَلْتُ فَأَنَا أُبْصِرُ . فَقَالَ قَوْمٌ مِنَ ٱلْفَرِّيسِيِّينَ هٰذَا ٱلإِنْسَانُ لَيْسَ مِنَ ٱللهِ لأَنَّهُ لَا يَحْفَظُ ٱلسَّبْتَ . آخَرُونَ قَالُوا كَيْفَ يَقْدِرُ إِنْسَانٌ خَاطِئٌ أَنْ يَعْمَلَ مِثْلَ هٰذِهِ ٱلْآيَاتِ . وَكَانَ بَيْنَهُمُ ٱنْشِقَاقٌ .

(يوحنا ٩ : ١٣ – ١٦)

وهكذا بدأت متاعب ذلك الإنسان الذى كان قبلا أعمى . فقد كان يوم سبت — ذالك الذى صنع فيه «يسوع» المعجزة . وفى عرف اليهود ، كان عمله هذا كسراً للوصية. وفى واقع الأمر كان «يسوع» قد كسر وصية السبت فى صورة مثلثة ، بإجراء هذه المعجزة ...

١ — فقد كسره حين صنع بيديه الطين . إن القيام بأى عمل فى يوم السبت هو كسر للوصية . هنا بعض الأمور التى لا يجوز مطلقاً القيام بها فى يوم السبت بحسب الفكر اليهودى : لا ينبغى أن يملأ الأنسان طبقاً بالزيت ، أو يضع فتيلا فى الطبق لإشعاله . . .

لا يجوز أن يطوىء مصباحاً مشتعلا فى يوم السبت لتوفير الزيت . لا يجوز

أن ينتعل فى يوم السبت حذاءً به مسامير غليظة ، ويخرج به فى الطريق . لأن المسامير تعد ثقلا .

وحمل الأثقال ممنوع فى السبت . لايجوز للانسان أن يشذب أظافره أو ينتف شعرة من لحيته أو رأسه . . .

فاذا قارنا هذه الأعمال بما صنعه «يسوع» ، يكون عمل الطين جريمة كبرى لاتغتفر .

٢ — وكسر «يسوع» أيضاً يوم السبت حين قام بشفاء الأعمى .

ولقد أباحت التقاليد تقديم المعونة الطبية للمحتاج . أما تلك المعونة الطبية فقد كانت وقفاً على إنقاذ الحياة ، أو دفع الخطر الأكيد الذى يهدد حياة الإنسان .

وحتى فى مثل هذه الحالات، تتوقف المعونة عند حد دفع الخطر فحسب، ولكنها لاتقدم العلاج الشافى . مثال ذلك محظور على إنسان يعانى من آلام ضرس متسوس أن يمتص خلا ، لأن هذا علاج .

ومحظور على إنسان التوى قدمه أن يصب عليه ماء بارداً ، فالماء البارد يعجل بشفائه .

ومن الواضح أن الإنسان المولود أعمى ، قضى حياته حتى الآن بدون رؤية الأشياء ، وليس هناك خطر يتهدد حياته ، لو بقى يوماً آخر ، أو يومين ! .

٣ — بل إن هذا العمل الذى قام به «يسوع» ، قد منع فى الناموس المتواتر تفصيلا .

فقدوردت الوصية فى التقاليد : « محظور أن يوضع بصاق على العينين فى يوم السبت » . بمثل هذه الفرائض النافلة ، كان الفريسيون يتعالون على الشعب ويحملونه أحمالا عسرة ، ويعتقدون أنهم بهذا يكسبون رضى الله . ولذلك لاغرابة أن يروا فى « يسوع » معلماً خطيراً ، وفى أعماله ظاهرة تدعو للقلق حين يشاهدونه بكل بساطة يكسر ناموس السبت .

والفريسيون فى هذه الحادثة ، رمز لكل طائفة ، فى كل جيل وعصر ، تدين كل من يخالفها الرأى .

إنهم فصيلة البشر ، الذين يظنون أن هناك طريقاً واحداً لخدمة الله ، وذاك طريقهم هم وليس سواه .

ومع أننا نجد البعض منهم يخالفونهم فى هذا الاتجاه ، إلا إن هذا ينطبق عليهم بصورة عامة .

وهكذا أحضروا الرجل ، وراحوا يستجوبونه . لعلك أنت الذى كنت أعمى ؟ كيف تبصر الآن ؟ من هذا الذى صنع معك المعجزة ؟ وحينما سألوه عن رأيه فى « يسوع » ، كان جوابه بملء اليقين ، أنه نبى .

ففى العهد القديم كان النبى يؤكد حقيقة نبوته ، بالدلائل والعلامات التى تؤيد ذلك .

ونحن نرى « موسى » ، يؤيد إرساليته من الله بالمعجزات ، التى أجريت أمام فرعون (خروج ٤ : ١ — ١٨) .

« وإيليا » ، يثبت أنه نبى الله ، بتفوقه فى المعجزة على أنبياء البعل (ملوك الأول ص ١٨) .

مما لاشك فيه ، أن مثل هذه الصور ، كانت تتراءى فى مخيلة ذلك الإنسان وهو ينادى بإيمانه بيسوع كنبي . .

ومهما قيل عن ذاك الذى أجريت معه المعجزة ، فهناك أمر واحد يقيني : إنه إنسان شجاع .

ولقد كان يعرف أفكار الفريسيين عن «يسوع» ، وكان يعلم أنهم يبغضونه ويريدون أن يوقعوا به ، بل كان يعلم أيضاً أن من يعترف به كنبي أو معلم ، سيكون مصيره الطرد من الهيكل ، والعزل من المجمع . ولكنه ثبت فى موقفه وتمسك برأيه : « أرى أنه نبي ، وسوف أتمسك به لأجل كل ما صنعه معى . سوف أتمسك به ، ولو وقف العالم كله ضدى » .

هنا نرى مثلا لإيمان عظيم قوى . . .

قَالُوا أَيْضاً لِلأَعْمَى مَاذَا تَقُولُ أَنْتَ عَنْهُ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ فَتَحَ عَيْنَيْكَ . فَقَالَ إِنَّهُ نَبِيٌّ . فَلَمْ يُصَدِّقِ ٱلْيَهُودُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ أَعْمَى فَأَبْصَرَ حَتَّى دَعَوْا أَبَوَيِ ٱلَّذِي أَبْصَرَ . فَسَأَلُوهُمَا قَائِلِينِ أَهٰذَا ٱبْنُكُمَا ٱلَّذِي تَقُولاَنِ إِنَّهُ وُلِدَ أَعْمَى . فَكَيْفَ يُبْصِرُ ٱلْآنَ . أَجَابَهُمْ أَبَوَاهُ وَقَالاَ نَعْلَمُ أَنَّ هٰذَا ٱبْنُنَا وَأَنَّهُ وُلِدَ أَعْمَى . وَأَمَّا كَيْفَ يُبْصِرُ ٱلْآنَ فَلاَ نَعْلَمُ . أَوْ مَنْ فَتَحَ عَيْنَيْهِ فَلاَ نَعْلَمُ . هُوَ كَامِلُ ٱلسِّنِّ . اِسْأَلُوهُ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ عَنْ نَفْسِهِ . قَالَ أَبَوَاهُ هٰذَا لِأَنَّهُمَا كَانَا يَخَافَانِ مِنَ ٱلْيَهُودِ . لِأَنَّ ٱلْيَهُودَ كَانُوا قَدْ تَعَاهَدُوا أَنَّهُ إِنِ ٱعْتَرَفَ أَحَدٌ بِأَنَّهُ ٱلْمَسِيحُ يُخْرَجُ مِنَ ٱلْمَجْمَعِ . لِذٰلِكَ قَالَ أَبَوَاهُ إِنَّهُ كَامِلُ ٱلسِّنِّ اِسْأَلُوهُ .

فَدَعَوْا ثَانِيَةً ٱلْإِنْسَانَ ٱلَّذِي كَانَ أَعْمَى وَقَالُوا لَهُ أَعْطِ مَجْداً لِلّٰهِ . نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ هٰذَا ٱلْإِنْسَانَ خَاطِئٌ . فَأَجَابَ ذَاكَ وَقَالَ أَخَاطِئٌ هُوَ . لَسْتُ أَعْلَمُ . إِنَّمَا أَعْلَمُ شَيْئاً وَاحِداً . أَنِّي كُنْتُ أَعْمَى وَٱلْآنَ أُبْصِرُ . فَقَالُوا

لَهُ أَيْضاً مَاذَا صَنَعَ بِكَ . كَيْفَ فَتَحَ عَيْنَيْكَ . أَجَابَهُمْ قَدْ قُلْتُ لَكُمْ وَلَمْ تَسْمَعُوا. لِمَاذَا تُرِيدُونَ أَنْ تَسْمَعُوا أَيْضاً أَلَعَلَّكُمْ أَنْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَصِيرُوا لَهُ تَلاَمِيذَ . فَشَتَمُوهُ وَقَالُوا أَنْتَ تِلْمِيذُ ذَاكَ . وَأَمَّا نَحْنُ فَإِنَّنَا تَلاَمِيذُ مُوسَى . نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ مُوسَى كَلَّمَهُ ٱللهُ . وَأَمَّا هٰذَا فَمَا نَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ هُوَ . أَجَابَ ٱلرَّجُلُ وَقَالَ لَهُمْ إِنْ فِي هٰذَا عَجَباً إِنَّكُمْ لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ مِنْ أَيْنَ هُوَ وَقَدْ فَتَحَ عَيْنَيَّ . وَنَعْلَمُ أَنَّ ٱللهَ لاَيَسْمَعُ لِلْخُطَاةِ ، وَلٰكِنْ إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَتَّقِي ٱللهَ وَيَفْعَلُ مَشِيئَتَهُ فَلِهٰذَا يَسْمَعُ . مُنْذُ ٱلدَّهْرِ لَمْ يُسْمَعْ أَنَّ أَحَداً فَتَحَ عَيْنَيْ مَوْلُودٍ أَعْمَى . لَوْ لَمْ يَكُنْ هٰذَا مِنَ ٱللهِ لَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئاً . أَجَابُوا وَقَالُوا لَهُ فِي ٱلْخَطَايَا وُلِدْتَ أَنْتَ بِجُمْلَتِكَ وَأَنْتَ تُعَلِّمُنَا . فَأَخْرَجُوهُ خَارِجاً .

(يوحنا ٩ : ١٧ - ٣٤)

لاتوجد صورة رسمتها ريشة كاتب مبدع ، تضارع الصورة التي أمامنا في هذه الفقرة ، والتي صورها كاتب البشارة الرابعة .

هنا نجد يوحنا ، يغمس ريشته في ألوان أخاذة ، بحيث تبدو كل شخصية حية تتحرك أمام أنظارنا وكأنها بعثت للحياة . .

١ — فهناك الرجل الذى كان قبلا أعمى . وهو يبدو أمامنا ، وقد فقد

أعصابه أمام إلحاح الفريسيين ، وعدم تصديقهم له رغم تكراره لقصة شفائه المرة تلو الأخرى. فنستمع إليه يهتف بهم : تقولوا بماشئتم أن تتقولوا عن هذا الإنسان ، فأنا لا أعرف شيئاً عنه ، ولكني أعلم شيئاً واحداً ، إني كنت أعمى ونلت على يديه نعمة البصر » .

هذا هو اختبار الإنسان البسيط . الذي نال النعمة من شخص المسيح ، إنه قد لايستطيع أن يضع اختباره في كلمات منمقة ، أو معايير لاهوتية ، ولكن يكفيه أن ينطق بهذه الكلمات البسيطة ، الرائعة في بساطتها ... يكفيه رغم عدم معرفته ، أن يشهد بكم صنع به الرب ورحمه .

لا حاجة بالإنسان أن يصبح لاهوتيا ، حتى ينال النعمة من المسيح ، فهو وإن كان لايفهم كل شيء بعقله ، إلا أنه يستطيع أن يدرك كل شيء باحساس قلبه ..

جميل أن نحب «يسوع» ، فنؤمن به ونقبله في قلوبنا ، ونحبه أكثر مما نحب النظريات اللاهوتية عنه ، ونعرفه بعقولنا ثم نقف عند هذا الحد .

٢ — وهناك والداه . إنهما لا يمدان يد المعونة إليه ، ليس لأي دافع ردىء سوى دافع الجبن والخوف .

لقد كان للمجتمع اليهودي سلاحه الذي يهدد به كل مارق عن الحق . وكان هذا السلاح هو مصادرة الأملاك ، والعزل من مجمع المؤمنين وعدم السماح بدخول المجامع ، أو الهيكل .

ومنذ عهد «عزرا» الكاتب والنبي ، نعرف ، أن من لايطيع السلطات — والسلطة هنا مدنية دينية معاً ، تصادر ممتلكاته ويعزل من المجمع ، ويحرم عليه دخول أماكن العبادة (عزرا ١٠ : ٨) .

ولقد حذر «يسوع» تلاميذه من أن اسمهم سيفترى عليه كفاعلى شر (لوقا ٦ : ٢٢) . بل أخبرهم بكل صراحة أنهم سيخرجونهم من المجامع (يوحنا ١٦ : ٢) . بل إن هذا الخطر الذى كان يتهدد كل من يؤمن بالمسيح ، قد دفع الكثيرين من الرؤساء رغم إيمانهم به ، إلى عدم الاعتراف به علنا ، لئلا يصيروا خارج المجمع . (يوحنا ١٢ : ٤٢) .

ولقد كان هناك نوعان من العزل . النوع الأول ، الإيقاف لمدة محدودة ، ربما لبضعة أسابيع قد تصل فى أقصى الحالات إلى شهر كامل . وهناك الحرم «شيريم» . أو العزل من المجمع طيلة العمر ، وفى هذه الحالة يحرم المخالف جهاراً عياناً على رؤوس الملأ . ويلعن اسمه أمام الجميع ، ويعزل عن الناس وعن الله .

أما خوف اليهود من تلك الحالة ، فيكمن فى حرمانهم من الله . لهذا السبب، كان خوف الوالدين ، وهكذا قالا للفريسيين : «هو كامل السن. استجوبوه» لقد كان الفريسيون فى عداوتهم ليسوع ، على استعداد أن يستخدموا السلطان الدينى فى أبشع مظاهره ، ليصلوا إلى أغراضهم الحاقدة .

٣ ــ وهناك الفريسيون . إنهم لم يصدقوا فى بادىء الأمر ، أن ذلك الإنسان كان قبلا أعمى . لقد ظنوا أن فى الأمر خدعة . وأن هناك اتفاقاً مسبقا بين ذلك الإنسان وبين يسوع ليكون داعية له ، وينشر اسمه بين الناس . وحتى وإن كانت المعجزة صحيحة لاغبار عليها ، فى إمكانهم أن يقولوا استناداً على ماورد فى الناموس ، بأن فى إمكان الأنبياء الكذبة ، أن يقوموا بمعجزات مضلة لتضليل الجموع . وفى سفر التثنية (١٣ : ١ ــ ٥) يرد التحذير ضد الأنبياء الكذبة ، الذين يقومون بخداع الجماهير بالعجائب المضلة ،

وهذا أيضاً ما حدث به «يسوع» تلاميذه عندما أنبأهم عن علامات الساعة ، وقيام المسحاء الكذبة الذين يضلون العالم بمعجزاتهم وآياتهم حتى يضلوا ولو أمكن المختارين أيضاً » (إنجيل متى ٢٤ : ٢٤) .

وهكذا يبدأ الفريسيون فى استجواب الرجل : « أعط مجداً لله » — ولقد كانت تلك الجملة التقليدية التى يبدأ بها فحص المتهم تعنى بالفعل : « تحدث بالصدق كما فى محضر الله ، وفى اسمه ». وحينما وقف «عخان» أمام «يشوع» وبدأت محاكمته عن الجريمة التى ارتكبها ، وكان من نتيجتها هزيمة شعب الرب أمام الأعداء . بادره «يشوع» بالقول « يا ابنى أعط الآن مجدا للرب إله اسرائيل واعترف له ، وأخبرنى الآن ماذا عملت . لا تخف عنى » (يشوع ٧ : ١٩) .

وأفحم الرجل دكاترة اللاهوت بمنطقه البسيط المبنى على الكتب . وكان دفاعه هكذا : « لقد صنع «يسوع» معجزة عظمى . وهذه الحقيقة معناها أن الله استمع له ، واستجاب لطلبته . ولا يمكن أن الله يسمع ويجيب طلبة إنسان شرير . وهكذا لابد وأن يكون «يسوع» هذا إنسانا صالحا ». أما كون الله لا يسمع صلاة إنسان شرير . ولا يستجيب لطلبته ، فهى حقيقة لاهوتية تتردد فى ثنايا العهد القديم . ونحن نستمع إلى قول «أيوب» عن الإنسان الفاجر الأثيم « أفيسمع الله صراخه إذا جاء عليه ضيق .. هل يدعو الله فى كل حين ؟ » (أيوب ٢٧ : ٩) . أما المرنم فيقول : « إن راعيت إثما فى قلبى لا يستمع لى الرب . . » (مزمور ٦٦ : ١٨) وعلى لسان اشعياء يهتف الله لأمة ضالة : « حين تبسطون أيديكم — وقد كان اليهود فى صلواتهم يرفعون أيديهم إلى أعلى بأكف مبسوطة — أستر عينى عنكم ، وإن كثرتم الصلاة لا أسمع » (اشعياء ١ : ١٥) ، وعلى نفس القياس ،

يهتف الله على لسان «حزقيال» «وإن صرخوا فى أذنى بصوت عال لا أسمعهم (حزقيال ٨ : ١٨) . أما صلاة البار فهى على الدوام مسموعة مقبولة «عينا الرب نحو الصديقين . وأذناه إلى صراخهم » (مزمور ٣٤ : ١٥) ، «يعمل رضى خائفيه يسمع تضرعهم فيخلصهم » (مزمور ١٤٥ : ١٩) ، «الرب بعيد عن الأشرار ويسمع صلاة الصديقين » أمثال ١٥ : ٢٩) لقد تقدم الرجل البسيط بحجة لاهوتية ، لم يستطع الفريسيون أن يقفوا أمامها أو يدحضوها .

ولما عجزوا عن مقارعته بالحجة ، تصرفوا تصرف العاجز الذى لا يملك إلا القوة الحمقاء . فهددوه ثم شتموه ثم اتهموه بأنه ولد فى الاثم ، أى أن روحا رديئة قد حلت فيه قبل مولده . وأخيراً لجأوا إلى السلاح الذى بين أيديهم ، فاصدروا قراراً بحرمه ، وإخراجه خارج المجمع .

أحيانا تكون لنا الآراء التى تختلف مع من حولنا . وقد يحتدم النقاش بيننا وبينهم ، لكن لتكن لنا الأعصاب الهادئة التى تحفظنا من أن نخرج عن طورنا . فالصوت المرتفع والثورة الحمقاء ، واستخدام الألفاظ الجارحة ، ليست دليل الاقتناع ولا هى سبيل الأقناع . ولئن دل هذا على شىء ، فانما يدل على أننا لا نستطيع أن نقابل الحجة بالحجة . والمنطق بالمنطق .

فَسَمِعَ يَسُوعُ أَنَّهُمْ أَخْرَجُوهُ خَارِجاً فَوَجَدَهُ قَالَ لَهُ أَتُؤْمِنُ بِابْنِ ٱللهِ . أَجَابَ ذَاكَ وَقَالَ مَنْ هُوَ يَاسَيِّدُ لأُومِنَ بِهِ . فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ قَدْ رَأَيْتَهُ وَٱلَّذِي يَتَكَلَّمُ مَعَكَ هُوَ هُوَ . فَقَالَ أُومِنُ يَاسَيِّدُ . وَسَجَدَ لَهُ .

فَقَالَ يَسُوعُ لِدَيْنُونَةٍ أَتَيْتُ أَنَا إِلَى هٰذَا ٱلْعَالَمِ حَتَّى يُبْصِرَ ٱلَّذِينَ لَا يُبْصِرُونَ وَيَعْمَى ٱلَّذِينَ يُبْصِرُونَ . فَسَمِعَ هٰذَا ٱلَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ مِنَ ٱلْفَرِّيسِيِّينَ وَقَالُوا لَهُ أَلَعَلَّنَا نَحْنُ أَيضاً عُمْيَانٌ . قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ لَوْ كُنْتُمْ عُمْيَاناً لَمَا كَانَتْ لَكُمْ خَطِيَّةٌ . وَلٰكِنِ ٱلآنَ تَقُولُونَ إِنَّنَا نُبْصِرُ فَخَطِيَّتُكُمْ بَاقِيَةٌ .

(يوحنا ٩ : ٣٥ – ٤١)

هذه الفقرة تبدأ باعلان حقين عظيمين...

١ – أما الحق الأول المبارك ، فهو أن «يسوع» قد بحث عن الرجل ، ليجده . وكما يقول ذهبي الفم : « لقد أخرجه اليهود خارج الهيكل ، ولكن رب الهيكل بحث عنه ووجده » إن « يسوع » لا يترك إنسانا قبل أن يشهد عنه شهادة حية بمفرده . إن كانت شهادة

إنسان مسيحي تفصله عن إخوته أو تعرضه للمتاعب ، فإن «يسوع» يسرع ليكون بالقرب منه ... ليعضد إيمانه ويسنده . إن متاعبنا المترتبة على شهادتنا للمسيح ، تقربنا أكثر فأكثر منه . ويسوع أمين وصادق لكل من هو أمين وصادق من نحوه .

٢ – والحق الثاني ، أن «يسوع» قد أعلن لذلك الأنسان عن شخصه العجيب . . لقد أعلن له أنه ابن الله . هنا الحق العظيم : إن إخلاصنا لسيدنا ، يجلب ، الرؤيا المباركة لنفوسنا . . . يكشف أمام عيوننا حقيقة مخلصنا ومركزه الأسمى . وللأنسان الأكثر اخلاصا فى خدمته ، والشهادة له ، يكشف المسيح بصورة أوضح عن ذاته وطبيعته . قد تكون عقوبة الأخلاص للمسيح من جانب البشر هى الأضطهاد والحرم والهوان . ولكن مكافأة الأخلاص من جانب السيد ، هى شركة أعمق مع المخلص ، وإعلان أسمى عن طبيعته الالهية .

ثم تختم القصة بواحد من أعظم الإعلانات التى نادى بها «يسوع» . .

١ – فقد جاء المسيح إلى العالم ، وفى ذات مجيئه كانت دينونة العالم . إنه هنا لا يتحدث عن دينونة حلت بالفعل . فحينما يلتقى الأنسان وجها لوجه بيسوع ، يكون الحكم له أو عليه فاما أن يقبله . فيكون الحكم له . أو يرفضه فيكون الحكم عليه . إن كان لايجد فى «يسوع» مشتهى الأجيال ، إن كان لايرى فيه ما يدعو إلى محبته فقد حكم على نفسه بنفسه ، وان كان يرى فيه مايدعو إلى العجب ، فيدفعه العجب والدهشة إلى البحث ، ثم يدفعه البحث إلى الأستجابة والقبول ، فان قدميه تسيران فى الطريق القويم. إن الأنسان الذى يشعر بعماه . . الذى يشتاق إلى رؤية أسمى . . الذى يمتلىء بالرغبة فى معرفة أعمق ، هو الذى نتوقع له أن تتفتح عيناه ، وأن تصعد قدماه مدارج جبل الحق .

أما الأنسان الذى يظن فى نفسه بأنه يعلم كل شيء .. الأنسان الذى يغفل عن حقيقة عماه ، فهو الذى ولد بالطبيعة ، أعمى وسيظل طيلة العمر لا يرى الحق ، فلا رجاء له بالشفاء — الذى يعرف عجزه هو الذى ينال القوة .. الذى يدرك عماه هو الذى تنفتح عيناه .. الذى يعلم بخطيئته ، ويشعر بعدم استحقاقه هو الذى ينال الغفران والنعمة ..

٢ — ويسوع بالتالى يعلن أنه كلما زادت معرفة الأنسان زادت أيضاً دينونته .. كلما عرف أكثر طريق البر وامتلأ قلبه بالعناد ، فسار فى طريق أهوائه . كانت دينونته أقسى وأمر . لو كان الفريسيون ضمن الجهلاء ، لايعرفون شيئا عن المكتوب . لكان يلتمس لهم العذر . ولكن دينونتهم . تكمن فى كونهم يعرفون أكثر ، فلذلك يطالبون بالأكثر ... إنهم يعتقدون فى أنفسهم أن لهم الرؤية الأفضل . فلماذا لم تنفتح عيونهم ، فيعرفوا حقيقة ابن الله .

إن المسئولية تزداد ، بزيادة الامتيازات التى يتمتع بها الأنسان . هذا ناموس أدبى يسرى على بنود الحياة العادية .

أعظم فاعظم

« الأصحاح التاسع بجملته »

قبل أن نترك هذا الأصحاح نعمل حسنا ، لوقمنا بدراسته بصورة كاملة من البداية إلى النهاية . لنقرأه بروح التأمل، فنصل إلى دروس غاية فى الروعة والجمال . وضمن هذه، يتألق أمامنا إيمان الرجل الأعمى بيسوع بصورة مجيدة .

هنا نرى خطوات ثلاث تصاعدية فى طريق إيمان هذا الأنسان ، وكل خطوة ترتفع به عن سابقتها فى مدارج الثقة المباركة ..

١ — فهو فى بادىء الأمر يتحدث عن «يسوع» كإنسان . « إنسان يقال له يسوع » (عدد ١١) إنه إنسان يتجلى فيه كمال الإنسانية فى أروع مظاهر عطفها ونبلها ..

إنسان معجزى ، يستطيع بوسيلة عادية ، أن يعيد النور إلى البصر المظلم والبصيرة المظلمة .. إنه لا يعرف من هو «يسوع» هذا . ولكنه لم يلتق من قبل بانسان نظيره : وقد تكون هذه بداية مباركة يبدأ بها ابن التراب : أن يرى فى «يسوع» أسمى صورة للإنسان الكامل . . جميل بنا أن نتأمل عظمة وسمو «يسوع» الإنسان، جميل بنا أن نفسح له مكانا فى كل متاحف الفن والبطولة فى العالم ، وخلال الأجيال كلها . . جميل أن يتقدم اسم «يسوع» كل اسم عداه، فى كل كتاب يضم تاريخ حياة العظماء فى الإنسانية .

مهما وجه المشككون من سهام النقد إلى شخصية المسيح .. مهما تقولوا عليه ، فإن الحقيقة الواحدة التي لا يمكن أن يرقى إليها الشك هي أن «يسوع» كان الإنسان ... الإنسان بكل ما في الكلمة من معان .

٢ - ثم يخطو عليه خطوته التالية ، فيرى في «يسوع» نبيا . فحينما سأله اليهود عن رأيه في يسوع من حيث أنه قام بمعجزة إعادة البصر إليه ، كان جوابه « أرى أنه نبي » (عدد ١٧) ، أما النبي فهو الذي يأتي برسالة الله إلى البشر .

« إن السيد الرب ... يعلن سره لعبيده الانبياء » (عاموس ٣ : ٧) والنبي يعيش بالقرب من الله في شركة وثيقة معه . فهو في قوة هذه الشركة ، ونورها ، يصل ببصيرته الروحية إلى أعماق مشورة الله . وحينما نقرأ كلمات الحكمة النابعة من شفتي «يسوع» ، حينما نستمع إلى صوته الخالد ، يتحدث بأقواله المباركة وتعاليمه السامية ، فإننا نقول بحق « هذا هو النبي » مهما شكك البشر في أي شيء عن «يسوع» ، فإن الحقيقة الخالدة تبقى إننا لو استمعنا حقاً إلى تعاليمه ، وأطعناها ، وتمثلناها في حياتنا ، فإن مشاكلنا العائلية ، والإجتماعية ، والسياسية على الصعيد المحلي ، والدولي ، لابد وأن تختفي وتجد حلا لها . إن كان هناك في جميع الأجيال والعصور ، من ينادي بأن له الحق في أن يكون نبي الله ، الذي يتحدث بلسان الله للبشر ، فإن «يسوع» هو الأولى بأن يكون ذلك الإنسان .

٣ - ثم نرى الرجل الذي كان أعمى ، يصل أخيراً إلى نور الأعلان الكامل ، فيرى في «يسوع» ابن الله ، لقد وصل إلى الحقيقة الخالدة . إن كل ألقاب البشر وأمجادهم ، لن تكفي للتعبير عن حقيقة «يسوع» . فلقد صنع «يسوع»

أشياء ، هى فوق طاقة البشر أجمعين . . ونادى بأمور هى فوق معرفة البشر أجمعين . .

فيما يروى عن عاهل فرنسا الخالد شهيد سانت هيلانه ، أن مجلسه ضم يوما جماعة من الملحدين والمتشككين. ودار الحديث عن «يسوع» ، فاكتفى الحاضرون بالإشارة إلى أنه إنسان عظيم وكفى . وعند ذاك قال «نابليون» : «أيها الأخوان إن لى معرفة بالكثير من البشر ، ولكن أقول لكم، إن يسوع المسيح هو فوق البشر أجمعين » .

وما أروع ما قاله أحد الشعراء .

« إن كان يسوع المسيح إنساناوابن الإنسان..

« فأنى اقول ..

« إننى سأتعلق به دون البشر..

« وسألتصق به على الدوام ..

« وإن كان يسوع المسيح إلها والإله الواحد ..

« فأنى أذكر ..

« أننى سأتبعه للسماء أو للجحيم ..

« أو إلى البحر وأجواز والفضاء .

إن أعظم حق نختبره عن «يسوع» ، هو أننا كلما ازددنا معرفة به ، وتعمقا فيه ، يزداد أمامنا سموا وعظمة وامجاداً . إن اختباراتنا البشرية فى معاملاتنا مع الآخرين، تؤكد لنا أننا كلما ازددنا معرفة بصديق، وتأصلت روابط

صداقتنا به ، فإننا نكتشف نقط الضعف فيه . فى أخطائه وفى اتجاهاته .. فى تصرفاته . ولكننا كلما إزددنا معرفة بيسوع ، تبهر أعيننا صفاته وأمجاده .. نحس فى أنفسنا بالضعف والصغار ، كما يحس الطفل بضعفه وصغاره أمام المحيط العظيم ، بالكنوز التى يطويها فى أعماقه .. نعم سنزداد عجبا واندهاشا كلما تعمقنا فيه وفى معرفته ، فى هذا الزمن . وفى الأبدية . أيضاً ..

ٱلْأَصْحَاحُ ٱلْعَاشِرُ

الراعي ورعيته

ٱلْحَقَّ ٱلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِي لَايَدْخُلُ مِنَ ٱلْبَابِ إِلَى حَظِيرَةِ ٱلْخِرَافِ بَلْ يَطْلَعُ مِنْ مَوْضِعٍ آخَرَ فَذَاكَ سَارِقٌ وَلِصٌّ. وَأَمَّا ٱلَّذِي يَدْخُلُ مِنَ ٱلْبَابِ فَهُوَ رَاعِي ٱلْخِرَافِ. لِهٰذَا يَفْتَحُ ٱلْبَوَّابُ وَٱلْخِرَافُ تَسْمَعُ صَوْتَهُ فَيَدْعُو خِرَافَهُ ٱلْخَاصَّةَ بِأَسْمَاءٍ وَيُخْرِجُهَا. وَمَتَى أَخْرَجَ خِرَافَهُ ٱلْخَاصَّةَ يَذْهَبُ أَمَامَهَا وَٱلْخِرَافُ تَتْبَعُهُ لِأَنَّهَا تَعْرِفُ صَوْتَهُ. وَأَمَّا ٱلْغَرِيبُ فَلَاتَتْبَعُهُ بَلْ تَهْرُبُ مِنْهُ لِأَنَّهَا لَاتَعْرِفُ صَوْتَ ٱلْغُرَبَاءِ. هٰذَا ٱلْمَثَلُ قَالَهُ لَهُمْ يَسُوعُ. وَأَمَّا هُمْ فَلَمْ يَفْهَمُوا مَا هُوَ ٱلَّذِي كَانَ يُكَلِّمُهُمْ بِهِ

(يوحنا ١٠ : ١ – ٦)

لاتوجد صورة تظهر «يسوع» أكثر إشراقاً وجمالا ، وأقرب إلى قلب كل مسيحي ، من صورة الراعي الصالح . والراعي الصالح يتخلل صفحات الكتاب ، ويحتل أكثر من موضع في أدب الأسفار المقدسة . وهذا ولاشك أمر طبيعي. فمعظم مساحة اليهودية ، يحتل مسطحاً طولياً يمتد

من بيت إيل إلى حبرون، مسافة طولية تقرب من خمسة وثلاثين ميلا ، فى عرض لايتجاوز سبعة عشر ميلا . أما طبيعة الأرض فهى صخرية قاسية ، ولذلك فمن العسير جداً أن تنجح فيها الزراعة . إنها لاتصلح للمرعى، وذلك فى أفضل أراضيها . وهكذا فإن الصورة التى تتكرر كل يوم أمام أنظار الإنسان ، هى صورة الراعى يقود رعيته . أما الراعى الفلسطينى ، فحياته هى أشق حياة . إنه على الدوام فى يقظة دائمة . . لايفارق رعيته ليلا ولا نهاراً . وهو على الدوام، يبحث عن البقعة الخضراء المعشبة، وماأندرها هناك . وهو لابد وأن يكون مفتوح العينين لكل فرد من أفراد قطيعه، فالأرض صخرية تنحدر فى كثير من الأحيان إلى وهاد سحيقة . ولاتوجد أسوار تحمى القطيع من التردى فى هوة الموت ، أو الضلال والشرود وسط الجبال . كما أن مناطق الخضرة النادرة، تغرى وتجتذب الرعية بعيداً . زد على ذلك الوحوش الضارية التى تختفى فى الكهوف والمغاير . لذلك فقد كان عمل الراعى مرهقاً ، محفوفا بالمخاطر ، مستمراً لايتوقف ساعة واحدة أثناء الليل وأطراف النهار .

وكما يقول «جورج آدم سميث» ، الذى قام برحلاته فى ربوع فلسطين : « وإنك لتلتقى به فى ظلام الليل ، على هضبة معشبة تحيط به رعيته ،ومن حوله يتهادى عواء الذئاب ، وهو يقف ثابتاً فى مكانه ، مستنداً على عصاه ، عيناه ساهرتان لكل صغيرة وكبيرة فى قطيعه الذى يرعى حوله، أما وجهه، فقد لوحته الشمس،وسودته المتاعب . إن الذى يرى هذا المشهد مرأى العين ، يستطيع أن يدرك لماذا احتل الراعى مركز الصدارة فى تاريخ هذه الأمة وفى أدبها الدينى .. لهذا أصبح لقب الراعى من ألقاب الشرف، التى تطلق على عاهل البلاد .. ولهذا أيضاً اتخذه المخلص مثالا للتضحية والبذل».

هذه هي صورة الراعي . . يقظة دائمة .. شجاعة لاتهاب الموت .. ومحبة باذلة لكل فرد من أفراد قطيعه .

وفى العهد القديم، نرى الله يصور كراعي شعبه . أما الشعب فهو القطيع. فالمرنم، نستمع إليه يقول فى مزموره المعروف : « الرب راعى فلايعوزنى شىء . فى مراع خضر يربضنى إلى مياه الراحة يوردنى» (مزمور ٢٣ : ١) وفى مزمور آخر « هديت شعبك كالغنم بيدموسى وهارون »(مزمور ٧٧ : ٢٠) وآساف يطلب من الله ألا يذكر ذنوب الأولين « لأننا نحن شعبك وغنم رعايتك .. نحمدك إلى الدهر » (مزمور ٧٩ : ١٣) ويستهل «آساف » أيضاً المزمور الثمانين بالقول : « ياراعى إسرائيل اصغ .. ياقائد يوسف كالضأن (مزمور ٨٠ : ١) فإذا جئنا إلى المزمور الخامس والتسعين، نستمع إلى المرنم هاتفاً : « هلم .. نجثو أمام الرب .. لأنه هو الهنا ونحن شعب مرعاه ، وغنم يده » (مزمور ٩٥ : ٧) . ونفس النغمة تتردد فى المزمور المائة « هو صنعنا وله نحن شعبه وغنم مرعاه » (مزمور ١٠٠ : ٣) .

أما مسيح الله فقد صور أيضاً فى صورة الراعى وسط قطيعه « كراع يرعى قطيعه بذراعه يجمع الحملان . فى حضنه يحملها ويقود المرضعات (إشعياء ٤٠ : ١١) ، وفى مزامير سليمان ، أحد الأسفار الأبوكريفية ، يتحدث عن المسيا بالقول : « سوف يرعى قطيع الرب بأمانة وبر ولن يدع واحدة تتعثر فى المرعى . سوف يقودها فى الطريق القويم » (مزامير سليمان ١٧ : ٤٥) .

أما قادة الشعب ، فقد أطلق عليهم أيضاً الرعاة .. رعاة الشعب والأمة فى نبوات أرمياء نقرأ القول : « ويل للرعاة الذين يهلكون ويبددون غنم رعيتى

يقول الرب .. لذلك هكذا قال الرب إله إسرائيل . . . أنتم بددتم غنمى وطردتموها ولم تتعهدوها هأنذا أعاقبكم على شر أعمالكم يقول الرب وأنا أجمع بقية غنمى من جميع الأراضى التى طردتها إليها وأردها إلى مربضها فتثمر وتكثر . وأقيم عليها رعاة يرعونها فلا تخاف بعد ولا ترتعد بعد . ولا تفقد يقول الرب » (أرميا ٢٣ : ١—٤) والنبى حزقيال يتقدم باللعنة على الرعاة المضللين الكذبة الذين يبغون مصلحتهم الذاتية . وليس خير الرعية : « ويل لرعاة إسرائيل الذين يرعون أنفسهم ... ألا يرعى الرعاة الغنم ؟ » (حزقيال ص ٣٤ الأصحاح بأكمله) .

وهذه الصورة تنتقل إلى العهد الجديد . فيسوع هو الراعى الصالح . . الراعى الذى يبذل نفسه عن خرافه . لينقذ حملا واحداً شرد عن القطيع (متى ١٨ : ١٢ ، ولوقا ١٥ : ٤) وهو يتحنن على شعبه لأنهم كانوا كغنم لا راعى لها . (متى ٩ : ٣٦ ومرقس ٦ : ٣٤) . أما تلاميذه ، فهم قطيعه الصغير ، الذى يوجه إليه الوعد بالأمان . والرجاء بالأمجاد (لوقا ١٢ : ٣٢) فاذا حلت الساعة وضرب الراعى تبددت الخراف (مرقس ١٤ : ٢٧) (متى ١٢٧ : ٣١) وهو راعى النفوس وأسقفها العظيم (رسالة بطرس الأولى ٢ : ٢٥) . أما كاتب العبرانيين فيلقبه براعى الخراف العظيم (عبرانيين ١٣ : ٢٥) . وكما نرى فى العهد القديم ، هكذا نجد قادة الكنيسة فى العهد الجديد هم الرعاة . والشعب هو القطيع ، ومن واجب الرعاة أن يطعموا الرعية ، ويسهروا عليها ، ويتولوا حراستها . وأن يفعلوا ذلك بكل غيرة ليس رغبة فى المال ، ولا حباً فى المركز والسلطان . بل أن يكونوا مثالا للرعية فى التضحية والبذل والإخلاص . (١ بطرس ٥ : ٢ . ٣) . أما رسول الأمم ، فهو يطلب من شيوخ كنيسة أفسس . أن يسهروا

على القطيع ، الذى أقامهم الرب عليه رعاة ومرشدين (أعمال ٢٥ : ٢٦) ، وآخر وصية تقدم بها الرب لتلميذه بطرس : « ارع غنمى.. إرع خرافى » (يوحنا٢١ : ١٥–١٩) بل إن ذات الكلمة الواردة فى (أفسس ٤ : ١١) . والمترجمة رعاة هى الأصل اللاتينى لرعاة الخراف .

هناك قصة متواترة فى التقليد اليهودى لاتخلو من طرافة ومعنى تكشف لنا لماذا اختار الله «موسى» قائداً للشعب . تقول القصة : إنه حينما كان «موسى» يرعى غنم حميه فى البرية إذا بعنزة صغيرة شردت مسرعة فى الهروب ، وأسرع موسى خلفها حتى رآها تندفع إلى بئر لتروى ظمأها . وحينما وصل إليها قال بحنان « لم أكن أعلم أنك هربت لأنك عطشى . ولعلك الآن مجهدة » . قال هذا . ثم حملها برفق على منكبيه . وعاد من حيث أتى ، وعند ذاك جاءه الصوت الإلهى من السماء : « لأنك أظهرت مثل هذا الرفق بفرد من أفراد قطيع يملكه سواك . سوف أجعلك راعياً لقطيعى المبارك إسرائيل » .

حينما نلتقى باسم الراعى . فلترتسم فى مخيلتنا صورة محبة الله ، وعنايته بشعبه . ولنذكر أيضاً واجبنا تجاه إخوتنا فى البشرية ، وعلى الأخص إذا كانت لنا مكانتنا التى نحتلها فى خدمة كنيسة المسيح وشعبه .

الراعى ورعيته (تابع)

(يوحنا ١٠ : ١ — ٦)

ولاضير علينا ، إذا توسعنا قليلا فى دراسة عادات وطباع الراعى فى فلسطين ، وصلته بالرعية التى يسهر عليها ويرعاها .. فهذا يوضح مركز المسيح ، وجهاده ، وتضحيته كالراعى الصالح . أما عتاد الراعى فهو قليل ضئيل ، يحمل على ظهره مزوداً من الجلد يحمل فيه طعامه وهو لايزيد عن الخبز ، والتمر أو التين المجفف ، وشىء من قطع الجبن الخشن ،

وحبات الزيتون — وفى المذود يحتفظ الراعى بمقلاعه . وللراعى فى فلسطين مهارته فى استخدام المقلاع . فهو يستطيع أن يصيب أدق هدف ولا يحيد عنه قيد شعرة (قضاة ٢٠ : ١٠) . والمقلاع لدى الراعى وسيلة دفاع .. بل إن له أيضاً منفعة أخرى ، فكلاب الحراسة يندر وجودها . ولذلك إذا أبتعدت شاة عن القطيع ، فإن الراعى سرعان مايوجه إليها بمقلاعه حجراً ، يرتكز بين قدميها ، ويكون هذا بمثابة إنذار لها بالعودة من حيث أتت . وللراعى أيضاً عكازه ، وعصاه . أما العكاز فغليظ سميك ، قصير ، ينتهى فى طرفه بمسامير ، ويعلقه الراعى فى المنطقة التى تحيط بحقوية — هذا العكاز هو سلاح الراعى ضد اللصوص ، والوحوش على السواء ، يدافع به عن نفسه وعن رعيته .

أما العصا فهى طويلة ، رفيعة ، فى غالب الأحيان من أعواد الخيزران ، وتنتهى فى أعلاها بطرف ملتوى ، بهذا الطرف الملتوى ، يستطيع صاحبها أن يجتذب أية شاة تحاول الهروب . وفى نهاية اليوم ، حينما يلتئم شمل القطيع ، يضع الراعى عصاه قريباً من الأرض ، معطلا مرور أى فرد من القطيع ، حتى يفحصه جيداً ، ليرى إن كانت به إصابة . وعلى كل شاة أن تمر من تحت العصا (راجع حزقيال ٢٠ : ٣٧ ، لاويين ٢٧ : ٣٢) لفحصها والتأكد من سلامتها .

والصلة بين الراعى ورعيته فى فلسطين ، قوية وثيقة . فى معظم بلدان الغرب ، كما فى مصر ، تسمن الخراف لاستهلاك لحومها . أما فى فلسطين ، فان الهدف الأساسى من تربيتها ورعايتها ، الانتفاع بصوفها . ولذلك فهى تعاشر راعيها سنين طويلة . وهذه العشرة الطويلة تدفع الراعى إلى تدليل رعيته ، وإطلاق الأسماء عليها ، بحيث يعرف كل فرد منها باسمه ، وهذه الأسماء فى غالب الأحيان تشير إلى صفات مميزة فى الرعية .

فهذه البلقاء ، والثانية الحمراء ، والثالثة ذات الأذن السوداء وهكذا .

وإن كانت صور الرعاة في الغرب ، تظهر الراعي وهو يسير خلف الرعية ، والرعية تتقدمه ، فإن الراعي الفلسطيني على النقيض من ذلك . إنه يسير أمام قطيعه والخراف تتبعه . فهو يختبر كل خطوة يخطوها ، وكل طريق يسير فيه ، لكي يجنب رعيته المتاعب . ويواجه بنفسه كل خطر ، لكي يدافع عنها . وأحياناً ، حتى يشجع أفراد القطيع على اتباعه ، يحمل على منكبيه أحدها. يقول أحد السائحين إنه شاهد أحد الرعاة يحاول أن يغري قطيعه بالسير عبر مخاضة ضحلة من المياه ، ولما عجز عن ذلك ، أمسك بحمل صغير ، وحمله بين ذراعيه ، فما إن شاهدت أم الحمل وليدها ينزع منها حتى اندفعت خلفه ، ومن خلفها بقية القطيع – هذه صورة من بلاد الغرب ، فأراضي فلسطين جافة تندر بها المياه ، ولاتوجد بها مخاضات .

وقد قال «يسوع » ، إن الخراف تتبع راعيها لأنها لاتعرف صوت الغرباء ، وهو يصور حقيقة يلمسها رجل الشارع كل يوم في فلسطين . يقدم ه.ف . مورتون في كتابه « في خطوات السيد المسيح » ، صورة رائعة للطريقة التي يتفاهم بها الراعي مع قطيعه فيقول :

« في بعض الأحيان ، يتحدث الراعي إلى قطيعه بلغة هي أقرب إلى اللحن أو الأغنية ، منها إلى الكلام » ثم يضيف من اختباره « كنت يوماً على التلال خلف أريحا ، حينما سمعت لأول مرة نداء الراعي . فلقد هبط

قطيع الجداء مع راعيه إلى الوادى ، وأسرع يصعد التلال المقابلة . بينما تخلفت جماعة ترعى بقعة معشبة . وأطلق الراعى نداءاً أشبه بثغاء الماشية المتقطع ، فى نغمة حلوة يحسدها عليه الإله «بان» فوق جبل الأولمب . وبعد برهة توقفت واحدة أو اثنتان عن الرعى ، وأدارت رأسها تجاه الصوت ، وأجابت بمأمأة هادئة ثم عادت إلى الرعى مرة أخرى ، وعاد الراعى يطلق نداءه . وفجأة استدارت عنز ، وأسرعت نازلة إلى حيث القطيع ، فأمسك بها الراعى ، واستدار معها ، واختفى خلف هضبة قريبة ، وإذا بالرعب يتملك القطيع كله . فيتوقف عن الرعى ، ويسرع خلف راعيه . بينما تندفع الجماعة الشاردة منضمة إلى القطيع .

أما و . م . طومسون فى كتابه الشهير « الأرض والكتاب المقدس » ، فيقدم لنا صورة أشبه بالسابقة فيقول : « ينادى الراعى على رعيته بين حين وآخر بصوت حاد ليذكرها بوجوده ، فتعرف صوته وتتبعه ، فإذا أطلق النداء شخص غريب ترفع رؤوسها فى قلق ، وكأنما تحاول أن تميز الصوت الجديد . فإذا عاد الغريب للنداء ، تملكها الخوف ، وأسرعت هاربة لتتكدس حول الراعى ، فهى لاتعرف صوت الغريب . هذه التجربة أعدتها بنفسى مرة بعد أخرى ، وفى كل مرة كنت أتأكد من صدق كلمات البشارة » .

ويعود هـ . ف . مورتون ، ليصور لنا مشهداً رآه فى كهف بالقرب من بيت لحم . فقد آوى اثنان من الرعاة قطيعهما خلال فترة الليل فى كهف واحد . ولما أسفر الصباح ، أراد كل منهما أن يعزل أفراد قطيعه عن الآخر . كيف يمكن أن يتم هذا ؟ ابتعد أحدهما عن الآخر ، ثم أطلق

الواحد النداء الخاص الذى يطلقه لغنمه ، فانعزلت عن القطيع الآخر مسرعة تجاهه ، لأنها تعرف صوته ولاسواه .

إن كل التفاصيل التى يقدمها السائحون عن حياة الراعى فى فلسطين، تلقى أضواء عظيمة على صورة الراعى الصالح ، الذى تسمع رعيته، صوته فتتبعه ، والذى يرعى غنمه باذلا .. محتملا .. محباً .. ساهراً .

الباب المؤدى إلى الحياة

فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ أَيْضاً ٱلْحَقَّ ٱلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى أَنَا بَابُ ٱلْخِرَافِ . جَمِيعُ ٱلَّذِينَ أَتَوْا قَبْلِى هُمْ سُرَّاقٌ وَلُصُوصٌ. وَلٰكِنَّ ٱلْخِرَافَ لَمْ تَسْمَعْ لَهُمْ . أَنَا هوَ ٱلْبَابُ. إِنْ دَخَلَ بِى أَحَدٌ فَيَخْلُصُ وَيَدْخُلُ وَيَخْرُجُ وَيَجِدُ مَرْعىً . ٱلسَّارِقُ لَايَأْتِى إِلاَّ لِيَسْرِقَ وَيَذْبَحَ وَيُهْلِكَ . وَأَمَّا أَنَا فَقَدْ أَتَيْتُ لِتَكُونَ لَهُمْ حَيٰوَةٌ وَلِيَكُونَ لَهُمْ أَفْضَلُ .

(يوحنا ١٠ : ٧ – ١٠)

لم يفهم اليهود مثل الراعى الصالح ، وهكذا لم يجد المعلم العظيم بداً من أن يطبق المثل على نفسه صراحة وعلانية فنراه يبدأ حديثه بالقول : أنا هو الباب إلى حظيرة الخراف .

وفى المثل، نراه يتقدم لسامعيه مشيراً إلى نوعين من الحظائر : النوع الأول كان موجوداً فى المدن ، كما فى القرى . وقد كانت هناك حظائر جماعية تأوى إليها كل قطعان المدينة ، أو القرية فى عودتها عند حلول المساء. هذه الحظائر كانت لها أبوابها الحصينة ، التى يشرف على كل منها حارس بيده وحده مفاتيح الحظيرة . لمثل هذا النوع من الحظائر الجماعية ، يشير السيد فى العددين الثانى والثالث من هذا الأصحاح .

وأحياناً كان يقدر للرعاة أن يسهروا بالليل حتى يرعى القطيع مرعى الليل فلا يعود الراعى بقطيعه إلى مدينته، أو قريته. فى هذه الحالة تبيت الخراف فى حظائر أقيمت فى سفوح التلال، تجمع فيها حتى يسفر الصباح. هذه الحظائر كانت مجرد مساحات مكشوفة، مسورة بأسوار بها فتحة تدخل منها الخراف وتخرج، ولكن ليس لها أبواب على الإطلاق، وأثناء ساعات الليل، ينام الراعى فى مدخل هذه الحظائر المكشوفة، فلا تخرج واحدة من رعيته إلى الخارج إلا على جسده، ولا يمر وحش إلى داخل الحظيرة إلا على جسده أيضاً أو بمعنى آخر، يصبح الراعى فى هذه الحالة باباً للخراف.

وهذا ماقصده المسيح بعد ذلك بقوله، أنا باب الخراف، ففيه، وفيه وحده لاسواه، يستطيع بنو البشر أن يصلوا إلى الله. كما يقول رسول الأمم، فى رسالته إلى أهل أفسس: «كنتم أجنبيين عن رعوية إسرائيل» (أفسس ٢ : ١٨). وكما يقول كاتب الرسالة إلى العبرانيين: «طريقاً كرسه لنا حديثاً حياً بالحجاب أى جسده» (عبرانيين ١٠ : ٢٠). إن «يسوع» يشق الطريق إلى عرش الله. لقد كان الناس قبل مجىء «يسوع»، يتطلعون من بعيد إلى إله السماء. فيرون فيه غريباً عنهم. أو فى أسوأ الحالات، عدواً لهم. فاذا بيسوع يأتى إلى العالم، لينقل إلى البشريه صورة جديدة عن الله الآب.. ليفتح الطريق أمام أذهان الناس، للوصول إلى حقيقة الإله المحب... لمعرفة قلبه الكبير، كما أعلن فى الإبن الحبيب. وكأنما جاء «يسوع» مقدماً للعالم الفصل الرئيسى فى كتاب معرفة الله. كأنما جاء طريقاً حياً للبشر إلى الآب. إنه الباب الذى بواسطته استطاع أبناء الطين والتراب أن يصلوا إلى جلال الله..

وحتى يصور «يسوع» معنى الوصول إلى الله، نراه يستخدم جملة كانت مألوفة لسامعيه من العبرانيين: يدخل ويخرج. أن يكون للأنسان القدرة على...

الدخول إلى مكان ما ، والخروج منه . يعني الحرية ، والراحة . حينما يدخل الأنسان ويخرج دون خوف . معناه أن نواميس العدالة ، والنظام في مجتمعه سليمة قوية مسيطرة . فهو في أمان في الحياة ، لايقع به ما يؤذيه ، ورئيس البلد يحرسها بعين ساهرة ، ويمسك بمقاليدها بيد حازمة . وكما ورد في سفر العدد . « يخرج أمامهم . ويدخل أمامهم . ويخرجهم ويدخلهم . لكي لاتكون جماعة الرب كالغنم التي لاراعي لها . . (عدد ٢٧ : ١٧) . وعن الرجل البار الخائف الله ، يرد القول ، بأنه مبارك في خروجه وفي دخوله . .(تثنيه ٢٨ : ٦) . أما الطفل فلا مقدرة له على الخروج والدخول (ملوك الأول ٣ : ٧) . وفي سفر المزامير ، يؤكد المرنم ثقته بأن الله يحفظ خروجه ودخوله (مزمور ١٢ : ٨ »

إن الإنسان الذي يتحد بالمسيح إتحاداً روحياً مباركاً ، يمكنه أن يكتشف من هو الله ، ويمتلىء بالثقة الكاملة في الأمان الحقيقي في إلهه . إن كانت حياتنا بين يدي إله نظير هذا الإله الذي أعلن لنا في المسيح يسوع . فلا محل للقلق أو المخاوف . .

ثم يعقد «يسوع» مقارنة بينه وبين من سبقوه ، فجميع الذين أتوا قبله هم سراق ولصوص . وحينما يقول السيد هذا ، فانه لايقصد بطبيعة الحال من سبقوه من الأنبياء . إنه يشير إلى ذلك الرعيل من المتطرفين المضللين الذين يثيرون الشعب بأقوالهم الملتهبة ، وحياتهم بعيدة كل البعد عن أقوالهم . هؤلاء كانوا يمنون الشعب باشراقة المجد العظيم ، عن طريق الكفاح ضد المستعمر الروماني .

في تلك الأثناء ، التي فيها ظهر «يسوع» على مسرح التاريخ ، يحدثنا المؤرخ اليهودي «يوسيفوس» أنه حدثت أكثر من عشرة آلاف انتفاضة ثورية . معظمها

انتهى بسفك الدماء . كما يقول المؤرخ أيضاً : « لقد كانت طائفة الغيورين وراء معظم هذه الثورات . كانت تعرف أنها تسوق الجماعات إلى الموت المحقق . لكنها ما كان يهمها شيء في سبيل ما تهدف إليه من تحقيق مطامعها. في الوصول إلى السلطة . أو الانتصار المزعوم . لقد كان يسوع يرمي إلى القول : « إنكم تعرفون كثيرين أتوا قبلي . وكان أولئك ينادون لكم بأنهم مرسلون من الله . ولقد كانوا يؤمنون بالحرب والاغتيال ، وسفك الدماء . والموت . وطريق أولئك تنأى بالناس بعيداً عن الله . أما طريقي أنا فهي طريق السلام ، والمحبة ، والحياة . والذي يتخذها سبيلا له . يقترب أكثر فأكثر من الله» . وما أعظمه من مبدأ ، يتقدم به «يسوع » للوصول إلى النصرة . . إنه مبدأ الأنتصار لا بالعنف ولا بالقوة ولا بسفك الدماء أو المرارة والأحقاد . انه الانتصار عن طريق المحبة والبذل والتضحية . وطريق « يسوع » هو الذي يقرب الأنسان إلى إلهه ... هو الذي يعجل بمقدم العصر الذهبي في هذا الوجود .

ولقد نادى «يسوع » ، بأنه ما جاء إلى الناس ، إلا لكي تكون لهم حياة ، لتكون لهم الحياة الأفضل والأكثر غنى وفيضاً . والترجمة العربية التي بين أيدينا ، ترجمة فانديك ، هي الأكثر مطابقة للأصل : ليكون لهم أفضل أي بزيادة وبأكثر غنى . اننا بمعرفتنا بيسوع . . باتباعه . . بالتمسك بنفس الهدف الذي يهدف إليه ، والسير في نفس الطريق ، ننال الحياة الأفضل ، أي الحياة الفائضة الغنية . .

هناك قصة تروى ، عن جندي روماني ، أتى إلى «يوليوس قيصر» ، يطلب برجوه فيه أن يسمح له بازهاق روحه بيديه ، وارتكاب جريمة الانتحار ، فهو يائس . . تعس . . لا نفع فيه . . وعند ذلك ثبت قيصر أنظاره

عليه وهو يقول فى تؤدة : «أيها الإنسان تقول إنك تعس، فاشل ، هل تعلمت كيف تحيا الحياة الحقة ؟ »

إننا حينما نحيا حياتنا الذاتية ، تصبح الحياة فاشلة تعسة ، جوفاء ، لا هدف لها . ولكن حينما نلتقى بيسوع ونضع أيدينا فى يده ، ونسير فى طريقه ، ونختبر قوة وبركة محضره فى حياتنا ينفخ فينا حيوية جديدة .. وتفيض فينا الحياة الأفضل . عند ذاك تستحق الحياة أن نحياها . . . وهكذا نصبح بالتالى أحياء ، بكل ما فى الكلمة من معان . .

الراعى الصالح والراعى الزائف

أَنَاهُوَ ٱلرَّاعِى ٱلصَّالِحُ . وَٱلرَّاعِى ٱلصَّالِحُ يَبْذُلُ نَفْسَهُ عَنِ ٱلْخِرَافِ . وَأَمَّا ٱلَّذِى هُوَ أَجِيرٌ وَلَيْسَ رَاعِياً ٱلَّذِى لَيْسَتِ ٱلْخِرَافُ لَه فَيَرَى ٱلذِّئْبَ مُقْبِلاً وَيَتْرُكُ ٱلْخِرَافَ وَيَهْرُبُ . فَيَخْطَفُ ٱلذِّئْبُ ٱلْخِرَافَ وَيُبَدِّدُهَا . وَٱلْأَجِيرُ يَهْرُبُ لِأَنَّهُ أَجِيرٌ وَلَايُبَالِى بِٱلْخِرَافِ . أَمَّا أَنَا فَإِنِّى ٱلرَّاعِى ٱلصَّالِحُ وَأَعْرِفُ خَاصَّتِى وَخَاصَّتِى تَعْرِفُنِى كَمَا أَنَّ ٱلْآبَ يَعْرِفُنِى وَأَنَا أَعْرِفُ ٱلْآبَ . وَأَنَا أَضَعُ نَفْسِى عَنِ ٱلْخِرَافِ .

(يوحنا ١٠ : ١١-١٥)

فى هذه الفقرة يعقد « يسوع » مقارنة ، بين الراعى الصالح والراعى المضل ، الطالح . . بين الراعى الأمين ، والراعى الذى يرعى مصلحته الشخصية . فى فلسطين ، حينما يسلم إنسان اغنامه إلى الراعى ، يصبح الراعى مسئولا عنها بالكلية. فاذا حدث شىء لاحداها ، عليه أن يثبت أن ذلك لم يكن بسبب تقصير من جانبه . . عليه أن يقدم الدليل على ذلك. ونحن نجد النبى «عاموس» يتحدث عن الراعى ، وهو يختطف من بين انياب الوحش ربما بقايا أذن ممزقة أو فخذ ملوثة بالدماء . (عاموس ٣ : ١٢) . والهدف من ذلك ، هو أن يثبت أن الضحية

قد ماتت فعلا ، وأن موتها كان خارجا عن ارادته . وفى سفر صموئيل الأول (١٧ : ٣٤–٣٦) نستمع إلى «داود» يحكي للملك «شاول» ، كيف أنه ، أثناء حراسته لأغنام أبيه ، أضطر إلى أن يدخل فى صراع دموى مع أسد ودب ، هاجما القطيع . ويدعو «اشعياء» الرعاة إلى القيام بواجبهم ومقاومة الأسد (اشعياء ٣١ : ٤) لقد كان من الأمور الطبيعية أن يدافع الراعى عن رعيته ، ولو تعرضت حياته لخطر الموت .

عن «الدكتور طومسون» فى كتابه «الأرض والكتاب المقدس» نقرأ: «كثيرا ما كنت استمع إلى قصص الرعاة ، وأخبار صراعهم مع الوحوش ، اللصوص . وكيف انهم فى عراكهم ، لا يحسبون حسابا لحياتهم . بل إننى أعرف أكثر من حالة ، بذل فيها الراعى نفسه عن رعيته . واخر ما بلغنى من أنباء ، عن راع فقير كان يرعى رعيته بالقرب من طبرية ، حينما هاجمه ثلاثة من البدو المسلحين بالخناجر . وبدلا من الهروب وترك الرعية للصوص ، واجههم بكل شجاعة ، وسقط جسدا ممزقاً داميا وسط رعيته ، التى دافع عنها بكل أمانة .

ومن الجانب الآخر ، هناك الراعى الغاش غير الأمين . والفارق بين الاثنين أن الراعى الأصيل الصادق .. إنسان ولد مع الرعية ، بمعنى أنه بدأ حياته منذ نعومة أظفاره راعيا ، حتى اصبحت الرعية كأنما هى بعض خلانه أو اصدقائه فهو يحبها حبه لخلانه ، ويسهر على راحتها ، اكثر من تفكيره فى راحته الشخصية اما الثانى فهو اجير اتجه إلى مهنة الرعى ، ليكسب مالا ، او لأنه لايطيق حياة المدن ، ويجد لذته فى الحياة على سفوح الجبال . فهو بلا دعوة وبلاشعور بالمسئولية . إنه مجرد اجير ، ولا يهتم بما يهدد قطيعه ، والذئاب على الدوام تهدد حياة القطيع . ونحن نقرأ القول الذى قاله «يسوع» لتلاميذه : هاانا ارسلكم

كغنم فى وسط ذئاب (متى ١٠ : ١٦) . وبولس يحذر شيوخ افسس ، من أنه ستأتى ذئاب لا تشفق على الرعية (أعمال ٢٠ : ٢٩). هذه الذئاب ، تهاجم القطيع ، والأجير لا يهتم إلا بانقاذ حياته ، فيترك الرعية ويهرب .

فى نبوات «زكريا» ، نقرا أنه من علامات الراعى الكاذب ، أنه لا يبذل مجهودا فى جمع شمل القطيع (زكريا ١١ : ٦) هنالك قصة تروى عن والد الكاتب الإنجليزى «كارليل» الذى كان عضوا متقدما فى كنيسته ، أنه نشبت بعض المتاعب بين الكنيسة وراعيها بسبب بعض الخلافات المادية ، وعقدت جلسة لفض النزاع ، فوقف والد كارليل ، وقال فى ختامها . . « أعطوا الأجير أجره ، ودعوه يمضى ! » .

حينما يتحدث «يسوع » عن الأجير ، فانه يقصد القول ، أن الذى يعمل لأجل المال . . لأجل الأجر ، يفكر فى المال والأجر أكثر من أى شىء اخر ، أما الذى يعمل بدافع المحبة ، فهو يفكر فى اولئك الذين يربطه بهم رباط المحبة. إن «يسوع »هو الراعى الصالح ، الذى احب رعيته بهذا القدر ، حتى أنه بذل ، نفسه فى سبيل حياتها .

نلاحظ أمرين آخرين ، قبل ختام التأمل فى هذه الفقرة ، فيسوع يلقب نفسه بالراعى الصالح . وفى الأصل اليونانى نجد كلمتين تعبران عن كلمة صالح . فهناك كلمة «أجاثوس» التى تعبر عن الجانب الأخلاقى ، وهناك كلمة «كالوس» التى لا تعنى أن ذلك الشىء ، أو ذلك الإنسان صالح فحسب ، من الناحية الأدبية ، بل أن فى صلاحه رقة ، وجاذبية ، ولطفا ، يجعل منه صورة جذابة حلوة . فحينما يتحدث «يسوع » عن نفسه كالراعى الصالح ، فالكلمة هنا «كالوس» . إن فيه أكثر من الكفاية والاخلاص ، وفى صلاحه المحبة ، والفيض ، والجمال الكامل . قد يتحدث الناس فى قرية أو مدينة عن .

طبيب صالح ، وحينما يتحدثون هكذا ، فانهم لا يقصدون كفايته من ناحية فنه ومهنته فحسب ، بل يقصدون أيضا عطفه ، وحنانه ، ومحبته التى جعلت منه صديقا للجميع . إن فى صورة « يسوع » ، كالراعى ، القوة ، والمقدرة والصلاح وهذه كلها تحيطه بهالة من المحبة والجمال .

والأمر الثانى الذى يهمنا أن نلاحظه ، هو أن المقصود بالقطيع فى هذا المثال هو كنيسة المسيح . وقطيع المسيح يتهدده خطران : فهو معرض للهجوم من الخارج من الذئاب والوحوش واللصوص ، وهو معرض من الداخل ، للانقسامات ولأخطار الرعاة الاجراء الكاذبين .

فالخطر يتهدده من الخارج والداخل ، هذا هو الخطر المزدوج . وكم كانت المخاطر التى تتعرض لها كنيسة المسيح من القادة والرؤساء ، اعمق أثراً وأقسى ضررا . . كم تمزق قطيع المسيح بسبب عدم امانة راع تعلق قلبه بالمال ، لانه مجرد أجير ، اكثر من تعلقه بالقطيع . أما الخطر الثانى فهو أكثر عمقا وضراوة . فقد نتنبه إلى الخطر الخارجى . لكن الداخل مستور مقنع . والخطر ، الذى نتنبه له ، نعمل له كل الحساب لكننا لا نحسب حساباً للخطر الذى يتهددنا من الداخل .

وحينما تكون القيادة غير أمينة ، عند ذاك تكون الفرصة لاعداء المسيح ، للوحوش والذئاب التى هى من خارج ، أن تعمل عملها ، فتهاجم وتذبح وتهلك إن أعظم ما تحتاجه كنيسة المسيح رعاة على نمط الراعى الأعظم يسوع المسيح .

الوحدة القصوى

وَلِي خِرَافٌ أُخَرُ لَيْسَتْ مِنْ هٰذِهِ ٱلْحَظِيرَةِ يَنْبَغِي أَنْ آتِيَ بِتِلْكَ أَيْضاً فَتَسْمَعُ صَوْتِي وَتَكُونُ رَعِيَّةٌ وَاحِدَةٌ وَرَاعٍ وَاحِدٌ .

(يوحنا ١٠: ١٦)

من أقسى الأمور على نفس الإنسان ، أن يتعلم كيف يتخلص من ذاتيته المميزة .. كيف ينبذ عنصريته ، ويذوب كيانه فى إخوته أو مجتمعه . وما ينطبق على الأفراد ينطبق على المجتمعات . فى الوقت الذى تتملك فيه الفكرة على مجتمع من المجتمعات ، بأنه قد اختص بصفات مميزة يتمتع بها دون سواه ، يصبح من العسير عليه أن يدرك ، أن تلك المميزات التى تفرد بها ، باب الوصول إليها مفتوح أمام الآخرين . وأنه ليس هو الفرد العلم فى كيان البشرية الكبير ، وهذه هى غلطة الشعب اليهودى . لقد اعتقدوا فى أنفسهم أنهم شعب الله المختار ، وأنه لا صلة لإله الكون بأى شعب آخر سواهم . فما خلقت هذه الشعوب كلها ، وهذه الأجناس جميعها ، إلا لراحتهم .. لرفاهيتهم .. ليكونوا عبيداً لهم . هذا إذا كان لتلك الشعوب مكانها فى برنامج الخليقة .. ولكنها على أسوأ حال ، مصيرها النهائى هو الإبادة ، والزوال . فلا مكان لها فى فكر الله . ان هذه الشعوب أشبه ما تكون بالدعائم الخشبية التى تسند البناء عند تكوينه . ومتى تم البناء وارتفع وعلا شأنه ، واكتمل ، فما قيمة

هذه الدعائم ، وما جدواها ؟ . قد يكون من الخير أن تصبح وقوداً للنيران . .

ولكننا نستمع هنا ، إلى رب المجد ، يهتف بأولئك الذين تملكتهم روح العنصرية ، والكبرياء الكاذبة ، قائلا إن له خرافه التي ليست من حظيرتهم وأنه لابد وأن يأتي بهذه الخراف ، ليضمها إلى خرافه الأولى ، ليكون الجميع واحداً ، مع شخصه المبارك ، فيكون هو راعي العهد الجديد ، كما هو راعي العهد القديم .

أما ذلك اليوم العظيم ، الذي تتحد فيه الأمم والأجناس تحت راية المسيح الواحد ، فاننا نجد كثيراً من اللمحات المشرقة عنه . تسطع في ثنايا العهد القديم ، وبين سطوره ، وأول من يطالعنا ، النبي الإنجيلي «أشعياء» ليقدم لنا في نبواته . حلمه المشرق عن ذلك اليوم السعيد . فان كان هناك فضل لاسرائيل —هكذا يقول— فهو لأنه قد وضع نور إعلان للأمم . وبركة لقبائل الأرض . إشارة إلى اشتراك الأمم أجمعين في بركات العهد والوعد . (أشعياء ٤٢ : ٦ و ٤٩ : ٦ و ٥٦ : ٨) فهي ليست وقفا على شعب أو أمة . بل إننا نجد صيحات متفرقة هنا ، وهناك ، تنادي أن إله الكون ليس ملكا لإسرائيل فحسب ، وأن الهدف الأساسي لاختيار اسرائيل كأمة الأنبياء . والمواعيد ، هو إعلان الله للأمم ، والاقتراب بالأمم إلى الله .

وقد يبدو لأول وهلة ، أن العهد الجديد يتحدث في هذا الصدد برأيين متناقضين . فهناك كلمات ومواقف للرب يسوع ، نقف منها في حيرة حينما تجابهنا . خذ مثلا حديث السيد لتلاميذه حينما أرسلهم للخدمة . كما أورد ذلك البشير متى : « إلى طريق أمم لاتذهبوا . وإلى مدينة للسامريين

لا تدخلوا . بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت اسرائيل الضالة » (متى ١٠ : ٥، ٦) أوتأمل موقفه من المرأة الفينيقية السورية ، حينماصرخت إليه طالبة معونته . فأجابها بأنه ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ، ويطرح للكلاب . (نفس اللقب الذى كان اليهود يطلقونه على الأمم) . وأنه لم يرسل إلا إلى خراف بيت اسرائيل الضالة . (متى ١٥ : ٢٤) ولكن مقابل هذه توجد مواقف ليسوع يبدو فيها محبا ، ومشجعاً ، ومباركا الأمم . فهو يذهب إلى السامرة ، ويبقى هناك يومين مبشراً ، ومنذراً . وصانعاً لمعجزاته . (يوحنا ٤ : ٤٠) بل إنه يعلن للمرأة السامرية أن التسلسل من «ابراهيم» ، ليس ضماناً للدخول إلى ملكوت الله (يوحنا ٨ : ٣٩) وعن قائد المئة الأممى الرومانى ، يتحدث «يسوع » قائلا : لم أجد ولا فى اسرائيل إيمانا مثل هذا (متى ٨ : ١٠) والسامرى الأبرص الذى نال الشفاء على يديه نراه هو الوحيد الذى يرجع مقدماً المجد لله . موبخاً بتصرفه هذا جحود زملائه اليهود (لوقا١٧ : ١٩) . وفى مثل السامرى الصالح نراه يختار سامرياً كمثال للرحمة والقلب الكبير (لوقا ١٠ : ٣٧) ومن تعاليمه أن كثيرين يأتون من المشارق والمغارب ، ومن الشمال والجنوب ، ويتكئون فى حضن «ابراهيم». أما بنو الملكوت ، (اشارة إلى نسل إبراهيم) فيطرحون خارجا هناك يكون البكاء وصرير الأسنان (متى ٨ : ١١ ، لوقا ١٣ : ٢٨) . وآخر وصية اوصى السيد بها تلاميذه ، أن يذهبوا إلى العالم أجمع ويكرزوا بالأنجيل للخليقة كلها (مرقس ١٦ : ٥ ، متى٢٩ : ١٥) ويسوع ليس نور اليهود فقط ، إنه نور العالم كله (يوحنا ٨ : ١٢) . فلماذا هذا التضارب الظاهرى ؟ لماذا هذه المواقف أو الكلمات ، التى يبدو وكأنها تضع حدودا لرسالة «يسوع » ، وتجعلها وقفا على اليهود دون الأمم ؟

الجواب على ما يبدو سهل يسير ، فهدف «يسوع» الشامل المتسع ، هو ربح العالم كله لله . ولكن كل قائد عظيم يعرف ، أنه إن كان يريد أن يصل إلى النجاح فى أغراضه المتسعة ، عليه أن يضع أمامه فى البداية دائرة محددة لهذا الهدف . فلن يصل إلى الانتصار فى ميدان القتال ، إذا راح يضرب فى جبهة متسعة شمالا وجنوباً ، مبعثراً جهوده ، وجنوده ، موجهاً قواه وإمكانياته ، إلى أكثر من موقعة ومعركة . إنه بهذا لن يكسب إنتصاراً . إن كان يريد النجاح عليه أن يحدد هدفا محددا . وهذا ما فعله «يسوع» فى طريق الوصول إلى أهدافه العظيمة المتسعة الشاملة . لقد اختار فى بادىء الأمر دائرة محدودة. فلو أرسل تلاميذه الأثنى عشر ، الواحد إلى بلاد الغال ، والثانى إلى إيطاليا ، والثالث إلى الجزائر البعيدة ، والرابع إلى آسيا ، هل كنا ننتظر نجاحاً لارساليته فى هذه الدوائر العريضة ؟ لقد ركز فى البداية على دائرة اليهودية ، لكى يصل فى البداية إلى هدفه الشامل العظيم ألا وهو إخضاع العالم كله لسلطان محبته . .

هنالك حقائق ثلاث ، تتلمع بنور باهر فى هذه الفقرة . .

١ — الحقيقة الأولى أنه فى «يسوع» .. فى «يسوع» وحده وليس سواه . يستطيع العالم أن يصبح واحدا ..

يقال عن المبشر « إجرتون يونج » ، إنه كان أول مرسل لقبائل الهنود الحمر . وحينما أعلن لهم محبة الآب السماوى ، كما ظهرت فى المسيح ، كان هذا بمثابة إعلان جديد عن الله ، لم يعرفوه من قبل فهتف أحد زعمائهم . . « حينما كنت تتحدث عن الروح الأعظم ، هل سمعتك تقول عنه أبانا ؟ » وأجاب المرسل « نعم . إنه أبونا السماوى المحب » وقاطعه الزعيم المسن « هذا جميل .. حلو .. هذا يكفى . إنه إعلان جديد لى . إننا ما كنا نظن يوما أن الروح الأعظم هو أبونا . لقد كنا نسمع صوته فى زئير الرعد المدوى ،

وترى صواعق غضبه فى البرق الخاطف . لقد كنا نرى آثار جبروته فى العاصفة الهوجاء ، فنلبد فى خوف فى شقوق الصخر . ولكنك تأتى إلينا اليوم لتخبرنا أنه الإله المحب .. الآب السماوى الكبير القلب . هذا يكفينا » ثم صمت الزعيم العجوز قليلا وعاد يهتف ..

« أيها المرسل ، هل قلت بأن الله أبوك ؟ » وأجابه المرسل : « نعم » . « وهل قلت بأنه أبونا نحن ؟ » « نعم » .

« إذاً مادام الله أبى وأبوك ، فنحن أخوان » . لا توجد قوة فى الوجود تربط القلوب وتوحدها ، إلا قوة الإيمان المشترك ، فى أبوة الله الواحد للجميع وبنوة الجميع لله . فى العالم توجد أمم وشعوب ، وهذه الأمة قـد تنقسم على الأخرى . وفى قلب الأمة الواحدة توجد طبقات ، وقبائل وعصبيات . وهذه تنقسم على تلك ، وتتعالى عليها . فلا توجد أمة عالمية واحدة ، ولا يوجد مجتمع تنتفى فيه الطبقات والعصبيات . القوة الوحيدة التى تستطيع أن تتخطى الحواجز ، والحدود ، والسدود ، من نعرات عنصرية ، أو جنسية ، أو طبقية أو طائفية ، هى قوة إنجيل محبة المسيح ، فهى التى تجعل البشر جميعاً إخوة فى بنوة مباركة للآب السماوى ..

٢ ــ الحقيقة الثانية ، نجدها فى إطار الكلمة : لتكون رعية واحدة وراع واحد . هذه الجملة مطابقة للنص الأصلى فى ترجمتنا العربية . ولكنها تسربت بصورة مغلوطة فى الترجمة الإنجليزية المعتمدة المعروفة بترجمة جيمس ، حيث وردت « لتكون حظيرة واحدة وراع واحد » . ويرجع هذا الخطأ ، إلى عهد « ايرونيموس » ، والترجمة اللاتينية الشائعة المعروفة بالفولجاتا . وعلى هذا الأساس بنت الكنيسة الكاثوليكية تعليمها . بأنه لا حظيرة إلا حظيرتها ، ولا خلاص خارج حدودها .

ولكن الترجمة الحقيقية كما أسلفنا هى « لتكون رعية واحدة وراع واحد »

إن الوحدة الحقيقية لا تنبع من أن كل الخراف تدفع دفعاً لحظيرة واحدة ، أو ترغم على البقاء داخل أسوار عالية ، على أن تبقى فى إطار واحد ، بل أن تسمع صوت الراعى الواحد وتستجيب له طواعية واختياراً ، ولا تنساق لصوت عداه. إن الوحدة ليست وحدة كنسية ، بل هى وحدة ولاء ليسوع المسيح ، فى إطار كل كنيسة وطائفة .

ولنأخذ مثلا سياسيا ، ولو أنه أصبح غير مقبول فى شرقنا العربى ، . مثلا مما يعرف بالكومنولث البريطانى . ان هذا الكومنولث يضم دولا متعددة لكل دولة حكومتها وأنظمتها الخاصة . ودساتيرها التى تنظم علاقاتها الداخلية والخارجية . لكنها جميعاً تدين بالطاعة والولاء للتاج البريطانى . إن المناداة برعية واحدة ، لاتعنى المناداة بكنيسة واحدة ، أوبطابع واحد وتقليد واحد ، ونظام واحد فى العبادة . ولكن يعنى أن الرعايا جميعها يضمها إطار واحد : هو إطار الولاء ليسوع المسيح ، والتعبد له. إن بناء الوحدة المسيحية لايقوم على أساس الخضوع لنظام معين ، أو الإنتماء لهذا النظام الكنسى أو ذاك، إنه يقوم على أساس الولاء لشخص واحد .. «يسوع المسيح» .

٣ ــ الحقيقة الثالثة ، أن هذا الاعلان الذى نادى به يسوع المسيح • هو نداء يمكن أن يخص كل إنسان .. أو بعبارة أخرى ، هو نداء شخصى لكل إنسان .أن هذا الحلم الذى تراءى فى مخيلة «يسوع» ، يستطيع كل منا أن يعاون فى تحقيقه ..بل إن المسئولية موضوعة على عاتق كل منا ليسعى لتحقيقه فكيف يؤمن الناس إن لم تقدم لهم البشارة ؟ و كيف يسمعون بلا كارز؟ وكيف يدخلون فى دين الله أفواجاً ، إن لم يوجد من يسعى إليهم . ويجدهم . ويدفعهم إلى حظيرة الإيمان الجديد ؟

هنا نرى الواجب المرسلى الملقى على عاتق الكنيسة ، بل على كاهل كل

من آمن بالمسيح . وارتبط به ارتباط القلب والحياة ولاينبغى أن نتصور ، أن كلمة الواجب المرسلى ، معناها الذهاب إلى منطقة نائية مثل مجاهل أفريقيا أو بين القبائل المتبربرة فى قارة استراليا . بل تعنى العمل فى قلب الدائرة التى نحيا فيها . فإن كنا نعرف إنساناً قريباً لنا خارج دائرة محبة المسيح وخلاصه . فان المسئولية ملقاة علينا أن ندعوه إلى حظيرة الراعى الصالح . فالراعى الصالح يحب الضال الشارد . وعلينا أن نسعى لنكتشف ذلك الضال . ونرده إلى القطيع . هنا حدود دائرة حلم المسيح . وهنا الطريق لتحقيق ذلك الحلم .

إن تحقيقه يتوقف علينا نحن . وإذا كنا قد ارتبطنا برباط الإيمان براعينا الأعظم ، فاننا قد ارتبطنا بالتالى برباط المسئولية لنسعى معه ليكون العالم أجمع رعية واحدة لراع واحد . .

اختبار المحبة

لِهٰذَا يُحِبُّنِي ٱلْآبُ لِأَنِّي أَضَعُ نَفْسِي لِآخُذَهَا أَيْضاً . لَيْسَ أَحَدٌ يَأْخُذُهَا مِنِّي بَلْ أَضَعُهَا أَنَا مِنْ ذَاتِي. لِي سُلْطَانٌ أَنْ أَضَعَهَا وَلِي سُلْطَانٌ أَنْ آخُذَهَا أَيْضاً. هٰذِهِ ٱلْوَصِيَّةُ قَبِلْتُهَا مِنْ أَبِي

(يوحنا ١٠ : ١٧، ١٨)

لا توجد فقرات كثيرة فى العهد الجديد ، تقدم لنا فى كلمات قليلة، صورة شاملة عن «يسوع» ، نظير هذه الفقرة .

١ - فهى تخبرنا بأن «يسوع» قد رأى حياته كصورة للطاعة الكاملة للآب . لقد اعطاه الآب هدفا محدداً ،ولهذا الهدف كرس الأبن حياته - حتى ولو انتهى به الأمر إلى الموت . لقد كان «يسوع» فى علاقة فريدة مع الله الآب ، وهذه العلاقة الفريدةمع أنها تقوم على أساس كونه الأبن الأزلى المبارك، إلا أنها ما كانت تترك مجالا لتصرف ذاتى ،بل كان تصرف «يسوع» وفق مخطط ثابت ، هو مخطط إرادة الله ، ورضاه . إن كون «يسوع» ابن الله ، يتضمن اسمى امتياز ، كما يحمل أعظم مسئولية . ان البنوة لله بالنسبة له، كما أن البنوة لله بالنسبة لنا - نقولها بكل احترام، ونحن ندرك الفارق العظيم بين بنوته الأزلية ، وبين بنوتنا نحن المبنية على اساس التبنى - هذه البنوة لا يمكن أن تقوم، إلا على اساس الطاعة الكاملة .

٢ — وهى تظهر لنا أن «يسوع» على الدوام كان يرى امجاده مقترنة بصليبه وهوانه . فلم يشك لحظة فى أن الموت ينتظره ولم يساوره بالتالى ادنى شك ، فى أنه بعد الموت ،سيقوم ظافراً منتصراً ، محطما القبر والهاوية . أما سر هذه الثقة ،فهو ثقة «يسوع» فى الآب . لقد كان واثقا أن الآب السماوى لن يتخلى عنه.لقد كان يعرف أن الطاعة لله، لابد وان تجلب الالم والهوان والأضطهاد ، ولكنه آمن أيضاً أن الطاعة لله نهايتها الأمجاد . بل الأكثر من هذا ، أنه كان يؤمن بأن الهوان لساعة ، اما الأمجاد فهى لأبد الاباد .

وفى واقع الأمر ، كلنا يعرف ، أن الوصول لهدف من الأهداف ، لابد أن ترافقه التضحية والمتاعب . هذا ناموس تبنى عليه كل اهداف الحياة . هناك ثمن لابد أن يدفع ،مقابل ما نبغى الحصول عليه،أو الوصول إليه . اسمى مراتب العلم يمكن الوصول إليها ، ولكن على حساب الدرس وسهر الليالى. النجاح فى حرفة من الحرف ، نستطيع ان ننأله بالمثابرة والحكمة والاجتهاد . هناك كثيرون فاتهم قطار النجاح فى الحياة ، ولم يستطيعوا ان يصلوا الى اهدافهم ، لأنهم تراجعوا عن الكلفة والتضحية. لا أحد يستطيع أن يصل إلى المجد، بالسير فى الطريق الواسع . فطريق المجد والعظمة، هو الطريق الضيق الكرب .

٣ — وهى تخبرنا بكل جلاء، أن موت«يسوع» لم يكن اضطراريا،بل كان اختياريا تطوعيا .هذه حقيقة يؤكدها «يسوع» المرة بعد الأخرى. وفى بستان الآلام ، نجده يأمر تلميذه ان يرد السيف إلى الغمد. فلو اراد ان تزاح عنه الكاس ، أما كان فى استطاعته أن يطلب جيوشا من الملائكة للدفاع عنه . (متى ٢٦ : ٥٣) . وأمام«بيلاطس»، تحدث «يسوع» بصراحة أنه لاسلطان عليه البتة ، وأنه هو الذى يمسك بالكاس بمحض اختياره (يوحنا ١٩ : ٩ رو ١٠) . فيسوع لم يكن ضحية الظروف ... لم يكن فى

موته نظير شاة تسلق رغم أنفها إلى الذبح ، وهى تحاول أن تتخلص من يدى الكاهن الذى يمسك بها . لقد وضع «يسوع» حياته على المذبح ، لأنه اختار ذلك .

يقال عن جندى فرنسى ، فى الحرب العالمية الأولى ، أنه أصيب فى ذراعه إصابة قاسية ، حتى لم يكن هناك من بد ، من أن يجرى له الجراح عملية بتر للذراع ، ولقد كان وسيم الطلعة ، لدرجة أن الجراح عز عليه أن مثل ذلك الشاب سيقضى بقية عمره بعاهة دائمة . وهكذا انتظر إلى جواره حتى يزول تأثير المخدر فيواسيه ليخفف عليه الصدمة القاسية ولما فتح الشاب عينيه اخيرا . قال له الجراح ، يؤسفنى أن أخبرك أنك فقدت ذراعك وبسرعة رد عليه الشاب : « فقدتها ؟ كلا لقد وهبتها فى سبيل فرنسا » .

إن « يسوع » لم تؤخذ اقدامه على غرة ، فى شبكة الظروف الطارئة وبصرف النظر عن قوته المعجزية — بصرف النظر عن القوة الالهية التى كانت تحت يديه . نقول إنه كان فى وسعه حتى آخر لحظة . أن يلقى بالكاس المرة من يديه . ويخلص نفسه . إنه لم يقتل قتلا . لقد قبل الموت طوعاً . لم يدفع دفعاً إلى الصليب ، بل احتضنه بملء رضاه واختياره فى سبيل خلاصنا .

مختل العقل ، أم ابن الله ! ؟

فَحَدَثَ أَيْضاً ٱنْشِقَاقٌ بَيْنَ ٱلْيَهُودِ بِسَبَبِ هٰذَا ٱلْكَلَامِ . فَقَالَ كَثِيرُونَ مِنْهُمْ بِهِ شَيْطَانٌ وَهُوَ يَهْذِي . لِمَاذَا تَسْتَمِعُونَ لَهُ . آخَرُونَ قَالُوا لَيْسَ هٰذَا كَلَامَ مَنْ بِهِ شَيْطَانٌ . أَلَعَلَّ شَيْطَاناً يَقْدِرُ أَنْ يَفْتَحَ أَعْيُنَ ٱلْعُمْيَانِ

(يوحنا ١٠ : ١٩-٢١)

وأصغى اليهود إلى كلمات «يسوع» ، وتملكتهم الحيرة . . . الحيرة التي تمتلك كل إنسان ، حينما يغلق فمه أمام لغز عميق . فإما أن يكون «يسوع» هذا انسانا به شيطان ، افقده اتزان العقل ، فراح يهذي بكلمات لا يدركها ، وإما أن يكون حقا ابن الله ، ولا مفر من التسليم بواحد من الافتراضين — حينما يتكلم إنسان عن نفسه بذات التعبيرات التي يتحدث بها «يسوع» عن الله ، فيجعل نفسه مساوياً لله ، فإما إن ذلك الإنسان هو بالحقيقة معادل لله ، واما أنه فقد سيطرته على التعبير السوي لسبب أو لآخر كيف يمكن أن نثبت من كلمات المسيح عينها ، ودعاواه ، كذب ادعاء اليهود ؟

١ — قبل كل شيء نقول إن كلمات المسيح ، ليست على الاطلاق كلمات انسان فقد اتزانه الفكري . نستطيع أن نقتبس شاهداً بعد شاهد ، لإثبات أن كل كلمة نطق بها «يسوع» ، هي كلمات الصحو الكامل ، ومؤخرا

صدر في نفس الموضوع كتاب بقلم «ليونيل كورتس» يقول فيه: « إن هدف البشرية ينبغي أن يكون السعي لجعل العالم اجمع – على حدتعبيره – «كومنولث» لله ، ثم يضيف قائلا حينما سئلت ماذا تعني بهذا القول ؟ واين نجد النواميس التي تنظم العلاقات الأنسانية في إطار هذا الكومنولث الالهي الشامل ؟ كان جوابي: « في النواميس الأدبية التي نادى بها المسيح في الموعظة على الجبل . إن مثل هذه النواميس تصلح أن تكون ذات صيغة سياسية اجتماعية تنظم العلاقات في كل مجتمع إنساني . . . . »

وهذه مجرد عينة من أقوال المفكرين وشهاداتهم ، عن تعاليم «يسوع المسيح» وسموها . ان اسمى ما يحتاجه عالم مجنون ، نظير العالم الذي نحيا فيه ، هو التشبع بتعاليم المسيح والتمثل بها ، واستخدامها في الحياة لكي يعود إلى صوابه . فيسوع هو الصوت الأوحد الصارخ في الوجود، الذي ينادي بحكمة الله أمام تخبطات الفكر البشري .

٢ – وأعمال «يسوع » ، هي أعمال الاتزان الكامل . وماذا كان يفعل؟ وأي شيء لم يفعله في موضعه كما شهد عنه اللص اليمين ؟ إنه كان يجول بين الناس يصنع خيراً . يلمس الأجساد الكسيرة بلمسة الشفاء . كما يلمس القلوب الكسيرة بلمسة العزاء . يضحي بوقته وراحته وجهده وصحته وطعامه ونومه في سبيل خدمة البشرية . أين هو من اولئك المجانين ، الذين ظهروا في التاريخ ، واحاطهم المجتمع بهالات البطولة ، وكان كل هدفهم ، رسم صورة ضخمة لأشخاصهم بدماء الآخرين ، ودموعهم ؟ لقد كانوا يصنعون من اشلاء الضحايا ، تماثيلهم . ويرتفعون على الام الآخرين . أما «يسوع» فكما قال عنه اليهود أنفسهم ، كيف يمكن أن انساناً به شيطان ، يفتح عيني المولود أعمى ؟ . . . يقدم خيرا للانسانية ؟ . . يجبر القلوب الكسيرة المحطمة ؟

٣ – وتأثير «يسوع» على الآخرين، ليس تأثير إنسان فقد اتزانه العقلى. إن الحقيقة التى لا تدحض – ولعلها حجة المسيحية الأولى على الديانات جمعاء – أن ملايين الملايين من البشر فى كافة العصور والأجيال والأجناس قد تغيرت حياتهم وتبدلت، واتخذت طريقا جديدا، وهدفا مباركاً، بقوة «يسوع المسيح» وفاعلية نعمته، وإلا فماذا كان فى جماعة التلاميذ البسطاء، الذين لم ينل غالبيتهم أدنى حظ من العلم، أو الثقافة، حتى يشقوا طريقهم بنجاح ساحق فى وجه دهاء اليهود وحكمة اليونان، وقوة الرومان. ماذا فى «بطرس» الصياد الجليلى. حتى يتحول إلى شاهد، ومبشر، ونذير؟ وفى كل جيل نجد الضعيف يلبس قوة، والأنانى يضحى بكل شىء، والمهزوم أمام شهواته، ينال الانتصار والمضطرب القلق، يمتلىء بروح السلام، والسكير ينتزع الكأس من حياته. وكل هذا بقوة «يسوع» وفاعلية نعمته. فهل مجنون به شيطان هذا الذى استطاع أن يعطى البشرية كل هذا الغنى والمجد!؟ أنه بلا شك كامل الحكمة، وكامل العقل.

إن كل مفكر سليم، يدرس ارسالية المسيح العظمى، وتعاليمه، فى نور النتائج المباركة التى عادت على الإنسانية بالخير الوفير، لابد وأن يقر بأن «يسوع المسيح» قد أشرق على الإنسانية بنور العقل الأعظم... نور الله..

الدعوى والوعد

وَكَانَ عِيدُ ٱلتَّجْدِيدِ فِي أُورُشَلِيمَ وَكَانَ شِتَاءٌ .
وَكَانَ يَسُوعُ يَتَمَشَّى فِي ٱلْهَيْكَلِ فِي رُوَاقِ سُلَيْمَانَ .
فَٱحْتَاطَ بِهِ ٱلْيَهُودُ وَقَالُوا لَهُ إِلَى مَتَى تُعَلِّقُ أَنْفُسَنَا .
إِنْ كُنْتَ أَنْتَ ٱلْمَسِيحَ فَقُلْ لَنَا جَهْراً ، أَجَابَهُمْ يَسُوعُ
إِنِّي قُلْتُ لَكُمْ وَلَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ . ٱلْأَعْمَالُ ٱلَّتِي أَنَا أَعْمَلُهَا
بِٱسْمِ أَبِي هِيَ تَشْهَدُ لِي . وَلٰكِنَّكُمْ لَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ لِأَنَّكُمْ
لَسْتُمْ مِنْ خِرَافِي كَمَا قُلْتُ لَكُمْ . خِرَافِي تَسْمَعُ صَوْتِي وَأَنَا
أَعْرِفُهَا فَتَتْبَعُنِي . وَأَنَا أُعْطِيهَا حَيٰوةً أَبَدِيَّةً وَلَنْ تَهْلِكَ
إِلَى ٱلْأَبَدِ وَلَا يَخْطَفُهَا أَحَدٌ مِنْ يَدِي .

(يوحنا ١٠ : ٢٢ – ٢٨)

هذه الفقرة يبدأها البشير «يوحنا» ، باثبات التاريخ والمكان الذى حدثت فيه المناقشة التى دارت فيها . فالوقت كان عيد التجديد . وعيد التجديد هذا عند اليهود ، كان آخر الأعياد لعظمى ، التى أدخلت موءخرا على التقليد اليهودى . وأحيانا كان يلقب بعيد الأنوار : أما اسمه العبرى فهو عيد «الهانوكاه» ، وتاريخه يأتى فى التاسع عشر من الشهر الأخير من العام . أى

أنه يقترب جدا من بداية أعياد الميلاد عند الغرب ، وما زال اليهود يقدسون هذا العيد حتى يومنا الحاضر . .

أما أساس هذا العيد ، فيرجع إلى فترة حاسمة من أعظم فترات البطولة فى تاريخ الأمة اليهودية . ففى الفترة ما بين عامى ١٧٥ إلى ١٦٤ قبل ميلاد المسيح ، اعتلى العرش فى سوريه ملك يدعى «انطيوخوس إبفانوس» ، هذا كان معجباً بالثقافة اليونانية ، عاشقاً لكل ما هو إغريقى ، فقرر فى نفسه أن يستأصل شأفة الدين اليهودى ، والثقافة العبرية ، ويحل محلها الثقافة اليونانية ويدخل آلهة الأغريق فى ربوع فلسطين — وفى بادىء الأمر حاول أن ينفذ خطته بالوسائل السلمية ، ونجح إلى حد ما . فقد رحب البعض من اليهود بهذا التطور ، ولكن معظمهم وقف وقفة رجل واحد ، متمسكين بالدين الأصيل .

وما أن اهل عام ١٧٠ قبل الميلاد ، حتى انفجرت العاصفة على رأس اليهود ، فقد حاصرها الملك السورى بجيش جرار ، واستمر الحصار وقتاً طويلا ، هلك فيه ما يقرب من ثمانين ألف يهودى ، وسبى عدد مماثل لهم. أما الهيكل فقد نهبه الجنود ، ويقال إن ١٨٠٠ وزنة — والوزنة تعادل ١٤٠ جنيهاً بالعملة الإنجليزية — قد نهبت من خزانة الهيكل . وفرض «أنطيوخوس» قوانين غاية فى القسوة والصرامة على اليهود. كان مجرد الاحتفاظ بنسخة من التوراة يعد جريمة عظمى تستحق الإعدام ، وكذلك ممارسة الختان ، وكل أم يقبض عليها وهى تحاول ختان أبنائها ، يكون مصيرها الموت صلباً ، وأطفالها يعلقون فى عنقها . أما ساحة الهيكل فقد دنست ، وأروقته حولت إلى مواخير للفساد وأخيراً اتخذ الملك الوثنى الخطوة النهائية لتحويل مذبح المحرقات النحاسى ، إلى مذبح للاله زيوس ، وأعد العدة ليقدم عليه ذبائح من الخنازير ، تكريماً لذلك

الإله . فى هذه الفترة ظهر « يهوذا مكابيوس » أو « يهوذا المكابى » ، وأشقاؤه ليقفوا وقفتهم البطولية فى وجه الملك الغاشم ، ويحرروا بلادهم من سلطة المستعمر ، وتم لهم ذلك فى عام ١٦٤ ق.م. وفى تلك السنة عينها ، طهر الهيكل من رجاساته ، وأقيم المذبح مرة أخرى ، وطهرت وأعيدت أوانى الخدمة المقدسة ، بعد سنوات ثلاث من تدنيسها . لهذا أقيم عيد التجديد .. لتذكار حادثة تطهير الهيكل : وقد جاء فى البيان الذى أصدره «يهوذا المكابى» ، أن أيام تجديد المذبح المقدس ، ينبغى أن تذكر كل سنة .. ثمانية أيام ينبغى أن يعيدها الشعب فى الشهر الأخير من كل عام بفرح وبهجة قلب» .(مكابيين الأول ٤ : ٥٩)لأجل هذا السبب ، كان هذا العيد يلقب بعيد تجديد المذبح وفى احيان أخرى تذكار تطهير الهيكل .

وكما ذكرنا كان هذا العيد يدعى عيد الأنوار .

وقد كانت تضاء الأنوار فى كل جوانب الهيكل ، وكان كل بيت يهودى يسطع منه النور — وما زالت هذه العادة سارية بين اليهود ، فى أيام ذلك العيد حتى يومنا الحاضر : فى كل نوافذ البيوتات اليهودية ، كانت توضع السرج أو المصابيح .. ثمانية مصابيح حسبما نادى « شماى » فى أول أيام العيد ، تتناقص واحداً واحداً يوما بعد يوم ، حتى إذا حل اليوم الأخير ، يكون هناك مصباح واحد . أما التقليد الذى نادى به « هلليل » ، فقد كان يقضى بأن يبدأ اليوم الأول بمصباح واحد ، يزاد يوما بعد يوم ، حتى إذا حل اليوم الثامن ، تتألق ثمانية مصابيح كاملة — وفى كل بيت يهودى متمسك بتقاليده ، تحفظ هذه العادة حتى يومنا الحاضر .

أما هذه الأنوار ، فقد كانت لها دلالتان ، الدلالة الأولى ، أنها كانت رمزاً

لنور الحرية ، الذى عاد يشرق على أرض اسرائيل، والدلالة الثانية، كانت تعود بالعبرانى إلى تقليد قديم جدا . أما ذلك التقليد فيقول ،أنه حينما طهر الهيكل من رجاساته ، بحث الكهنة عما تبقى من الزيت المقدس الذى لم تنله أيدى العبث والدنس ، حتى يعيدوا ملأ السرج ، فلم يجدوا إلا قنينة زيت واحدة، مختومة بخاتم رئيس الكهنة . وكان الزيت فى هذه القنينة، لا يكفى بالكاد إلا يوما واحدا . ولكن بمعجزة سرية استمر الزيت لا ينقص يوما بعد يوم حتى انتهت أيام العيد الثمانية ، وأتيحت الفرصة لعمل زيت جديد حسبما تقضى التقاليد المقدسة . من هنا جاء تقليد إيقاد الأنوار ثمانية أيام فى كل بيوت الشعب اليهودى .

وليس بغريب أن يتطلع «يسوع» إلى هذه الأنوار المتألقة، ويتحد منها استعارة حلوة مشيراً بها إلى النور المشرق من العلاء فى شخصه المبارك. وكأنى به يقول لسامعيه : «هل تشاهدون هذه الأنوار المتألقة فى الهيكل ؟ هل ترون هذه الانوار التى تشع من كل بيت فى أورشليم تذكرون بها عهد الحرية الذى أشرق عليكم ، ونور التطهير الذى بدد الظلمات التى اكتنفت الهيكل المقدس ؟ تذكروا أنى أنا نور الحرية الذى جاء ليبدد ظلام الخطيئة ، ونور التطهير الذى يطهر قلوبكم من خطاياها ، بل أنا نور المعرفة الحية ، الذى يأتى بكم إلى محضر الله الحى .

و«يوحنا البشير»، يقدم لنا مكان هذا الحديث، فيقول إنه تم فى رواق سليمان ولقد كان الرواق الأول الذى يواجه الداخل إلى ساحة الهيكل هو رواق الأمم . وإلى جانبيه كان رواقان آخران ، الواحد منهما يدعى رواق سليمان ، والثانى الرواق الملكى . بهما أعمدة فخمة، كان إرتفاع الواحد منها أربعين قدما مشغولة من أعلى. وكان العابدون يلجأون إلى هذه الأروقة للتأمل الهادئ

والصلاة . وكان الربيون أو الأحبار ، يستخدمونها فى حلقات الدراسة ، يجمعون حولهم تلاميذهم ، ويقدمون لهم شروح التوراة ، وأصول الإيمان. هناك كان «يسوع» يتمشى ، وكان الجو بارداً والوقت شتاء ، وفى هذه الفرصة ، التى امتزجت فيها الذكريات الوطنية ، التى تدعو كل واحد إلى تقديم الشكر لله ، مع الروح الدينية الغيورة ، وارتفعت فيها أصوات المعلمين اليهود ، كل ينادى بدروسه ، للحلقة الملتفة حوله من التلاميذ ، كان ذلك النقاش والحديث بين «يسوع» واليهود .

الدعوى والوعد

(يوحنا ١٠ : ٢٢ – ٢٨)

وبينما كان «يسوع» يتمشى فى رواق سليمان أحاط به اليهود قائلين : « إلى متى تعلق نفوسنا ؟ ما بالك تتركنا فى حيرة لا نستطيع منها خلاصاً ؟ إن كنت أنت المسيح المنتظر ، فقل لنا صراحة ». ومما لا شك فيه ، أن البعض تقدموا بهذا السؤال بروح الأخلاص .

صحيح أن مثال المسيا فى مخيلتهم ، كان يختلف عن مثال المسيا فى ذهن «يسوع المسيح» ، ولكن هذا لا يمنع أن نقول ، إنهم كانوا ينتظرون تعزية إسرائيل بظهور الرجاء المبارك ، ومجيء مشتهى الأجيال .

ولكن كان هناك فريق آخر ، ينتظر رد المسيح على هذا التساؤل ، لكى يؤول هذا الجواب ، إما إلى تهمة تجديف ، يمكن أن تتمسك بها السلطات الكهنوتية لمحاكمته وإدانته ، أو إلى جريمة خيانة ضد الرومان ، تصل به إلى الوالى الرومانى .

وجاء جواب « يسوع » صريحاً حازماً : « لقد قلت لكم هذا . . وقلت لكم بكل صراحة » .

صحيح إنه لم يردد هذا الحق كثيراً .

فهو قد نادى بأنه المسيا ، أمام المرأة السامرية ، فى مقابلته الشخصية معها. (يوحنا ٤ : ٢٦) . كما أنه أعلن للرجل الذى ولد أعمى ، أنه ابن الله (يوحنا ٩ : ٣٧) . عدا ذلك، هناك الفرصة التى نادى فيها «بطرس» أمامه بأنه المسيح ابن الله الحى ، وأيده «يسوع» فى ذلك وطوبه .

ولكن لجمهور متعلم نظير ذلك الجمهور الذى أحاط ربه . . لجمهور متعبد لا تخفى عليه دلائل الأشياء ، لم يكن هناك ما يدعو لأن ينادى «يسوع» علانية ، بحقيقة بديهية نظير هذه . فهناك شاهدان يشهدان ليسوع ، بأنه هو المسيح ...

١ ـ الشاهد الأول أعماله المعجزية . ولديهم النبوة التى نادى بها «أشعياء» النبى الإنجيلى منذ مئات السنين ، عن ذلك العصر المجيد المبارك ، عصر المسيا : « حينئذ تنفتح عيون العمى ، وآذان الصم تنفتح . حينئذ يقفز الأعرج كالإيل ، ويترنم لسان الأخرس . لأنه قد انفجرت فى البرية مياه . وأنهار فى القفر » (أشعياء ٣٥ : ٥ ، ٦) وهذا هو بالذات ما كان يفعله «يسوع» . لقد كانت كل معجزة يجريها ، حقاً مدوياً ينادى بأعلى صوت ، وأجلى بيان ، أن عصر الله قد أشرق نهاره ... أن يوم المسيا قد جاء ... أن العهد الجديد قد أسفر منيراً متألقا . ساطعاً بالأمجاد ...

٢ ـ والشاهد الثانى أقواله . ولقد هتف «موسى» لليهود ، بأنه فى أخريات الأيام ، سيقيم لهم الرب نبيا نظيره . وأن عليهم ، أن يستمعوا لتعاليمه . (تثنية ١٨ : ١٥) .

ونغمة السلطان التي بدت في تعليم «يسوع» ..والتي وقف فيها من القديم وقفة المكمل لناموس ، يحتاج إلى التكميل ، والتي هتف فيها أمام الأجيال: « قد سمعتم أنه قيل للقدماء . . أما أنا فأقول » ، تثبت بأبعد ما يكون عن الشك أن الله كان يتحدث بلسانه ، وأنه كلمة الله المتجسد لأهل الأرض.

إن أي إنسان يرى معجزات «يسوع» ، ويصغي إلى تعاليم النغمة النابعة منه ، يقر بأنه هو مسيح الله الأمجد الأوحد.

ولكن معظم اليهود لم يقبلوا هذا الأدعاء ، بل ثاروا عليه . وكما درسنا آنفا ، هناك خراف تسمع صوت الراعي ، وتعرفه ، وتطيعه ، لأنها بالحقيقة خرافه وهناك خراف غريبة ليست من رعيته ، فهي لا تعرف صوته ، ولا تطيعه — وأولئك اليهود لم يكونوا من خراف يسوع» . لقد كانوا غرباء عنه.

ووراء كل هذا ، يكمن ما يسمى بالاختيار السابق . إن مجريات الأحداث تتوالى على مسرح الوجود ، لكنها تجرى بترتيب إلهي مسبق . وكأني بالبشير هنا يقول : « إن أولئك الخراف ليسوا من رعية «يسوع» .. ليسوا من المختارين لاتباع يسوع ولسماع صوته». هذه العقيدة ، عقيدة الاختيار ، تثير أكثر من مشكل في أذهان الناس . وفي العهد الجديد ، نستطيع أن نرى الاختيار المسبق ، والإرادة الحرة ، تتمشيان جنبا إلى جنب . فكل شيء في الوجود، يتم في حدود دائرة مقاصد الله وترتيبه ، لكنه في نفس الوقت يحدث، بحيث يفسح المجال لمسئولية الإنسان في حدوثه ، ومديونيته أمام الله.

فترتيب الله صحيح ، ولكنه لا ينفي إرادة الإنسان الحرة . هؤلاء اليهود، علم الله منذ البدء ، ورتب، أنهم لن يقبلوا «يسوع». ومع ذلك كما يؤكد

البشر ، لن يكون فى ذلك عذر لهم . أو ذريعة لتخفيف المسئولية والمذنوبية الواقعة عليهم .

وهناك فريق غير أولئك ، فتح الصدر لقبول «يسوع» .

وهؤلاء يقدم لهم السيد مواعيد ثلاثة . .

١ — فهو يعدهم **بالحياة الأبدية** . وباكورة ثمار الحياة الأبدية ننالها من هنا . لأنها تبدأ معنا كحياة الله فينا . إن «يسوع» يعدنا بأننا إن قبلناه ربا ، وسيداً على حياتنا . . . إن أصبحنا ضمن رعيته ، فإننا سننفصل عن حياة الأرض وتفاهات الأرض ، وتوافه الأمور الأرضية ، ونختبر حياة الله فى ملء جلالها ، وسموها ،وأمجادها ، ونحن على هذه الأرض .

٢ — وهو يعد من يقبله **بحياة لا تعرف النهاية** . فهى حياة لا تتوقف ولا تعرف الموت . فالموت بمعناه الرهيب بالنسبة للبعيدين ، لن يكون له سلطانه على أبناء الحياة ... لن يكون ختاما لقصة الحياة . بل الفصل الأول فيها . إنهم سيختبرون الحياة المجيدة التى لا تفنى ولا تضمحل .

٣ — وهو يعد المؤمنين به **بحياة كلها أمان وسلام** . « لن يخطفها أحد من يدى » . وياله من وعد : إن اليد القديرة الخالقة . . الحافظة . . المدبرة ، التى تمسك بالكواكب فى مجراتها ، تمسك بنا أيضاً — ليس معنى هذا الوعد أنه يجنبنا الألم ، والضيقات ، والموت . ولكن معناه أننا فى أقسى الظروف وأمرها ، نمتلىء سلاماً ويقينا ، بأننا فى اليد الرفيعة . . . نوقن فى أنفسنا بأن الأذرع الأبدية ترفعنا .

نتأكد تماماً صدق الوعد الإلهى ، على لسان «أشعياء» « أنا الرب إلهك الممسك بيمينك . القائل لك لا تخف أنا أعينك » « إذا اجتزت فى المياه فأنا معك ، وفى الأنهار فلا تغمرك . إذا مشيت فى النار فلا تلذع ، واللهيب لا يحرقك». هذه هى البركة التى تفيض على أولئك الذين تحفظهم اليد الإلهية .

إنهم حتى فى وجودهم فى عالم تتلاطم فيه أمواج الموت ، والهلاك ، يشعرون بالاطمئنان الكامل فى رحاب إله الثقة والعون .

الثقة الـكاملة والحق الأعظم

أَبِى ٱلَّذِى أَعْطَانِى إِيَّاهَا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ ٱلْكُلِّ وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَخْطَفَ مِنْ يَدِ أَبِى. أَنَا وَٱلْآبُ وَاحِدٌ

(يوحنا ١٠ : ٢٩ – ٣٠)

هذه الفقرة تظهر لنا ، ثقة «يسوع» الكاملة فى الآب ، كما تنادى بالحق الأعظم عن طبيعة الابن الأزلى، فى صلته بالآب . إن ثقة «يسوع» كانت بهذا العمق ، حتى أنها كانت ترجع كل الأمور إلى الله . فنحن نسمعه الآن يتحدث عن خرافه وعن رعيته ، وها قد انتهى على التو من حديثه عن الأمان الذى تتمتع به رعيته ، وعن الأمتيازات التى لها ، فى كونها تحت رعايته ، فلن يخطفها أحد من يده ، ولن ينتصر عليها الموت إلى الأبد . وقد يبدو للناظر لأول وهلة ، أن «يسوع» يضع ثقته فى حكمته الذاتية ، أو فى مقدرته الشخصية . ولذلك نراه يرجع كل شىء إلى قوة الله ، وحكمته . « أبى هو الذى أعطانى هذه الرعية . وأبى هو الذى يحفظها » . إن «يسوع» إذا كان يضع ثقته فى مقدرته الذاتية فما ذلك إلا لأنه يضع ثقته فى الآب ومقدرته . إن موقف «يسوع» من الحياة ، ليس موقف الثقة الشخصية ، بل موقف الثقة بالأمان ، والنصرة الأكيدة ، ليس لأنه كان يضع ثقته فى قواه الذاتية وحدها ، بل لأنه كان يضع ثقته فى قواه الذاتية المؤيدة بقوة الله .

ثم يتلو ذلك الحق الأعظم... فينادى «يسوع» بما يؤدى إلى دهشة سامعيه ، ورعبهم

وثورتهم فى آن واحد ، إنه والآب واحد . ترى ماذا يعنى سيد الأجيال بهذا الحق الجبار الذى نادى به ؟ إن إعلاناً يكشف عن العلاقة الكائنة بين الأبن والآب ، لابد وأن يغوص بنا إلى أعماق لاندرى مداها ..

هنا نقترب من قدس أقداس المخلص . وعلينا أن نخلع نعالنا ، لأن الأرض التى نقف عليها أكثر من أرض مقدسة . ترى هل نكتفى بالقول بأنه سر عميق وكفى ؟ وهل نقف أمام هذا السر مكتوفى الأيدى ؟ أم هل نحاول أن نستجلى غموض هذا الحق المعلن ، ونصل إلى بعض متضمناته ؟ هل نفسر هذا القول على أساس التفسيرات الميتافيزيقية ؟ أم نغوص فى الشروحات اللاهوتية المتضاربة ، التى ظلت مثار الجدل بين الطوائف المسيحية المختلفة ومثار حزازت ، ومتاعب ؟ وهل يلزم أن يكون الباحث لاهوتيا ، حتى يصل إلى مضمون هذا الحق ؟ . .

هناك أكثر من تأويل تقدم به مفسرون عديدون . فالبعض قال إن تلك الكلمة مرتبطة بما سبقها من حديث ، هنا يتحدث «يسوع» عن الرغبة والإختيار والرعاية . والقدرة المعجزية ، والقطيع الآمن ، وكأنى به يقول لهم : « أنا والآب واحد فى القيام بكل هذه الأعمال » . أى أن الوحدة هنا وحدة عمل ، واتجاه ، وقدرة . وبمعنى آخر ، أنه يشترك مع الله الآب فى كل هذه المهام الجوهرية ، فى إتمام الخلاص ، وتكميل المفديين ..

وهناك اتجاه آخر لبعض المفسرين ، يستندون فيه على ما نادى به «يسوع» فى صلاته الشفاعية قبيل صلبه :

« أيها الآب القدوس احفظهم فى اسمك الذين أعطيتنى ليكونوا واحداً

كما نحن » (يوحنا ١٧ : ١١) . هنا كما يقولون، نرى السيد يقرن وحدته مع الآب ، برباط الوحدة الذى يربط المؤمن بأخيه . ثم يستشهدون أيضاً بما ورد بعد ذلك (يوحنا ١٧ : ٢٠ – ٢٢) : « لست أسأل من أجل هؤلاء فقط ، بل من أجل الذين يؤمنون بى بكلامهم ليكون الجميع واحداً كما أنك أنت أيها الآب فى وأنا فيك . ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا ليؤمن العالم أنك أرسلتنى » . وهنا يصلى المسيح طالباً بكل جلاء أن يكون المسيحيون واحداً – الواحد مع أخيه – كما أنه هو والآب واحد .

ومن هنا يصلون إلى الإستنتاج : ما هو الرباط الذى يوحد قلوب المسيحيين أحدهم مع الآخر ؟

ما هو الرباط الذى يوحد المسيحى مع المسيحى ؟

إنه رباط المحبة ، كما قال السيد فى وصيته لتلاميذه : « وصية جديدة أنا أعطيكم ، أن تحبوا بعضكم بعضا » (يوحنا ١٣ : ٣٤) ، إن وحدة المسيحيين تكمن فى رباط المحبة . وكذلك فى الطاعة « إن أحبنى أحد يحفظ كلامى » (يوحنا ١٤ : ٢٣) .

ومن هنا يصلون إلى القول ، بأن الوحدة التى نادى بها « يسوع » مع أبيه ، هى رباط المحبة الذى يربطه مع الآب ، كما قال : « إن حفظتم وصاياى تثبتون فى محبتى . كما أنى أنا قد حفظت وصايا أبى وأثبت فى محبته » (يوحنا ١٥ : ٩–١٠) . فيسوع واحد مع الآب ، يربطه به رباط المحبة ، كما يربطه به رباط الطاعة .. أى أن هذه الوحدة ، وحدة شركة وصلة ومحبة ، وليست وحدة طبيعة ، وذات ، وجوهر .

على أن أصدق تفسير لهذه الآية ، ما تقدم به «متى هنرى »[1] وهو تفسير يتفق مع بنود إيماننا الأقدس ، ويؤيده أكثر من شاهد ،فى أكثر من موضع من البشائر المقدسة .

وخلاصته : أن السيد كان يقصد بالفعل ما فهمه اليهود ، واعتبروه خروجاً ، وتجديفاً ، وثارت ثائرتهم بسببه : إنه واحد مع الآب فى القدرة ، والمشيئة ، والجوهر أيضاً . فهو فى الآية التى سبقت إعلان هذا الحق ، يقول : «أبى أعظم من الكل» (عدد ٢٩) أى أنه أعظم منكم ومن قوتكم ، ومؤامراتكم ، ولكى يزيل السيد من الأفهام أى أثر لفهم خاطىء ، نراه ينادى بموقفه هو من الآب ، وموقف الآب منه ، « أنا والآب واحد » وحينما ثار عليه اليهود ، وتناولوا حجارة ليرجموه ، لم يتراجع عن هذا الإعلان ، ولم يقل لهم : « ليس هذا ما أرمى إليه » فهو واحد مع الآب فى الجوهر ، « وكان الكلمة الله » . وهو واحد مع الآب فى القدرة ، فكما أنه لايستطيع أحد أن يخطف الرعية من يد الآب ، كذلك « لن يخطفها أحد من يدى » . وهو واحد مع الاب فى الإرادة .

بسبب إعلان هذا الحق ثار اليهود عليه . وبسببه يحاول كل مفسر عصرى ، أن يتنكب طريق الإيمان القويم ، ويقدم تفسيراً يهدىء من ثائرة الثائرين .

ولكن هذا هو الحق الذى نؤمن به . وهو الحق الذى امتدح السيد «سمعان» بسببه قائلا له : « طوبى لك ياسمعان بن يونا . إن لحما ودماً لم يعلنا لك ،لكن قد أعلن لك من قبل أبى الذى فى السموات » .

---

(١) هذه الفقرة مضافة بقلم المعرب .

فَتَنَاوَلَ ٱلْيَهُودُ أَيْضاً حِجَارَةً لِيَرْجُمُوهُ . أَجَابَهُمْ يَسُوعُ أَعْمَالاً كَثِيرَةً حَسَنَةً أَرَيْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ أَبِي. بِسَبَبِ أَيِّ عَمَلٍ مِنْهَا تَرْجُمُونَنِي . أَجَابَهُ ٱلْيَهُودُ قَائِلِينَ لَسْنَا نَرْجُمُكَ لِأَجْلِ عَمَلٍ حَسَنٍ بَلْ لِأَجْلِ تَجْدِيفٍ ، فَإِنَّكَ وَأَنْتَ إِنْسَانٌ تَجْعَلُ نَفْسَكَ إِلٰهاً . أَجَابَهُمْ يَسُوعُ أَلَيْسَ مَكْتُوباً فِي نَامُوسِكُمْ أَنَا قُلْتُ إِنَّكُمْ آلِهَةٌ . إِنْ قَالَ آلِهَةٌ لِأُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ صَارَتْ إِلَيْهِمْ كَلِمَةُ ٱللهِ . وَلَايُمْكِنُ أَنْ يُنْقَضَ ٱلْمَكْتُوبُ . فَٱلَّذِي قَدَّسَهُ ٱلْآبُ وَأَرْسَلَهُ إِلَى ٱلْعَالَمِ أَتَقُولُونَ لَهُ إِنَّكَ تُجَدِّفُ لِأَنِّي قُلْتُ إِنِّي ٱبْنُ ٱللهِ . إِنْ كُنْتُ لَسْتُ أَعْمَلُ أَعْمَالَ أَبِي فَلَا تُؤْمِنُوا بِي . وَلٰكِنْ إِنْ كُنْتُ أَعْمَلُ فَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا بِي فَآمِنُوا بِٱلْأَعْمَالِ لِكَيْ تَعْرِفُوا وَتُؤْمِنُوا أَنَّ ٱلْآبَ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ . فَطَلَبُوا أَيْضاً أَنْ يُمْسِكُوهُ فَخَرَجَ مِنْ أَيْدِيهِمْ .

(يوحنا ١٠ : ٣١-٣٩)

ولقد كان الحق الذى نادى به «يسوع» فى نظر اليهود تجديفاً قاسياً . لقد كان تعدياً على دائرة هى أبعد ما تكون عن طوق البشر . . دائرة تخص الله وحده .

ومهما سما الإنسان ، فلن يصل إلى دائرة تخص الله . ومهما كانت له أمجاده ، فلن تتطاول على مجد الله . لقد كان إعلان «يسوع» بأنه والآب واحد ، ليس أقل من تصريح بأنه مساو لله . وكان العقاب على التجديف كما يقضى بذلك الناموس الموسوى ، هو الموت رجما بالأحجار « من جدف على اسم الرب فإنه يقتل يرجمه كل الجماعة رجما . الغريب كالوطنى عند ما يجدف على اسم الرب يقتل » (لاويين ٢٤:١٦) وهكذا أعد اليهود العدة ليرجموا « يسوع » ، وهذا ماتعنيه الكلمات فى الأصل اليونانى . لقد أسرعت جماعة منهم ، وأحضرت الأحجار من الوادى ، وكانوا على إستعداد ليخرجوه خارج الهيكل ، ويرجموه .

أما يسوع فقد واجه ثورتهم بمناقشة ذات بنود ثلاثة :

١ – فهو قد قال لهم ، إنه قضى حياته بينهم يصنع خيراً بهم . يشفى المرضى . . يشبع الجياع . . يعزى الحزانى . . يشفى منكسرى القلوب . . يبشر المساكين . . يكرز بسنة الرب المقبولة – أعمال كلها تشهد له أنه من عند الله جاء ، خيراً وهدى للعالمين . فعلى أى عمل من هذه يريدون أن يعاقبوه بالرجم ؟ وكان جوابهم ، إنهم لايريدون أن يميتوه لأجل أى عمل حسن قام به ، ولكن لأجل الادعاء الخطير الذى نادى به .

٢ – وماهو هذا الادعاء ؟ إنه وهو إنسان قد جعل من نفسه إبناً لله ، مساوياً نفسه بالله . ولكى يؤكد السيد هذه الحقيقة العسيرة على الأذهان

نراه يستخدم حجتين . الحجة الأولى ، عبرية مائة فى المائة ، يقتبسها من سفر المزامير (مز ٨٢ : ٦) ، ولذلك تبدو عسيرة علينا فى فهمها . فى هذا المزمور يتحدث كاتبه بنغمة التحذير ، لأولئك الذين يحتلون مراكز السلطة ، وفى أيديهم سلطان الديونة والقضاء ، أن يعملوا على إنصاف الفقير والمسكين ، إذ لامعين له . ثم يختم هذا التحذير بالقول « أنا قلت إنكم آلهة » .

إن القاضى ، أو الحاكم ، معين من قبل الله ، ليقيم موازين العدالة بين البشر . . لينصف البائس من شر الظالم ، ويعين الفقير لبلوغ هدفه فهو بين البشر فى مركز الله . أو بحسب تعبير كاتب المزمور ، القضاة هم الآلهة بين البشر . هذا القول يتضح بصورة أكمل ، فى سفر الخروج . فى الأصحاح الحادى والعشرين من العدد الأول للعدد السادس ، نجد الشرع اليهودى يحتم تحرير العبد فى السنة السابعة ، سنة اليوبيل — فى العدد السادس : نقرأ القول « يقدمه سيده إلى الله » أى إلى القاضى الحاكم ، وفى الأصل العبرى « الوهيم » أى الآلهة . فالقضاة آلهة . نفس التعبير يتردد أيضاً فى سفر الخروج (٢٢ : ٩ ، ٢٨) . لقد كان الكتاب يلقب أولئك الذين يوكل إليهم عمل جوهرى يتصل بمصائر البشر ، ويتحكم فيهم ، بأنهم آلهة . وهكذا يقول « يسوع » لسامعيه من اليهود : « إن كانت الكتب المقدسة تقول عن البشر إنهم آلهة ، فكم بالحرى الابن المبارك ، قدوس الله الوحيد ، يتحدث هكذا عن نفسه ؟ . .

ولقد نادى « يسوع » فى هذا الصدد ، بحقين يتصلان به :

(ا) الحق الأول ، أنه قدوس الله المعين ، والمكرس من الله لهذا العمل الخاص والكلمة اليونانية المرادفة للفعل يكرس ، هى « آجيازين أو هاجيازين » ، ومنها

اشتقت الصفة « آجيوس » ، ومعناها قدوس ، التي تتردد ضمن قراءات القداس فى الكنائس التقليدية .

هذا الفعل على الدوام ، يعطى الفكرة بإفراز شيء ، أو كائن ما ، وتخصيصه ، وتقديسه لعمل معين ، أو مهمة خاصة ، فيقال عن هذا الشيء أو هذا الشخص إنه مكرس ، أى أنه مخصص لهذا العمل ، الذى يختلف عن كل أعمال الحياة العادية .

- فيوم السبت مثلا مقدس . (خروج ٢٠ : ١١) . أى أنه مخصص لغرض سام هو عبادة الله ، وهذا الغرض يختلف كل الأختلاف عن أغراض الحياة العادية . والمذبح فى الهيكل مقدس (لاويين ١٦ : ١٩) . ذلك لأن المذبح يختلف فى الغرض الذى خصص له ، عن أى بناء أو حجر يشبهه فى المظهر . والكهنة مقدسون (أخبار الأيام الثانى ٢٦ : ١٨) . لأن الكهنة رغم كونهم من بنى البشر ، قد تخصصوا وتكرسوا وأفرزوا لخدمة معينة ، وغرض خاص . والنبى مقدس (أرميا ١ : ٥) . لأن النبى يختلف فى خدمته ، وهدفه ، والعمل الذى كلف به عن بقية الناس .

فحينما قال « يسوع » لليهود ، إن الآب قدسه أو كرسه ، فمعنى هذا هو أن الآب قد خصصه وعزله وأفرزه لعمل وهدف وغاية تختلف به عن بقية البشر ، وتسمو به عنهم . إن مجرد هذا القول ، يثبت لنا بصورة لا تدعو للشك ، أن « يسوع » كان شاعراً بالواجب المقدس ، والمهمة العظمى ، التى كلفه بها الله الآب ، ألا وهى فداء البشرية وخلاصها .

(ب) والحق الثانى هو أن الله قد أرسله إلى العالم . والكلمة هنا ، يمكن أن تستخدم فى إرسال رسول لمهمة خاصة . أو سفير ليمثل أمته ، أو جيش

ليقوم بعمل ما . فحينما قرن «يسوع» نفسه بهذا الفعل «أرسل»، فإنه كان يشير إلى أنه رسول الله إلى العالم. إن مجيء المسيح إلى عالمنا كان عملا إلهيا، وكان بتكليف إلهي . لقد جاء لمهمة محددة من قبل الله الآب ، وجاء ممثلا لله الآب . وجاء ليقوم بعمل محدد ، العمل الذى أعطاه له الآب .

وهكذا قال لهم «يسوع» ماخلاصته . « فى الأيام الخوالى ، تحدث الكتاب عن القضاة بأنهم آلهة . لأنهم خصصوا وكلفوا من الله ، بأن يقيموا موازين العدالة بين البشر ، وهى مهمة إلهية . وها أنا أذكر لكم أن الله قد خصصنى ، وكرسنى لعمل محدد . وأنه قد أرسلنى إلى العالم لاتمام هذا العمل .فكيف بكم تثورون ضدى حين أقول لكم إنى أنا ابن الله ؟ »

هذه واحدة من المحاجات العسيرة الفهم على عقولنا ، تلك المحاجات التى دارت بين «يسوع» وبين اليهود . ولكنها كانت محاجة مقنعة مفحمة ، وخاصة للحبر اليهودى ، أو الفريسى دارس التوراة . لقد كانت حجة «يسوع» التى أوردها هنا ، مبنية على الكلمة المقدسة التى يحترمها ويكرمها كل يهودى .

٣ ــ ثم يخطو بهم «يسوع» إلى الخطوة الحاسمة ، ويقدم لسامعيه الاختبار الحاسم قائلا : « انى لا أدعوكم لقبول كلامى ، لكنى أطلب منكم أن تزنوا بالأعمال التى أقوم بها » . فالتعاليم عرضة للاخذ والرد ، للقبول والرفض ؟ أما الأعمال ، فلامجال للمقاومة فيها . إنها الحجة الدامغة التى لاتقبل أى مقاومة .

إن المناداة الكلامية بحق من الحقوق ، ونسبة هذا الحق للإنسان ، قد تثير الشك والاعتراض والمناقضة . ولكن أعمال الأنسان ، لامناقضة فيها . ويسوع هو المعلم الصادق، لأنه لا يبنى حجته ، ولايقيم حقه ، على أساس

كلمات ينادى بها ، بل على أساس طبيعته ، وعلى أساس أعماله الصادقة . وهو يقدم الأختبار الحاسم لكل إنسان ، ويقدم له الأختبار الحاسم، المبنى على الأعمال. ان دعوته لليهود، تقوم على أساس ذاته، وعلى اساس أعماله ، وهذا هو محك الأختبار الذى يظهر معدن المؤمن ، ومعدن الكنيسة . ان مأساة الكنيسة فى يومنا الحاضر ، هى أنها لاتستطيع أن تثبت أمام هذا الأختبار الحاسم .

هدوء قبيل العاصفة

وَمَضَى أَيْضاً إِلَى عَبْرِ ٱلْأُرْدُنِّ إِلَى ٱلْمَكَانِ ٱلَّذِى كَانَ يُوحَنَّا يُعَمِّدُ فِيهِ أَوَّلاً وَمَكَثَ هُنَاكَ . فَأَتَى إِلَيْهِ كَثِيرُونَ وَقَالُوا إِنَّ يُوحَنَّا لَمْ يَفْعَلْ آيَةً وَاحِدَةً . وَلٰكِنْ كُلُّ مَاقَالَهُ يُوحَنَّا عَنْ هٰذَا كَانَ حَقًّا . فَآمَنَ كَثِيرُونَ بِهِ هُنَاكَ

(يوحنا ١٠ : ٤٠ - ٤٢)

لقد بدأت الأمور تتأزم بالنسبة ليسوع ، ولكنه كان يعرف ساعته . لقد كان يضع كل شيء فى موضعه . ولذلك لم يكن يستعجل الوقت ، ولم يكن يلقى بنفسه إلى الخطر قبل وقوعه . ونحن لانعتبر هذا تراجعاً ، ولانرى فيه هروبا من الخطر ، أو حفاظاً على الحياة . ولكن السيد أراد أن يعتزل فترة من الوقت ، استعداداً للمعركة الأخيرة . لقد أراد أن يختلى مع الآب ، لينال القوة والعون . هكذا كان «يسوع» على الدوام يعد العدة للقاء البشر ، علاقاة الله أولا . وهكذا نراه يلجأ إلى عبر الأردن ، فى خلوته الروحية .

ولكن المكان الذى لجأ إليه ، لم يكن مكانا حسبما اتفق لقد كان يحمل أكثر من دلالة بالنسبة ليسوع . فهو المكان الذى إعتاد « يوحنا » ان يعمد فيه تلاميذه . نعم لقد لجأ إلى المكان الذى نال فيه معموديته على يدى « يوحنا المعمدان » . فى هذا الموضع ، هبط الروح القدس عليه ، فى هيئة جسمية مثل حمامة ، ودوى الصوت من عند الآب : « هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت له اسمعوا » . فى هذا الموضع تأكد « يسوع » من أصله .

ومن هدفه ، وتحددت أمامه أرساليته . وليس بغير دلالة أو معنى ، أن يعود «يسوع» إلى مكان القوة والذكريات المجيدة ، قبيل هبوب العاصفة . وفى العهد القديم نرى «يعقوب»أبا الأسباط ، كان يعود إلى بيت إيل (تكوين ٣٥ : ٥ـ١) كلما تأزمت الظروف حوله . إنه كان يعود إلى المكان الذى وجد فيه العون الالهى . وهكذا نرى «يسوع» ، عنداقتراب نهاية خدمته على الأرض ، يعود إلى مكان البركة ، الذى منه بدأ خدمته ، وإلى مكان القوة ، الذى نال فيه ملء القوة — ما أجمل أن نعود بين الحين والحين ، إلى المكان الذى وجدنا فيه الله ، أو وجدنا فيه من الله ، لأن هذا نافع لنفوسنا .

وإلى هذا المكان القصى ، توافد اليهود أيضاً ، وهناك تذكروا «يوحنا المعمدان» ، وخدمته القصيرة ، وارساليته الملتهبة . هناك تذكروا أنه تقدم إلى البشرية بكلمات نبى ، ولكنه لم يعمل معجزة واحدة .

هنا يكمن الفارق بين رسالة الله فى المعمدان ، ورسالته فى المسيح يسوع . فى «يسوع» تأيدت رسالة المعمدان ، بقوة الله المعجزية . لقد شخص يوحنا المعمدان الداء ، لكن «يسوع» جاء ليقدم العلاج الفعال ، ويواجه بنعمة الله الحالة المستعصية القاسية .

ولقد كان اليهود يؤمنون بالمعمدان كنبى عظيم ، وهنا آمنوا بيسوع ، على أساس ماتنبأ به عنه «يوحنا المعمدان» .

كم من إنسان فى الوجود ، ظهر وسط خلانه ، وكأنما المستقبل يبسم له ، وكأنى بكل قريب يرى تحقيق آماله فيه . فاذا به يخيب آمال الجميع . ولكننا نرى «يسوع» يفوق رجاء المعمدان ، ويتحقق فيه أكثر مما نادى به من نبوات ، ويتفوق على الجميع . هنا تكمن عظمته وسموه .

إن «يسوع» هو الوحيد فى الوجود ، الذى لم يخيب رجاء من وضع رجاءه فيه ، ولم يطأطىء رأس من رفع عينيه نحوه .

ٱلْأَصْحَاحُ ٱلْحَادِى عَشَرَ

فى الطريق إلى المجد

وَكَانَ إِنْسَانٌ مَرِيضاً وَهُوَ لِعَازَرُ مِنْ بَيْتِ عَنْيَا مِنْ قَرْيَةِ مَرْيَمَ وَمَرْثَا أُخْتِهَا . وَكَانَتْ مَرْيَمُ ٱلَّتِى كَانَ لِعَازَرُ أَخُوهَا مَرِيضاً هِىَ ٱلَّتِى دَهَنَتِ ٱلرَّبَّ بِطِيبٍ وَمَسَحَتْ رِجْلَيْهِ بِشَعْرِهَا . فَأَرْسَلَتِ ٱلْأُخْتَانِ إِلَيْهِ قَائِلَتَيْنِ يَاسَيِّدُ هُوَذَا ٱلَّذِى تُحِبُّهُ مَرِيضٌ .

فَلَمَّا سَمِعَ يَسُوعُ قَالَ هٰذَا ٱلْمَرَضُ لَيْسَ لِلْمَوْتِ بَلْ لِأَجْلِ مَجْدِ ٱللهِ لِيَتَمَجَّدَ ٱبْنُ ٱللهِ بِهِ . وَكَانَ يَسُوعُ يُحِبُّ مَرْثَا وَأُخْتَهَا وَلِعَازَرَ .

(يوحنا ١١ : ١ – ٥)

جميل أن يكون للإنسان بيته . . البيت الذى يستطيع أن يلجأ إليه فى أى وقت من الأوقات ، وفى أى ظرف من الظروف ، فيجد بين جدرانه الراحة والتفاهم ، والسلام والمحبة . فالبيت الهادىء نعمة عظمى من نعم القدير على الإنسان . . . ومع أن «يسوع» لم يكن له بيت بالمعنى

الذى نمهمه . فهو الذى قال : « للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار ، وأما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه » (لوقا ٩: ٥٨) إلا أنه قد وجد لنفسه بيتا مع أسرة بيت عنيا . هناك وجد قلوبا ثلاثة تخفق له خفقات الحب . وإلى هناك كان يلجأ بين وقت وآخر ـ ليجد الراحة من العواصف التى كانت تهب عليه .

وأعظم هبة يستطيع الصديق أن يهبها لصديقه . هى المحبة والسلام . أن يكون للإنسان فى دائرة الحياة . واحد يستطيع أن يلجأ إليه ، فلا يسخر من أحلامه ، ولا يضحك أمام متاعبه ، ولا يخيب ثقته فيه ، هذا شىء جميل . ونحن نستطيع جميعا أن نجعل بيوتنا بهذه الصورة . نستطيع أن نفتح بيوتنا وقلوبنا ، لتكون ملجأ للصديق الصادق ، وهذا لن يكلفنا مالا كثيرا ، ولن يتطلب موائد فاخرة . إنه يحتاج فقط إلى القلب الفائض والعواطف المرهفة .

فى طريق الحياة القاسى ، لاعطية تعادل الراحة للأقدام المتعبة . وهنا يجد «يسوع» راحة لقدميه ، فى بيت حبيب ، هو بيت عنيا ، حيث كان يعيش ثلاثه إخوة «مريم» «ومرثا» مع أخيهما «لعازر» .

أما اسم «لعازر» فمعناه فى الأصل : « الرب عونى » وهو يعادل نفس الاسم «أليعازار» ـ ودارت دورة الأيام ، وسقط «لعازر» مريضا . وأرسلت الأختان رسالة مركزة فى كلمات قليلة ، ولكنها تغنى عن خطاب طويل . هذه الرسالة لم تكن تحوى أدنى طلب أو رجاء موجه ليسوع . لقد كانت الأختان تعرفان ، أنه لا لزوم لذلك . فالحقيقة المجردة ؛ أو الظرف المتأزم . حينما يوضع تحت أنظار «يسوع» ، كفيل بأن يتحدث إليه بأفصح لسان ، وأرق رجاء ، كما يقول «القديس أوغسطينوس» ،

يكفى أن يعرف « يسوع » حالتنا ، وحاجتنا . فكيف يمكن أن إنسانا يحب إنسانا آخر ويتخلى عنه فى محنته ؟

يتحدث كاتب قديس[1] عن اثنين من الجند ، كانا يخدمان معاً فى كتيبة واحده فى الحرب العالمية الأولى . وفى أثناء القتال جرح الواحد ، وترك فى مكانه ينزف فى آلامه . وحيدا ، لا يستطيع إنسان أن يمد يد المعونة إليه ، أما زميله إذ عرف الحقيقة ، قام تحت جنح الظلام ، ووسط أزيز الرصاص ، ودوى المفرقعات ، تحت خطر الموت ، وزحف من خندقه حتى وصل إليه ، ونظر إليه الجريح وقال بابتسامة : « لقد كنت أعرف أنك لا بد وأن تأتى . . ! ! إن حقيقة الحاجة الملحة ، لا بد وأن تدفع «يسوع» إلى الوقوف إلى جوارنا فى أقل من لمح البصر .

وحينما يأتى السيد إلى بيت عنيا ، فلا بد أن يعرف عمله ، ولا بد أن يظهر قوته . ولكننا نستمع إليه يقول لتلاميذه : « هذا المرض ليس للموت بل لأجل مجد الله » . وكان هذا القول صحيحا من وجهتين :

١ — فإقامة ميت من الأموات ، لا بد أن تظهر مجد الله فى ملء قوته وعمله .

٢ — ولكن هنالك وجهة نظر أبعد من هذه . فبين سطور البشارة الرابعة ، يتحدث «يسوع» المرة بعد الأخرى ، قارنا أمجاده بصليبه . فى الأصحاح السابع ، والعدد التاسع والثلاثين ، نرى كاتب البشارة يتحدث

C.F. Andrews (١)

قائلا: إن الروح لم يكن قد أعطى بعد ، لأن «يسوع» لم يكن قد مجد بعد . والمقصود بهذا القول ، أن «يسوع» لم يكن قد مات على الصليب بعد . وحينما أتت سفارة اليونانيين إلى «يسوع»، نسمعه يقول : « قد أتت الساعة ليتمجد ابن الإنسان » (يوحنا ١٢ : ٥٣) ، أما هذا التمجيد، فيفسره الكلام الذى يتبع هذا، حيث نجد «يسوع» يتحدث عن موت حبة الحنطة ، لتأتى بثمر كثير . وفى يوحنا (١٢ : ١٦) نجد كاتب البشارة يقول إن التلاميذ تذكروا ما كتب عن «يسوع» ، وما قاموا هم بإتمامه دون أن يعرفوا ، وذلك بعد أن تمجد «يسوع» ، أى بعد أن مات وقام من بين الأموات .

— فى البشارة الرابعة ، يتضح كل الوضوح ، أن «يسوع» كان يعتبر الصليب الطريق إلى أمجاده ، بل أعظم أمجاده ، وهكذا حين قال إن شفاء «لعازر»، أو اقامته من الموت ، سيمجده ، فقد كان يقصد تماما أن ذهابه إلى بيت عنيا ، وقيامه بهذه المعجزة ، معناه خطوة سريعة تقترب به إلى الموت ، إلى الصليب . وهذا هو عين ما حدث بالفعل .

وقبل «يسوع» بكل رضى ، أن يتقدم تلك الخطوة المرة . . الخطوة إلى الموت ، فى سبيل إنقاذ حبيبه «لعازر» . لقد كان يعرف الثمن الباهظ ، ولكنه لم يتردد ، ولم يتراجع . . . حينما تحيط بنا بعض التجارب : أو تكتنفنا بعض الضيقات ، وخاصة إذا كانت تلك التجارب ، أو الضيقات نتيجة ولائنا لشخص ربنا يسوع ، وخدمتنا له ، تتغير نظرتنا لكل شىء ، ونرى فى الصليب الذى نحمله ، مجدنا ، بل نرى فيه الطريق إلى أمجاد أعظم ، سوف تعلن لنا فيما بعد . فما أمجد أن يتألم الإنسان فى سبيل «يسوع» ، ولا شرف يدانى هذا الشرف العظيم .

وإذا كنا نؤمن بما قاله السيد ، علينا أن نثق بأن الذى يحمل صليبه ، ويتبع « يسوع » بكل رضى وتسليم ، لا بد فى النهاية ، أن ينال إكليل المجد الذى وعد به الرب الذين يحبونه فى غير فساد .

بالنسبة لرب المجد ، لم يكن هناك من سبيل إلى أمجاده إلا طريق الصليب ، وأتباعه أيضاً لا سبيل لهم إلى الأمجاد ، غير هذا السبيل .

وقت كاف ، ولكنه ليس كثيرا

فَلَمَّا سَمِعَ أَنَّهُ مَرِيضٌ مَكَثَ حِينَئِذٍ فِي ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِي كَانَ فِيهِ يَوْمَيْنِ . ثُمَّ بَعْدَ ذٰلِكَ قَالَ لِتَلَامِيذِهِ لِنَذْهَبْ إِلَى ٱلْيَهُودِيَّةِ أَيْضاً . قَالَ لَهُ ٱلتَّلَامِيذُ يَامُعَلِّمُ ٱلْآنَ كَانَ ٱلْيَهُودُ يَطْلُبُونَ أَنْ يَرْجُمُوكَ وَتَذْهَبُ أَيْضاً إِلَى هُنَاكَ . أَجَابَ يَسُوعُ أَلَيْسَتْ سَاعَاتُ ٱلنَّهَارِ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ . إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَمْشِي فِي ٱلنَّهَارِ لَا يَعْثُرُ لِأَنَّهُ يَنْظُرُ نُورَ هٰذَا ٱلْعَالَمِ . وَلٰكِنْ إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَمْشِي فِي ٱللَّيْلِ يَعْثُرُ لِأَنَّ ٱلنُّورَ لَيْسَ فِيهِ .

(يوحنا ١١ : ٦ — ١٠)

قد يبدو غريباً لأفهامنا ،أن يمكث «يسوع» حيث هو يومين كاملين، بعد أن تلقى نبأ مرض حبيبه «لعازر» . كثيرون حاولوا أن يفسروا هذا التأخير .

قال البعض إن «يسوع» مكث حيث هو حتى تقع بالفعل حادثة موت لعازر .

وعند ذلك تصبح المعجزة أمجد وأقوى وقعا . فلمسة الشفاء لمريض ، مهما كان مرضه قاسيا مستعصيا مهما سما شأنها ، لن تعادل عودة ميت من قبره إلى الحياة ، وخاصة إذا كان قد بقى أربعة أيام فى القبر ، فتحلل جسده وانتن .

والسبب الأساسى الذى يهدف إليه البشير من تقرير هذه الحقيقة ، ليصور لنا أن «يسوع» يعمل بميعاده هو . وبحسابه هو ، وليس بحساب ، أو إغراء أى إنسان آخر — فى معجزة تحويل الماء إلى خمر فى عرس قانا الجليل ، (يوحنا ٢ : ١ — ١١)، نجد «يسوع» يتحدث إلى العذراء المطوبة قائلا : « مالى ولك يا امرأة . لم تأت ساعة بعد » ، أى لا تحاولى أن تفرضى ساعة معينة على . دعينى أعمل حسب موعدى وحسب ساعتى أنا . . وحين يعرض «يوحنا» لمحاولة إخوة «يسوع» أن يدفعوه للذهاب إلى أورشليم (يوحنا ٧ : ١ — ١٠) نجده يرفض أن يذهب للعيد تحت إلحاح إخوته ، ولكنه يذهب أخيراً فى ميقاته المعين . لقد كان هدف البشير على الدوام ، أن يظهر لنا «يسوع» وهو يعمل بوحى من ساعته ، وميقاته المحدد ليس لأنه دفع لهذا العمل ، أو قام به تحت الحاح من آخرين ، أو إغراء من سواه . وهنا يتبع البشير نفس الطريقة فى سرده للأحداث . إنه يصور لنا «يسوع» وهو يختار ميعاده هو .

وكم من المرات نحاول نحن أن نتعجل مسيحنا فى طريق عمله . أن ندفعه وليعمل سريعا . ينبغى أن نتركه لوقته المعين ، لساعته التى يختارها . .

وحينما أعلن « يسوع » أخيراً أنه ذاهب إلى اليهودية ، كان هذا القرار بمثابة صدمة قوية أصابت التلاميذ . فقد كانوا يذكرون أنه فى الزيارة الأخيرة التى كان فيها هناك ، حاول اليهود أن يقتلوه . إن الذهاب إلى

اليهودية فى تلك الآونة كان عملية انتحارية ، بحسب النظرة البشرية .

وعندها هتف «يسوع» لتلاميذه بهذا المثل الخالد : « أليست ساعات النهار اثنتى عشرة ساعة . . » ترى ماذا يعنى السيد بهذا القول ؟ :

١ ــ إنه يعنى أن اليوم لاينتهى ، قبل أن تنتهى ساعاته . فنى كل يوم توجد اثنتا عشرة ساعة ، والمقصود باليوم هنا ، هو النهار من مشرق الشمس إلى مغربها ــ وهذه الساعات لابد وأن تأخذ مجراها ، وتتم مهما حدث من أحداث . إن ساعات النهار ، محددة ثابتة ، لا يقصرها ولا يطيلها شىء . فإن اختار الإنسان أن يخدم الله ، فيوم الحياة بالنسبة لذلك الإنسان ، لن ينتهى قبل أن تنتهى ساعاته المحددة . إن هناك حدوداً فى تدبير الله لكل شىء فى الوجود . وكل إنسان ، له يومه المحدد ، طال هذا اليوم أم قصر .

٢ ــ على أن هذا المثل يعنى أيضاً ، أن يوم الحياة ليس بالقصير . وقت كاف ليعمل الإنسان ويتمم كل ما يعمل . لا داعى لليأس ، داعى أيضاً للعجلة . فلو استخدم الإنسان ساعاته الاثنتى عشرة بكل دقة يستطيع أن يتمم كل واجباته وزيادة . إن اثنتى عشرة ساعة ليست بالوقت القصير . إنها فرصة كافية ، نستطيع أن نتمم فيها مقاصد الله فى حياتنا . .

٣ ــ ولكن ، حتى وإن كانت هذه الساعات كافية ، إلا أنها بالرغم من كل هذا ، محددة . فهى اثنتا عشرة ساعة وكفى ، ولا يمكن أن تطول دقيقة واحدة .

ولذلك فلا مجال لأضاعة دقيقة منها . ينبغى أن نستخدم كل لحظة ، على قدر ما نستطيع .

هنا تبدو أمامنا حقيقة من أقوى الحقائق الرهيبة ، التى تهدد حياة الإنسان . حقيقة الزمن ، ومحدوديته ، وعدم عودته . فساعات النهار وافرة تصل إلى اثنتى عشرة ساعة ، لكنها لاتزيد عن اثنتى عشرة ساعة. لاداعى حقاً للتعجل ، كما أنه لا مكان لإضاعة دقيقة وحدة . هناك وقت كاف لمهام الحياة ، لكن لاتوجد لحظة واحدة زائدة نضيعها فيما لايفيد .

النهار والليل

(يوحنا ١١ : ٦ – ١٠)

ثم يستمر معلم الأجيال والدهور ، موسعا فى حديثه عن الزمن والإنسان فيقول ، إنه إذا أغتنم الإنسان فرصة النهار ، فرصة النور ، فانه يستطيع أن يسلك فى الطريق ولا يتعثر . ولكن إن سار فى الليل فهناك أكثر من احتمال لسقوطه ، وتعثره .

حسبما اعتدنا على الدوام ، أن نجد فى كلمات المسيح المدونة فى البشارة الرابعة — نجد هنا معنيين : المعنى الأول ظاهرى سطحى ، والمعنى الثانى عميق خفى . . والمعنيان لايقل الواحد منهما فى حقيقته عن الآخر .

١ – فهناك المعنى الظاهرى الذى ينبغى أن ندركه ونتعلمه ، وهو يدور حول حقيقة النهار وساعاته . فقد كان اليوم اليهودى ، كما كان أيضاً اليوم عند الرومان . مقسما إلى اثنتى عشرة ساعة . يبدأ من شروق الشمس ، وينتهى بمغيبها . تبعاً لفصول السنة المتتابعة . فالساعة الزمنية فى الصيف طويلة ، والساعة فى الشتاء قصيرة . لقد كان اليوم يبدأ بيقظة

الشمس ، ويستمر باستمرارها ، وينتهى بنومها . وهذا اليوم كان يقسم بالتساوى ، إلى ساعاته الإثنتى عشرة .

وهكذا ، حينما نادى «يسوع»أن من يسير فى النهار لايعثر لأنه ينظر نور هذا العالم ، فقد كان يعنى بالفعل ، أن من يسير فى النور لايسقط ، طالما كان النور ينير له طريقه . ولكن حينما يأتى الليل ، وتختفى الشمس ، فإنه لن يستطيع أن يتبين جيداً ملامح الطريق . إذ لم تكن هناك أنوار صناعية تنير السبل ، نظير ما نراه فى أيامنا الحاضرة .

وربما كانت هناك بعض المناسبات كالأعياد ، وغير ذلك،التى يشع فيها النور من الهيكل . ولكن الحقيقة أنه فى القرى ، والضياع ، وفى معظم أيام السنة ، كان الظلام يسود الطرقات . وهكذا حين كان يحل المساء كان ينتهى وقت الرحيل ، ويلجأ الإنسان إلى داره ، أو إلى دار صديقه ، للمبيت حتى يسفر صباح اليوم التالى .

هنا نرى «يسوع» يقول ،إن على الإنسان أن يستغل فرصة النهار ،وينتهى من عمله لأن الليل يأتى ،حيث تنتهى فرصة العمل إن كانت للإنسان رغبته ، أو هدفه الذى يريد أن يتممه ، ليصل إلى نهاية هذا الهدف ، وإتمام تلك الرغبة خلال ساعات النهار ، إن مظاهر القلق والخوف ، والعجلة ، والإرتباك الذى نقع فيه ، سببها أننا نريد أن نتخلص من أعباء قد تراكمت علينا بسبب تكاسلنا فى الأيام الماضية، عن إنهائها والتخلص منها . ينبغى علينا أن نحسب حسابا للوقت ،عارفين أنه ذخيرة مباركة بين ايدينا . ولكنها ذخيرة معرضة للنفاذ يجب ألا نبعثرها ونلهو بها كما نشاء . فاليوم حين يمضى لن يعود ، والساعة حين تنتهى لاترجع ، وتبقى الواجبات مكدسة علينا كما هى .

٢ — ولكن وراء هذا المعنى الظاهرى ، يوجد معنى أكثر عمقاً . وأى إنسان منا ، لايقف وقفة تأمل أمام كلمة «لأنه ينظر نورهذا العالم»، ويرى فيها تذكيرا بالقول: « أنا هو نور العالم » ؟ من يسمع كلمة نور العالم ولا يذكر فى الحال «يسوع» نور العالم ؟ هنا تتكرر المقارنة بين الظلمة والنور، بين الليل والنهار ، لتقدم لنا صورة مقارنة للحياة بغير المسيح ، تحت سلطان الشيطان ، وللحياة مع المسيح فى ملء البركة والنعمة . ونحن نجد نفس اللمسة فى العدد الثلاثين من الأصحاح الثالث عشر من نفس البشارة حيث يتحدث «البشيريوحنا»عن «يهوذا» بعد أن أخذ لقمة الخبز من يدالسيد ، « فخرج للوقت ، وكان ليل» . . . إن الليل التعس الشقّى المر ، هو الذى يتخبط فيه الإنسان الخاطئ ، حينما يخرج بعيدا عن دائرة «يسوع » .

إن حجر الزاوية فى الأنجيل كله ، هو محبة الله ، ولكن هذه المحبة الإلهية ، لاتتركنا بغير تحذير أو انذار . إن لنا لفرصة ، عريضة ، متسعة ، كافية ، لكى نرتب أمورنا ، ونتصالح مع الله فى المسيح ، فاذا لم نغتنم هذه الفرصة ، فلنا الظلمة واللعنة ، والدينونة الرهيبة . وهكذا يقول لنا«يسوع» : « اغتنموا فرصتكم . أنجزوا هدف حياتكم الأعظم ، تصالحوا مع الله ، طالما كان الوقت نهار . يأتى الوقت الذى فيه تغرب الشمس ، ويبسط الليل ستاره الأسود ، . . نعم يأتى عليكم ليل الضيقات ، أو المتاعب ، أو الأحزان ، أو الشيخوخة ، أو المرض ، أو الموت . . وعندئذ قد تهرب الفرصة من أيديكم ولا تعود » .

لا توجد بشارة بين البشائر الأربع ، تنادى بأن الله يحب العالم بهذا القدر العظيم العميق ، قدر البشارة الرابعة . ولا توجد بالتالى بشارة تنادى

بأن تلك المحبة يمكن أن تنقلب دينونة على صاحبها لأنه رفضها ويزدريها، ولا يغتنم فرصتها ، قدر البشارة الرابعة أيضاً . إن نغمتين أساسيتين تسودان على إنجيل يوحنا : أمجاد الفرصة التي نغتنمها ، ومأساة الفرصة التي نقلت منا ونضيع ..

الرجل الذى لم يشأ أن يترك يسوع

قَالَ هٰذَا وَبَعْدَ ذٰلِكَ قَالَ لَهُمْ. لِعَازَرُ حَبِيبُنَا قَدْ نَامَ. لٰكِنِّى أَذْهَبُ لِأُوقِظَهُ . فَقَالَ تَلَامِيذُهُ يَاسَيِّدُ إِنْ كَانَ قَدْ نَامَ فَهُوَ يُشْفَى . وَكَانَ يَسُوعُ يَقُولُ عَنْ مَوْتِهِ . وَهُمْ ظَنُّوا أَنَّهُ يَقُولُ عَنْ رُقَادِ ٱلنَّوْمِ . فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ حِينَئِذٍ عَلَانِيَةً لِعَازَرُ مَاتَ . وَأَنَا أَفْرَحُ لِأَجْلِكُمْ إِنِّى لَمْ أَكُنْ هُنَاكَ لِتُؤْمِنُوا . وَلٰكِنْ لِنَذْهَبْ إِلَيْهِ . فَقَالَ تُومَا ٱلَّذِى يُقَالُ لَهُ ٱلتَّوْأَمُ لِلتَّلَامِيذِ رُفَقَائِهِ لِنَذْهَبْ نَحْنُ أَيْضًا لِكَىْ نَمُوتَ مَعَهُ .

(يوحنا ١١ : ١١ – ١٦)

هنا يتبع البشير طريقته المعروفة فى تقديم نقاش دار بين «يسوع» وسامعيه. ونحن نرى نفس الطريقة فى أكثر من مناسبة ، يدور فيها النقاش بين المعلم وبين من حوله . فيتقدم «يسوع» بقول يبدو فى ظاهره أنه عادى . وهذا القول يسىء اليهود فهمه ، وعلى هذا النمط ، وهكذا ، يتقدم شارحاً ومفسراً لهم ما يرمى إليه .

تحدث السيد مع «نيقوديموس» عن الولادة الجديدة (يوحنا ٣ : ٣–٨) وعلى هذا النمط أيضاً دار الحديث بينه وبين المرأة السامرية على بئر سوخار (يوحنا ٤ : ١٠ — ١٥) . وهنا يبدأ حديثه لتلاميذه بإعلان يبدو فى ظاهره أنه عادى : «لعازر حبيبنا قد نام» — وكان لهذا الخبر وقع طيب فى نفوس التلاميذ ، فلا دواء يعدل النوم الهادىء . كما أن النوم الهادىء علامة قاطعة على أن حدة المرض قد خفت ، أو هى فى طريقها إلى الزوال . ولكن كلمة النوم التى تبدو عادية فى ظاهرها ، كان لها فى منطق «يسوع» معنى أعمق ، وأكثر خطورة . فهناك فى فرصة إقامة ابنة « يايرس » نرى السيد يقول لسامعيه «إن الصبية لم تمت لكنها نائمة» ، (متى ٩ : ٢٤) . وفى سفر الأعمال ، يتردد نفس المعنى ، عن استشهاد «اسطفانوس» شهيد المسيحية الأول ، فيرد عن موته القول : « وإذ قال هذا رقد » (أعمال ٧ : ٦٠) . أما رسول الأمم ، فنراه يكتب فى رسالته الأولى إلى أهل تسالونيكى(٤ : ١٣) عن أولئك الذين يرقدون فى الرب . وفى رسالته الأولى إلى كنائس كورنثوس ، نراه يتحدث بنفس التعبير ، عن أولئك الأخوة الذين شهدوا قيامة الرب يسوع من الأموات ، فيقول عن بعضهم إنهم ، رقدوا (١كورنثوس ١٥ : ٦) .

وهكذا أمام أذهانهم المغلقة ، لم يجد السيد بدا من أن يعلن لهم علانية ، أن لعازر قد مات . ولكنه استمر قائلا بأن هذا أفضل لهم ، لأنه ستكون لهم الفرصة ليشاهدوا معجزة أعظم ، ويتعمق إيمانهم أكثر فأكثر .

إن حجة المسيحيين على الديانات جمعاء ، هو ما يستطيع الله فى «يسوع المسيح» أن يفعله فى حياة البشر . قد تعجز الكلمات عن الإقناع ، وقد يضعف المنطق عن تقديم الحجة . ولكن لا حجة أقوى من الله فى العمل ، ولا منطق

أعلى من صوت معجزاته فى الإنسان . إن الله فى المسيح قد أجرى المعجزات فى حياة الملايين من بنى البشر، ومازال، وسيظل يجريها إلى نهاية الدهر . فقوته هى التى حولت «بطرس» الرعديد الذى أنكر سيده أمام جارية، إلى التلميذ الأول المقدام الذى نادى بحق المسيح فى يوم الخمسين وسط جموع اليهود ، موجها الإتهام إلى شيوخ اليهود ورؤساء الشعب. و«توما» الممتلىء بالشك، استطاعت نعمة المسيح المقام، أن تملأه بسلام اليقين . و«شاول الطرسوسى»، الفريسى الممتلىء سما وتعصبا وتهديداً ، تحول إلى رسول المسيحية الأول ، و«أوغسطينوس» ، الشاب المستهتر ، أصبح قديس المسيحية ومحاميها الأول . و«يوحنا بنيان»، الرجل المجدف نصف الأمى ، استطاع روح الله أن يلمس قلبه لمسة التجديد ، ويضع القلم النارى بين أصابعه ، حتى أن كتاباته أصبحت تدرس فى جامعات الغرب . هذه حقائق لاتدحر . وهى بالتالى تضع على عاتق كل واحد منا مسئولية خطيرة عظمى. إن هدف الله فى تجديدنا، هو أن يكون كل واحد منا دليلا حياً ناطقاً على أثر فاعلية النعمة الإلهية ، وعمل المسيح فى القلب ... أن يكون شاهداً حياً بين الناس بكم صنع به الرب ورحمه .

نعود فنقول، إن حادثة موت «لعازر» كانت فرصة للتلاميذ ، لإختبار أعمق ، وإيمان أقوى . وكما قال أحدهم مرة :

« إننى لاأحب الأزمات ، ولكننى أحب الفرص التى تتيحها الأزمات» لقد كان موت «لعازر» أزمة بالنسبة لشخصه ، وأزمة لشقيقتيه ، وأزمة ليسوع فقد كان مضطراً تحت إلحاح الظروف، أن يعود إلى اليهودية، والخطر يتهدده ، وأزمة بالنسبة للتلاميذ ، فما كان يحيق بسيدهم ، كان بالتالى يتهددهم . ولكن ينبغى حينما تحيط بنا الأزمات أن نثق بأنها بترتيب من الله ، وأن نرى فيها الفرصة لكى تمجد الله أكثر فى حياتنا .

وتراجع التلاميذ أمام الخطر الماثل، وأبدوا ترددهم فى الذهاب مع «يسوع» إلى اليهودية . فلقد كان الذهاب إلى دائرة أورشليم بعد الذى حدث أخيراً ، يعد فى نظرهم انتحاراً . وما كانوا على إستعداد أن يلقوا بأنفسهم إلى التهلكة . ولكن صوتاً واحداً هتف إلى جانب «يسوع» . وكان هذا صوت توما الذى يقال له التوأم . لقد هتف قائلا بشجاعة : « لنذهب نحن أيضاً لكى نموت معه » .

وأما عن لقب «توما» ، فقد كان الإسم المزدوج شائعاً بين اليهود . فكان الواحد له اسمه العبرى الذى يعرف به فى دائرته ، واسمه اليونانى الذى يعرف به فى دائرة أوسع . و«توما» هو الإسم العبرى ، أما «ديديموس» أو التوأم ، فهو الإسم اليونانى . هكذا كان للتلميذ الأول لقب «بطرس» فى اليونانية ، وإسم «صفا» فى العبرية ومعناه صخرة .

وأيضاً الفتاة التى أقامها «بطرس» من الموت ، كان اسمها «طابيثا» فى العبرية ، «ودوركاس» أو «غزالة» فى اليونانية .

لنترك هذا الفكر العرضى ونقول إن «توما» قد أظهر فى تلك الفرصة أسمى آيات الشجاعة . أو لعلها كما قال أحد المفسرين « أسمى درجات الأخلاص المندفع بروح اليأس» ليكن هذا . إن أسمى ما نصفه به أن نقول عنه ، بأنه الرجل الذى لم يشأ أن يترك «يسوع» .

وليس معنى البطولة أن يتخلى الإنسان عن مشاعر الخوف ، ألا يعتريه الخوف على الإطلاق ، فإن كنا لانشعر بالخوف يكون من السهل علينا القيام بأى عمل . إن الشجاعة الحقيقية تكمن فى معرفتنا التامة للظروف المحيطة بنا ، وبالتالى فى مواجهة تلك الظروف ، حتى ولو كانت قلوبنا ترتجف فى صدورنا ، وهكذا كان «توما» . لا ينبغى أن نخجل من شعورنا بالخوف ، بل ينبغى أن نخجل إذا كان الخوف يشل حركتنا ، ويدفعنا إلى الجبن والتراجع عن القيام بالواجب .

بيت النوح

فَلَمَّا أَتَى يَسُوعُ وَجَدَ أَنَّهُ قَدْ صَارَ لَهُ أَرْبَعَةُ أَيَّامٍ فِي ٱلْقَبْرِ . وَكَانَتْ بَيْتُ عَنْيَا قَرِيبَةً مِنْ أُورُشَلِيمَ نَحْوَ خَمْسَ عَشْرَةَ غَلْوَةً . وَكَانَ كَثِيرُونَ مِنَ ٱلْيَهُودِ قَدْ جَاءُوا إِلَى مَرْثَا وَمرْيَمَ لِيُعَزُّوهُمَا عَنْ أَخِيهِمَا .

(يوحنا ١١ : ١٧ - ١٩)

لـكى نصور لأنفسنا المسرح الذى دارت عليه الأحداث التى أمامنا، علينا أن نعرف معنى بيت النوح عند اليهود .

فى فلسطين ، كما فى الشرق عامة بسبب حرارة الجو ، عندما تنتهى حياة إنسان،يقوم أهل الميت بدفنه بأسرع ما يمكن . أحياناً يتطلب الأمر بقاء الجثة فترة حتى يلتئم شمل الأقارب ، والمعارف ، ولكن هذه الفترة محدودة . ولقد كانت « تكاليف » الموت فى البداية قاسية باهظة . فأنسب العقاقير والأدهنة والحنوط ، ينبغى أن تدهن بها الجثة،حتى لا يتطرق إليها الفساد سريعاً . وكان أقارب الميت،يلفونها فى أفخر الأكفان وأثمنها . وفى عصر المسيح ،كانت مثل هذه التكاليف باهظة وفوق الطاقة .

كان الواحد يستدين ربما طيلة العمر ، ليظهر أمام الآخرين أنه ليس أقل منهم مركزاً . حتى أتى الحبر «غمالائيل الثانى» ، وكان هو أول من

كسر هذه التقاليد ، فأوصى أنه عند موته ،ينبغى أن يلف جسده فى أرخص الأقمشة الكتانية وأقلها ثمنا . وإلى يومنا هذا ، فى الجنازات اليهودية يشرب أهل الميت كأساً ، فى ذكرى «غمالائيل» ، الذى أنقذ البيوتات اليهودية من الاستدانة والإسراف ، والتفاخر الباطل ، فى مثل هذه المناسبات .

وكان الموكب الجنائزى ، يسير بالميت محمولا على أكتاف الشباب ، محاطاً بالأهل والأصحاب . وهم يبكون ويولولون — فى قرية نظير بيت عنيا ، ما كانت حالة موت تحدث ، حتى تتوافد القرية كلها معزية ، ومواسية ومشتركة فى تشييع جثمان الراحل — وثمة عادة غريبة نلاحظها أيضاً فى الجنازات فى ريفنا الشرقى كما فى فلسطين ، منذ عصر المسيح ، أو ربما قبل ذلك ، كانت النادبات المعولات يتصدرن موكب الجنازة ، ويقدن البقية فى الصراخ والعويل ، وترديد آثار الميت ومناقبه . ويقال إن أساس هذه العادة وسرها ، أن المرأة هى التى جلبت الموت على العالم أجمع بسقوطها ، ولذلك فالموت مهمتها ، وقيادة الجمع للقبر هى عملها . وهكذا كانت تتصدر مواكب الموت إلى المقر الأخير .

وعند القبر ، كانت تتلى الخطب معددة آثار الراحل ، ويتقدم الأصدقاء معزين أقارب الميت . ثم يكون الأقارب صفين من هنا وهناك ، يسير بينهما الجموع . ويقال إنه كانت هناك عادة حميدة أن المعولات النادبات لا يرهقن أهل الميت بعد ذلك ، بمرافقتهم إلى البيت . بل يتركنهم لأحزانهم .

وفى بيت النوح ، كانت هناك عادات تراعى . فطالما كانت جثة الميت فى المنزل ، كان يحرم أكل اللحم ، أو شرب الخمر ، أو لبس الأحجبة أو أى نوع من الدراسة . أما الطعام فلا يجهز فى المنزل ، وإذا وجد بالبيت

طعام ، فلا يجوز تناوله مع وجود الميت . وبعد أن تحمل الجثة إلى مقرها الأخير ، يقلب كل أثاث البيت ، ويجلس الأهل والأصحاب ، والمعزون على الأرض ، أو على مقاعد صغيرة قريبة من الأرض .

وبعد دفن الميت ، تتسابق كل أسرة فى تجهيز الطعام ، وإرساله إلى العائلة المنكوبة . وفى الغالب ، كان الطعام لا يزيد عن البيض المسلوق ، والخبز ، وأطباق العدس .

أما الخبز ،فهو خشن جاف ، رمزاً لجفاف الحياة وقسوتها ، والبيض فى استدارته يشير إلى عجلة الحياة التى تدور بنا مسرعة إلى الموت .

وكانت أيام النوح تصل إلى سبعة ، الثلاثة الأولى منها أيام بكاء . وخلال هذه الأيام السبعة ما كان مسموحاً بدهن الوجه أو الرأس ، أو انتعال الأحذية ، أو القيام بأى عمل أو دراسة ، أو حتى الإغتسال . وأسبوع النوح العميق ، كان يعقبه شهر نوح أخف فى شدته .

وهكذا حينما أتى «يسوع» إلى بيت الحزن ، وجد قرية بيت عنيا بأكلها ، مجتمعة لتعزى الأختين المنكوبتين — وجد كل ما يمكن أن يلتقى به الإنسان فى بيت النوح الشرقى .

ولقد كان واجباً مقدساً على اليهودى ، أن يحضر مواسياً أهل الميت مظهراً تعاطفه ومشاركته القلبية لهم فى أحزانهم .

يقول التلمود ، إن كل من يقوم بزيارة المريض أو الحزين ، تنقذ نفسه من جهنم . وعن «موسى بن ميمون» الفيلسوف اليهودى الذى ظهر فى القرون الوسطى ، أنه قال بأن زيارة المريض أو الحزين ، تفوق كل الفضائل الأخرى ، وتتقدمها . لقد كانت هذه العادات جانباً أساسيا من جوانب

الديانة اليهودية . وعن أحد الأحبار فى تفسيره للآية الواردة فى سفر التثنية الأصحاح الثالث عشر والعدد الرابع « وراء الرب الهكم تسيرون » أنه قال : إن علينا أن نتبع نفس الخطوات التى سار فيها القدوس المجيد ، والتى رسمت لنا فى صفحات التوراة .

فعلينا أن نكسو العارى ، كما صنع الله أقمصة من جلد ، وكسا آدم وحواء ، (تكوين ٣ : ٢٧) وعلينا أن نزور المريض كما قام الله بزيارة المريض فى سفر التكوين الأصحاح الثامن عشر . وعلينا أن نعزى الحزين ، كما ورد ذلك عن الله فى الأصحاح الخامس والعشرين من نفس السفر . وعلينا أن ندفن الميت (سفر التثنية ٣٥ : ٦) .

وفى هذه كلها نكون سائرين فى خطوات الإله الصالح . أما اسم الميت فينبغى أن يحاط بكل احترام وتقدير ، ولا ينبغى أن يذكر بعد ذلك إلا مقترناً بطلبة الترحم عليه . وحينما يغادر المشيعون القبر ، يقولون للميت « ارحل بسلام » . أما روح العطف والمواساة، فقد كانت الواجب الأول نحو أهل الراحل — صورة كريمة تستحق التأمل .

إلى هذا البيت الذى يسوده الحزن العميق ، والذى ضاق بجماهير المواسين ، والمعزين ، أتى «يسوع» فى ذلك اليوم .

القيامة والحياة

فَلَمَّا سَمِعَتْ مَرْثَا أَنَّ يَسُوعَ آتٍ لاَقَتْهُ . وَأَمَّا مَرْيَمُ فَٱسْتَمَرَّتْ جَالِسَةً فِي ٱلْبَيْتِ . فَقَالَتْ مَرْثَا لِيَسُوعَ يَاسَيِّدُ لَوْكُنْتَ هٰهُنَا لَمْ يَمُتْ أَخِي . لٰكِنِّي ٱلآنَ أَيْضاً أَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَاتَطْلُبُ مِنَ ٱللهِ يُعْطِيكَ ٱللهُ إِيَّاهُ . قَالَ لَهَا يَسُوعُ سَيَقُومُ أَخُوكِ . قَالَتْ لَهُ مَرْثَا أَنَا أَعْلَمُ أَنَّهُ سيقُومُ فِي ٱلْقِيَامَةِ فِي ٱلْيَوْمِ ٱلأَخِيرِ . قَالَ لَهَا يَسُوعُ أَنَا هُوَ ٱلْقِيَامَةُ وَٱلْحَيٰوةُ . مَنْ آمَنَ بِي وَلَوْ مَاتَ فَسَيَحْيَا . وَكُلُّ مَنْ كَانَ حَيًّا وَآمَنَ بِي فَلَنْ يَمُوتَ إِلَى ٱلأَبَدِ . أَتُؤْمِنِينَ بِهٰذَا . قَالَتْ لَهُ نَعَمْ يَاسَيِّدُ . أَنَا قَدْ آمَنْتُ أَنَّكَ أَنْتَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللهِ ٱلآتِي إِلَى ٱلْعَالَمِ .

(يوحنا ١١ : ٢٠ – ٢٧)

فى هذه القصة أيضاً نرى «مرثا» صادقة مخلصة لطبيعتها، كما رأيناها قبل ذلك . فى الأصحاح العاشر من بشارة لوقا، يصور لنا البشير هذه السيدة، فى صورة العاملة النشطة التى لا تهدأ . الدائبة الحركة فى القيام بواجبها ،

الكريمة المضيافة، التي لا تألو جهداً في سبيل راحة ضيفها . وهكذا نراها هنا. فحالما سمعت أن «يسوع» قد أصبح على مشارف قرية بيت عنيا ، أسرعت على عجل ، لتلاقيه ، أما شقيقتها ، فقد ظلت جالسة في البيت في حزنها الهادىء الوقور ..

وحينما التقت الأخت الحزينة بالسيد . تدفق قلبها في فيض من عواطفها أمام مريح التعابى ، ومعزى الباكين المنكسرين . وكانت في حديثها نغمة العتاب الرقيق الممتزج بروح الإيمان والثقة والمحبة .. الإيمان الذى لا تزعزعه الأحداث ، مهما كانت قاسية تدعو لليأس. « ياسيد لو كنت ههنا ، لم يمت أخى » . وخلال هذه الكلمات نستطيع أن نقرأ ما كانت تريد أن تقوله للسيد — ولعل أفكارها كانت على النحو التالى « ياسيد لماذا لم تحضر إلينا حالا ، حينما وصلت إليك رسالتنا ؟ والآن لقد انتهى كل شيء ، فقد تأخرت عن موعدك». ولكن الإيمان سرعان ما عاد إلى نفسها قوياً منتصراً ساطعاً ، يبدد ظلمات اليأس أو الشك . فإذا بها تقول « ولكنى أعلم أن كل ما تسأله من الآب إياه يعطيك » .

وتقدم «يسوع» إليها بتأكيد ، كان له وقع الصاعقة على نفسها : « سيقوم أخوك » . وأجابته الأخت وقد ظنت أنه يعنى بذلك القيامة الأخيرة ..

« أنا أعلم أنه سيقوم في القيامة العامة في اليوم الأخير » . وهنا أيضاً جواب يدعو للتأمل ، ويشير بلمحة خاطفة إلى العقيدة اليهودية عن الخلود [1] .

---

(١) للاستزادة راجع الفصل بهذا العنوان ، من كتاب « الموت والخلود » الذى صدر مؤخراً للمعرب ، وهو من مطبوعات الدار .

ولقد كان العبرانيون القدامى ، يؤمنون بأن الأرواح جميعها ، أرواح الأبرار والأشرار ، تذهب بعد الموت ، إلى منطقة تدعى « شأول » أى الهاوية . وقد ترجمت خطأ إلى الجحيم . فالهاوية ليست مكان عذاب بحسب عقيدتهم ، بل هى أرض الظلال والظلام والنسيان .. الأرض التى لايذكر فيها اسم الله . هناك تحيا أرواح الجميع سواء بسواء . . حياة بلا ذاتية .. ولا رؤية ولا سرور ، ولا بهجة ، فى صورة أشباح هائمة فى ظلامها ونسيانها. هذا الإيمان البدائى يسود على كتابات العهد القديم ، ويتبلور فى أكثر من موضع ، وعلى الأخص فى سفر المزامير .

« لأنه ليس فى الموت ذكرك . فى الهاوية من يحمدك ؟ » . (مزمور ٦ : ٥) . « وما الفائدة من دمى إذا نزلت إلى الحفرة ؟ هل يحمدك التراب ؟ هل يخبر بحقك ؟ » . (مز مور ٣٠ : ٩) . وفى المزمور الثامن والثمانين نرى كاتبه ينعى نفسه « لأنه قد شبعت من المصائب نفسى وحياتى إلى الهاوية دنت . حسبت مثل المنحدرين إلى الجب . صرت كرجل لاقوة له . بين الأموات فراشى . مثل القتلى المضطجعين فى القبر الذين لاتذكرهم بعد . وهم من يدك انقطعوا » (مزمور ٨٨ : ٣ — ٥) . وفى نفس المزمور : « أفلعلك للأموات تصنع عجائب ؟ أم الأخيلة (أشباح الموتى) تقوم تمجدك ؟ هل يحدث فى القبر برحمتك . أو بحقك فى الهلاك ؟ هل تعرف فى الظلمة عجائبك ، وبرك فى أرض النسيان ؟ » (مزمور ٨٨ : ١٠—١٢) . وفى المزمور المائة والخامس عشر : « ليس الأموات يسبحون الرب ولا من ينحدر إلى أرض السكوت » . (عدد ١٧). فاذا تخطينا المزامير وجدنا بجانبها سفر الجامعة لسليمان الملك .

« كل ما تجده يدك لتفعله فافعله بقوتك لأنه ليس من عمل ولا اختراع ولا معرفة ولا حكمة فى الهاوية التى أنت ذاهب إليها » . (جامعة ٩ : ١٠).

وفى سفر «أشعياء »، نجد «حزقيا الملك» يناجى إلهه قائلا : « لأن الهاوية لاتحمدك . الموت لايسبحك لايرجو الهابطون إلى الجب أمانتك » (أشعياء ٣٨ : ١٨) فبعد الموت لاشيء هناك غير أرض السكوت . . أرض النسيان . . الأرض التى تهيم فيها أشباح الموتى منفصلة عن الله وعن الناس . .

على أننا نجد فى مواضع أخرى، لمحات من إشراقة الإيمان، فى ليل هذه العقيدة المظلمة . فى المزمور السادس عشر نقرأ : « لأنك لن تترك نفسى فى الهاوية لن تدع تقيك يرى فساداً . . . أمامك شبع سرور . فى يمينك نعم إلى الأبد » . . . وفى مزمور آساف الشهير (٧٣ : ٣ ، ٢٤) . يهتف المرنم « لكنى دائما معك . أمسكت بيدى اليمنى . برأيك تهدينى وبعد إلى مجد تأخذنى » . هنا نستمع إلى نغمة الثقة، أننا إن كنا حقاً فى شركة مجيدة مع الله ، فلن يستطيع أى شيء أن يحطم هذه الشركة حتى ولو كان هذا الشيء هو الموت نفسه . فشركة الأنسان مع إلهه، لابد وأن تدوم وتدوم ، وتتحدى الزمن .

ولعل أقوى صيحة فى هذا المجال ، تتصاعد من قلب «أيوب» فى تجربته المرة القاسية ، فهو فى وسط مرارته وأحزانه ، ومرضه . ويأسه ، وتحدى الأصدقاء له ، يتخذ من رجائه الحى فى الخلود، أجنحة يرتفع بها فوق مستوى متاعبه فيهتف :

« أما أنا فقد علمت أن وليى حى . والآخر على الأرض يقوم وبعد أن يفنى جلدى هذا . وبدون جسدى أرى الله »

هنا فى « أيوب » ، ترى بذرة الإيمان اليهودى فى الخلود . .

ولقد كان التاريخ اليهودى تاريخ مآس ، وسبى ، وعبودية ، وهزيمة ومرارة ، ومع ذلك فقد كان يقين ذلك الشعب بأنه شعب الله المختار ، هو الذى يرفعه فوق كل الظروف والمتاعب .

وإذا كان العالم الحاضر لايقر ذلك ، فالعالم الآتى . . . الدهر الآتى ، لابد وأن يصحح الأوضاع . هكذا آمن ذلك الشعب . فإن كانت مشاريع الله لابد وأن تتم . وإن كانت مواعيده لابد وان تكون أمينة وصادقة ، وإن كانت عدالته لابد وأن تكمل ، وإن كانت محبته لابد وأن تصل إلى أقصى درجات عمقها ، واكتفائها ، فلا بد بالتالى أن يكون هناك عالم آخر ، وحياة أخرى ، يعوضان عن هذا العالم الحاضر ، وعن هذه الحياة الحالية . وكما قال أحد الكتاب « ان لغز الوجود سوف يكون أقل تعقيدا ، حينما نصل إلى اليقين الكامل ، بأن الحياة الحاضرة ليست هى الفصل الأخير فى دراما الإنسانية »

مثل هذا الأحساس العميق ، هو الذى دفع العبرانيين إلى الإيمان بوجود حياة قادمة .

صحيح أنه فى عصر المسيح ، كانت هناك طائفة الكهنوت ، أو طائفة الصدوقيين . وأولئك ماكانوا يؤمنون بأى نوع من الحياة بعد الموت . ولكن الفريسيين ، وجميع الشعب ، كانوا يؤمنون بالخلود . ومن أقوال الفريسيين أنه ساعة الموت يتعانق العالمان : عالم الزمن وعالم الأبد ، وحينما تنطلق الروح تعاين على التو مجد الله . لذلك فهم ليسوا بالموتى . لكنهم أحياء عند ربهم ينعمون .

إن « مرثا » حينما ردت على كلمات المسيح بهذا الجواب ، كانت تنادى بأسمى ما وصل إليه ايمان أمة عن الحياة بعد الموت . .

القيامة والحياة (تابع)

(يوحنا ١١ : ٢٠ - ٢٧)

وحينما أعلنت «مرثا» ايمانها بالعقيدة اليهودية عن الحياة القادمة ، سطع «يسوع» على ذلك الإيمان بنور جديد، زاده ضياء وإشراقا ، وأعطاه معنى جديدا . فنادى لها ، وللأجيال جمعاء هاتفا :

« أنا هو القيامة والحياة . من آمن بي ولو مات فسيحيا . وكل من كان حياً وآمن بي فلن يموت إلى الأبد » . ترى ماذا يعني رب الحياة بهذه الكلمات ؟ .

صحيح أننا بعقولنا القاصرة ، لن نصل إلى مدى عمق المعاني المستترة خلفها ، ولو قضينا العمر كله في البحث ، والدراسة ، فلن نصل إلى مضمونها . فلن تعلنها لنا ولن تكشفها إلا أنوار الأبد . ولكن دعنا نحاول قدر مانستطيع .

شيء واحد ينبغي أن نضعه في أذهاننا قبل أن نبدأ بحثنا : أن «يسوع» لم يكن يعني على الأطلاق الجانب المادي من حياتنا الجسدية ، فليس صحيحاً أبداً أن من يؤمن بالمسيح لايذوق الموت ، ولايتجرع كأسه .

فالمؤمن بيسوع شأنه شأن سواه ، يجتاز مياه البحر الأسود ويغوص في لججه ، وتطغى عليه تياراته . إن عجلة الزمن لاتتوقف بالنسبة له . فيمر من الحداثة إلى الشباب ، ومن الرجولة إلى الهرم ، فالشيخوخة ، فالمرض والموت .

لذلك علينا أن نتجنب كل تفسير مادي لقول «يسوع» هذا . . إذاً ماذا كان قصد السيد من هذا القول ؟

١ — أولا ، كان «يسوع» يقصد بقوله هذا ، الموت الروحى ، الموت بالذنوب والخطايا . إنه يقول . .» ولو وصل إنسان إلى حد الموت فى قبر خطاياه وآثامه . . ولو تغلغلت فيه عاداته الرديئة فأصبحت كمرض الموت تخنق أنفاس الحياة فيه ... ولو انقطع عن عالم الأحياء بالمعنى الروحى ، فعزلته خطيئته وعاره بعيدا عن الأحياء ، ولو فقد كل مقومات الحياة النقية الطاهرة التى تدعى بالحق حياة ، وفاحت منه رائحة الموت والفساد ، فأنى استطيع أن اعيد إليه الحياة ، والحياة الأفضل ». هذا هو وعد «يسوع» الصادق.. وهكذا ينادى ويدعو موتى الذنوب والخطايا ، لأنه لهذا جاء . بل هذا حق يشهد له منطق التاريخ والاختبار . .

يحدثنا أحد الكتاب بمثل حديث عن مجرم يابانى يدعى « توكيشى ايشى » . أما «إيشى» هذا فقد اغتال العديد من الضحايا ، من الرجال ، والنساء ، وحتى الأطفال ، ومثل بأجساد ضحاياه بوحشية لايتصورها عقل . أى إنسان كان يعترض طريقه ، كان الأيسر عليه أن يزيحه من طريقه بطعنة خنجر . وأخيراً ألقى القبض عليه ، وتمت محاكمته ، وأدين ، وصدر عليه الحكم بالإعدام . ولم يبق سوى تنفيذ الحكم . وبينما كان فى السجن ، قامت بزيارته سيدتان كنديتان لتتحدثا إليه عن «يسوع» . وبطبيعة الحال ما كان يسمح لإنسان أن يدخل إلى مجرم خطير نظير هذا الأنسان ، فكانتا تتحدثان إليه من خلال القضبان الحديدية .

أما هو ، فكنمر مفترس كان يزمجر فى قفصه الحديدى ، وهو يلعن الله والناس . وأخيراً لم تجد السيدتان جدوى من محاولة الحديث إليه ، فقدمتا إليه الإنجيل . فألقى به على الأرض وداسه بقدميه . غير أنه يبدو أنه تناوله بعد ذلك ، حينما صار بمفرده ، وراح يقلب صفحاته ، ثم استهواه ، فانغمس

فى قراءته حتى وصل إلى قصة الصليب ، ورنت فى أذنيه كلمات المسيح ، وهو يطلب الغفران لصالبيه « ياأبتاه اغفر لهم لأنهم لايعلمون ماذا يفعلون » . والآن لندع « إيشى » المجرم سفاك الدماء ، يتحدث إلينا فى اعترافاته . .

« توقفت عند هذه الكلمات . وشعرت وكأن خنجرا حاداً يمزق قلبى . . وكأنى بالمسامير التى دقت فى يدى المسيح وقدميه، تدق فى صدرى. ماذا أقول ؟ هل هى محبة المسيح الفائقة، هى التى مزقت فؤادى ؟ أم تنازله العجيب ، وصفحه ؟ أم ماذا أسميه ؟ لست أدرى. إنما أعلم شيئا واحدا : أن غفرانه أصبح يشملنى أنا المجرم . وأن قلبى القاسى ،قد ذاب كالشمع أمام نار محبته . واننى عرفت القلب الجديد فيه »

وحينما وافى آخر يوم فى حياة « إيشى » ، وأتت الساعة الحاسمة ، وفتح السجان الباب الحديدى ، ليمضى المحكوم عليه بالموت إلى مصيره ، لم يجد أمامه وحشا مزمجرا ، ولامجرما يلعن ويجدف ، بل وجد إنسانا وديعا كالحمل ، يبتسم ابتسامة الرضى والسلام .

لقد أعاده المسيح الحى إلى مجمع الأحياء بعد أن كان كالمجنون يعذب نفسه فى قبور جرائمه ، ووحشيته وآثامه .

هذه حقيقة لاتنكر ، فلا حاجة بالإنسان أن يكون له منطق درامى ليصورها ، أو ريشة فنان مبدع ليضفى عليها جمالا

نعم . قد تصل الأنانية بالأنسان إلى الحد الذى يصبح فيه قلبه جامدا كالصخر ، ويصبح الصخر جزءا منه ، فلا يرق لحاجة المحتاجين ، ولايتألم

لآلام المسحقين ، . . قد تصل به الأنانية إلى جمود الموت أمام مشاعر الآخرين . .

وقد يصل الإنسان إلى حضيض المهانة والعار ، فتموت في أعماقه أحاسيس الكرامة الآدمية ، ويأتى من الأعمال المشينة ما يخجل الحيوان من القيام به . . . وقد يندفع الإنسان فى ضيقه النفسى ويأسه . فتظلم الشمس فى عينيه فى وقت الظهيرة ، ويصبح فى عداد الموتى . . وقد يصنع من ماله ومقتنياته صنما يبخر أمامه صباح مساء ، ويحرق زهرة العمر فى التعبد له . فاذا أتى «يسوع» فى دائرة الموت هذه .. فى دائرة أولئك وهؤلاء ، فإنه يبعث الحياة فى وادى العظام اليابسة ، فيقوم الموتى ويبعثون .

إن ملايين الملايين خلال حقب التاريخ المختلفة ، تستطيع أن تشهد أنها نالت الحياة على يديه . فما ضعفت لمسة «يسوع المسيح» يوما ، وما تناقصت قوته . . .

٢ — ولكن «يسوع» كان يشير أيضا إلى الحياة القادمة . لقد أدخل فى قاموس البشرية كلمة جديدة هى الإنتصار على الموت . فلم يعد الموت بعد ذلك الشبح الرهيب ، الذى ترتعد أمامه القلوب خوفا وفزعا . ولم يعد صاحب الكلمة الأخيرة والفصل الأخير فى حياة الإنسان . قال «ادوارد المعترف» فى لحظاته الأخيرة للذين حوله : «كفكفوا دموعكم فلا موت هناك ، بل إننى حينما أغادر أرض الموت ، ستشرق على فى «المسيح يسوع» شمس الحياة ، فى أرض الأحياء»

ما أروع التعبير عن العالم بأرض الموت . . إننا نسمى عالمنا عالم الأحياء ، ولكن ماأحرانا بأن نلقبه بوادى ظلال الموت . ولكن أروع منه ذلك اليقين الأسمى الذى يملأ قلوبنا . بأننا حينما نغادر هذه الدار ، فاننا لا نهجر أرض الأحياء ، بل نهاجر إلى أرض الأحياء فى المسيح يسوع . فى المسيح وحده وليس سواه، لنا كل الثقة فى الإنتصار على عدو البشرية الأخير . . لنا كل الثقة أننا لانترك أرض النور إلى وادى الظلام ، بل نترك أرض الغروب ، إلى أرض الشمس المشرقة .

وكما قالت « مارى وب » « إننا لانرى فى الموت سوى بوابة تفضى إلى الحياة . وبكل ماتحمله الكلمة من معان نوقن فى أنفسنا أننا لسنا فى طريقنا إلى الموت ، بل إننا فى طريقنا إلى الحياة . . الحياة الأسمى والأمجد بما لايقاس . .

كيف يمكن أن يحدث هذا التغيير الجذرى فى حياتنا ، وأفكارنا ؟ حينما نضع كل ثقتنا فى المسيح «يسوع» . . حينما نؤمن به كل الإيمان . وماذا تعنى كلمة نؤمن ؟ أن نؤمن بيسوع ، معناه أن نقبل كل ما قاله «يسوع» ، كالحق الأوحد الأمجد، الذى نعتنقه فى حياتنا ، ونبنى عليه بنود الحياة ، فى ثقة كاملة . حينما نعمل ذلك ، ندخل فى شركة لها جانبان :

١ — الجانب الأول ، يتضمن شركتنا مع الله . حينما نؤمن بأن الله هو كما أعلنه لنا «يسوع المسيح» البار ، وكما أعلن لنا فيه ، نتأكد تمام التأكيد ، بأن إلهنا هو قبل كل شئ ، وفوق كل شئ ، إله الفداء . وعندها ينتهى خوف الموت ، لأن الموت لن يستطيع أن يواجه محب البشرية الأعظم .

٢ — أما الجانب الثانى، فيتضمن « شركة » جديدة مع الحياة نفسها. حينما نقبل طريق «يسوع» للحياة، حينما نسلم نفوسنا بالتمام بين يديه، ونستودع ذواتنا لديه، ونتخذ وصاياه ناموساً لنا.. حينما نوقن بأنه معنا. يعيننا فى الحياة، الحياة التى يريدنا هو أن نحياها، عند ذاك يضفى هذا نورا جديداً على حياتنا. فتحيط بها هالة من الجمال الجديد، والقوة الجديدة، أو بمعنى آخر، تصبح الحياة تستحق أن نحياها... تصبح جميلة.. نافعة.. نقية، بحيث لانتصور أن الموت يهاجمها. وينهيها ويتركها ناقصة مبتورة.

الخلاصة، أننا حينما نؤمن بيسوع، ونقبل ما ينادى به عن الله، وعن الحياة، نختبر بالفعل بركات القيامة، لأننا نتحرر من خوف أولئك الذين لا إله لهم ونتحرر من فشل الحياة الرازحة تحت سلطان الخطية، ونتحرر من عقم الحياة التى بلا مسيح، وتقام أجسادنا من موت الخطية. وتصبح أكثر غنى حتى أنها لن تموت، لأنها سوف تجد فى الموت انتقالا إلى حياة أسمى، وأمجد.

عواطف يسوع

وَلَمَّا قَالَتْ هٰذَا مَضَتْ وَدَعَتْ مَرْيَمَ أُخْتَهَا سِرًّا قَائِلَةً ٱلْمُعَلِّمُ قَدْ حَضَرَ وَهُوَ يَدْعُوكِ . أَمَّا تِلْكَ فَلَمَّا سَمِعَتْ قَامَتْ سَرِيعاً وَجَاءَتْ إِلَيْهِ . وَلَمْ يَكُنْ يَسُوعُ قَدْ جَاءَ إِلَى ٱلْقَرْيَةِ بَلْ كَانَ فِي ٱلْمَكَانِ ٱلَّذِي لَاقَتْهُ فِيهِ مَرْثَا . ثُمَّ إِنَّ ٱلْيَهُودَ ٱلَّذِينَ كَانُوا مَعَهَا فِي ٱلْبَيْتِ يُعَزُّونَهَا لَمَّا رَأَوْا مَرْيَمَ قَامَتْ عَاجِلاً وَخَرَجَتْ تَبِعُوهَا قَائِلِينَ إِنَّهَا تَذْهَبُ إِلَى ٱلْقَبْرِ لِتَبْكِيَ هُنَاكَ . فَمَرْيَمُ لَمَّا أَتَتْ إِلَى حَيْثُ كَانَ يَسُوعُ وَرَأَتْهُ خَرَّتْ عِنْدَ رِجْلَيْهِ قَائِلَةً لَهُ يَاسَيِّدُ لَوْ كُنْتَ هٰهُنَا لَمْ يَمُتْ أَخِي . فَلَمَّا رَآهَا يَسُوعُ تَبْكِي وَٱلْيَهُودُ ٱلَّذِينَ جَاءُوا مَعَهَا يَبْكُونَ ٱنْزَعَجَ بِٱلرُّوحِ وَٱضْطَرَبَ

(يوحنا ١١ : ٢٨ — ٣٣)

وأسرعت «مرثا» إلى البيت لتخبر شقيقتها، بأن «يسوع» قد جاء إلى بيت العناء . ولكنها أسرت لها بهذا الخبر وحدها ، حتى لا يعلم الذين حولها

بحضور السيد ، لأنها كانت تريد أن يلتقى «يسوع» بها سراً ، ويتحدث إليها بكلمة أو كلمتين ، قبل أن تعرف الجموع بوجوده وتسرع إليه ، وتتكدس حوله . ولكن حينما أبصرها المعزون ، وهى تهب مسرعة إلى الخارج ، قالوا فى أنفسهم إنها ذاهبة إلى القبر لتبكى هناك . فقد جرت العادة أن تقوم النسوة بزيارة قبر الميت ، خلال الأسبوع الأول من دفن جسده للبكاء هناك .

وتحدثت «مريم» بنفس الكلمات التى هتفت بها شقيقتها « يا سيد ما كان ممكنا أن يحدث ما حدث ، لو أنك أسرعت بالحضور ، وكنت ههنا . لو كنت هنا ، ما كان ممكنا أن تنتهى حياة شقيقى العزيز »

ورأى يسوع مريم تبكى . ورأى الذين حولها من اليهود يسكبون الدموع . ولم تكن تلك الدموع هادئة رزينة ، بل كانت ممتزجة بالصراخ ، والعويل ، وقرع الصدور ، ولطم الخدود . وما زالت مثل تلك العادات سارية فى شرقنا العربى ، لأننا نظن أننا بكثرة دموعنا ، وعويلنا ، وتعديد آثار الراحل ، نقدم له اكراماً أعظم . .

ورأى «يسوع» هذا ، وكما تقول الترجمة المعتمدة الانجليزية تحركت روحه فيه . أما هذه الكلمة فهى ترجمة لكلمة يونانية معقدة هى « إمبر ماستاى » . وقد وردت نفس الكلمة ثلاث مرات أخرى فى العهد الجديد . ففى إنجيل متى (٩ : ٣) ، نقرأ حادثة الأعميين اللذين نالا الشفاء على يدى يسوع ، « فانتهرهما » ألا يقولا لأحـــد : وفى إنجيل (مرقس ١ : ٤٣) نقرأ عن الأبرص الذى شفى بلمسة «يسوع» « فانتهره ، وأرسله للوقت ، وأمره ألا يخبر أحداً » . وفى نفس البشارة ترد نفس الكلمة عن الجموع (مرقس ١٤ : ٥) حينما

كان «يسوع» فى بيت سمعان الأبرص ؛ وجاءت امرأة ومعها قارورة طيب ناردين كثير الثمن، فسكبته على رأسه : « وكانوا يؤنبونها » لأنهم كانوا يظنون أن مثل هذا العمل اتلاف لا مبرر له .

ومن الملاحظ أنه فى كل واحد من هذه المواقف الثلاثة ، تشير الكلمة إلى الانتهار المصحوب بالغضب أو التأنيب . إنها تعنى التوبيخ ، أو النهى بقسوة . وهكذا يتراءى لبعض المفسرين أن يفسروا الكلمة فى فرصة لقاء المسيح باليهود الباكين فى جنازة بيت عنيا ، على نفس الأساس ، فيقولون ان السيد قد انزعجت روحه بالغضب المقدس ، ولماذا انزعج غاضبا ؟ ربما لسببين على الأقل . أما السبب الأول فقد كان الدموع التى يسكبها المعزون ، ومظاهر الحزن التى تبدو عليهم ، والمسرحية الباكية التى يقومون بأدائها . لقد كان «يسوع» يعرف ان كل هذه المظاهر ليست سوى رياء . فلا حزن هناك فى قلب أحد ، ولا مواساة فى دموع إنسان . وكما يقول المثل الدارج : النار لا تحرق إلا من يمسك بها . لقد كانت مريم ومرثا ، هما المكتويتان بنار الحزن وحدهما . أما هذه المظاهرة الجوفاء ، فقد كان يعرف أنها بدافع الكذب والرياء .

ولكن إن كان «يسوع» قد انزعج غاضبا ، بسبب دموع المعزين لأنها دموع التماسيح ، فماذا نقول فى دموع الشقيقتين ؟ هل كانت دموعهما غير حقيقية ؟ ومن الجانب الآخر ، هل من المنطقى أن كل المواسين كانوا مرائين ؟ ألم يوجد فيهم من رق قلبه لمأساة اختين لا عائل لهما إلا ذلك الشقيق الذى أطبق عليه القبر ؟ إن كان الأمر كذلك ، فلا بد أن نبحث عن تفسير آخر للقول « انزعج بالروح واضطرب » .

يقول « د. موفات » فى ترجمته الشهيرة : أن «يسوع» « أثير فى الروح »
وهى كلمة قريبة جداً من ترجمتنا العربية « انزعج بالروح واضطرب » .
ولكن كلمة أثير أضعف من أن تعلن لنا حقيقة ما حدث . وهنالك الترجمة
الأمريكية المنقحة[1] ، وهى لا تختلف كثيرا فى تعبيرها عما أسلفنا : اضطرب
« يسوع اضطرابا عميقا فى الروح » "Jesus was deeply moved in spirit"
على أن هناك ترجمة حديثة[2] أخرى تورد هذا التعبير على النحو التالى
« استسلم يسوع لحزن عميق لدرجة جعلت جسده يختلج » . هنا نقترب من
المعنى المقصود ، ولا نقول هذا اعتباطا ، بل استناداً إلى معان للفعل فى
الأصل اليونانى فى الأدب الكلاسيكى القديم . فالفعل « أمبر ماستاى »
يطلق على الخيل حينما تصهل فتهتز جوانحها . وكأنى بكاتب البشارة
يقصد أن يقول : لقد استسلم «يسوع» لعواطف غامرة من الحزن العميق ،
حتى تصاعدت من أعماقه أنة هزت كيانه .

هنا نرى لمسة من أروع اللمسات ، التى نجدها فى الإنجيل عن «يسوع».
هنا نرى يسوع يتغلغل إلى أعماق النفس البشرية ، يشاركها آلامها وأحزانها
وأناتها ، ودموعها . ويذوب قلبه حزنا مع القلوب الحزينة المنكسرة .

« فى حزننا يذوب قلبه أسى لحزننا .

« وكيف لا ؟ وهو رجل الأحزان الذى جاز ضيقنا ؟

لكن هناك أكثر من هذا . فكما نعرف ، كتبت البشارة الرابعة لتناقش
العقلية اليونانية . ولتقدم لها المسيح . ولقد كانت هذه الصورة التى أثبتناها

---

(١) American Revised Standard.

(٢) هى ترجمة Rieu

"He gave way to such distress of spirit as made his body tremble"

آنفا ، عن المسيح المتألم الحزين ، الذى يهتز ويختلج جسده فى حزنه وأشجانه ، والذى يشارك البشرية آلامها إلى أبعد حدود المشاركة ، صدمة كبرى للذين رضعوا لبان الثقافة والفلسفة اليونانية . فان كان «يسوع» قد جاء إلى العالم ليقدم لنا فكر الله ، . ليظهر لنا فى حياته صورة حية لله ، فالصورة التى يثبتها البشر هى أبعد ما تكون عن تصورهم ، بل هى صدمة كبرى لمثلهم وأفكارهم عن الله العظيم . لقد كانت أول صفات الألوهية فى نظرهم ، ما أطلقوا عليه لقب «أباثيا» . والكلمة هنا ليست مرادفة للصفة المعروفة فى الإنكليزية « أباثى » (apathy) ومعناها الجمود أو عدم الاكترات لآلام الغير ، ومشاركتهم أحزانهم ، بل إنها كانت تصل إلى أبعد من هذا . لقد كانت تعنى عدم القدرة على التعاطف مع البشر ، أو عدم إمكانية الله أن يعرف ما هى مشاعر البشر ، ويشاركهم أحزانهم أو أفراحهم . كيف يمكن لليونان أن يقبلوا هذه الصورة عن الله ، وأن يلصقوا بالله صفة التعاطف مع البشر ؟ إن التعاطف صفة من صفات البشر واختبار من اختباراتهم .

— هكذا كان منطقهم — إن كنا نشعر بفرح الغير أو بحزنهم ، إن كنا نبتهج لسرورهم ، وبالتالى تدمع عيوننا مع عيونهم الباكية ، فمعنى هذا أننا تأثرنا بهم ، وضعفنا أمام هذا التأثر ، فتسلط علينا ، فاستسلمنا له ، وهكذا خرجنا عن طورنا فى أفراحهم ، وخرجنا عن الطور أيضاً فى أحزانهم . أى أننا بالتالى أصبحنا أضعف منهم ، فنحن فى مركز أقل ..

أما الله فإنه إسمى من أن يهتز لهزاتنا فيفرح لفرحنا ، أو يتألم لحزننا . فلا أحد يستطيع أن يهبط بإله ، إلى مستوى أحاسيس البشر . لقد كان الإغريق يؤمنون بإله أو آلهة تعيش فى محيطها العظيم الذى يسمو على محيط البشر .

ومستواها الذى يرتفع فوق مستوى البشرية . لقد كانوا يؤمنون بآلهة لا مشاعر لها .

ولكن ما أبعد ذلك الفكر عن الصورة التى قدمت لنا فى «يسوع المسيح». هنا نرى فى آلام «يسوع»، اشتراك قلب الله فى آلام البشر وأحزانهم. هنا نرى فى دموع «يسوع»، وأنينه، وكيانه المختلج بالحزن، إلها، فى كل ضيقنا يتضايق، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان .

إن «يوحنا» حينما أمسك بريشته، ومزج ألوانه الرائعة، قدم لنا على صفحات بشارته الخالدة، صورة جديدة كل الجدة، عن إله المحبة والقلب الكبير . وأعظم ما قدمه «يسوع» للبشر، صورة إله يهتم بآلامهم، وأحزانهم، ودموعهم .

وَقَالَ أَيْنَ وَضَعْتُمُوهُ . قَالُوا لَهُ يَاسَيِّدُ تَعَالَ وَأَنْظُرْ. بَكَى يَسُوعُ . فَقَالَ ٱلْيَهُودُ ٱنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ يُحِبُّهُ. وَقَالَ بَعْضٌ مِنْهُمْ أَلَمْ يَقْدِرْ هٰذَا ٱلَّذِى فَتَحَ عَيْنَيِ ٱلْأَعْمَى أَنْ يَجْعَلَ هٰذَا أَيْضاً لَايَمُوتُ

فَٱنْزَعَجَ يَسُوعُ أَيْضاً فِى نَفْسِهِ وَجَاءَ إِلَى ٱلْقَبْرِ . وَكَانَ مَغَارَةً وَقَدْ وُضِعَ عَلَيْهِ حَجَرٌ . قَالَ يَسُوعُ ٱرْفَعُوا ٱلْحجرَ .قَالَتْ لَهُ مَرْثَا أُخْتُ ٱلْمَيْتِ يَاسَيِّدُ قَدْ أَنْتَنَ لِأَنَّ لَهُ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ . قَالَ لَهَا يَسُوعُ أَلَمْ أَقُلْ لَكِ إِنْ آمَنْتِ تَرَيْنَ مَجْدَ ٱللهِ . فَرَفَعُوا ٱلْحَجَرَ حَيْثُ كَانَ ٱلْمَيْتُ مَوْضُوعاً وَرَفَعَ يَسُوعُ عَيْنَيْهِ إِلَى فَوْقُ وَقَالَ أَيُّهَا ٱلْآبُ أَشْكُرُكَ لِأَنَّكَ سَمِعْتَ لِى . وأَنَا عَلِمْتُ أَنَّكَ فِى كُلِّ حِين تَسْمَعُ لِى . وَلٰكِنْ لِأَجْلِ هٰذَا ٱلْجَمْعِ ٱلْوَاقِفِ قُلْتُ . لِيُؤْمِنُوا أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِى . وَلَمَّا قَالَ هٰذَا صَرَخَ بِصَوْتٍ

عظيم لِعَازَرُ هَلُمَّ خارِجاً . فَخَرَجَ ٱلْمَيْتُ وَيَدَاهُ وَرِجْلَاهُ مَرْبُوطَاتٌ بِأَقْمِطَةٍ وَوَجْهُهُ مَلْفُوفٌ بِمِنْدِيلٍ . فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ حُلُّوهُ وَدَعُوهُ يَذْهَبْ

(يوحنا ١١ : ٣٢ – ٤٤)

وهكذا نأتى إلى ختام المنظر . هنا نرى «يسوع» يعتصره الألم اعتصاراً للمرة الثانية ، مشاركا المتألمين فى آلامهم .

وكما أسلفنا فى السطور السابقة ، كانت الجملة القصيرة التى أوردها البشير «بكى يسوع» صدمة قوية للعقلية اليونانية ، إذا كانت بشارة يوحنا تقدم لنا صورة الله فى المسيح . فها هو ابن الله الحى ، صورة الله المتجسد . . رسم الله وجوهره ، يبكى متألما كالضعيف – صورة فوق مستوى العقلية اليونانية ، وحتى يتصور القارىء المنظر كله ، لايضيره أن نقدم له صورة المقابر فى فلسطين ، وهى لا تختلف كثيراً عن صورة المقابر فى الشرق ، سوى أنها منحوتة فى الصخر ، أو متخذة فى كهوف طبيعية داخل الصخر . وكان الكهف عادة لايزيد طوله عن ستة أقدام ، فى عرض تسعة أقدام ، أما ارتفاعه فهو فى العادة عشرة أقدام .

فى مثل هذه المقبرة ، كانت هناك ثمانية رفوف منحوتة أيضاً فى الصخر ، أى أن القبر كان يتسع لثمانى جثث . على الجانب الواحد ثلاثة رفوف ، يقابلها من الجانب الآخر مثلها ، وفى أقصى الداخل مواجهاً للمدخل يوجد اثنان . على هذه الرفوف كانت توضع جثث الموتى .

وكانت جثة الميت ، تلف فى ثوب واحد من كتان نقى . أما اليدان

والقدمان ، فكانت تربط بشرائح من الكتان ، تلف عليها فى طيات . أما الرأس ، والوجه ، فكان يلف بفوطة أومنديل .

أما المقبرة فلم تكن لها أبواب ، لكن أمام المدخل كان ينحت مجرى ، يدحرج فيه حجر دائرى يغلق باب القبر تماما .

طلب «يسوع» من الذين حوله ، أن يدحرجوا الحجر عن القبر . وظنت مرثا أن السيد يريد من فتح القبر أن يتملى رؤية حبيبه للمرة الأخيرة ، قبل أن يتحلل جسده . و أثارها هذا التصرف . فماذا فى رؤية جثة ميت متعفن له أربعة أيام فى القبر ؟

وهكذا قالت ليسوع : « ياسيد قد أنتن لأن له أربعة أيام فى القبر » . ولقد كان اليهود يعتقدون أن أرواح الموتى ، تحوم حول الجثة مدة أربعة أيام كاملة ، محاولة أن تصل إلى الجسد وتدخل فيه . ولكن بعد هذه الأيام الأربعة لاتستطيع الروح أن تتعرف على الجسد الذى كانت تقطنة ، بسبب التغيرات التى تحدث فيه .

وأخيرا يقول رب الحياة للميت المسجون فى قبره ، الملتف المقيد بأكفانه ، ويناديه : «لعازر هلم خارجا» . .

وأصغى إليه ، فهبت عليه . نسائمه . . . فاستعاد الحياة .

وتحرك الميت من مرقده ، وجلس فى موضعه ، وحاول أن يقوم من مكانه متعثراً فى أكفانه — معجزة لم يكن ممكنا أن تتم إلا على يدى رب المجد . . رب الحياة والخلود . وعندئذ أمر السيد من حوله قائلا . . « حلوه ودعوه يذهب » .

وهناك بعض اللمحات نحب أن نثبتها هنا . .

١ - إن «يسوع» قبل القيام بمعجزته، تقدم بصلاته إلى الآب . فالصلاة تصنع المعجزات ، وكما يقول « بروفسور جوديه » اللاهوتى المعروف « ما المعجزات إلا صلوات مستجابة » .

٢ - ولقد كان هدف «يسوع» من المعجزة ، هو مجد الله الآب. فلم يقم بها لمجده هو . ونحن نرى «ايليا» فى معركته الشهيرة مع أنبياء البعل يصلى قائلا : « إستجبنى يارب استجبنى ليعلم هذا الشعب أنك أنت الرب الإله »(ملوك الأول ١٨ : ٣٧) . على هذا القياس ، فإن المعجزات التى قام بها « يسوع » كانت تتم عن طريقه لمجد الله الآب .

وما أعظم الفارق ، بين الدافع الذى كان يدفع يسوع ، للقيام بمثل هذه الأعمال العظيمة ، وبين الدافع الذى يدفعنا للعمل والجهاد ؟ فنحن نعمل فى قوتنا ، ولمجد أنفسنا وليس لمجد الله ، أما «يسوع »، فقد استعان بقوة الله ، وعمل لمجد الله .

وكم كان ممكنا أن يجرى الله عجائب بواسطتنا ، لو أننا أرجعنا له - له وحده وليس لسواه - القدرة والمجد .

إقامة لعازر من الموت

(يوحنا ١١ : ١ - ٤٤)

حاولنا فى الصفحات السابقة، أن نسرد قصة«لعازر»مع التعليق عليها ، كما وردت فى البشارة الرابعة. ولكن هذه المعجزة تنفرد عن سواها من المعجزات، بأمور تحتاج إلى التأمل والتفكير . .

١ ــ فهناك معجزات إقامة موتى ، ذكرت فى غيرها من البشائر . فى بشارة متى (٩ : ١٨ ــ ٢٦) نقرأ عن معجزة إقامة ابنة «يايرس» من الموت . ولقد وردت أيضاً نفس المعجزة فى بشارتى مرقس ولوقا (مرقس ١٥ : ٢ ــ ٤٣ ، لوقا ٨ : ٤٠ــ٥٦) ، وتنفرد بشارة لوقا بذكر معجزة إقامة «يسوع» لابن أرملة قرية نايين (لوقا٧ : ١١ــ١٦) ، وأمام هاتين المعجزتين الأخيرتين يقف الناقدون متشككين ، محاولين أن يقللوا من قيمة عمل المسيح . فهم يقولون ألا يمكن أن تكون حالة ابنة «يايرس» ، وحالة ابن أرملة نايين مجرد إغماء وليس موتا حقيقيا ؟ ابنة «يايرس» اقيمت على الفراش ، وقد نسلم معهم جدلا أنها ربما كانت فى حالة إغماء شديد . ولكن ما الرأى فى ابن أرملة نايين الذى كان محمولا فى نعشه إلى المقبرة ؟ يجيبون أن جو الشرق الحار يدفع أهل الميت إلى الإسراع بتجهيزه للدفن ، وحمله إلى مقره الأخير ، خوفا من سرعة تحلل الجسد . وكم من حالات إغماء حدث فيها الدفن خطأ .

وإذا كانوا يتشككون فى هذه المعجزة أو تلك ، فإنهم بطبيعة الحال لن يستطيعوا أن ينكروا حقيقة العمل المعجزى فى اقامة «لعازر» ، الذى مضى على موته أربعة أيام كاملة ، ودب الفساد فى جسده وتورم ، وتغير لون جلده ، وابتدأ السائل العفن ، يسيل من فتحات جسده ــ ماذا يقولون فى هذه المعجزة؟

٣ ــ يقولون إنها لم تحدث مطلقا ، بدليل أن البشائر الثلاث الأخرى صمتت عن الإشارة إليها ، فكيف يمكن أن يصمت البشيرون الثلاثة عن كتابة ولو ملخص موجز لها ، أو مجرد الأشارة لحدوثها ؟

يجيب بعض المفسرين بأن السبب هو أن « بطرس » ، الذى استقى منه «مرقس» بشارته وهى أقدم البشائر ، لم يكن حاضراً أثناء حدوث المعجزة . وهذا واضح من أن «سمعان بطرس» لا يرد له ذكر فى الأصحاحات الخامس والسابع إلى الثانى عشر .

ولكن حتى وإن لم يكن «بطرس» أحد الحضور عند حدوث هذه المعجزة الفريدة، ألم يسمع بخبرها من غيره من التلاميذ، وكيف يمكن أن يغفل ذكر معجزة مذهلة نظير هذه؟

٣ — على أن أعظم صعوبة تكمن فى هذه المعجزة، هى أنها، كما يؤكد «يوحنا»، كانت السبب المباشر، الذى دفع رؤساء الكهنة لحبك مؤامرتهم، والإسراع بالقبض على يسوع، لإزاحته من طريقهم (يوحنا ١١: ٤٧ — ٥٤). أى أن إقامة «لعازر» من الموت، كانت السبب المباشر لصلب المسيح — فى البشائر الثلاث الأولى، نجد أن السبب الأساسى للقبض على المسيح حادثة تطهير الهيكل، فلو كانت هذه المعجزة قد حدثت بالفعل، وكانت السبب فى اشتعال نار العداوة ضد المسيح بصورة رهيبة، كان يجدر بالبشيرين الثلاثة أن يشيروا إلى ذلك؟

٤ — ولقد حاول البعض أن يجد تعليلا لذكر هذه المعجزة من الناحية العقلية..

(أ) فوصلت الغباوة بالكاتب الفرنسى «رينان» إلى حد القول بأن القصة كلها «مؤامرة» دبرها «يسوع» مع الأختين، ومع «لعازر»، فتظاهر «لعازر» بالموت، وحمل إلى المقبرة، حتى أتى «يسوع» وأخرجه؟ وبالطبع يصح أن نناقش مثل هذا الرأى بعد ذلك.

(ب) وقال البعض إن «لعازر» كان فى غيبوبة. ولكن إذا جاز لنا أن نتمسك بكل حرف ورد فى تفاصيل القصة نرى أن هذا غير معقول، فتفاصيل القصة واضحة تفند هذا الادعاء.

(جـ) وقال آخرون، إن القصة مثل رائع رمزى، يدور حول قول يسوع «أنا هو القيامة والحياة». وهكذا ألفت هذه القصة، لتوضيح هذا القول ولكى

وتصبح إطاراً جذابا له . ولكن هذا التعليل مسرحي أكثر من اللازم ولايمكن التسليم به .

(د) وقال غيرهم ، إن القصة ملحقة بمثل الغني ولعازر (لوقا ١٦ : ١٩ – ٣١) . فنهاية ذلك المثل : «إن لم يؤمنوا بموسى والانبياء ، ولا إن قام واحد من الأموات يصدقون » وهكذا نسجت هذه القصة لتظهر أن «لعازر » قد قام من الأموات بالفعل ، حتى يحذر إخوته من المصير القاسي ، ولكن إخوته – أي اليهود – لم يؤمنوا بما قال بل استمروا في عناد قلبهم حتى ، يومنا الحاضر .. فاقامة «لعازر » تخريج رمزي ، ونسيج تطوري ، للمثل الذي نادى به المسيح قبل ذلك .

٥ – على أننا نؤمن بالفعل ، بأن المعجزة حقيقية مائة في المائة . وبغض النظر عن أنها تتفق ومعجزات المسيح ، ولها نظائرها الأخرى ، الا أن هناك الكثير من الملابسات التي تؤكد صحتها .

(أ) فهناك موكب المسيح الانتصاري الذي التقى فيه سكان أورشليم بالسيد وهتفوا له هتافهم لملك منتصر . وكيف يمكن أن نفسر هذا اللقاء الخالد ، إلا على أساس حدوث هذه المعجزة التي انتشر ذكرها ، وأصبحت حديث كل لسان ؟

(ب) وهناك منطق التاريخ . فمازالت قرية بيت عنيا تقوم في موضعها إلى الآن ، قرية تدعى لعازرية اشارة إلى «لعازر » .

(جـ) على ان هذا ، لايفسر لنا ، لماذا صمت البشيرون الثلاثة : يقول البعض ، إن البشائر الثلاثة الأولى قد اقتصرت تقريباً على ذكر أحداث الجليل ، بينما اتجهت البشارة الرابعة ، إلى تسجيل الأحداث التي واجهت المسيح في اليهودية ، ومع أننا نجد هنا وهناك ما يناقض هذا الرأي ، إلا إننا نكتفي بالقول بأنه لم يحاول واحد من البشيرين عامة ، أن يقدم لنا سجلا كاملا وافيا ، عن كل ماصنعه «يسوع » من معجزات

خلال خدمته القصيرة التى بلغت ثلاث سنوات ونصف على وجه التقريب. ولم يكن غرض أحدهم ، أن يكتب لنا تاريخا مفصلا عن ذلك . وإنما ذكر كل منهم الأحداث التى حدثت فى حيزه ، وكانت معروفة لديه ، أو تسلمها شفاها من باقى التلاميذ ، أو من العذراء المطوبة .

(د) على أن أقوى رأى هو الذى نادى به « فردريك فاراء » فى كتابه « حياة المسيح[1] » حيث يقول إنه كانت هناك أسباب خاصة عند تدوين البشائر الثلاث الأولى ، لتجنب ذكر تلك المعجزة التى أثارت رؤساء الكهنة وجعلتهم يدبرون المؤامرات لاغتيال « لعازر » . فقد كان « لعازر » على قيد الحياة. لقد تجنبوا ذكر تلك المعجزة حتى لا يسببوا المتاعب لأختين وادعتين . ويعرضوا حياة انسان أحبه المسيح لخطر محقق . وهكذا صمتوا عمدا عن ذكر المعجزة .

أما بشارة يوحنا ، فقد كتبت بعد ذلك بوقت طويل . ومن المحتمل جداً أن يكون « لعازر » قد مات موتا طبيعياً آنذاك . وهكذا لم ير البشير الرابع حرجاً فى ذكر تفاصيل تلك المعجزة الخالدة .

٦ — ومهما تقول المتقولون ونادى المتشككون ، فإن الحقيقة الخالدة تبقى : إن هناك معنى روحيا ليستتر وراء هذه القصة الخالدة . وهو أن ذاك الذى أحيا يوما جسد ميت ، بعد أن مكث فى القبر أربعة أيام فأنتن وتحلل ، هو على استعداد أن يحيى فى كل حين أولئك الذين ماتوا روحيا ، وفاحت نتانة خطاياهم ، وآثامهم . . . إنه على استعداد أن يعيدهم إلى ملء البركة والحياة والقوة .

---

(١) الفقرة هنا مضافة بقلم المعرب .

يقول « روبرت مكفي » وقد خدم فترة من الزمن كواعظ في الجيش الأمريكي ، أنه كان مرافقاً لكتيبة يبلغ تعدادها الفا وخمسمائة جندي . كانت عائدة من اليابان للتسريح ، حينما اقترحت عليه جماعة منهم أن يعقد حلقات لدراسة انجيل يوحنا . وقرب نهاية الرحلة وكانوا قد وصلوا إلى هذا الأصحاح ، أسرع إليه بحار وهتف له : « إن كل كلمة في هذه القصة صحيحة وهي تشير إلي . ثم روى كيف أنه قضى شهوره الستة الأخيرة في نيران الجحيم . فهو قد انقطع عن دراساته . وانخرط في سلك العاملين في البحار . ووصل به المطاف إلى بلاد اليابان ، وانغمس في الشر لأذنيه . وضاق ذرعاً بالحياة كما ضاقت الحياة به . وأوقعه الشيطان في ورطة مشينة كان يخشى أن يلاقي بها أسرته . وما كان أحد يعلم عن هذا شيئاً إلا هو والله . وأحس بأنه خسر كل شيء وانتهى أمره ، وأنه الآن ميت . . . ميت لاحياة له بعد ثم يقول . .

« ابتدأت أعود إلى كتابي المقدس ، حتى وصلت في دراستي إلى هذا الأصحاح ، وقرأت قصة إقامة «لعازر» من الموت . وبكيت حينما سمعت صوت السيد يهتف ليس له فقط بل لي أيضاً قائلا : «هلم خارجاً» . وهكذا عدت للحياة » ، ثم يضيف « والآن أنا أعرف أن هذه المعجزة صحيحة مائة في المائة ، لأن «يسوع» قد أجراها هنا معي . لقد أعادني من قبر خطاياي إلى ملء الحياة المباركة » .

وهذا خلاصة الأمر كله . فقد يقول البعض إن معجزة «لعازر» لم تحدث ولكننا نؤمن أنها حدثت بالفعل . لأنها خلال كل يوم ، منذ عشرين قرناً من الزمان ، مازالت تتكرر في حياة ملايين الملايين من البشر الذين كانوا موتى في قبور خطاياهم وآثامهم ، وأعادهم «يسوع» إلى الحياة .

ولكنا نؤمن عن يقين ، أنه لاصعوبة هناك تعترض طريق إيماننا بهذا الحق الخالد الذى نادى به « يسوع » حين قال :

« أنا هو القيامة والحياة . من آمن بى ولو مات فسيحيا . وكل من كان حياً وآمن بى فلن يموت إلى الأبد » .

أتؤمن بهذا ؟ !

فَكَثِيرُونَ مِنَ ٱلْيَهُودِ ٱلَّذِينَ جَاءُوا إِلَى مَرْيَمَ وَنَظَرُوا مَا فَعَلَ يَسُوعُ آمَنُوا بِهِ . وَأَمَّا قَوْمٌ مِنْهُمْ فَمَضَوْا إِلَى ٱلْفَرِّيسِيِّينَ وَقَالُوا لَهُمْ عَمَّا فَعَلَ يَسُوعُ . فَجَمَعَ رُؤَسَاءُ ٱلْكَهَنَةِ وَٱلْفَرِّيسِيُّونَ مَجْمَعاً وَقَالُوا مَاذَا نَصْنَعُ فَإِنَّ هٰذَا ٱلإِنْسَانَ يَعْمَلُ آيَاتٍ كَثِيرَةً . إِنْ تَرَكْنَاهُ هٰكَذَا يُؤْمِنُ ٱلْجَمِيعُ بِهِ فَيَأْتِي ٱلرُّومَانِيُّونَ وَيَأْخُذُونَ مَوْضِعَنَا وَأُمَّتَنَا . فَقَالَ لَهُمْ وَاحِدٌ مِنْهُمْ . وَهُوَ قَيَافَا . كَانَ رَئِيساً لِلْكَهَنَةِ فِي تِلْكَ ٱلسَّنَةِ . أَنْتُمْ لَسْتُمْ تَعْرِفُونَ شَيْئاً . وَلَا تُفَكِّرُونَ أَنَّهُ خَيْرٌ لَنَا أَنْ يَمُوتَ إِنْسَانٌ وَاحِدٌ عَنِ ٱلشَّعْبِ وَلَاتَهْلِكَ ٱلأُمَّةُ كُلُّهَا . وَلَمْ يَقُلْ هٰذَا مِنْ نَفْسِهِ بَلْ إِذْ كَانَ رَئِيساً لِلْكَهَنَةِ فِي تِلْكَ ٱلسَّنَةِ تَنَبَّأَ أَنَّ يَسُوعَ مُزْمِعٌ أَنْ يَمُوتَ عَنِ ٱلأُمَّةِ . وَلَيْسَ عَنِ ٱلأُمَّةِ فَقَطْ بَلْ لِيَجْمَعَ أَبْنَاءَ ٱللهِ ٱلْمُتَفَرِّقِينَ إِلَى وَاحِدٍ

فَمِنْ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ تَشَاوَرُوا لِيَقْتُلُوهُ .

(يوحنا ١١ : ٤٧ – ٥٣)

هذه الفقرة تقدم لنا صورة حية للسلطات اليهودية . فلقد أثارت أحداث بيت عنيا ثائرة اليهود . فأصبح من المستحيل فى نظرهم ، أن يستمر «يسوع » فى عمله على هذه الصورة . فإن استمر هكذا صانعاً معجزاته ، فلابد أن الأمة كلها تلتف حوله .. وها هى النذر تبدو . وها هى الجموع تتكدس عليه . ولذلك فلابد من عمل حاسم .

وهكذا التأم مجمع السنهدريم . وفى ذلك المجمع كان ممثلون عن الكهنة وممثلون عن الفريسيين ، أما الفريسيون فلم يكونوا يوماً ما حزباً سياسياً على الإطلاق . لقد كان كل هدفهم الحفاظ على الناموس ، وحفظ الشعب فى دائرته ، وعدم التعدى على حرف واحد فيه . فهم ما كان يهمهم أمر الرومان ، أو ما يحدث فى البلاد من هزات سياسية ، طالما كانوا يعيشون حسب الناموس فى ملء الحرية . أما الصدوقيون ، فقد كانوا حزباً سياسياً عنيفاً ، وكانوا يمثلون طبقة الكهنوت . . . الحزب الأرستقراطى . والحزب الثرى . إن كل همهم كان فى مراكزهم .. فى أموالهم .. فى مقتنياتهم . ولذلك كانوا دائماً على استعداد ، أن يمدوا يد التأييد لروما ، طالما كانت روما تسندهم وتؤيدهم . ولقد كان كل الكهنة من طبقة الصدوقيين . ومن الواضح أن الصدوقيين هم الذين دبروا إجتماع السنهدريم ، واستدعوا أعضاءه وأنهم هم الذين يسيطرون عليه . أى أن الصدوقيين هم أصحاب الكلمة فيه . وبلمسات سريعة خاطفة يصور لنا «يوحنا» طبيعة أولئك ، وموقفهم من «يسوع » . فهم ممتلئون حقداً عليه ، وبغضا له . يقول «يوسيفوس » عنهم « إن سلوك الصدوقيين فيه وقاحة حتى فى تصرف أحدهم مع الآخر ،

وفى تعاملهم مع زملائهم جفاء ، كأنما مع الغرباء » . أنتم لاتعرفون شيئاً – هكذا يقول قيافا أى أنكم بله فقدوا عقولهم . هنا نشاهد لمسة من تعالى الصدوقيين وكبريائهم وغرورهم، بالقياس إلى محبة يسوع وعطفه وحنانه .

الأمر الثانى، أن هدف الصدوقيين الأساسى كان أموالهم . ومراكزهم . وكان خوفهم من «يسوع» أن تؤدى شعبيته إلى التفاف الجماهير حوله . فيحدث شغب فى الشعب، يؤدى إلى الثورة على المستعمر . وتكون النتيجة أن يلجأ الرومان إلى القوة . وربما انتهى الأمر إلى عزل الكهنة من مراكزهم، ولم تكن روما على سعة صدرها وتسامحها ، إلا مضطرة فى بعض الأحيان أن تضرب بيد من حديد على كل من يحاول إثارة الشعب فى إمبراطورية عظيمةمترامية الأطراف كالإمبراطورية الرومانية . فإن كان «يسوع »سيرفع الروح المعنوية فى الشعب ، فتلتف حوله الجماهير ، وتظن أنها تستطيع بقوته المعجزية ، أن تقف فى وجه الحديد والنار ، فنهاية اليهود دانية ، ولن يقف الرومان مكتوفى الأيدى ، ونهاية الكهنوت أيضاً والهيكل ، سوف تكون على كف القدر – لايهم إن كان «يسوع»على حق ، أو على باطل ... لايهم إن كان هو مسيح الله أو يدعى ذلك . . المهم مراكزهم جيوبهم . . ممتلكاتهم . المهم أثر هذه الحركة الجديدة التى يتزعمها ذلك الشاب الجليلى على سلطانهم وأموالهم . لقد كانوا ينظرون إلى الأمور بمنظار واحد : ذاتهم ومنفعتهم . هكذا كان مقياسهم . وعلى هذا ماكانوا يهتمون بارادة الله ، أو خدمة الله .

ثم تأتى الجملة الدرامية الساخرة ، التى وقف التاريخ ضاحكاً منها ، وضحكت معه الأجيال . .

أحياناً يحدث أن تدور على المسرح أمام الجمهور أحداث مسرحية .

وقد يحدث أن ينطق ممثل بجملة ... جملة عارضة لايدرك معناها ، ولكنها تحوى من المعانى أكثر مما يظن ، وأكثر مما يتصور . فجمهور الناظرين يدرك معناها أكثر مما يدركها هو . وهذا ماحدث بالتمام مع «قيافا» ..

لقد نطق بجملة لم يكن يدرى عمق معناها . . لم يكن يعرف أنها نبوة. لم يكن يدرك العمق البعيد الذى تنطوى عليه كلماتها . لقد نادى بأنه **خير أن يموت «يسوع» عن الشعب من أن تهلك الأمة بأسرها.**

ووافق الصدوقيون على قوله . واهتزت العمائم واللحى ، وما كانوا يدرون ، أنه لن يمضى على هذه النبوة أربعون عاماً حتى يتحقق ماكانوا يخشونه .

ومدة أربعين عاماً ، ليست بالفترة الطويلة فى حياة وتاريخ أمة . وهكذا بجيش جرار حاصر «تيطس» المدينة المقدسة .. فى فرصة أعياد الفصح قام بمحاصرتها ، حينما تجمع فيها مايقرب من مليونين من الأنفس البشرية فهلك منها فى الحصار من هلك ، وصلب منها من صلبه الرومان ، والباقون من الشباب ، حملوا أسارى إلى روما . وخرب الهيكل واحترق مجد اليهودية وحرثت المدينة المقدسة بالمحراث(١) . ما أعظم الفارق الذى كان ممكنا أن يتم فى حياة ذلك الشعب ، لو اتخذوا طريقاً آخر غير تضحيتهم بالمسيح .

لقد أراد الكهنة أن ينقذوا الموضع المقدس ؛ وفى محاولتهم إنقاذه خربوه. ولقد كتبت بشارة يوحنا حوالى العام المائة بعد ميلاد المسيح ، أى بعد ثلاثين عاماً من خراب أورشليم . ومما لاشك فيه أن كثيرين كانوا يقرأون

---

(١) للاستزادة يستطيع القارىء أن يرجع إلى قصة « سقوط أورشليم » للمعرب .

القول الذى أثبته البشير عن «قيافا» ، وكانوا يضحكون ساخرين، وصورة المدينة الخربة فى مخيلتهم .

نعم . لقد نطق «قيافا»وهو واقف على مسرح الأحداث بجملته . ولكنه ما كان يدرى أنها نبوة . وماكان يدرى عمق هذه النبوة ، وماكان يدرى أنها نبوة ساخرة ، هزأ منها التاريخ والأجيال . ومع أنها قد تحققت فى موت المسيح عن الأمة بأسرها ليجمع أبناء الله المتفرقين فى العالم أجمع ، إلا أنها تمت بصورة مقلوبة على أورشليم ، وأبناء اليهودية .

تنبأ قيافا بنبوته ، كرئيس للكهنة أمام المجمع اليهودى المقدس . ولقد كان اعتقاد اليهود ، أنه حين يسأل رئيس الكهنة مشورة الله بخصوص مستقبل أمته ، كان الله يتحدث بواسطته ، ويقدم رسالته عن طريقه . أى أنه يصبح فى هذه الفرصة فى مركز نبى . فى سفر العدد نقرأ عن يشوع خليفة موسى الذى أصبح قائداً لبنى إسرائيل ، أنه أراه مشورة الله .

فاصطحبه «موسى» إلى «العازار» رئيس الكهنة «فقال الرب لموسى خذ يشوع بن نون .. وأوقفه قدام العازار الكاهن » .. . فيقف أمام العازار الكاهن فيسأل له . . . أمام الرب حسب قوله يخرجون وحسب قوله يدخلون . . . كل الجماعة» (عدد ٢٧ : ١٨ — ٢١) . هنا نرى رئيس الكهنة وسيطاً بين الله ، والناس ، وقناة توصل كلمة الله وأوامره إلى الشعب. وهكذا كان قيافا فى ذلك اليوم . لقد نطق بنبوة ، ولكنه لم يدرك عمقها ، ولم يفهم مداها . لقد كان يقصد أنه من الأيسر أن يضحى بفرد واحد فى سبيل إنقاذ أمة بأكملها . وكان هذا حقاً عظيما ، ولكن بصورة أخرى ، وبطريق آخر أمجد — إن الله فى مقدوره جل وعلا ، أن يتحدث برسالته عن طريق أى إنسان ، وبأية واسطة ، دون أن يعرف ذلك الإنسان

أو تدرك تلك الواسطة . . فى مقدوره أن يستخدم حتى أبواق اللعنة ليوصل حقه للآخرين . كما حدث حينما تقدم « بلعام » بنبواته فى القديم ..

ولقد كان مقدراً ليسوع أن يموت ، لا لنجاة أمة واحدة ، ولا عن جنس واحد ، بل عن أبناء الله المتفرقين فى العالم أجمع خلال العصور والأجيال — فى كتاب نظام الكنيسة المعروف « بالديداكى » أو تعاليم الأثنى عشر رسولا ، وهو كتاب أثرى يرجع تاريخ كتابته إلى القرن الأول للميلاد ، كانت من الأقوال التى تردد عند كسر الخبز : « كما أن هذا الخبز جمع من الحنطة على الجبال ، فى هذا الرغيف الواحد ، هكذا لتجمع كنيستك من أقصى المسكونة إلى أحضان ملكوتك » (ديداكى ٩ : ٤). إن الحنطة التى تكون رغيف الخبز ، جمعت من أكثر من بقعة ، وهكذا سيأتى اليوم الذى فيه تتجمع عناصر الكنيسة وتتوحد فى المسيح الفادى الواحد .

يسوع الخارج على القانون

فَلَمْ يَكُنْ يَسُوعُ أَيْضاً يَمْشِي بَيْنَ ٱلْيَهُودِ عَلاَنِيَةً بَلْ مَضَى مِنْ هُنَاكَ إِلَى ٱلْكُورَةِ ٱلْقَرِيبَةِ مِنَ ٱلْبَرِّيَّةِ إِلَى مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا أَفْرَايِمُ وَمَكَثَ هُنَاكَ مَعَ تَلاَمِيذِهِ

وَكَانَ فِصْحُ ٱلْيَهُودِ قَرِيباً . فَصَعِدَ كَثِيرُونَ مِنَ ٱلْكُوَرِ إِلَى أُورُشَلِيمَ قَبْلَ ٱلْفِصْحِ لِيُطَهِّرُوا أَنْفُسَهُمْ . فَكَانُوا يَطْلُبُونَ يَسُوعَ وَيَقُولُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَهُمْ وَاقِفُونَ فِي ٱلْهَيْكَلِ مَاذَا تَظُنُّونَ . هَلْ هُوَلَا يَأْتِي إِلَى ٱلْعِيدِ . وَكَانَ أَيْضاً رُؤَسَاءُ ٱلْكَهَنَةِ وَٱلْفَرِّيسِيُّونَ قَدْ أَصْدَرُوا أَمْراً أَنَّهُ إِنْ عَرَفَ أَحَدٌ أَيْنَ هُوَ فَلْيَدُلَّ عَلَيْهِ لِكَيْ يَمْسِكُوهُ

(يوحنا ١١ : ٥٤–٥٧)

لم يكن «يسوع» فى حياته مجازفاً يسعى إلى المخاطر بغير داع . لقد كان على استعداد أن يضحى بنفسه ، ولكنه ما كان ليضحى بها بلا جدوى .

كما أنه لم يكن يخاف الموت لكنه ماكان ليسعى إليه حباً فى الموت . إن لكل شيء ميقاته لديه ، فلا فضيلة فى التهور . وهكذا لجأ إلى قرية تعرف بقرية أفرايم ، وتقع فى المنطقة الجبلية شمالى أورشليم بالقرب من بيت إيل . ولقد ذكرت بيت إيل ، وقرية أفرايم ، معاً فى أخبار الأيام الثانى (١٣ : ١١) .

فى تلك الأثناء ، كانت الجماهير من كافة بقاع العالم الكائن حينذاك ، تتوافد على المدينة المقدسة ، استعداداً لعيد الفصح . وكان على كل يهودى ذكر بالغ أن يحضر إلى الهيكل فى فرصة العيد ، ليقدم الذبيحة عن نفسه . وكانت المراسيم تقضى ، بأن من يشترك فى العيد ، عليه أن يكون طاهراً . وكانت النجاسة الطقسية بحسب الفكر اليهودى ، تأتى عن طريق لمس أشياء ، وأشخاص . وعلى كل «نجس» أن يجتاز فى طقوس ، وتقدمات وغسلات حتى يصبح طاهراً مؤهلا للاشتراك فى العيد . كانت وصية الناموس .. من يريد أن يشترك فى ممارسات العيد ، عليه أن يطهر نفسه ..

وكان التطهير يجرى فى الهيكل . وحيث يجتمع اليهود معاً فى حلقات ، وتدور بينهم المناقشات . وبطبيعة الحال كانت تلك المناقشات تدور حول أحداث الساعة .

وكان أكثر النقاش يدور حول « يسوع » ، ووقوفه فى وجه رجال الدين ، فقد كانت المواقف الشجاعة تستهويهم . ولكنهم ظنوا أنه تراجع أمام العاصفة ، وأنه لن يحضر إلى أورشليم . فلا حول لهذا النجار الجليلى المتواضع ، يواجه به جبابرة الكهنوت اليهودى ، وعتاولة السياسة الثائرين لقد كانوا يقللون من قدر «يسوع» بالرغم من المعجزات التى أجراها أمام عيونهم ، وبين جموعهم .

فلما وافت الساعة التى حددها «يسوع » ، صعد إلى العيد. لما وافت الساعة لم تستطع قوة فى الوجود،أن تمنعه من الصعود . إن كان هذا هو تدبير الله بالنسبة ليسوع ، فإن يسوع على إستعداد أن يواجه الموت ، والصلب وكل شيء فى سبيل إتمام إرادة الله . يحدثنا التاريخ عن «لوثيروس »أنه كان يتحدى الأصدقاء الحذرين ، الذين كانوا ينصحونه بالحكمة والتريث ، والتبصر بعواقب الأمور .

وهكذا استمر فى الطريق الذى اعتقد أنه حق ، رغم الكرادلة ، والبابوات ، والملوك ، والأباطرة ،وكل الشياطين ، وقوات الجحيم معهم، وحينما استدعى إلى ورمز ليقدم استجوابه ، عن « الإهانات » التى وجهها إلى مفاسد المجتمع الكنسى آنذاك ، وحذره الأصدقاء من الفخاخ التى قد تنصب له ، كان جوابه : « سوف أذهب إلى هناك ، ولو كانت ورمز مزدحمة بالشياطين ، بعدد الأشواك المعدنية التى على سطوح المنازل » .

وحينما قيل له إن «الدوق جورج» سوف يقبض عليه أجاب : « سوف أذهب ولو أمطرت السماء دوقات نظير «جورج». هذا لايعنى أن لوثيروس لم يكن يحس بالخوف ، لأننا نعلم بعد ذلك أنه فى لقائه مع أعدائه . وفى أثناء إدلائه بدفاعه أمامهم ، كانت ركبتاه تصطكان ، وصوته يضطرب ، ولكنه كان يملك من الشجاعة ،ماتغلب به على مخاوفه . ينبغى ألا يخشى المسيحى عواقب القيام بالواجب . وليكن أخشى ما نخشاه ، هو عواقب عدم القيام بالواجب .

ومن الآيات الختامية لهذا الفصل ، نفهم أن «يسوع » قد أصبح بعد ذلك « طريد » العدالة اليهودية . ولعل السلطات الكهنوتية قد عينت مكافأة لمن يدلى بمعلومات تساعد على القبض عليه . ولعل هذا هو الذى دفع يهوذا

إلى خيانته المعروفة طمعاً فى مكافأة الدم التى نالها . فى هذه المرة أتى يسوع إلى أورشليم ، وظل الموت يخيم عليه .. أتى لامتخفيا عن عيون الناس ، ولا مختبئاً فى بيوت أصدقائه ومعارفه ، بل أتى علانية ، أمام عيون الجميع مجتذبا أنظار الكل — مهما قال الأعداء عن يسوع فينبغى أن يحنوا رؤوسهم إجلالا وإكباراً أمام هذه الشجاعة النادرة فى مواجهة الموت الرهيب .

ٱلْأَصْحَاحُ ٱلثَّانِي عَشَرَ

ثُمَّ قَبْلَ ٱلْفِصْحِ بِسِتَّةِ أَيَّامٍ أَتَى يَسُوعُ إِلَى بَيْتِ
عَنْيَا حَيْثُ كَانَ لِعَازَرُ ٱلْمَيْتُ ٱلَّذِي أَقَامَهُ مِنَ ٱلْأَمْوَاتِ .
فَصَنَعُوا لَهُ هُنَاكَ عَشَاءً . وَكَانَتْ مَرْثَا تَخْدُمُ وَأَمَّا لِعَازَرُ
فَكَانَ أَحَدَ ٱلْمُتَّكِئِينَ مَعَهُ . فَأَخَذَتْ مَرْيَمُ مَناً مِنْ طِيبِ
نَارِدِينٍ خَالِصٍ كَثِيرِ ٱلثَّمَنِ وَدَهَنَتْ قَدَمَيْ يَسُوعَ وَمَسَحَتْ
قَدَمَيْهِ بِشَعْرِهَا . فَٱمْتَلأَ ٱلْبَيْتُ مِنْ رَائِحَةِ ٱلطِّيبِ . فَقَالَ
وَاحِدٌ مِنْ تَلَامِيذِهِ وَهُوَ يَهُوذَا سِمْعَانُ ٱلْإِسْخَرْيُوطِيُّ ٱلْمُزْمِعُ
أَنْ يُسَلِّمَهُ . لِمَاذَا لَمْ يُبَعْ هٰذَا ٱلطِّيبُ بِثَلَاثِ مِئَةِ دِينَارٍ
وَيُعْطَ لِلْفُقَرَاءِ . قَالَ هٰذَا لَيْسَ لِأَنَّهُ كَانَ يُبَالِي بِٱلْفُقَرَاءِ
بَلْ لِأَنَّهُ كَانَ سَارِقاً وَكَانَ ٱلصُّنْدُوقُ عِنْدَهُ وَكَانَ يَحْمِلُ
مَا يُلْقَى فِيهِ . فَقَالَ يَسُوعُ ٱتْرُكُوهَا . إِنَّهَا لِيَوْمِ

تَكْفِينِى قَدْ حفِظَتْهُ . لِأَنَّ ٱلْفُقَراءَ مَعَكُمْ فِى كُلِّ حِينٍ .
وأَمَّا أَنَا فَلَسْتُ مَعَكُمْ فِى كُلِّ حِينٍ

(يوحنا ١٢ : ١ – ٨)

حتى ذلك الحين ، كان يسوع أقرب ما يكون إلى ختام حياته على الأرض . إن حقيقة حضوره إلى أورشليم ، للاشتراك فى ممارسات عيد الفصح ، كان عملا غاية فى الشجاعة . فقد أصبح بالفعل فى مركز الطريد الخارج على القانون ، الذى تطالب العدالة به لتقتص منه (يوحنا ١١ : ٥٧) . ولقد كانت أورشليم مزدحمة بالمعيدين القادمين من مختلف البقاع ، حتى لم يعد هناك بد من أن يلجأ «يسوع» إلى بيت أحبائه فى قرية بيت عنيا ، التى أباح الكهنة اللجوء إليها رغم أنها خارج دائرة المدينة المقدسة ، وذلك لزيادة الحجاج المعيدين فى تلك السنة .

وحينما جاء «يسوع» إلى بيت عنيا ، ذهب على التو إلى بيت لعازر ، وقامت الأختان بعمل وليمة له . ولم يقل لنا كاتب البشارة صراحة ، إن «يسوع» قد ذهب إلى هناك . ولكن يبدو من قرائن الحديث ، أن هذا حدث بالفعل وإلا فأين كانت تخدم « مرثا » إلا فى بيتها ؟ هناك فاض قلب « مريم » بالحب الغامر لسيدها ، ومعلمها ، الذى أنقذ أخاها من الموت ، وأعاده إلى الحياة . وكانت تملك قنينة طيب نادر كثير الثمن ، يلقبه البشير بناردين خالص. والكلمة التى ترجمت ناردين ، وردت فى بشارة مرقس بلفظ « بستكوس » فى الأصل اليونانى (مرقس ١٤ : ٣) . ومن الغريب أنه لا أحد حتى يومنا الحاضر يعرف على وجه التحديد ، ما هو « البستكوس » أو الناردين .

قال البعض إنه من الأصل «بستكوس» كلمة معناها الأصلي الذي لاغش فيه، وقال آخرون إنه يأتي من فعل في اليونانية يشير إلى مشروب ، وهذا يعني أن ذلك الطيب كان سائلا وليس متجمدا . وقال غيرهم إن الكلمة تشير إلى علامة تجارية كانت مشهورة في ذلك الوقت، حتى أنها لا يجب أن تترجم إلا إلى « بستك نارد » كما وردت . وهناك من قال بأنها مشتقة من كلمة « بستاكيو » وهي ثمار الفستق . وأن الطيب كان مستخرجاً منه . على أية حال كان هذا الطيب ثمينا نادراً . بهذا الطيب النادر دهنت « مريم » قدمي المسيح . أما يهوذا الأسخريوطي ، فقد رأى في هذا العمل إتلافاً لامبرر له . فقد كان في الإمكان أن يباع هذا الطيب بثمن غال ، ويوزع ثمنه على الفقراء . ولكن « يسوع » أفحمه قائلا ان عمل الرحمة مع الفقراء ممكن في كل حين ، لأن الفقراء بين ظهرانيهم في كل وقت . ولكن إظهار روح الكرم من نحو المسيح لن يتاح لهم بعد الآن ، لأن وقته منذ الآن مقصر ..

في هذه الفقرة نرى لمسات رائعة للشخصيات التي تعرض لها .

١ — فهناك شخصية «مرثا» . إنها دائما أمام المائدة . . تعد الأطباق ، وتملؤها بالطعام ، وتجهز الخبز ، والفاكهة . هي على الدوام خادمة المطبخ . . إنها سيدة عملية تريد أن تظهر محبتها ليسوع بعمل ما . فهي لاتفهم الجلسة الروحية الهادئة ، وهي لاتدرك معنى الحياة الحالمة التي تحياها أختها . إن دليل محبتها هو عمل يديها . فهي على استعداد أن تعطي لحبيبها ، كل ماتستطيع أن تقدمه .

كم من عظيم في المجتمع ، ما كان مقدرا له أن يرتفع شأوه ويقف على قدميه ، لولا محبة وعناية إنسانة في البيت، إما كانت ، أو أختا ، أو زوجة . . . إنسانة تضحي براحتها ، وبوقتها ، وبمجهودها ، وبصحتها سبيل راحته وإكرامه .

ومن جهة خدمة «يسوع» نقول، إننا نستطيع أن نقدم له فى خدمتنا لإخوته، خدمة المطبخ والأوعية واليدين العاملتين فى الخفاء، مثلما يقدم له الآخرون بخدمة الفم، والتأمل، والمنبر القوى.

٢ – ثم هناك شخصية «مريم». و«مريم» فوق كل شئ وقبل كل شئ أحبت «يسوع» وفى محبتها ليسوع نرى صورة مثالثة للمحبة الصادقة.

(ا) فنرى أولا إسراف المحبة.. كدت أقول إتلاف المحبة. فالمحبة الصادقة، محبة متلافة، لاتحسب حسابا لشئ. لقد أخذت «مريم» أثمن ماتمتلكه وسكبته سكيباً إكراما ليسوع. إن المحبة لن تكون محبة حقيقية، إذا كانت تحسب حسابا للنفقة. إنها تعطى كل مالديها. وتأسف لأنه ليس لديها أكثر من هذا الكل.

هناك قصة معروفة، كنا نقرؤها ونحن صغار، عن إسراف المحبة، أو المحبة المتلافة، التى لاتحسب حساب النفقة ولاتقدر العواقب، وهى للكاتب الأمريكى «أو هنرى» كاتب القصة القصيرة المعروف. أما أحداث القصة فتدور حول عروسين «ديلا وجيم» كانا يحبان أحدهما الآخر لدرجة العبادة، وكانا فقيرين لايملكان الكثير من حطام الدنيا. أما «ديلا» فقد كانت تتيه على صويحباتها بشعرها الجميل الذى يصل إلى خصرها. أما «جيم» فقد كان يفخر بساعته الذهبية التى ورثها عن أبيه. واقتربت فرصة عيد الميلاد. ولم يبق سوى يوم واحد. وراح كل من العروسين يفكر بمفرده فى الهدية التى يفاجئ بها شريك حياته. أما «ديلا» فقد ذهبت إلى محال الشعور الصناعية لتبيع هناك أثمن ماتملك، خصلات شعرها الذهبى الطويل، وبالثمن الذى قبضته ذهبت، واشترت سلسلة ذهبية لساعة حبيبها.

أما العريس فقد عاد فى مساء العيد ، ووقف واجما فى مكانه ، وهو يتأمل شعر عروسه وقد قص إلى ما فوق الرقبة . « ليس لأنى أحبك الآن أقل . . ولا لأن هذا قد أثر على جمالك ، ولكن » هكذا قال بأسى وهو يسلمها هدية العيد ، وكانت عبارة عن مجموعة من الأمشاط النادرة المصنوعة من درقة السلحفاة ، محلاة بالأحجار الكريمة ! وتمالكت نفسها ، وأسرعت لتحضر له هديته : السلسلة الذهبية ، وأمسك بها والدموع تملأ عينيه . . فقد باع ساعته النادرة ليشترى لها مجموعة الأمشاط !

لقد أعطى كل منهما أخاه كل مايملك ، ولو أنها هدايا لم تقدر العواقب . إن المحبة الصادقة لاتفكر فى النتائج حينما تعطى .

(ب) ونرى ثانيا **إتضاع المحبة** . لقد كان من علامات إكرام إنسان ، أن يمسح رأسه بمسحة الطيب . ونحن نجد المرنم يهتف بروح الإمتنان لخالقه قائلا : « مسحت بالدهن رأسى » . (مزمور ٢٣ : ٥) ولكن « مريم » لم تطمع فى مثل هذا الشرف العظيم ، أن تلمس بكفيها رأس المخلص . وهكذا مسحت بالطيب قدميه . لقد كان كل هدفها أن تكرم يسوع . ولكنها لم تحسب نفسها مستأهلة أن تقدم له بيديها هذا الإكرام .

(حـ) ونحن نرى **عدم شعور المحبة بكرامتها ، إنها لم تعمل حسابا لذلك** . لقد مسحت مريم قدمى يسوع بشعر رأسها أمام أنظار الجميع . لقد جرت العادة فى فلسطين ، فى زمن المسيح ، ألا تكشف المرأة الوقورة عن شعرها أمام الجميع . فحالما تصبح الفتاة عروسا تلف طيات شعرها ، وتربطه ، فلا يشاهد إنسان شعرها محلولا فى مكان عام . لقد كان حل الشعر وتركه سائبا ، دليلا على أن صاحبته امرأة مستهترة وزانية . ولكن مريم لم تفكر فى كل هذا . لقد نسيت

مشاعرها ، وكرامتها ، وحديث الناس عنها . لقد كانت تحب يسوع ، وفى جو الحب عاشت معه فى ذهول عن أى شئ آخر ، أو أى مشاعر أخرى .

وهل يجوز لنا أن نتخذ من محبة أهل العالم مثلا لتلك المحبة القدسية الصوفية ؟ ألم تر حبيبين يسير أحدهما مع الآخر وقد تأبط الواحد ذراع أخيه ؟ والحديث يحلو ويطول ، والعيون يلتهم أحدها الآخر ، والحركات السكرى تبدو واضحة أمام الناظرين ، وهما ، لايحسبان حساباً لشىء ؟ بل ألايحدث أن يتعمد الأثنان إظهار هذه المحبة أمام الآخرين وكأنهما يقولان للناس : نحن نحب أحدنا الآخر ، وما لكم أنتم ؟ هل وصلنا نحن إلى هذا الحد . . إلى حد المحبة الذاهلة التى لاتشعر بشىء ؟ هل ارتبطنا بيسوع بهذا الرباط القوى . وأحببناه هذا الحب ، وحرصنا على أن نعلن محبتنا له أمام الآخرين؟ أم أننا نخشى حديث الناس ، وأقوالهم ، وانتقاداتهم ؟ لقد أحبت مريم يسوع بهذا الفيض العميق الذى يغمر المشاعر ، ويغرق الكيان ، ويمتلك الأحاسيس ، ويترك الإنسان فى ذهول عن كل شىء سوى . . . هذا الحب؟

(د) ولكن هناك شيئاً آخر عن المحبة هنا . تقول الآية « فامتلأ البيت من رائحة الطيب . . . ونحن نعرف أن يوحنا البشير حينما يسجل لنا حدثاً من الأحداث فإنه يرمى إلى معنيين : المعنى الظاهرى ، ومعنى آخر خفى أكثر عمقاً ودلالة . وهناك الكثيرون من آباء الكنيسة ومن علماء الكتاب قد رأوا فى هذا القول معنيين :

أما المعنى الخفى فهو أن الكنيسة كلها — وما البيت الذى امتلأ بحضر يسوع وبركات حضوره إلا رمز الكنيسة — وقد امتلأت إلى أجيال الأجيال ،

بذكر محبة مريم العطر ، وتضحيتها التى فاحت كرائحة الطيب . إن العمل الطيب لايصبح ملكاً لصاحبه فحسب ، بل ملكاً للعالم كله ، إنه يضحى شيئاً ثمينا خالداً لايستطيع الزمن أن ينتصر عليه أو يمحوه . وما قصص الحب الخالدة إلا أخلد القصص فى هذا الكون . .

تطرف المحبة

(يوحنا ١٢ : ١ -٨)

٣ ــ على أن هناك أيضاً شخصية «يهوذا الإسخريوطى »، وحول شخصية يهوذا . . . نلاحظ أمورا ثلاثة . .

(أ) **فيسوع يضع ثقته فيه** ، بالرغم من أن كاتب البشارة ، يؤكد قبل ذلك بوقت طويل أنه عرفه كمسلمه (يوحنا ٦ : ٧٠ ــ ٧١) . ولعل «يسوع » أراد أن يلمس قلبه بلمسة الحنان ويجعله يستيقظ لنفسه حين عينه جامل الخزانة ، ومدبر شئون الجماعة . فهو بهذا العمل ، كأنى به يقول له : « يهوذا » هذا دليل على أننى أحبك . واحتاج إليك ، وأثق بك . فلا تخيب ثقتى فيك » . ولقد فشل «يسوع » مع «يهوذا » ، لأن «يهوذا» اختار طريق الفشل ــ إن أسلم طريق نحاول أن نرجع به أنسانا إلى صوابه ، لا أن نعامله بالريبة والحذر ، بل أن نظهر له أننا مازلنا نضع ثقتنا فيه . لنعامله كأنما ننتظر منه السلوك الأفضل ، وليس السلوك الأردأ .

(ب) **ولكن التجربة تراوده** . وهنا نرى أحد نواميس التجربة . فلم يضع يسوع تلميذه يهوذا خازنا للهيئة لأنه كان يرى فيه بعض المؤهلات التى تؤهله لهذا العمل التدبيرى . يقول « وستكت » فى تفسيره . .

« إن التجربة تأتى الينا عن طريق مؤهلاتنا واستعداداتنا الطبيعية . . . عن الطريق الذى نكون أكثر تأهلا فيه » . فإن كان هناك انسان أعطيت له موهبة الحكمة فى جمع المال ،فإنه يجرب بأن يرى فى المال الصنم الأكبر الذى يعبده . وإن كانت لأنسان مؤهلات المركز والزعامة بين الناس ، فإن التجربة تدفعه للسعى بكل جهده فى هذا السبيل ، وإفناء عمره وجهوده للوصول إلى مطامعه . إن كانت لأى انسان موهبة خاصة فإن تجربة الغرور والكبرياء والأندفاع ، تتسلل إليه عن طريق إحساسه بهذه الموهبة الممتازة . لقد كانت ليهوذا موهبة تدبير المال ، وشغف يهوذا بجمع المال بكل الطرق والوسائل ، حتى أضحى فى النهاية لصا وسارقا ، وخائنا لسيده . فى الترجمة الانكليزية المعتمدة ، يرد عن يهوذا القول إنه كان « يحمل» الصندوق ، أو الخزانة . وكلمة **يحمل** فى الأصل هى « بستازين » . وهى تعنى **يرفع** ، **ويحمل** ، **وينشل** ! والفعل ينشل بالمعنى العربى الدارج ، يختص بحرفة النشالين . وهكذا كان « يهوذا » حاملا للصندوق ، وناشلا له أيضا . لقد تسللت إليه التجربة من حيث ازدهرت مواهبه

(ج) ونرى فى تصرف «يهوذا» فى تلك الفرصة ، كيف يمكن **أن ينقلب مدلول الشيء فى نظر من يتطلع إليه** . لقد شاهد « يهوذا » عملا مجيدا يجرى أمامه . . . . عملا غاية فى الجمال والجلال ، ولكنه لم ير فيه مجدا ولا جمالا ولا جلالا . بل على النقيض من ذلك ، رأى فيه اتلافا لا مبرر له . إن نظرة الإنسان لشئ ما تنبع من أعماقه . . من الداخل . . من طبيعته الداخلية . إن كنا نحب إنسانا ، فإن كل ما يقوم به حلو ومجيد فى أنظارنا . ولكن إن كنا نبغض ذلك الإنسان ،فان أمجد خدماته ، وأعماله ، وصفاته ، تصبح فى نظرنا أنانية ، ونفعية ، ودناءة . ولقد كان«يهوذا» إنسانا يفيض قلبه

بالحقد والمرارة ، فأصبح الحلو مراً فى عينيه . . . إن كانت لنا العين المظلمة الناقدة ، فإننا نرى فى النور ظلاماً كئيبا . إن العقل الملتوى يفهم كل شيء قتاماً وظلاماً . فإذا وجدنا أنفسنا وقد انسقنا فى يوم من الأيام بصورة عكسية ، والعين المعتمة ترى كل شيء فى تيار نقد الآخرين ، وإذا اكتشفنا أننا نبحث عن مثالبهم ، وعيوبهم ، ونرجع كل أعمالهم لدوافع غير نبيلة ،علينا أن نكف عن نقدهم ، ونتجه بالأولى إلى فحص أنفسنا . فإننا نكون حينذاك أولى بالفحص والنقد ، والاختبار .

(د) وأخيراً نكتشف فى العمل الذى قامت به «مريم» حقاً عظيماً عن الحياة : إن فرصة الخدمة قد تأتى أمامنا مرة واحدة لا غير ، وعلينا أن نغتنمها ولا نضيعها . كثيرا ما يراودنا الأحساس والرغبة ،بأن علينا أن نعمل عملا كريما ، كبيرا فى خدمة الآخرين .

فنؤجله من حين لآخر ، ونرجئه إلى الغد . ولقد لا يأتى غد الخدمة على الأطلاق ، فتضيع الفرصة وتنتهى إلى غير رجعة ، أو يموت الدافع لها فى أعماقنا ، ويخمد نداؤها .

إن الحياة غير ثابتة غير أكيدة . ومشاعرنا أيضا غير ثابتة بل متقلبة . أحيانا نود أن نعمل واجبا، أو نقول كلمة شكر ، أو نعبر عن محبتنا لإنسان ما . فنؤجل ذلك يوما بعد يوم . فإما أن تخمد الرغبة الكريمة فى أعماقنا وإما أن تنتهى حياة ذلك الإنسان وفى قلبه غصة من نحونا . وهكذا يتبخر الواجب ، وتضيع الخدمة الطيبة ولا يبقى لها مجال .

عن الكاتب الانكليزى والمفكر المعروف « توماس كارليل» ، يروى التاريخ أنه كان يحب زوجته « جان » محبة صادقة ، ولكنه كان عصبيا

سريع التقلب ، حتى انها ما وجدت فى الحياة معه ساعة هنيئة . وعلى حين غرة فاجأتها المنية – استمع إلى ما يقوله الناقد « ج . ا فرود » عن مشاعره آنذاك . . « أحيانا ، كان يقضى الساعات مع مذكراتها ، وأوراقها . وأحيانا ، كان يدفن رأسه فى حاجياتها وملابسها . وعادت إليه الذكريات القديمة ، فى إطار أحزانه القاسية الأليمة ، تقض مضجعه ، ولا تدعه ينعم بليلة من النوم الهادىء . وفى لياليه المؤرقة الطويلة ، اكتشف أخيرا أنه كان السبب فى متاعبها وآلامها، وربما فى موتها المبكر . وبدت أخطاؤه مهولة رهيبة، تجلس على كرسى القضاء وتدينه .

فكان يصرخ من أعماق ضميره المعذب . . آه لو أراها مرة واحدة .. مرة واحدة فقط لمدة خمس دقائق ، إذاً لجعلتها توقن انى أحبها . . حبا جماً . . أحبها حتى فى ساعات غضبى وثورتى . ومع ذلك ما عرفت . . ما عرفت يوما هذه الحقيقة . .

لقد كانت شكوى يهوذا أنه كان ممكنا استثمار هذا الطيب فى خدمة الفقراء – كما يقول سفر التثنية . . « أعط . . . لأنه بسبب هذا الأمر يباركك الرب إلهك فى كل أعمالك . لذلك أنا اوصيك قائلا افتح يدك لأخيك المسكين » (تثنيه ٣٥ : ١١)

ولكن الفقراء لا ينقطعون من الأرض ، ومساعدة الفقراء فى وسع الإنسان القيام بها فى أية ساعة ، أما تقديم الإكرام ، لمسيح على وشك أن يحتضنه الصليب القاسى ، فينبغى ان يتم قبل فوات الأوان . ينبغى أن نسرع بالقيام بالواجب الآن، فلعل الفرصة لا تأتى على الإطلاق . ولعلنا نقضى بعد ذلك سحابة العمر ، نعض بنان الندم والحسرة ، حيث لا ينفع الندم ولا تجدى الحسرة .

فَعَلِمَ جَمْعٌ كَثِيرٌ مِنَ ٱلْيَهُودِ أَنَّهُ هُنَاكَ فَجاءُوا لَيْسَ لِأَجْلِ يَسُوعَ فَقَطْ بَلْ لِيَنْظُرُوا أَيْضاً لِعَازَرَ ٱلَّذِى أَقَامَهُ مِنَ ٱلْأَمْوَاتِ . فَتَشَاوَرَ رُؤَسَاءُ ٱلْكَهَنَةِ لِيَقْتُلُوا لِعَازَرَ أَيْضاً . لِأَنَّ كَثِيرِينَ مِنَ ٱلْيَهُودِ كَانُوا بِسَبَبِهِ يَذْهَبُونَ وَيُؤْمِنُونَ بِيَسُوعَ

(يوحنا ١٢ : ٩ – ١١)

لقد أصبح قادة اليهود الآن فى موقف لايحسدون عليه . نقول على وجه التحديد طبقة الصدوقين ،وكل الكهنة كانوا من الصدوقين. فقد أصبح الموقف بالنسبة لذلك الحزب الكهنوتى متأزماً من جانبين . .

فمن وجهة النظر السياسية ،كان الموقف حرجاً للغاية .فلقد أسلفنا أن حزب الكهنوت ، كان الحزب الارستقراطى الثرى . ولذلك لا تخطىء النظرة إذا قلنا إنهم كانوا ممالئين للمستعمر . يحاولون التوفيق بينه وبين الشعب .

لقد كان حزبهم هو حزب الممالأة ومحاولة التوفيق .فهدفهم الأكبر كان الحفاظ على مراكزهم وثرواتهم . وطالما كانوا محتفظين بكرامة السلطة الكهنوتية ، طالما كان لهم سلطانهم على الشعب ، فقد كانوا على استعداد أن يمدوا يد الصداقة للمستعمر .

وقد كان لروما من سماحة الصدر ، وسعة الفكر ، ما يجعلها تهب المستعمرات التي تحت سلطانها ، أكبر قدر من الحرية ، والحكم الذاتي . ولكن عند ظهور أدنى بادرة من الثورة والتمرد ، كانت تضرب ضربتها القاصمة بلا رحمة ولاهوادة . وكان أقسى الضر يقع على رؤس المتربعين على كراسي الحكم ، فيتم عزلهم أو محاكمتهم إذا اقتضى الأمر . لقد رأى الكهنة في «يسوع» بذرة ثورة وشيكة الإنفجار بين الشعب أو على حد تعبير أحدهم ، كان الشعب نسيج الكتان المغموس في الزيت المشتعل ، وكان يسوع الشرر الملتهب ، ولابد أن يأخذ النسيج من الشرر فيشتعل ويلتهب .

لقد سرق «يسوع» قلوب الشعب . والتفت الأمة بأسرها حوله . وبدأت صناعة الكهنوت تبور .

وأصبح رجل الشارع . ينظر في إستعلاء والتواء لصاحب العمامة واللحية . فتكهرب الجو ، ولم يكن هنالك بد من عمل حاسم يخمد حماسة الشعب ، ويقضي على الفتنة في مهدها ، ويعيد الأمور إلى نصابها — إذن فليذهب «يسوع» إلى غير رجعة .

ومن وجهة النظر الدينية ، كان «يسوع» خطراً لايبارى على صناعة الهيكل ، وتعاليم الهيكل ، على الأقل في التعليم الأساسي الذي يعتنقه الصدوقيون ويروجون له أيما رواج . فعلى النقيض من الفريسيين لم يكن الكهنة يؤمنون بقيامة الأموات . كانوا يؤمنون بأن حياتنا في هذا الوجود ، وحينما يسدل الموت ستاره على الإنسان ، يكون هو الفصل الأخير في قصة الإنسان . وها هو يسوع يزلزل كيان هذا التعليم بمناداته بقيامة الموتى . . ويؤكد تعليمه النظري بواقعة ملموسة محسوسة ، لاسبيل لدحضها أو انكارها ، هي اقامة لعازر من القبر ، وإعادته إلى الحياة . وهاهم كثيرون يحجون إلى بيت

عنيا جماعات ، ويصبح بيت لعازر قبلتهم ، فيرون الميت حياً صحيحاً يسير على قدميه ، ويحرك يديه ، وينطق بشفتيه ، وشقيقتاه تلازمانه ملازمة الظل ، والبيت الذى كان ينطلق منه صوت البكاء والعويل ، أصبحت ، تنطلق منه ترانيم الفرح ، وهتافات النشيد — وهكذا يؤمنون ويسجدون . وتتعالى أسهم المعلم الجليلى فى انظار الشعب الأمى الذى لايفهم الناموس .

ماذا يفعل أولئك الصدوقيون فى هذه « المأساة » ؟

لقد تآمروا ليقتلوا لعازر ليعيدوه مرة ثانية إلى القبر ، فيختفى الدليل القوى . يذكر أحد الكتاب[1] ، ملاحظة صدرت من سيدتين عجوزتين . فى الفترة التى نادى بها « دارون » بنظريته المعروفة عن ارتقاء الإنسان .

وفهمت نظريته المعروفة على أن الإنسان قد تصاعد ونشأ وارتقى من حيوانات أدنى فى الرتبة ، حتى وصل إلى صورته الحالية ، قالت هاتان السيدتان إحداهما للأخرى : تأمل ألا يكون هذا صحيحاً . وإن كان صحيحاً دعينا نحمده بكل قوانا » — حينما يقرر إنسان أن يقيم الدليل على صحة رأى بتحطيم كل الأدلة التى تناهضه ، فمعنى هذا أنه على استعداد لاستخدام الطرق الملتوية لتأييد الباطل .

ولقد كان الصدوقيون على استعداد أن يخمدوا الحق فى سبيل مصلحتهم عند كثيرين . مصلحة الإنسان هى فوق كل اعتبار آخر . . فهى أقوى الدوافع ، يتضاءل دونها كل دافع آخر . فى ميدان الحياة الإجتماعية على سبيل المثال ، كثير من الاختراعات النافعة التى يمكن أن تؤدى إلى خفض سعر سلعة من السلع ، لاتظهر إلى حيز الوجود ، لا لسبب ، إلا لأن حفنة من

(1) H.G. Wood.

الرأسماليين المتفعين ،الذين تضار مصالحهم بسبب مثل هذا الأختراع ، يشترون براءة الأختراع من المسئولين ويدفعون المبالغ الطائلة فى سبيل ذلك . هذا ما يحدث فى غالب الأحيان. فالمصالح الذاتية تقتضى الدهاء والعمل السريع .

ولكى يحافظ الكهنة على مراكزهم ، ونفوذهم ، كانوا على استعداد أن يزيحوا البرهان الساطع من طريقهم .

وكم هو مؤسف أن يصل الإنسان إلى الحالة التى يخشى فيها الحق ،ويضع نصب عينيه مصالحه ، ومنفعته ، فوق كل اعتبار آخر .

استقبال ملكي

وَفِي ٱلْغَدِ سَمِعَ ٱلْجَمْعُ ٱلْكَثِيرُ ٱلَّذِي جَاءَ إِلَى ٱلْعِيدِ أَنَّ يَسُوعَ آتٍ إِلَى أُورُشَلِيمَ . فَأَخَذُوا سُعُوفَ ٱلنَّخْلِ وَخَرَجُوا لِلِقَائِهِ وَكَانُوا يَصْرُخُونَ أُوصَنَّا مُبَارَكٌ ٱلآتِي بِٱسْمِ ٱلرَّبِّ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ . وَوَجَدَ يَسُوعُ جَحْشاً فَجَلَسَ عَلَيْهِ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ . لَا تَخَافِي يَا ٱبْنَةَ صِهْيَوْنَ . هُوَذَا مَلِكُكِ يَأْتِي جَالِساً عَلَى جَحْشِ أَتَانٍ . وَهٰذِهِ ٱلْأُمُورُ لَمْ يَفْهَمْهَا تَلَامِيذُهُ أَوَّلاً . وَلٰكِنْ لَمَّا تَمَجَّدَ يَسُوعُ حِينَئِذٍ تَذَكَّرُوا أَنَّ هٰذِهِ كَانَتْ مَكْتُوبَةً عَنْهُ وَأَنَّهُمْ صَنَعُوا هٰذِهِ لَهُ . وَكَانَ ٱلْجَمْعُ ٱلَّذِي مَعَهُ يَشْهَدُ أَنَّهُ دَعَا لِعَازَرَ مِنَ ٱلْقَبْرِ وَأَقَامَهُ مِنَ ٱلْأَمْوَاتِ . لِهٰذَا أَيْضاً لَاقَاهُ ٱلْجَمْعُ لِأَنَّهُمْ سَمِعُوا أَنَّهُ كَانَ قَدْ صَنَعَ هٰذِهِ ٱلْآيَةَ . فَقَالَ ٱلْفَرِّيسِيُّونَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ٱنْظُرُوا . إِنَّكُمْ لَا تَنْفَعُونَ شَيْئاً . هُوَذَا ٱلْعَالَمُ قَدْ ذَهَبَ وَرَاءَهُ

(يوحنا ١٢ : ١٢ – ١٩)

لقد كان عيد الفصح ، وعيد الخمسين ، وعيد المظال ، هى الأعياد الثلاثة الملزمة لكل يهودى . فى عيد الفصح كان اليهود يفدون من كافة بقاع العالم إلى أورشليم .

فمهما بعدت الشقة ، وقلت الإمكانيات ، فقد كان مطمح كل يهودى أن يحج إلى أورشليم ، للمشاركة فى ممارسات الفصح ، ولو مرة واحدة فى العمر .

بل إن اليهودى فى بلد غريب ، حينما يلتقى بأخيه معيداً معه عيد الفصح ، يبادره بالتحية : « هذه السنة هنا ، والسنة القادمة فى أورشليم » . فى مثل تلك الفرصة كانت المدينة المقدسة تكتظ بجموع الوافدين ، القادمين إليها من كل بقاع الأرض .

وعلى حد تقرير «يوسيفوس» ، حسبت الذبائح التى قدمت من الخراف فى العيد فى سنة من السنوات فوصلت إلى ما يزيد على ربع مليون ذبيحة . فاذا حسبنا عشرة من اليهود لكل رأس غنم ، فأننا نصل إلى رقم مذهل يصل إلى ما يزيد على مليونين ونصف مليون من الأنفس ، تكدسوا فى المدينة الصغيرة ، مدينة الملك العظيم فى عيد الفصح . وحتى إن كان هذا التعداد مبالغاً فيه إلى حد ما ، فالحقيقة تبقى ، أن الجموع التى تكدست فى أورشليم استعداداً لممارسات الفصح ، كانت بكثرة لا تصدق .

فى مثل تلك الفرصة فى عيد الفصح ، سرت الأنباء وسط الجموع ، أن يسوع الذى أقام ميت بيت عنيا ، فى طريقه مع تلاميذه إلى مدينة داود . وسارت قرية بيت عنيا تحيط بيسوع ، فى مظاهرة كبرى . وما أن اقتربت من أسوار المدينة الخالدة ، حتى التقت بها مظاهرة أكبر وأعظم ، قادمة من قلب أورشليم .

والتقت المظاهرتان ، في مظاهرة واحدة ، تهتف بزئير الموج الصاخب . أما « يسوع » فقد كان مركزها ، وراكب على جحش ابن أتان . وارتجت المدينة كلها وهي تستقبل رب المجد الوديع استقبال الملوك : أما الكهنة فقد جن جنونهم وتولاهم اليأس . وهم يرون حتى الجموع التي كانت مكدسة في ساحة الهيكل تشترى الذبائح وتنتقيها ، وتستبدل العملة الأممية بشاقل الهيكل ، وتعد العدة للفصح القادم ، حتى تلك الجموع . أصابها ما يشبه مس الجنون . فأسرعت مندفعة من الهيكل ، صاخبة متدافعة كموج البحر ، وهى تتساءل : من هذا ؟ .

هذه حادثة هامة في حياة المخلص ، يجدر بنا أن ندرسها ونفهم ملابساتها . وندرس الجموع التي أحاطت به . . .

١ — فهناك بين الجموع من اتخذ موقف المتفرج ، فها هو إنسان تقول عنه الشائعات إنه أقام ميتاً من بين الأموات . هكذا لابد أن يجتذب مثل هذا الخبر عدداً غفير من الناس لمجرد حب الاستطلاع . كثيراً ما يكون حب الأستطلاع دافعا لكثيرين للالتفاف حول صورة من الصور . وهذه الظاهرة يستغلها أصحاب الإعلان بتسليط الأضواء على هدف من الأهداف . ولكن مثل هذه الظاهرة لاتدوم طويلا . إن الجموع التي التفت حول « يسوع » في تلك الفرصة بدافع الفضول وحب الأستطلاع لاغير ، دون أن تعرفه معرفة الأختبار ، وتتأصل فيه تأصل المحبة ، هي بعينها التي هتفت بعد أسبوع واحد قائلة : « اصلبه أصلبه » .

٢ — وهناك من هتف مرحباً بيسوع كالعظيم المنتصر . هذا هو الجو الذى يسود الصورة والذى تظهره أحداثها . لقد هتفوا أمامه هتافاً ملكياً قائلين : « أوصنا . مبارك الآتى باسم الرب » . . . وأوصنا كلمة عبرية ترجمتها

« خلصنا الآن » . . . إنها هتاف ملكى يرادف فى وقتنا الحاضر ، « عاش الملك» ! أو « حفظ الله الملك » الهتاف الذى يتردد فى الدول التى يسودها النظام الملكى .

أما الكلمات التى حيى بها الشعب «يسوع » ، فهى مقتبسة من المزامير (مزمور ١١٨ : ٢٥ ، ٢٦) . « آه يارب خلص . آه يارب أنقذ . مبارك الآتى باسم الرب . باركناكم من بيت الرب ». أما هذا المزمور فله أكثر من طريقة لاستخدامه ، وهو يرتبط فى أذهان الشعب بأكثر من مناسبة ، فهو آخر مزمور فى مجموعة المزامير التى تعرف باسم « هلل » ، والتى تبدأ من المزمور المئة والثالث عشر ، وتنتهى بهذا المزمور المئة والثامن عشر . . أما كلمة « هلل » فتعنى « سبح الرب » ، فهى مزامير تحفظ غيباً عن ظهر قلب .

وقد كانت هذه المزامير مرتبطة ارتباطاً وثيقاً ، بالممارسات اليهودية فى الهيكل ، فى أكثر من مناسبة من المناسبات الدينية . كانت تتلى فى فرص الشكر والحمد . وكانت جزءاً لايتجزأ من تقاليد عيد الفصح . بل إن هذا المزمور على وجه التحديد ، كان مرتبطاً بمراسم العبادة فى فرصة عيد المظال. وفى عيد المظال كان العابدون يحملون مظلات مصنوعة من سعف النخيل وأعواد الصفصاف والريحان ، تعرف باسم « لولاب » . وكانوا يحضرون بها لزيارة الهيكل كل يوم من أيام العيد . وفى كل يوم من أيام العيد ، كانوا يدورون حول مذبح المحرقات النحاسى الكبير ، مرة فى كل يوم من الأيام الستة الأولى ، حتى إذا جاء اليوم السابع ، داروا حول المذبح سبع دورات .

وفى كل مرة ، كانوا ينشدون آيات من هذا المزمور ، وعلى الأخص الآية التى رددوها عند دخول المسيح الانتصارى لأورشليم . ويقال إن هذا المزمور ، كتب أول ماكتب ، فى أول فرصة عيد مظال ، فى أيام نحميا رسول الجهاد ، حينما أعاد بناء الأسوار المهدمة ، ورمم المدينة الخربة ،

ليتمكن اليهود العائدون من سبي بابل أن يعبدوا الرب . (نحميا ٨ : ١٤ — ١٨) وقد ارتبط هذا المزمور ، بتلك الفرصة العظيمة ، وكان الشعب يعرف ذلك .

بل أكثر من هذا، كان المزمور المئة والثامن عشر هو مزمور الانتصار . فلقد ردده الشعب هاتفين بمناسبة رجوع « سمعان المكابى » ظافراً منتصراً من حربه فى سورية ، بعد أن انتزع عكا من قبضة السوريين ، بعد أن فرضوا سلطانهم عليها قرابة قرن من الزمان . وهكذا لم يكن اعتباطاً ، وبلا دلالات تاريخية مسبقة ، أن يهتف الشعب أمام « يسوع » بكلمات هذا المزمور الانتصارى . فقد كانوا يرون فى « يسوع » المخلص المنقذ ، والمسيح المنتظر . . وليس غريباً بالتالى أن يجن جنون أصحاب العمائم واللحى ، ويضربوا كفاً بكف ، ويقضموا أظافر الغيظ والحقد . لقد أصبح الشعب يضع «يسوع» جنبا إلى جنب مع أبطال الأمة اليهودية . ويرى فيه المنقذ المنتظر — قد يقول ناقد إن وعى الشعب لم يكن قد وصل بعد إلى المعنى الروحى ، والهدف الذى من أجله جاء « يسوع » . لقد فهم رسالته فهما خاطئاً ولكنه على أى حال كان يرى فيه بطلا عظيما .

والمسألة لا تزيد عن فسحة من الوقت ، فيها يضرب بالبوق ، فيهب الشعب ثائراً ، حاملا سيف النصرة على أعدائه ، ساحقاً روما تحت النعال ، رافعاً راية اليهودية على العالم أجمع . لقد اختلط دخول المسيح إلى أورشليم بهتاف الظفر والانتصار . ودوت فى أذنيه كلمات مزمور الأبطال . ولو أن هذا الهتاف قد أثقل نفس يسوع وآلمه ، فلم يفهم الشعب بعد حقيقة رسالته .

استقبال ملكى

(يوحنا ١٢ : ١٢ - ١٩)

٣ - وفى مثل هذا الموقف ، كان من الواضح أنه من المستحيل على يسوع أن يقدم رسالة للشعب ، أو يصحح خطأ وقع فيه أفراده . إن الجمهور الثائر ، لا طاقة له أن يستمع لنصح . إنه كالموج الهادر ، لن يقف فى وجهه شىء .

ولو حاول السيد أن يتكلم ، لما لقى آذانا صاغية ، ولما استطاع أن يرفع صوته ، فيصل إلى كل مسمع فى هذه الجماعة . وهكذا قام «يسوع» بعمل رآه كل إنسان . لقد دخل المدينة على جحش ابن أتان ، ولهذا التصرف دلالتان ..

أما الدلالة الأولى ، فهى أن هذا التصرف كان إتماماً لنبوة قديمة ، نطق بها النبى «زكريا» ، قديماً ، واستشهد بها «يوحنا البشير» ، ولو أن هناك بعض الاختلاف البسيط فى المبنى ، وليس المعنى ، لأن «يوحنا» كان يسجل من الذاكرة : « ابتهجى جداً يا ابنة صهيون . اهتفى يا بنت أورشليم ، هوذا ملكك يأتى إليك وهو عادل ومنصور وديع وراكب على حمار وعلى جحش ابن أتان » (زكريا ٩:٩) . من الواضح جداً أن «يسوع» كان يربط هذا التصرف بتلك النبوة القديمة ، التى وردت عن المسيا بشخصه ، مثبتا للشعب أنه هو المسيا المنتظر .

أما الدلالة الثانية ، فقد كانت ترتبط بعملية ركوب الحيوان الوديع الهادىء ذاتها ، إننا نخطىء فهم مدلول عمل المسيح ، لو نظرنا إلى هذا العمل فى مفهومنا الخاطىء عن الحمار والأتان ، فلقد أسأنا فهم الحمار . إننا نرى فى هذا

الحيوان الهادىء رمز المذلة والمهانة والغباء . لكن هذا المفهوم لم يكن سائداً فى المجتمع اليهودى ، فى زمن المسيح ، وقبل عصر المسيح بأجيال وأجيال . لقد كانت صورة الحمار رمزاً للنبل والجلال — فى سفر القضاة نقرأ عن « عكسة ابنة كالب » أنها فى ليلة زفافها ، كانت تركب على حمار (قضاة ١ : ١٤) . وفى سفر القضاة أيضاً نقرأ عن قاض لإسرائيل يدعى « يائير الجلعادى » — والقاضى كان فى مركز الحاكم ، — هذا القاضى جلس على كرسى القضاء إثنتين وعشرين سنة ، « وكان له ثلاثون ولداً يركبون على ثلاثين جحشاً . ولهم ثلاثون مدينة ... فى أرض جلعاد » (قضاة ١٠ : ٤) .

أما مفيبوشث بن يوناثان بن شاول ، فقد جاء إلى داود راكباً على حماره . وعن « أختوفل » مشير أبشالوم، ورد القول أنه كان يركب على حمار (٢ صموئيل ١٧ : ٢٣) .

لقد كان الملك يركب الجواد حينما يخرج على رأس جيشه للقاء أعدائه ، فإذا أتى إلى مدينة فى سلام، فهو يمتطى حماره ، ولذلك حينما دخل «يسوع» مدينة السلام ، دخلها فى روح السلام راكباً على جحش ابن أتان .

فهو لم يأت فى صورة القائد الفاتح ، ولم يأت فى ثوب القائد المنتقم ، ولكنه أتى إلى مدينة داود كرئيس السلام — فى تلك الفرصة ، لم يدرك أحد المعنى الخالد الذى قصده المسيح . حتى ولا التلاميذ ، الذين كانوا أقرب الكل إلى قلب المخلص ، وفكره . لقد دارت أفكارهم فى دوامة هستيريا الجماهير الصاخبة .

وأخذتهم حماسة الجموع الثائرة،على أساس أحلامهم الوطنية الكاذبة . وهكذا لم يكن فيهم ، نفس الفكر الذى كان فى المسيح يسوع ، ولم تكن لهم نفس رسالته واتجاهه . لقد كان«يسوع» فى واد ، وكانت الجموع ومعهم التلاميذ أيضاً ، فى واد آخر بعيد .

٤ — ولاننسى فى الختام موقف السلطات اليهودية ، لقد أحسوا بعزلتهم وخيبة آمالهم ، . . وفشل جهودهم .

لقد كسب «يسوع » الجولة منهم . ونحن نستمع إلى نغمة اليأس فى قولهم : « العالم كله قدذهب وراءه » . هنا نرى صورة واضحة للأسلوب الذى يتميز به البشير الرابع . فهو يستطيع فى كلمات قلائل ،أن يقدم حقاً عظيما ، بطريقة لايستطيعها سواه . . . بل أن يقدم حقاً ينطق به شفاه الأعداء ، دون دراية ودون قصد . لقد أتى مسيح الله إلى العالم ،حياة للعالم لأجل خلاص البشرية.وهاهم رؤساء الكهنة يؤكدون،أن الهدف قد تحقق ، أو هو فى طريقه إلى التحقيق « فالعالم كله قد ذهب وراءه » .

وفى الفقرة التالية ، سنرى سفارة لليونانيين قادمة ليسوع ،ممثلة للأمم فى تقديمها الأكرام لشخصه العزيز . . هنا يتحدث«يوحنا»عن دائرة اليهود، وفى الفقرة القادمة عن دائرة الأمم — حقاً لقد تحدث رؤساء السلطات اليهودية بالصدق ،حينما قالوا بأن العالم كله قد ذهب وراءه . « والحق ماشهدت به الأعداء » .

ونحن لانستطيع أن نترك التأمل فى هذه الفقرة ، دون أن نلاحظ شيئاً بسيطاً . فلم يحدث فى تاريخ الأمم والممالك ، أن قدم مثل هذا الأكرام لشخص فى مركز«يسوع» وموقفه ، ولم يحدث أن أحداً وقف فى موقفه

وتحدى السلطات الحاكمة نظيره ، ومع ذلك نال كل هذا الإكرام . لقد كان يسوع طريد العدالة اليهودية .. كانت المكافأة مرصودة لمن يرشد عنه ، أو يدل السلطات عليه . إن المكائد تدبر ضده ، والمؤامرات تحاك حوله ، وأعداؤه فى طريقهم لتصفية الحساب العسير معه . ومع ذلك ، لم يحسب حسابا لشيء . لقد كانت الحكمة تقتضى أن يختفى «يسوع» قليلا ، أو أن يجد ملاذاً له بين مواطنيه وأحبائه من أبناء الجليل . لقد كان فى وسعه أن يعود إلى الجليل ، أو يقضي فرصة فى البرية .

فإذا أراد أن يأتى إلى أورشليم ، فقد كان ممكنا أن يأتى متخفيا ، وليس علنا وعلى رؤوس الأشهاد .

لكنه أتى ، مسلطا على نفسه كل الأضواء . لقد كان فى عمله هذا فى قمة الشجاعة والسمو ، والمحبة ، لأنه كان فى عمله هذا ، فاتحاً أحضان محبته للمرة الأخيرة لأبناء شعبه ، وأمته ، معطياً إياهم الفرصة النهائية ليعيدوا التدبر فى طريق عنادهم وتمردهم .

اليونانيون ويسوع

وَكَانَ أُنَاسٌ يُونَانِيُّونَ مِنَ ٱلَّذِينَ صَعِدُوا لِيَسْجُدُوا فِي ٱلْعِيدِ . فَتَقَدَّمَ هٰؤُلَاءِ إِلَى فِيلُبُّسَ ٱلَّذِي مِنْ بَيْتِ صَيْدَا ٱلْجَلِيلِ وسَأَلُوهُ قَائِلِينَ يَاسَيِّدُ نُرِيدُ أَنْ نَرَى يَسُوعَ . فَأَتَى فِيلُبُّسُ وقَالَ لِأَنْدَرَاوُسَ ثُمَّ قَالَ أَنْدَرَاوُسُ وَفِيلُبُّسُ لِيَسُوعَ .

(يوحنا ١٢ : ٢٠-٢٢)

لم يذكر واحد من البشيرين فى البشائر الثلاث الأولى هذه الحادثة ، ومع ذلك نراها تلائم تماماً منطق البشارة الرابعة ، وهدفها . لقد كانت الغاية الأساسية من البشارة الرابعة، تقديم المسيح لليونانيين ، تقديم المسيح لهم ، بصورة يدركونها ويصلون إلى معناها . ولذلك كان من الطبيعى فى بشارة لها مثل هذا الهدف ، أن تخصص لهذه القصة مكاناً .

وليس من الغريب أن يكون هناك يونانيون فى فرصة الفصح ، حتى ولو لم يكونوا من اليهود الدخلاء . لقد كان الشعب اليونانى يحب الهجرة ، والمغامرة . وكانت له الرغبة فى أن يكتشف كل جديد ، ويعرف كل تعليم جديد .

يقول أحد القدامى : « إنكم أيها الأثينيون لاتهدأون فى أماكنكم ، ولاتدعون الآخرين ينعمون بالهدوء » .

ويقول آخر : « إنكم أيها الإغريق كالأطفال ، صغار على الدوام فى أرواحكم». وقبل عصر المسيح بما يزيد على خمسمائة عام،قام «هيرودوت» المؤرخ اليونانى برحلته الشهيرة ، فى العالم الكائن حينذاك،ليكتشف كل شيء . وهناك فى أقصى جنوب وادى النيل ، يقوم تمثال مصرى قديم نقش أحد الرحالة الأغريق اسمه على قاعدته ، كما يفعل كثيرون لمجرد الذكرى . لقد كان اليونانيون يجوبون البحار للتجارة ، وتوزيع بضائعهم، ولكنهم كانوا يهاجرون إلى أكثر من بلد بعيد ، لمجرد حب الهجرة لاغير . لذلك ، لاغرابة أن نجد يونانيين فى فرصة عيد الفصح فى أورشليم .

على أنه كان هناك دافع آخر غير التجارة ، والهجرة ، يدفع اليونانى لركوب الأخطار ، والهجرة للأمصار . .

فقد كان فى طبعه البحث عن الحقيقة . ولم يكن من الغريب،أن نجد اليونانى ينتقل من مدرسة فى الفلسفة إلى مدرسة أخرى . ويتتلمذ على يدى هذا المفكر ، ثم يهجره إلى مفكر آخر ليعتنق أفكاره،ويؤمن بآرائه. ويدين بالطاعة لذلك الرعيل من الآلهة ، ثم سرعان ما يهجرهم إلى آلهة أخرى . لقد كان البحث عن الحق والحقيقة،طبيعة ثانية فى كل يونانى .

ترى كيف وصل أولئك اليونانيون إلى معرفة «يسوع» ؟ وكيف وصلت أخبار «يسوع» إليهم ؟ . يتقدم « ج . ه برنار » بحل من المفيد إثباته . فى الأسبوع الأخير من خدمته على الأرض ، قام «يسوع» بتطهير الهيكل . وطرد الصيارفة وباعة الحمام من ساحته . أما أولئك الباعة . والتجار ، فقد كان مكانهم فى ساحة الأمم ، وهو أول رواق من أروقة الهيكل،

وما كان مسموحاً لأى منهم، بأن يتخطى هذا الرواق وإلا عرض نفسه للموت . لذلك فمن المحتمل جداً أن أولئك اليونانيين كانوا فى رواق الأمم ، وشاهدوا بأعينهم حادثة تطهير الهيكل ، فأرادوا أن يعرفوا أكثر عن ذلك الشاب ، الذى استطاع أن يتحدى الكهنة فى عقر دارهم ، ومهما يكن من أمر ، فهذه واحدة من اللحظات العظيمة ، الملهمة فى حياة المسيح ، التى تشع أمامنا بنور باهر . ففيها نرى أول خطوة لأشراق نور الأنجيل على الأمم ... وأتى اليونانيون إلى «فيلبس» أولا ، ولماذا فيلبس ؟ لاأحد يستطيع أن يحدد بالذات لماذا اتجهوا إلى ذلك التلميذ .

ولكن ربما يكون أن إسم فيلبس كان يونانياً . وهكذا ظنوا أن إنساناً يحمل اسما يونانياً، يكون أكثر تعاطفاً معهم ، ومع أفكارهم . ولكن «فيلبس» كان فى حيرة .. ماذا يفعل . وهكذا استعان بزميله «اندراوس» . فأتيا بجماعة اليونانيين إلى « يسوع » .

أما « اندراوس » فقد اكتشف على الأقل شيئاً جديداً فى معلمه — أن يسوع لا يعتريه الضيق من إنسان يبحث عنه . وأنه لن يخيب رجاء سائل يسأله ، ولن يغلق الباب فى وجه من يقصده . لقد عرف أن باب «يسوع » على الدوام هو الباب المفتوح .

وَأَمَّا يَسُوعُ فَأَجَابَهُمَا قَائِلاً قَدْ أَتَتِ ٱلسَّاعَةُ لِيَتَمَجَّدَ ٱبْنُ ٱلإِنْسَانِ . ٱلْحَقَّ ٱلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ إِنْ لَمْ تَقَعْ حَبَّةُ ٱلْحِنْطَةِ فِي ٱلْأَرْضِ وَتَمُتْ فَهِيَ تَبْقَى وَحْدَهَا . وَلٰكِنْ إِنْ مَاتَتْ تَأْتِي بِثَمَرٍ كَثِيرٍ . مَنْ يُحِبُّ نَفْسَهُ يُهْلِكُهَا وَمَنْ يُبْغِضُ نَفْسَهُ فِي هٰذَا ٱلْعَالَمِ يَحْفَظُهَا إِلَى حَيٰوةٍ أَبَدِيَّةٍ . إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَخْدِمُنِي فَلْيَتْبَعْنِي .وَحَيْثُ أَكُونُ أَنَا هُنَاكَ أَيْضاً يَكُونُ خَادِمِي . وَإِنْ كَانَ أَحَدٌ يَخْدِمُنِي يُكْرِمُهُ ٱلْآبُ .

(يوحنا ١٢ : ٢٣-٢٦)

ولا توجد فى العهد الجديد فقرة صدمت سامعيها لأول مرة ، قدر ما صدمت هذه الفقرة أسماع اليونانيين وأفكارهم . إنها تبدأ بتقرير حقيقة، تبدو فى ظاهرها عادية منطقية . . يتوقعها كل إنسان . ثم تختم بتصريحات أبعد من أن يتوقعها أى إنسان .

قد أتت الساعة ليتمجد ابن الانسان ... هكذا بدأ «يسوع» حديثه . وما هو مفهوم هذا التمجيد لدى «يسوع» ؟ لقد كانت الأمور تزداد تأزماً

بالنسبة له . الغيوم تتجمع فى الأفق ، لكن مفهوم هذه الأزمة عنديسوع ، كان يختلف عن مفهومها عند الآخرين .

وحينما نسمعه يتحدث عن ابن الإنسان، ينبغى أن نضع فى فكرنا أيضاً. أنه كان له مفهومه الخاص ،الذى يختلف عن مفهومه عندالهيودفى ذلك الحين ولكى نفهم معنى ابن الإنسان عند اليهود،لنرجع إلى سفر نبوات دانيال (٧ : ١٣ ، ١٤) . فى هذه الفقرة ، أخفقت الترجمة الإنكليزية المعتمدة فى الوصول إلى المعنى ، فنقلت الكلمة «شبه ابن الانسان» . ولكن الترجمة الصحيحة ، توافق ترجمة فانديك العربية التى بين أيدينا : «كنت أرى فى رؤى الليل وإذا مع سحب السماء مثل ابن إنسان أتى وجاء إلى القديم الأيام فقربوه قدامه . فأعطى سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة . سلطانه سلطان أبدى مالن يزول . وملكوته مالاينقرض» وهناك خلاف كبير بين ابن الإنسان ، وشبه ابن إنسان .

ولو أردنا أن نعرف الفارق ، لنتأمل الصورة كلها — فى نبوات دانيال (٧ : ١ — ٨) يصف كاتب السفر فى رؤياه،الممالك الوحشيةالتى سادت على العالم القديم : الأشوريين ، والبابليين ، ومملكة مادى ، وفارس .

ولقد كانت هذه الممالك من الوحشية،حتى أنه ينطبق على كل واحدة منها ، صور الوحوش التى ترمز إليها .

الأسد بأجنحة نسر ، والدب وفى فمه الثلاثة ضلوع ، والنمر بأجنحته الأربعة ، ورؤوسه الأربعة . ثم الحيوان الرابع الرهيب ، بأسنانه التى من حديد ، وقرونه العشرة . هذه الممالك ،رمز القوة والبطش والجبروت ،

ولكن ، ستأتى على العالم مملكة جديدة ممثلة فى شبه ابن إنسان ، ليس فى صورة الوحوش الكاسرة ، بل فى شبه الإنسان ، وفى روح الإنسانية الصادقة إن الرؤيا التى رآها النبى ، تشير إلى أن عهد الوحشية والبطش الدموى ، واستغلال الشعوب ، وامتصاص دمائها ، هو فى طريقه إلى الزوال ، وأن عهداً جديداً مباركاً ، سيشرق على الإنسانية جمعاء .

وهذا كان حلم اليهود . لقد كانوا يحلمون بعصر ذهبى سعيد ، تحلو فيه الحياة بالنسبة لهم فيجلس كل واحد تحت كرمته وتحت زيتونته ، وما من مضايق .

ولكن كيف يمكن أن يحدث هذا ، وهم نفر قليل ، لاحول له ولاقوة ؟ تقول رؤيا « دانيال » إن ذلك العصر السعيد ، لن يأتى على الأرض بقوة البشر ، ودهائهم ، بل سيأتى بتدخل إلهى من السماء . سوف يرسل الله مسيحه إلى العالم ، ليحقق ذلك الحلم المجيد . وما أنسب أن يلقب ذلك المسيح .. ذلك الرسول من السماء ، بلقب ابن الإنسان ؟ وهكذا تحول الرمز إلى شخص وتركزت الرؤيا فى إنسان . وأصبح لقب ابن الإنسان ، يطلق على رسول الله أو مسيح الله ، الذى سيرسله إله السماء إلى العالم ، ليحقق ذلك الحلم ..

وإننا لنجد تأكيداً لهذه الحقيقة ، وتكراراً للقب ابن الإنسان ، إبان السبى ، وفى وقت الأزمات التى كانت تحيط بالأمة ، فى فترة مابين العهدين ، وهى فترة تقرب من خمسمائة عام ، تميزت بهزات عنيفة ، وصمتت فيها السماء عن التحدث بلسان الأنبياء ، نرى مجموعة من الكتابات غير القانونية ، (الأبوكريفا) ، تظهر فى تلك الفترة . فى أحد هذه الأسفار ويدعى سفر أخنوخ ، نرى الكاتب يتحدث أكثر مايتحدث عن ابن الإنسان ، فيصوره فى صورة شخصية قوية يحتجزها الله لساعة معينة ثابتة . ومتى دقت تلك

الساعة، سيطلق الله ابن الإنسان، فيأتى إلى العالم بقوة غير عادية، وسلطان معجزى، ولا تستطيع قوة بشرية أن تقف فى وجهه، فيرعى الأمم بقضيب من حديد، ويكسرهم كما يكسر إناء من خزف ، ويثبت أركان ملك إسرائيل من أقصى الأرض إلى أقصاها .

وعلى ذلك ، فقد كانت صورة ابن الإنسان فى الفكر اليهودى ، هى صورة الفاتح العظيم المنتصر المرسل من الله . وهكذا قال «يسوع» لدهشة سامعيه « قد أتت الساعة ليتمجد ابن الإنسان » متخذاً ذلك اللقب لنفسه .

وحينما نطق بهذا القول ، نكاد نقول إن الذين حوله ، قد أمسكوا أنفاسهم دهشة وتعجباً ، وتوقعاً لأحداث خطيرة. فليس بعسير على ذلك النبى الجليلى المعجزى، الذى ينادى فيخرج الميت من قبره — ليس بعسير على ذلك النبى أن يدعو جحافل السماء وجيوشها لنصرة شعبه . بل من يدرى ؟ لعل صوت البوق سيدوى الآن ، ولعل العلامات المنتظرة ستفاجئ الحاضرين . ولعل رايات الانتصار ترفرف حولهم وهم لا يدرون . ولكنهم ما كانوا يدرون أن تمجيد ابن الإنسان فى فكر «يسوع» ، كان يختلف كل الاختلاف عن تمجيده فى تصورهم هم . لقد كان تمجيد ابن الإنسان فى فكرهم ، هو إخضاع كل الأمم له ، وسجودهم عند قدميه . وكان تمجيد ابن الإنسان فى نظر يسوع ، هو خضوعه لأقسى أنواع الموت ، موت العار والصليب .

حينما ذكر ابن الإنسان، تصورت الجموع كتائب الملائكة فى مركباتها النارية ، وحينما ذكر «يسوع» ابن الإنسان كانت فى مخيلته صورة ثيران باشان وهى تهجم عليه ، وتثقب يديه وقدميه .

وهكذا أثارت أول جملة نطق بها يسوع ، قلوب سامعيه . ثم تبعتها جمل أخرى، جعلت السامعين يترنحون فى دهشتهم. فقد نقضت كل قصور

أحلامهم ، وزعزعت بنيان رجائهم الأرضى . ولقد أعلن «يسوع» فى هذه الأقوال بنود انتصاره ، ولكن على أساس تضحيته وموته وعاره . ونحن لن ندرك موقف «يسوع» ، ولن ندرك موقف اليهود منه ، حتى نفهم كيف حول أمام أعينهم حلم الإنتصار ، إلى رؤيا الصليب . ولا عجب أن نراهم لايفهمون . إن مأساتهم تكمن فى أنهم رفضوا أن يفهموه .

اللغز المذهل

(يوحنا ١٢ : ٣٢ - ٢٦)

وماذا كان يقصد «يسوع» ، بالكلمات التى نادى بها أمام اليونانيين ما هو هذا اللغز المذهل الذى نطق به ؟ وما هى التعاليم التى ينطوى عليها هذا اللغز ؟

أعتقد أن هناك ثلاثة أمور رئيسية ، تدور حول حق واحد جوهرى وتتغلغل إلى أعماق الإيمان المسيحى ، والحياة المسيحية . . وكلها نجدها فى ثنايا هذه الفقرة . .

١ — **لقد كان « يسوع » يؤكد فى أقواله أنه لاحياة بغير موت ، وأن الموت** هو طريق الحياة . فحبة الحنطة لاتأثير لها ، ولا ثمر ، ولا ازدهار ، طالما ظلت محتفظة بكيانها وذاتيتها . ولكن حينما تلقى فى التربة ، وتدوسها الأقدام ، وتدفن فى الطين ، وتتحلل ، تخرج إلى عالم النمو والأزدهار . . بالموت تولد الحياة . . بموت الشهداء تتوالد الكنيسة وتزدهر ، كما ورد فى القول المأثور : «دم الشهداء بذار الكنيسة ، فلولا دماؤهم التى رووا بها نبتة الكنيسة الطفلة ، ما ازدهرت تلك النبتة وعلا ساقها ، وامتدت أغصانها ، ولن نتوقع أموراً عظيمة إلا عن طريق التضحية والبذل ، وسفك الدم ، والموت» .

بل إن هذا الحق ينطبق أيضاً على حياة الأشخاص . فمالم يصلب الإنسان ذاته ، ويموت عن رغائبه ، فإنه لن يصبح ذا نفع فى ملكوت السموات .

هناك قصة تروى ،عن أحد رؤساء أساقفة كانتربرى ،ويدعى «كوزمو لانج» ، أنه كانت له مطامعه العالمية العظيمة . ولكن صديقاً أثيراً لديه اشار عليه بدخول كنيسة إنكلترا ، ونبذ أحلامه الدنيوية .

وبينما كان يصلى فى الكنيسة ، وكان وقتها طالبا يدرس اللاهوت ، إذا به يسمع نداء لا تخطئه أذن إنسان « أنت هو الشخص المطلوب » . ولو كان قد تمسك بمطامعه الأرضية ، لما استطاع أن يصل إلى مركزه الكنسى ، وخدمته المباركة . لكنه حينما عرف كيف يدفن أحلامه ، أصبح له مكانه فى مجال خدمة الله — بالموت نصل إلى الحياة . . . . بالإخلاص للمبدأ الذى نعتنقه حتى الموت ، تولد الإنجازات العظيمة التى تفخر بها البشرية . . . بموت الرغائب الذاتية والمطامع الشخصية ، يصبح الإنسان أداة نافعة وإناء مكرساً لخدمة الله .

٢ — أيضاً أننا **بانفاق الحياة ، نحتفظ بالحياة** . وكلنا نحب الحياة ، ونود الحفاظ عليها . وهناك دافعان يستتران وراء حب الحياة . الدافع الأول هو **الأنانية** ، والثانى **هوالرغبة فى الأمان** . إنالمصلحة الشخصية ، والأمان ، هما الدافعان لحب الحياة ، وهما القوتانالعاملتان لاستمرار الحياة . وكم من مرة أعاد المسيح تأكيد الحق الذىنادى به ، إن الذى يختزن حياته ، ويجتهد فى الحفاظ عليها ، ويحيطها بأسوار منيعة ، هو الذى يخسر فى نهاية المطاف ، ولكن الذى ينفق حياته ، هو الذى يكسبها فى النهاية .

فى تاريخ العمل التبشيرى ، ظهر مبشر إنجيلى شهير يدعى « كرسماس إيفانز » ، وعلى الدوام لم يكن هذا المبشر يألو جهدا ، فى القيام بواجبه فى

خدمة المسيح ، وتقديم بشارة الحياة للنفوس الهالكة . وكثيرا ما نصحه أصدقاؤه بأن يخفف قليلا من الجهد الذى يبذله .

فكان جوابه « من الأفضل للحديد أن يلتهب بالنار ويتوهج ، من أن يترك ليأكله الصدأ » . وهذا مبدأ عظيم — من أراد أن يكسب حياته فلينفقها . . .

وعندما تأزمت الأمور بالنسبة للشهيدة ، البطلة الفرنسية « جان دارك » وعرفت أن أعداءها يزدادون قوة ونفوذا ، وأن الحبائل الماكرة تضيق حولها ، كانت صلاتها على الدوام : « لم يتبق لى فى هذه الحياة إلا عام أو بعض عام ، استخدمنى يارب كما تشاء » . وإننا لنجد يسوع يؤكد هذا الحق ويكرره مرة تلو الأخرى (مرقص ٨ : ٣٥ ، متى ١٦ : ٢٥ ، لوقا ٩ : ٢٤ ، متى ١٠ : ٣٩ ، لوقا ١٧ : ٣٣) .

وكم كان العالم يكون أكثر فاقة ، وأقل انتفاعا وتقدما ، وكم كانت الإنسانية تخسر الكثير ، لو لم يكن هناك أشخاص ، على استعداد أن ينسوا مصالحهم ، وأمانيهم الشخصى ، ومنفعتهم ، فى سبيل خدمة الآخرين . وكم العالم مدين بالكثير ، لأولئك الذين أنفقوا قوتهم ، وحياتهم ، فى غير تحفظ ، وما حسبوا حساباً لشىء ، فى ميدان خدمة الله ، وخدمة إخوتهم .

صحيح إن الحياة الهادئة الخالية من الهزات العنيفة ، والتوتر ، والقلق ، قد تضمن لنا ، بحسب النظرة الجسدية ، عمراً أطول ، أو إن لم يكن الأمر كذلك ، حياة أكثر نعومة ، وهدوءاً . إن الزوج الجالس على الدوام بجوار المدفأة ، وإلى جانبه زوجة وفية تهيئ له كل وسائل الراحة والسعادة ، أو الرجل الذى لاهم له ، إلا الحفاظ على صحته بكل السبل ،

قد يضمن لنفسه عمراً أطول ، لكنه لن يحيا على الإطلاق . . . لن يعرف معنى الحياة الحقة . .

٣ – ويؤكد «يسوع» أيضاً ، أن الخدمة هي طريق العظمة الحقيقية . إن أولئك الذين يذكرهم العالم بكل إجلال وإكبار ، هم الذين خدموا الإنسانية أكثر من سواهم .

من جدول أعمال جيش الخلاص فى مدينة ليفربول ، نعرف أنه كانت هناك سيدة تعرف باسم « مسز برويك » ، أدت خدمات جليلة هناك . وأخيرا تقدمت بها السن ، فى الوقت الذى نشبت فيه الحرب العالمية ، وكانت آنذاك فى مدينة لندن ، والغارات الجوية على أشدها . وكان أهل بلدتها يتساءلون ماذا عساها فاعلة ، وقد قل جهدها ، وتضاءلت امكانياتها . .

ولكنها أرادت أن تقوم بخدمة ما ، وهكذا اشترت صندوقا للاسعافات الأولية ، ووضعت لافتة على باب بيتها : « إن كنت فى حاجة للإسعاف إطرق الباب » . هذا هو موقف المسيحى من إخوته . صحيح انه من العسير علينا أن نتعلم درس الخدمة الإيثارية المضحية بالنفس والنفيس ، فى مجتمع أنانى إقتنائى . وكثيرون يدورون فى عجلة الخدمة العامة ، بدافع الوظيفة لا غير ، ويشتاقون إلى اليوم الذى فيه يستعفون من خدماتهم ، لينعموا بسنوات الهدوء والراحة . وغيرهم لا هم لهم إلا تكديس المال ، والأثراء السريع وجمع المقتنيات ، وقد يصل أولئك وهؤلاء إلى مبتغاهم . ولكنهم سيكتشفون على الأقل أمراً واحدا جوهريا ، أنه لا توجد قلوب كثيرة تخفق بالحب لهم . والحب هو اللؤلؤة الغالية الكثيرة الثمن ، التى إذا فقدها الإنسان يكون قد فقد كل شىء . .

لقد جاء يسوع إلى اليهود ، الذين كانوا ينظرون إلى الحياة فى كافة صورها ، وشتى مجالاتها ، بمنظار السيطرة والنفعية ، والأنانية ، والعنصرية ، جاءهم بنظرة جديدة للحياة . لقد كانوا يقيمون عناصر المجد على الانتصار الزمنى ، والوصول إلى التملك والسيطرة على الآخرين. فجاء يسوع ليعلم الناس ، أنه لا طريق إلى الحياة . . الحياة الزاخرة الفياضة . . الحياة التى تستحق أن نحياها ، إلا الموت ، واننا حينما ننفق حياتنا ندخرها ؛ وأن الخدمة هى طريق العظمة الحقيقية ، ومن العجب العجاب ، أن ذلك اللغز المذهل الذى نادى به «يسوع» منذ ألفى عام ، والذى بدا فى ذلك الوقت عسيراً على سامعيه ، ليس أكثر من الحق المنطقى المعقول .

من الاضطراب إلى اليقين

ٱلْآنَ نَفْسِي قَدِ ٱضْطَرَبَتْ. وَمَاذَا أَقُولُ. أَيُّهَا ٱلْآبُ نَجِّنِي مِنْ هٰذِهِ ٱلسَّاعَةِ. وَلٰكِنْ لِأَجْلِ هٰذَا أَتَيْتُ إِلَى هٰذِهِ ٱلسَّاعَةِ. أَيُّهَا ٱلْآبُ مَجِّدِ ٱسْمَكَ. فَجَاءَ صَوْتٌ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَجَّدْتُ وَأُمَجِّدُ أَيْضاً. فَٱلْجَمْعُ ٱلَّذِي كَانَ وَاقِفاً وَسَمِعَ قَالَ قَدْ حَدَثَ رَعْدٌ. وَآخَرُونَ قَالُوا قَدْ كَلَّمَهُ مَلَاكٌ. أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَيْسَ مِنْ أَجْلِي صَارَ هٰذَا ٱلصَّوْتُ بَلْ مِنْ أَجْلِكُمْ. ٱلْآنَ دَيْنُونَةُ هٰذَا ٱلْعَالَمِ. ٱلْآنَ يُطْرَحُ رَئِيسُ هٰذَا ٱلْعَالَمِ خَارِجاً. وَأَنَا إِنِ ٱرْتَفَعْتُ عَنِ ٱلْأَرْضِ أَجْذِبُ إِلَيَّ ٱلْجَمِيعَ. قَالَ هٰذَا مُشِيراً إِلَى أَيَّةِ مِيتَةٍ كَانَ مُزْمِعاً أَنْ يَمُوتَ. فَأَجَابَهُ ٱلْجَمْعُ نَحْنُ سَمِعْنَا مِنَ ٱلنَّامُوسِ أَنَّ ٱلْمَسِيحَ يَبْقَى إِلَى ٱلْأَبَدِ. فَكَيْفَ تَقُولُ أَنْتَ إِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَرْتَفِعَ ٱبْنُ ٱلْإِنْسَانِ. مَنْ هُوَ هٰذَا ٱبْنُ ٱلْإِنْسَانِ.

(يوحنا ١٢ : ٢٧ - ٣٤)

فى هذه الفقرة، يصور لنا البشير حيرة «يسوع» وألمه واضطرابه، ثم يقينه وانتصاره. وهو يظهر لنا أيضاً الأسباب التى حولت الاضطراب إلى يقين.

١ — فنحن لا نجد «يوحنا» يعرض لصراع المسيح فى جثسيمانى. ولكنه يظهر لنا «يسوع» وهو يخوض معركة الألم أمام شبح الصليب الرهيب. هنا فى هذه الفرصة. أن يلتقى الإنسان بالموت، أمر ليس مقبولا على الإطلاق وأن يموت فى عنفوان شبابه أمر بغيض، وأن يموت على الصليب أمر قاس. لكن يسوع لم يكن أقل شجاعة من واحد من الشهداء الذين واجهوا الموت وعلى شفاههم ابتسامة الظفر. لقد كان الصليب يعنى شيئاً آخر: أحمال البشرية، وذنوبها وعارها، منذ بدء الخليقة وإلى نهاية الأجيال. وكما قال المرنم عنه بروح النبوة «العار كسر قلبى فمرضت». لقد كان الصليب أكثر من مجرد ميتة قاسية مرة. لقد كان يعنى العار، والخزى، واحتجاب وجه الله الآب، وحسبانه عار كل الشعوب ومحتقر كل الأمم.

وهناك رأى نادى به اللاهوتى الاسكتلندى «جورج ماثيسون»، إن خوف يسوع أمام ميتة الصليب، كان نابعاً من خشيته أن يصبح الصليب، وهو قمة جريمة البشرية فى حق ابن الله، حاجزاً وحجاباً يحجب وجه الله عن الإنسان، ويوقع الإنسان للأبد فى دائرة غضب الله، والبعد عنه. وسواء كان هذا الأمر أو ذاك فكما يقول المؤلف: لو كان طريق الموت سهلا عادياً عند يسوع، بلا مشقة ولا اضطراب، لما كانت هناك فضيلة فى موته، ولا كفارة فى ذبيحته: إن الشجاعة الحقيقية، لا تستلزم عدم الخوف، بل تقتضى أن تسير فى طريق التضحية والموت حتى النهاية حتى ولو ساورنا الألم والخوف. وهنا تكمن شجاعة «يسوع». كما يقول أحدهم «هنا تنتصر

غيرة الطاعة للآب ، على خوف الموت ، وأهوال الهاوية . هنا نرى المعركة الرهيبة التى خاضها رب المجد ، فى سبيل الطاعة الكاملة للآب ، لقد كان الصليب هو طريق الآب ، وكان على الإبن الحبيب أن يحارب معركته حتى النهاية ، فى طريق إتمام إرادة الآب .

٢ – ولكن القصة لا تنتهى بالإضطراب ، بل بالظفر واليقين . لقد امتلأ يسوع يقيناً أنه لو سار فى طريقه ، فلابد وأن ينتهى الأمر بهزيمة الشيطان وزوال سلطانه ، وخرابه الأبدى ، فإذا أطاع الآب ، وأطاع حتى الموت .. وسار إلى الصليب بخطوات ثابتة ، فإن السيف الذى استيقظ على راعى الرعية ، لابد أن يسدد ضربة قاصمة للأسد الزائر الذى يبغى فريسته .. الشيطان عدو كل خير . لقد وثق بأن الصليب هو الصراع الأخير .. هو المعركة الأخيرة مع الشيطان . وأنه حينما يرتفع عن الأرض ، فاتحا ذراعى المحبة على خشبة العار ، لجميع البشر ، فإنه سيجتذب بمحبته وموته قلوب الجميع ، لقد كانت رغبة يسوع الأولى ، أن ينتصر على عدو الخير ، ويفسد مخططه فى الوجود .. لقد كانت رغبته الأولى أن يلتف حوله الناس . وكان الطريق الأوحد لغلبة الشيطان ، أو السيطرة على قلوب البشر ، أن يرتفع على الصليب . وهكذا بدأ طريقه برهبة المعركة ، وانتهى بالانتصار ...

٣ – وما الذى حدث حتى تحولت الرهبة والاضطراب إلى انتصار ؟ تقول الفقرة التى أمامنا ، إن صوتاً من السماء توسط بين الاثنين .. لقد تحدث الآب إليه . وليس هذا بغريب . فكم من مرة فى التاريخ المقدس ، فى لحظاته الحاسمة ، تحدثت السماء بصوت مسموع . فالله جل جلاله يتحدث إلى الصبى صموئيل (صموئيل الأول ٣ : ١ – ١٤) . والله يعترض طريق «إيليا» أثناء هروبه من وجه «إيزابل» ، ويحادثه حديث الصديق المحب (ملوك الأول ١٩ : ١ – ١٨) . وفى مأساة «أيوب» نستمع إلى واحد من أصدقائه

الثلاثة – «أليفاز التيماني» –يؤكد أنه يصغى إلى صوت الله (أيوب ٤ : ١٦) .
ولكن فى عصر المسيح ، وقبله بعدة قرون ، فى الفترة التى يلقبها اللاهوتيون بفترة مابين العهدين ، نرى السماء تصمت عن الحديث إلى البشر ، ونرى اليهود يقنعون بأن تتحدث السماء إليهم فى وسيط أو معلم ، أو بطل يظهر فى التاريخ . لقد مضت الأيام العظيمة القديمة ، وتباعد الله عن البشر. والصوت الذى تحدث يوماً إلى الأنبياء فى كلمات واضحة مسموعة ، قد صمت عن الحديث . وهكذا فى عصر المسيح قنع اليهود من صوت الله ، بما أسموه « الباث قول » وهى كلمة عبرية معناها بنت القول ، أو ابنة القول الإلهى – قبيل خراب أورشليم إبان حصارها عام ٧٠ ب.م. حدث للهيكل حادث فريد .. فقد انفتحت على حين غرة البوابة الكورنثية التى كانت تحتاج إلى أكثر من عشرين شخصاً ، لكى تدور على أعقابها وسمع من داخل الهيكل زئير كزئير العاصفة ، يتلوه صوت وقع أقدام يبدو وكأنها لجمهور عظيم ، ينزل درج الهيكل ، ومن داخل قدس الأقداس ، سمع صوت جليل يهتف بوضوح باللغة العبرية « فلنغادر هذا المكان ! »[1] . أما الكهنة فقد اتكفأوا على وجوههم وهم يهتفون فى رعب « الباث قول .. الباث قول.. » . وبين الحضور ، كان الوحيد الذى استطاع أن ينطق بكلمة هو الجد « يوحنا بن زكا » ، فاشار إلى البوابة المفتوحة وهتف فى تأثر : « لقد دنت نهاية الهيكل . فهذا ما قيل بالنبى القائل « افتح أبوابك يالبنان ، لتلتهم النيران أرزك » .

هذه صورة تقرب فكر اليهود فى عصر المسيح ، عن طريقة حديث الله إليهم ، ولقد كانوا يعتقدون أن « الباث قول » غالباً ما كانت تقتبس من كلمات الكتاب . فهى ليست صوت الله المباشر للبشر ، ولكن إن جاز

(١) راجع قصة « سقوط أورشليم » المعرب .

التعبير ، هى صدى صوت الله البعيد ، .. صوت من البعد السحيق ، يأتى كالهمس العميق بديلا عن الحديث المباشر ، ولكن السماء ماكانت تتعامل هكذا مع «يسوع ». فلم يكن يستمع إلى حديث الله فى أعماقه ، ولم يكن يستمع إلى صدى صوت الله البعيد ، أو « الباث قول » ، بل كان الله يتحدث إليه بصوت واضح مسموع ، حديث الند للند .

نلاحظ أيضاً أن صوت الله كان يأتى ليسوع فى الساعات العظيمة الفاصلة فى حياته . فقد جاءه الصوت عند صعوده من مياه الأردن ، فى فرصة عماده ، فى مستهل إرساليته للعالم (مرقس ١ : ١١) . وجاء الصوت إليه على جبل التجلى ، حينما ثبت وجهه للصعود إلى أورشليم .. للصعود إلى جبل الجلجثة والموت (مرقس ٩ : ٧) . وهاهو الصوت يهتف له من الأعالى من عند الآب ... من الأجواء العليا السرمدية ، ليقدم له جرعة من الثبات أمام صليب العار والموت .

ومايقدمه الآب السماوى للإبن الحبيب ، على استعداد أن يقدمه لكل من يؤمن به ، ويحمل على كتفه نير الخدمة .

فالله لا يرسلنا للعمل فى كرمه على انفراد . دون أن يؤيدنا بقوته ومعونته . إنه حينما يكل إلينا مهمة خاصة ، ويوفدنا للقيام بها ، فإنه لايتركنا نقوم بهذه المهمة بأيد مرتخية فى قوانا الواهية ، إنه يؤيدنا بصوت من السماء إن لم يكن بصورة مسموعة ، فهو يهمس لقلوبنا بهمسات العون ، والتشجيع والتأييد . إن إلهنا لا يصمت صمت عدم المبالاة . وفوق ضوضاء العالم ، وزئير الشيطان ، وضجيج أعداء الحق ، وهمهمة أمواج المتاعب . يعلو صوت الرب واضحاً جلياً مشجعاً ، فنمضى فى طريق الواجب وصوته يرن فى اذاننا وقوته تملؤنا . إن مشكلتنا الحقيقية ليس لأن الله لايتكلم إلينا ، بل لأننا لانستمع إلى صوته بما فيه الكفاية .

من الاضطراب إلى اليقين

(يوحنا ١٢ : ٢٧ - ٣٤)

وهكذا نادى «يسوع» بهذا الحق : إنه حينما يرتفع عن الأرض يجذب إليه الجميع . البعض فهم هذا القول على أنه يشير إلى صعوده بمعنى أنه حينما يتمجد «يسوع» فى قوة قيامته ، وصعوده ، فانه يجتذب إليه الجميع . ولكن هذا أبعد مايكون عن الحقيقة . لقد كان « يسوع » يشير إلى صليبه . وواضح أن الذين حوله عرفوا ذلك ، وأنهم استمعوا إليه غير مصدقين . فما الذى يربط ابن الإنسان بصورته الممجدة بصليب العار ؟ أليس ابن الإنسان رسول الله المرسل إلى البشرية على رأس قوات الجند السماوى ؟ أى اتفاق لصليب العار مع أمجاد ابن الإنسان فى ملء قوته ؟ أليس ملكوته مالا يزول ، وسلطانه مالاينقطع ؟ «سلطانه سلطان أبدى مالن يزول ، وملكوته مالا ينقرض » (دانيال ٧ : ١٤) ، أما ورد القول عن رئيس العصر الذهبى « وعبدى داود رئيس عليهم إلى الأبد » (حزقيال ٣ : ٢٥) أما قال « إشعياء » عن ملك العهد الجديد « لنمو رياسته وللسلام لانهاية » (إشعياء ٩ : ٧) ألم يترنم المرنم فى مزموره بأمجاد ذلك الملكوت الأبدى قائلا بلسان القدير ..

« إلى الدهر اثبت نسلك وابنى إلى دور فدور مملكتك »(مزمور٨٩ : ٤)

لقد كان اليهود يربطون مابين ابن الإنسان ، وبين أمجاد الملكوت الأبدى والعصر السعيد القادم . وهاهو «يسوع» يربط ابن الإنسان بخزى الصليب ، وعاره ، وقسوته . فأى صنف يكون ابن الإنسان هذا ؟ وأى ملكوت يكون هذا الذى ما إن يبدأ بدايته ، حتى ينتهى ؟

ولكن منطق التاريخ والاجتماع ينادى بأن «يسوع» كان على حق. لقد علق «يسوع» كل آماله، ورجائه، على جاذبية صليبه. ولقد ثبت بالفعل أن صليب المحبة والفداء، كان وما يزال، وسيظل للأبد قوة جبارة جاذبة تجذب الشعوب، والممالك، والأفراد إلى مسيح الجلجثة، ويبقى خالداً رفيعاً مجيداً، حتى بعد زوال قوة العالم، وبطشه، وسلطانه.

إن الحقيقة تبقى أن الإمبراطوريات التى قامت على السيف والنار، تتوارى الواحدة بعد الأخرى. وأن الجبابرة الذين دوخوا الإنسانية فى موكب مطامعهم وأحقادهم، يطويهم التراب الواحد بعد الآخر. ولكن الملكوت العظيم الشامل الذى أسسه يسوع بالصليب، يمتد، ويتزايد، وتتسع رقعته جيلا بعد جيل.

فى مسرحية «جان دارك» كما صورها الكاتب المسرحى الساخر «برناردشو»، نرى شهيدة الرون تقترب من نهايتها، وقد خانها أبناء أمتها، وهى تنظر إليهم وتقول .. «سوف أمضى .. نعم سأمضى إلى أولئك البسطاء أصحاب القلوب الفائضة .. نعم سأذهب إليهم ليعوضنى بريق الحب فى عيونهم عن التعزيات التى التمستها ولم أجدها فى أحقادكم. ولعلكم سوف تستريحون حينما تشاهدون النيران تشتعل فى جسدى، ولكنى أقول لكم إننى فى وسط النيران سأجتاز إلى قلوبهم الرحبة، إلى أبد الآباد». هذا رمز لما حدث ليسوع، وصورة مصغرة. لقد كان موته على الصليب هو الطريق الذى اجتاز فيه إلى البشر إلى أبد الدهور، قد يكون مسيا اليهود الظافر المنتصر، قد استنزف أجمل ساعات العمر، فى حياة أكثر من كاتب وأديب ليسطر عنه بنات أفكاره. واقتضى من المؤرخين الجهد والعناء، ولكن رئيس المحبة والسلام على صليب العار، ملك قد تأسس عرشه الخالد السرمدى فى قلوب البشر أجمعين، إن الأساس الثابت الوطيد لأى ملكوت عظيم خالد، هو المحبة الباذلة المضحية.

أبناء النور

فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ ٱلنُّورُ مَعَكُمْ زَمَاناً قَلِيلاً بَعْدُ . فَسِيرُوا مَادَامَ لَكُمُ ٱلنُّورُ لِئَلاَّ يُدْرِكَكُمُ ٱلظَّلاَمُ . وَٱلَّذِى يَسِيرُ فِى ٱلظَّلاَمِ لاَيَعْلَمُ إِلَى أَيْنَ يَذْهَبُ . مَا دَامَ لَكُمُ ٱلنُّورُ آمِنُوا بِٱلنُّورِ لِتَصِيرُوا أَبْنَاءَ ٱلنُّورِ . تَكَلَّمَ يَسُوعُ بِهٰذَا ثُمَّ مَضَى وَٱخْتَفَى عَنْهُمْ

(يوحنا ١٢ : ٣٥ – ٣٦)

فى هذه الفقرة نجد الوعد الأكيد . جنبا إلى جنب مع التهديد والوعيد . وكل من الوعد والوعيد لهمكان فى جوهر الإيمان المسيحى .

١ – فهناك الوعد لنا بالنور : « النور معكم » إن الذى يسير برفقة «يسوع» يسير فى النور . الذى يسير مع يسوع يتخلص من الظلال ، والظلام . هناك أكثر من ظل تتخبط فى استاره البشرية .

هناك ظل الخوف . ألم يحدث لنا ، أننا خشينا أن نتطلع إلى ماهو أبعد من موطىء أقدامنا ؟ ألم يحدث أننا توقعنا تغييرات عتيدة أن تحدث فى فرصة الحياة أما منا ، وكنا فى توقعنا أكثر من خائفين ؟ ألم تعترنا الرهبة فى إنتقالنا من بلد إلى بلد ومن مجتمع إلى مجتمع ؟ ألم نشعر بالخوف فى

اللحظات الحاسمة من حياتنا : عند إقدامنا على اختيار مهنة الحياة ، أو عند الارتباط بشريك الحياة ؟

وهناك ظل الشك والتردد : حينما نقف فى مفترق الطرق ، ولا نعرف أى الطريقين نسلك . فالضباب أمام عيوننا يلف كل شىء . فنتخبط فى طريقنا ولاندرى، وهناك ظل الأحزان ، حين تختفى الشمس ساعة الظهيرة ، وتنطفىء النجوم فى ليلنا . ونحس كأن الدنيا خلت من الحبيب أو الصديق .

ولكن الذى يختار «يسوع» رفيق الطريق ، يتحرر من مخاوفه . . من شكوكه ، ويمتلىء بثقة كاملة لاتستطيع أية قوة أن تنزعها من قلبه . . بفرح عظيم لاتقوى أحزان العالم أن تنزعه أو تطفئه . فطريقه فى النور ، نور العالم ، وليس فى الظلام ، ظلام هذا الدهر . لأن محضر «يسوع» يحول الظلام إلى نور .

٢ - ولكن هناك التهديد : إن عزمنا على اتباع «يسوع» .. على السير معه .. على إيداع نفوسنا ، وحياتنا وكياننا ، ومصيرنا ، وأبديتنا ، بين يديه ، ينبغى أن يتم فى الحال ، وإلا فلن يحدث على الاطلاق . هناك واجب نستطيع أن نتممه ، . ولكن إذا كانت لنا القوة ، وإذا غنمنا الفرصة ، فإن الدرس والتحصيل واجب ، ولكننا لانستطيع القيام به إلا فى قوة الذاكرة وصفاء الذهن . الكلمة فى وقتها واجب ما أحسنه . ولكن إذا ضاعت الفرصة ، ضاع أثرها وأصبحت فى غير موضعها ، وهكذا الأمر فى السير مع «يسوع» .. فى اختياره رفيق الحياة ورفيق الطريق . فى نفس اللحظة التى نادى فيها «يسوع» بكلماته هنا ، كان يتقدم لليهود ربما بالفرصة الأخيرة ليؤمنوا به ، فينالوا الحياة . ليسيروا برفقته فيشرق عليهم النور ليغتنموا الفرصة قبل أن يرتكبوا حماقتهم الكبرى ، ويقف الصليب كالجريمة

العظمى ، التى تجعل الآب ينتزع الملكوت من أيديهم . ويفتح الباب لأمة أخرى تعطى ثماره . من الأمور المؤسفة أن فرص التجديد تزداد تصاعديا حتى سن السابعة عشرة ، ثم تقل تنازليا حتى تصل إلى منتهاها فى الثلاثين . وبعد الثلاثين، يكون من الصعب جداً على الإنسان أن يغير طريق حياته ، ويبدأ بداية جديدة مع «يسوع» . إن الذى يرفض الفرصة المقدمة إليه مرة بعد أخرى ، يتقسى قلبه ، ويزداد توغلا فى طريقه ، حتى يصبح من الأمور القاسية عليه ، أن ينتزع نفسه إنتزاعاً. فى المسيح يقدم الله للأنسان اسمى مراتب البركة والنعمة — من الجانب الواحد ، يقول الله لنا إن الفرصة مازالت أمامنا ، ومن الجانب الآخر ، يحذرنا من أنها قد تفلت منا ، وأن علينا أن نغتنمها فى التو واللحظة .

عدم الإيمان الأعمى

وَمَعَ أَنَّهُ كَانَ قَدْ صَنَعَ أَمَامَهُمْ آيَاتٍ هٰذَا عَدَدُهَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ . لِيَتِمَّ قَوْلُ إِشَعْيَاءَ ٱلنَّبِيِّ ٱلَّذِى قَالَهُ يَارَبُّ مَنْ صَدَّقَ خَبَرَنَا وَلِمَنِ ٱسْتُعْلِنَتْ ذِرَاعُ ٱلرَّبِّ . لِهٰذَا لَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يُؤْمِنُوا . لأَنَّ إِشَعْيَاءَ قَالَ أَيْضاً . قَدْ أَعْمَى عُيُونَهُمْ وَأَغْلَظَ قُلوبَهُمْ لِئَلاَّ يُبْصِرُوا بِعُيُونِهِمْ وَيَشْعُرُوا بِقُلُوبِهِمْ وَيَرْجِعُوا فَأَشْفِيَهُمْ . قَالَ إِشَعْيَاءُ هٰذَا حِينَ رَأَى مَجْدَهُ وَتَكَلَّمَ عَنْهُ .

(يوحنا ١٢ : ٣٧ – ٤١)

هذه الفقرة سببت الحيرة والارتباك لكثيرين . إن البشير يورد فيها إقتباسين من نبوات إشعياء . الواحد من العددين الأولين للاصحاح الثالث والخمسين ، وفيه يتساءل النبي عما إذا كان هناك من عرف قوة الرب حينما استعلنت ، أو آمن بخبره حينما نادى به . أما الأقتباس الثانى فهو أصعب الاثنين ، وهو الذى يقف أمامه العقل البشرى فى حيرة . هذا الاقتباس الثانى نجد له قرينا فى (اشعياء ٦ : ٢ ، ١٠) « فقال — أى الرب — . إذهب وقل لهذا الشعب اسمعوا سمعاً ولاتفهموا ، وابصروا إبصاراً

ولا تعرفوا . غلظ قلب هذا الشعب ، وثقل أذنيه ، واطمس عينيه . لئلا يبصر بعينيه ، ويسمع بأذنيه ، ويفهم بقلبه ، ويرجع فيشفى ». نفس الفقرة تجدها تتردد صريحا ، أو فى اقتباس ، فى (متى ١٣ : ١٤ ، ١٥ ، مرقس ٤ : ١٢ ، لوقا ٤ : ١٠ ، رسالة رومية ١١ : ٨ ، كورنثوس الثانية ٣ : ١٤) . على أن اللغز المحير الذى تنطوى عليه ، والمبدأ الخطير الذى تعلنه ، إن جاز لنا التعبير ، أن الله هو الذى يدفع بالأنسان إلى قساوة القلب وعمى البصيرة ، وانسداد الأذنين ، فينتهى به الأمر إلى المصير الرهيب . أوبكلمات أخرى ، أنه حينما تلتوى السبيل بأنسان، فيجنح إلى طريق الخطأ والشر، ويغلق أمامه باب الإيمان ، فإن الله هو الذى أغلق الباب أمامه ، أوأغلق قلبه وبصيرته وضميره،حتى لايدخل فيجد الحياة .

مهما حاولنا أن نجد من التبريرات ، أو التأويلات ، لمثل هذه الآية ،فمن العسير جداً أن نصل إلى تفسير مرض . فكيف يمكن أن يقسى الله قلب انسان حتى يهلك فى خطاياه ؟ فى هذه الحالة لابد وأن تنتفى مسئولية البشر، وتنتهى بالتالى مديونيتهم ومذنوبيتهم فى نظر الله ، وكيف نضع هذه الحقيقة بجوار حقيقة إله المحبة الذى أحب العالم كله حتى بذل ابنه الحبيب فى سبيل خلاصه ؟

هناك أمران يمكن أن نواجه بها هذه الفقرة .

١ – الأمر الأول أننا ينبغى أن نتتبع التسلسل المنطقى فى سياق حديث اشعياء، أو حديث الله لأشعياء . لقد تقدم النبى إلى شعب اسرائيل ، برسالة الله ، وأعلن لهم حق الله . لقد تقدم إليهم برسالة الله بكل ما آتاه الله من قوة وتأثير ، فاذا بهم يصمون آذانهم ، ويقسون قلوبهم . وكأنى باشعياء يقول : « لقد تقدمت إليهم برسالة الصلاح والمحبة كما لم يتقدم

إليهم بها إنسان آخر . وبدلا من أن تأتى الرسالة بالثمر المطلوب .. بدلا من أن ترفعهم إلى مستوى أفضل ، إذا بهم يندفعون إلى حال أردأ . إنهم بعنادهم وقساوتهم ، وتمرد قلوبهم ، كأنى بهم قد حولوا واسطة البركة والنعمة ، إلى واسطة لعنة وقساوة . . كأنى بالله يقول لى أذهب قس قلوبهم .. زد عماهم عمى .. صم أذانهم ، لئلا يحسوا بقلوبهم ويسمعوا بآذانهم ، ويبصروا بعيونهم فيرجعوا وأشفيهم » . هذا قول «أشعياء» نفسه . وهو قول نابع من نفس متمرمرة ، وقلب منكسر . من نفس اكتشفت أن رسالة الحياة قد تحولت فى قساوة سامعيها إلى واسطة موت . ورسالة البركة قد تحولت فى عناد من قدمت إليهم إلى واسطة لعنة . إن علينا قبل أن نقرأ هذه السطور فى حرفيتها الجامدة ، أن نضع فى مخيلتنا مرارة قلب من نطق بها، وانكساره بسبب جحود سامعيه . إنها كلمات مبشر ألقى البذار على تربة ممتلئة بالشوك ، وقاد محراثه ولكن على الصخر الصلد ، وروى التربة بعرقه ودموعه ، فاذا بها تنبت له الحسك والقتاد .

٢ — ولكن هناك أمراً آخر، ينبغى أن نضعه فى الأعتبار . فلقد كانت إحدى العقائد الرئيسية فى الإيمان اليهودى ، أن الله وراء كل شيء . . كل أمر يحدث فى الوجود . فلا شيء يحدث خارج دائرة مقاصد الله، حتى جحود الانسان وعدم إيمانه ، حتى عدم الإيمان هذا، هو داخل دائرة هدف الله الأزلى . فهو الذى يسيطر على قلوب الناس، وهو الذى يتسلط حتى على عدم إيمانهم وجحودهم .

وإذا جاز لنا أن نترجم هذة العقيدة إلى لغة العصر ، فإننا لانقول إن عدم إيمان البشر هو هدف الله وقصده ، بل إن الله فى حكمته وقدرته السرمدية ، يستطيع أن يستغل حتى عدم إيمان الأنسان وجحوده

وتمرده لاظهار مجده ،وإتمام مقاصده ، فلن يعوقه عائق عن إتمام أغراضه بل حتى شر الشرير ، لابد وأن يتمم أغراض الله ومقاصده . هذه هي طريقة رسول الأمم ، حينما تعرض لهذا المشكل . فعدم إيمان اليهود ، وقساوتهم ، وعنادهم ، قد استخدمه الله واسطة لخلاص الأمم ، وفتح الباب أمام البعيدين . إن عدم إيمان اليهود ، لم يعطل إتمام مقاصد الله ، بل بالحرى كان الطريق لأتمام تلك المقاصد . وإغلاق الدائرة الضيقة ، قد فتح الباب لدائرة أعظم وأكثر إتساعاً .

حينما تعرض لنا فقرة نظير هذه ، علينا أن نذكر أن الله غير مجرب بالشرور ، وهو لايجرب أحداً . وإلا فلماإذا يدين الخاطىء ؟ بل علينا أن نعرف بأن المقصود ، هوأن الله فى حكمته وقوته السرمدية ، يستطيع أن يستخدم حتى خطية الأنسان لاتمام أغراضه . لقد جاء مسيح الله إلى اليهود . مقدما لهم رسالة الله ، كاشفا لهم قلبه . . معلنا لهم حبه . لكنهم رفضوا الرسالة ، وتمردوا على المحبة ، وتآمروا على الرسول . هذه خطيتهم هم التى عليها يدانون ، وبسببها يتحملون النتائج المرة . . ولكن حتى هذه الخطية لها مكانها فى دائرة مقاصد الله . . فى برنامج الله الأزلى وهكذا استخدمها الله واسطة لخلاص شامل . إن الله أعظم وأسمى من أن نغيظه بخطايانا ، ونعطل إتمام مقاصده بعصياننا . فهو يستخدم حتى خطيتنا وعصياننا لتمجيد اسمه ، وإتمام قصده .

إيمان الجبناء

وَلٰكِنْ مَعَ ذٰلِكَ آمَنَ بِهِ كَثِيرُونَ مِنَ ٱلرُّؤَسَاءِ أَيْضاً غَيْرَ أَنَّهُمْ لِسَبَبِ ٱلْفَرِّيسِيِّينَ لَمْ يَعْتَرِفُوا بِهِ لِئَلاَّ يَصِيرُوا خَارِجَ ٱلْمَجْمَعِ . لِأَنَّهُمْ أَحَبُّوا مَجْدَ ٱلنَّاسِ أَكْثَرَ مِنْ مَجْدِ ٱللهِ .

(يوحنا ١٢ : ٤٢ ، ٤٣)

إن «يسوع »لم يتحدث على الدوام إلى آذان صماء . لقد كان هناك البعض حتى من رجال السلطات اليهودية ، يقبلون تعاليمه ، ويؤمنون به ، ولكن فى قلوبهم. لقد كانوا يخافون أن يعلنوا إيمانهم على رؤوس الأشهاد . لأنهم كانوا يخشون عقاب السلطات ، والفرز من الهيكل . هؤلاء كانوا يتبعون سياسة مستحيلة : لقد أرادوا أن يكونوا تلاميذ ليسوع ، ولكن خفية فى السر . وكما يقول الكاتب، مناقضة فى التعبير ، فلا يوجد مايسمى بالتلمذة الخفية . .

إما أن السرية تقتل روح التلمذة ، أو أن التلمذة الحقيقية تنتصر على السرية ، وتنهى وجودها . فلا يوجد فى الإيمان المسيحى أدنى توفيق بين الحالتين ، ولكن أولئك أرادوا أن يصنعوا المستحيل . لقد كانوا يخافون أن يصبحوا مسيحيين ، لأن كونهم يصبحون مسيحيين معناه ،أن يخسروا الكثير . وكم من المرات تختلط القيم فى نظر الناس ، ولاتبدو الحدود واضحة . وكم من

المرات ، يتخلى الناس عن مساندة مبدأ عظيم ، لأن هذا المبدأ يتعارض مع مصالحهم التافهة .

حينما عرفت « جان دارك » أن الكل قد تخلى عنها ، وأنها أصبحت وحيدة هتفت « نعم . لقد أصبحت وحيدة معزولة ، وطيلة العمر كنت كذلك . لقد طلب أبى من إخوتى أن يغرقونى فى مياه البحر ، إن رفضت أن أبقى معهم لحراسة أغنامه . لقد كانت فرنسا تنزف دما ، ولكن ماذا يهم أبى ؟ لتذهب فرنسا إلى الجحيم مادامت أغنامه تبقى سليمة » وكم من واحد نظير هذا الفلاح الفرنسى ، يفضل حفنة من الأغنام على شعب وأمة بأسرها .

هكذا كان أولئك الرؤساء . لقد كانوا يعرفون فى قرارة نفوسهم أن «يسوع» على حق .. كانوا يعرفون أن زملاءهم يسعون سعياً حثيثاً ليهلكوا «يسوع» ، ويهلكوا — إن أمكن — عمل الله فيه وبواسطته . ولكنهم ما أرادوا أن يتحملوا مسئولية الوقوف إلى جواره ، واحتمال التضحية إلى جانبه ، والاعتراف به علنا أمام الجميع ، مما يجر عليهم الكثير من المتاعب . لقد كان الاعتراف بيسوع يعنى بالنسبة لهم نهاية مراكزهم ، ومطامعهم ، ومقتنياتهم وكل شىء . كان هذا يعنى العزل من الحياة الاجتماعية ، والعزل من المجتمعات الدينية أو المجامع ، وهذا أقسى من أن يحتمله يهودى . لقد كان الثمن باهظاً ، وهكذا عاشوا فى أكذوبة كبرى ، لأنهم لم يحسوا بأن لهم الكفاية التى يلاقون بها الحق ويسيرون فى ركابه ..

وفى جملة واحدة ، يشخص «يوحنا» موقفهم . لقد فضلوا أن يقفوا مع الله . لقد فضلوا أن تكون لهم العلاقة الطيبة مع الناس ، على أن يكونوا فى علاقة طيبة مع الله . وفى موقفهم هذا كانوا يظنون أن هذا عين الحكمة والتصرف الصائب .. كانوا يظنون أنهم يلعبون على الجواد الرابح . ولكنهم

ماكانوا يعرفون أن رضى البشر لساعة ، وأن دينونة الله وعدالته إلى قيام الساعة . إنهم قد يصرفون أعواماً قليلة فى سلام مع البشر ، لكنهم بهذه الأعوام يبيعون أبديتهم ، ومكافأتهم . من الحكمة والتصرف السليم أن نفضل رضى الله ، على رضى الناس ... أن نحسب حساباً للأبدية الطويلة على سنوات الحياة القليلة .

فَنَادَى يَسُوعُ وَقَالَ . ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِي لَيْسَ يُؤْمِنُ
بِي بَلْ بِٱلَّذِي أَرْسَلَنِي . وَٱلَّذِي يرانِي يرَى ٱلَّذِي أَرْسلَنِي .
أَنَا قَدْ جِئْتُ نُوراً إِلَى ٱلْعَالَمِ حتَّى كُلُّ من يُؤْمِنُ بِي
لَايَمْكُثُ فِي ٱلظُّلْمةِ . وإِنْ سَمِع أَحَدٌ كَلَامِي ولَمْ يُؤْمِنْ
فَأَنَا لَاأَدِينُهُ . لِأَنِّي لَمْ آتِ لِأَدِينَ ٱلْعالَم بلْ لِأُخَلِّصَ
ٱلْعَالَمَ . مَنْ رَذَلَنِي وَلَمْ يَقْبَلْ كَلَامِي فَلَهُ مَنْ يَدِينُهُ .
ٱلْكَلَامُ ٱلَّذِي تَكَلَّمْتُ بِهِ هُوَ يَدِينُهُ فِي ٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِيرِ .
لِأَنِّي لَمْ أَتَكَلَّمْ مِنْ نَفْسِي لٰكِنَّ ٱلْآبَ ٱلَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ
أَعْطَانِي وَصِيَّةً مَاذَا أَقُولُ وَبِمَاذَا أَتَكَلَّمُ . وَأَنَا أَعْلَمُ
أَنَّ وَصِيَّتَهُ هِيَ حَيٰوةٌ أَبَدِيَّةٌ . فَمَا أَتَكَلَّمُ أَنَا بِهِ فَكَمَاقَالَ
لِي ٱلْآبُ هٰكَذَا أَتَكَلَّمُ

(يوحنا ١٢ : ٤٤ - ٥٠)

هذه بحسب الترتيب المنطقى للأحداث فى البشارة الرابعة ، هى آخر كلمات نطق بها المسيح للجماهير ، بعد هذا نجده ينفرد مع تلاميذه ، معلما

إياهم ، ومشدداً قلوبهم ، وبعد ذلك نراه واقفا أمام «بيلاطس» متحدثا إليه ، ولكن فى هذه الفقرة نرى ختام حديثه إلى الجموع .

فى هذه الكلمات ، نرى «يسوع» ينادى بالحق الأساسى ، الذى هو جوهر حياته كلها : هذا الحق أن «يسوع» هو إعلان الله للبشر ، وأن البشر فى مجابهتهم ليسوع ، يجابهون الله ، ويواجهونه ، ويحددون موقفهم منه . فالذى يصغى إلى صوت «يسوع» ، يصغى إلى صوت الله ، والذى يرى «يسوع» يبصر الله فيه ، والذى يقبل «يسوع» يقبل الله . هذا هو تفرد «يسوع» على الأجيال جمعاء — فى «يسوع» يلتقى الله بالبشر ، وتواجه البشرية إلهها . وهذه المواجهة لها نتيجتان . وكل من هاتين النتيجتين ، يحدد معنى الدينونة وجوهرها بالنسبة للمسيحى .

١ — هنا يعيد معلم الأجيال ، نفس الفكر الذى يتكرر بين حين وآخر فى البشارة الرابعة ، فلم يأت السيد إلى العالم ليدين البشر . بل جاء هدى ورحمة وخلاصاً للعالمين ، لقد أتى ليخلص البشرية .. فالله لم يرسل الإبن الحبيب إلى العالم بروح النقمة ، والغضب ، بل بروح المحبة . ومع ذلك تبقى الحقيقة التى لامفر منها ، إن مجيء «يسوع» إلى العالم يتضمن دينونة العالم . وكيف هذا ؟ ذلك لأن الإنسان فى موقفه من «يسوع» من رفض أو قبول ، يحكم على نفسه ، أو يحكم لها . يصدر حكم الدينونة على نفسه بنفسه ، فاذا اكتشف فى «يسوع» الجاذبية العظمى ، فتعلق قلبه به وارتبط ارتباطاً ، فهو قد دخل دائرة الأمان ، ولكنه إن لم يكتشف شيئاً فى يسوع ولم ينجذب قلبه إليه ، وأدار له ظهره ، واحتقر خلاصه ، فهذا يعنى أنه فى دائرة أبعد من دائرة مغناطيسية «يسوع» . وأن قلبه من الجمود بحيث لم تؤثر فيه جاذبيته وقوته . فهو فى دائرة الحكم والدينونة — على الدوام

تكتشف فى البشارة الرابعة هذا الحق الذى يبدو فى ظاهره متناقضاً متضارباً، أن يسوع أتى فى روح المحبة ، وأن مجيئه يتضمن الدينونة . وكما قلنا نعود فنكرر ماقلناه من قبل بكلمات أخرى ، إننا قد نقدم فى روح المحبة اختباراً أساسياً لإنسان ما . فنجده يفشل أمام هذا الإختبار ، ويخيب انتظارنا فيه ، ويظهر فى كيانه مالم نكن نتوقعه أو نكتشفه ، لو لم نتقدم إليه به ، إن ذلك الاختبار تقدمنا به فى روح المحبة ، ولكنه حينما واجهناه به كشف فى كيانه عيباً ، وأظهر قصوراً ، حتى أن نفس الاختبار الذى قدم فى روح المحبة ، قد تحول إلى دينونة . إن « يسوع » هو حجر المحك الذى يتقدم به الله ليمتحن البشر . وبموقف الإنسان من « يسوع » يكشف الإنسان عن معدن ذاته ، ويصدر الحكم على نفسه .

٢ – ويقول «يسوع» أيضاً فى هذه الفقرة ، إنه **فى اليوم الأخير تصبح نفس الكلمات التى سمعها البشر شاهدة عليهم** ، وهذه هى إحدى الحقائق العظيمة فى الحياة ، إن الإنسان لن يوجه إليه اللوم ، ولن يصدر عليه الحكم لأجل حق لم يسمعه على الإطلاق ، ولم تكن له الفرصة لسماعه ، ولكنه إذا عرف الحق ، واقتنع بصحته ، ولكنه سلك سلوكاً مغايراً لذلك الحق ، فدينونته تكون أشد وأقسى ، على هذا الأساس تكون كل كلمة .. كل تعليم .. كل وصية قدمت الينا ، وكذلك كل فرصة عرضت لنا لنقبل الحق ، ونعمل به ، هى فى النهاية ضمن الشهود التى تديننا فى اليوم الأخير .. هناك لاهوتى معروف عاش فى القرن الثامن عشر ، وقدم أصول الإيمان فى صورة سؤال وجواب للبسطاء ، وفى ختام كتابه عرض لهذا السؤال : ماذا يحدث لإنسان يرفض الحق المسيحى ، ورسالة المسيح ؟ ثم يجيب : قد حلت به الدينونة ، وهو فى انتظار الدينونة الأعظم . ثم يقول ، وعلى الأخص ، لأن مثل هذا الكتاب قد وقع فى يديه ، وأعلن له الحق فى كلماته » .

إنه تحذير يتقدم به «يسوع» لكل واحد منا. إن كل ما سمعناه ، وما عرفناه ، وما قدم إلينا ، سواء في الكلمة المكتوبة أو المسموعة ، أو في فرص الخلاص ، أو في معاملات الله معنا ، لابد وأن ينقلب شاهداً علينا ، يديننا في اليوم الأخير .

ٱلْأَصْحَاحُ ٱلثَّالِثُ عَشَرَ

أَمَّا يَسُوعُ قَبْلَ عِيدِ ٱلْفِصْحِ وَهُوَ عَالِمٌ أَنَّ سَاعَتَهُ قَدْ جَاءَتْ لِيَنْتَقِلَ مِنْ هٰذَا ٱلْعَالَمِ إِلَى ٱلْآبِ إِذْ كَانَ قَدْ أَحَبَّ خَاصَّتَهُ ٱلَّذِينَ فِي ٱلْعَالَمِ أَحَبَّهُمْ إِلَى ٱلْمُنْتَهَى . فَحِينَ كَانَ ٱلْعَشَاءُ وَقَدْ أَلْقَى ٱلشَّيْطَانُ فِي قَلْبِ يَهُوذَا سِمْعَانَ ٱلْإِسْخَرْيُوطِيِّ أَنْ يُسَلِّمَهُ . يَسُوعُ وَهُوَ عَالِمٌ أَنَّ ٱلْآب قَدْ دَفَعَ كُلَّ شَيْءٍ إِلَى يَدَيْهِ وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ خَرَجَ وَإِلَى ٱللهِ يَمْضِي . قَامَ عَنِ ٱلْعَشَاءِ وَخَلَعَ ثِيَابَهُ وَأَخَذَ مِنْشَفَةً وَٱتَّزَرَ بِهَا . ثُمَّ صَبَّ مَاءً فِي مِغْسَلٍ وَٱبْتَدَأَ يَغْسِلُ أَرْجُلَ ٱلتَّلَامِيذِ وَيَمْسَحُهَا بِٱلْمِنْشَفَةِ ٱلَّتِي كَانَ مُتَّزِراً بِهَا . فَجَاءَ إِلَى سِمْعَانَ بُطْرُس فَقَالَ لَهُ ذَاكَ يَاسَيِّدُ أَنْتَ تَغْسِلُ رِجْلَيَّ . أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ لَسْتَ تَعْلَمُ أَنْتَ ٱلْآنَ مَا أَنَا أَصْنَعُ وَلٰكِنَّكَ سَتَفْهَمُ فِيمَا بَعْدُ . قَالَ لَهُ بُطْرُس

لَنْ تَغْسِلَ رِجْلَيَّ أَبَداً . أَجَابَهُ يَسُوعُ إِنْ كُنْتُ لاَ أَغْسِلُكَ
فَلَيْسَ لَكَ مَعِي نَصِيبٌ . قَالَ لَهُ سِمْعَانُ بُطْرُسُ يَاسَيِّدُ
لَيْسَ رِجْلَيَّ فَقَطْ بَلْ أَيْضاً يَدَيَّ وَرَأْسِي . قَالَ لَهُ يَسُوعُ
ٱلَّذِي قَدِ ٱغْتَسَلَ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ إِلاَّ إِلَى غَسْلِ رِجْلَيْهِ بَلْ هُوَ
طَاهِرٌ كُلُّهُ . وَأَنْتُمْ طَاهِرُونَ وَلٰكِنْ لَيْسَ كُلُّكُمْ . لأَنَّهُ
عَرَفَ مُسَلِّمَهُ . لِذٰلِكَ قَالَ لَسْتُمْ كُلُّكُمْ طَاهِرِينَ

فَلَمَّا كَانَ قَدْ غَسَلَ أَرْجُلَهُمْ وَأَخَذَ ثِيَابَهُ وَٱتَّكَأَ
أَيْضاً قَالَ لَهُمْ أَتَفْهَمُونَ مَا قَدْ صَنَعْتُ بِكُمْ . أَنْتُمْ
تَدْعُونَنِي مُعَلِّماً وَسَيِّداً وَحَسَناً تَقُولُونَ لأَنِّي أَنَا كَذٰلِكَ .
فَإِنْ كُنْتُ وَأَنَا ٱلسَّيِّدُ وَٱلْمُعَلِّمُ قَدْ غَسَلْتُ أَرْجُلَكُمْ
فَأَنْتُمْ يَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ يَغْسِلَ بَعْضُكُمْ أَرْجُلَ بَعْضٍ .

لأَنِّي أَعْطَيْتُكُمْ مِثَالاً حَتَّى كَمَا صَنَعْتُ أَنَا بِكُمْ تَصْنَعُونَ
أَنْتُمْ أَيْضاً . ٱلْحَقَّ ٱلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّهُ لَيْسَ عَبْدٌ أَعْظَمَ
مِنْ سَيِّدِهِ وَلاَ رَسُولٌ أَعْظَمَ مِنْ مُرْسِلِهِ . إِنْ عَلِمْتُمْ هٰذَا
فَطُوبَاكُمْ إِنْ عَمِلْتُمُوهُ .

(يوحنا ١٣ : ١ — ١٧)

سوف نتأمل هذه الفقرة فى أكثر من جانب ، ولكن علينا قبل كل شىء ، أن نتأمل فيها أولا بصورة عامة .

هناك أحداث كثيرة فى قصة الإنجيل ، مثل هذه الحادثة ، تكشف بحق عن شخصية «يسوع » ، وتظهر محبته . وبتأملنا فى من هو «يسوع » ، وما كان عليه . وما دفعته المحبة إليه ، يتملكنا العجب العجاب ، أمام محبته الفائضة .

١ – يقول البشير : «يسوع » وهو عالم أن كل شىء قد دفع إليه ، هذا هو الجانب الأول فى الصورة التى أمامنا . إن «يسوع » كان يعلم أن كل سلطان قد دفع إليه ، فى الوقت الذى كان يعلم فيه ، أن الآلام والعار والموت تنتظره . فساعته قريبة ، ساعة هوانه ، وساعته أيضاً قريبة ساعة أمجاده . إن عرش الصليب ينتظره ، وعرش المجد أيضاً ينتظره . مثل هذا الفكر : وهذا الإحساس ، كان يمكن أن يملأه بالكبرياء والاستعلاء . ولكنه أخلى عنه كل شىء ، وفى اتضاع ، اتخذ مركز الخادم والعبد ، وغسل أرجل تلاميذه . وفى الوقت الذى كان ممكنا أن يرتفع فيه إلى أسمى درجات استعلائه ، وصل إلى أقصى درجات اتضاعه . هذه هى المحبة الصادقة . حينما يحدث فى أسرة متماسكة محبة ، أن فردا منها يقع مريضا ، فإن الشريك الآخر المحب ، يبدو على أتم استعداد أن يقوم بأوضع الأعمال وأكثرها هوانا ، ويجد سروره الكامل فى ذلك . . . فى بعض الأحيان يظن الإنسان أنه أرفع من أن يقوم بعمل من الأعمال . إن مكانته لا تسمح له بأن يمد يديه إلى عمل وضيع من شأنه ، بحسب تفكيره ، أن يحط من مقامه ومركزه . ولكن «يسوع » لم يكن كذلك . لقد كان رب المجد يعلم تمام العلم ، أنه رب على الكل . ومع ذلك خلع عنه ثياب الترفع ، واتخذ منشفة الخدم واتزر بها ، وصب ماء فى مغسل ، شأنه شأن العبيد ، وراح يغسل أرجل تلاميذه .

٢ — ولقد كان «يسوع» يعلم كما أسلفنا، أنه من عند الآب أتى وإلى الآب يمضى. وكان ممكنا أن يجربه هذا الشعور بالاستعلاء على أبناء التراب. بالاحتقار لهذا العالم وما فيه. فالرسالة قد أكملت. والرسول على وشك العودة إلى مرسله، فماذا يهمه بعد من البشر وعالم البشر؟ إن خطواته تقترب من الله، فلماذا يهتم بالعالم؟ ولكن يبدو لنا، أنه كلما ازداد اقترابا إلى الله زاد إغراقا فى محبته للبشر، ونزولا إلى أقصى درجات الخدمة الوضيعة. لقد كان غسل أرجل الضيوف فى وليمة محبة هو واجب العبيد ووظيفتهم. حتى التلاميذ التابعين لأى معلم، لم يكن معلمهم ينتظر منهم أن يصلوا إلى هذا المستوى فى خدمته. ولكن من العجب أن «يسوع» رغم وصوله إلى الخطوات النهائية فى خدمته واقترابه من الآب وأمجاده، ووقوفه على عتبة اتمام رسالته، قد اقترب أكثر إلى قلوب تلاميذه، ونزل درجة أعظم فى مستوى خدمته الاتضاعية. إن الذى يكون أكثر قربا الى الله، هو الذى يكون أكثر اقترابا الى البشر.

هناك تقليد يروى عن «القديس فرانسز الأسيسى» يقول إنه كان فى شبابه ثريا الى حد كبير. كان ارستقراطيا من أسرة ارستقراطية. وكان معتادا على نعومة العيش. ولكنه لم يكن مستريح البال. ولم يكن حاصلا على السلام فى أعماقه. وفى يوم من الأيام، كان راكبا جواده فى طريق منفرد خارج المدينة. فإذا به يرى فجأة انسانا ممتلئا بالبرص الكريه، وقد تحول جسده من هامة الرأس الى باطن القدم، الى قرح واحد كئيب. كان الأبرص قادما فى الطريق المقابل. ولقد كان طبيعيا أن الشاب المنعم يلوى عنان جواده ويسرع عائدا الى المدينة، أو يطلق العنان لجواده هاربا منه. ولكن شيئا تحرك فى أعماق «فرانسز» فترجل

وتقدم مسرعا إلى ذلك التعس المعذب ، فاتحا ذراعيه له ، ثم ضمه إلى صدره وقبله هاتفا : « ياأخى . . ياأخى . » وإذا بذلك الأبرص المشوه يتحول بين ذراعيه إلى شخص المسيح .

إننا فى اقترابنا من الله، نقترب أكثر من أخوتنا. وفى اقترابنا من أخوتنا نقترب بالتالى من الله .

٣ — شئ آخر كان يعلمه «يسوع» : لقدكان يعلم أن واحداً سيخونه ويسلمه إلى الأعداء . هـذه المعرفة كانت كفيلة بأن تحول مشاعر أى انسان عادى إلى الحقد والمرارة، أو على الأقل إلى الإنطواء الحزين . ولكن يبدو وكأن هذه المعرفة، قد زادت محبته للبشر أكثر من ذى قبل . لقد جعلت قلبه يفيض أكثر بروح الحب . إن الحقيقة العجيبة عن «يسوع» هى أنه كلما زاد الناس فى بغضهم له ، وتدبير المؤامرات ضده ، زاد هو محبة لهم — من السهل اليسير أن يؤجج التصرف الردئ من نحو انسان ما ، نيران الحقد والغضب ، والمرارة . ولكن «يسوع» قابل أعظم اساءة فى التاريخ وأعظم خيانة عرضت لإنسان ، بروح الاتضاع والمحبة الفائقة .

التـاج على رأس الخدمة

(يوحنا ١٣ : ١ — ١٧)

ولكن هناك سابقة لهذه الحادثة ، لم يذكرها «يوحنا»، لكنها وردت فى بشارة لوقا . ولو درسنا قصة العشاء الأخير، كما وردت فى بشارة لوقا ، لوجدنا فى مستهل القصة « وكانت بينهم مشاجرة من منهم يظن أنه يكون أكبر » لوقا ٢٢ : ٢٤) . وياله من تصرف لا يليق من جانب التلاميذ . . حتى فى طريقهم إلى الاجتماع الأخير مع السيد . . حتى وشبح الصليب

والموت والهوان، يبدو مخيما على معلمهم، يتشاجر التلاميذ أحدهم مع الآخر فيمن يكون الأعظم ، ومن يحتل مركزاً أسمى .

يبدو لنا أن مشاجرة مثل هذه، أوحت للسيد بمثل هذا التصرف . بل يبدو أن الضرورة أوحت بذلك . فطرقات فلسطين كانت غير معبدة ، ممتلئة بالقاذورات ، وفى فصل الجفاف ، كانت الأقدام تغوص فى الأوحال. زد على ذلك أن الطبقات العادية ، نظير التلاميذ ، كانت تنتعل حذاء مكونا من سيور متشابكة . وهذا يجعل القدم عارية ، أكثر عرضة للأوساخ .

وبسبب هذا ، كانت توجد أجران عند باب البيت أو مدخله، ممتلئة بالماء، وإلى جوارها يقف الخادم متزراً بمئزرة ، ومعه مغسلة ، ويحمل على كتفه منشفة، ويقوم بغسل أرجل الضيوف، قبل دخولهم إلى المنزل . ولكن جماعة «يسوع» لم يكن لهم من يخدمهم .

ولقد كان الواجب يحتم، أن يقوم واحد من التلاميذ : بهذا الدور المتواضع . ولعل كل واحد نظر إلى أخيه فى استعلاء ، خاصة وان مشادة كانت قد وقعت بينهم قبل ذلك، حول من يكون الأعظم — لقد كانت هناك المنشفة ، والمغسل ، والماء للأغتسال . ولعل صاحب العلية قد أعد أدوات الأغتسال، على أمل أن يأتى «يسوع» وجماعته ، ومعهم خادمهم . وربما نلتمس له العذر ، أنه لم يكن له خادم — قصارى القول أنه كان من المنتظر ، أن يقوم واحد من التلاميذ بهذا الواجب . فلما رأى «يسوع» موقفهم ، أراد أن يعلمهم هذا الدرس ، فقام بنفسه بغسل أرجل التلاميذ .

وهكذا قام «يسوع» بما لم يكن أى واحد منهم، على استعداد أن يقوم به ، وبعد أن غسل أرجلهم قال لهم : «اتفهمون ما قد صنعته بكم . انتم تدعوننى

معلما وسيدا وحسنا تقولون لأنى أنا كذلك . فإن كنت وأنا السيد والمعلم قد غسلت أرجلكم ، فأنتم يجب عليكم أن بغسل بعضكم أرجل البعض . الحق الحق أقول لكم أن ليس عبد أعظم من سيده . ولا رسول أعظم من مرسله .. لأنى أعطيتكم مثالا حتى كما صنعت أنا بكم تصنعون أنتم أيضاً ..

إن تصرف السيد فى هذه الفرصة ، خليق أن يدفعنا للتأمل . فكم من مشادة تقع فى كنائسنا ومجتمعاتنا الروحية ، لأجل التنافس على المراكز . وكم من مشاجرة تنشب حتى بين أصحاب المنابر ، لأن الراعى المناسب لا يجد له المنبر المناسب . هنا يقدم لنا «يسوع» الدرس والمثال ، إنه لا يوجد سوى نوع واحد من العظمة ، هو عظمة الخدمة . إن العالم ملىء بأناس يقفون مكتوفى الأيدى ، رؤوسهم إلى فوق ، فى الوقت الذى كان ينبغى أن يركعوا فيه على ركبهم أمام حاجات إخوتهم . ان الأنانية ، وحب الذات ، والأثرة ، والمنفعة الذاتية ، والكبرياء ، كثيرا ما تفسد برنامجاً طيباً لخير المجتمع . فلا يوجد من يرضى بالمركز الوضيع . ربما يقتضى الأمر فى وقت من الأوقات الايستدعى لاعب الكرة للأشتراك فى مباراة ، فيدفعه هذا التصرف إلى التخلى عن فريقه نهائيا . أحيانا تتخطى الترقية موظفاً ما ، ويفوز بمركز أفضل من هو أقل منه أهلية . فتكون النتيجة أن يهمل هذا الموظف عمله أو يهجره ..

وقد يحدث بين أعضاء الكنيسة ، أن يظهر الراعى حبا وتعاطفا نحو أحد الأعضاء ، ويختاره لخدمة تدبيرية أو منبرية . فيثير هذا غيرة زملائه . وتقاعدهم عن العمل . وفى فريق الترنيم ، قد يغفل رئيس الجوقة عن اسناد دور مهم لعضو بارز ، فيستقيل من عضوية الفريق . فى أى مجتمع

وفى أية دائرة، قد يؤدى خطأ غير مقصود، إلى انطواء أحد الأعضاء على نفسه، أو إلى ثورته، وغضبه. وتشهيره بأخوته — حينما يجربنا عدو الخير بالثورة لكرامتنا، أو مركزنا، أو حقنا، لنتأمل فى الحال صورة ابن الله، متزرا بمنشفة، راكعاً أمام تلاميذه وهو يغسل أرجلهم.

إن العظيم حقا.. هو الذى يعرف كيف يضع التاج الملكى على رأس الخدمة، فيكون له هذا الأتضاع الذى يرفعه على عرش قلوب اتباعه، ويتوجه بتيجان محبتهم وتقديرهم. فى رواية «القائد المحبوب». للكاتب «دونالد هانكى»، نقرأ وصفا لعناية القائد بجنده بعد مسيرة شاقة: «لقد كنا تعرف جميعا أنه رئيسنا — انسان له كيانه الذى يختلف عنا كل الاختلاف. لذلك عرفنا كيف استطاع أن يكون متواضعا إلى هذا الحد الكبير، ولا يفقد باتضاعه جانبا من كرامته. لقد كان وديعا متضعا. وهذا أقل ما يقال عنه. إن أقل ضائقة تعرض لنا، لم تكن أتفه من ان تسترعى اهتمامه. فحينما طالت مسيرتنا، وكان ذلك أول عهد لنا بالمشاق، وتورمت والتهبت اقدامنا، بدا لنا من اهتمامه وكأنها أقدامه هو. بطبيعة الحال كان هناك كشف على اقدام الجند بعد كل مسيرة. كان هذا عملا روتينيا. لكنه بالنسبة له لم يكن كذلك. كان يأتى إلى مجموعتنا، فإذا اكتشف قدما ملتهبة، ركع على الأرض، وفحصها بكل عناية وكأنه طبيب. ثم وصف العلاج الذى فى متناول يده، والذى — يحمله أحد الجند فى حقيبة خاصة. فإذا كانت هناك ثألولة تحتاج إلى تفريغ قام بذلك بكل دقة حتى لا تتلوث القدم. ولقد كان يقوم بذلك بكل بساطة، واهتمام، لأنه كان يعرف أن أقدامنا لها قيمتها، وأننا كثيراً ما نهمل العناية بأنفسنا. وهكذا بدا لنا فى اهتمامه ولمساته المتواضعة الرقيقة رمزا للمسيح فيما عمله مع تلاميذه. وهكذا زاد حبنا واحترامنا له.

إن الذى يعرف كيف ينحنى جيداً ، كمافعل السيد حين غسل ارجل تلاميذه ، هو الذى يرفعه اتباعه فى النهاية ويتوجونه ملكا على قلوبهم ، وتظل ذكراه ناطقة خالدة لاتنقطع فى مخيلتهم ..

الغسل الألزم

(يوحنا ١٣ : ١ – ١٧)

من تأملاتنا السابقة ، نعرف أنه ينبغى أن نتوقع أن يكون لبعض الفقرات أو الآيات التى يوردها «البشير يوحنا» ، معنيان .. فهناك المعنى الظاهرى السطحى الواضح . وهناك المعنى الأعمق تحت السطح . وفى هذه الفقرة التى أمامنا ، نكتشف معنى خفياً . فى ظاهر الأمر تمجد هذه الفقرة روح الأتضاع والوداعة . ولكن هناك ما هو أكثر من هذا . فضمن سطور القصة ، ترد محاجة بين «يسوع» وبين تلميذه الأول المقدام ، «بطرس» وموضوعها غسل الأرجل . فيسوع يقول لتلميذه كلاما غامضا : « إن كنت لا أغسلك ليس لك معى نصيب» ، وبطرس يقول لسيده : « يا سيد ليس فقط رجلى بل أيضاً يدى ورأسى » : فيقول له معلم الأجيال «الذى قد اغتسل لا حاجة به إلا إلى غسل رجليه ، وإلا فهو طاهر كله» هذه الآية الأخيرة الغامضة ، هى التى تحتمل معنيين . فلها معناها السطحى ، ولها أيضاً معناها الخفى العميق .

مما لا شك فيه ، أننا نجد هنا إشارة إلى فريضة المعمودية فى المسيحية : « إن كنت لا أغسلك فليس لك معى نصيب » بمعنى إن لم تجتز فى مياه المعمودية ، فلن يكون لك نصيب مع رعية المسيح ... مع كنيسته وشعبه . هذا هو المعنى الظاهرى الواضح .

ولقد كان غسل الأرجل، عادة سارية بين يهود فلسطين . فلقد جرى العرف أنه قبل ذهاب إنسان إلى حفل ما ، أو إلى وليمة يدعى إليها ، كان يغتسل جيداً .

فإذا أتى إلى بيت المضيف، لايكون بحاجة إلى الأغتسال مرة ثانية ، لأنه قد اغتسل قبل ذلك .

ولكنه يكون بحاجة إلى غسل رجليه من تراب الطريق ، وهكذا قبل الدخول إلى المأدبة كانت تغسل الأرجل . . . . وهذا العمل كان يقوم به العبيد أو الخدم . أو بمعنى آخر كان هذا الأغتسال هو إغتسال الدخول إلى البيت . على هذا الأساس يقول السيد لبطرس « إن أهم ما تحتاج إليه الآن ، ليس الأغتسال الكامل لقد إنتهى زمانه، وأنت لست بحاجة إليه . أما الأغتسال الذى أنت بحق فى حاجة إليه الآن، فهو الأغتسال الذى يفتح أمامك باب الدخول إلى أسرة الإيمان » .

وهذا يفتح المجال لمعنى آخر . إن «بطرس» فى البداية، بروح التأدب والأحتشام ، يعارض فى أن يقوم السيد بغسل رجليه . وإذا بالسيد يقول له إنه إن رفض الأغتسال ، فلن يسمح له بأن يكون له نصيب فى المسيح . وكأنى بيسوع يقول : « هل تظن يابطرس، أن فى إمكانك أن تقوم بالأغتسال بدون معونة آخر ؟ هل تظن أن فى إمكانك أن تقوم أنت بغسل قدميك ؟ هل تتملكك روح الكبرياء، فترفض أن أقوم أنا بهذا العمل لك ؟ إذا فسوف تخسر كل شىء » .

لقد كانت فريضة المعمودية هى باب الدخول إلى كنيسة المسيح ، فى العصر الرسولى ، كما هى فى أيامنا الحاضرة ، فالعماد هو غسل الدخول إلى بيت الله ، وإلى أسرة الله .

ليس معنى هذا ، أنه إن لم يعتمد الأنسان لن ينال الخلاص . فكثيرون لم تتح لهم فرصة المعمودية ، ولكنهم خلصوا بالإيمان بالمسيح ، نظير اللص الذى كان عن يمين المسيح أثناء صلبه . قد لاتتيسر الظروف ، ليقبل الأنسان فريضة المعمودية . ولكن إن كانت له الظروف المهيأة ، ومنعته روح الكبرياء من الخضوع لهذا الطقس المبارك ؛ والدخول من هذا الباب ، فما لاشك فيه ، أن كبرياءه ، تغلق الباب فى وجهه إلى النهاية فلا يكون له نصيب فى المسيح .

ولقد تغيرت الحال فى أيامنا الحاضرة ، ففى الكنيسة الأولى ، كانت ة المعمودية ، من الصعوبة بمكان ، بالنسبة لأولئك الرجال والنساء بغين ، أو المتقدمين فى العمر ، الذين يريدون أن يعتنقوا الدين الجديد. زد على ذلك أن شهادة الأنسان بالدخول فى مياه المعمودية وهو بالغ ، ليست نظير دخوله فى المعمودية وهو صغير . ومعظم الطوائف المسيحية فى أيامنا الحاضرة ، عدا القليل منها ، شأن الطوائف المعمدانية ، تبيح معمودية الصغار . ومعظمنا نال المعمودية وهو بعد طفل صغير . فلا صعوبة لنا فى هذه الممارسة .

ولكن الصورة التى يقدمها لنا المسيح فى تصرفه هذا ، وفى حديثه الرمزى مع تلميذه ، تؤكد حتمية المعمودية ، كركن ثابت من أركان الفرائض المسيحية ، وحتمية الخضوع لها كختم الأيمان . وكشهادة حية أمام الآخرين ، بأننا قد خلعنا الإنسان العتيق ، ولبسنا الجديد الذى يتجدد حسب صورة خالقه .

وبعض اللاهوتيين ينادون برأى آخر . فالغسل الأول الذى أشار إليه السيد بالقول : « الذى قد اغتسل » ؛ يشير إلى غسل التجديد . إنه

عملية سرية معجزية تتم فى أعماق الإنسان ، يقوم بها روح الله، عند الإيمان بالمسيح . وهذه العملية لا تتكرر ثانية فى حياة المؤمن ، أما العملية الثانية (غسل القدمين) فهى إشارة إلى الغسل المستمر فى حياة المؤمن، حينما يأتى إلى الينبوع المطهر بين حين وآخر ، فينال تطهيراً مما علق به من غبار الطريق ، وتقديسا لحياته إلى التمام .

عار الخيانة ومجد الاخلاص

لَسْتُ أَقُولُ عَنْ جَمِيعِكُمْ. أَنَا أَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ٱخْتَرْتُهُمْ. لٰكِنْ لِيَتِمَّ ٱلْكِتَابُ . ٱلَّذِى يَأْكُلُ مَعِى ٱلْخُبْزَ رَفَعَ عَلَىَّ عَقِبَهُ . أَقُولُ لَكُمُ ٱلْآنَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ حَتَّى مَتَى كَانَ تُؤْمِنُونَ أَنِّى أَنَا هُوَ . ٱلْحَقَّ ٱلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمُ ٱلَّذِى يَقْبَلُ مَنْ أُرْسِلُهُ يَقْبَلُنِى . وَٱلَّذِى يَقْبَلُنِى يَقْبَلُ ٱلَّذِى أَرْسَلَنِى

(يوحنا ١٣ : ١٨ – ٢٠)

فى هذه الفقرة نرى لمسات ثلاث واضحة ..

١ ــ فى اللمسة الأولى ، نرى البشير يرسم لنا بأكثر وضوح ، ملامح خيانة يهوذا . فيسوع يقتبس، نبوة من سفر المزامير ، وردت فى المزمور الحادى والأربعين فى العدد التاسع « رجل سلامتى الذى وثقت به آكل خبزى رفع على عقبه » . ونحن نعرف من تقاليدنا الشرقية ، أن اقتسام الخبز والملح دليل الأخلاص ، والصداقة ، والمحبة ، والعهد ، بألا يخون الواحد صاحبه . فى سفر صموئيل الثانى الأصحاح التاسع ، يتكرر القول كيف أن «داود» أعطى «مفيبوشث» ابن يوناثان الحق بأن يأكل خبزاً على مائدته ، فى الوقت الذى كان ينبغى فيه أن يحذر منه كل الحذر ، كواحد من سلالة عدوه ، ووريث طبيعى لعرش جده الملك . وفى

سفر الملوك الأول (١٨ : ١٩) ، نقرأ كيف أن أنبياء البعل كانوا يأكلون خبزاً على مائدة «إيزابل» الملكة زوجة «آخاب». ان ذاك الذى يأكل خبزاً على مائدة إنسان . قد قطع عهداً على نفسه ، بألا يتنكر لذلك الأنسان أو يضع يده فى أيدى أعدائه ، أو يخونه فى أى طريق ، فإذا حدث منه أى تصرف شائن ، يكون هذا أقسى من أن يتصوره عقل . ونحن نجد المرنم فى المزمور الخامس والخمسين ، يصور لنا مشاعره ضد صديق انقلب عليه : « لأنه ليس عدو يعيرنى فأحتمل . ليس مبغضى تعظم على فأختبىء منه بل أنت إنسان عديلى إلفى وصديقى الذى معه كانت تحلو لنا العشرة . إلى بيت الله كنا نذهب فى الجمهور » (مزمور ٥٥ : ١٢ – ١٤) . إن كل الآلام والأحزان ، تتركز فى نفسية إنسان إنقلب عليه صديقه ، فلا شىء يعدل فى مرارته مرارة الخيانة . إنها تكسر قلب المحب .

لاحظ أيضاً التعبير : « رفع على عقبه » . إنها استعارة من صورة حيوان تقدم منه صاحبه ، ليقدم له الطعام ، فاذا به يركله بكل عنف . ففيها الحيوانية ، وفيها النزول إلى مستوى البهائم ، وفيها القسوة فى الخيانة . فقد تصيب الركلة مقتلا فى الإنسان فتميته . فى الأصل العبرى ، يرد القول حرفيا : « كبر عقبه وخشنه » دليل القسوة ومرارة الخيانة ، والعنف الرهيب . فى هذه الكلمة ، لانجد اشارة إلى غضب الذى أسىء إليه ، بل إلى حزنه وألمه وانكساره إن «يسوع » هنا يعلن ، ليهوذا حزنه العميق ، ويكشف له فى صورة أخاذة عن قلبه الكسير .

٢ – لكن هناك التأكيد بأن هذه المأساة من أولها إلى آخرها . لها مكانها فى المخطط الألهى ، فهى بسماح منه وترتيب ، وان«يسوع» قبلها بكل ارتياح ، لأنها ضمن القصد الإلهى . لقد قال الكتاب هذا ، ولابد أن يتم المكتوب . فمما لا شك فيه أن هدف اللهو خلاص العالم . وأن ذلك الخلاص على حساب دم المخلص وقلبه الكسير . ولقد كان «يسوع» يعلم ما لابد أن يتم،فهو لم يؤخذ على غرة ، ولم يكن ضحية الظروف ، لقد كان سيد موقفه . كان يعرف التكلفة وكان على استعداد لأن يدفع الثمن ، ولقد حرص بالتالى على أن يعلن لتلاميذه هذه الحقيقة . فهو ليس فى طريقة إلى الأغتيال ، أو المؤامرات التى تنتهى بقتله عنفا وقسراً . بل إنه اختار الموت طواعية وعن طيب خاطر . فى ذلك الوقت لم يكشف عن أعين التلاميذ ليبصروا ذلك . ولم يكشف عن أذهانهم ليدركوا هذه الحقيقة . ولكنه تنبأ بان يأتى اليوم الذى ينظر فيه رسله إلى الأحداث التى مرت بهم ، ويذكروا ما قاله لهم ، فيعرفوا كل شىء .

٣ – وهناك لمسة ثالثة علاوة على صورة الخيانة من جانب التلميذ الخائن ، ولمسة الرضى والتسليم من جانب «يسوع» . هناك لمسة تصور لنا مجد الاخلاص . فيوما من الأيام سيحمل اتباع المسيح رسالته إلى العالم أجمع – وحينما يفعلون ذلك لن يكونوا فى عملهم ، فى مستوى أقل ممن يضع يده فى يد الله عاملا معه لاتمام مقاصده . حينما يبعث سفير من دولة ما ، إلى دولة أخرى ، فانه لا يرسل إلى تلك الدولة بصفته الشخصية .... ولا يذهب هناك لمؤهلاته أو صفاته . إنه يذهب محوطاً بكرامة أمة ، محملا بمسئولياتها ، حاملا لأمجادها .

وفى البلد الغريب قد لا يعرف الناس اسمه الشخصى ، لكنهم يعرفون عنه أنه سفير لتلك الدولة التى أرسلته . لنأخذ مثلا ، سفير مصر فى واشنطون ،

إنه يحمل كرامة الشعب المصرى ويتحمل أيضاً مسئولياته . فحين يتكلم تصغى أمريكا فى صوته إلى صوت مصر .

حينما ينادى بحق من الحقوق ، ترى فى مناداته رأى الشعب الذى أرسله ، وحينما يدعى إلى حفل تكريم ، يكرم البلد الذى أرسله فى شخصه ، وحينما توجه إليه أدنى إهانة ، يكون فى ذلك إهانة لأمته ، لمن أرسله . إن له أعظم الأمجاد . وعليه أعظم المسئوليات .

إن كوننا قد أصبحنا مسيحيين يحيطنا بأعظم كرامة ، كما يفرض علينا أعظم مسئولية... كوننا قد أصبحنا مسيحيين معناه أن «يسوع المسيح» قد أرسلنا إلى العالم ممثلين عن شخصه ، وعن جلاله . فنحن نتحدث بلسانه ونعمل لمجده ، ونسعى لرفعته . ونرفع صليبه ، وننادى بحقه ، ونبذل الجهد ليأتى ملكوته . إننا رسله الذين نعمل عنه . وهكذا فإن كانت تحيط بنا أمجاد مرسلنا فالمسئولية فى أعناقنا .

نداءُ المحبة الأخير

لَمَّا قَالَ يَسُوعُ هٰذَا ٱضْطَرَبَ بِٱلرُّوحِ وَشَهِدَ وَقَالَ ٱلْحَقَّ ٱلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّ وَاحِداً مِنْكُمْ سَيُسَلِّمُنِي . فَكَانَ ٱلتَّلَامِيذُ يَنْظُرُونَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ وَهُمْ مُحْتَارُونَ فِي مَنْ قَالَ عَنْهُ . وَكَانَ مُتَّكِئاً فِي حِضْنِ يَسُوعَ وَاحِدٌ مِنْ تَلَامِيذِهِ كَانَ يَسُوعُ يُحِبُّهُ . فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ سِمْعَانُ بُطْرُسُ أَنْ يَسْأَلَ مَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ ٱلَّذِي قَالَ عَنْهُ . فَٱتَّكَأَ ذَاكَ عَلَى صَدْرِ يَسُوعَ وَقَالَ لَهُ يَاسَيِّدُ مَنْ هُوَ . أَجَابَ يَسُوعُ هُوَ ذَاكَ ٱلَّذِي أَغْمِسُ أَنَا ٱللُّقْمَةَ وَأُعْطِيهِ . فَغَمَسَ ٱللُّقْمَةَ وَأَعْطَاهَا لِيَهُوذَا سِمْعَانَ ٱلْإِسْخَرْيُوطِيِّ . فَبَعْدَ ٱللُّقْمَةِ دَخَلَهُ ٱلشَّيْطَانُ . فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ مَا أَنْتَ تَعْمَلُهُ فَٱعْمَلْهُ بِأَكْثَرِ سُرْعَةٍ . وَأَمَّا هٰذَا فَلَمْ يَفْهَمْ أَحَدٌ مِنَ ٱلْمُتَّكِئِينَ لِمَاذَا كَلَّمَهُ بِهِ . لِأَنَّ قَوْماً إِذْ كَانَ

ٱلصُّنْدُوقُ مَعَ يَهُوذَا ظَنُّوا أَنَّ يَسُوعَ قَالَ لَهُ ٱشْتَرِ مَانَحْتَاجُ
إِلَيْهِ لِلْعِيدِ . أَوْ أَنْ يُعْطِيَ شَيْئاً لِلْفُقَرَاءِ
فَذَاكَ لَمَّا أَخَذَ ٱللُّقْمَةَ خَرَجَ لِلْوَقْتِ . وكَانَ لَيْلاً .

(يوحنا ١٣ : ٢١ - ٣٠)

فى تأملنا فى هذه الفقرة تتضح لنا أكثر من صورة . . فهناك خيانة «يهوذا» تبدو فى أشنع صورها . لقد كان «يهوذا» ممثلا على مسرح الرياء أتقن دوره إلى أبعد حدود الاتقان . كان مرائياً ومنافقا كبيراً . وهذه مؤهلات فى الأجرام لاتتوفر لكثيرين . فلو عرف بعض التلاميذ ما كان مزمعاً أن يفعله .. لو ادركوا مخطط الخيانة الذى كان يدور فى خلده... لو علموا أنه بعد ساعة أو بعض ساعة، سيأتى إليهم محوطاً بثلة الغدر والحقد والدماء ، فمن الأكيد أنه ما كان ممكناً أن يغادر العلية حياً. بل كان سيلقى جزاءه العاجل ، وتتوقف للنهاية مهمته الدموية . لقد كان ليهوذا مظهر قديس، وقلب شيطان . كان فى كل لحظة يتظاهر بعمل محبة ، أو يتحدث بكلمة إخلاص ، أو يظهر روح التقوى ، حتى انخدع الجميع بمظهره — عدا «يسوع» . لم يكن «يهوذا» مجرما خلع عنه برقع الحياء فحسب ، بل كان مرائيا ومنافقاً كبيراً . هنا تحذير لنا . إننا بمظهرنا قد نخدع إخوتنا . ولكن لاشىء يخفى عن عينى القدير ...

ولكن هناك ما هو أكثر من هذا . حينما نتأمل فى منطق الأحداث فى تلك الليلة ، فاننا نرى فيها أكثر من نداء يدعو الخائن للتروى والرجوع إلى عقله وضميره .

١ — فهناك وضع الأرائك حول المائدة . فلقد جرت العادة فى تلك الأيام أن يتكىء الطاعمون على المائدة لا أن يجلسوا إليها معتدلين كما نجلس نحن فى أيامنا الحاضرة . لقد كان الاتكاء من دلائل العز والرفاهية .

لذلك فقد كانت الموائد منخفضة فى مستواها ، مصنوعة من الخشب الصلد . وكانت الأرائك تصف حولها من الجوانب الثلاث . أما الجانب الرابع فقد كان مفرغا يصل إلى داخل المائدة بحيث كان منظرها يشبه حرف U فى اللاتينية . وكان مركز الأعزاز أو الصدارة للضيف الممتاز هو فى قلب الجانب المفرغ . وكان الضيوف يتكئون على جنوبهم مسندين رؤوسهم بالأيدى اليسرى ، أما اليمنى فيتناولون بها الطعام . بهذه الصورة يكون رأس الواحد بالفعل على صدر زميله المتكىء خلفه . ولقد كان « يسوع » يجلس فى قلب المكان المفرغ من المائدة . وعن يمينه كان يتكىء التلميذ الذى كان « يسوع » يحبه ، كما أراد كاتب البشارة أن يخفى اسمه . فحين كان يرجع برأسه إلى الوراء كان يسند رأسه بالفعل على صدر «يسوع» — ومع أن المرجح أن التلميذ الذى كان «يسوع» يحبه هو يوحنا كاتب البشارة ، إلا أن هناك من ظن أنه «لعازر» ، لأنه قيل عن «لعازر» أن «يسوع» كان يحبه . (يوحنا ١١ : ٣٦) . وهناك من قال بأنه الشاب الغنى ، لأنه ورد القول عنه فى بشارة مرقس ، إن «يسوع» نظر إليه وأحبه (مرقس ١٠ : ٢١) وهناك من قال إنه تلميذ آخر مجهول ، كان أثيراً عند «يسوع» وعزيزاً عليه معزة الأبن . وهناك من ظن أن هذا القول لايشير إلى شخص مادى من لحم ودم ، بل هو إشارة إلى مثالية التلمذة فى ارتباطها بقلب «يسوع» ! ولكننا نؤكد مرة أخرى ، إستناداً على أقوال الآباء ، ويشاركنا غالبية المفسرين فى هذا الرأى ، إن التلميذ الذى كان «يسوع» يحبه ، لم يكن سوى «يوحنا» ، وأنه بصفته كاتبا البشارة ، كان يخجل من ذكر اسمه صراحة .

ولكن الذى يهمنا فى هذه الصورة هو مكان «يهوذا» . من الواضح من تفاصيل القصة ، أن «يهوذا» كان فى وضع قريب جدا ، بحيث يمكن أن يهمس إليه السيد بحديث يسمعه هو ، ولا يسمعه بقية التلاميذ . و«يوحنا» يثبت لنا حديثا سريا أو شبه سرى ، دار بين «يسوع» وبين «يهوذا» . ولئن كان الأمر كذلك فهناك موضع واحد ، لابد وأن يكون قد احتله ذلك التلميذ الخائن ...... لابد وأنه كان متكئا على يسار «يسوع» . وكما كان يوحنا فى حضن «يسوع» ، هكذا كان «يسوع» إذا أسند رأسه إلى الوراء يسنده على صدر «يهوذا» ! ! ومما يستدعى التأمل أيضاً ، أن الوضع اليسار بجوار المضيف ، كان أسمى مراتب الشرف وكان يحتله أقرب الأصدقاء . وأننا نتصور المسيح فى بداية حفل العشاء يقول لتلميذه الخائن : « يهوذا . إن لى حديثاً معك الليلة . تعال واتكىء إلى جانبى» لقد كانت دعوة السيد ليهوذا ، نداء من نداءات المحبة وجهه إلى قلبه .

٢ - ولكن ، هناك ما هو أكثر من هذا . فنحن نرى «يسوع» يغمس اللقمة ويضعها فى فم تلميذه . إن قيام المضيف بنفسه بكسر الخبز ، وغمسه فى الصحفة ، وتقديمه إلى ضيفه ، إشارة إلى أسمى مراتب الصداقة والألفة . فى العهد القديم فى سفر «راعوث» نقرأ عن «بوعز» أنه أكرم «راعوث» إكراماً زائدا ، حينما دعاها لتغمس لقمتها فى صحفة الخل معه . (راعوث ٢ : ٤) ولكن ما هذا إزاء من يقوم بنفسه بكسر الخبز ، وغمسه فى الصحفة بيده ، وإعطائه لمضيفه !

فى لمسة طريفة من لمسات الحياة فى فلسطين ، يحدثنا « ت.ى . لورنس » إنه جلس مع الأعراب فى خيامهم ، وكان مضيفه الثرى يكرمه . فيقطع قطعة كبيرة من الخروف المشوى بأكمله ، ويضعها فى يد «لورنس» - صورة للأكرام العربى الزائد - ثم يتبع ذلك ، الأصرار على أن يأكلها كلها

بشحمها المكتنز . وهكذا حينما كسر «يسوع» الخبز ، وغمس اللقمة ، وأعطى تلميذه ، كان يعلن له عواطف قلبه وحبه ، ومعزته لديه . نلاحظ أنه حين تقدم «يسوع» باللقمة ، لم يجد «يهوذا» فى هذا تصرفا غريباً . ولعل السيد اعتاد أن يعامله بهذا التدليل . لقد كان «يهوذا» أثيراً عند المسيح .

هنا يكمن جوهر المأساة . لقد تقدم «يسوع» لهذا القلب المتحجر بأكثر من نداء من نداءات المحبة ، وبأكثر من تصرف ينطق بالاعزاز . ولكن قلب يهوذا كان موصداً متجمداً . . الرب يجنبنا هذه الحالة المرة التى تنتهى بصاحبها إلى المصير المظلم القاسى .

نداءُ المحبة الأخير (تابع)

(يوحنا ١٣ : ٢١ — ٣٠)

وهكذا تستمر أدوار الدراما الحزينة إلى النهاية ، فنرى «يسوع» يكرر نداء المحبة المرة تلو الأخرى ، مقدما الفرصة بعد الفرصة لتلميذه ، لكى يرجع إلى صوابه ، فاتحاله أحضان محبته وحنانه وغفرانه . ساعيا ليخلصه من المصير القاسى الذى ينتظره .

ثم تأتى اللحظة الحاسمة فى المسرحية الكئيبة ، هنا يبدو أعظم انكسار فى تاريخ الإنسان ، حينما انكسرت محبة «يسوع» ، أمام عناد وقساوة وخيانة «يهوذا» . فاذا رب الجنود يهمس لتلميذه فى نغمة حزينة : « ما أنت تفعله فافعله بأوفر سرعة » . وكأنى بيسوع قد نفض يده منه إلى الأبد .. وكأنى به قد فشل فى إصلاح تلك الحالة ، فاستسلم فى النهاية للواقع المرير . . ما أنت فاعله ، فقم به ، وأتممه دون ابطاء ..

ومع ذلك لم يدرك التلاميذ شيئا . لقد ظنوا أن الرب يأمر تلميذه بعمل استعدادات للفصح القادم ، أو أن يعطى شيئا للفقراء .. فلقدجرت العادة فى العيد ، أن من له ينبغى أن يشارك من ليس له ، فالعيد فرصة الأحسان والعطاء للفقراء . إلى يومنا الحاضر جرت العادة فى الأعياد على تقديم الهدايا للمعوزين ، وخاصة فى الأعياد التى تعقب الأصوام المقدسة. وهكذا ظن التلاميذ أن «يسوع» أرسل حامل الصندوق على عجل ، لتقديم المعونة الواجبة للفقراء فى مناسبة عيد الفصح ،حتى يشتركوا مع المعيدين فى طعامهم وأفراحهم .

وحالما أخذ«يهوذا» اللقمة من السيد ، وبلعها ،إذا بالشيطان يملأ كيانه. إنه لأمر مخيف حقا ،أن الواسطة التى قدمت بروح المحبة ، وندائها الرقيق، تتحول إلى واسطة لعنة وقساوة . ولا قوة تستطيع أن تفعل ذلك إلا قوة الشيطان، فى استسلام الإنسان له ،وطاعتهالعمياء لإرشاداته . فهو يتخذ حتى وسائط النعمه والحياة ، ليحولها إلى وسائط لعنة وهلاك . إنه يأخذ المحبة ، تلك الزنبقة الإلهية التى وهبت للخليقة بقصد إلهى مجيد ، ويحولهاإلىشهوة ، وهو يأخذ القداسة فى حياة انسان ، ويحولها إلى غرور وتعال علىالآخرين، وهو يأخذ روح النظام ،ويحوله إلى مشادة واضطهاد . ينبغى أن نكون على حذر. حتى لا يدخل الشيطان جنة حياتنا ، ويعبث فيها فسادا . ويستخدمها لأغراضه الشريرة .

وهكذا خرج يهوذا من الدائرة - وكانليلا . إن البشير يوحنا لهالقدرةعلى استخدام الكلمة القوية المعبرة المناسبة،فى وضعها المناسب . كان ليلا لأن النهار كانقد مضى والشمس غربت . وكان ليلا مننوع أقسى وأشد مرارة بالنسبة للتلميذ الخائن . فى الوقت الذى يتباعد فيه الإنسان عن دائرة نور

العالم .. عن دائرة المسيح ، ليتبع أهواءه وشهواته ، يخرج إلى دائرة الظلمة الخارجية ، حيث البكاء وصرير الأسنان .. فى الوقت الذى يصغى فيه إلى اغراءات الشرير ، ويتبع رغباته الباطلة يصبح كالأعمى ، فى الظلمة يسلك ولا يعلم أين يمضى ، لأن الظلمة قد أعمت عينيه ...فى الوقت الذى يعمى الحقد القاتل بصيرة الإنسان ، فيفعل كل شىء مدفوعا بروح الإنتقام ، يصبح النور أمامه ظلاما . فى الوقت الذى يدير فيه الإنسان ظهره ليسوع المسيح ، يدخل فى دائرة الليل الأبدى .

إن أخضعنا ذواتنا للمسيح ، نسلك فى النور . لكن إن أدرنا ظهورنا له نخرج إلى الظلمة . أمامنا طريقان : طريق الليل ، وطريق النهار ، ليت الإله السرمدى يعطينا الحكمة فنحسن الإختيار حتى لا نصل إلى مصير الخيانة والغدر ... ذلك المصير المظلم القاسى .

أركان المجد الأربعة

فَلَمَّا خَرَجَ قَالَ يَسُوعُ ٱلْآنَ تَمَجَّدَ ٱبْنُ ٱلْإِنْسَانِ وتَمَجَّدَ ٱللهُ فِيهِ . إِنْ كَانَ ٱللهُ قَدْ تَمَجَّدَ فِيهِ فَإِنَّ ٱللهَ سَيُمَجِّدُهُ فِي ذَاتِهِ وَيُمَجِّدُهُ سَرِيعاً .

(يوحنا ١٣ : ٣١و٣٢)

فى هذه الفقرة نكتشف أركانا أربعة للمجد :

١ – يقول «يسوع» الآن تمجد ابن الإنسان. هذا هو مجد الصليب، مجد ميتة العار . لقد توقف الصراع وزالت الشكوك ، ومضى «يهوذا» إلى غايته ، وأصبحت للصليب واقعيته . ولقد كان مجد «يسوع» فى صليبه .. فى تضحيته العظمى .. فى كفارته ، هذا هو الغرض من مجيئه . بل هذا هدف حياته . إن أعظم مجد فى الحياة ، هو المجد المبنى على التضحية . ونحن نعرف ذلك جيدا ، وعلى الأخص فى أوقات الحروب . فنحن نضع هالات المجد ليس حول هامات الأحياء ، بل حول صور الشهداء . . أولئك الذين ضحوا بحياتهم فى سبيل غيرهم .

وفى ميدان الطب والتمريض ، لا نخلد ذكرى أولئك الذين كرسوا الأموال ، واقتنوا الممتلكات ، بل للذين ضحوا فى سبيل اكتشاف سر مرض من الأمراض ، وطريق العلاج منه . إن منطق التاريخ ينادى ، أن أولئك الذين بذلوا العرق والدمع والدم قد دخلوا إلى الأمجاد . فقد تنسى البشرية الرجل الناجح ، لكنها لا يمكن أن تنسى الرجل المضحى .

٢ — وفى «يسوع» «الابن المبارك»، فى ابن الإنسان ، تمجد الله الآب . فطاعة الابن مجدت الآب . هناك طريق واحد يثبت فيه الإنسان محبته وإعجابه وثقته بقائده . وذلك باطاعة أوامره حتى لو انتهت به إلى نهاية قاسية ، الطريق الوحيد الذى يكرم به الجندى قائده هو بالطاعة العمياء دون أدنى اعتراض أو تساؤل ، الطريق الوحيد الذى يكرم به الإبن أباه ، هو طاعته له . ولقد أعطى «يسوع» المجد الأعظم ، والأكرام الأعظم لله ، فى طاعته الكاملة للآب .. الطاعة التى أوصلته حتى إلى ميتة العار . . موت الصليب .

٣ — وفى «يسوع» مجد الله ذاته . لعله من الأمور العجيبة التى تدعو للتأمل ، أن مجد الله الأعظم ، يكمن فى التجسد وفى الصليب . فلا مجد يعدل مجد المحبة . لو بقى الله فى محيطه السرمدى بعيدا عن آلام البشر ومتاعبهم وحاجاتهم ، معظما ، ممجدا ، رفيعا ، لا تصل إليه مشكلات البشر ، لكان البشر يخشونه ، ويعبدونه عبادة الخوف ، لكنهم ما كانوا يحبونه محبة القلب . إن ناموس التضحية لا ينطبق على الأرض فحسب ، بل يسود أيضا على دوائر السماء العليا ، فى التجسد وفى الصليب أعلنت أعظم أمجاد الله .

٤ — وهذه الفقرة تؤكد لنا أن الله سيمجد «يسوع» .

هذا هو الوجه الآخر للمسألة . صحيح أن الصليب فى حد ذاته يمجد يسوع المصلوب . لأنه أسمى مراتب التضحية والفداء . ولكن بعد الصليب ، والموت والقبر ، ستأتى أمجاد وأمجاد . فهناك القيامة ، وهناك الصعود . . وهناك انتصار المسيح النهائى ، فى مجيئه الثانى لإقامة الموتى ، وتمجيد المؤمنين .

لقد رأى « يسوع » فى الصليب مجده . ولكن اليوم آتى ، واليوم أيضا سيأتى ، حينما يستعلن هذا المجد للعالم أجمع ، إن تمجيد المسيح ينبغى أن يتبع اتضاعه . وتتويج المسيح وجلوسه على العرش ينبغى أن يتلو صليبه وهوانه . إن إكليل الشوك ، ينبغى أن يتحول إلى تيجان المجد . إن الحملة هى حملة الصليب ، ولكن الملك ينبغى أن يدخل إلى الوجود فى موكب انتصارى يراه العالم كله .

وصية والوداع

يَا أَوْلاَدِي أَنَا مَعَكُمْ زَمَاناً قَلِيلاً بَعْدُ . سَتَطْلُبُونَنِي
وَكَمَا قُلْتُ لِلْيَهُودِ حَيْثُ أَذْهَبُ أَنَا لاَ تَقْدِرُونَ أَنْتُمْ
أَنْ تَأْتُوا أَقُولُ لَكُمْ أَنْتُمُ الْآنَ . وَصِيَّةً جَدِيدَةً أَنَا
أُعْطِيكُمْ أَنْ تُحِبُّوا بَعْضُكُمْ بَعْضاً . كَمَا أَحْبَبْتُكُمْ أَنَا
تُحِبُّونَ أَنْتُمْ أَيْضاً بَعْضُكُمْ بَعْضاً . بِهٰذَا يَعْرِفُ الْجَمِيعُ
أَنَّكُمْ تَلاَمِيذِي إِنْ كَانَ لَكُمْ حُبٌّ بَعْضاً لِبَعْضٍ .

(يوحنا ١٣ : ٣٣ - ٣٥)

فى هذه الفقرة ، يقدم معلم الأجيال وصيته الوداعية لتلاميذه . لقد أصبح الوقت مقصراً منذ الآن . وإن كان لهم أن يسمعوا صوت الحبيب ، فليستمعوا إليه الآن وإلافلا . إنه يعد العدة للرحلة المنفردة ، التى لن يرافقه فيها أحد منهم إنه على وشك أن يبدأ السير فى الطريق المنفرد ، الذى لايشاركه فيه إنسان . وهذا قبل أن يبدأ مسيرته إلى الوجود الذى خلف الحجاب ، فليتقدم إليهم بوصيته الوداعية ، فيقول لهم : «وصية جديدة أنا أعطيكم أن يرتبط أحدكم بالآخر برباط الحب ، الذى ارتبطت به معكم ، وأن يظهر أحدكم للآخر روح الحب الذى أظهرته من نحوكم ، وأن يضحى أحدكم فى سبيل الآخر ، إن اقتضى الأمر ، بنفس التضحية التى ضحيتها من أجلكم ، والتى سوف

أضحى — وصية جديدة أنا أعطيكم أن تحبوا بعضكم بعضا . كما أحببتكم أنا تحبون بعضكم البعض » ، ترى ماذا يعني هذا بالنسبة لنا ؟ كيف أحب تلاميذه ؟

١ — أولا لقد أحب «يسوع» تلاميذه بكل إيثار وتفضيل . بكل نكران للذات ، فى أسمى درجات المحبة الإنسانية لابد وأن يوجد شيء من الذات . فنحن نحب ، و محبتنا تفكر فيما يمكن أن نفيده من وراء هذه المحبة . . . على أقل تقدير إن لم يكن هناك الكسب المادى ، فالكسب الأدبى — السمعة الطيبة بين الناس ، ومحبة الآخرين لنا . أو السعادة التى نشعر بها حينما نحب الآخرين ونخدمهم ، وتجنب الفراغ الموحش إذا اعتزلنا عنهم فى دائرة الأنانية ، هكذا نفكر ، وهكذا يدفعنا تفكيرنا ، وعلى هذا الأساس نحب .

ولكن «يسوع» فى محبته ، لم يفكر قط فى راحته ، ولا سعادته ، ولا كسبه الأدبى ، أو المادى . لقد كانت طبيعته أن يحب ، ويضحى ، ويبذل ، ولا ينتظر شيئاً . هذه هى المحبة الأسمى .

٢ — ولقد أحب تلاميذه بأسمى درجات التضحية . فلم تكن هناك حدود للمحبة التى تقدم بها . إننا نحب فى دائرة محدودة ونتوقف عند حدود تلك الدائرة . ولكن يسوعنا أحب وضحى حتى وصل به الأمر أخيراً إلى التضحية بنفسه ، وكما قيل : « الجود بالنفس أسمى غاية الجود » . إن محبته لم تستعظم أية تضحية . ولم تتراجع أمام عظم الكلفة . فلو اقتضت المحبة الصليب فرحبا بالآلام ، والهزء ، والعار ، والجلجثة . و . الصليب . إننا كثيراً ما نخطيء فهم المحبة ، فنظن أنها ينبغى أن تضمن لصاحبها السعادة . ولكن طريقها قد يكون ممتلئاً بأشواك الألم والتضحية ، وربما الموت . . .. نعم قد تتطلب المحبة الصليب .

٣ — ويسوع أحب تلاميذه بوعى وإدراك . لقد كان يعرفهم ، ويدرك كل شى عنهم . كان يعرف ضعفهم ، وقصورهم ، وعجزهم عن الوصول إلى الكمال ، وتخلفهم فى مبادلته محبة بمحبة . ومع كل هذا أحبهم . كان يعرف خيانة «يهوذا» ، وجبن «بطرس» ، وشك «توما» . وعدم ثبات التلاميذ أمام العاصفة ، ومع هذا أحبهم . إن الذين يحبوننا . ويتفانون فى حبنا ، هم أناس لايعرفون حقيقتنا ، وربما يتصورون فينا المثالية . فإذا ظهرت عيوبنا بردت محبتهم . انهم لايعرفوننا ، لأنهم لايعاشروننا ، وهكذا يشاهدوننا فى أبهى زينتنا . ولكنهم إذا عاشوا معنا ، وكانت لهم العشرة ، فإنهم مهما حاولنا أن نخفى عنهم نقصاتنا ، لابد أن يكتشفوا الحقيقة ، يوما أو آخر ، وهكذا نسقط من اعتبارهم . ولكن «يسوع» عاشر تلاميذه ، أكل معهم ، وشرب ، وتعب ، ونام معهم تحت سقف واحد . عرفهم فى القرية ، واختبرهم فى السفينة فى البحر ، وسار معهم فى المسيرة الموحشة ، واختبر معهم حر الصيف وبرد الشتاء . لقد عرف كل شىء عنهم ، ومع ذلك أحبهم .

قد يتمثل البعض بالقول ، إن الحب أعمى . ليس الأمر هكذا مع الفادى ، لأن الحب المبنى على الغفلة ، ينتهى حينما تنفتح العينان . أما المحبة الحقيقية ، فهى دائماً مفتوحة العينين . انها لاتحب ماتتخيله فى الشخص المحبوب ولكنها تحبه كما هو ، بعيوبه وضعفاته ، ومميزاته وحسناته . إنها لا تحب جانباً واحداً فقط من المحبوب ، ولكن المحبوب بأكمله . انها لا تحب للأحسن ، ولكنها تفيض بمحبتها على فرض الأسوأ . إن قلب «يسوع» كبير إلى هذا الحد حتى يحبنا كما نحن .

٤ — ولقد أحب السيد تلاميذه بروح الغفران . فأول من فيهم ، التلميذ المقدام ، «سمعان بن يونا» سينكره . وكلهم فى الساعة الحاسمة سيهجره

ويهرب بعيداً . - في وجوده معهم لم يفهمه واحد منهم . لقد كانوا عمياناً أو أقرب إلى العميان ، قلوبهم مغلقة ، أفهامهم بطيئة وفي النهاية قاموا بدور الجبان الرعديد ، فلم يثبتوا أمام العاصفة . ولكن رب الغفران لم يحتجز في قلبه أية اساءة. فلم توجد خطيئة أكبر من أن يغفرها . المحبة التي لا تعرف كيف تغفر مآلها إلى الذبول والموت ، فنحن بشر ضعفاء . وهناك طبيعة غبية في كياننا ، تدفعنا إلى أن نوجه الاساءة لمن تقدم إلينا بالخير . لهذا السبب عينه ، فإن المحبة الحقيقية ينبغي أن تكون محبة غافرة صفوحة ، فإن لم تكن كذلك فمصيرها إلى الانتهاء .

الوفاءُ المترنح

قَالَ لَهُ سِمْعَانُ بُطْرُس ياسَيِّدُ إِلَى أَيْنَ تَذْهَبُ . أَجَابَهُ يَسُوعُ حَيْثُ أَذْهَبُ لَاتَقْدِرُ ٱلْآنَ أَنْ تَتْبَعَنِي ولكِنَّكَ سَتَتْبَعُنِي أَخِيراً . قَالَ لَهُ بُطْرُس ياسَيِّدُ لِمَاذَا لَا أَقْدِرُ أَنْ أَتْبَعَكَ ٱلْآنَ . إِنِّي أَضَعُ نَفْسِي عَنْكَ . أَجَابَهُ يَسُوعُ أَتَضَعُ نَفْسَكَ عَنِّي . ٱلْحقَّ ٱلْحَقَّ أَقُولُ لَكَ لَا يَصِيحُ ٱلدِّيكُ حَتَّى تُنْكِرَنِي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ

(يوحنا ١٣ : ٣٦ — ٣٨)

ترى ، ماهو الفارق بين «يهوذا الاسخريوطي» ، و«سمعان الملقب» بطرس؟ لقد أسلم «يهوذا» سيده . وأنكره «بطرس» في ساعة الحاجة المتأزمة ، بحلف ولعن . ومع ذلك ففي الوقت الذي تذكر فيه يهوذا بكل احتقار ، ونجلله بالخزي والعار ، نحيط «بطرس» بهالة رقيقة حلوة . لماذا؟ أعتقد أن السبب يكمن في طبيعة السقطتين فخيانة «يهوذا» كانت اختيارية مائة في المائة ، قام بها . صاحبها في ملء الصحو واليقين ، وخطط لها بتدبير سابق ، بتؤدة وروية . أو كما يقول الإنجليز لقد ارتكب جريمته في الدم البارد His crime was carried out in cold blood . ولقد دبر لجريمته وأصر عليها ، في الوقت الذي تقدم فيه سيده إليه بنداء المحبة تلو النداء .

أما «بطرس» فلم يدر لسقطته . لقد انتزعته العاصفة المفاجئة انتزاعا من ثباته فسقط . لقد ضعفت ارادته ضعفا مفاجئا . ولكن القلب كان سليما وكانت حالة مرضية ما لبثت أن زالت، وعاد صاحبها سليما معافى كما كان .

إن الفارق بين خطية «يهوذا» ، وخطية «بطرس» ، أن الأولى كانت إختيارية استغرقت فى إعدادها ، وتدبيرها ، وتنفيذها وقتا طويلا ، أما الثانية، فكانت اضطرارية بنت لحظتها وقعت ، وخلفت بعدها أسى العمر . هناك فارق بين الخطية الشاعرة بمكانها وبوجودها ، بقيمتها ، بدوافعها ، وبنتائجها ، وبين الخطية القاهرة التى تباغت الإنسان فى ضعفه . أو فى ظروفه ، الخاصة حتى يفقد وعيه ، ولايدرى ما هو فاعل . الرب يحمينا من أن نفعل بأنفسنا ، أو باخوتنا شيئاً رديئاً !

وهناك طيف جميل جذاب ، فى علاقة «يسوع» مع «بطرس». فلم يعرف إنسان إنسانا ما ، قدر ما عرف «يسوع» تلميذه .

١ - لقد كان «يسوع» يعرف «بطرس» فى ضعفه . كان يعرف أنه إنسان مندفع . فهو متقلقل متزعزع كالموجة المتأرجحة . كان يعرف أن «بطرس» قد اعتاد أن يتكلم بدافع عواطفه قبل أن يجتر الكلام فى فكره كان يعرف قوة اخلاص «بطرس» ، وضعف عزيمته ، لقد كان السيد يعرف تلميذه تمام المعرفة .

٢ - وكان يعرف «بطرس» فى قوة محبته ، لقد كان يعرف أنه مهما ضعف أو تعثر فهو ما زال المحب الملتهب حباً . كثيراً ما نقابل باساءة من أخ ، أو بعثرة من صديق ، أو بشىء يجرحنا من محب ، آه لو نعرف أن هذه الأساءة أو العثرة أو الجرح ،ليس نابعا من الإنسان الحقيقى ، وأن

خلف المظهر الجاف يوجد قلب ناصع البياض ؟ إن البعض كثمرة جوز الهند التى تبدو جافية خشنة فى مظهرها، وفى الداخل بيضاء وصافية ، فالإنسان الحقيقى ليس هو الذى يجرحنا ... الجوهر ليس القضية الطارئة ، أو الكلمة المتسرعة ، إنه المحبة الكامنة، لقد كان «يسوع» يعرف «بطرس» ، يعرف محبة «بطرس» ، وصدق «بطرس» ، وإخلاصه ، وقلبه الكبير . كما كان يعرف تهوره وتسرعه وضعفه واندفاعه ، وكم نوفر على نفوسنا الكثير من المتاعب والآلام لو نفذنا ببصائرنا إلى الجوهر الطيب ، وأغفلنا السقطة الطارئة .

٣ - لقد كان السيد يعرف ما كانه «بطرس» وما يكونه ، لكنه عرف أيضاً ما سوف يكونه . لقد عرف أن تلميذه ستتعثر قدماه فى الطريق عثرة طارئة . لكنه كان موقنا أنه سيأتى اليوم الذى تسير فيه نفس القدمين إلى صليب الاستشهاد . هنا نرى لمحة مشرقة من عظمة «يسوع» وجلاله : إنه يرى البطل المغوار فى الرعديد الجبان ! يرى فينا لا ما نحن عليه ، بل ما يستطيع هو أن يصنعه بنا بقوته ، وبروحه ، وبعمل نعمته ، إن «يسوع» هو صاحب القلب الكبير الذى ينفذ إلى أبعد مما نحن عليه ، فيرى ما سنكونه ، وله بالتالى النعمة العظمى ، والقوة التى تجعلنا نصل إلى قمة انتظاراته فينا .

الأَصْحَاحُ الرَّابعُ عَشَرَ

موعد المجد

لَاتَضْطَرِبْ قُلُوبُكُمْ . أَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ فَآمِنُوا بِي. فِي بَيْتِ أَبِي مَنازِلُ كَثِيرَةٌ . وَإِلاَّ فَإِنِّي كُنْتُ قَدْ قُلْتُ لَكُمْ . أَنَا أَمْضِي لِأُعِدَّ لَكُمْ مَكَاناً . وَإِنْ مَضَيْتُ وَأَعْدَدْتُ لَكُمْ مَكَاناً آتِي أَيْضاً وَآخُذُكُمْ إِلَيَّ حَتَّى حَيْثُ أَكُونُ أَنَا تَكُونُونَ أَنْتُمْ أَيْضاً .

(يوحنا ١٤ : ١ — ٣)

هنا نرى عقارب الزمن تقترب من الساعة الحاسمة . وها شمسهم المشرق الساطع سيغرب فيساعة الظهيرة ، ومن بعده يصبح العالم بالنسبة لهم خراباً ويأساً وظلاماً . في مثل تلك الحالة ، ليس أمامهم سوى سبيل واحد : أن يتمسكوا بإيمانهم بالله .. أن يمسكوا بالله بيد الثقة واليقين . لقد اجتاز المرنم في القديم في ظروف نظير هذه . وهكذا نستمع إلى نغمة الثقة تتردد في أكثر من ترنيمة« لقد كاد يغشى علي[1] لولا أنني آمنت بأن أرى جود الرب في أرض الأحياء » (مزمور ٢٧ : ١٣) . « لأنه إليك ياسيد يارب عيناي بك

---

(١) حسب الترجمة الإنكليزية المعتمده .

احتميت » (مزمور ١٤١ : ٨) . حينما أعيت روحى فى ذكرت الرب فجاءت صلاتى قدامه » ألخ . هناك أوقات تقف فيها القوى عاجزة ، والمنطق حائرا ، والنفس خائرة ، فى مثل تلك الأوقات حيث يقصر الدليل يتقدم الإيمان ليمسك بالأيدى ، ويقوم الركب ، ويشدد الكيان . هنا علينا أن نقبل بتسليم الثقة ، مالا نستطيع أن ندركه بالعقل البشرى .علينا فى أحلك الساعات أن نؤمن أن هناك قصداً مستتراً وراء حياتنا وضيقاتنا ، وآلامنا . علينا أن ندرك أن اليد التى تكتب مخطط مصيرنا ، هى اليد الالهية المحبة . وهكذا تصبح التجربة محتملة » ويحدث أنه فى وقت المساء يكون نور » .

ولكن «يسوع» يضيف شيئا جديداً فيقول : « زيادة على إيمانكم بالله ضعوا ثقتكم فى ... علاوة على تمسككم بالله تمسكوا أيضاً بى » فان كانت السماء قد أشرقت بنور الرجاء أمام المرنم فى ظلمته ، فى تلك العهود السحيقة ، عهود الناموس قبل أن يعلن الله قلبه النابض فى ابن محبته ، فكم بالحرى تشرق لنا نحن الذين عرفنا إشراقة الرجاء فى وجه يسوع المسيح . فيسوع المسيح عطية السماء للأرض . البرهان الأعظم على أن الله على استعداد أن يهبنا كل شىء فيه . أو كما عبر عن ذلك رسول الأمم «الذى لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين كيف لا يهبنا أيضاً معه كل شىء ؟ (رومية ٨ : ٣٢) ان كنا نؤمن بأن الله هو كما أعلنه لنا «يسوع المسيح».. إن كنا نؤمن أننا فى «يسوع» نرى صورة الله وجوهره ، ففى نور ذلك الإيمان ينتفى كل ظلام للشك فى محبة الله،ويصبح من المحتمل لنا أن نتقبل كل شىء برضى وتسليم ، حتى ولو لم تتكشف لنا حقيقة الأشياء . وهكذا فى وسط بحر التجارب الهائج المائج ، نتمسك بمرساة الرجاء الثابتة التى تحمينا من الهلاك .

ثم يقول رب المجد : « فى بيت أبى منازل كثيرة وأما بيت الآب فهو ولا شك رمز للسماء .. ولكن ماذا يعنى بالقول إن فى السماء منازل كثيرة ؟ ... إن الكلمة المستخدمة منازل هى فى الأصل « موناى » . وهناك ثلاث تفسيرات محتملة لما تعنيه هذه المنازل ..

١ ــ الإحتمال الأول يرجع بنا إلى إيمان اليهود وعقيدتهم عن العالم الآخر . فلقد كانوا يعتقدون أن هناك درجات مختلفة أو مراتب فى البركة والنعمة للنفوس المطوبة فى العالم الآخر ، تبعاً لدرجة صلاحهم فى حياتهم على الأرض . فى « سفر أسرار أخنوخ » وهو أحد الأسفار غير القانونية نقرأ : « فى العالم الآتى هناك منازل كثيرة معدة للبشر . صالحة للصالحين ورديئة للأردياء ، وعلى أساس العقيدة اليهودية ، نستطيع أن نشبه السماء بمكان فسيح به أكثر من غرفة أو منزل . وكل منزل يبنيه الإنسان بحسب استحقاقه على الأرض وأعماله .

٢ ــ فإذا رجعنا إلى الكتاب الإغريق ، نجد أحدهم « بوزانياس » يتحدث عن المنازل كدرجات على الطريق ، أو مراتب للبشر . وعلى أساس هذا المعنى ، تشير إلى درجات تقدمية ، يتدرج فيها السائح إلى السماء ، من تقدم إلى تقدم ، ومن ارتفاع إلى ارتفاع . أى أن هناك مايشبه التطور الإرتقائى فى حياتنا فى العالم الآخر . مثل هذا الرأى اعتنقه كثيرون من مفكرى المسيحية القدامى . فلقد نادى به «أوريجانوس» ، فقال إنه حينما تنتهى حياة إنسان ، فإن روحه تنتقل إلى مكان مافى الأرض ، يعرف بالفردوس . وهناك يتلقى التعليم والتدريب والتهذيب ، حتى يصبح أهلا لأن ترتقى روحه إلى أعلى . وهكذا تمر الروح فى ارتقاء فى سلسلة من المنازل «موناى» التى يدعوها الأغريق دوائر ، ويدعوها المسيحيون

سموات ، حتى تصل أخيراً إلى المملكة السماوية. إن كان هذا حقاً ، فان الروح تتبع يسوع في هذا الإرتقاء ، الذى عبر عنه كاتب رسالة العبرانيين بأنه «أجتاز في السموات» (عبرانيين ٤ : ١٤) . وهناك تفسير يتقدم به «إرنيوس» مستندا إلى أقوال السيد في مثل حبة الحنطة التي تأتى باثمار ثلاثين ، وستين ، ومائة ، (متى ١٣ : ٨) فيقول إن هذا يشير إلى حصاد متباين . وبالتالي إلى مكافآت متباينة . فالبعض يقضون أبديتهم في الفردوس ، والبعض الآخر يصبحون مجرد مواطنين في المدينة السماوية ، ولكن هناك البعض الذين يتمتعون برؤية وجه الله ، والتمتع به إلى أبد الآباد. وأيضا نادى أكلمندس الاسكندري ، بأن هناك درجات في المجد : وأن هذه الدرجات والمكافآت تختلف على أساس سمو الإنسان وتقدمه في حياة القداسة هنا على الأرض .

ومما لا شك فيه ، أن نظرية كهذه لها جانبها الجذاب ، فالتطور والإرتقاء ليس غريباً عن نواميس الحياة الأرضية ، ويكون شيئاً جميلا جذاباً لو انطبق بالتالي على نواميس الحياة السماوية . وبحسب فكرنا الجسدى المادى نقول إننا لانتصور نفسا خرجت من حدود المادى ، نقول إننا لانتصور نفسا خرجت من حدود المادة وقيودها ، وضعفها ، وقصورها ، تصل فجأة إلى الأبهاء المجيدة حيث النور الذى لايدنى منه . إن الإنسان منا لو قضى فترة في غرفة مظلمة ، فإنه يحتاج إلى وقت طويل ، وتدريب أطول ، حتى يعرف كيف يفتح عينيه في نور الشمس الساطع . فكم بالحرى نحتاج إلى تدريب ، وتوجيه ، واغتسال وتنظيف ، وصقل وتهذيب ، حتى نصبح مستأهلين أن نقف في حضرة ملك الملوك ، وننظر مجده بوجه مكشوف ؟ إننا لا نستطيع أن نجزم إن كانت هذه الأفكار صحيحة . لكننا لا نستطيع أن نجزم أيضاً إن كانت عارية عن الصحة .

٣ — ولكن قد يكون معنى هذه العبارة سهلا بسيطاً لا يحتاج إلى كل هذا التأويل . قد يعنى أن فى العالم الآخر متسعاً للجميع . فقد تكتظ مدينة كأورشليم فى عيد الفصح بالقادمين إليها من كافة أنحاء العالم ، فلا يوجد موضع لقدم . وقد يزدحم كل منزل فى ضواحى أورشليم بالحجاج القادمين للعيد ، فلا يوجد مكان لمزيد . ولكن فى السماء يختلف الأمر كل الأختلاف . فى بيت الآب متسع ، كذلك بيت الآب رحب متسع ، نظير قلبه . إن «يسوع» يقول لتلاميذه «لاتخافوا إن البشر قد يغلقون الأبواب فى وجوهكم لأنه لا موضع لكم فى المنزل . بل ثقوا فى بيت أبى منازل كثيرة .

موعد المجد (تابع)

(يوحنا ١٤ : ١ — ٣)

هناك أكثر من حق عظيم تعلنه هذه الفقرة . .

١ — فهى تتحدث إلينا عن أمانة «يسوع» . «وإلا فانى كنت قد قلت لكم أنا ماض لأعدلكم مكانا » . لايوجد واحد يستطيع أن يحتج بأن المسيحية خدعته بوعود عريضة لا أساس لها . لقد تقدم «يسوع» بخطابه الوداعى هذا ليعلن لأتباعه أن طريق الضيق والمتاعب فى انتظارهم ، وهكذا تقدم إليهم بكلمات التعزية . لقد أخبرهم صراحة بالأضطهادات ، والعقوبات ، والمتاعب التى تنتظرهم .(متى ١٠ . ١٦ — ٢٢) بل إنه أخبرهم بأن عليهم أن يحملوا الصليب فى صبر وإنكار ذات (متى ١٢ : ٢٤) . ولكنه أخبرهم أيضاً بالمجد الذى ينتظرهم فى نهاية الطريق . نعم إن «يسوع» لم يخدع أتباعه بوعود براقة : لقد أخبرهم عن الطريق . وعن الهدف والنهاية . أما

الطريق فهو التضحية ، والألم ، والموت ، أما الغاية والنهاية فهى المجد . إنه لم يكن نظير القائد الذى يحاول أن يجمع حوله أتباعاً بأن يعدهم بطريق مفروش بالورد ، لقد كان كالقائد العظيم الذى يدرب اتباعه على صعود مدارج جبل المجد ، ولو كان المرتقى صعبا قاسيا عسيرا .

٢ — وهذه الفقرة تخبرنا عن عمل «يسوع» ووظيفته ... أنا ماض لأعدلكم مكانا» إن أحد الأفكار العظيمة فى العهد الجديد عن «يسوع» ، إنه يقود مقدمتنا لنتبعه . ممهد يفتح الطريق حتى نسير خلفه ، ونتبع أثر خطواته . وأحد الأسماء الكبرى التى تصف «يسوع» هى الكلمة الواردة فى الرسالة إلى العبرانيين فى الأصل « برودروموس » (٦ : ٢٠) التى ترجمت فى لغتنا بكلمة السابق أو ممهد الطريق « Forerunner » وهذه الكلمة تستخدم فى صورتين توضحان لنا معناها . أما الاستخدام الأول فنراه فى فرق الاستطلاع التى تتقدم كتائب الجيش الرومانى . لقد كانت « برودروموى » أو فرق الاستطلاع تتقدم الجيوش لتمهد الطريق . ولتلهب حماس الجند ، ولتستطلع أية متاعب أو أخطار قد تكمن فى المسير . وهكذا تتقدم والجيش يتبعها ، وهناك صورة أخرى نراها فى ميناء الاسكندرية الذى كانت تقصده السفن الرومانية للتزود بالغلال . ولم يكن الدخول إلى هذا الميناء سهلا يسيرا . فكانت السفن ، ترسل قوارب استطلاع تتقدمها والسفن تتبعها ، حتى تجنبها أخطار الصخور القاسية . هذه القوارب كان يطلق عليها لقب « برودروموى » . كانت تؤمن طريق السفن . وهذا ما فعله «يسوع» ، لقد أمن الطريق إلى السماء ، حتى نسير خلفه فى ثقة واطمئنان .

٣ — وهى تخبرنا بانتصار «يسوع» النهائى . إنها تقول « إن مضيت وأعددت .. آتى أيضاً ». هذه العبارة تشير بكل تأكيد إلى مجىء المسيح

الثاني ... إن مجيء « يسوع » ثانية عقيدة قد سقطت من تفكير جمهور كبير من أتباع المسيحية ولاهوتيها ، وهكذا أغفلوا المناداة بها . ولعلهم يعتذرون بصعوبتها ، ولعلهم يعتذرون بأن عليهم أن يدربوا أتباعهم على مقابلة الموت وكفى ، مع أن أعظم انتصار على الموت ، هو مجيء المسيح الثاني لإقامة الموتى المؤمنين . صحيح أن هناك بعض الصعوبات التي تعرض لنا فى طريق هذه العقيدة ، فهناك على سبيل المثال الصعوبة الحسابية أو متى سيحدث مجيء المسيح؟ إن أكثر من رأى متضارب فى حساب الأزمنة والأوقات قد ظهر خلال أجيال المسيحية ، وفى حساب الأحداث ، التى ترافق هذا المجيء ، قد دفعت الكثيرين إلى التخلى كلية عن هذه العقيدة . ولكن هناك شيء واحد أكيد . إن عجلة التاريخ تسير إلى الأمام ... إلى هدف ما . وبدون هذا الهدف يصبح التاريخ ناقصا مبتورا ، ويصبح منطق الأحداث بلا معنى ولا غاية . إن التاريخ ينبغى أن يكون له هدف . . إتمام . . كمال . وكمال التاريخ وغايته ، هو فى انتصار المسيح ، يوم انتصار له وتمجيد لأحبائه .

٤ — وتنادى هذه الفقرة بحق آخر مجيد ، له مكانه ضمن عقائد المسيحية العظمى : إن السماء بالنسبة للمسيحى ، هى حيث يكون «يسوع» . يقول السيد : «.. حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً» . إننا لا نحتاج إلى كثير عناء . لنتصور السماء .. يكفينا أن نعرف أننا سنكون مع حبيبنا إلى الأبد .

لنأخذ مثلاً بشريا . حينما نحب إنسانا ما من كل قلوبنا ، فإن الحياة تبدأ حين نكون مع ذلك الإنسان . فى صحبة ذلك الإنسان نشعر حقا بأننا أحياء . وهكذا مع المسيح .

إن صلتنا به فى هذا العالم ، مهما سمت هذه الصلة ، هى مثل بسيط لما سنكون عليه ، وصورته فى قلوبنا مهما صورها الإيمان لنا ، ليست سوى

صورة غائمة باهتة ، لأننا كما يقول الرسول . ننظر فى مرآة تعكس لنا لغزاً محيراً . إن حياتنا مع سيدنا على الأرض ، حياة متقلبة لأننا بشر لا نستطيع على الدوام أن نحيا فى قمم الجبال ، ولكن أعظم أمجادنا أننا سنكون فى حالة أسمى .. سنكون مع الحبيب «يسوع» على الدوام .. سنكون معه ولن يفصلنا عنه مرور الزمن أو تقلبات الأحداث ، أو ضعف الجبلة البشرية .. سنكون معه لا لنراه بعد ، بعين الأيمان ، بل لنراه وجها لوجه بالعيان .. سنكون معه ونسير فى تلك الأبهاء السرمدية إلى أبد الآبدين .

الطريق والحق والحياة

وَتَعْلَمُونَ حَيْثُ أَنَا أَذْهَبُ وتَعْلَمُونَ ٱلطَّرِيقَ . قَالَ لَهُ تُومَا ياسيِّدُ لَسْنَا نَعْلَمُ أَيْنَ تَذْهَبُ فَكَيْفَ نَقْدِرُ أَنْ نَعْرِفَ ٱلطَّرِيقَ . قَالَ لَهُ يَسُوعُ أَنَا هُوَ ٱلطَّرِيقُ وٱلْحَقُّ وَٱلْحَيٰوةُ . لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى ٱلْآبِ إِلَّا بِي .

(يوحنا ١٤ : ٤ - ٦)

فى أكثر من فرصة تحدث السيد إلى تلاميذه ، معلنا لهم أين سيذهب ولكن يبدو أن أفهامهم كانت غليظة فلم يدركوا حديثه ، « أنا معكم زمانا قليلا بعد » هكذا قال لهم « ثم أمضى إلى الذى أرسلنى » (يوحنا ٧ : ٣٣) . لقد قالها صراحة من قبل، إنه فى طريقه إلى الآب ، الذى ، هو واحد معه . ولكنهم لم يفهموه . بل لم يفهموا بالحرى الطريق الذى يسلكه فى ذهابه للآب لأن ذلك الطريق كان الصليب . فى هذه الساعة كان التلاميذ فى حيرة وارتباك،وكأنهم يضطجعون فى قلب البحر.ولكنهم لم يفتحوا أفواههم .كان بينهم واحد فقط دفعته الشجاعة ألا يصمت، بل يقول السيد إنه لم يفهم مالم يستطع فهمه ، وهذا هو«توما» . لقد كان «توما» هو التلميذ الوحيد الذى كان أكثر أمانةمع نفسه،وأكثر جديةمع ضميره،حتى لا يرضى بصورة باهتة ، ولا يقبل ذهنه حقيقة يغطيها الضباب ، وهكذا أراد أن يوقن من كل شىء ، فأعلن شكوكه ، وأعلن أنه لم يفهم ، وأنه

عجز عن إدراك كل شيء – من الغريب أن تساؤل إنسان شاك وليست تأملات تلميذ محب، هو الذى دفع «يسوع» إلى المناداة بأعظم الحقائق التى نادى بها ، ينبغى ألا نخجل من شكوكنا ، فهى تنطبق عليها الوصية : «اطلبو تجدوا» . ان الذى يطلب حتى فى روح الشك لابد وأن يكتشف فى النهاية كل الحق .

وقال « يسوع » لتوما « أنا هو الطريق ، والحق ، والحياة » هذا قول عظيم من أقوال المسيح المجيدة . ولقد كان قولا أكثر غرابة لليهودى الذى يسمعه للمرة الأولى. ففيه أمسك «يسوع» بالخيوط الثلاثة الرئيسية التى يتكون منها نسيج العقيدة اليهودية ، ونادى بالحق الجبار ، بأن فيه وحده ، وليس فى سواه تتجمع كل هذه الخيوط ، وتجد كمال تحقيقها ، وإعلانها ... فلقد تحدث اليهود كثيراً عن الطريق الذى ينبغى أن يسلكه الإنسان ، طريق الله ، فنجد القول فى سفر التثنية : « احترزوا لتعملوا كما أمركم الرب الهكم . لاتزيغوا يميناً ولا يساراً . فى جميع الطريق التى أوصاكم بها الرب إلهكم تسلكون لكى تحيوا ويكون لكم خير ». (تثنيه ٥ : ٣٢ ، ٣٣) ، وفى نفس السفر أيضاً يقول موسى للشعب : «إنى عارف انكم بعد موتى تفسدون وتزيغون عن الطريق الذى أوصيتكم به » (تثنية ٣١ : ٢٩) فاذا اتجهنا إلى نبوات إشعياء نسمع القول : « أذناك تسمعان كلمة خلفك قائلة هذه هى الطريق اسلكوا فيها حينما تميلون إلى اليمين وحينما تميلون إلى اليسار ، (إشعياء ٣٠ : ٢١) ان عالم العهد الجديد ، سوف تكون فيه طريق سلطانية اسمها طريق القداسة ، ومن سلك فى هذه الطريق حتى الجاهل لا يضل (اشعيا ٣٥ : ٨) أما المرنم فيهتف مصليا « علمنى يارب طريقك ،واهدنى فى سبيل مستقيم » (مزمور ٢٧ : ١١) ، لقد كان اليهود يعرفون الكثير عن الطريق .. طريق الله .. طريق القداسة ، التى ينبغى أن يسلك فيها الإنسان

إذا أراد الحياة . وهاهو يأتى فى ملء الزمان واقفاً على قمة جبل التاريخ ، ليعلن لليهود ، وللإنسانية جمعاء ، هذا الحق العظيم فيقول : « أنا هو الطريق » ترى ماذا يعنى بهذا القول ؟

لنفرض أننا هاجرنا إلى بلد غريب ، وسألنا الإرشاد والهداية فى طريق لا نعرفها . ولنفرض أن واحداً تطوع لإرشادنا فقال لنا : «سر إلى الإمام حتى تلتقى بعطفة فى الطريق تتجه بك يميناً ، سر فى تلك العطفة فإذا بك تلاقى طريقاً متقاطعاً إلى اليسار ، اتخذ هذا الطريق فتصل إلى غايتك» . لو حدث هذا وسلكنا المسيرة بمفردنا فربما نضل ولا نعرف شمالنا من يميننا بعد خطوات قليلة .

ولكن لنفرض أن آخر قال لنا « هلموا ورائى وأنا أوصلكم إلى غايتكم » فى هذه الحالة يصبح ذلك الإنسان المرشد طريقاً لنا ، ولن يكون هناك أدنى احتمال للضلال . وهذا ما يفعله «يسوع » .. هذا ما يعنيه بقوله أنا هو الطريق . أنه يأخذ بأيدينا ويقودنا ، ويسير معنا خطوة فخطوة . إنه لا ينصحنا ويرشدنا وكفى ، ثم يتركنا بعد ذلك . بل إنه يسير معنا بروحه ، ويؤيدنا بقوته . إنه لا يخبرنا عن الطريق . بل إنه يصبح لنا الطريق .

ويقول «يسوع » أيضا « أنا هو الحق » . ونحن نصغى إلى المرنم فى صلاته يتضرع إلى إلهه قائلا : « علمنى يارب طريقك اسلك فى حقك » (مزمور ٨٦ : ١١) . « الآن رحمتك أمام عينى ، وقد سلكت بحقك » مزمور ٢٦ : ٣) وفى المزمور المائة والتاسع عشر « اخترت طريق الحق ، جعلت أحكامك قدامى (١١٩ : ٣٠) . وفى معرض الحديث عن الحق نقول إن كثيرين نادوا بالحق ، ولكن لم يكن واحد منهم هو الحق المجسد . هناك أمر جوهرى بخصوص الحق الأدبى ، إنه كثير ما ينادى إنسان بذلك

الحق ، ويفصل بنوده ، ويدعو الآخرين إلى اتباعه ، فى الوقت الذى لا يمس فيه الحق قلبه ، ولا يغير حياته . وإنه بذلك يهدم بتصرفه ما ينادى به . إن معلم الحق الأدبى يختلف عن أى معلم آخر . فمعلم الرياضة أو علم تقويم البلدان ، أو اللغة اللاتينية قد لا يكون هناك من داع أن يتأيد تعليمه بتصرفاته الخاصة . فما ينادى به لا يمس حياته من قريب أو بعيد . ولكن معلم الحق الأدبى يختلف كل الاختلاف .وكيف نتصور زانيا ملوث السيرة والسريرة ينادى بناموس الطهارة الأدبية ؟ أو كيف يدعو البخيل المقتر إلى البذل والتضحية ؟ وكيف نرى متهورا مندفعا ينادى بفضائل الحكمة والتعقل وضبط النفس ؟ أو شخصا يغلى قلبه بالأحقاد وينادى بالمحبة والأخاء؟ إن مثل هؤلاء تنقض حياتهم تعاليمهم فتصبح بلا فائدة . فالحق الأدبى ينبغى أن يتجسم فى مثال حى إن كان يقدر له أن يخلد ويصبح قوة فعالة بين الناس . هنا مقياس العظمة الحقيقية فى حياة أى معلم . بل هنا مقياس العظمة الذى لم يصل إليه أى معلم فى تاريخ الانسانية سوى واحد: يسوع المسيح. إن كثيرين أنبياء ، وكثيرين فلاسفة ، وكثيرين مشرعون ، وكثيرين لمعوا فى تاريخ البشرية الطويل . وهؤلاء وأولئك يستطيعون أن يهتفوا بملء الفم : « لقد علمنا الناس الحق » . ولكن لا يوجد سوى واحد يستطيع أن يقول : « أنا هو الحق » إن الحقيقه العظمى عن يسوع المسيح ، ليس أن الحق وصل إلى قمة سموه فى تعليمه ، ولو أن هذا صحيح ، بل إنه هو فى ذاته الحق المجسد . بمعنى أن الحق الأدبى قد وصل إلى سمو تحقيقه فى شخصه المبارك .

ويقول «يسوع» : « أنا هو الحياة » . يقول «حكيم» قديم « الوصية مصباح والشريعة نور . وتوبيخات الأدب طريق الحياة » (أمثال ٦ : ٢٣) « وحافظ التعليم فى طريق الحياة » (أمثال ١٠ : ١٧) ويقول المرنم

« تعرفني سبيل الحياة » (مزمور ١٦ : ١١) . إن الحياة هي الهدف النهائي للانسان ، فهو دائب السعي إليها . وخلف هذا الهدف يختبيء كل هدف ويستتر كل سعي .

ويسوع هو الحياة ، لأن الحياة مع «يسوع» هي الحياة الحقة ، فلن نعرف معنى الحياة المباركة إلا في صلتنا بيسوع . بل إن «يسوع» هو الحياة لأنه مصدر هل نقول حياة الزمن ؟ هذا حق لأن كل شيء به كان . ولكننا نقصد بالحرى حياة الروح حياة الأبد . ألم نجد الحياة الأسمى والأرفع فيه ؟ لقد قال « جئت لتكون لهم حياة » حياة أفضل وأسمى من الحياة الأرضية ، ويسوع هو الحياة لأنه حافظ الحياة . لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد . فهو حافظ كل الأشياء بكلمة قدرته . ويسوع هو الحياة لأنه باعث الحياة . وكما فعل قديما حينما وهب الحياة لسكان القبور ، سوف يفعل بصورة أكمل وأشمل وأعظم ، في اقامة أجساد الراقدين ، وتغيير الأحياء ، حينما يأتي على سحاب مجده .. « أنا هو الطريق والحق والحياة » والغاية ! والهدف ! « ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي » . فيسوع هو الطريق الذي يوصلنا للآب وهو الحق الذي نتمسك به فنصل إلى الآب ، وهو الحياة التي تملؤنا وتفيض فينا فنتأهل للشركة مع الآب . إنه الوحيد الذي يستطيع أن يقود البشر إلى الله . الوحيد الذي يمسك بيد الإنسان ويقوده دون خوف أو خجل إلى محضر الله .

لَوْ كُنْتُمْ قَدْ عَرَفْتُمُونِي لَعَرَفْتُمْ أَبِي أَيْضاً . وَمِنَ ٱلْآنَ تَعْرِفُونَهُ وَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ . قَالَ لَهُ فِيلِبُّسُ يَاسَيِّدُ أَرِنَا ٱلْآبَ وَكَفَانَا . قَالَ لَهُ يَسُوعُ أَنَا مَعَكُمْ زَمَاناً هٰذِهِ مُدَّتُهُ وَلَمْ تَعْرِفْنِي يَافِيلِبُّسُ . ٱلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى ٱلْآبَ فَكَيْفَ تَقُولُ أَنْتَ أَرِنَا ٱلْآبَ . أَلَسْتَ تُؤْمِنُ أَنِّي أَنَا فِي ٱلْآبِ وَٱلْآبُ فِيَّ . ٱلْكَلَامُ ٱلَّذِي أُكَلِّمُكُمْ بِهِ لَسْتُ أَتَكَلَّمُ بِهِ مِنْ نَفْسِي لٰكِنَّ ٱلْآبَ ٱلْحَالَّ فِيَّ هُوَ يَعْمَلُ ٱلْأَعْمَالَ . صَدِّقُونِي أَنِّي فِي ٱلْآبِ وَٱلْآبَ فِيَّ . وَإِلَّا فَصَدِّقُونِي لِسَبَبِ ٱلْأَعْمَالِ نَفْسِهَا .

(يوحنا ١٤ :٧ ــ ١١)

لقد كان إعلان «يسوع» في هذه الفرصة ، أقوى إعلان سبب صدمة عنيفة لسامعيه . فلقد كان الله في الفكر الأغريقي ، يعبر عنه بغير المنظور . وكان أحد بنود الإيمان اليهودي: « الله لم يره أحد قط » . لمثل هذا الجمهور من السامعين نادى «يسوع» : « لو كنتم قد عرفتموني لعرفتم أبي أيضا . من الآن تعرفونه وقد رأيتموه » . وإذا بفيلبس يطلب المستحيل فيقول :

«أرنا الآب وكفانا »: ولعله كانت فى فكره ، صورة موسى فى ذلك اليوم الرهيب ، حينما طلب من إلهه أن يعلن ذاته له (خروج ٣٣ : ٢ - ٢٣) . ولكن لم يجب الله موسى لطلبه : « أضعك فى نقرة من الصخرة ، واسترك بيدى حتى اجتاز . ثم ارفع يدى فتنظر ورائى أما وجهى فلا يرى » . فى أيام «يسوع» كان الناس فى دهشة وذهول ، لما نسميه ترفع الله واستعلاءه.

كان يضايقهم أكثر ما يضايقهم صمت السماء عن الأرض ، وارتفاع الله عن البشر ، فلقد كادوا ينسون صوت الله المتحدث فى أنبيائه ، لأن مئات السنين كانت قد مضت منذ تكلم آخر نبى للبشر ، بأقوال الله. وهكذا ما عادوا ينتظرون أن يروا الله ، أو يسمعوا صوته . فاذا بيسوع يقول لهم فى بساطة وثقة « الذى رآنى فقد رأى الآب » . وكأنى به يقول لسامعيه « هل تريدون أن تعرفوا ما هى صورة الله ؟ كيف يكون ؟ ما هى صفاته المباركة وتعاليمه ؟ ما هى مشاعره نحو البشر ؟ إن أردتم أن تعرفوا كل هذا ، تأملوا فى تشاهدون الله .. يقول أحد الكتاب فى تعليق له على بشارة لوقا ، إن كاتب البشارة قد رسم الله بريشة عائلية ، مضفيا عليه صفات البيت والأسرة . وهو يعنى بهذا القول ، أن «لوقا» قد أعلن الله فى «يسوع» ، مشاركا لنا فى أبسط صور حياتنا العائلية . إننا حينما نتطلع إلى «يسوع» نستطيع أن نقول : « هذا هو الله شريكا لنا فى تجاربنا . محاربا حروبنا ، مختبرا وعائشا حياتنا » . إن كان الأمر هكذا ، وهو بالفعل كذلك ، فاننا نستطيع أن نعرف الكثير عن ذات الله ، وجوهره ، وصفاته ، عند تأملنا فى «يسوع» .

١ - فنحن نرى الله فى «يسوع» يحيا فى بيت ريفى . . فى عائلة متواضعة .

كما تقول أبيات يرددها الأطفال فى الغرب .

« فى بيت لحم فارس

« ثروته الدموع .

« جنوده حملانه ! !

« هاسبحوا «يسوع»

إن الله فى «يسوع» الطفل قــدس الطفولة ، وفى ولادة يسوع من امرأة ، قدس الأمومة ، وفى حياة «يسوع» وسط عائلة فقيرة ، قدس البساطة والفاقة ، وأحاط الأسرة العادية بهالة من الجلال .

٢ ــ والله فى «يسوع» لم يترفع عن القيام بأدنى الأعمال. لقد دخل الله إلى عالمنا فى ثياب عامل فقير فقد كان نجاراً فى الناصرة . اننا لن نستطيع أن نصل حقا إلى ادراك تلك الحقيقةالعظمى المذهلة، أن الله يعرف كل شيء عن تفاصيل أعمالنا العادية ، التى نبذل العرق فيها كل يوم . فهو يعرف صعوبة ارضاء الطرفين . وهويعرف العملاء العصبيين الذين يصعب أرضاؤهم والعملاء أصحاب الذمم المتسعة ، الذين ينسون ما عليهم من ديون. ولقد عرف السيد أيضاً البيت ، ومتاعب المعيشة مع أنداد كثيرين (ربما كان أولئك الذين يشار إليهم بلقب إخوة الرب ، أبناء ليوسف من زوجة سابقة ، أو أبناء خئولة أو عمومة ليسوع) . لقد كان يعرف كل مشكلة تعرض لنا فى حياتنا اليومية . أما العهد القديم فقد كان يعتبر العمل لعنة حلت بالإنسان. فالعمل على اساس قصة التكوين : نجم عن لعنة «آدم» بسبب خطيته وتمرده « بعرق وجهك تأكل خبزاً » (تكوين ٣ :١٩) . فاذا بالعهد الجديد يشرق، ليعلن كرامة العمل، ويحبطه بهالةمن الشرف والكرامة حينما تقدم ابن الله ، وأحنى ظهره لنير الخدمة العاملة . .

٣ — بل إن الله فى يسوع ، قد اختبر قسوة التجربة . إن أعجب ما فى حياة السيد ، أنها لا تعلن لنا ثبات الله وجبروته فحسب ، بل بالحرى صراعه. إن أى فكر يتخيل أن الله ساكن فى دائرة الهدوء والسلام . . . فى دائرة لا تدنو منها — أمواج الأضطراب ، ولاعواصف الصراع ، ولا بحار هذا العالم الهائجة . ولكن «يسوع» ، أعلن للبشرية إلهاً من نوع جديد . . . إلهاً يجتاز المياه التى نجتازها ، وتقاومه التيارات التى تقاومنا ، إن الله الذى أعلن لنا فى «يسوع» ، ليس نظير القائد الذى يقود مؤخرة الجيش . بل هو القائد الملهم الذى يقود المقدمة ، ويحتمل الأخطار ويواجهها ويشعر فى ذاته بقوة التجربة وقسوتها .

٤ — وفى «يسوع» نرى الله محبا عطوفاً فائض القلب . . ومع المحبة يأتى الالم ، فالألم هو التوأم الشقيق للمحبة . إننا إن فصلنا أنفسنا عن البشر . . عن محبة البشر . . عن التعلق بهم ، فإننا نتحرر من آلام البشرية وأحزانها وهمومها . . . إن رتبنا حياتنا على أنه لا اهتمام لنا بالأحياء . . ولا اهتمام لنا بأمور الحياة ، فاننا نريح أنفسنا من تعب القلب والفكر ، ولكننا نرى الله فى «يسوع» مهتما بنا ، حاملا أحمالنا ، باذلا مضحيا فى سبيلنا ، باحثا ساعيا خلفنا ، مشاركا لنا فى مشاعرنا ، متألما فى آلامنا ، محباً لنا بكل ما فى الكلمة من معانى مشرقة عميقة . . حاملا فى قلبه جروح تلك المحبة .

٥ — وفى «يسوع» نرى الله مضحيا على الصليب .. وهذا أبعد وأعمق من أن يصدقه العالم . إن العالم يقف فى ذهول أمام هذا الركن الرئيسى فى العقيدة المسيحية . فمن السهل على الإنسان أن يتصور إلها يرسل صواعق غضبه ودينونته على البشرية الخاطئة . . من السهل اليسير عليه: أن يتصور الله فى صورة «ثور»، إله الشمال الذى كان يركب العاصفة ، ويضرب

بمطرقته أعالى الجبال ، فتدوى الرعود القاصفة . . يتخيله فى صورة «مولوك» الإله الدموى ، متطلبا ضحاياه من الأطفال .

نعم،من السهل على الإنسان أن يتصور إلها جباراً يمحق من يقاومه ، ويبيد من يقف فى وجهه ، ولكن من فى الوجود يتصور الله متألما فى يسوع . . ؟ مهانا فيه . . ؟ مقوداً إلى الجلجثة كشاة تساق إلى الذبح ؟ مستسلما لجلاديه الذين يثقبون يديه وقدميه ؟ مرفوعاً على صليب العار والهوان ؟ من يتصور إلها يرضى بالصليب فى سبيل خلاص البشرية ؟

« من رآنى فقد رأى الآب » هكذا يقول رب المجد ، إن يسوع » المسيح هو إعلان الله للبشر ، وهذا الإعلان العظيم الجبار ، يدفع المؤمنين بذلك الحق ، إلى الوقوف أمامه فى ذهول ، وفى حب ، وفى تمجيد . .

رؤيا القدير

(يوحنا ١٤ : ٧ ــ ١١)

ولكن «يسوع» يتقدم خطوةأخرى،ليقدم لنا حقاً جديداً . هناك بندكبير من بنود العقيدةالموسوية ، كان اليهودى يتمسك به كل التمسك ، ويحرص عليه كل الحرص : هذا البند هو تفرد الله وجلاله ووحدانيته . لقد كان اليهود موحدين إلى أبعد ما تشير إليه هذه الكلمة . إن آخر مايتعرض له كل مفكر من ديانة أخرى ، أنه يتصور المسيحيين ، وقد اعتبروا «يسوع» إلها ثانوياً . هنا نرى «يسوع» يقدم إعلاناً فريداً للبشر ،فهو يقول بأن مايقوم به من أعمال ، وما يتقدم بهمن تعاليموأقوال .لم تنبع من ذاته ، أو من دوافعه الداخلية،بل أعمال الله قدمت إلى البشرية بواسطته،وتعاليم الله أعطيت للناس عن طريقه . فهو مجد الله المجسم للبشرية .. وهو حق الله المقدم للإنسان .

دعونا نأخذ مثلا بشرياً ولو أنه ضعيف هش ... يقول أحد الثقات[1] عن اللاهوتى الكبير والمفسر العظيم « أ . ب بروش » إن الناس كانوا يتهافتون عليه ليروا فى الإنسان مجد الله ، لقد كان معلم جيل . وكل معلم تقع عليه مسئولية إعلان أمجاد الموضوع الذى ينادى به ، لمن يعلمهم . فإذا كان ذلك الموضوع ليس سوى يسوع المسيح ، فهو يستطيع إن كان يمتلك شفافية الحياة النقية المقدسة ، أن ينقل محضر المسيح وصورته ومجده ، لتلاميذه .

وهذا ما عمله « أ . ب . بروش » بل هذا صورة ضعيفة مهتزة لما قدمه يسوع المسيح عن الله ، فى أعماله ، وتعاليمه . لقد نقل إلى البشر وأعلن لهم مجد الله ، ومحبته نحو البشرية .

وكتب « جون كيرنز » لأستاذه «سير وليم هاملتون» :

« إنى لا أعرف شيئا عن كيانى السابق ، ولكنى أعرف شيئا واحدا : إننى للنهاية سوف أحمل أمام الأجيال ، طابعك فى حياتى » .

أحيانا يتتلمذ طالب لاهوت على يدى أستاذ يجله ويحبه ويحترمه ، فيتشبع به كل التشبع ، حتى نرى فى التلميذ صورة حية مجسمة لأستاذه الكبير . حتى صوته ربما يتطور ليشبه صوت معلمه . فنقول « هذا الراعى أو المبشر تتلمذ على يدى فلان . . » ويقول كثيرون « لو أغمضنا عيوننا فإننا نستطيع أن نتصور أن فلاناً بعينه هو الذى يعظ » وهذا أيضاً صورة لما عمله «يسوع» ولكنها صورة ضئيلة ، كقطرة أمام المحيط الزاخر . لقد أتى «يسوع» إلى البشرية بتعليم الله ، ورسالة الله ، وفكر الله ، وقلب الله . قصارى القول ينبغى أن نضع فى فكرنا على الدوام ، أن «يسوع» ، إن كان قد تقدم للبشرية بتعليم فمن الله ،

---

(1) Dr. Lewis Muirhead

أو بمعجزة فبقوة الله، أو بكفارة فبترتيب الله، وقصده الأزلي . لقد أتى إلى العالم لأن الله، أحب العالم . فخلف «يسوع» وفي كيانه نرى الله .

بل إن «يسوع» ليس إعلان قلب الله ، وفكره للبشر فحسب . إنه ذات جوهر الله متجسدا في جسم بشريتنا ، ظاهرا في ملء الزمان بيننا ، معلنا ذات الله لنا ، أو كما كتب الرسول : « عظيم هو سر التقوى الله ظهر في الجسد » .

ثم نستمع أيضاً إليه في هذه الفقرة، وهو يتقدم لسامعيه طالبا منهم أن يمتحنوا الحق الذي ينادي به ، يضعوه في الميزان . . وعلى الدوام يضع «يسوع» أساسين لذلك الإمتحان : أقواله ، وأفعاله . .

١ ـ فليمتحنوا إدعاءه في امتحانهم لتعاليمه . وكأني بيسوع يقول لهم : « حينما تستمعون إلي ، ألا تستطيعون أن تتحققوا بأنفسكم أن ما أتقدم به من تعاليم ليس سوى حق الله ؟ » إن حديث أي إنسان ينم عن شخصيته ويفصح عن كيانه ، ويترجم عن حقيقته ، ويكشف عن ذاتيته . إن كلمات أي عظيم هي أعظم الأدلة عليه . قد نقرأ سطوراً من الشعر الرائع فنقول في الحال : « لا يمكن أن يكون سوى شيكسبير وراء هذه السطور » . قد يستعصي علينا تحليل تلك الأبيات ، أو الوصول إلى عمق معانيها ، ولكن نغمتها ومضمونها العام ، يعطياننا الفكرة عمن تكون تلك العبقرية التي تقف وراءها . وهكذا الأمر في كلمات « يسوع ». إننا حينما نصغي إليها، فإننا لا نتمالك أنفسنا من أن نهتف : « لابد أن هذا صوت الله لاصوت إنسان . آه او عرف العالم كيف يسلك في نور هذه المبادىء ، ويطيع هذه التعاليم ؟ آه لو كنا نطيعها ونسلك بموجبها ، كم كنا نصبح أناساً آخرين ؟ »

٢ — وليمتحنوا ادعاءه فى نور أعماله . يقول «يسوع» لتلميذه «فيلبس» « صدقونى إنى فى الآب والآب فى . وإلا فصدقونى لسبب الأعمال نفسها .. هذا هو عين الجواب الذى أرسله «يسوع» للمعمدان فى سجنه . فلقد أرسل يوحنا إليه تلميذيه متسائلا ، ان كان «يسوع» هو المسيا أو ينتظر معلماً سواه . فكان جواب السيد للتلميذين : «إذهبا وأخبرا «يوحنا» بما تسمعان وتنظران العمى يبصرون ، والعرج يمشون ، والبرص يطهرون والصم يسمعون ، والموتى يقومون والمساكين يبشرون » (متى ١١ : ٥)

إن أعظم برهان على أن «يسوع» هو وليس سواه بقدرته على شفاء الجسد بالعمل المعجزى ، وشفاء النفس بالكلمة المعجزية . فلم يظهر فى التاريخ سواه من استطاع أن يغير القلوب والنفوس ، ويخلق الأنسان من جديد ...

لقد قال «يسوع» لفيلبس .. « استمع إلى تصغ لصوت الله .. أنظر إلى تر صورة الله .. ثق بى وأنت تضع ثقتك فى الله » . وهذا هو الطريق إلى الإيمان المسيحى بل هو أساس العقيدة المسيحية . إن الطريق إلى الإيمان المسيحى لا يقوم على أساس المجادلات العقيمة عن يسوع ، بل يقوم على أساس النظرة السليمة إليه والإصغاء إلى تعاليمه ، والإيمان به .. وهذا هو الأساس المثلث الأركان ـ الذى تقوم عليه المسيحية . إننا إن قمنا بهذا فإننا نتحقق صدق كلمات «يسوع» الذى رآنى فقد رأى الآب . .

وعود ثمينة

اَلْحَقَّ ٱلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِي فَالأَعْمَالُ ٱلَّتِي أَنَا أَعْمَلُهَا يَعْمَلُهَا هُوَ أَيْضاً وَيَعْمَلُ أَعْظَمَ مِنْهَا لأَنِّي مَاضٍ إِلَى أَبِي . وَمَهْمَا سَأَلْتُمْ بِٱسْمِي فَذٰلِكَ أَفْعَلُهُ لِيَتَمَجَّدَ ٱلآبُ بِٱلِٱبْنِ . إِنْ سَأَلْتُمْ شَيْئاً بِٱسْمِي فَإِنِّي أَفْعَلُهُ

(يوحنا ١٤ : ١٢ ـــ ١٤)

ربما لاتوجد فى الكتاب المقدس وعود أقوى من هذين الوعدين، اللذين تتضمنهما هذه الفقرة . ولكن هذين الوعدين، هما من نوع خاص، ومن طبيعة خاصة ينبغى أن نصل إلى فهمهما ودراستهما حتى ندرك متضمناتهما. فما لم نصل إلى المعانى التى ينطوى عليها هذان الوعدان ، فإن اختباراتنا فى الحياة تكون عتيدة أن تسبب لنا الفشل .

١ ـــ يقول السيد إنه يوما من الأيام ، سيصل الحال بتلاميذه إلى أن يقوموا بنفس الأعمال التى يقوم بها السيد وبأعظم منها . ترى ماذا يعنى يسوع بهذا القول ! ؟

(ا) من الأكيد أن الكنيسة الرسولية فى أيامها الأولى، كانت لها القدرة على القيام بمعجزات شفاء . وبولس الرسول يعدد ضمن مواهب

الروح التى نالها البعض ، موهبة الشفاء (اكورنثوس ١٢ : ٩ ، ٢٨ ، ٣٠) والرسول «يعقوب» ينادى أنه فى حالة مرض أىمؤمن، عليه أن يدعوشيوخ الكنيسة فيدهنوا جسده بالزيت ويطلبوا من الله من أجله،وصلاة الايمان تشفى المريض (يعقوب ٥ : ١٤) . ولكن من الواضح ان هذا ليس كل ما قصده«يسوع»، أو ماكان يرمى إليه . لأنه حتى إن سلمنا بأن الكنيسة الأولى قامت بنفس المعجزات التى قام بها مؤسسها ، إلا أنها على الأقل لم تقم بأعظم من تلك المعجزات .

(ب) ومن الأكيدأيضاً، أنه بتقدم العلم ازدادت فرص الأنتصار على الأمراض المختلفة . إن طبيب اليوم له من الخبرة ، والإمكانيات . مايستطيع أن يجابه به أى مرض— عدا القليل—وينتصر عليه . إن له من الوسائل ما لم يتوافر لرجل الطب فى العصور القديمة • ولو ظهر أحد أطباء اليوم فى تلك العصور السالفة ، لألتفوا حوله . ورأوا فيما يقوم به أكثر من معجزة إن المضادات الحيوية قد بدأت تشق طريقها بسرعة مذهلة فى عالم العلاج وتقوم بما يشبه المعجزات أو يفوقها .

فإن كانت الكنيسة قد ضعفت عن التمسك بالوعد ، فليس معنى هذا أن الوعد قد بطل . ويكفى قول السيد : « وهذه الآيات تتبع المؤمنين . يضعون أيديهم على المرضى فيبرأون » (مرقس ١٦ : ١٧) .

ومع أنها مازالت تخطو خطوتها الأولى . فإنقلعة بعد قلعة من قلاع الألم والعذاب والمرض،تتهاوى أمام العقاقير المعجزية •

ولماذا لانقول إن هذا من نتائج روح المسيح العامل فى البشر ؟ ما الذى يدفع الإنسان إلى البذل والتضحية والعرق والدم ، وتعريض الحياة للخطر ، بل بالفعل تقديم الحياة على مذبح التضحية ؟ وفى اكتشاف هذه الأمراض

ومسبباتها ، وطرق الانتصار عليها ، أكثر من قصة عن إنسان ، ضحى بحياته فى سبيل نفع إخوته ؟ لماذا يبذل الإنسان نفسه فى انقاذ المريض ، وإزالة أسباب الألم عن المتألم ، وإبعاد شبح الموت ما أمكن ذلك ، عن غرفة العليل ؟ لماذا يرهق إنسان نفسه لشفاء مرضى الجسد والنفس ؟

تحت النظام النازى القاسى ، كانت الإبادة هى مصير العجزة ، والمشوهين والمرضى الذين لا رجاء لهم فى الشفاء ، .

ولكننا بين آن وآخر ، نجد شابا موهوبا يبتسم له المستقبل ، ويحمل أكثر من اجازة علمية ، نظير « البرت شويتزر » ، يدير ظهره للمستقبل الباسم ، ويغادر بلاده إلى قلب أفريقية السوداء ، ليعالج أدواء البشرية ويخفف آلامها ، ويضمد جروحها الفاغرة — ما الذى يدفع مثل هذا الشاب وغيره ، إلى سلوك طريق التضحية والبذل ؟ الجواب يسوع المسيح ، ومثاله ، وتضحيته وبذله وصليبه وموته . وكأنى بيسوع يقول لهولاء وأولئك فى روحه العظيم « هؤلاء المرضى . المتعبون والمتألمون ، يرفعون أكف الضراعة لكم ، إن المرض يذيب أجسادهم ، كما تذيب النار الشمع . عليكم تقع المسئولية ، ولكم أيضاً الأمتياز ، بأن تقدموا لهم كل ما فى وسعكم » . ألم يقل السيد يوما لتلاميذه ، وهو يشير إلى الجموع الجائعة الخائرة المرهقة « أعطوهم أنتم ليأكلوا .. ؟ صحيح أن البعض يعطى لقبا آخر لعمل التضحية فيسميه بالشفقة أو العطف أو الروح الإنسانية ، وغير ذلك من التعبيرات الحديثة ، لكن الدافع الأساسى الأول ، لكل عمل صالح ، ليس أقل من مثال المسيح وروح المسيح .

(ج) على أن هناك معنى آخر تضمه دائرة هذه الأعداد . لاحظوا خدمة «يسوع» فى أيام وجوده على الأرض بالجسد ، وكيف أنها لم تتعد حدود فلسطين ،

بل ربما وجدت بقاع فى تلك الرقعة الضيقة لم تطأها قدماه . فلم يرتفع صوت السيد بعيداً عن القرى والضياع التى افتقدها ، ومع أننا رأينا بعض اليونانيين يأتون إليه ، إلا أن صوته لم يصل إلى بلاد الأغريق .

ومع أننا سنرى واحدا من عسكر الرومان، يقول عنه، بالحقيقة كان هذا أبن الله ، إلا أن روما لم تسمع تعاليمه ، ولم يصل صوته إليها ، لقد جابه يسوع مشكلات فلسطين الروحية ، وربما الإجتماعية ، ولكنه لم يواجه متاعب أثينا ، ولم يسهم فى حل مشكلات روما ، ولم يدو صوته فى ربوع وادى النيل داعيا المتعبين والثقيلى الأحمال إلى الراحة ، إن يسوع حينما ظهر على مسرح الخدمة الدينية فى بلاده، وجد الجو مهيأ والطريق معبدا . فالكتبة والفريسيون وهبوا حياتهم للدين والحفاظ عليه ، فى حدود دائرة تفكيرهم وتقاليدهم. ومما لاشك فيه أنهم، برغم تزمتهم ، أسدوا خدمة كبرى للروح الدينية فى بلادهم، وللمحافظة على تعاليم الدين ووصاياه ، ونقاوة الحياة . فحينما تقدم «يسوع» ببشارته، لم يجد أمامه أسراً منحله ، أو رجلا يطوف مدينته وإلى جواره زوجة غير شرعية ، أو مأبونين يلطخون وجوههم بالمساحيق والأصباغ كالبغايا ، أوقبائح ترتكب فى المعابد باسم التعبد للآلهة ، لقد كان مسرح الخدمة الدينية فى فلسطين أكثر نظافة ، وأكثر تهيؤاً لقبول رسالة المسيح . ولكن قذارة الأمم ونجاساتهم ، وفظائع الوثنية وممارساتها ، ومرارة الأستعباد وقساوته ، وكل ما أحاط بالحياة الاجتماعية بين الأمم من مظاهر ملوثه تعيسة ، هى التى قدر للتلاميذ أن يواجهوها، ويحاربوها، وينشروا رسالة المسيح هناك، ويرفعوا علم المسيحية فى وجه العار والحديد والنار . لقد خرجت المسيحية الطفلة لتحارب حربها ، وتكسب معركتها، فى ميادين أقسى مما لا يقاس من الميدان الذى حارب فيه سيدها وانتصر . . .

وهكذا نعرف ماذا يعنى السيد بقوله إنكم ستقومون بكل هذه الأعمال وأعظم منها ،لأنى ماض إلى أبى ، إنه يعنى أنه فى أيام خدمته على الأرض كان محدداً بحدود فلسطين . ولكنه حينما يرتفع عن الأرض على الصليب ، ويقوم من الأموات ،ويصعدإلى الآب ، سوف تتسع تلك الحدود ، لتشمل العالم كله . سوف يتحرر من حدود الجسد ويعمل روحه الجبار فى ميادين أكثر اتساعاً . إن يسوع حين مضى إلى بيت الآب ، استطاع ، على وجه التحديد ، أن يرسل روحه كالبحر المحيط الخضم ليغطى العالم أجمع .

٢ ـ وفى الوعد الثانى ، يقول «يسوع » إن أية طلبة تقدم باسمه سوف تنال القبول . هذا هو أساس الصلوات المجابة : ينبغى أن ندرسه جيدا لنقيم عليه بناء طلباتنا . إنه لم يقل إن كل طلباتنا تجاب ، بل قال إن الطلبات التى تقدم فى اسمه سوف تقبل وتجاب . إن المحك الحقيقى الذى يظهر طبيعة صلواتنا ، هو هل استطيع أن أقرن اسم يسوع بهذه الطلبة التى أطلبها ؟ لن نستطيع على سبيل المثال أن نطلب المصالح الشخصية أو نطلب التفوق على الآخرين ، أو نتقدم بطلبة غير مسيحية ، لاتتفق مع إسم المسيح وكرامته .فحينما نصلى ، علينا أن يسأل كل منانفسه ، هل ماأتقدم به من صلاة أوطلبة ،استطيع أن أتقدم به فى روح المسيح ؟ أم أننى أطلب لتحقيق مصالحى الشخصية وأغراضى الأنانية ؟ إن أية صلاة تستطيع أن تثبت أمام هذا المحك ، أمام هذا الامتحان ، هى الصلاة الحقيقية ، والطلبة التى نستطيع أن نقرنها بالقول : «لتكن مشيئتك ، كما فى السماء كذلك على الأرض » هى الطلبة المستجابة . ولكن الصلاة التى نبنيها على الذات ، ومطامعها هى صلاة فى إسم الذات ، وليست فى إسم يسوع المسيح ، وهى بالتالى صلاة لاينبغى أن ننتظر إستجابة لها .

المعين – الوعد القديم

إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي فَاحْفَظُوا وَصَايَايَ . وَأَنَا أَطْلُبُ مِنَ الآبِ فَيُعْطِيكُمْ مُعَزِّياً آخَرَ لِيَمْكُثَ مَعَكُمْ إِلَى الأَبَدِ . رُوحُ الْحَقِّ الَّذِي لاَيَسْتَطِيعُ الْعَالَمُ أَنْ يَقْبَلَهُ لأَنَّهُ لاَ يَرَاهُ وَلاَ يَعْرِفُهُ . وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَعْرِفُونَهُ لأَنَّهُ مَاكِثٌ مَعَكُمْ وَيَكُونُ فِيكُمْ .

(يوحنا ١٤ – ١٥ – ١٧)

خلال فصول البشارة الرابعة، تتردد نغمة واحدة تعلن امتحان المحبة ، وهذه النغمة هي الطاعة . فدليل المحبة الحقيقية الصادقة هو حفظ الوصايا . حتى رب المجد نفسه لم يستثن من هذه القاعدة ، فطاعته للآب قد أعلنت محبته له . وبالتالى طاعتنا نحن لوصايا يسوع برهان محبتنا الصادقة له . يقول « لك . باريت » إن المحبة فى البشارة الرابعة لا تدور فى دائرة خيالية حالمة تسبح بين النجوم ، وتعانق الكواكب ، بل أن تعبيرها يترجم فى بنود الناموس الأدبى ، وإعلانها يتجسم فى الطاعة الكاملة .. « إننا نعرف من اختباراتنا فى الحياة اليومية، كثيرين يعلنون عن محبتهم بالكلمات المنمقة الجوفاء ، ويتخذون من المظاهر الخارجية الخداعة، تعبيراً لها ومع ذلك فهم فى

نفس الوقت يجلبون المتاعب على من يدعون أنهم يحبونهم ، وبتصرفاتهم وأفعالهم، يكسرون قلوبهم . هناك أبناء يقبلون والديهم فى الصباح عند خروجهم للدراسة ، وفى المساء قبل ذهابهم إلى الفراش . ولكنهم بعدم طاعتهم يسببون مضاعفات للوالدين ؟ أزواج ينادون بأنهم يذوبون حبا لزوجاتهم ، وزوجات لايدعن فرصة تمر دون أن يعبرن باللسان عن حبهن لأزواجهن ، لكن الذى يفحص داخل القلب ، يعرف أن عقارب الغيرة ، والحسد ، والنفعية ترعى فى القلوب .

إن المحبة الحقيقية فى ناموس «يسوع» ليست شيئا عاديا هينا ، إن برهانها الوحيد الأكيد هو الطاعة. لذلك فما يدعى البعض بأنه حب ، ليس كذلك على الإطلاق لأن الحب الحقيقى الإيثارى المضحى العامل ، هو أندر شىء فى الوجود .

من الواضح إذا أن الحب شىء نادر .. الحب الحقيقى الذى يتجسم فى روح الطاعة . ولكن «يسوع» لايتركنا نصارع بمفردنا فى هذا الميدان . إنه يرسل لنا معينا يسندنا ويؤازرنا ويرفعنا . من هو هذا المعين ؟ يتقدم السيد باسم تصعب ترجمته أو تستحيل . هذا الإسم فى الأصل اليونانى يعبر عنه بكلمة « باراكليتوس » أو الباراكليت ، أما الترجمة المعتمدة الإنجليزية ، وتسير فى ركابها ترجمة ڤانديك العربية ، فقد نقلت كلمة باراكليتوس على أنها « المعزى » ، وبالرغم من أن هذه الترجمة تقربنا قليلا من المعنى ، كما أنها تقدست بمرور الزمن والإستعمال ، إلا إنها ليست كافية لتقدم لنا المعنى الأصلى فى قوته . فى ترجمة موفات ترد كلمة « المعين » . وحتى هذه لاتقدم لنا الأصل فى ملء غناه .

إننا لو فحصنا لفظة « باراكليتوس » فإننا نجدها تعنى حرفيا «شخصا استدعى

إلى » . ولكن السبب الذى بمقتضاه استدعى هذا الشخص هو الذى يحدد صفته، ويضفى على كلمة باراكليتوس صبغتها المميزة . ولقد استخدم اليونانيون الكلمة فى أكثر من طريق.إستخدموها للدلالة على الشهادة أمام القضاء . فالباراكليتوس هو الشاهد الذى يدعى إلى المحكمة للادلاء بشهادته ولا يشترط أن يكون هذا الشاهد محترفاً كبعض الشهود الذين يستدعون للإدلاء بشهادتهم . فقد يكون إنساناً له كرامته ومركزه،نظير محام أتى ليدافع عن موكله ، وبناء على دفاعه عنه تترتب أخطر النتائج . وقد يكون خبيرا استدعى للاستعانة برأيه فى قضية من القضايا ، أو مشكلة من المشكلات .

بل قد يكون الباراكليتوس وسيطا ،لهمن الحكمة والمقدرة والمواهب ، ما يستطيع به أن ينفخ الهمة فى فصيلة من الجند أصابها الأعياء واليأس ، وراودها الفكر بالنكوص على أعقابها . وهكذا يدعى إلى هذه الفصيلة ليعيدها إلى القوة والنشاط .

إن الباراكليتوس :هو على الدوام شخص يدعى إلىمهمة عاجلةتقتضيها المعونة فى الأزمات ، أو اليأس ، أو الضيقات .

أما كلمة المعزى ، فربما يرجع دخولها إلى أكثر من ترجمة من ترجمات الكتاب فى أكثر من لغة ، إلى عهد « ويكليف » ، فهو أول من استخدمها فى اللغة الإنكليزية . ولقد كانت الكلمة تعنى أكثر مما تعنيه الآن. كان أحد مقاطعها « فورت Fortis » فى اللاتينية يعنى الشجاعة . ولذلك كانت كلمة المعزى تعنى فى تلك العصور السالفة ،الشخص الذى ينفخ فى إنسان تبطت همته ،معانى الشجاعة وأسباب القـوة . أما الآن،فان كلمة المعزى،لا تزيد فى معناها عن إنسان يواسى إنسانا آخر ،فى حزن أو مصاب

ومما لا شك فيه أن هذه هي إحدى وظائف الروح القدس . ولكن عمل الروح لا يقتصر على هذا فحسب ، إننا إن جعلناه معزيا فقط نقلل من عمله ، وننتقص من وظيفته . هناك كلمة قد تكون أكثر خصوبة، وتعطي دلالة أكثر ، وهي كلمة مكافح أو مناضل أو منهض . إن الروح القدس هو المناضل المكافح فينا ، الذى يحول هزيمتنا وفشلنا وهزالنا ، إلى قوة وانتصار .

وهكذا فإن ما يقصده «يسوع» أن يقوله لنا ، هو على هذا النحو « إنى مرسلكم فى ميدان قاس ، وواضع عليكم نيرا ثقيلا ، ومحملكم مسئولية عظمى . ولكنى لن أرسلكم بمفردكم . سأرسل معكم الباراكليتوس الذى يقويكم ، ويشجعكم ، ويؤازركم حتى تستطيعوا أن تقوموا بواجبكم ، وتحملوا أحمالكم . إن الروح القدس روح الحق ، سوف يرشدكم إلى الحق ، وينهض عزائمكم الفاترة المرتخية ، حتى تستطيعوا أن تكافحوا وتناضلوا فى الجهاد الموضوع أمامكم فى سبيل الحق » .

ثم يتقدم «يسوع» خطوة أخرى ، ليعلن أن العالم لا يعرف روح الحق . أما العالم فيعنى به ذلك « القطيع » من البشر الذى يحيا بلا إله . . . أولئك الذين حذفوا اسم الجلالة من برنامج حياتهم . أما مركز الدائرة فى هذا القول الإلهى فهو هذا : إننا نستطيع أن نبصر ما نتهيأ فى الداخل لرؤيته . فقد يحدث أن أسير جنبا لجنب مع عالم من علماء الفلك ، ونرفع نحن الأثنين أبصارنا إلى السماء ، لكن عالم الفلك يستطيع أن يرى فى صفحة السماء ، ما لا أراه أنا . وقد أسير فى الحديقة إلى جوار عالم من علماء النبات . لكن الزهرة التافهة الرابضة بين العشب : والتى تطؤها قدماى فى غير

اهتمام ، تبدو فى مخيلته زاخرة بالصور والمعانى . وقد يتاح لى أن أقف إلى جوار طبيب يجرى الكشف على إنسان . لكن ما يراه الطبيب فى أعماق كيان ذلك الإنسان المريض ، لا أستطيع أن أراه أنا . وقد يعرض لى أن أدخل مع أحد خريجى كلية الفنون ، إلى متحف من متاحف الفن ، ونقف سويا أمام صورة من الصور . لكن كل خط من الخطوط المتقاطعة التى تخف فى سوادها ، أو تكثف ، أو تتوزع هنا وهناك على اللوحة ، تكشف أمام عينى صديقى عن معان لا أستطيع أن أصل أنا إلى إدراكها بنظرتى السطحية غير المدربة — دائما مانستطيع أن نفهمه ونقبله ، يتوقف على الصورة السابقة التى تكونت فى مخيلتنا على أساس اختباراتنا ومعرفتنا السالفة . وعلى هذا الأساس ، فإن الإنسان الذى اعتاد على إبعاد الله عن دائرة تصوره ، وتفكيره ، وبرنامج حياته ، لن يكون لديه أدنى وقت ، فى يوم من الأيام لينتظر الله ، ويصغى إلى صوته . انه يعتبر الوقت الذى يقضيه مع الله وقتا مضيعا بلا جدوى . ومالم نتعلم كيف ننتظر فى صمت وثقة وتسليم فى محضر الله ، فاحصين ذواتنا ، منكرين أنفسنا ، فاننا لن نقبل روح الله ، ولن تكون لنا المقدرة على معرفته المعرفة الاختبارية .

إن العالم لايعرف روح الله ، ولايستطيع أن يقبله ، لأن العالم لايملك نظرة التقدير والاعتبار لكل ماهو إلهى ، ولأنه أكثر مشغولية من أن يختلى مع الله ، ويفحص نفسه فى نوره الفاحص ، ويعطى الروح القدس الفرصة لدخول القلب والسيطرة على الحياة .

إن كنا نريد أن نتمتع بدخول الروح القدس إلى قلوبنا ، ونملكه

على حياتنا ، إن كنا نريد أن نتمتع بقوته وتعزيته ، وإنهاضه لنفوسنا ، إن كنا نريد أن نحيا فى ملء القوة والثمر المبارك ، ثمر الروح القدس ، ينبغى أن نخلى أنفسنا من العالم واهتماماته ، ونفرز وقتا منتظرين فى صمت ، وإيمان وتسليم ، حتى يتنازل الرب إلينا بموعد الآب .

بَعْدَ قَلِيلٍ لَا يَرَانِيَ ٱلْعَالَمُ أَيْضاً وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَرَوْنَنِي. إِنِّي أَنَا حيٌّ فَأَنْتُمْ سَتَحْيَوْنَ. فِي ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ تَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا فِي أَبِي وَأَنْتُمْ فِيَّ وَأَنَا فِيكُمْ. ٱلَّذِي عِنْدَهُ وَصَايَايَ وَيَحْفَظُهَا فَهُوَ ٱلَّذِي يُحِبُّنِي. وَٱلَّذِي يُحِبُّنِي يُحِبُّهُ أَبِي وَأَنَا أُحِبُّهُ وَأُظْهِرُ لَهُ ذَاتِي.

قَالَ لَهُ يَهُوذَا لَيْسَ ٱلْإِسْخَرْيُوطِيَّ يَاسَيِّدُ مَاذَا حَدَثَ حَتَّى إِنَّكَ مُزْمِعٌ أَنْ تُظْهِرَ ذَاتَكَ لَنَا وَلَيْسَ لِلْعَالَمِ.

أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ إِنْ أَحَبَّنِي أَحَدٌ يَحْفَظْ كَلَامِي وَيُحِبُّهُ أَبِي وَإِلَيْهِ نَأْتِي وَعِنْدَهُ نَصْنَعُ مَنْزِلاً. ٱلَّذِي لَا يُحِبُّنِي لَا يَحْفَظُ كَلَامِي. وَٱلْكَلَامُ ٱلَّذِي تَسْمَعُونَهُ لَيْسَ لِي بَلْ لِلْآبِ ٱلَّذِي أَرْسَلَنِي.

(يوحنا ١٤ : ١٩—٢٤)

لابد أن شعورا بالوحشة قد ساد على التلاميذ، وهم يصغون إلى حديث سيدهم. لابد أنهم أحسوا أمام ذلك الخطاب الوداعي المملوء بأكثر من

تعزية وتشجيع ووعد ، أن هناك مأساة تلوح فى الأفق . ولكن «يسوع» يعود فيطمئنهم بالقول : « لا أتركم يتامى » . ونحن نستخدم كلمة يتامى للأشارة إلى من فقد أحد الوالدين . ولكنها كانت تطلق فى القديم على تلاميذ فقدوا معلمهم الحبيب .

يتحدث «أفلاطون» أنه حينما مات «سقراط» ، ظن تلاميذه أنهم سيقضون سحابة العمر فى وحشة اليتامى الذين فقدوا عائلهم ، ولا يعرفون ماذا يفعلون من بعده . ولكن « يسوع » يقول لتلاميذه إنهم لن يصبحوا كذلك . ولن يتركهم فى وحشة اليتم ، بل سيرجع إليهم . وبهذا القول كان يشير إلى قيامته من الموت ، وظهوره لهم . إنهم سيرونه بأعينهم بعد أن يغيب وراء جدران القبر . . سيرونه حيا منتصراً لأن الموت لن يسود عليه ، وسيرونه أيضا لأنهم أصبحوا أحياء فيه ، وهو يعنى بذلك الحياة الروحية . إنهم فى هذه الساعة فى ذهول وخوف أمام العاصفة التى تبدو نذرها فى الأفق . ولكن سيأتى اليوم ، الذى تتفتح فيه بصيرتهم الروحية ، وتتفتح عقولهم المغلقة ، فيرونه ويعرفونه حقا . وهذا ما حدث تماما حينما قام «يسوع» من الأموات . إن قيامة السيد ، قد حولت يأسهم إلى بأس ، وضعفهم إلى قوة ، فتحققوا يقينا أن يسوع المسيح هو بالحقيقة ابن الله .

فى هذه القطعة التى تبدو أمامنا مثل سيمفونية الرجاء ، نستمع إلى بعض الأنغام المتميزة .

١ — فهى تسود عليها نغمة المحبة . والمحبة فى البشارة الرابعة أساس كل شئ ، ليس فقط لأن البشارة الرابعة هى بشارة المحبة فالآب يحب الأبن ، والأبن يحب الآب . والله يحب العالم ، وكذلك يسوع — يحب العالم . والبشر

فى يسوع يحبون الله ، ويرتبطون ، الواحد مع أخيه برباط المحبة . إن المحبة هى الرباط الأسمى الذى يربط السماء بالأرض والإنسان بإلهه ، والإنسان بأخيه . بل هى الناموس الأعظم الذى يسود دوائر السماء العليا .

٢ — ومرة أخرى، نستمع إلى نغمة الطاعة تتردد فى هذه الفقرة . فالطاعة برهان المحبة الأوحد . ولأولئك الذين أحبهم ظهر «يسوع» حينما قام من الأموات .. أولئك الذين أظهروا محبتهم له بطاعتهم العملية .

٣ — وهذه المحبة الواثقة المطيعة تصل بنا إلى نتيجتين، فهى توصلنا إلى الأمان الكامل . فإن أولئك الذين أحبوا «يسوع» وأظهروا محبتهم له فى طاعة عملية ، سوف يكونون فى أمان فى يوم انتصار المسيح، حينما تتهاوى أمم العالم وتبيد الممالك. وهى أيضاً تقودنا إلى الإعلان الكامل، لأن الذى يحب يسوع فى غير فساد ، يكشف له أكثر فأكثر عن ذاته . وصفاته . إن معرفة الله ، وإعلان الله للإنسان ، هما أثمن ما فى الوجود . وهناك أساس أدبى لذلك الكشف أو الأعلان . فالذى يريد أن يرى الله فى المسيح ، أن يعلن له المسيح ذاته ، هو الذى يحفظ الوصايا الإلهية . لا يمكن أن يتمتع إنسان بعيد برؤية القدير . إن الله قد يستخدم الإنسان الشرير لمجده ، ولكنه لن يعلن له ذاته ، ولن تكون له الشركة معه — الذى يسعى إلى الله بالمحبة الصادقة الطيعة، هو وحده الذى يعلن له ذاته والذى يسعى للصعود إلى جبل الله رغم ضعفه ، هو الذى ينزل الله إليه ويتنازل .

إن الشركة مع الله ، وإعلان الله للإنسان ، يتوقفان على المحبة . والطاعة هى برهان المحبة الأوحد . فكلما أطعنا الله أكثر فأكثر ، كشف لنا ذاته . وكلما سرنا فى وصاياه ، نسير معه ، ونتمتع به .

بِهٰذَا كَلَّمْتُكُمْ وَأَنَا عِنْدَكُمْ. وَأَمَّا ٱلْمُعَزِّى ٱلرُّوحُ ٱلْقُدُسُ ٱلَّذِى سَيُرْسِلُهُ ٱلْآبُ بِٱسْمِى فَهُوَ يعَلِّمُكُمْ كُلَّ شَيْءٍ وَيُذَكِّرُكُمْ بِكُلِّ مَاقُلْتُهُ لَكُمْ.

سَلَاماً أَتْرُكُ لَكُمْ. سَلَامِى أُعْطِيكُمْ. لَيْسَ كَمَا يُعْطِى ٱلْعَالَمُ أُعْطِيكُمْ أَنَا. لَا تَضْطرِبْ قُلُوبُكُمْ وَلَا تَرْهَبْ. سَمِعْتُمْ أَنِّى قُلْتُ لَكُمْ أَنَا أَذْهَبُ ثُمَّ آتِى إِلَيْكُمْ. لَوْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَنِى لَكُنْتُمْ تَفْرَحُونَ لِأَنِّى قُلْتُ أَمْضِى إِلَى ٱلْآبِ. لِأَنَّ أَبِى أَعْظَمُ مِنِّى. وَقُلْتُ لَكُمُ ٱلْآنَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ حَتَّى مَتَى كَانَ تُؤْمِنُونَ. لَا أَتَكَلَّمُ أَيْضاً مَعَكُمْ كَثِيراً لِأَنَّ رَئِيسَ هٰذَا ٱلْعَالَمِ يَأْتِى وَلَيْسَ لَهُ فِيَّ شَيْءٌ. وَلٰكِنْ لِيَفْهَمَ ٱلْعَالَمُ أَنِّى أُحِبُّ ٱلْآبَ وَكَمَا أَوْصَانِى ٱلْآبُ هٰكَذَا أَفْعَلُ. قُومُوا نَنْطَلِقْ مِنْ هٰهُنَا

(يوحنا ١٤ : ٢٥ – ٣١)

هذه الفقرة ذاخرة بالحق . وفيها يتحدث «يسوع» عن خمسة أمور ..

١ – فهو يتحدث أولا عن الروح القدس روح الحق . وهو يذكر أمرين أساسيين عن الروح .

(ا) فالروح القدس يعلمنا كل شيء . إن المسيحى ينبغى أن يتخذ طيلة حياته، وضع من يريد أن يتعلم ، ومن يسعى للتعليم ، والروح القدس يقوده يوما بعد يوم ، إلى مجالات أعمق وأعمق فى حق الله . لا يوجد مسيحى مهما تعمق فى المعرفة ، يستطيع أن ينادى بأنه قد عرف كل الحق . ولا توجد اعذار فى دائرة الإيمان المسيحى لأصحاب العقول المغلقة المكتفية . إن المسيحى الذى يشعر بأنه قد وصل فى المعرفة إلى درجة الاكتفاء ، لم يتعرف قط على الروح القدس فى حياته ، ولم يتتلمذ على يديه .

(ب) والروح القدس يذكرنا بكل ما قاله السيد لنا . وهذا يعنى أنه فى دائرة إيماننا الأقدس يذكرنا روح الله بكل ما قاله لنا يسوع . إن عقولنا تفكر وتصل فى تفكيرها إلى نتائج ، لكننا ينبغى أن نخضع الفكر لمقياس تعليم المسيح الكامل . ومهما سمونا فى تفكيرنا فلن نصل إلى فكر الله . علينا أن نقبل حق الله الذى أعلنه لنا «يسوع» . إن مهمة اكتشاف الحق لم تعد بعد علينا . كل ما علينا فقط أن ندرك مضمون الحق، أن نعرفه .. أن نصل إلى أعماقه .. أن نعرف كل ما قاله «يسوع» لنا . فالروح يذكرنا بكل ماقاله السيد لنا ، ويحفظنا أيضاً من الشطط فى الفكر والأستنتاج .

(ج) والروح القدس يقوم حياتنا وسلوكنا – وكم من مرة يتكرر هذا الاختبار فى حياتنا كمؤمنين . كم من مرة نجرب بأن نخطىء فيأتينا فى الحال قول من أقوال المسيح ، أو صورة آلامه على الصليب ، أو آية من

المزامير ، أونصيحة نطق بها صديق نجله ونحترمه ، أو تعليم رضعناه مع لبان أمهاتنا . ما الذى يذكرنا بكل هذا ، ويرسم هذه الصور أمامنا ؟ من الذى يتقدم إلينا بالتذكرة فى اللحظة الحاسمة ؟ هذا هو عمل الروح القدس فى ساعة التجربة ، فهو الذى يذكرنا بكل ما قاله لنا «يسوع» .

٢ – ويتحدث إلينا بهبة عظمى مباركة ، هبة السلام . والسلام فى الكتاب المقدس « شالوم » لايعنى غياب المتاعب . ولكنه يعنى ما من شأنه رفعتنا ووصولنا إلى أسمى حالة من الهدوء والسعادة . إن السلام الذى يهبه العالم هو سلام الهروب من المتاعب ، وتجنب المضايقات ، سلام عدم مواجهة العاصفة ، والاختباء منها . لكن السلام الذى يقدمه لنا « يسوع » هو سلام الأنتصار . . الذى لاتنتزعه أية هموم أو متاعب ... السلام الذى لا يوهنه الحزن والضيق والألم . . السلام العميق المستقل عن كل الظروف الخارجية .

٣ – وفى هذه الفقرة يتحدث إلينا«يسوع»عن غايته ، فهو سيعود إلى الآب . . وهو يقول لتلاميذه إنهم إن كانوا يحبونه حقا فينبغى أن تفيض قلوبهم بالفرح لأجل هذا ، فهو سيتحرر من محدودية الوجود المادى ستتحطم أمامه الحدود .. سيبدأ استعلان أمجاده الحقة .. لوتأملنا هذا الحق لأمتلأت قلوبنا فرحاً ،حينما نرى واحداً من أحبائنا المؤمنين ينطلق إلى المجد . ليس معنى هذا ألا نحس بلوعة الحزن ، ولوعة الفراق . ولكن معناه أننا فى حزننا ، وفى وحشتنا ينبغى أن نمتلىء بشعور الأرتياح والتسليم . لأن أولئك الذين نحبهم قد استراحوا من أمواج الحياة ، وعواصفها ، ووصلوا إلى الميناء بسلام ، ينبغى ألا نقلل فى ساعة أحزاننا من ، قيمة الراحة التى يتمتع بها أحباؤنا ، والأمجاد التى ينعمون بها ..

٤ — ويتحدث «يسوع» أيضاً عن الصراع الذى ينتظره، والمعركة التى أصبحت على الأبواب، ولقد كان الصليب هو آخر معركة خاضها «يسوع» ضد قوات الشيطان ، ولكن يسوع لم يخش الصليب لأنه كان يعلم أن النصرة النهائية ليست للشر بل للحق ، لقد سار إلى صليبه بروح الثقة والانتصار ، وليس بخطوات اليأس والانكسار .

٥ — وفى هذه الفقرة يتحدث عن انتصاره . حتى هذه الساعة لم يكن الناس يرون فى الصليب سوى العار والمذلة . ولكن سيأتى اليوم الذى يصبح فيه صليب يسوع رمزاً لطاعته للآب ، ومحبته للبشر . إن مفاتيح أسمى ما فى حياة يسوع من أهداف ومعان ، قد وجدت تحقيقها فى الصليب ، هنا أعلنت بطريقة تفوق العقل والأدراك ، طاعة الابن للآب ، ومحبة الآب والأبن للعالم أجمع .

ٱلْأَصْحَاحُ ٱلْخَامِسُ عَشَرَ

الكرمة والأغصان

أَنَا ٱلْكَرْمَةُ ٱلْحَقِيقِيَّةُ وَأَبِي ٱلْكَرَّامُ . كُلُّ غُصْنٍ فِيَّ لَايَأْتِي بِثَمَرٍ يَنْزِعُهُ . وَكُلُّ مَا يَأْتِي بِثَمَرٍ يُنَقِّيهِ لِيَأْتِيَ بِثَمَرٍ أَكْثَرَ . أَنْتُمُ ٱلْآنَ أَنْقِيَاءُ لِسَبَبِ ٱلْكَلَامِ ٱلَّذِي كَلَّمْتُكُمْ بِهِ . اثْبُتُوا فِيَّ وَأَنَا فِيكُمْ . كَمَا أَنَّ ٱلْغُصْنَ لَايَقْدِرُ أَنْ يَأْتِيَ بِثَمَرٍ مِنْ ذَاتِهِ إِنْ لَمْ يَثْبُتْ فِي ٱلْكَرْمَةِ كَذٰلِكَ أَنْتُمْ أَيْضاً إِنْ لَمْ تَثْبُتُوا فِيَّ . أَنَا ٱلْكَرْمَةُ وَأَنْتُمُ ٱلْأَغْصَانُ . ٱلَّذِي يَثْبُتُ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ هٰذَا يَأْتِي بِثَمَرٍ كَثِيرٍ . لِأَنَّكُمْ بِدُونِي لَاتَقْدِرُونَ أَنْ تَفْعَلُوا شَيْئاً . إِنْ كَانَ أَحَدٌ لَايَثْبُتُ فِيَّ يُطْرَحُ خَارِجاً كَٱلْغُصْنِ فَيَجِفُّ وَيَجْمَعُونَهُ وَيَطْرَحُونَهُ فِي ٱلنَّارِ فَيَحْتَرِقُ . إِنْ ثَبَتُّمْ فِيَّ وَثَبَتَ كَلَامِي فِيكُمْ تَطْلُبُونَ مَاتُرِيدُونَ فَيَكُونُ لَكُمْ . بِهٰذَا يَتَمَجَّدُ أَبِي أَنْ تَأْتُوا بِثَمَرٍ كَثِيرٍ فَتَكُونُونَ تَلَامِيذِي. كَمَا أَحَبَّنِي ٱلْآبُ

كَذٰلِكَ أَحْبَبْتُكُمْ أَنَا . اثْبُتُوا فِي مَحَبَّتِي . إِنْ حَفِظْتُمْ وَصَايَايَ تَثْبُتُونَ فِي مَحَبَّتِي كَمَا أَنِّي أَنَا قَدْ حَفِظْتُ وَصَايَا أَبِي وَأَثْبُتُ فِي مَحَبَّتِهِ .

(يوحنا ١٥ : ١ – ١٠)

فى هذه الفقرة يستعير السيد من مملكة النبات صورة متواضعة ليرمز بها لحقائق عظمى . صورة كانت وما تزال ركنا جوهريا فى التراث الدينى اليهودى . فأكثر من مرة فى العهد القديم يصور الوحى اسرائيل فى صورة كرمة القدير . يقول اشعياء « ان كرم رب الجنود بيت اسرائيل » (إشعياء ٥ : ١ – ٧) ويتكلم الرب على لسان ارميا قائلا عن اسرائيل « وأنا قد غرستك كرمة سورق » (ارميا ٢ : ٢١) أى كرمة نبيلة كريمة .

فإذا أتينا إلى نبوات حزقيال ، نسمعه يكرر نفس التشبيه فى أكثر من موضع (حزقيال ١٥ ، ١٩ ، ١٠) .

أما هوشع فيقول : « اسرائيل جفنة ممتدة » (هوشع ١٠ : ١) . أى كرمة فارغة بلا ثمر . أما المرنم فإنه يذكر إحسانات الرب لشعبه فى إخراجه من أرض مصر فيقول « كرمة من مصر نقلت » (مزمور ٨٠ : ٨) .

وهكذا أصبحت الكرمة رمزا لأمة اسرائيل ، حتى أننا نجد النقود التى صكت فى عصر المكابيين تحمل صورة الكرمة . وأما أحد أمجاد الهيكل وروائعه ، فقد كان الكرمة الذهبية الضخمة على مدخل الموضع المقدس . ولقد كان الأثرياء والعظماء يتنافسون فى تقديم عطايا ذهبية لتسبك وتضاف

إلى الكرمة الذهبية فى صورة عنقود عنب ، أو حتى حبة واحدة ، لقد كانت الكرمة جزءا لايتجزأ من التراث الروحى والفنى لليهود . بل كانت رمزاً للأمة بأكملها .

ويأتى «يسوع» فى ملء الزمان لينادى بأنه هو الكرمة الحقيقية . ماذا يعنى بكلمة الحقيقية والأصلية ؟ فى الواقع إننا لو تأملنا فى الوحى فى صورة الكرمة فى العهد القديم ، فإننا نجدها تقترن فى غالبية الأحوال بالتدهور والانحلال . فاشعياء يتحدث عن كرم تالف يثمر عنبا مراً رغم كل مابذل له من عناية ورعاية . أما أرميا فشكواه تدور حول كرمة برية منحلة إشارة إلى أمة ابتعدت عن إلهها وأصبحت غريبة عنه فدب فيها الانحلال . على نفس الوتيرة يتحدث هوشع عن كرمة تمد خراعيبها الخاوية ، فتبدو من بعيد شيئا كبيرا وهى لاتحمل ثمراً على الإطلاق ، وإذا صنعت تصنع ثمراً مراً لحساب نفسها . وكأنى بيسوع يقول لتلاميذه : « انكم تظنون انكم بانتمائكم إلى اسرائيل أنتم أغصان فى الكرمه الحقيقية . انكم تظنون انكم لكونكم يهودا أنتم شعب الله المختار . . إنكم تظنون انكم بمولدكم ، وبجنسيتكم ، أنتم فروع فى الكرمة الإلهية ، ولكنى أقول لكم إنه ليس إسرائيل كرم الله ، ولاجنس يعقوب جفنة القدير . ان إسرائيل كشعب قد أصبح كرمة برية منحرفة تقدم الثمر المر ، كما تحدث بذلك أنبياؤكم . إن حقيقة كونكم يهوداً لن تخلصكم ، ولكن الطريق الوحيد للخلاص ، هو أن تكون لكم شركتكم الحية معى . . أن تتطعموا فى وتتأصلوا كما يتأصل الغصن فى الكرمة . لأنى أنا كرمة الله الحقيقية ، وأنتم ينبغى أن تصبحوا أغصانا فى . لقد وضع يسوع المبدأ أن ليس الدم اليهودى أساس خلاص الله ، ولكن الإيمان به ، هو الأساس فالمؤهلات الخارجية لا تجدى . ولكن الارتباط الحى بالإيمان بيسوع المسيح هو الطريق الوحيد للخلاص .

الكرمة والأغصان (تابع)

(يوحنا ١٤ : ١ — ١٠)

حينما رسم «يسوع» أمام أنظار تلاميذه صورة الكرمة والأغصان ، كان يستوحي من البيئة صورة شعبية مألوفة . فقد كانت الكرمة هي المنظر الذي يتكرر في فلسطين في أكثر من مكان . والكرمة نبات يحتاج إلى أكثر من عناية ، حتى يقدر له أن يعطي ثمرا جيدا . فالتربة ينبغي أن تكون نظيفة تماما ، والدعائم والتكعيبات الخشبية قريبة من الساق حتى تتعلق بها الأغصان الغضة . وفي الحدائق كان يسمح للساق بأن تزحف قريبة من الأرض مرفوعة قليلا بدعائم خشبية على شكل حرف ٨ . وكان يفسح المكان بين كرمة وأخرى ، لأن فروع الكرمة الواحدة كانت تنتشر على مساحة واسعة . أما الكرمة الناشئة فلا يسمح لها بأن تثمر إثماراً لمدة ثلاث سنوات كاملة . فكانت تقرض فروعها كل عام حتى لاتصل إلى حد الإثمار ، فتحتفظ بحيويتها ونشاطها . فاذا وصلت إلى سن النضوج ، تشذب الأغصان في الشهر الأخير من العام ، والشهر الأول من العام الذي يليه . فالكرمة لها نوعان من الأغصان : أغصان مثمرة تثقل بالعناقيد ، وأغصان بلا ثمر . أما الأغصان العقيمة التي لاتحمل سوى الأوراق الخضراء ، فهي تقطع بلا شفقة حتى لاتمتص رحيق الحياة من الكرمة ، وحتى تتيح الفرصة للأغصان الأكثر نفعا بأن تتقوى وتؤتي ثمارها . وبدون هذا التشذيب القاسي ، لن يتاح للكرمة أن تأتي بثمارها وتثقل بالعناقيد .

زيادة على ذلك ، فان إحدى « ميزات » خشب الكرمة ، انه لايصلح لشيء . فهو هش لايناسب أعمال النجارة . حتى لمذبح المحرقات ما كان

خشب الكرمة يصلح للإيقاد . ولقد كانت هناك مواسم لتقديم عطايا الأخشاب للمحرقة ، وكانت التعليمات تقضى ألا يقدم خشب الكرمة . فالمنفعة الوحيدة للأغصان الخشبية التى تقطع ، أن تطرح خارجا فى حرارة الشمس لتجف ، ثم تجمع وتطرح فى النار فتحترق — ربما تجمعها النسوة للايقاد . ولقد كان « يسوع » يعرف هذه الحقيقة التى تضفى على الصورة معانى أعمق .

وهكذا يقول معلم الأجيال ، إنه ان كانت صورة الكرمة تنطبق عليه. فإن الأغصان صورة لأتباعه . فالبعض من هذه الأغصان — أتباعه — أغصان مثمرة . والبعض الآخر أغصان بلا نفع ، لاتحمل ثمراً على الأطلاق ترى ماذا كان السيد يقصد بالأغصان التى بلا ثمر ؟

هناك جوابان لهذا السؤال . أما الجواب الأول أنه كان يعنى شعبه . . أمته . . مواطنيه . إنهم أغصان فى الكرمة بطبيعة كونهم يهوداً ، سلالة ابراهيم بالجسد . أليست هذه هى الصورة التى رسمها لهم الأنبياء الواحد بعد الآخر ؟ ولكنهم رفضوا أن يستمعوا له ، أن يقبلوا تعاليمه . ، . أن يرتبطوا به ، وهكذا لم يثبتوا فى الكرمة فكان مصيرهم الانفصال . . وكان مصيرهم الذبول والجفاف ، وكان مصيرهم مصير كل غصن لايأتى بثمر . وإن كان أحد لايثبت فى يطرح خارجا كالغصن فيجف ويجمعونه ويطرحونه فى النار فيحترق .

أما الجواب الثانى لهذا السؤال ، فهو يتجه إلى صورة أكثر شمولا وأكثر تعميماً . فلابد أن «يسوع » كانت فى مخيلته صورة المسيحيين بالاسم الذين بلا ثمر فى كل العصور والأجيال ، الذين يظهرون أمام الناس شيئا كبيرا كالغصن المورق المزدهر ، ولكنهم فى واقع الحال بلا ثمر .

بل كانت فى مخيلته صورة المرتدين الذين سمعوا يوما بشارة الحياة وقبلوها بفرح ، ولكن لم يكن لهم أصل فى ذواتهم ، فسرعان ما ارتدوا ونكصوا على أعقابهم . وأنكروا الإيمان ، وخانوا المرسل والرسالة .

هناك طرق ثلاثة تنتهى بالأنسان إلى حياة العقم العديم الثمر : أن يرفض الإنسان الإصغاء إلى صوت السيد وقبول حقه، شأنه شأن اليهود فى عصر المسيح :أو أن يصغى لبشارة الحياة ويرحب بها مقدما خدمة الشفاه فقط دون أن تتأيد بالأعمال . أو أن يقبل يسوع سيدا على حياته . فإذا حدث ضيق أو إضطهاد أو جابهته صعاب ، أو وجد الحياة الجديدة تتعارض مع مصالحه ورغائبه ، يرتد فى الحال ،ويصبح شراً من غير المؤمنين ولكن ينبغى أن نذكر شيئا جوهريا . إن عدم الإثمار ينتهى على الدوام بكارثة أو مأساة ، فالغصن الذى لايقدم ثمرا هو فى طريقه إلى الحريق .

الكرمة والأغصان (تابع)

(يوحنا ١٥ : ١ - ١٠)

فى هذه الفقرة تتردد أكثر ما تتردد ، فكرة الثبات فى المسيح . ترى ماذا يعنى السيد بقوله « إثبتوا فى » ؟

صحيح أن هذا القول له مضمونه السرى الصوفى . وأن هناك معنى صوفيا عميقا سريا خلف ثبات المؤمن فى المسيح ، وثبات المسيح فى المؤمن. ولكننا لانستطيع أن نقول، بأن كل المؤمنين لهم اختباراتهم الصوفية . فمعظمهم أناس عاديون . لذلك علينا أن نبحث عن طريق أكثر بساطة. ومفتوحا أمام الجميع للثبات فى المسيح . . ولنأخذ مثلا ماديا بشريا رغم أننا نعرف أن الأمثلة البشرية، تقصر عن أن تصل إلى المستوى الروحى الذى

ترمز إليه . لنأخذ على سبيل المثال إنسانا ضعيفا واهن الشخصية ، ما أن تعرض له التجربة حتى يسقط فيها . انفرض أنه ضل تماما . والتوت به السبل ، وهو الآن فى طريقه للانهيار الروحى ، والنفسى ، أيضا ولنفرض أن لذلك الإنسان صديقا له شخصيته القوية المتكاملة المحبة . وأن ذلك الصديق صاحب الشخصية القوية أراد أن ينقذ ذلك الإنسان من تهوره . هناك طريق واحد يستطيع به الإنسان الضعيف أن يستعيد ذاتيته ويعود إلى نفسه ، أن يلتصق التصاقا كاملا بصديقه القوى . فاذا فقد أسباب الإلتصاق أو الإتصال ، يعود إليه ضعفه وينتصر عليه وتبرز رؤوس الأفاعى من جحورها . وتثور عليه عواصف التجربة فيسقط . إن خلاصه يكمن فى الاتصال الدائم ، والإلتصاق القوى بصديقه ، وهلاكه فى فقدان ذلك الاتصال .

فى بلدان الغرب ، نجد أكثر من هيئة نظير جيش الخلاص وغيرها تهتم بايواء المشردين ، والسكيرين ، والذين وقعوا تحت سلطان الإنحراف والرذيلة . وهناك تحيطهم بأسباب النقاوة والصداقة البريئة . والجو الطاهر ، الذى يعيدهم إلى أنفسهم الحقيقية . ولكن يحدث فى بعض الأحيان ، أن ذلك السكير أو المنحرف ، يحن إلى حياة الظلام فيهرب من محيطه الجديد .. إنه حالما يترك دائرة النور ، تجتذبه عناصر الظلام ، وتهاجمه عقارب الشر والرذيلة ، بأكثر قوة وضراوة ويصبح نظير قطعة الحديد التى تباعدت عن مجال التأثير المغنط لمغناطيس قوى . ولكن أعضاء الهيئة لاينفضون أيديهم يأسا ، لا بل يبحثون ويجدون ؛ حتى يعيدوه مرة ثانية إلى الجو النقى وتأثيرات الصداقة المباركة .

ينبغي أن نكون على اتصال دائم بكل ماهو جميل نقي طاهر ، حتى تغلب الشر الكامن في أعماقنا ، والشر المحيط بنا . إن الإنسان يتحول عن قصد أو غير قصد إلى الصورة التي يحبها ويلتصق بها ، فإذا كانت الصورة نيرة مشرقة تأثرت حياته بالنور . أما الصورة المظلمة الملوثة ، فتدفع الإنسان إلى الظلام .

يروى تاريخ الخدمة المنبرية عن « روبرتسون من برايتون» أنه كان من أقدر من اعتلى المنبر . وفي دائرته كان يعيش تاجر في محل متواضع . كان يحتفظ في المخزن الداخلي بصورة «روبرتسون» . فحينما كانت تراوده التجربة لكسب غير مشروع أو سلوك غير مناسب ، كان يسرع إلى الداخل ويتطلع إلى الصورة ، فينال القوة والإلهام للانتصار على التجربة . . وحينما سئل «كنجسلي » يوما عن سر حياته ، أشار إلى «ف . د . موريس » قائلا « هو صديقي هذا . ان الصداقة الجميلة طبعت حياته بصورة جميلة . . بشيء أسمى مما لا يقاس من هذه الصور الهزيلة المهتزة ، نستطيع أن نتحدث عن تأثير صلتنا بالمسيح وثباتنا فيه . إن سر حياة «يسوع » وقوته تكمن في صلته بالآب ، وطاعته له وثباته فيه فكم من مرة نراه يعتزل بعيداً ليختلي مع الله ، ويقضي الليل في الصلاة وعلى نفس القياس ينبغي أن تكون صلتنا بيسوع . ينبغي أن نكون في شركة دائمة معه والتصاق دائم به . ولكننا لا نستطيع أن نصل إلى هذا المستوى ، مالم نقم من جانبنا بالخطوات التي توصلنا إليه . ينبغي أن يكون «يسوع » في فكرنا ، وقلبنا ، واختبارنا على الدوام . ينبغي أن نختبر حضور «يسوع » في حياتنا .. أن نحيا دائما في محضره . لنأخذ مثلا واحداً ، الصلاة ساعة الصباح . فحين نقضي في محضر الله عند قيامنا من النوم ، ولو دقائق قليلة ، فإن هذه الدقائق تصبح بمثابة طاقة مختزنة في

الداخل ، تحفظنا فى نعمة وبركة الحضر الإلهى كل اليوم . لأن ذات إحساسنا بأننا نمتعنا بمحضر الملك ، يحمينا من التلوث بالدنايا .

إن الثبات فى المسيح ، هو صلة سرية عميقة صوفية بين النفس وبين المسيح ، واختبار روحى سام يسمو على كل تعبير وتفكير . إنه يعنى العيشة الدائمة فى محضر رب المجد . . الإلتصاق المستمر بيسوع المسيح . . ترتيب برنامج حياتنا . أعمالنا . . أقوالنا .. صلواتنا . .سكناتنا حتى لايمر علينا يوم فيه ننسى وجودنا الحى فى «يسوع» ، ووجوده الحى فينا .

فى القرن السادس عشر ،ظهر «القديس لورنس» الذى عرف فى التاريخ باسم الأخ«لورنس»،من رهبانية الإخوة الكرمليت فى باريس ،وقد جمعت اختباراته تحت عنوان « إختبار حضور الله » وفيها يقول: « بعد أن سلمت نفسى تسليماً كاملا لله ، هجرت فى سبيل محبته كل شئ سواه ، وبدأت أحيا فى الوجود وكأنه لاوجود لأحد سوى هو وأنا » . وأخيراً نلاحظ فى هذه الفقرة أساسين للتلمذة الحقيقية والتلميذ الصادق الأمين . أما الأساس الأول ، فهو الحياة الزاخرة الغنية المثمرة . ان ثبات الفرع فى الكرمة ،وثبات الكرمة فى الفرع ، يأتى بالثمر المتكاثر . والأساس الثانى تمجيد الله . إن حياة الفرع المثمر ،توجه أفكار الناس ، للإله الذى أثمر فى الإنسان . للكرمة التى سرى منها عصير الحياة إلى الغصن فجاء بالثمر . وكما يقول السيد : « بهذا يتمجد الآب أن تأتوا بثمر كثير . مظهرين بذلك أنكم تلاميذى . إن أعظم أمجاد الحياة المسيحية الصادقة أننا نصبح أداة لمجد الله بحياتنا وسلوكنا :

كَلَّمْتُكُمْ بِهٰذَا لِكَيْ يَثْبُتَ فَرَحِي فِيكُمْ وَيُكْمَلَ فَرَحُكُمْ

هٰذِهِ هِيَ وَصِيَّتِي أَنْ تُحِبُّوا بَعْضُكُمْ بعْضاً كَمَا أَحْبَبْتُكُمْ . لَيْسَ لِأَحَدٍ حُبٌّ أَعْظَمُ مِنْ هٰذَا أَنْ يَضَعَ أَحَدٌ نَفْسَهُ لِأَجْلِ أَحِبَّائِهِ . أَنْتُمْ أَحِبَّائِي إِنْ فَعَلْتُمْ مَا أُوصِيكُمْ بِهِ . لَا أَعُودُ أُسَمِّيكُمْ عَبِيداً لِأَنَّ ٱلْعَبْدَ لَا يَعْلَمُ مَا يَعْمَلُ سَيِّدُهُ . لٰكِنِّي قَدْ سَمَّيْتُكُمْ أَحِبَّاءَ لِأَنِّي أَعْلَمْتُكُمْ بِكُلِّ مَاسَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي. لَيْسَ أَنْتُمُ ٱخْتَرْتُمُونِي بَلْ أَنَا ٱخْتَرْتُكُمْ وَأَقَمْتُكُمْ لِتَذْهَبُوا وَتَأْتُوا بِثَمَرٍ وَيَدُومَ ثَمَرُكُمْ . لِكَيْ يُعْطِيَكُمُ ٱلْآبُ كُلَّ مَا طَلَبْتُمْ بِٱسْمِي . بِهٰذَا أُوصِيكُمْ حَتَّى تُحِبُّوا بَعْضُكُمْ بَعْضاً

(يوحنا١٥ : ١١ : ١٧)

إن مركز الدائرة فى هذه الفقرة ، هى التى يقول فيها «يسوع» لتلاميذه ليس أنتم اخترتمونى بل أنا أخترتكم : اننا لسنا نحن الذين اخترنا الله ، بل إلهنا كبير القلب متسع المراحم ، فائض النعمة ، هوالذى اختارنا فى

محبته : وهذه الفقرة تقدم لنا قائمة الأشياء التى اختارنا الرب لها ودعانا للتمتع بها :

١ — فهو قد اختارنا للفرح : فمهما كان طريق المسيحى شاقا مرهقا، فقد زرع له الفرح فى طريقه ، والبهجة فى غايته : هناك فرح عميق اسمه فرح القيام بالواجب . إننا أحيانا نحاول أن نتجنب واجبا من الواجبات ، فإذا قمنا فى النهاية به : فإن الفرح يملأ قلوبنا . إن المسيحى هو إنسان الفرح . . المسيحى فارس المسيح المبتهج — أما المسيحى المكمد الوجه ، الحزين الملامح ، الدامع العينين ، فهو اسوأ دعاية للديانة المسيحية بل إننا نقول إن الوجوه الطويلة والمسوح السوداء، وارتباط المسيحية بها فى تاريخها الطويل ، قد أضربها أكثر مما أفادها . صحيح أن المسيحى كإنسان هو إنسان خاطىء . ولكنه خاطىء مفدى بالنعمة ، وهنا يكمن سر أفراحه . وكيف يعجز الإنسان عن أن يصبح سعيداً ، إذا كان يقطع طريق الحياة فى صحبة «يسوع» ؟

٢ — وهو اختارنا للمحبة . لقد أرسلنا إلى العالم برسالة معينة،وهدف ثابت ، المحبة . . أن يحب أحدنا الآخر . أحياناً نحيا فى العالم وكأننا وجدنا لينافس أحدنا الآخر ، أو حتى ليتشاجر الواحد مع الآخر . ولكن رسالة المسيحى فى الوجود ،أن يحيا بالصورة التى يعلن فيها محبته للآخرين . هنا ينادى «يسوع» بواحد من الحقوق التى له . فإذا تقدم واحد ليسأله بأى حق تطلب منا أن يحب أحدنا الآخر ؟ بأى حق تضع على أكتافنا حمل المحبة ومسئولياتها؟ يجيبنا لقد سبقتكم فى هذا المجال. فأصبحت مثالا لكم . إنى أطلب منكم ضريبة المحبة أحدكم للآخر ، لأننى أنا قد أحببتكم حباً لا يفوقه حب . فليس لأحد حب أعظم من هذا أن يضع

أحد نفسه لأجل أحبائه. » هناك كثيرون من رجال المنبر لا يفتأون ينادون للشعب بأن يحب أحدهم الآخر ، ولو رأيت معاملتهم بعضهم لبعض ، والمنافسة على المناصب ، التى تدفعهم إلى جد البغضة والأحقاد ، لقلت لهم بأى حق تنادون بالمحبة وهى منكم براء ؟ أما يسوع فقد عاش حياة المحبة ، وسدد إلتزاماتها وتحمل تضحياتها ، ونفذ الوصية إلى أبعد حدود التنفيذ .

٣ — وهو دعانا لنكون أحباءه وخلانه . فهو لم يدعنا عبيداً لم يضعنا فى مركز العبيد . بل رفعنا إلى مقام الأحباء . إن هذه الصفة قد فقدت فى تكرارها قوتها وعمقها بالنسبة لنا ، ولكنها بالنسبة لمن سمعوها لأول مرة كانت قوية معبرة فائضة بالمعانى . إن لقب عبد (فى اليونانية « دولوس » والجمع « دولوى ») لم يكن لقب مهانة أو مذلة .

لقد كان يطلق على خادم الرب وعبده . فهو لذلك لقب غاية فى السمو والكرامة . فنحن نجد «موسى» دولوس أى عبد الرب وخادمه (تثنية ٣٤ : ٥) . وهكذا كان «يشوع» (يشوع ٢٤ : ٢٩) و«داود» (مزمور ٨٩ : ٢٠) بل إننا نجد «بولس» رسول الأمم يعتبره شرفاً لا يدانيه شرف أن يكون عبداً ليسوع المسيح (تيطس ١ : ١) وأيضاً يعقوب الرسول (يعقوب ١ : ١) .

لقد كان رجال الله فى القديم، يتشرفون بأنهم — دولوى — عبيد الله . فيأتى «يسوع» وينادى لأتباعه قائلا : لا أعود أسميكم عبيداً بل أحباء » . إن هذا قمة الإكرام والنعمة الإلهية ، التى ما كان يحلم أعظم أعاظم العالم أن يصل إليها قبل مجيئه . . إن «يسوع» يفتح الطريق أمامنا إلى مقام عظيم ، وألفة حبيبة قريبة مع الله ، حينما يدعونا أحباء الله أو خلانه .

ولكن مقام أحباء الله أو أصدقائه وخلانه ، له مكانه فى التاريخ المقدس . فإبراهيم دعى خليل الله (أشعياء ٤١ : ٨) . وفى سفر الحكمة

(٧ : ٣٧) ، يرد القول عن الحكمة أنها تجعل الناس أصدقاء الله . ولو اتجهنا إلى التاريخ الرومانى فإننا نجد إشارة إلى عادة ملكية فى بلاط القياصرة ، تلقى ضوءاً كبيراً على هذا اللقب .

فلقد كان البلاط القيصرى - ومنه سرت العادة إلى بلاط الملوك الشرقيين فى القديم - كان البلاط يضم مجموعة من المنتخبين ضمن حاشية «قيصر» يعرفون بأصدقاء قيصر ، أو ناصحيه ، أو مشيريه، هؤلاء الأصدقاء كان لهم الحق فى الدخول إلى جناح قيصر الخاص، فى أى وقت من الأوقات حتى فى غرفة نومه فى الصباح الباكر . كان يتحدث إليهم ويستشيرهم قبل أن يستقبل كبار رجال الدولة وقواد الجيش ، والوزراء ، والنبلاء والسفراء وغيرهم. لقد كان أصدقاء الملك يحتلون أضيق الدوائر حول الملك ، وكانت لهم مكانتهم الأثيرة لديه .

وهكذا رفعنا «يسوع» لنصبح أصدقاء لملك الملوك ، ورب الأرباب . أصدقاء لله جل جلاله ، هذا مركز رفيع معناه أننا لم نعد بعد نتطلع إلى الله ، كما يتطلع الفأر الخائف من شقوق الصخر ، إلى البرق الخاطف فى السماء، فى الليلة العاصفة الممطرة ، وزئير الرعد يجعله يرتعد . إننا لن نتطلع إلى إلهنا فى رعب ، كما يتطلع العبد المرتعد من بعيد ، إلى سيده الغاضب فى جناحه الخاص ، وهو لا يتجاسر أن يقترب منه . إننا لن نتطلع إلى الملك العظيم، كما ينظر رجل الشارع فى لهفة إلى الموكب الملكى، وهو يدفع الجموع بمنكبيه، ويقف عند حد معين لا يتعداه . لقد صنع «يسوع» المعجزة، وفتح الطريق ، وقربنا إلى الله، فلم يعد بعيداً عنا ، غريباً علينا ، بل صار صديقنا وحبيبنا ..

حياة شعب يسوع المختار

(يوحنا ١٥ : ١١ – ١٧)

٤ – ولكن «يسوع» لم يدعنا إلى هذه الامتيازات العظمى فحسب ، لقد دعانا أكثر لنصبح شركاءه. إن العبد لا يمكن أن يصبح شريكاً لسيده ، وبحسب تعبير القانون اليونانى : ماالعبد إلا أداة حية ..آلة حية ، هذا هو وضعه ومقامه وكيانه ، فلا يمكن أن ينتظر العبد من سيده أن يفتح قلبه له ، ولا يمكن أن يشرح له السيد الدافع لعمل من الأعمال ، أو واجب يقوم به.إن عليه أن يعمل مايأمره به بلا شرح ولا جدال ، ولكن «يسوع» يقول «إننى لن أسميكم عبيداً» .. لن أدعوكم إلى مقام العبيد ، لأن العبد لايعلم مايعمل سيده ، ولكنى دعوتكم لتكونوا شركاء أحباء ... لأعلمكم بكل شىء . لأخبركم بكل ماأعمله ، ولماذا أعمله . لأخبركم بكل ماأخبرنى به الآب » . لقد شرفنا «يسوع» بأن جعلنا شركاء له فى عمله .. فى خدمته ، لقد فتح قلبه لنا وشاركنا فكره ، وآماله ، وأهدافه . بل إنه أعطانا الامتياز العظيم أن يكون لنا مطلق الحرية فى العمل على هداية العالم إلى حق الله المعلن فى المسيح .

٥ – وهو دعانا لنكون سفراءه ، « اخترتكم وأرسلتكم » إنه لم يخترنا لنحيا حياة منعزلة عن العالم ، بل اختارنا لنكون ممثلين له فى العالم ، فى تاريخ الفروسية فى انكلترا ، لانجد أن الفارس كان يأتى إلى قصر الملك آرثر ، ليقضى أيامه فى الحفلات ، ولياليه فى مآدب التكريم ، والسهر مع زملائه الفرسان . ولكنه كان يأتى إلى الملك قائلا : « أرسلنى لعمل عظيم أقوم به لمجدك ، ولكرامة الدعوة التى إليها دعيت » .لقد اختارنا «يسوع» لنكون

شركاءه ، وفى اختياره أيضاً تكليف . لقد دعانا لنخرج فى اسمه إلى العالم. هذا ينبغى أن يكون برنامجنا اليومى ،وعلى أساسه ينبغى أن نرتب نظام حياتنا .

٦ - و «يسوع» دعانا لنكون إعلاناً حياً له. لقد دعانا لنثمر ثمراً مباركاً . ويدوم ثمرنا ، ويستمر ذلك الثمر متحدياً الزمن والتجربة . إن الطريق الوحيد لنشر المسيحية ، أن نصبح نحن أنفسنا مسيحيين .. الطريق الوحيد لاجتذاب النفوس البعيدة ، واكتسابها لحظيرة الإيمان ، أن نظهر ثمار الحياة المسيحية فى حياتنا ، إن «يسوع» لم يرسلنا إلى العالم لنجادل الآخرين عن حق المسيحية ، أو لنتحدث إليهم عن المسيحية ، أو لنرغمهم ، إذا كان لنا السلطان ، على اعتناق المسيحية ، لقد دعانا لنجتذب الآخرين إلى المسيحية لنحيا حياة الثمر المبارك ، الذى يشتاق الآخرون إليه .

٧ - بل لقد دعانا لنكون أعضاء فى أسرة الله ، وللفرد فى الأسرة الحق فى أن يطلب فينال استجابة لطلباته . هنا يتقدم «يسوع» إلينا بحق عظيم عن الصلاة ، ينبغى أن ندركه ونصل إلى أعماقه ، أحيانا يخيل إلينا - استناداً إلى هذا الوعد - أن كل مانطلبه من الآب يجاب لنا ، ولقد أشرنا إلى ذلك فى فرصة سابقة ، ولكن دعنا نعيد التأمل فيه .. فالعهد الجديد يعلن لنا أسساً ثابتة عن الصلاة ..

(أ) فصلواتنا ينبغى أن نتقدم بها بروح الإيمان (يعقوب ٥ : ١٥) فحينما تكون الصلاة شكلية روتينية طقسية، نردد فيها بضع كلمات محفوظة موضوعة ومرتبة ، لاينبغى أن ننتظر استجابة لها . وحينما تكون الصلاة غير مقترنة بالثقة فلا رجاء فيها ، فأى نفع فى طلبة إنسان يطلب أن ينال تجديداً لحياته، إن لم يكن مؤمناً بإمكانية حدوث ذلك ؟ إن الصلاة الفعالة الممتلئة بالقوة ، هى الصلاة المقترنة بالإيمان بمحبة الله الفائقة .

(ب) وصلواتنا ينبغي أن تقترن باسم «يسوع المسيح» . ينبغي أن نتقدم بها في ذلك الإسم المبارك ، وحينما نمسك بختم «يسوع» ، فإننا لايمكن أن نضعه على طلبات أنانية ، أو طلبات لايوافق هو عليها . إننا لن نطلب ، على سبيل المثال ، أن نمتلك شيئاً ممنوعا ، أو تتحقق لنا طلبة أنانية ، إذا كان في هذه الطلبة ضرر لسوانا ، وجرح له ، ونحن لن نطلب في اسم ذاك الذي هو محبة ، أن ينزل بصواعق الغضب والدينونة على أعدائنا . حينما نحاول أن نستخدم الصلاة كوسيلة لإتمام أغراضنا الأنانية ، وإشباع رغائبنا الذاتية ، لن تصبح الصلاة بعد صلاة ، ولن تنتظر لها استجابة من الله .

(ج) وطلباتنا ينبغي أن تقترن بالقول : « لتكن مشيئتك ، كما في السماء كذلك على الأرض » حينما نصلي ينبغي أن نوقن بأننا لا نعرف أكثر من الإله الكلي الحكمة والعلم . كثيراً مانكرر صلواتنا وطلباتنا ، ونصر عليها كل الإصرار ، وكأني بنا نقول لإلهنا « غير مشيئتك » . ولكن ماأحرانا أن نتعلم روح التسليم فنقول « لتكن مشيئتك » ، إن الصلاة الحقيقية المستجابة قد يحدث أن يجيب الله عليها بكلمة « لا » لمصلحتنا الروحية ، وتدريبنا وتعمقنا في الإيمان ، لكنه مع كلمة « لا » يعطينا روح الرضى ، ونعمة القبول والتسليم .

(د) وصلواتنا ينبغي ألا تكون بروح الأنانية . تقدم إلينا «يسوع» بصيغة عابرة ، بفكر ملهم قوى عن الصلاة في إنجيل متى (١٨ : ١٩) فقال «إن اتفق اثنان منكم على الأرض في أي شيء يطلبانه فإنه يكون لهما من قبل أبي الذى في السموات . لأنه حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمى فهناك أكون في وسطهم » ، نقول إن كثيرين يأخذون هذا القول مأخذاً حرفياً . فحينما يستدعى الأمر يحشدون أكبر عدد ممكن ، ليصلوا لأجل هدف واحد ليضمنوا استجابة الصلاة . ولكن مايقصده السيد هو هذا ، إننا لو

استطعنا أن نذيب مصالحنا المتعارضة الأنانية، فى سبيل هدف واحد،أو غاية واحدة ، حتى لو تعارضت هذه الغاية مع مصالحنا الفردية .

فإن الله على استعداد أن يحل وسطنا ويتنازل بالجواب : لنأخذ مثلا : الفخارى يطلب الشمس لتجف أوانيه ، والفلاح فى الحقل المجاور يطلب من الله المطر ليروى الزرع ! إننا حينما نطلب ينبغى ألا نقول : هل هذا لمصلحتى ؟ بل : هل هذا لفائدة إخوتى ؟ إن أقوى تجربة نجاهنا فى الصلاة، هى أن نصلى وكأنه لايوجد فى الوجود سوانا . مثل تلك الصلوات الأنانية ، ينبغى ألا ننتظر لها جوابا .

لقد اختارنا «يسوع» وشرفنا لنكون أفراداً فى أسرة الله . ينبغى أن نأتى بكل طلباتنا وتوسلاتنا وصلواتنا إلى العرش ؟ ولكننا لما نفعل هذا ، لاينبغى أن نتوقع من الله الاستجابة التى نجهزها نحن فى أفكارنا بل الاستجابة التى يتقدم بها هو إلينا فى حكمته ومحبته الكاملة ، إننا كلما أحببنا الله أكثر ، أصبح من السهل علينا أن نقبل إرادته فى حياتنا ..

كراهية العالم

إِنْ كَانَ ٱلْعَالَمُ يُبْغِضُكُمْ فَٱعْلَمُوا أَنَّهُ قَدْ أَبْغَضَنِي قَبْلَكُمْ. لَوْ كُنْتُمْ مِنَ ٱلْعَالَمِ لَكَانَ ٱلْعَالَمُ يُحِبُّ خَاصَّتَهُ. وَلٰكِنْ لِأَنَّكُمْ لَسْتُمْ مِنَ ٱلْعَالَمِ بَلْ أَنَا ٱخْتَرْتُكُمْ مِنَ ٱلْعَالَمِ لِذٰلِكَ يُبْغِضُكُمُ ٱلْعَالَمُ. ٱذْكُرُوا ٱلْكَلَامَ ٱلَّذِي قُلْتُهُ لَكُمْ لَيْسَ عَبْدٌ أَعْظَمَ مِنْ سَيِّدِهِ. إِنْ كَانُوا قَدِ ٱضْطَهَدُونِي فَسَيَضْطَهِدُونَكُمْ. وَإِنْ كَانُوا قَدْ حَفِظُوا كَلَامِي فَسَيَحْفَظُونَ كَلَامَكُمْ. لٰكِنَّهُمْ إِنَّمَا يَفْعَلُونَ بِكُمْ هٰذَا كُلَّهُ مِنْ أَجْلِ ٱسْمِي لِأَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ ٱلَّذِي أَرْسَلَنِي.

(يوحنا ١٥ : ١٨ – ٢١)

فى البشارة الرابعة على الدوام ، نجد «يسوع» يتطلع إلى الأمور بنظرة صريحة ، فيضع الأسود فى مكانه والأبيض فى مكانه . فهناك العالم ، وهناك الكنيسة . العالم هو العالم لا يتغير ، والكنيسة هى الكنيسة ، ولا صلة ، ولا اتفاق ، ولا مخالطة بين الاثنين . إن «يسوع» لا يعرف أنصاف الحلول ... لا يعرف معنى المهادنة ... لا يعرف موقف المحايدة . فإما أن يكون الإنسان فى جانبه ، أو فى صف العالم . ولا موقف وسط بين هذا وذاك .

لنذكر أيضاً أن الكنيسة فى ذلك الحين، كانت تحيا فى ظل الاضطهاد الذى تبدو نذره فى الأفق. فى اسم المسيح، وبسبب تمسكهم بذلك الاسم المقدس عليهم ألا يتوقعوا رياحاً هادئة. لقد كانت المسيحية دينا غير قانونى. وما كان الحاكم يحتاج إلى كبير عناء، لبحث الجرائم التى يمكن أن يدين بها مسيحيا. لقد كان يكفى أن يسأله إن كان مسيحيا أم لا. فإن أجاب بالإيجاب فلا يهم أى اعتبار آخر. فلا مركزه؛ ولا ولاؤه لقيصر، ولا خدماته للأمة كفيلة بأن تشفع له عن تلك الجريمة النكراء. إن يسوع لا يرسم بريشته صورة متشائمة مكتئبة؛ بقدر ما هى صورة حقيقية واقعية. فى ملء قسوتها وبشاعتها.

ولم يخف السيد عن اتباعه الطريق الوعر الذى ينتظرهم. لم يظهر لهم الجانب المضىء، ويخفى الجانب المظلم الكئيب. لقد كان صريحاً كل الصراحة، فأخبرهم بما هو عتيد أن يقع بهم قبل وقوعه: «لأنهم سيسلمونكم إلى مجالس. وتجلدون فى مجامع. وتوقفون أمام ولاة وملوك من أجلى شهادة لهم ... وسيسلم الأخ أخاه للموت والأب ولده، ويقدم الأولاد شهادة على والديهم ويقتلونهم. وتكونون مبغضين من الجميع من أجل اسمى ولكن الذى يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص ..» (مرقس ٣ : ٩ – ١٣ بالمقارنة مع متى ١٠ : ١٧ – ٢٢، ٢٣ – ٢٩ ولوقا ١٢ : ٢ – ٩، ٥١ – ٥٣). لقد سبق السيد وحذر تلاميذه مما ينتظرهم فى مقبل الأيام.

وفى الوقت الذى سجل البشير فيه بشارته، كانت العاصفة قد انفجرت بالفعل. وإننا نجد «تاسيتوس» المؤرخ الرومانى يكتب عن «الطائفة التى يدعوها الرعاع بالمسيحيين، الذين يبغضهم المجتمع بسبب جرائمهم ...» وسوتنيوس يتحدث عن «ذلك الجنس من البشر الذى ينتمى إلى خرافة

جديدة شريرة . ترى لماذا كانت كراهية المجتمع للمسيحيين إلى هذا الحد ؟ .

لقد كانت السلطات الرومانية تبغض المسيحيين ، لأنها كانت تعتبرهم عنصر خيانة فى قلب الأمة . ونحن نلتمس للحكومة الرومانية فى موقفها من المسيحيين أكثر من عذر . فلم تكن الأمبراطورية تضم رقعة محدودة . لقد كانت ممتدة الأرجاء من وادى الفرات شرقا إلى جزيرة بريطانيا غربا ؛ ومن بلاد الجرمان شمالا إلى شمال أفريقيا جنوبا . كانت تضم أكثر من شعب ، وأكثر من جنس . ولذلك كان من اللازم أن يوجد رباط واحد قوى ليربط هذه الشعوب المتباينة فى وحدة كاملة .

وهذا الرباط وجد فى عبادة قيصر . ولاينبغى أن يفوتنا أن نذكر أن عبادة قيصر لم تفرض فرضاً على العالم ؛ لقد نبعت من رغبة الشعوب نفسها . إن الحكومة لم تفكر فيها ، لقد ترعرعت من الشعب . فمنذ سحيق الزمن ، اعتقد الشعب بما أسموه الإلهة روما ، أو روح روما . وليس من العسير أن تقترن صورة الأمبراطور ، قيصر العظيم ، بهذه الربة ، وأن يروا فى عاهل البلاد ، الصورة المجسدة لمعبودتهم . لقد كانت روما بكل أمجادها تتمثل فى الإمبراطور ، فلماذا لا يكون الامبراطور ربة الشعب المتجسد ؟ ولماذا لا تجد تلك الربة مسكنها وراحتها فى شخص قيصر ؟

ومن الخطأ أن نتصور أيضاً أن الشعوب التابعة لروما كانت ثائرة عليها غير راضية عن حكمها . لقد كان معظمها شاكراً للظروف التى أتاحت لها الإنضواء تحت لواء روما . فلقد حررتهم من طغاة الملوك . وجلبت معها الأمن والسلام والعدالة . وتقدمت بأحوالها الاقتصادية .

وطهرت البلاد من اللصوص والمجرمين والخارجين على القانون . لقد كان « السلام الرومانى » (باكس رومانا) الذى تغنى به شعراء العصر، يمد ألويته على ربوع العالم الكائن حينذاك .

وفى مقاطعة آسيا الصغرى بدأ الناس يفكرون فى « قيصر» كمظهر الألوهية المتجسد، وبدأوا يعدون العدة لتكريمه وعبادته عرفانا منهم بالجميل . فى بادىء الأمر لم يرض الأباطرة عن هذا ، معارضين بأنهم بشر، ولا حق لهم فى الانضمام إلى مصاف الآلهة . ولكن الحركة الجديده التى وجدت حقولا خصبة ، فى أكثر من مكان من أرجاء الإمبراطورية المتسعة الأرجاء ، كانت أقوى وأعنف من أن تقاوم . وأخيراً رأت السلطات أنها تستطيع استغلالها والإفاده منها . فهذا هو الرباط الواحد الذى كانوا ينشدونه فلا يجدونه ، الرباط الذى يجمع الدويلات والشعوب والأجناس فى وحدة متماسكة . وهكذا جاء الوقت،الذى حدد فيه يوم من كل عام تقام فيه الاحتفالات والمهرجانات فى كافة البلاد ، ويتقدم كل فرد بقبضة من البخور ، يلقى بها فى المجمرة أمام تمثال قيصر إكراماً له قائلا : «قيصر رب» . بهذا الطريق وليس بسواه يعلن إخلاصه وولاءه لقيصر . وإخلاصه وولاءه لحكومة قيصر. وبعد أن يقوم بهذا العمل ، تعطيه السلطات شهادة على أنه نفذ أوامر قيصر ، وأثبت أنه مواطن صالح . هذه هى العادة التى رأت فيها روما المظهر الذى يوحد الشعوب المتنافرة ويجمعها فى رباط واحد ، ويضمن إخلاص المواطنين لها .

وزيادة على هذا المظهر الروتينى ، ما كانت روما تتدخل فى شئون عبادة أى شعب ، بل أحيانا كانت تشجع تلك العبادات ، وتعطى لرجال الدين أكثر من سلطة ، مظهرة روح التسامح والتفكير المتسع .

ولكن هذا المحك الرهيب ، كان يظهر فى الحال معدن المسيحى الحقيقى ، فما كان يرضى المسيحى ، وإنصافا للتاريخ نقول ، ومعه اليهودى أيضاً ، أن يبخر لغير الله.

لقد كان المسيحى يهتف لمسيحه ، وليس لسواه ، قائلا « ربى وإلهى » وكان اليهودى يردد بين الحين والحين ، البند الأول الأعظم من بنود الشما « اسمع يا إسرائيل . الرب الهنا إله واحد » فلا إله إلا الله — وهكذا رأت سلطات روما فى اليهودية بصورة عامة ، وفى المسيحية كإحدى الطوائف المتزمنة التابعة من اليهودية ، أخطر الهيئات التى لا تدين بالولاء للجالس على عرش قيصر ..

من هنا بدأت العاصفة تنفجر على رؤوس المسيحيين . لقد كان المسيحيون ينادون بأنهم يدينون بالولاء لقيصر . ولكنهم يتقدمون بتعبدهم لواحد لا سواه . فإن كان سيدهم قد قال لهم « أعطوا ما لقيصر لقيصر » فإنه لم يأمرهم بأن يعطوا مالله لقيصر ..

« وللرب إلهك تسجد ، وإياه وحده تعبد » . هذا هو السبب الذى من أجله قاسى المسيحيون ويلات الإضطهاد ، وجازوا فى نيرانه ، لأنهم كانوا يرفعون اسم المسيح فوق كل قوة ، وسلطان ، وكل اسم يسمى بين الشعوب والأمم .

كراهية العالم

(يوحنا ١٥ : ١٨ - ٢١)

ولكن لم يكن المسيحيون هدفا لسهام السلطات فحسب . لقد دخلت عناصر أخرى، في مجال الكراهية والإضطهاد . لقد كانت الشعوب نفسها تبغض المسيحيين . ترى ما هو الدافع الذى دفع رجل الشارع فى تيار البغضة القاسى ؟

لقد سادت روح البغضاء لأن الشائعات قد أعطت رجل الشارع فكرة بغيضة رهيبة عن المسيحيين، ولعل اليهود كان لهم الضلع الأكبر ، فى بث تلك الأنباء والترويج لها ، بالرغم من أنهم كانوا يعلمون تمام العلم بطلان تلك الشائعات .

ولنأخذ أمثلة أربعة ،من الشائعات الكاذبة ،التى وجهت ضد المسيحيين .

١ - لقد وجهت إليهم التهمة بأنهم عنصر دخيل على الأمة ، غير موال للحكومة ، غير مخلص للجالس على العرش . ولقد عرفنا السر الكامن وراء هذا الاتهام ، كما أوضحنا بطلانه .

فلم يوجد فى التاريخ ، ولن يوجد إلى نهاية الأجيال ، مواطن صالح مخلص لوطنه ، قدر المسيحى الحقيقى. أترك المسيحى فى دائرة دينه ، ولا تمس عقيدته ، وأنت ترى فيه أصلح مواطن . ويكفى أن يوصى رسول الأمم اتباع المسيحية فى مثل تلك الأوقات ، أن تقام صلوات وابتهالات لأجل الحكام والولاة ،وكل الذين هم فى منصب، لخيرهم وسلام الأمة . لقد كان المسيحيون فى دائرة أعمالهم ، وصلتهم بالمجتمع . أكثر المواطنين إخلاصاً وأمانة . التهمة الوحيدة التى وجهت إليهم ، أنهم لا يبخرون لصورة قيصر .

ولا يهتفون كما يهتف غيرهم « السلام لقيصر الرب » .. ولهذا السبب وصموا بوصمة العار والخيانة .

٢ – وقد قيل عنهم إنهم متبربرون ، متوحشون ، يمارسون ممارسات بربرية وحشية . ولعل هذا الإتهام يرجع إلى إساءة فهم قول المسيح : « هذا هو جسدى المكسور من أجلكم » و « هذه الكأس هى العهد الجديد بدمى » . على أساس هذه الكلمات، لم يكن من العسير إطلاق الشائعات بين طبقات العامة ، والعامة على استعداد أن يصدقوا كل قول ، إن المسيحيين فى ممارستهم السرية ، يرتكبون جرائم دموية ، فيذبحون طفلا ويأخذون دمه فى كأس . ثم ينهشون اللحم ، ويشربون الدم ، كما يفعل أكلة لحوم البشر . لذلك لا غرابة إن كانت الجموع تنظر فى احتقار واشمئزاز ، إلى كل من ينتمى إلى المسيحية .

٣ – بل وجهت إلى المسيحيين تهمة الإباحية وارتكاب أقذر القبائح. ولعل هذه التهمة كان مصدرها وليمة المحبة الأسبوعية التى كانت تدعى «الأجابى» وكان المسيحيون على عادة أن يحيوا بعضهم بعضا بقبلة السلام، التى تطورت فيما بعد إلى ممارسة ثابتة فى وصية القداس : « قبلوا بعضكم بعضا بقبلة مقدسة » . نقول لم يكن من العسير على أعداء المسيحية أن يطلقوا الشائعات، بأن هذه القبلة هى علامة التواعد بين اثنين رق أحدهما للآخر ، حيث يصطحب الواحد أخاه لارتكاب أفظع النجاسات .

٤ – كما وجهت إليهم التهمة بأنهم مخربون، يعملون على تخريب المجتمع وإحراقه ، ويتوقعون نهايته وزواله . ولقد كان المسيحيون يتوقعون بين لحظة وأخرى مجيء الرب ثانية . وكلما زادت الأزمات ، وزمجرت الإضطهادات ، زادوا انتظاراً وترقبا لهذا الوعد . ومع عقيدة مجيء الرب

ثانية ، قرنوا الصور الواردة فى العهد القديم عن يوم الرب ، تلك الصور التى لخصها الرسول بطرس فى القول ، بأن العناصر سوف تنحل بضجيج ، والسماء والأرض محترقة تذوب . لأن الأرض وكل ما فيها محفوظة لتلك الساعة عينها للحريق بالنار (٢ بطرس ٣ : ١٠) . ولقد حدث بالفعل فى عصر نيرون ، الحريق الذى دبره الطاغية ، لإزالة روما القديمة بأحيائها المكدسة ، وبناء عاصمة جديدة على هواه . ولم يكن من العسير عليه ، أن يلصق التهمة بالمسيحيين الذين ينادون باحتراق الوجود ونهايته . وأنهم قاموا بهذا العمل المجنون ليعجلوا بمجئ مسيحهم ، ليؤسس ملكه العظيم العتيد على انقاض العالم القديم .

٥ — تهمة خامسة وجهت إلى المسيحيين ، وكان لها أساسها المنطقى ، وهى أن المسيحيين كانوا يخربون العائلات ، ويحطمون الروابط العائلية . إنهم كانوا يحدثون الشقاقات فى البيوت ، ويقلبون كيان الأسر . ولقد كان هذا الاتهام صحيحاً إلى حد ما ، لقد قال السيد : « ما جئت لألقى سلاما بل سيفا . فإنى جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه ، والإبنة ضد أمها . والكنة ضد حماتها وأعداء الإنسان أهل بيته » (متى ١٠ : ٣٥) وكان يحدث بالفعل أن زوجة تعتنق المسيحية ، ويبقى زوجها يتعبد لآلهة أجداده ، أو أن الابناء يصبحون مسيحيين ويبقى والدهم ، فى هذه الحالة تنقسم الأسرة ويسود الخلاف ، وتحدث المآسى الكثيرة . لقد كان على المسيحى أن يحب مسيحه ، ويتفانى فى طاعته وخدمته ، أكثر من حب الابن لأبيه ، أو أمه ، أو أخوته . وأكثر من حب الزوجة لزوجها ، أو الزوج لزوجته .

ولا شك فى أن المسيحية قد أتت ومعها الخلافات والشقاقات ، بين الأفراد والعائلات .

هذه بعض التهم التي وجهت في القديم إلى المسيحية . وكان اليهود وراء صنعها ، وترويجها . لذلك لا غرابة أن يقترن اسم المسيحي بالبغضة والكراهية والنفور .

كراهية العالم

(يوحنا ١٥ : ١٨ – ٢١)

هكذا كانت كراهية العالم في القديم للمسيحية والمسيحيين ، وهكذا كانت أسبابها . ولكن العالم ما زال يكره المسيحيين . أما العالم كما أسلفنا فيقصد به «يسوع» ذلك القطيع من البشر، الذي رتب برنامج حياته ، على أن يحيا بدون إله . هناك فارق كبير ، بين الإنسان الذي رتب حياته على أن يكون الله هو الأول في برنامج وجوده وكيانه ، وبين الإنسان الذي نحى الله جانبا ، ورأى فيه عنصراً يعترض رغائبه وكيانه . وهذا الفارق لابد وأن يدفع العالم إلى نظرة التوجس ، التي تنقلب إلى عداوة وبغضة .

١ – فالعالم يتوجس خيفة من كل ما يغايره . هذا نحدث في أبسط الأمور . لنأخذ صورة مبسطة استخدام المظلة في الوقاية من المطر ، وحرارة الشمس . فالمظلة أصبحت شيئاً عاديا في حياتنا . ولكنها لم تكن كذلك حينما أدخلها « يوناس هانوى » في انكلترا . لقد كانوا يرجمونه بالأحجار والقاذورات وهو يسير في الشوارع حاملا مظلته . وفي أيامنا ، تنتشر بين الشباب مودة إطالة السوالف ، وإرخاء شعر الرأس . ونحن نعرف ، وعلى الأخص في مصر ، ما يلاقيه أي شاب يظهر بهذا المظهر من الذين يحيطون به ، وكيف تشاع عنه الشائعات. إن أي إنسان يظهر بمظهر ، مخالف ، أو يرتدي ثيابا مخالفة للعرف ، أو ينادي بعقائد مخالفة ، يثير الخيفة والتوجس وقد يعتبره المجتمع مجنونا ، أو شاذاً ، أو خطيراً . ويقف منه – موقف العداء .

٢ — والعالم يبغض بالفعل ، أولئك الذين حياتهم ، توبخ تصرفاته وحماقاته . فمن الخطر على العالم أن يكون الإنسان صالحاً . وهناك فى التاريخ القديم . ما حدث للمدعو « أرستيدس الأثينى » الذى كان يلقب بأرستيدس البار . لقد انتهت حياته فى المنفى . وحينما سئل أحد المسئولين لماذا صوت مع المصوتين بنفيه ؟ كان الجواب : « لقد تعبت من دعوة الناس له بالبار » هذا هو السبب الذى جعل العالم يدفع إلى «سقراط» كأس أنهملوك السام[1] . لقد كان يدفع الناس دائماً إلى التفكير . . إلى فحص أنفسهم . والناس يبغضون من يدفع مرآة الفحص أمامهم ، من يجابههم بعيوبهم . . من يظهر لهم سوآتهم . وهكذا أبغضوه . وأسرعوا فقتلوه ، . من الخطر أن يكون للإنسان مثل أعلى من مستوى العالم .

٣ — وبصورة عامة شاملة نقول : إن العالم ينظر بريبة إلى من لا يلتزم بطاعة نواميسه . إن للعالم نواميسه ، وهو يحب أن يضع كل إنسان فى قالبه ، ويشكله فيصبح وفق كيانه وإرادته . أما ذاك الذى يتسع فى إدراكه ، أو ممارساته ، أو عقائده ، أو تفكيره ، فيضيق به القالب ، ويضيق به العالم أيضا ، حتى فى دائرة الدواجن ، لو أتيت بدجاجة مرقطة ووضعتها وسط دجاج أبيض ، لكان نصيبها التمزيق والموت .

أيها المسيحى : لك الشرف وعليك المسئولية . أما الشرف والكرامة فهما لك ، لأنك أصبحت مغايراً العالم . وربثا للعهد الجديد ، ابنا لله ، غريبا عن الوجود ، تنتمى إلى مملكة أسمى وأعلى من ممالك الأرض : تدين بالطاعة لإله يسمو عن إله هذا الدهر .

---

(١) خلاصة بذر الحل الشيطانى .

ولكن عليك المسئولية أيضا ، ولا ينبغى أن تنتظر من عالم تجابهه بصورة مغايرة إلا كل الضيقات . لتكن لك الشجاعة الكافية للثبات فى وجه العاصفة . إن شئت أن تكون مسيحيا فعليك الكلفة . وما أعظم الفارق بين إنسان الله ، وإنسان هذا الدهر . .

لَوْ لَمْ أَكُنْ قَدْ جِئْتُ وَكَلَّمْتُهُمْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ خَطِيَّةٌ وَأَمَّا ٱلْآنَ فَلَيْسَ لَهُمْ عُذْرٌ فِي خَطِيَّتِهِمْ. ٱلَّذِي يُبْغِضُنِي يُبْغِضُ أَبِي أَيْضاً. لَوْ لَمْ أَكُنْ قَدْ عَمِلْتُ بَيْنَهُمْ أَعْمَالاً لَمْ يَعْمَلْهَا أَحَدٌ غَيْرِي لَمْ تَكُنْ لَهُمْ خَطِيَّةٌ . وَأَمَّا ٱلْآنَ فَقَدْ رَأَوْا وَأَبْغَضُونِي أَنَا وَأَبِي. لٰكِنْ لِكَيْ تَتِمَّ ٱلْكَلِمَةُ ٱلْمَكْتُوبَةُ فِي نَامُوسِهِمْ إِنَّهُمْ أَبْغَضُونِي بِلَا سَبَبٍ .

(يوحنا ١٥ : ٢٢ — ٢٥)

هنا يعود «يسوع» إلى فكر ليس غريباً عن البشارة الرابعة ، فالمعرفة التي توهب لإنسان ، والامتيازات التي تقدم له : تحمل معها بطبيعة الحال مسئولية عظمى .

إلى أن جاء المسيح ، لم تكن للبشر الفرصة الكاملة ليعرفوا الله المعرفة الحقة . فلم يسمعوا صوت الله واضحاً . . ولم تعلن لهم الحياة التي يريدهم الله أن يحيوها ، لذلك فقد نلتمس لهم بعض العذر ، لأن عقولهم لم تتفتح بعد . وإعلانات الله لم تكشف لهم بعد . هناك أمور قد نتسامح فيها مع الطفل . لأن مستواه لم يصل بعد إلى النضج الكافي ، ولكننا لن نسمح لإنسان بالغ أن يرتكبها ، ولن نتهاون معه إذا وقع فيها ، هناك أمور يسمح بها لإنسان

لم تتهيأ له الفرصة الكافية للتدريب المنزلى ، ولم تتح له الظروف لينال قسطاً كافيا من التعليم . إن زيادة المعرفة لإنسان ، وزيادة الامتيازات التى يتمتع بها ، تضع على كتفيه مسئوليات أعظم وأقسى .

وحينما أتى «يسوع» إلى الإنسانية تقدم بأمرين : فهو أعلن البشر أولا حقيقة الخطية . لقد أخبر الناس عن الأمور التى تغضب الله ، وكشف لهم الطريق الذى يسر قلبه... طريق الحياة الحقة ... كما أنه قدم للبشر ثانيا العلاج الأكيد من الخطية . وهذا قام به بصورتين : فهو فتح الطريق للغفران بالنسبة لماضى الخطية ، ووهب البشر القوة التى تعينهم على الإنتصار على خطاياهم ، والقيام بمسئولياتهم ، والسير فى طريق الحق . هذه هى المعرفة ، وهذه هى الامتيازات التى قدمها «يسوع» للبشر .

ولنفرض أن مريضاً قصد عيادة طبيب ، فإذا بالطبيب يقوم بتشخيص المرض ، ويصف العلاج ، فإن أهمل المريض خطورة المرض ، ورفض استخدام الدواء ، فلا لوم يقع على أحد سواه إن ساءت حالته ، ووصل إلى الموت ، أو إن قدر له أن يعيش ، ولكن حياة محطمة بائسة ، وهذا ما فعله اليهود . لقد ارتكبوا حماقتهم الكبرى حينما احتقروا طبيب النفوس ، ورفضوا الدواء المقدم لهم ، ولقد فعلوا ما سبق أن أنبأ به كاتب المزامير « أبغضونى بلاسبب » (مزمور ٣٥ : ١٩ ، ٦٩ : ٥) .

وهذه الحماقة المميتة يمكن أن يقع فيها البعض ، إنهم لايبغضون «يسوع» علانية ، ولايضمرون له روح العداء ، ولكنهم كثيرا مايرتبون أمور حياتهم ، وتصرفاتهم ، كأنما لم يأت «يسوع» على الإطلاق .

ولكننا لن نختبر الحياة الحقة فى هذ الوجود ، وبالتالى لن نعرف الحياة المباركة السعيدة فى الدهر الآتى ، إن أخرجنا من برنامج حياتنا رب كل صلاح ، وأهملنا وصايا السيد المسيح .

....

وَمَتَى جَاءَ ٱلْمُعَزِّى ٱلَّذِى سَأُرْسِلُهُ أَنَا إِلَيْكُمْ مِنْ عِنْدِ ٱلْآبِ رُوحِ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى مِنْ عِنْدِ ٱلْآبِ يَنْبَثِقُ فَهُوَ يَشْهَدُ لِى. وَتَشْهَدُونَ أَنْتُمْ أَيْضاً لِأَنَّكُمْ مَعِى مِنَ ٱلْاِبْتِدَاءِ

(يوحنا ١٥ : ٢٦ — ٢٧)

هنا يستخدم السيد فكرتين توأمين متلازمين فى أقواله . أما الأول فهو شهادة الروح القدس . ترى ماذا يعنى السيد بشهادة الروح ؟

سوف تكون لنا فرصة أخرى لنتأمل فى هذا الموضوع بصورة أعمق ، ولكن يمكننا فى هذه العجالة أن نوضح الحقيقة على النحو التالى :

حينما تتلى على مسامعنا تفاصيل قصة يسوع ، ما الذى يدفعنا أن نصدق أن تلك الصورة لا يمكن أن تكون إلا صورة السيد المبارك ؟ وحينما تفصل أمامنا تعاليم «يسوع» ، وأمثاله ، ووصاياه ، ما الذى يجعلنا نؤمن بأن مثل تلك التعاليم والأمثال والوصايا هى كنز الحكمة الإلهية المعلنة للبشر ؟ وحينما نرى يسوع حاملا صليبه سائراً فى طريق الجلجثة ، مهانا مرفوعاً على خشبة العار ، ما الذى يجعلنا نرى فيه طريق الله الوحيد للخلاص ؟ هذا التجاوب الفكرى هذا الصدى الذى تتجاوب به قلوبنا مع أنغام محبته ، هذا الإيمان الطيع الذى يسيطر علينا ما هو إلا عمل الروح القدس فى حياتنا ، إن الروح القدس هو الذى يدفعنا إلى التجاوب مع يسوع المسيح .

أما الثانى فهو الشهادة التى لابد أن يعلنها البشر عن «يسوع» . « وتشهدون أنتم لى » هكذا يقول «يسوع» لتلاميذه . وهناك عناصر ثلاثة فى الشهادة المسيحية . . .

(١) فالشهادة المسيحية تأتى من العشرة الطويلة مع المسيح ، إن التلاميذ هم شهود «يسوع» لأنهم عاشروه وأختبروه من البداية . الشاهد هو الذى يقول عن شىء ما « هذا حق لأننى أعرفه » . فلا شهادة دون اختبار شخصى ، إننا نستطيع أن نشهد عن «يسوع» إذا كنا قد عرفناه حقا واختبرناه .

٢ — والشهادة المسيحية تأتى من الإقتناع الداخلى . فإذا بدأ الإنسان حديثه نستطيع أن نميز إن كان يؤمن حقا بما يقول أولا يؤمن به . ولن تكون الشهادة المسيحية قوية مقنعة — بدون الإقتناع الداخلى الذى ينبع من العشرة الشخصية مع المسيح .

٣ — والشهادة المسيحية تتقدم للآخرين بصورة حية ملموسة مسموعة . إن الشاهد ليس هو فقط الإنسان الذى يعرف أن شيئا ما حقيقى ، بل هو الإنسان الذى يكون على استعداد أن يشهد على رؤوس الأشهاد بأن هذا الشىء هو بالفعل حقيقى . فالمسيحى هو الذى يقرن معرفته بيسوع واختباره له ، بشهادته الحية الظاهرة عنه .

ٱلْأَصْحَاحُ ٱلسَّادِسُ عَشَرَ

التحذير مع التحدى

قَدْ كَلَّمْتُكُمْ بِهٰذَا لِكَيْ لَاتَعْثُرُوا . سَيُخْرِجُونَكُمْ مِنَ ٱلْمَجَامِعِ بَلْ تَأْتِي سَاعَةٌ فِيهَا يَظُنُّ كُلُّ مَنْ يَقْتُلُكُمْ أَنَّهُ يُقَدِّمُ خِدْمَةً لِلّٰهِ . وَسَيَفْعَلُونَ هٰذَا بِكُمْ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا ٱلْآبَ وَلَاعَرَفُونِي . لٰكِنِّي قَدْ كَلَّمْتُكُمْ بِهٰذَا حَتَّى إِذَاجَاءَتِ ٱلسَّاعَةُ تَذْكُرُونَ أَنِّي أَنَا قُلْتُهُ لَكُمْ . وَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ مِنَ ٱلْبِدَايَةِ لِأَنِّي كُنْتُ مَعَكُمْ .

(يوحنا ١٦ : ١ — ٤)

فى الوقت الذى سجل فيه «يوحنا» بشارته ، كانت عاصفة الإضطهاد قد انفجرت بالفعل على رؤوس المسيحيين . كان من الطبيعى أن يرتد البعض ، وأن يتنكر آخرون للإيمان . فى سفر الرؤيا نجد أن الدينونة سوف تحل على « الخائفين وغير المؤمنين » (رؤيا ٢١ : ٨) فى عهد «تراجان» الإمبراطور ، كتب «بليني» حاكم بيثينية إليه يقول ، إنه قام بفحص البعض ليرى إن كانوا مسيحيين أم لا . « والبعض منهم قال إنه دخل دين المسيح منذ سنوات طويلة وصلت فى حالة منها إلى عشرين عاما . لكنهم هجروا

ذلك الدين » . حتى وسط مظاهر البطولة والتضحية التى تفوق الوصف ، والتى بدت فى استشهاد الكثيرين ، نرى البعض منهم يتزعزع إيمانهم ، ويجبنون أمام الأضطهادات النارية ، فيتعثرون فى الطريق .

ولقد رأى «يسوع» كل هذا . وبروح النبوة تقدم لأتباعه منبئاً بما سوف يلاقونه فى طريق إيمانهم به — حينما حاقت الاضطهادات بعالم المسيحية « وليم تندل » ، بسبب ترجمته الكتاب المقدس إلى اللغة الإنجليزية ؛ وسعى أعداؤه لإهلاك حياته ، قال فى هدوء : « ما كنت أتوقع أقل من هذا » ، لقد وهب «يسوع» المجد لاتباعه . لكنه قدم لهم معه الصليب والهوان .

وفى حديث يسوع الواضح نراه يتنبأ عن الإضطهاد العتيد فى صورتين. أتباعه سوف يفصلون من المجامع ، هذا كان عقابا مؤلماً للغاية بالنسبة لليهودى ، لقد كان للمجمع — بيت الله — مكانه الخاص فى حياة اليهودى ، حتى وصل بعض الأحبار إلى القول بأن الصلوات لا فائدة منها مالم تقدم فى المجمع ..

ولكن كان هناك ما هو أكثر من هذا . فربما لا يحتاج الحبر أو المعلم اللاهوتى إلى رفقة سواه ، ربما يستطيع أن يحيا وحيداً مع أفكاره ، ودراساته ، ورقوقه . ولكن التلاميذ كانوا أناساً عاديين بسطاء . كانوا يحتاجون إلى المجمع وعبادته ، والإجتماع بالآخرين هناك . فليس من الهين اليسير على القروى الغريب القادم إلى بلد آخر لأول مرة . أن يجد الأبواب كلها موصدة أمامه . إنه على الأقل ينبغى أن يجد أمامه المجمع مفتوح الأبواب لاستقباله والتعرف على الآخرين هناك ، بل إن العبادة تشعر الإنسان بالأمان والاطمئنان. وكما تقول « جان دارك » « أجمل الأشياء أن يكون الإنسان وحيدا مع الله » .

ثم يقول «يسوع «إنه سيأتى الوقت الذى يظن فيه من يقتلهم أنه يقدم خدمة لله ، أما كلمة خدمة التى يستخدمها «يوع » فهى فى الأصل « لاتريا » وهى ذات الكلمة التى يقدم بها الكاهن أمام المذبح فى هيكل الله – إنها التعبير الأمثل للخدمة الدينية .. لخدمة الله المقدسة . ولعله أسوأ ما فى الروح الدينية أن يظن الإنسان أنه يقدم خدمة لله باضطهاده لمن يخالفه الرأى . ولعل «شاول الطرسوسى» هو أقوى مثال لدينا فى هذا المجال . فهو فى غيرته الدينية الملتهبة كان يعتقد ، أن أعظم خدمة يقدمها لله هى محو اسم يسوع ، وإزالة شأفة المسيحية . (أعمال ٢٦ : ٩ – ١١) . إن اضطهادات محاكم التفتيش وفظائعها فى أسبانيا ، قد خلفت سماً بغيضاً وذكرى كريهة فى النفوس . ولكنهم كانوا يظنون أنهم يؤدون خدمة لله . لا تقاس بإزائها خدمة إكراه الهراطقة تحت الإرهاب والتعذيب ، إلى ما ظنوه الإيمان الحق ، وانقاذهم من ويلات الجحيم . وإن كانت « مدام رولان » قد صاحت صيحتها المشهورة « أيتها الحرية كم من الجرائم قد ارتكبت باسمك » فإننا نقول أيضاً « أيتها الديانة كم من الجرائم قد ارتكبت باسمك » .

« ولكنهم يعملون هذا ، كما يقول « يسوع ، لأنهم لم يعرفونى ، ولم يعرفوا الآب » . إن مأساة الكنيسة تكمن فى أن البشر يبذلون قصارى الجهد فى نشر أفكارهم عن الديانة .. ويظنون فى أنفسهم أنهم قوامون على ما يعتقدون أنه الحق الإلهى الأوحد ولا سواه . وحتى أيامنا الحاضرة ، تقف حواجز العقيدة حائلا دون الوحدة الحبيبة المرتقبة من الجميع .. الوحدة بين الكنائس . وسوف تظل روح الكراهية والبغضة ، توأماً ملازماً للتمسك بالرأى والتعصب له ، سيتبع ذلك إن لم يكن القتل وسفك الدماء ، فعلى الأقل العزل من بيت

الله، وتحريم مشاركة الأخ لأخيه بركات لمائدة الإلهية الواحدة ، والعشاء التذكارى ، طالما يعتقد كل إنسان أنه هو وحده ولا سواه ، الذى يمسك بناصية الحق .

ولقد عرف «يسوع» نفسية الإنسان ، وعرف كيف يتعامل مع البشر . وها نحن نسمعه هنا يقول لتلاميذه : « إننى أتقدم إليكم بأقسى مهمة فى الوجود ، إننى أتقدم إليكم بمهمة فيهامصيركم وتحطيم قلوبكم وتمزيق أجسادكم ، هل تقبلون هذه المهمة ؟ وهل تحنون أكتافكم تحت هذا الصليب ؟ .. »

كل العالم يعرف صيحة « غاريبالدى » فى جنوده ، بعد حصار روما فى منتصف القرن الماضى حينما هتف لهم : « أيها الجنود ، إن كل مجهوداتنا التى بذلناها ضد قوى تفوقنا عدداً وعدة قد ذهبت هباء . وإنى أقول لكم إننى لا أملك ما أعطيه لكم سوى الجوع ، والظمأ ، والموت ، ولكنى أدعو كل جندى يحب وطنه أن ينضم إلى .. والتف حوله مئات المئات فحاز النصر .

وحينما كان الأسبان يكتسحون أقاليم أمريكا الجنوبية ، هتف فيهم قائدهم « تستطيعون أن تمتلكوا ثروات بيرو مع أخطارها ومتاعبها ، أو أن تبقوا مع الأمان والفاقة فى بناما » ، ثم صاح فى رجاله « أيها الرفاق فى هذا الميدان لا أعدكم إلا بالتعب والجوع والعرى والعواصف والوحشة والموت . بالمقارنة إلى الأمن والراحة على الجانب الآخر .أمامكم ،أراضى بيرو بغناها ، وأمامكم أيضاً بناما بفقرها ، اختاروا الآن ما تختارون . أما من جهتى فإن وجهتى إلى الجنوب » . وكان صمت وتردد ، لكن بحاراً عجوزا ، وأثنى عشر جندياً تقدموا ، ووقفوا إلى جانب بيزارو القائد ، وبهذه الحفنة من الرجال القلائل بدأ غزو واكتشاف بيرو ...

إن «يسوع» يقدم لنا في هذه الفقرة ، لا طريق الراحة بل طريق المتاعب ، والضيقات والآلام والعرق والدموع والدماء ، ولكنه الطريق الذى يؤدى بنا إلى الأمجاد. وهو مازال يدعو كل إنسان راجح العقل ، كبير القلب ، مفتوح العينين ، إلى الإنضواء تحت لوائه ، ويخاطر مخاطرته لأجل مجد اسمه ..

عمل الروح القدس

وَأَمَّا ٱلْآنَ فَأَنَا مَاضٍ إِلَى ٱلَّذِى أَرْسَلَنِى وَلَيْسَ أَحَد مِنْكُمْ يَسْأَلُنِى أَيْنَ تَمْضِى لٰكِنْ لِأَنِّى قُلْتُ لَكُمْ هٰذَا قَدْ مَلَأَ ٱلْحُزْنُ قُلُوبَكُمْ لٰكِنِّى أَقُولُ لَكُمُ ٱلْحَقَّ إِنَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ أَنْ أَنْطَلِقَ . لِأَنَّهُ إِنْ لَمْ أَنْطَلِقْ لَا يَأْتِيكُمُ ٱلْمُعَزِّى . وَلٰكِنْ إِنْ ذَهَبْتُ أُرْسِلُهُ إِلَيْكُمْ . وَمَتَى جَاءَ ذَاكَ يُبَكِّتُ ٱلْعَالَمَ عَلَى خَطِيَّةٍ وَعَلَى بِرٍّ وَعَلَى دَيْنُونَةٍ . أَمَّا عَلَى خَطِيَّةٍ فَلِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِى . وَأَمَّا عَلَى بِرٍّ فَلِأَنِّى ذَاهِبٌ إِلَى أَبِى وَلَا تَرَوْنَنِى أَيْضاً . وَأَمَّا عَلَى دَيْنُونَةٍ فَلِأَنَّ رَئِيسَ هٰذَا ٱلْعَالَمِ قَدْ دِينَ .

(يوحنا ١٦ : ٥ — ١١)

لقد أصاب الحزن تلاميذ «يسوع» بارتباك بالغ ، وبطبيعة الحال كان سر حزنهم أنهم على وشك أن يفقدوا معلمهم . ولكن «يسوع» أخبرهم أن النهاية لخيرهم ، لأنه فى الوقت الذى فيه يفارقهم ، سيرسل لهم المعزى ، الروح القدس ، المعين المشجع فى الأزمات — حينما كان معهم بالجسد ، لم يكن

ممكنا أن يرافقهم إلى كل موضع ، ويباركهم بحضره فى كل الظروف ... حينما كان معهم بالجسد ما كان ممكنا أن يصل إلى عقولهم وقلوبهم ، ويتغلغل إلى ضمائرهم ،ولو أننا رأيناه فى بعض المواقف يعرف أفكارهم وينتقدها . لقد كانت تحده قيود الجسد ،والمكان ، والزمان . ولكن لامحدودية للروح ، ولا قيود زمنية . ولا مكانية تستطيع أن تقيده . إن حلول الروح إتمام للوعد : « ها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر » (متى ٢٨ : ٢٩) . فالروح سيوحد البشر أجمعين فى رباط الشركة الذى لا ينقطع إلى الدهر ، وسيعطى خدام الكلمة القوة والتأثير الكامل ، فى أى مكان يقصدونه ،وتحت أية ظروف تحيط بهم .

وهنا يتقدم الرب بملخص دقيق عن عمل الروح القدس فى الحياة . والكلمة المستخدمة هنا عن عمل الروح : هى فى الأصل « إلجشين » . وقد وردت فى الترجمة المعتمدة يبكت أو يدين ، وفى الهامش يقنع .

والسبب فى هذا أن الأصل لا يمكن التعبير عنه بكلمة واحدة — الكلمة فى الأصل كانت تستخدم لمناقشة شاهد ، أو لاستجواب متهم ، أو لمحاورة خصم فى قضية . إنها تحمل فكرة مداورة الإنسان ، ومحاورته حتى يعترف بخطئه أو يستسلم لمن يحاوره ، وكان اليونان يستخدمون الكلمة أيضاللتعبير عن مناوشة ضمير الإنسان لقلبه وعقله. أماهذه المحاورة فلها نتيجتان. إنها تستطيع أن تدين إنسانا ارتكب جرما أو تستطيع أن تقنع إنسانا بضعف حجته وبطلان دعواه ، أمام قوة الخصم الذى يناوئه . فى هذه الفقرة تحتاج إلى المعنيين : تحتاج إلى الدينونة، وتحتاج أيضا إلى الاقناع ، وسنرى فى السطور التالية ماذا يعنى السيد بالقول : يبكت العالم على خطية ، وعلى بر ، وعلى دينونة .

١ - فالروح القدس يدين الخاطىء على خطيته. حينما أسلم اليهود «يسوع» للصلب، لم يكونوا يعتقدون أنهم يرتكبون خطية، لقد كانوا يظنون أنهم يقدمون خدمة لله. ولكن حينما وقف «بطرس» فى يوم الخمسين وجابههم بجريمتهم، «نخسوا فى قلوبهم» (أعمال ٢ : ٢٧). لقد اقتنعوا بخطيتهم، واتضحت أمامهم جريمتهم، فعرفوا أنهم ارتكبوا أقسى فعلة فى الوجود، حينما أسلموا السيد للصلب. ترى ما الذى يدفع الإنسان إلى الاقتناع بخطيته؟ ما الذى يدفعه إلى الشعور بمذنوبيته أمام صليب المسيح؟.

قيل إنه فى إحدى القرى فى بلاد الهند، وكان أحد المبشرين يعقد اجتماعات دينية ويؤيدها بصور ضوئية ملونة عن حياة المسيح، تنعكس على أحد جدران المنازل. وما أن وصل مدار قصة المسيح إلى الصليب، حتى هب أحد الهنود من مكانه، وأسرع إلى حيث كانت تظهر الصورة، وهتف قائلا «ياسيدى، إنزل أنت عن الصليب. إن هذا مكانى، لا مكانك». إننا لن نستطيع أن نوقن بحاجتنا إلى مخلص بدون الشعور بالخطية. ترى ما الذى يذيب قلب الإنسان أمام الصليب؟ أمام حادثة وقعت فى فلسطين منذ ألفى عام؟ ما الذى يكسر قلبه أمام صليب يسوع؟ ألم يظهر فى التاريخ أنبياء وقادة ومصلحون، قابلتهم أشنع الميتات وأقساها؟ فماذا فى صليب المسيح يدفع الناس إلى الانكسار أمامه؟ هذا عمل الروح. إنه تأثير الروح القدس فى قلب الإنسان، لأنه يبكت على خطية.

٢ - الروح القدس يبكت العالم على بر. ماذا يعنى هذا القول؟ إننا نستطيع أن ندرك بكل وضوح ما يعنيه، حينما نعرف أن البر الذى يشير إليه هو بر المسيح. لقد صلب «يسوع» كمجرم أثيم — حوكم ووجد مذنبا، فصدر عليه الحكم، ونفذ فيه الموت صلبا، وهكذا اعتبر فى نظر اليهود هرطوقيا شريرا، واعتبر لدى الرومان ثائراً خطيراً، فعوقب بأقسى ما تملكه البشرية من عقاب

لقد صدر عليه الحكم كمتمرد خطير ثائر ، وكعدو لله . ترى ما الذى بدل صورة الجريمة إلى صورة بر ؟ ما الذى جعل الناس يتطلعون إلى « يسوع » المصلوب ، فيرون فيه ما رآه قائد المئة الرومانى عند الصليب (متى ٢٧ : ٥٤) ؟ وما شاهده « بولس » فى طريق دمشق (أعمال ٩ : ١-٩) ؟ حينما نتأمل فى هذا الأمر نراه شيئاً عجيبا مذهلا ، أن يتعلق البشر بمذنب يهودى أصدرت عليه السلطات حكمها ، ودانته القوانين الوضعية ... أن يضعوا ثقتهم فى « مجرم » قاسى الموت صلبا . ترى ما الذى يقنع الناس بأن ذلك المصلوب رمز العار والهوان ليس أقل من ابن الله ؟ ما الذى يحول صورة الجريمة إلى مثال البر ؟ إنه الروح القدس الذى يقنع العالم ببر المسيح ، استناداً إلى قيامته وصعوده إلى الآب .

٣ — والروح القدس يبكت العالم على دينونة ، هنا نرى « يسوع » على الصليب . وفيه نرى دينونة الله الحتمية التى تدين الخطية ... وفيه نرى بالتالى خطية البشر وقد دينت ، وقهرت ، وصدر عليها الحكم . ما الذى يجعلنا نؤمن بعدالة الله . أو على حد قول الكاتب ، ما الذى يجعلنا نؤمن بخطر الله ؟ ما الذى يواجه الإنسان الخاطى بحتمية الدينونة التى تنتظره ، والعقاب الأكيد الذى سيناله ؟ لماذا لا يستطيع الإنسان أن يقوم بعمل مايتمناه ؟ لماذا يوقن فى قرارة نفسه بأنه إن تنكب السبيل السوى فلا مناص من العقاب . هذا هو عمل الروح القدس . إن الروح القدس هو الذى يهبنا الاقتناع الداخلى الأكيد ، بأن دينونة الله وعدالته حقيقة حتمية رادعة .

٤ — يبقى أمر آخر لم يحن الوقت بعد للتصريح به : حينما يقع الإنسان تحت الشعور بالمذنوبية ، وحينما يقتنع ببر المسيح الكافى ، وتتمثل أماما الديتونة القادمة ، ما الذى يهبه اليقين بأن فى صليب المسيح خلاصه ، وفى

المسيح كفايته ، وفى كفارة المسيح نجاته من ويلات الدينونة ؟ . هذا أيضا من عمل الروح القدس. ولكن «يسوع» لم يخبر تلاميذه لأن الصلب لم يكن قد تم بعد . إن يسوع المصلوب هو رئيس الخلاص ومصدره لكل من يؤمن به ، فى القديم ، كما بالنسبة لنا ، والروح القدس هو الذى يدفعنا إليه . فهو يدين على خطية ، ويقنع بوجود بر ، ويؤكد لنا الدينونة ، فلا نجد طريقا للخلاص إلا فى صليب يسوع .

روح الحق

إِنَّ لِي أُمُوراً كَثِيرَةً أَيْضاً لِأَقُولَ لَكُمْ وَلٰكِنْ لَاتَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَحْتَمِلُوا ٱلْآنَ . وَأَمَّا مَتَى جَاءَ ذَاكَ رُوحُ ٱلْحَقِّ فَهُوَ يُرْشِدُكُمْ إِلَى جَمِيعِ ٱلْحَقِّ لِأَنَّهُ لَايَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ بَلْ كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ وَيُخْبِرُكُمْ بِأُمُورٍ آتِيَةٍ . ذَاكَ يُمَجِّدُنِي لِأَنَّهُ يَأْخُذُ مِمَّا لِي وَيُخْبِرُكُمْ . كُلُّ مَا لِلْآبِ هُوَ لِي. لِهٰذَا قُلْتُ إِنَّهُ يَأْخُذُ مِمَّا لِي وَيُخْبِرُكُمْ.

(يوحنا ١٦ : ١٢ - ١٥)

إن الروح القدس فى تعليم «يسوع» هو روح الحق ، لأن مجال عمله العظيم هو أن يأتى بحق الله ، ويعلنه للبشر . ونحن نسمى هذا إعلانا : أو وحياً . فالإعلان أو الوحى هو تقديم حق الله ، وتقريبه للبشر ، ولا توجد فقرة فى الكتاب تعلن لنا مبدأ الوحى قدر ما تعلنه هذه الفقرة .

١ – فالوحى فى إعلانه للبشر يتبع مبدأ تدرجيا تقدميا .

لقد كان ليسوع الكثير ليعلنه لتلاميذه ، ولكنه فى ذلك الحين ما كان يستطيع أن يعلن لهم كل شىء ، لأنهم لا يقدرون أن يقبلوه . ومن الطبيعى أن نقدم للإنسان الحق الذى يستطيع أن يدركه ويقبله . فليس من المنطقى أن نقدم نظرية «اينشتين» فى النسبية ، لطفل فى سنواته الأولى من التعليم . من المعقول أن نقدم له مبادىء علم الحساب ، فاذا شب عن الطوق ووصل

إلى سنوات الجامعة ، أو ما بعد الجامعة نستطيع أن نتدرج معه فنقدم له مبادئ نظرية النسبية . إننا لا نتقدم بالنظريات المعقدة لعقل غض . ولا نطلب من إنسان ليست له دراية في اللغة اللاتينية ، أن يترجم لنا سطوراً من «فرجيل» ، أو خطابا من «شيشرون» ، ووحى الله للبشر يسير على هذا المنهاج . إنه وحى تدرجى تقدمى . فالله يعلم الإنسان بقدر ما يستطيع هذا الإنسان أن يقبل . هذه الحقيقة لها نتائجها الهامة التى تعيننا على دراسة وتفهم كتابات الوحى الإلهى .

(ا) ولن يصدمنا على سبيل المثال ما يقدمه الوحى للإنسان فى فصول من العهد القديم . فلعله فى تلك الفترة من تاريخ الإنسان ، كان هذا هو كل الحق الذى تحتاجه البشرية ، والذى تستطيع أن تقبله . ولنأخذ مثلا واقعيا ...

فى العهد القديم ترد فقرات يوصى فيها الله شعبه عند انتصارهم على الأعداء ، أن يحرموا الغنم والبقر والماشية مع النساء والأطفال ، وحتى الغنائم المادية والمقتنيات ، كانت الوصية تحتم أن تحرق بالنار . وهناك حكمة خالدة وراء هذه الوصية التى تبدو فى ظاهرها وحشية دموية : إن شعب الله ينبغى ألا يتلوث بأى مظهر من مظاهر الوثنية والعبادات الفجة التى كانت سائدة قديما .

فحتى يحافظ الله على نقاوة شعبه ، لزم الأمر بأن تمحى كل عبادة أخرى ، مع أصحابها وأصنامها ومظاهرها . بمعنى أن اليهود أدركوا قديما أن نقاوة الدين الحق ، تقتضى كل تضحية ، ولا تستبعد أية وسيلة حتى ولو كان فيها الأبادة وسفك الدماء . فلو ارتبط الواحد بزوجة من الأعداء ، أو اقتنى تمثالا ذهبيا من معبودات تلك القبائل ، فمما لا شك

فيه، أن النتيجة ستكون انحراف الشعب بأكمله إلى تلك العبادات . لقد كان الهدف من ذلك هو الحفاظ على نقاوة الديانة الموسوية .

فلما أتى «يسوع» بروح العهد الجديد، أعلن حقاً جديداً : إننا نستطيع بطريق آخر أن نحافظ على نقاوتنا ونقاوة التعاليم التى نعتنقها ، أفضل من أن نمسك بالسيف ونطيح برؤوس الآخرين ... نستطيع أن نحولهم إلى ديننا وعقيدتنا . فنكسب مكسبين : نكسبهم ونكسب نفوسنا وعقيدتنا ... لقد تفهم أبناء العهد القديم الحق ، ولكن جانبا منه . وبقى أن تدور دورة الزمن دورتها الطويلة ، حتى تستطيع أن تستوعب الإنسانية الدرس الذى قدمه المسيح .

(ب) وسوف نعرف أيضاً ، أن **إعلانات الله للبشر هى بلا نهاية ، فهى لا تقف عند حد** ، ولا تنتهى عند عصر من العصور . إننا نعتقد أن بين دفتى العهد الجديد، إعلان الله الكامل للبشر . هذا حق . ولكننا نخطىء إن كنا نظن أن السماء قد أغلقت أبوابها ، وأنها لم تعد تتحدث بعد إلى الأرض . إن روح الله مازال يعلن لنا إعلانات جديدة ... والله كل يوم يعلن لنا ذاته بصورة مستمرة لا تتوقف ولا تنقطع . صحيح أن كمال الوحى الالهى قد ظهر فى «يسوع المسيح» ، فهو إعلان الله الأسمى للبشر . ولكن «يسوع» ليس صورة مجمدة فى كتاب . إنه كيان حى ، وفيه يستمر على الدوام إعلان الله للبشرية . إن يسوع أعمق من أن يكتشف فى فترة من الزمن . إن الأبدية لا تكفى لتعلنه لنا . والله كل يوم يعلن لنا أكثر فأكثر عن طبيعة المسيح ، وحقه ، عن ذاته وتعاليمه . إن الله لم يختم على أقوال النبوة (رؤيا ٢٢ : ١٠) . ولم يتوقف عن إعلان ذاته عند تاريخ عام ١٢٠ للميلاد . إنه مازال يقود البشرية إلى اكتشاف أعظم وأعظم ، عن يسوع المسيح ، والحق المقدم فيه للإنسانية ..

٢ ــ وسنرى هذه الحقيقة بأكثر وضوح ، حينما نتأمل فى المبدأ الثانى للوحى أو الإعلان . وهو أن وحى الله ليس وقفاً على الأنبياء والرسل فحسب ، وليس محدداً بمانسميه بالحق اللاهوتى . فاللاهوتيون ليسواهم فقط الأشخاص الذين يستخدمهم الوحى .

حينما يتقدم شاعر عظيم برسالة إلى البشر تتضمنها سطور قصيدة رائعة شأن « تنيسون » فى قصيدته الخالدة « للذكرى(١) » .

حينما تدفع العاصفة عصفورا إلى صدر « تشارلس وسلى » فتواتيه كلمات الترنيمة الحلوة « خبئنى يالهى ساتراً لى فى الحبيب » .. حينما يسطر الموسيقار « هاندل » فى أوبرا المسيا قرار « هللويا » ويقول « حينما كنت أسطره رأيت السماء مفتوحة أمام انظارى والإله العظيم فوق العرش ، ألا نرى فى هذا وحيا وإلهاما ، شأن الوحى الذى ألهم كاتب المزامير كلمات مزمور الراعى ، والذى فاض فى قلب الحكيم القديم بنشيد الانشاد ؟ .

وفى ميدان الإكتشافات والإختراعات العلمية والطبية ، التى أفادت الإنسانية ، وعادت عليها بالخير الوفير ، ألا نرى وحى الله ؟ حينما تواتى الصدفه « فلمنج » فيرى الدائرة الشفافة تحيط بفطر البنسليوم فى مزرعة البكتريا . ويؤدى هذا إلى اكتشاف البنسلين ، وإنقاذ حياة الألوف المؤلفة . والقياس على هذا المثال كثير ، ألا نرى فى هذا وحياً وإعلانا من الله ؟

إن الذى يحدث فى غالب الأحيان ، أن العالم أو المكتشف أو المخترع يقوم بالتجربة تلو التجربة ، ويسهر الليالى وراء الليالى . ويحبس نفسه فى

---

(١) In Memoriam

مخبره بعيداً عن المجتمع ، ثم يصل فى النهاية إلى عقدة يستعصى حلها، وكأنى به أمام باب مغلق ، وفى لحظة ... وكما يقولون عن حق ، فى لحظة تجلى ، يشرق عليه الإلهام من مصدر لا يدريه .. من مصدر أعلى من فكره ومقدرته وذكائه .. من الله . وبكلمات أخرى حينما ينتهى الإنسان عند حد العجز ، تبدأ قدرة الله .

بماذا نسمى هذا إن لم يكن إلهاما ؟ .

إن وحى الله وإعلانه ، غير مقصور على الجانب اللاهوتى فحسب . إن كل الحق هو حق الله . وإعلان الحق فى كل مجال هو من عمل الروح القدس .

٣ – وهنا نأتى إلى مبدأ آخر من مبادىء الوحى . إن كل إعلان نافع هو من الله . فهو مالك كل حق ، وواهب كل حق . إن الحق ليس من اكتشاف الإنسان ، إنه عطية الله . إن ما يقدمه الروح إلينا هو حق الله . إن الحق لا تخلقه خلايا أدمغتنا ، أو نصنعه فى مصنع أفكارنا . إنه شىء موجود بالفعل نحتاج أن نكتشفه .. شىء فى حوزتنا ولكننا لا نخلقه . فخلف كل حق الذى هو هبة الله ، ليس هناك سوى الله نفسه .

٤ – والوحى هو توصيل أفكار يسوع إلينا : وإعلان مدلولها بالنسبة لنا . إن عظمة «يسوع» تكمن فى عمقه وغناه الذى لا يستقصى . فلم يوجد واحد وصل إلى عمق ما جاء «يسوع» ليعلنه لنا . ولم يستطع مفكر أن يستجلى كل جوانب الجمال ، والسمو ، والعمق ، والحكمة ، فيما قاله معلم الأجيال . ولم يصل إنسان إلى معرفة ما تعنيه تعاليمه للحياة ، وللعقيدة ... للفرد وللعالم .. للمجتمع وللأمة . إن الوحى هو إعلان مستمر دائم لا ينقطع ، عن معنى « يسوع المسيح » ، وعن دلالته للمجتمع .

هنا يكمن سر الأمر كله . فالوحى قد يصل إلينا عن طريق كتاب ، أو كلمة مطبوعة أو عقيدة متواترة ، ولكن الإله الحى هو الذى يعلنه لنا بواسطة الروح القدس . وكلما اقتربنا أكثر لنحيا مع مسيحنا ، عرفناه أكثر فأكثر . وكلما ازددنا تشبها به فى حياتنا ، يعلن ذاته أكثر لنا . فنحن إذا أردنا أن نتمتع بإعلانه ، ووحيه ، علينا أن نتعلم كيف نقبل سلطانه وسيطرته . إن معرفة المسيح تتمشى جنبا لجنب مع الخضوع له . ولن يعلن الله ذاته ، إلا لأبنائه الخاضعين المكرسين . هنا الطريق ، والإمتياز ، وهنا أيضاً المسئولية ..

الحزن يتحول إلى فرح

بَعْدَ قَلِيلٍ لَا تُبْصِرُونَنِي . ثُمَّ بَعْدَ قَلِيلٍ أَيْضاً تَرَوْنَنِي لِأَنِّي ذَاهِبٌ إِلَى ٱلْآبِ .

فَقَالَ قَوْمٌ مِنْ تَلَامِيذِهِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مَا هُوَ هٰذَا ٱلَّذِي يَقُولُهُ لَنَا بَعْدَ قَلِيلٍ لَاتُبْصِرُونَنِي ثُمَّ بَعْدَ قَلِيلٍ أَيْضاً تَرَوْنَنِي وَلِأَنِّي ذَاهِبٌ إِلَى ٱلْآبِ . فَقَالُوا مَا هُوَ هٰذَا ٱلْقَلِيلُ ٱلَّذِي يَقُولُ عَنْهُ . لَسْنَا نَعْلَمُ بِمَاذَا يَتَكَلَّمُ . فَعَلِمَ يَسُوعُ أَنَّهُمْ كَانُوا يُرِيدُونَ أَنْ يَسْأَلُوهُ فَقَالَ لَهُمْ أَعَنْ هٰذَا تَتَسَاءَلُونَ فِيمَا بَيْنَكُمْ لِأَنِّي قُلْتُ بَعْدَ قَلِيلٍ لَاتُبْصِرُونَنِي ثُمَّ بَعْدَ قَلِيلٍ أَيْضاً تَرَوْنَنِي . ٱلْحَقَّ ٱلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّكُمْ سَتَبْكُونَ وَتَنُوحُونَ وَٱلْعَالَمُ يَفْرَحُ . أَنْتُمْ سَتَحْزَنُونَ وَلٰكِنَّ حُزْنَكُمْ يَتَحَوَّلُ إِلَى فَرَحٍ . ٱلْمَرْأَةُ وَهِيَ تَلِدُ تَحْزَنُ لِأَنَّ سَاعَتَهَا قَدْ جَاءَتْ . وَلٰكِنْ مَتَى وَلَدَتِ ٱلطِّفْلَ لَا تَعُودُ تَذْكُرُ ٱلشِّدَّةَ لِسَبَبِ ٱلْفَرَحِ لِأَنَّهُ قَدْ وُلِدَ

إِنْسَانٌ فِي ٱلْعَالَمِ . فَأَنْتُمْ كَذٰلِكَ عِنْدَكُمُ ٱلْآنَ حُزْنٌ .
وَلٰكِنِّي سَأَرَاكُمْ أَيْضاً فَتَفْرَحُ قُلُوبُكُمْ وَلَا يَنْزِعُ أَحَدٌ
فَرَحَكُمْ مِنْكُمْ وَفِي ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ لَا تَسْأَلُونَنِي شَيْئاً .
ٱلْحَقَّ ٱلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّ كُلَّ مَا طَلَبْتُمْ مِنَ ٱلْآبِ بِٱسْمِي
يُعْطِيكُمْ . إِلَى ٱلْآنَ لَمْ تَطْلُبُوا شَيْئاً بِٱسْمِي . اُطْلُبُوا
تَأْخُذُوا لِيَكُونَ فَرَحُكُمْ كَامِلاً

(يوحنا ١٦ : ١٦ – ٢٤)

فى هذه الفقره ، يخترق رب المجد بأبصاره الحاضر المرير الذى يحياه ، والمستقبل القريب المؤلم الذى ينتظره ، إلى عهد جديد سيشرق متألقا صافيا مجيداً .. وهو فى هذا لا ينأى فى تفكيره ، عن الفكر اليهودى السائد . لقد كان اليهود يعتقدون أن الزمن ينقسم إلى دهرين ، الدهر الحالى والدهر الآتى . أما الدهر الحالى فهو ردىء بالكلية . تحت اللعنة ، أما الدهر الآتى ، فهو عصر الله الذهبى . وقبل انبلاج فجر العهد المشرق الذهبى ، يأتى يوم الرب الذى يمهد لإشراقة ذلك العهد السعيد . أما يوم الرب فيوم مرير رهيب مشتعل بغضب القدير ، فيه تنحل العناصر محترقة ، وتتزلزل العروش والممالك ، وتنقلب أساسات الوجود .

ثم يشرق بعده العهد الذهبى . ولقد كان اليهود يعبرون عن الفترة الرهيبة ما بين العهدين ، بآلام مخاض العالم ، لقرب أيام المسيا . وكانت الصورة مستعارة من آلام الأم الحامل ساعة الوضع ، تلك الآلام التى تمهد

لدخول حياة جديدة إلى عالم الوجود . والعهد القديم ، وبالأخص أدب مابين العهدين ، يزخر بمثل هذه الصور الرهيبة عن يوم الرب ، يوم الرهبة والرعب ، فنجد «إشعياء» ينادى قائلا « ولولوا لأن يوم الرب قريب قادم كخراب من القادر على كل شىء . لذلك ترتخى كل الأيادى ، ويذوب كل قلب إنسان فيرتاعون . تأخذهم أوجاع ومخاض ، يتلوون كوالدة » . (إشعياء ١٣ : ٦ — ٨) بينما يدوى التحذير من شفتى يوئيل النبى .. «ليرتعد جميع سكان الأرض لأن يوم الرب قادم لأنه قريب ، يوم ظلام وقتام . يوم غيم وضباب . شعب كثير وقوى لم يكن نظيره منذ الأزل ولا يكون أيضا بعده ، قدامه نار تأكل وخلفه لهيب يحرق » (يوئيل ٢ : ١ — ٣) فإذا أتينا إلى ملاخى نسمعه يهتف « هو ذا يأتى اليوم المتقد كالتنور وكل المستكبرين وكل فاعلى الشر يكونون قشا ويحرقهم اليوم الآتى .. فلا يبقى أصلا ولا فرعا . » (ملاخى ٤ : ١) فإذا أتى إلى نهاية نبواته ، تحدث عن مراحم الله فى إعطاء الفرصة الأخيرة للبشر قائلا « هأنذا أرسل إليكم إيليا النبى قبل مجىء يوم الرب اليوم العظيم والمخوف » (عدد ٥) ؛ وفى كتابات الأبوكريفا نقرأ فى سفر باروخ الثانى :

« يتحول المجد إلى خزى وعار ، والقوة إلى احتقار ، .. والجمال يتحول إلى قبح » (باروخ الثانى ٢٧) .

فإذا اتجهنا إلى رسل العهد الجديد، نجد «بطرس» رسول الختان يقول فى رسالته الثانية (٣ : ١٠) « ولكن سيأتى كلص فى الليل يوم الرب الذى فيه تزول السموات بضجيج ، وتنحل العناصر محترقة ، وتحترق الأرض والمصنوعات التى فيها » .

هذه هى صورة الآلام .. آلام المخاض للتى تحل بالعالم ، وتسبق مجىء المسيح ثانية لإعلان ملكه العتيد ، وبداية العهد الجديد .

ولقد كان «يسوع» يعرف الكثير ، ولم تكن تلك الصور غريبة عنه . لقد كانت فى ذاكرته وفى خياله ، وهو هنا يقول لتلاميذه « إننى على وشك أن أفترق عنكم ، ولكنى سأعود ثانية . سيأتى اليوم الذى يبدأ فيه سلطانى ، وتشرق أمجاد ملكوتى ، ولكن قبل هذا لابد أن تجتازوا فى البلوى المحرقة .

لابد وأن تجوزوا فى آلام المخاض ، فإذا احتملتم بصبر ، ووقفتم ثابتين فى وجه العواصف القادمة ، فسوف تكون لكم البركات العظمى .

ثم يتطرق الحديث إلى حياة المسيحى الذى يحتمل بصبر .

١ - فحزنه يتحول إلى فرح : فى أوقات الأزمات ، يبدو وكأن الجو الخانق يكتم الأنفاس ، وكأنى بدوائر الوجود كله فى راحة وسرور ، عدا دائرة المتمسكين بالدين .

ولكن سيأتى اليوم الذى تتحول فيه أفراح العالم إلى أحزان ، وتتبدل فيه أحزان المسيحى إلى أفراح وأمجاد . حينما يرى المسيحى إيمانه باهظ التكاليف ، ليذكر أن هذا الوجود ليس نهاية كل شىء ، وأن العبرة بالنهاية ، وكما يقول «شيكسبير» خير ما نهايته خير ..

٢ - وهناك أمران جوهريان يتصلان بفرح المسيحى .

(ا) فهو ثابت لايتزعزع .. مستقل عن الظروف والإضطرابات ، وأمواج الوجود الهائجة . إنه لايتزعزع لهجوم الأعداء ، ولا يهتز أمام نشاطهم . هذه ليست كلمات على الورق ، ولكنها حقيقة فعلية اختبارية فى حياة كل مؤمن . فكم من كثيرين جازوا فى وادى الألم ، فى وادى الحزن .. فى وادى

التجربة والدموع ، فإذا بهم يحولونه إلى نبع فائض بالبركة والتعزية ، ومنهم من سجل اختباراته .

واختباراته تتحدث بصدق قول المرنم « عند كثرة همومي في داخلي تعزياتك تلذذ نفسي » . إن الفرح الذي يهبه «يسوع» مستقل عن العالم بمافيه ، إنه لايتوقف على مايعطيه العالم أو يمنعه . ولكنه مبني على محضر المسيح ، وتتعمق جذوره في الإله الحي .

(ب) وهو ليس ثابتا فقط ، إنه كامل كاف . في أسمى أفراح العالم هناك عنصر ناقص .. هناك عنصر يبحث عنه . الإنسان يبحث في أفراحه عن الإكتفاء ، فاذا به يجد مكانه الأسى والحزن . إنه يبحث عن السلام ، فإذا بغيمة ربما لاتزيد في حجمها عن كف إنسان ، تتلبد في أفق ذاكرته ، وتملؤه بالندامة والحزن الذي لايدرى كنهه ؛ إنه يبحث عن الراحة ، فيكتشف أنه لاراحة في مباهج العالم ؛ إنه يبحث عن الري ، ولكن كما قال رب المجد للسامرية «كل من يشرب من هذا الماء يعطش أيضا » (يوحنا ٤ : ١٣) ولكن الذي يختبر « يسوع » يجد سرور محضره ، وهناء النبع الصافي الذي يقدمه له ، يملآنه بالراحة والإكتفاء .

٣ – ثم يقول السيد ، إن من يختبر هذا الفرح العميق ، ينسى الآلام التي سبقته . فالأم وهي تلد تجتاز في آلامها المبرحة ، ولكن متى ولدت الطفل، تنسى كل متاعبها في فرحة الطفل الوليد ، والشهيد ينسى عذابات الاستشهاد في إشراق نور الأمجاد أمامه ، كما كتب براوننج في قصيدة له بلسان شهيد محترق .

«في وسط النيران في . .

« يومي الرهيب .

« بدت يد تجذبني
« من جوف اللهيب .
« وعندها نفسي غدت .
« مع المسيح .
« في حضنه يضمني
« فأستريح .
« وهذه شهادتي .
« نسيت كل ضيقتي .

إن كان إخلاصنا ليسوع يكلفنا الكثير ، فإننا لابد أن ننسى الثمن الغالي ، في فرحة رجائنا بأن نكون مع حبيبنا إلى أبد الآبدين ، وفي فرحة يقيننا بأننا أتممنا كل ما علينا .

٤ — والمسيحي الصابر المحتمل ، يصل إلى كمال المعرفة « في ذلك اليوم لاتسألونني شيئا » . هناك أسئلة كثيرة في الحياة لانجد لها جوابا .. هناك مشاكل لانجد لها حلا ، وسبيلنا للثبات أمام مشاكل الحياة المحيرة ، أن نسلك بالإيمان لا بالعيان .. أن نقبل في خضوع وتسليم مالا نستطيع أن نصل إلى فهمه .. إنها كسور من الحق نستطيع أن نحصل عليها ... لمحات خاطفة من نور الله نستطيع أن نراها ، ولكن في الدهر الآتي ، سيكون لنا كل الإدراك ، ونصل إلى ملء المعرفة .

٥ — سوف نكون في علاقة جديدة مع الله :

فحينما نعرف الله المعرفة الصادقة ، نستطيع أن نذهب إليه : ونسأله طلباتنا بكل ثقة .. عند ذاك يصبح الباب مفتوحا على مصراعيه ، ونثق حقا

بأنه أبونا المحب ، وأن قلبه فياض بالمحبة ، حينذاك لن يساورنا أدنى شك، فى أن الآب يسر بنا، ويرحب بطلباتنا. ونستطيع أن نتحدث إليه بقلب مفتوح .

ويقول السيد إننا فى ظل هذه العلاقة الجديدة نسأل أى شيء فيكون لنا . دعونا نتأمل فى هذا فى حدود مفاهيمنا البشرية القاصرة – حينما يحب طفل أباه ، ويثق به ، فإنه يعرف جيداً أن لأبيه المعرفة الأسمى . والمحبة الأعظم والحكمة الأرفع ، التى تدفعه إلى أن يقول له فى بعض الأحيان : «لا» . إن صلتنا الجديدة بإلهنا تتيح لنا أن نأتى بكل مشاكلنا إليه ، ونتقدم بكل طلباتنا . لكن علينا أن نختم هذه الطلبات بالقول : « لتكن مشيئتك » .

٥ – وهذه العلاقة الجديدة أصبحت سهلة ميسورة فى «يسوع» . إننا أصبحنا فيه مقبولين .. فى محبته نجد رضى الله . وفى غفرانه نجد قبول الله . وفى ثباتنا فى ذاك الذى وجد الآب سروره فيه ، يجد الآب سروره فينا ، بسبب من هو يسوع ، وماعمله يسوع يكمل فرحنا ويثبت .. وتزداد معرفتنا وتسمو ، ويفتح الطريق أمامنا إلى قلب الآب . إن كل مالنا قد نلناه ووصلنا إليه فى يسوع المسيح . ففى اسمه المبارك نطلب .. وفى اسمه نجد قبولا .. وفى اسمه العظيم نقترب من الآب ، فنجد منه رضى وترحيبا .

الطريق المباشرة

قَدْ كَلَّمْتُكُمْ بِهٰذَا بِأَمْثَالٍ وَلٰكِنْ تَأْتِي سَاعَةٌ حِينَ لَا أُكَلِّمُكُمْ أَيْضاً بِأَمْثَالٍ بَلْ أُخْبِرُكُمْ عَنِ ٱلْآبِ عَلَانِيَةً. فِي ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ تَطْلُبُونَ بِٱسْمِي. وَلَسْتُ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي أَنَا أَسْأَلُ ٱلْآبَ مِنْ أَجْلِكُمْ. لِأَنَّ ٱلْآبَ نَفْسَهُ يُحِبُّكُمْ لِأَنَّكُمْ قَدْ أَحْبَبْتُمُونِي وَآمَنْتُمْ أَنِّي مِنْ عِنْدِ ٱللهِ خَرَجْتُ. خَرَجْتُ مِنْ عِنْدِ ٱلْآبِ وَقَدْ أَتَيْتُ إِلَى ٱلْعَالَمِ وَأَيْضاً أَتْرُكُ ٱلْعَالَمَ وَأَذْهَبُ إِلَى ٱلْآبِ

(يوحنا ١٦ : ٢٥ — ٢٨)

يقول يسوع لتلاميذه فى هذه الفقرة ، إنه حتى تلك الساعة كان يتحدث إليهم بأمثال. والكلمة فى الأصل هى «بار وإميا» وهى تستخدم للدلالة على الأمثال.. وهى تعنى أساساً قولا عسيراً على الفهم. . قولا معمى يخفى على مدارك المستمع.. قولا يحتاج إلى الجهد والتقليد حتى يصل الإنسان إلى مضمونه ، ويمكن أن تستخدم هذه الكلمة للإشارة إلى أقوال الحكماء القصيرة المضغوطة التى لا يستطيع العقل العادى استيعابها لا كتنازها ، وقوتها ، ويمكن أيضاً أن تشير إلى اللغز الذى يجهد الإنسان فكره للوصول إلى حله .

وهكذا يقول معلم الدهور : «حتى هذه اللحظة كنت أعطيكم رموزاً وصوراً ، وإشارات » . كنت أقدم لكم الحق مقنعاً بقناع الرمز والمثل . كنت أقول لكم أموراً أدفعكم إلى أن تحلوها بأنفسكم .. ولكنى الآن سأتحدث إليكم بالحق فى أجلى صوره .

هنا قال لهم علانية أنه أتى إليهم من عند الآب ، وأنه ماض بعد قليل إلى حيث أتى . هنا تقدم بالحق الأعظم المجيد الذى أعلنه عن نفسه، إنه ليس سوى ابن الله الحبيد . . . هنا أعلن لهم أن الصليب ليس نهاية الازدراء والعار وميتة المذلة . بل هو الطريق إلى بيت الآب وأمجاد الآب .

وهنا يعلن حقاً مجيداً ينبغى أن يثبت على الدوام فى أذهاننا . فهو يقول لنا إننا نستطيع أن نقترب من الآب السماوى لأنه يحبنا . نستطيع أن نتقدم بطلباتنا إلى الله رأساً . ونحن كثيراً ما ترتسم فى مخيلتنا صورة خاطئة . . . صورة نتخيل فيها إلهاً غاضباً ثائراً ، والابن الحبيب يبدو إلى جواره محاولا أن يستعطفه ويهدئ من ثائرته علينا . ولكن «يسوع» يمحو من أمامنا هذه الصورة ليرسم بديلا عنها، صورة إله محب عطوف يذوب قلبه الكبير عطفاً وحناناً من نحونا . فيقول لنا : « لا تمتلئوا رعبا من إله المحبة . . تقدموا إليه . . قدموا طلباتكم له . . وسوف تكتشفون أنه يحبكم لأن الله محبة . . لاحظوا أن يسوع يقول لنا هذا قبل اجتيازه فى مرارة الصليب ، وكأنى به يقول . . إنى لن أموت لأ غير قلب الله وعواطفه من جهتكم . ولكنى سأقاسى آلام الصليب ومرارته وعاره لأثبت لكم أن الله يحبكم .. لقد جئت إلى العالم . . لقد أرسلنى الآب إلى العالم . ليس لأن الله يبغض العالم . بل لأنه يحبه بهذا القدر ، حتى يبذل ابنه الوحيد فى سبيل خلاصه .. «فخلف إرسالية يسوع ، وخدمات يسوع ، واتضاع يسوع ، ودماء يسوع المراقة على الصليب ،

توجد محبة الله الفائضة من نحونا . وما كان ممكنا أن ندرك هذه الحقيقة لولم يخبرنا السيد بهذا بنفسه . لقد أعلن « يسوع » محبة الله للبشر .

فى هذه الفقرة يعلن لنا رب المجد أن عمله قد أكمل ، والمهمة التى جاء من أجلها قد وصلت إلى تمامها . لقد أتى من الآب إلى البشر فى ثوب المهانة والاتضاع ، فى جسم بشريتنا ، وسوف يعود إلى الآب فى طريق المهانة والعار ، طريق الصليب . وهكذا فتح لنا طريق القبول عند الله الآب ، ليس لأن يسوع استعطف الآب بآلامه . بل لأننا عن طريق محبتنا ليسوع أصبحنا أعزاء على قلب الله .

قَالَ لَهُ تَلَامِيذُهُ هُوَذَا ٱلْآنَ تَتَكَلَّمُ عَلَانِيَةً وَلَسْتَ تَقُولُ مَثَلاً وَاحِداً . ٱلْآنَ نَعْلَمُ أَنَّكَ عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَلَسْتَ تَحْتَاجُ أَنْ يَسْأَلَكَ أَحَدٌ . لِهٰذَا نُؤْمِنُ أَنَّكَ مِنَ ٱللهِ خَرَجْتَ . أَجَابَهُمْ يَسُوعُ ٱلْآنَ تُؤْمِنُونَ . هُوَذَا تَأْتِي سَاعَةٌ وَقَدْ أَتَتِ ٱلْآنَ تَتَفَرَّقُونَ فِيهَا كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى خَاصَّتِهِ وَتَتْرُكُونَنِي وَحْدِي . وَأَنَا لَسْتُ وَحْدِي لِأَنَّ ٱلْآبَ مَعِي . قَدْ كَلَّمْتُكُمْ بِهٰذَا لِيَكُونَ لَكُمْ فِيَّ سَلَامٌ . فِي ٱلْعَالَمِ سَيَكُونُ لَكُمْ ضِيقٌ . وَلٰكِنْ ثِقُوا أَنَا قَدْ غَلَبْتُ ٱلْعَالَمَ

(يوحنا ١٦ : ٢٩ — ٣٣)

هنا يبدو لنا نور غريب ، يكشف أمام عيوننا الطريق الذى أوصل التلاميذ أخيراً إلى التسليم الكامل ليسوع .هنا نراهم قد قفزوا إلى قمة الإيمان الكامل . لأنهم كما يقولون تحققوا بأن يسوع ليس بحاجة إلى سؤال إنسان عن أى أمر من الأمور . ترى ماذا يقصدون بهذا القول ؟ لو رجعنا إلى العددين السابع عشر والثامن عشر من نفس الاصحاح . نراهم يتناقشون

فيما بينهم عن معنى ما قاله يسوع ،وهم فى حيرة من أمرهم . فإذا بنا نرى السيد فى العدد التاسع عشر يجيب عن أسئلتهم دون ماحاجة إلى أن يسألهم فيم كانوا يتحاجون أو بكلمات أخرى استطاع يسوع أن يقرأ أفكارهم كما من كتاب مفتوح .

هذا هو السبب الذى من أجله آمنوا به . لقد رأوا أنفسهم أمام من يعرف دخيلة قلوبهم ، ويجيبهم عن كل مشاكلهم قبل أن يسألوه . إن يسوع يعرف أفكارنا ، وهمومنا ، ومتاعبنا الداخلية ، وهو يستطيع أن يتعامل مع كل واحد بحسب مشاكله الخاصة . إن معرفته بالله ، وإعلان أمجاده أمام التلاميذ ، ومعرفته بطبيعة القلب البشرى ، وكشف أسراره الخفية قد أقنعا تلاميذه بأنه بالحقيقة ابن الله . فلم يوجد من عرف الله ، وعرف البشر نظير يسوع . ولكن المعلم العظيم كان واقعياً . فلم يندفع فى موجة الحماس الطارئ وتأخذه النشوة . لقد أنبأهم بأنه بالرغم من إيمانهم ، فستأتى الساعة التى فيها يتخلون عنه ويهجرونه . هنا نرى شيئاً عجيباً ، بل نكاد نقول أعجب الأشياء عن يسوع . فها نحن نراه يصل إلى أدق الأسرار فى حياة تلاميذه . فيعرف ضعفهم ، ويعرف أنه فى أحرج أوقاته . . . فى الوقت الذى سيكون فيه أحوج ما يكون إلى وجودهم بجواره ، سوف يتخلون عنه هاربين . ومع ذلك استمر فى محبته لهم . . بل الأعجب من ذلك أنه استمر فى ثقته بهم . إنه يعرفنا فى أردأ نقاط ضعفنا . ومع ذلك يحبنا ويثق بنا ، وبضعفنا فى كثير من الأحيان . قد يكون من السهل علينا أن نعفو عن إنسان أساء إلينا أو تخلى عنا .

وقد نجده من الصعب أن نعود إلى محبة ذلك الإنسان كما كنا فى الماضى . ولكن من أقسى الأمور أن نعود إلى الثقة الأولى التى كنا نضعها فى ذلك الإنسان . ونعتمد عليه كل الاعتماد ، كما كان شأننا فى الماضى . ولكن يسوع

يقول لتلاميذه : « إنى أعرف أنكم فى ضعفكم ستهجروننى وتتركوننى وحيداً . أنا أعرف أن أحدكم سيخوننى . والآخر سينكرنى وكلكم ستنفضون عنى هاربين فى الساعة الحاسمة . ومع ذلك مازلت أثق بكم . وأثق بأنكم ستعوضون عن ضعفكم وستنتصرون » . إن هذه الثقة المقترنة بالغفران يندر أن نجد نظيراً لها فى تاريخ الإنسانية جمعاء . ترى ماهو الدرس الذى يريد السيد أن يلقنه لنا من خلال هذا التصرف ؟ إنه يعلمنا كيف نتسامح مع الذين يخطئون فى حقنا ، وكيف نضع ثقتنا فيمن تصرفوا معنا تصرفات خاطئة .

هناك أربعة أمور واضحة تعلنها هذه الفقرة عن يسوع . .

١ ــ **فهى تعلن لنا عماسيعانيه يسوع من وحشة** . . إن البشر سيتركونه وحيداً . . ولكنه لن يكون وحيداً لأن الله مازال معه . ونحن إن وقفنا بجانب الحق . . إن بذلنا وضحينا فى سبيل الحق . . إن وصلت تضحيتنا حتى إلى التضحية بالذات ، فلنثق بأن الله على الدوام سيكون معنا ، مؤازراً ، ومشجعاً وسنداً إن الله لن يترك رجاله الصالحين العاملين معه بمفردهم فى الساعات الحرجة . بل إننا فى مثل هذه الساعات نتحقق وجود الله إلى جوارنا . لأن الصداقة الحقة ، تظهر بوضوح فى الأزمات .

٢ ــ **وهى تعلن لنا غفران يسوع** . ولقد تأملنا على التو فى سمو هذا الغفران لقد كان يعرف ضعف تلاميذه ، وكان يعرف أنهم سيهجرونه . ولكنه لم ينزعهم من دائرة قلبه وفكره ، ولم يذكر لهم تلك الخطية فى مقبل الأيام . ولم يتمسك بضعفهم وثيقة ضدهم . لقد أحبهم فى ضعفهم . . رآهم فى ضعف جسم بشريتهم ، فأحبهم إلى الأبد ، واختارهم ليكونوا خاصته . إن الحب الذى يقدر له أن يبقى ويخلد ، ينبغى أن يبنى على النظرة

سليمة . . . على المعرفة الكاملة . أما الحب الذى يبنى على معرفة ناقصة... على قناع زائف يغطى حقيقة الإنسان . . على مثالية أبعد ماتكون عن الواقع ، فمصيره إلى النفور ، والكراهية ، والإحتقار ، حينما يسقط القناع وتظهر حقيقة الإنسان ، وحينما تسقط الغشاوة عن العينين فيظهر الإنسان كما هو . إذا كان هدفنا هو الحب الصادق – ينبغى أن نحب لا المثال . . لا الصورة المثالية التى ترسمها مخيلتنا ، بل الواقع الفعلى ، مفسحين فى قلوبنا مكانا لأكثر من ضعف وقصور ، لنحب الإنسان كإنسان لا غير .

٣ – وهى تصور لنا عواطف يسوع . هناك آية فى هذه الفقرة ، يبدو لنا لأول وهلة أنها وضعت فى غير موضعها . وهى التى يقول فيها السيد «كلمتكم بهذا ليكون لكم فى سلام » . والفكرة الرئيسية التى تقدم لنا مفهوم هذه الآية هى على النحو التالى : لو لم يكن يسوع قد تنبأ لتلاميذه عما سوف يحدث لهم من ضعف فى تراجعهم ، وهروبهم بعيداً فى ساعة محنته .. . لوكانت قد فاجأتهم التجربة دون أن يعلموا بما سيحدث لهم . لكان اليأس يتولاهم نظير «يهوذا» ، حينما يرون أنفسهم وقد سقطوا من النعمة ، وقاموا بدور الجبان المتنكر لسيده . ولكنه حذرهم بأن العاصفة ستهب عليهم ، وأنهم سيتزعزعون من ثباتهم . نعم أخبرهم بأن الشيطان سوف يغربلهم كما تغربل ربة البيت الحنطة أمامها ، فسوف يترنحون ويهتزون من عنف الصدمة ، شأن حبات القمح وهى تتأرجح وتترنح على الغربال . وهكذا يقول السيد لهم : « لقد صرحت لكم بما سوف يحدث ليكون لكم فى سلام . إنى أعرف ماسوف يحدث . . وأخبرتكم بكل شئ . لا تظنوا أن تراجعكم وسقوطكم سيكون مفاجأة لى . إنى أعرف ماسوف يحدث ولن يقلل هذا من محبتى لكم . وإنى أحدثكم بهذا حتى تجدوا سلامكم الأعظم فى لا فى نفوسكم المتقلبة – حينما تتفكرون فى كل هذا فى مقبل الأيام اطردوا عن نفوسكم كل يأس » .

هنا نرى العطف الإلهي مقترنا بالغفران المجيد . لقد كان كل تفكير يسوع منصبا ليس على ما سيلحق به من ضرر وأذى بسبب خطية البشر ، بل على ما تلحقه الخطية بأصحابها من ضرر وأذى — إننا لو استطعنا أن ننظر إلى أخطاء الآخرين من نحونا ، بنفس النظرة التى ينظر بها يسوع ، فإننا سنتألم ونحزن ، ليس لأن أخطاءهم سببت لنا المتاعب ، بل لأنها سببت لهم الندامة ، والألم ، وعذاب الضمير .

٤ — **بل إنها ترسم لنا صورة حية لهبات يسوع ... لما يقدمه لنا .** هو يقدم لنا الشجاعة فى مواجهة العاصفة ، والانتصار الكامل عليها . فهناك مأساة على وشك أن تتم أدوارها على مسرح التاريخ . وسوف يرى التلاميذ بأعينهم أن العالم سيبذل قصارى الجهد ، ليقدم أسوأ ما لديه ليسوع ، ومع ذلك لن يغلبه ، ولن ينتصر عليه . وسوف يرى التلاميذ ، أبناء الأرض يتقدمون ليسوع بالعار والألم والصليب ، والموت . ولكنهم سيشاهدون أيضاً سلطانه الذى لا يقهر ، حينما يقوم من الأموات ظافراً منتصراً . وهو على هذا الأساس يقول لهم : «إن الإنتصار الذى سوف أحققه لن يكون فريداً من نوعه . لن يكون قاصراً على أنا . إنه فتح عظيم لكل من يؤمن بى . إن العالم سيبذل قصارى جهده ليخمد ذلك الصوت الصارخ فى برية الوجود ، وينتهى من صاحبه إلى الأبد . ولكن الحق لن يقبر . لن يقدر له أن يموت وينتهى . إنه لا بد وأن يخرج فى النهاية ظافراً عزيزاً منتصراً . وهذا ما سوف يحدث لى . وإنى اقول لكم إنكم انتم أيضاً ستختبرون الأنتصار الأعظم فى . سوف يقاومكم العالم بكل ما أوتى من قوة . سوف يسلمكم للعذاب والموت .. وسوف يدوسكم بأقدامه لعله يسحقكم . ولكن نظير الحنطة حينما تدفن فى الحقل ، سوف تخرجون فى ملء الازدهار والانتصار . امتلئوا شجاعة فى ، وكونوا منتصرين فى انتصارى فى الصليب .

ٱلْأَصْحَاحُ ٱلسَّابِعُ عَشَرَ

مجد الصليب

تَكَلَّمَ يَسُوعُ بِهٰذَا وَرَفَعَ عَيْنَيْهِ نَحْوَ ٱلسَّمَاءِ وَقَالَ أَيُّهَا ٱلْآبُ قَدْ أَتَتِ ٱلسَّاعَةُ . مَجِّدِ ٱبْنَكَ لِيُمَجِّدَكَ ٱبْنُكَ أَيْضاً إِذْ أَعْطَيْتَهُ سُلْطَاناً عَلَى كُلِّ جَسَدٍ لِيُعْطِيَ حَيٰوةً أَبَدِيَّةً لِكُلِّ مَنْ أَعْطَيْتَهُ . وَهٰذِهِ هِيَ ٱلْحَيٰوةُ ٱلْأَبَدِيَّةُ أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ ٱلْإِلٰهَ ٱلْحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ وَيَسُوعَ ٱلْمَسِيحَ ٱلَّذِي أَرْسَلْتَهُ . أَنَا مَجَّدْتُكَ عَلَى ٱلْأَرْضِ . ٱلْعَمَلَ ٱلَّذِي أَعْطَيْتَنِي لِأَعْمَلَ قَدْ أَكْمَلْتُهُ . وَٱلْآنَ مَجِّدْنِي أَنْتَ أَيُّهَا ٱلْآبُ عِنْدَ ذَاتِكَ بِٱلْمَجْدِ ٱلَّذِي كَانَ لِي عِنْدَكَ قَبْلَ كَوْنِ ٱلْعَالَمِ

(يوحنا ١٧ : ١–٥)

لقد كانت لحياة يسوع قمتها ، وكانت هذه القمة الصليب . لقد كان الصليب ليسوع هو مجد الحياة الحاضرة ، والطريق إلى أمجاد الحياة المقبلة « قد أتت الساعة ليتمجد ابن الإنسان » (يوحنا ١٢ : ٢٣) . هكذا يقول

السيد. فى أى عنصر تكمن أمجاد الصليب؟ وماذا يعنى يسوع فى حديثه عن الصليب بأن فيه مجده، وتمجيده؟ هناك أكثر من جواب.

١ — فمن الحقائق الواضحة فى التاريخ، أنه فى موت العظماء مجدهم. وكلما كانت للموت ظروفه الخاصة، أحاط صاحبه بهالة أمجد — فالمكان الذى فيه انتهت حياة الإنسان، والظروف التى رافقت موته، هى التى تظهر بحق من هو، وماذا يكون. قد يسىء الناس فهم الإنسان فى الحياة، وقد ينتقصون من مقامه، وقد يصل بهم الأمر إلى الحكم عليه، وربما وصل الحكم إلى الموت كمجرم أثيم، ولكن موت الإنسان هو الذى يبرره ويضعه فى وضعه الصحيح بحسب ترتيب الأشياء.

لقد كان لابراهام لنكولن رائد تحرير العبيد فى أمريكا، أعداؤه فى حياته، ولكن حتى أولئك الذين وجهوا إليه سهام النقد، وناصبوه العداء، اشتركوا فى تمجيده حينما مات. فمن الغرفة التى سجى فيها جسده بعد أن أطلق عليه الرصاص، خرج أحدهم وهو يهتف «لقد اصبح ابراهام ملكا للأجيال جمعاء». أما وزير حربيته الذى كان يرى فيه مخلوقاً فظيعاً غير مهذب الطباع، وما كان يدع فرصة تمر دون أن يبدى احتقاره له، قال مشيراً إلى جثته الدامية، والدموع تملأ عينيه «هنا يرقد أعظم حاكم فى تاريخ الإنسانية».

وهناك مثل آخر فى تاريخ العظماء: شهيدة الروان التى عرفتها الأجيال باسم «جان دارك»، والتى حكم عليها الإنكليز بالموت حرقاً كساحرة هرطوقية. وبين الجموع التى شهدت إعدامها، تقدم واحد، كان قد عزم أن يزيد النار اشتعالا، ووقف واجما أمامها وهو يقول «ياليت نفسى تجد الراحة حيث تكون نفس هذه المرأة». وأحد سكرتيرى ملك انكلترا

عاد من موكب الإعدام بعد أن احرقت «جان دارك» – عاد وهو يخبط كفاً بكف ويقول : « لقد حلت علينا اللعنة جميعاً ، لأننا أحرقنا قديسة مباركة » .

وحينما كان الأعداء يسوقون « مترّوز » وهو أحد شهداء اسكتلندا إلى ساحةالإعدام ، وكانوا قد دسوا كثيرين على طول الطريق للهتاف ضده ، وتحقيره ، لكن لم يرتفع صوت واحد . كان يرتدى أفخر ملابسه ، والجموع تحوطه وكأنه ملك يسير إلى حفل تتويجه . كما يقول أحد شهود العيان « لقد كان يسير فى الطريق فى جلال ، وكرامة ، وجمال أذهل كل أعدائه ، فاعترفوا بأنهم لم يشهدوا شجاعة نظير هذه » . وكتب أحد المراقبين العسكريين الإنكليز لرئيسه يقول « من الأكيد أنه كسب بموته أكثر ممن كان ممكنا أن يكسبهم لو عاش ، لأننى ما رأيت فى حياتى مثل هذه الشجاعة » وكم من مرة ظهرت دلائل السمو والجلال والكرامة ، فى اللحظات الأخيرة فى حياة الشهداء . وهكذا كان «يسوع» مع الفارق ، حتى أن قائد المئة هتف فى ذهول : « بالحقيقة كان هذا ابن الله » ، لقد كان فى الصليب مجد يسوع ، لأن يسوع لم يكن أكثر جلالا قدر ما كان فى موته ... لقد كان فى الصليب مجد يسوع لأن جاذبية الصليب قد اجتذبت إليه الجموع أكثر مما اجتذبتهم حياته وتعاليمه ومعجزاته. ومازال الصليب إلى يومنا الحاضر وإلى نهاية الأجيال ، سيظل أقوى مغناطيس يجتذب القلوب ، ويجمع النفوس حول « يسوع » .

مجد الصليب

(يوحنا ١٧ : ١ – ٥)

٢ – زد على هذا أن الصليب كان مجد يسوع ، لأن فيه تتويج عمله وكماله « العمل الذى أعطيتنى لأعمل قد أكملته » هكذا يقول . إن الوقوف دون الصليب معناه التوقف عن إتمام العمل الذى كلف بـه ولماذا هذا ؟ لأنه قد جاء إلى العالم برسالة محددة : أن يخبر الناس عن محبة الله ، وأن يظهر فى حياته تلك المحبة الإلهية ، وما كان الصليب إلا برهان محبة الله ، ودليل فيض القلب الإلهى من نحو البشر ، فلو لم يخط « يسوع » خطوته الحاسمة نحو الصليب لرأينا محبة الله تقف عند حدود لا تستطيع أن تتعداها . وكأنى بالله يقول للمحبة « إلى هنا وكفى » . لكن فى الصليب أعلن لنا « يسوع » أن المحبة الالهية تفيض وتطغى وتغطى كل شيء ولا يعسر عليها أمر فى سبيل محبة البشر ؛ ولا حدود لها فى سبيل خلاصهم ، وعودتهم إلى أحضان المحبة الالهية . هناك قصة يرويها أحدهم ، عن صبى مراسلة كان يعمل فى أحد الميادين فى الحرب العالمية الأولى ، حينما عهد إليه بتوصيل رسالة . وركب الصبي دراجة للقيام بمهمته ، وفى الطريق جرح جرحاً مميتاً ، على أثر أصابته بشظية من قذيفة . ومع ذلك لم يتوقف عن المسير . وحينما اكتشف فى النهاية ، وكان يلفظ أنفاسه الأخيرة ، همس قائلا : « لقد أوصلت رسالتى » . لقد كلفته تلك الرسالة حياته ، ومع ذلك لم يتراجع عن القيام بواجبه .

هذه صورة ضئيلة لما قام به « يسوع » . لقد أكمل رسالته ، وأوصل محبة الله للبشر . وكان إعلان محبة الله هو الصليب ، لكنه لم يتراجع . وهكذا كان فى الصليب مجد « يسوع » لأنه كمال العمل الذى أعطاه الله إياه . كما كان فيه إعلان محبة الله للبشر .

٣ — هذا يأتى بنا إلى سؤال آخر : **كيف كان فى صليب يسوع مجد الله ؟**
هناك طريق واحد لمجد الله ، وهو إطاعة وصاياه . فالابن يكرم والديه حينما يطيعهما . والمواطن يكرم أمته ، حينما يطيع قوانينها ، ويحيا بموجبها ، والتلميذ يكرم أستاذه حينما يطيع تعاليمه ويسير وفق إرادته . ولقد مجد يسوع الآب السماوى وأكرمه ، حينما أطاع وصاياه إن قصة البشائر تظهر لنا بوضوح أنه كان فى إمكانه أن يتجنب الصليب . كان ممكنا بحسب الفكر الإنسانى ، الا يذهب على الأطلاق إلى أورشليم ، بل يبقى فى دائرة الجليل ، محوطاً بأحبائه ومواطنيه ، لكنه بخطى ثابتة سار إلى ميدان الموت حتى أننا نستطيع أن نقول : أنظروا كيف أحب الله ؟ أنظروا إلى أى نقطة أوصلته طاعته للآب ؟ لقد كان فى الصليب تمجيد الآب ، بطاعته الكاملة ، فى ملء المحبة والتضحية .

٤ — بل إن هناك ما هو أكثر من هذا . لقد صلى «يسوع» طالبا من الآب أن يمجده ، وأن يمجد ذاته . فالصليب لم يكن نهاية الشوط . لقد كان لا بد وأن تتبعه القيامة ، والقيامة كانت إعلان مجد «يسوع» . . . تمجيدا لإرساليته . . . وتأكيداً لانتصاره وسلطانه .

لقد كان الصليب أقوى شاهد ، على أن البشر يستطيعون أن يتقدموا بأردأ ما لديهم ، وأن يسوع يستطيع أن ينتصر عليهم . وكأنى بالآب السماوى ، يشير إلى الصليب ويقول « هذا ما استطاع البشر أن يفعلوه بالابن الحبيب » ، ثم يشير إلى القبر الفارغ ويقول : « وهذا ما أستطيع أن أرد به على كيدهم » . لقد كان الصليب أردأ ما استطاعت البشرية أن تقدمه إلى «يسوع» . ولكن أردأ ما فى مقدور البشر لن يزعزع يسوع ، ولن ينتصر عليه ، ولن يحطمه . . لقد لحقت أمجاد القيامة عار الصليب » وبددت أنوار فجر الأحد ، ظلمات يوم الجمعة الحزينة .

٥ — ولقد كان الصليب بالنسبة ليسوع عودة إلى أمجاد الماضى . ونحن نستمع إليه يصلى قائلا :

« مجدنى بالمجد الذى كان لى قبل كون العالم » . لقد كان «يسوع» شأنه شأن ابن الملك العظيم ، الذى أوكلت إليه مهمة عسيرة خطيرة ، فى بلد بعيد ثائر فترك القصر وأمجاده ، ليقوم بمهمته حتى أنجزها على أتم ما يرام ، فلما انتهى من مهمته ، عاد منتصراً إلى القصر الملكى ليتمتع بثمار ظفره — من عند الآب أتى يسوع وإلى الآب يمضى ، وبين الرحلتين كانت معركة قاسية هى معركة الصليب . . . من عند الآب أتى وإلى الآب يمضى ، وكان طريق الرجوع هو طريق الصليب ، ولذلك فقد كان الصليب طريق المجد بل بوابته ، فلو أنه رفض أن يسلك الطريق ، ويدخل من الباب ، فكيف كان سيصل إلى الأمجاد ؟

الحياة الأبدية

(يوحنا ١٧ : ١ — ٥)

هنا فى هذه الفقرة فكر آخر غاية فى الأهمية ، لأنها تقدم لنا أعظم تعريف للحياة الأبدية ، **فالحياة الأبدية هى معرفة الله ، ومعرفة يسوع المسيح .** دعنا نتأمل فى مضمون الكلمة . إنها فى الأصل اليونانى « أيونيوس » . وهذه الكلمة لا تلتزم بمعنى الطول أى طول الحياة . فليس طول الحياة بالضرورة نعمة على الدوام ، أو شيئاً مرغوبا فيه . إن المعنى الأساسى لهذه الكلمة ، يدور حول نوعية الحياة . والحياة الأبدية يمكن أن تطبق على واحد ، هذا الواحد هو الله . فالحياة الأبدية ليست أقل من حياة الله نفسه وهكذا فإن الدخول فى الحياة الأبدية ، دخول إلى حياة الله ، وامتلاك الحياة الأبدية ، امتلاك لحياة القدير ، بمعنى أنها اختبار فى هذه الحياة ، لجزء من

أمجاد حياة الله فى ملئها ، وأفراحها ، وسلامها ، وبهائها ، وقداستها وسموها .

نقول إننا لو رجعنا إلى العهد القديم ، لوجدنا أن الفكر الأساسى الذى تدور حوله أسفار العهد القديم هو معرفة الله . فالحكمة « شجرة حياة لممسكيها والمتمسك بها مغبوط » (أمثال ٣ : ١٨) . . وعن كتاب الحكمة أحد أسفار الابوكريفا نقتبس القول : « إن معرفة قوتك أساس الخلود » (سفر الحكمة ٥ : ٣) . وفى الأمثال « بالمعرفة ينجو الصديقون » (أمثال ١١ : ٩) . أما حلم «حبقوق» النبى عن العصر الذهبى ، فهو أن « الأرض تمتلىء من معرفة مجد الرب كما تغطى المياه البحر » (حبقوق ٢ : ١٤) . فإذا أتينا إلى نبوات «هوشع» فإننا نستمع إلى صوت الله متحدثا عن شعبه بالقول « قد هلك شعبى من عدم المعرفة » (هوشع ٤ : ٦) وقد تباحث أحبار اليهود عن أصغر فقرة فى التوراة تضم وصايا الناموس بأكمله ، ووصلوا إلى القول الوارد فى سفر الأمثال « فى كل طرقك اعرفه وهو يقوم سبلك » (أمثال ٣ : ٦) .

وهناك أيضا قول آخر ، ورد فى نبوات «عاموس» ، وأجمع الأحبار وأئمة الشريعة على أن فيه قد جمع النبى كل وصايا الناموس ، حين قال متكلما بلسان الله . «أطلبونى فتحيوا» (عاموس ٥ : ٤) . لأن طلب الله معناه طلب معرفة الله . إن معلمى اليهود قد اتفقوا منذ زمن طويل ، على أن معرفة الله ، هى ألزم شىء للحياة الصادقة . ترى ماذا تعنى هذه المعرفة ؟

١ — مما لا شك فيه أن هذه المعرفة تحوى إشارة إلى المعرفة الذهنية . إنها تعنى على أقل تقدير ، معرفة كيف يكون الله . وفى محاولتنا معرفة كنه الجلال الإلهى ، تطبع حياتنا بأقوى مظاهر التغيير . لنأخذ مثلين . لنأخذ

بادىء ذى بدء المجتمعات الوثنية . إن مثل هذه المجتمعات ،وخاصة فى المناطق البدائية ، تؤمن بالعديدمن الآلهة . وهذه الآلهة قد تتخذ معظم مظاهر الطبيعة الناطقة والجامدة . فالإله قد يكون شجرة ، أو نهراً ، أو جبلا ، أو هضبة .كل هذه قد تكون آلهة ،أو قد تكون لها أرواحها . كروح الجبال ، وروح الأشجار ، والأنهار وغير ذلك . مثل هذه الآلهة أو الأرواح هى على الدوام فى صراع مع البشر ، وعداء معهم . ولذلك فالجموع هناك تعيش فى رهبة دائمة ، وتخشى من أن تغضب واحداً من هذه الأرواح أو الآلهة ، لئلا توقع بها الضرر .

ويخبرنا المرسلون الكثير من القصص عن مشاعر أولئك البسطاء حينما يكتشفون أن هذه الأعداد الكبيرة من الآلهة لا وجود لها . وأنه لا يوجد إلا إله واحد . وأن هذا الإله هو المحبة المجسمة .

إن هذه المعرفة الجديدة تطبع الحياة بطابع مغاير بالكلية ، وتغير نظرة الإنسان للوجود ، وعاداته ، وتقاليده . إن إله المحبة على النقيض من هذه الآلهة الوحشية ،آلهةالرعب والانتقام ،وسفك الدماء ،إله يملأالنفس بالهدوء ويسكن القلب فى سلام . ونحن نعرف هذه الحقيقة المجيدة ، ولكننا ما كان مقدراً لنا أن نصل إلى هذه المعرفة ، لو لم تعلن لنا محبة الله فى المسيح يسوع . إننا ندخل فى حياة جديدة . . . نشترك مع الله بصورة خفية فى طبيعته وحياته ، حينما نصل إلى معرفة الله الاختبارية عن طريق يسوع المسيح وعمله الكامل . إن معرفة الله تعنى بالنسبة لنا حياة الأبد . . . حياة الله .

٢ — ولكن هناك شيئاً آخر . إن كلمة « يعرف » المستخدمة هنا ،

. . . .

يستخدمها الوحي في أكثر من موضع في العهد القديم ، للإشارة إلى الصلة الجسدية بين رجل وامرأته . « فعرف آدم امرأته فحبلت وولدت قايين » (تكوين ٤ : ١) . أما معرفة الرجل بزوجته ،فهي أصدق وأقوى أنواع المعرفة. ففيها يصير الإثنان لا اثنين بعد بل واحداً . ولا نركز هنا على الجنس في مظهره ، أو مفهومه ، أو ممارسته ، فهذا ليس بالأمر الجوهري . ولكننا نقول إن أقوى ما في صلة الجنس ، وحدة القلب ، والعقل ، والمشاعر ، والنفس .ورباط الحب الذي يوحد الإثنين إلى واحد. على هذا الأساس ،فإن معرفة الله ، لاتعني تفهمه بالعقل في مدركاته ومصنوعاته أو حتى في كنهه وذاته ، بل أن تكون لنا الصلة الشخصية مع الله،وربطنا بجلاله رباط الحب .

نعود فنقول إنه بدون «يسوع » ، ما كان ممكناأن نرتفع إلى هذا المستوى.. ما كان ممكنا أن نصل إلى هذا الارتباط السامي ، وهذه الصلةالقريبة الحبيبة الشخصية بالله . إننا في «يسوع »... في تعاليمه .. في عمله .. في خلاصه.. في ذاته . قد وصلنا إلى معرفة الله معرفة اختبارية ، وارتبطنا به برباط الحب السامي ، وأصبحنا واحداً في ذاك الذي اسمه محبة .

إن معرفة اللههي أن نصل إلى إدراك كنه الله . . أن نكون في صلة محبة معه . والطريق الوحيد إلى الوصول هو «يسوع المسيح » . ففي «يسوع المسيح» نعرف من هو الله ، وفيه نصل إلى الارتباط الأسمى مع الله .

عمل يسوع

أَنَا أَظْهَرْتُ ٱسْمَكَ لِلنَّاسِ ٱلَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي مِنَ ٱلْعَالَمِ . كَانُوا لَكَ وَأَعْطَيْتَهُمْ لِي وَقَدْ حَفِظُوا كَلاَمَكَ وَٱلْآنَ عَلِمُوا أَنَّ كُلَّ مَا أَعْطَيْتَنِي هُوَ مِنْ عِنْدِكَ . لأَنَّ ٱلْكَلاَمَ ٱلَّذِى أَعَطَيْتَنِي قَدْ أَعْطَيْتُهُمْ وَهُمْ قَبِلُوا وَعَلِمُوا يَقِيناً أَنِّي خَرَجْتُ مِنْ عِنْدِكَ وَآمَنُوا أَنَّكَ أَنْتَ أَرْسَلْتَنِي .

(يوحنا ١٧ : ٦ – ٨)

هنا يعطينا « يسوع » تعريفاً مركزاً عن خلاصة ما عمله . فنحن نستمع إليه فى هذه الفقرة يقول للآب : « أنا أعلنت اسمك » . هناك فكرتان عظيمتان تدوران حول هذا التصريح .

١ — فى صفحات العهد القديم ، تستخدم كلمة « الإسم » بصورة فريدة مميزة . فهى لا تعنى ببساطة ، الاسم الذى أطلق على الإنسان لينادى به . إنها تعنى طبيعة الإنسان كله ، وصفاته التى يعرف بها ، والتى تميزه عن سواه . يقول المرنم : « يتكل عليك العارفون إسمك . لأنك لم تترك طالبيك يارب » (مزمور ٩ : ١٠) . هنا اسم الرب لا يعنى على الاطلاق أن أولئك الذين يعرفون ماذا يلقب الله يتكلون عليه . بل بالحرى ، الذين يعرفون صفات الله وطبيعته المحبة ، يتكلون عليه بكل ثقة ، ويضعون رجاءهم فيه . ويقول المرنم أيضاً .

« هؤلاء بالمركبات ، وهؤلاء بالخيل ، أما نحن فاسم الرب إلهنا نذكر » (مزمور ٢٠ : ٧) . وواضح أيضاً أن المرنم هنا يضع ثقته فى طبيعة الله و صفاته . إنه يثق بالله ، لأنه يعرف من هو الله . وفى مزمور آخر نستمع إليه يقول « أخبر باسمك إخوتى » (مزمور ٢٢ : ٢٢) .

وهذا المزمور الأخير ، مزمور نبوى اعتقد اليهود أنه نبوة عن المسيا ، وعما سيقوم به من إعلان طبيعة الله للبشر . أما إشعياء فإنه يرى أن أسمى خصائص العهد الجديد « يعرف شعبى إسمى » (إشعياء ٥٢ : ٦) . بمعنى أنه فى العهد الذهبى ، سيعرف الناس طبيعة الله ومن يكون .

و هكذا حين يقول «يسوع » « أنا أعلنت اسمك » فإنه يقول « أنا أعنت البشر ليصلوا إلى المعرفة الحقيقية عن طبيعة الله وعن صفاته » . أو هى صورة أخرى لما أعلنه من قبل « الذى رآنى فقد رأى الآب» (يوحنا ١٤ : ٩) فنى يسوع يرى البشر فكر الله ، وطبيعة الله ، وقلب الله .

٣ - ولكن هناك فكراً آخر ، فى الأوقات المتأخرة . حينما كان اليهود يتحدثون عن اسم الله ، أو اسم الجلالة ، كان يقصدون الاسم المقدس ذا الحروف الأربعة : « يهوه » . هذا الاسم كان عظيما مقدساً بحيث ما كان يجرؤ يهودى أن ينطق به بلسانه . وما كان يستطيع أن يذكره سوى رئيس الكهنة ، حينما يدخل إلى قدس الأقداس فى يوم الكفارة العظيم . فليس لمخلوق آخر بين البشر أن تنطق شفتاه هذا الاسم . ومن الملاحظ أن الكلمة فى العربية تتفق فى حروفها الأربعة مع الأصل العبرى . فى العبرية كما فى العربية نضع الإشارات فوق أو تحت الحروف المتحركة . وليس الأمر هكذا فى اللغة الإنكليزية . ولذلك فقد اختلف منطوق الكلمة فى الترجمة الإنكليزية ، Jehovah . وليس Yahweh .

وربما كانت كلمة « جيهوفاه » ترجمة لحروف «أدوناى» ، وهو أيضاً اسم الجلالة فى العبرية . وكان يوضع حركاته تحت اسم يهوه حتى إذا جاء الكاهن فى القراءات المرتبة إلى الاسم المقدس ينطق بكلمة « أدوناى » بدلا من يهوه .

وهكذا كان اسم الله مقدساً عظيما فى عصر «يسوع»، حتى أن الرجل العادى ما كان يعرف شيئاً عنه ، وما كان مفروضاً أن ينطق به . لقد كان الله أرفع وأعظم من أن يعرفه رجل الشارع أو ينطق باسمه . وهكذا يقول «يسوع» : « لقد أعلنت لكم اسم الله ، هذا الاسم المقدس الذى لا يستطيع إنسان أن ينطق به . لقد أعلنته لكم فى العمل الذى أكملته، والمهمة التى من أجلها جئت . لقد قربت إليكم الله العظيم السامى البعيد، حتى أن أبسط إنسان يستطيع أن ينطق به ويعرفه » .

إن «يسوع» فى هذه الفقرة، يتحدث عن حقه الأعظم، كمن أعلن لنا طبيعة الله وصفاته ، وكمن قرب إلينا جلال الله ، حتى أن أقل إنسان يستطيع أن يأخذ الاسم المقدس على شفتيه دون خوف أو رهبة .

معنى التلمذة

(يوحنا ١٧ : ٦-٨)

فى هذه الفقرة نكتشف نوراً يعلن لنا معنى التلمذة .

١ ــ فالتلمذة أساس اليقين بأن يسوع قد أتى رأساً من الله ــ فالتلميذ هو إنسان تحقق قبل كل شىء بأن «يسوع» رسول الله . بل أنه هو إعلان ذات الله . وأننا فى صوت يسوع نسمع صوت الله ، وفى عمل يسوع نرى عمل الله ، وفى شخص «يسوع» نرى ذات الله .

التلميذ إذاً هو الذى يرى الله فى «يسوع» ، ويوقن بأنه لا يوجد من يستطيع أن يعلن الله للبشر سوى يسوع ، ولا يوجد من يستطيع أن يقول «أنا والآب واحد» سواه .

٢ ـ والتلمذة ليسوع مظهرها الطاعة . فهى تتمثل فى إطاعة وصايا «يسوع» . إن التلميذ الحقيقى هو الذى يحفظ وصايا الله كما قدمت فى «يسوع» . فكيف تكون هناك تلمذة مالم تتمثل فى الطاعة ؟ إن الذى يريد أن يكون تلميذاً عليه أن يقبل سلطان معلمه . والذى يريد أن يكون تلميذاً ليسوع عليه أن يقبل سلطان يسوع . ويجعل وصاياه ناموس حياته . فطالما نتمسك بذاتيتنا ونريد أن نسلك كما نهوى ، لن نكون تلاميذ يسوع . فالتلمذة تقتضى الخضوع وتقوم على أساس الطاعة . .

٣ ـ والتلمذة هى شىء مرتب من قبل . لقد أعطى الله للابن الحبيب أولئك التلاميذ . وفى مخطط الله عين له تلاميذه . هنا نصطدم بعقيدة الإختيار المسبق . ولكننا لا نقصد أن نقول إن الله عين البعض ليكونوا تلاميذ ، والبعض الآخر ألا يكونوا تلاميذ . إن هذا لا يعنى اختياراً للتلمذة ، واختياراً لرفض التلمذة . ولكن دعنا نقدم مثلا ونموذجاً للتوضيح .

فقد يكون للإنسان ابن . وحول هذا الإبن تدور أحلام الأب أحلام عظيمة لاسم كبير ومركز ممتاز فى المجتمع ، ومستوى سنى فى الحياة . ولكن الإبن يستطيع بمحض إختياره أن يرفض طريق الآب ، ويحطم أحلامه . ويتخذ لنفسه الطريق الذى يختاره .

أو قد يكون معلم فى هذه المرة ، يتوسم فى تلميذ له علامات النجابة فيتوقع له المستقبل الزاهر ، والمركز الاجتماعى العظيم فى خدمة الله ، والمجتمع .

ولكن التلميذ قد يرفض الطريق المرسوم، ويتكاسل عن الاجتهاد، وينتهى إلى الفشل.

إن كنا نحب إنساناً، فإننا نحلم الأحلام العريضة عن ذلك الإنسان، ونخطط لمستقبله. ولكن هذه الأحلام والخطط قد تفشل كلها. وعن الفريسيين نقول إنهم كانوا يؤمنون بالقدر، ولكنهم آمنوا أيضاً بحرية الإرادة، ومن أقوالهم: «كل شيء معين بترتيب إلهى، عند مخافة الله»: إن لله خطته .. برنامجه، ترتيبه لكل نفس بشرية، والمسئولية علينا فى قبول هذه الخطة، وذلك الترتيب، أو عدم قبوله، إننا حقا لسنا فى أيدى القدر، ولكن فى أيدى الله. وكما يقول أحدهم «إن القدر معناه طريق الله الذى علينا أن نسلكه باختيارنا». إننا لانستطيع أن نفلت من قبضة الأقدار، ولكننا نستطيع أن نرفض أو نقبل الطريق المرسوم أمامنا.

خلال هذه الفقرة، بل بين سطور الأصحاح بجملته، نستمع إلى نغمة الثقة الكاملة، عن المستقبل فى حديث «يسوع». إنه مع تلاميذه .. مع أولئك الذين أعطاهم الآب له.

وهو يشكر الله من أجلهم. ولا يساوره شك فى أنهم سيحملون الرسالة التى جاء ليقدمها .. سيحملون المشعل. بعد أن تنتهى خدمته بالجسد تذكر من كان هؤلاء، كما يقول مفسر كبير «لم يكونوا أكثر من أحد عشر جليليا من البسطاء، عمل معهم ثلاث سنين ولكن كانت فى هذه الكفاية فى هذه الحفنة البسيطة القليلة، رأى يسوع القوة الكامنة، لاستمرار عمل الله فى الأرض».

وحينما ترك «يسوع» هذا العالم، لم يكن من الظاهر أن البذور التى بذرها فى التربة ورواها بدم قلبه، سيقدر لها أن تظهر للوجود، وتؤتى ثمارها.

لقد بدا وكأن يسوع قد حقق نجاحا قليلا ، وفشلا أكثر . فهو لم يشق طريقه وسط دوائر الارستقراطية الدينية . ولم يؤمن به واحد من الرؤساء . بل إن أحبار الهيكل وكهنته ، وكبار الفريسيين من أعضاء مجمع السنهدريم . قد ثاروا عليه .

ولكنه كان ممتلئا بالثقة الكاملة النابعة من الله . لقد بدأ بداية صغيرة . ولكنه كما قال : «أليست الخميرة صغيرة ومع ذلك تخمر العجين كله ؟ وأليست حبة الخردل صغيرة ، ومع ذلك إذا دفنت فى التربة تصبح شجيرة تتطاول إلى الأشجار الكبيرة ، حتى أن طيور السماء تأتى وتتآوى فى أغصانها؟ إن يسوعنا لم يخش البدايات الصغيرة . لقد كان متفائلا إلى أبعد الحدود لأنه كان يخترق الحجاب ، ويرى المستقبل . وكأنه يقول : « يكفينى أحد عشر رجلا .. وبهذا العدد الضئيل مع الإيمان بالله ، أستطيع أن أغير العالم كله » .

لقد كان هناك أساسان يعتمد عليهما «يسوع » : الإيمان بالله والإيمان بالإنسان ، كان يثق بالله ، وكان يثق أيضا بالإنسان . وإنه لمن أقــوى الدعائم التى تسندنا فى الحياة ، أن نعرف بأن يسوع قد وضع ثقته فى أناس نظيرنا . وعلى ذلك ينبغى ألا تخور عزائمنا أمام الضعف البشرى ، أو البدايات الصغيره . ينبغى أن يكون رائدنا نفس الإيمان الذى كان يملأ نفس يسوع : الإيمان بالله ، والإيمان بإخوتنا فى الإنسانية .

فإن كنا نضع ثقتنا فى الله ، وفى البشر . فان إمكانيات الحياة بين أيدينا تصبح بلا حدود .

صلاة يسوع لأجل تلاميذه

مِنْ أَجْلِهِمْ أَنَا أَسْأَلُ . لَسْتُ أَسْأَلُ مِنْ أَجْلِ ٱلْعَالَمِ بَلْ مِنْ أَجْلِ ٱلَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي لِأَنَّهُمْ لَكَ . وَكُلُّ مَا هُوَ لِي فَهُوَ لَكَ . وَمَا هُوَ لَكَ فَهُوَ لِي وَأَنَا مُمَجَّدٌ فِيهِمْ . وَلَسْتُ أَنَا بَعْدُ فِي ٱلْعَالَمِ وَأَمَّا هٰؤُلَاءِ فَهُمْ فِي ٱلْعَالَمِ وَأَنَا آتِي إِلَيْكَ . أَيُّهَا ٱلْآبُ ٱلْقُدُّوسُ ٱحْفَظْهُمْ فِي ٱسْمِكَ ٱلَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي لِيَكُونُوا وَاحِداً كَمَا نَحْنُ . حِينَ كُنْتُ مَعَهُمْ فِي ٱلْعَالَمِ كُنْتُ أَحْفَظُهُمْ فِي ٱسْمِكَ ٱلَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي حَفِظْتُهُمْ وَلَمْ يَهْلِكْ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱبْنُ ٱلْهَلَاكِ لِيَتِمَّ ٱلْكِتَابُ . أَمَّا ٱلْآنَ فَإِنِّي آتِي إِلَيْكَ . وَأَتَكَلَّمُ بِهٰذَا فِي ٱلْعَالَمِ لِيَكُونَ لَهُمْ فَرَحِي كَامِلاً فِيهِمْ . أَنَا قَدْ أَعْطَيْتُهُمْ كَلَامَكَ وَٱلْعَالَمُ أَبْغَضَهُمْ لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنَ ٱلْعَالَمِ كَمَا أَنِّي أَنَا لَسْتُ مِنَ ٱلْعَالَمِ . لَسْتُ أَسْأَلُ أَنْ تَأْخُذَهُمْ مِنَ ٱلْعَالَمِ بَلْ أَنْ تَحْفَظَهُمْ مِنَ ٱلشِّرِّيرِ . لَيْسُوا مِنَ ٱلْعَالَمِ

كَمَا أَنِّي أَنَا لَسْتُ مِنَ ٱلْعَالَمِ . قَدِّسْهُمْ فِي حَقِّكَ .
كَلاَمُكَ هُوَ حَقٌّ . كَمَا أَرْسَلْتَنِي إِلَى ٱلْعَالَمِ أَرْسَلْتُهُمْ أَنَا
إِلَى ٱلْعَالَمِ . وَلأَجْلِهِمْ أُقَدِّسُ أَنَا ذَاتِي لِيَكُونُوا هُمْ أَيْضاً
مُقَدَّسِينَ فِي ٱلْحَقِّ

(يوحنا ١٧ : ٩ — ١٩)

هذه الفكرة غنية مكتنزة بالحق، حتى أننا لن نفعل أكثر من تقديم تأملات خاطفة بين سطورها .. فهي تخبرنا قبل كل شيء عن تلميذ يسوع ...

١ — فالتلميذ هو عطية الآب للابن . ماذا يعني هذا ؟ معناه أن روح الله يحرك القلوب لتستجيب لنداء « يسوع » .

فحينما تلتهب قلوبنا في دواخلنا ، ونستسلم لجاذبية محبته ، فهذا هو ثمر عمل الروح في قلوبنا .

٢ — وعن طريق هذا التلميذ يتمجد يسوع . فالمريض الذي ينال الشفاء العاجل يمجد الطبيب الماهر . والطالب النابغة يمجد أستاذه . والرياضي يمجد مدربه . إن أولئك الرجال الذين افتقدهم «يسوع» فأنقذهم ، وافتداهم ومجدهم في حياة نقية عاملة ، هم الذين يمجدونه . . . إن الفاسد حينما يتحول إلى قديس .. والخائر حينما يمتلىء شجاعة وقوة . . والسكير يوم يحطم عنه قيود الخمر ، إن هي إلا أمثلة تمجد رب النعمة .

٣ — والتلميذ هو إنسان كلف بعمل ومهمة . وكما أرسل الله «يسوع» إلى العالم برسالة الخلاص ، هكذا يرسل «يسوع» تلاميذه . وهنا نجد تفسيراً

لفكر محير يبدو لنا فى هذه الفقرة . فيسوع يقول إنه لا يطلب من أجل العالم . ومع ذلك نعرف أنه أتى إلى العالم ، لأن الله أحب العالم . ترى هل نجد تناقضا بين الفكرين ؟ أعتقد أن مفتاح حل هذا المشكل نجده فى كلمة العالم .

ولعلنا قد عرفنا معنى الكلمة فى قاموس البشارة الرابعة . فالعالم فى عرف «يوحنا» هو المجتمع ، أو مجموعة المجتمعات ، التى رتبت كيانها على أساس عدم الاعتراف بالخالق ، وبالتالى عدم الخضوع له .

وعلى ذلك فإن «يسوع» يرسل تلاميذه إلى مثل هذا العالم ، لإرجاعه إلى الله . فهو يصلى من أجل هؤلاء الرسل أو التلاميذ . لكى ينجحوا فى مهمتهم ، ويكسبوا العالم إلى صفه .

وعلاوة على ما تقدمه الفقرة التى أمامنا عن تلميذ «يسوع» ، وعمله ، واهتمام السيد به فى الطلب من أجله ، فإنها تخبرنا عما يقدمه السيد لتلاميذه .

١ ــ **فهو يقدم لتلاميذه الفرح** .. فرحه الكامل المجيد . إن كل ما يقدمه يسوع إلينا كفيل بأن يجلب الفرح لنفوسنا .

٢ ــ **ولكنه يتقدم إليهم بالتحذير** . إنه يقول لهم إنهم ليسوا من العالم . وإنهم بسبب مغايرتهم للعالم ، لن يجدوا منه سوى النفور والبغضة والإضطهاد . إن معاييرهم هى معايير الحق ، ومكاييل العالم هى مكاييل البطل . إن مثالهم فى إله الحق ، ومثال العالم يكمن فى رئيس هذا الدهر . إن بضاعتهم الحياة الأبدية ، وبضاعة العالم شهوة الجسد ، وشهوة العيون ، وتعظم المعيشة . إن مفاهيمهم تختلف بالكلية عن مفاهيم العالم . لذلك لن ينتظروا طريقاً مفروشاً بالورود ، ولكنهم حتى فى صراعهم مع العالم ، سيملأ الفرح قلوبهم . إنه فرح الصراع ، فرح الوقوف فى وجه التيار ، وبالتالى . فرح الانتصار . إننا بوقوفنا فى وجه عداوة العالم ، نختبر الفرح الإلهى الغامر ..

٣ — زيادة على ذلك، يعلن السيد فى هذه الفقرة عن أعظم حق له، فهو يصلى قائلا للآب : «كل مالى فهو لك ومالك فهو لى» . أما الجزء الأول من هذه الآية الغريبة، فهو طبيعى ومنطقى، لأن كل شىء من الله ، وهو بالتالى ملك له ، وقد تكرر على لسان «يسوع» أكثر من مرة . ولكن الجزء الثانى من الآية هو الذى ينادى بحق عجيب. وكما يقول «لوثر» «منذا يستطيع أن يقول للجلال الإلهى كل مالك هو لى ؟ أى مخلوق يتجاسر وينادى بهذا الحق ؟ إن لم يكن هو الله» . إن هذا التصريح عن ذلك الحق الأسمى الأمجد ، يشير بمنطق لا يقبل الجدل أو المناقضة ، إلى وحدة يسوع مع الله .. إلى جوهره المساوى للآب . إن «يسوع» واحد مع الله حتى أن له سلطان الله ، وأمجاد الله ، وحقوق الله .

صلاة يسوع لأجل تلاميذه

(يوحنا ١٧ : ٩ — ١٩)

وهذه الفقرة غاية فى الأهمية . وأهميتها تكمن فى أنها تقدم لنا صورة لصلاة يسوع من أجل تلاميذه ، ومطاليب تلك الصلاة .

١ — فيسوع لم يطلب من الآب أن ينتزع تلاميذه من هذا الوجود . إن يسوع لا يصلى أبداً ليهرب اتباعه من الميدان . إنه يطلب بالحرى أن يجابه أتباعه متاعب المعركة ، ويقاوموا ماوسعهم أن يقاوموا بأسلحة الروح ، ويتوجوا فى النهاية بالنصر الأكيد . إن المسيحية التى تنعزل بعيداً عن الميدان ، ليست المسيحية التى ينادى بها «يسوع» . إن «يسوع» لم يطلب ليدفن اتباعه أنفسهم فى المغاير ، والبرارى ، والأديرة والصوامع . فهذا النوع من التدين كان أبعد من أن يلقبه «يسوع» بالمسيحية .

إن المسيحية التى تدور فى دائرة التعبد ، والتأمل ، والدراسة وكفى ، فى دوائر تعتزل العالم ، يرى فيها السيد فيها خاطئا لرسالة المسيحية الحقة ، التى من أجلها طأطأ أمجاده ، وفى سبيلها تحمل . إن مسيحيتنا ينبغى أن تظهر لا فى العزلة والتوحد ، بل فى البيت . . فى الشارع . . فى مكان العمل ، وسط صخب الحياة وضجيجها ومتاعبها . صحيح إننا بحاجة إلى فترات نختلى فيها مع الله . . فترات نخلو فيها مع أنفسنا ومع إلهنا . . ، فترات نغلق فيها الباب بيننا وبين العالم . مطيعين قول السيد « أدخل مخدعك وأغلق بابك » ولكن هذه ينبغى أن تكون وسيلة لا غاية . إنها ليست هدف الحياة المسيحية . إنها الطريق الذى يوصلنا إلى ذلك الهدف . أما ذلك الهدف ، فهو إظهار الحياة المسيحية الصادقة ، فى حياتنا العملية وتصرفاتنا . حينما كان بطرس ويعقوب ويوحنا مع المسيح على جبل التجلى ، ورأوا لمحة من أمجاد السيد ، قال بطرس : « جيد يارب أن نكون ههنا » : ولكن سرعان ما اختفى المشهد وإذا بالرب ينزل بهم إلى وادى الخدمة ليخففوا آلام ابن معذب ، وأحزان أب متألم .

فالمسيحية الحقة ، لا تهدف إلى عزلنا عن المجتمع . إن هدفها هو تجهيزنا وإعدادنا وإمدادنا بالسلاح لمجابهة المجتمع . إن المسيحية لا تمهد لنا سبيل الهروب من المشكلات . إنها تقدم لنا المفتاح لحل المشكلات . إن المسيحية لا تقدم لنا سلاماً زائفا مبنيا على الهروب والإنزواء . إنها تقدم لنا معركة نهايتها النصر . المسيحية لا تمهد لنا فراشاً خالياً من المتاعب . إنها تقدم لنا حياة نجابه فيها متاعبنا فننتصر عليها . ومع أنه من الأمور الصحيحة أن المسيحى ليس من العالم ، إلا أنه ليس من العالم ، يمتلك القوة التى تؤيده لينتصر على العالم . فمسيحيته لابد وأن تظهر فى الوسط الذى يعيش فيه . . لابد

وأن يعيشها فى المجتمع وليس بعيداً عنه . إن علينا لا أن نهجر العالم بل لنعمل لنكسب هذا العالم .

٢ ــ ولقد طلب يسوع لأجل وحدة تلاميذه . لقد كانت طلبته أن يكونوا واحداً ، كما أنه هو والآب واحد . لقد طلب أن يعيشوا لا كوحدات بل كوحدة فحيث هناك انقسامات . . حيث توجد تحزبات . . حيث تسود منافسات رديئة . . حيث يكون تشويش وعدم سلام ، فإن دعوة المسيحية تضار وتتعطل رسالتها ، ولا يتحقق رجاء «يسوع» فى طلبته من أجل الوحدة ، حتى فى المجتمع الواحد . . فى الكنيسة الواحدة ، لا يمكن تقديم رسالة المسيح لأعضاء منقسمين يحارب أحدهم الآخر ، لا يمكن ، تنصير العالم واكتسابه للمسيح ، بكنائس يطعن أحدها فى الآخر .

وهكذا صلى «يسوع» طالبا من أجل وحدة تلاميذه ليكونوا واحداً كما أنه والآب واحد . ونقول مع الأسف ، إنه لا توجد صلاة تقدم بها «يسوع» ، وتعطلت عن أن تتم بسبب المطامع والحزبيات والذات ، قدر ما تعطلت هذه الصلاة . ألفا عام مرت عليها ، ولم تتحقق حتى الآن .

٣ ــ لقد طلب «يسوع» لأجل حماية تلاميذه من مهاجمات عدو الخير . إن الكتاب المقدس ليس كتاب فلسفة . إنه لا يتجه إلى دراسة مشاكل فلسفية مثل نشأة الشر وأصله وغير ذلك . ولكنه لا ينكر بأن فى الوجود قوة شريرة هدامة تناقض قوة الله للصلاح والبناء . . . قوة تحاول إغراء الناس لتبعدهم عن السلوك فى طريق الصواب ، وتدفعهم إلى طريق الاثم . وإنه لأمر جميل يرفع الإنسان ويسمو به ، حينما يوقن بأن الله يسهر عليه حارسا ، وحافظا ، ومدافعا ، ضد قوى الشر وهجمات الشيطان . إن سر سقوطنا فى بعض الأحيان ، هو أننا نحاول أن نجابة

الحياة بمتاعبها وضائقاتها، بقوانا الذاتية، بدلا من الأتكال على ذراع الله، والثقة بأن القدير إلى جوارنا يعضدنا ويرفعنا ويدافع عنا .

٤ ــ وضمن صلاته، طلب أيضاً، أن يتقدس تلاميذه في الحق . والأصل في كلمة يتقدس هو « هاجيا زين » أو « اجيازين » وهي مشتقة من لفظة « اجيوس » ولقد ترجمت الكلمة « اجيوس» في الترجمة الإنجليزية المعتمدة كما في ترجمة فان ديك العربية ، قدوس . ولكن المعنى الرئيسي هو مفرز أو مختلف ــ إذا كان هنالك شيء نصفه بكلمة اجيوس فهو معناه مختلف عن نظائره وعن غيره من الأشياء العادية .

وهكذا فإن كلمة « أجيازين » تقدم لنا معنيين :

(ا) المعنى الأول فرز الشيء وعزله لعمل معين . فحينما دعا الله أرميا قال له « قبلما صورتك في البطن عرفتك . وقبلما خرجت من الرحم قدستك جعلتك نبيا للشعوب » (أرميا ١ : ٥) . حتى قبل أن يتكون أرميا ، قبل أن يولد، كان له مكانه في برنامج الله ، وكان مخصصا لعمل معين . وحينما كان الله يضع أساس الكهنوت في إسرائيل ، أمر «موسى» بأن يفرز أبناء هارون ويقدسهم للخدمة في وظيفة الكهنوت (خروج ٢٨ : ٤١) . هنا نرى أيضاً أبناء هارون يفرزون لقصد معين وخدمة معينة .

(ب) ولكن « أجيازين » لا تعني فقط الفرز لأجل خدمة خاصة وعمل معين ، إنها تعني أيضاً تهيئة الانسان وإعداده عقليا ، وقلبيا ، بالصفات والمواهب اللازمة له للقيام بهذا العمل . إن فرز إنسان لعمل معين، يقتضي أن تكون له المؤهلات التي تؤهله لهذا العمل . وتكريس الإنسان لعمل الله، يقتضي أن يتزود هذا الإنسان بصلاح الله وحكمة الله . إن من يخدم الإله القدوس ، ينبغي أن تكون له قداسة الله ، والخادم ينبغي أن يحمل طابع سيده . وعلى

هذا الأساس فإن الله لا يختار الإنسان لخدمته وكفى ، لكنه يعده إعداداً كافياً بالصفات والمؤهلات التى تعينه لإتمام هذه الخدمة .

ينبغى أن نضع على الدوام فى ذاكرتنا ، أن الله قد اختارنا وكرسنا وأعدنا لخدمة مجيدة . وهذه الخدمة أن نحبه ونطيعه ونجتذب الآخرين ليكونوا ضمن دائرته . وعلينا أن تذكر أيضاً أن الله لا يتركنا بمفردنا للقيام بهذه الخدمة فى قوتنا الذاتية الواهية . ولكنه فى نعمته ، يعدنا لهذا العمل الكبير ويؤيدنا بروحه وبنعمته ، إن سلمنا حياتنا بكل خضوع بين يديه .

وَلَسْتُ أَسْأَلُ مِنْ أَجْلِ هٰؤُلَاءِ فَقَطْ بَلْ أَيْضاً مِنْ أَجْلِ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِي بِكَلَامِهِمْ . لِيَكُونَ ٱلْجَمِيعُ وَاحِداً كَمَا أَنَّكَ أَنْتَ أَيُّهَا ٱلْآبُ فِيَّ وَأَنَا فِيكَ لِيَكُونُوا هُمْ أَيْضاً وَاحِداً فِينَا لِيُؤْمِنَ ٱلْعَالَمُ أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي .

(يوحنا ١٧ : ٢٠ ـ ٢١)

وهنا نرى «يسوع» يوسع دائرة صلاته لتشمل أقاصى الأرض. فى البداية نراه يصلى لأجل ذاته وشبح الصليب يبدو ماثلا أمامه . ثم نراه يطلب من أجل تلاميذه لكى يؤيدهم الله بقوته ورعايته . ولكننا نستمع إليه فى هذه الفقرة ، يفتح أحضانه ليضم المستقبل البعيد ، والأجيال القادمة . إنه يطلب لأجل أولئك الذين فى أماكن بعيدة ، وأجيال آتيــة ، يقبلون حقه ، ويستسلمون لعمل نعمته ، ويدخلون فى دين الله أفواجاً ..

وفى هذه الفقرة ، نرى صفتين متميزتين تتضحان عن «يسوع» : فأمامنا قبل كل شيء **ثقته العظمى وإيمانه الكامل الذى لا يتزعزع** ، وهو يطلب من الآب لأجل كل من يؤمن باسمه . وهذه الفقرة ينبغى أن تكون ثمينة فى أنظارنا ، عزيزة على قلوبنا ، لأنها صلاة «يسوع» لأجلنا .

الأمر الثانى نرى فى «يسوع» ثقته الكاملة فى أتباعه . لقد كان يعلم أنهم بعد فترة قصيرة سيهجرونه فى أقسى ساعات الحاجة . ولكن إلى نفس

أولئك الرجال اتجه ، واثقا كل الثقة ، من أنهم سيقومون بنشر الإسم المقدس فى كافة أرجاء المعمورة .

إن أسمى ما يميز حياة«يسوع» ، هو ثقته الكاملة فى الله، وثقته فى البشر

وماذا كانت طلبته لأجل الكنيسة ؟ لقد طلب من الآب أن تكون واحدة فيه ، كما أنه هو والآب واحد . وما هو نوع الوحدة التى من أجلها يطلب يسوع ؟ إنها ليست وحدة تنظيم . وليست وحدة نظام كنسى معين ؛ إنها وحدة صلة وعلاقة ذاتية . فالوحدة الكائنة بين «يسوع» وبين الآب تبدو فى مظهرين : المحبة والطاعة ...

وهكذا ، فإن الوحدة التى يريدها لكنيسته العتيدة هى وحدة يربطنا فيها جميعاً رباط المحبة والتضامن .

إنها ارتباط القلب بالقلب . هذه الوحدة لا تعنى على الاطلاق، الإنضواء تحت لواء هيئة معينة ، أو طائفة خاصة ، أو مذهب له صفته المميزة ، ولكنها تعنى الإنضواء تحت علم المحبة . وحدة فيها يحب أحدنا الآخر حتى إن كنا نحتفظ بطابعنا الخاص . إنها لا تعنى عبادة الله بطقوس واحدة معينة ، وبفكر واحد مرتب ، وبعقيدة واحدة ثابتة .

ولا تعنى أن نقيم أماكن عباداتنا على نمط واحد ، أو نجتمع فى مكان واحد . ولكن الوحدة المقصودة تتخطى كل هذه الشكليات ، وتسمو على هذه الفروق ، فى روح المحبة المتبادلة ورباط التضامن . إن رجاء وحدة المسيحية فى عصرنا الحاضر ، قد تعثر وأصيب بصدمة كبرى ، لأن كل واحد يحب عقيدته ، يحب تقاليده . يحب مفهومه الخاص لكلمة الله ، أكثر من محبته لأخيه .

إن كنا نحب حقاً أحدنا الآخر كما نحب سيدنا ، فإننا لن نغلق الباب فى وجه أخ من طائفة أخرى ، ولن نمنعه من الجلوس إلى مائدة أبيه — المحبة الإلهية فقط ، المحبة وليس سواها ، هى التى تحطم الحواجز التى أقامتها الطائفية ، لخدمة هيئات المحترفين للدين ، واكتناز مخازنهم وامتلاء بطونهم ، وإثرائهم على حساب أشلاء جسد المسيح الممزق ..

زد على ذلك ، فإن هذه الوحدة كما رآها «يسوع» ، هى التى تقنع العالم بحق المسيحية ، وبمركز المسيح فى الكنيسة . إن روح البشر تتجه إلى التنافر والإنقسام أكثر من التآلف ، وهذا طبيعى . فالإنقسام يخدم الذات والغرور ، ويشبع كبرياء القلب . شىء يتفق مع الطبيعة البشرية أن أهجر أخى وأنفر منه . وعلى ذلك فالوحدة المسيحية الحقيقية التى يقدر لها أن تدوم وتثبت ، هى وحدة فوق طبيعة الإنسان تحتاج إلى مفهوم يسمو على تفكيره ، ومن الأمور المؤسفة ، أن رؤساء الطائفية ، يبذلون أقصى ما يبذلون من جهد ، ليقيموا أمام العالم واجهة متنافرة منقسمة ، تعطى العالم فكرة رديئة عن المسيح وعن المسيحية ، بدلا من بناء يقوم على أساس المحبة ، ويقدم رسالة المسيح واضحة أمام البعيدين . إن على الرؤساء يقع كل العبء .. وما أحرى الشباب الناضج المتفتح المؤمن بالمسيح الواحد ، أن يقوم من جانبه ، بما لا يستطيع أن يقوم به رؤساء الطائفية ودعاتها ، ويمد يد الإخاء والتضامن والمحبة لأخوته فى كل مكان ، وفى كل طائفة . ونحن نشكر الله لأجل حركات مثل هذه ، قد بدأت تظهر للوجود فى كثير من الجمعيات الدينية ونرجو أن يطغى هذا التيار الجديد على كافة المجتمعات المسيحية .

وَأَنَا قَدْ أَعْطَيْتُهُمُ ٱلْمَجْدَ ٱلَّذِى أَعْطَيْتَنِى لِيَكُونُوا وَاحِداً كَمَا أَنَّنَا نَحْنُ وَاحِدٌ أَنَا فِيهِمْ وَأَنْتَ فِيَّ لِيَكُونُوا مُكَمَّلِينَ إِلَى وَاحِدٍ وَلِيَعْلَمَ ٱلْعَالَمُ أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي وَأَحْبَبْتَهُمْ كَمَا أَحْبَبْتَنِى. أَيُّهَا ٱلْآبُ أُرِيدُ أَنَّ هٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ أَعْطَيْتَنِى يَكُونُونَ مَعِى حَيْثُ أَكُونُ أَنَا لِيَنْظُرُوا مَجْدِى ٱلَّذِى أَعْطَيْتَنِى لِأَنَّكَ أَحْبَبْتَنِى قَبْلَ إِنْشَاءِ ٱلْعَالَمِ . أَيُّهَا ٱلْآبُ ٱلْبَارُّ إِنَّ ٱلْعَالَمَ لَمْ يَعْرِفْكَ. أَمَّا أَنَا فَعَرَفْتُكَ وَهٰؤُلَاءِ عَرَفُوا أَنَّكَ أَنْتَ أَرْسَلْتَنِى . وَعَرَّفْتُهُمُ ٱسْمَكَ وَسَأُعَرِّفُهُمْ لِيَكُونَ فِيهِمُ ٱلْحُبُّ ٱلَّذِى أَحْبَبْتَنِى بِهِ وَأَكُونَ أَنَا فِيهِمْ

(يوحنا ١٧ : ٢٢ - ٢٦)

يقول أحد المفسرين القدامى، في معرض تعليقه على هذه الفقرة : « آه ما أعظم الأمجاد المذخرة للمؤمن بالمسيح » وهذا حق . فهذه الفقرة تتحدث عن الأمجاد التي أعطاها « يسوع » لتلاميذه ، والتي يطلب من أجلها.

وقبل كل شيء يتحدث «يسوع» قائلا، إنه أعطى تلاميذه المجد الذى أعطاه

الآب إياه . دعونا نحاول أن نستجلى غموض هذه الحقيقة . ترى ما هو مجد « يسوع » ؟

هناك ثلاث طرق تحدث عنها « يسوع » كأنما تعلن أمجاده :

(١) **الطريق الأول الصليب . إن «يسوع» لم يتحدث عن الصليب كهوان أو عار ،بل تحدث عنه كأمجاد** . إنه لم يخبر تلاميذه أنه سيصلب ، لقد تحدث إليهم بأنه سيتمجد . لذلك ينبغى أن تكون هذه نظرتنا للآلام والتجارب الخارقة التى قد تصادفنا ، إن كنا نحمل صليبنا ، لنعرف أن فى ذلك الصليب مجدنا . كما قال جورج ماثيسون .

« أيها الصليب .

يا رافع نفسى إلى العلا .

إنى لن أطلب النزول عنك .

بل سأدفن فى التراب مجد الحياة الزائل ..

ومن أعماق القبر سوف تتفتح لى ..

ورود الحياة الأبدية » ..

فينبغى ألا نظن أن الصليب الذى يوضع على كاهلنا عقاب لنا . ينبغى أن نكتشف فيه مجدنا . وسواء كان ذلك الصليب واجباً نكلف به ، أو ضائقة نجتازها ، أو تجربة نتعرض لها ، لنعرف أن ذلك لرفعتنا . وكلما كان الصليب أثقل ، كان المجد أعظم . إننا كثيراً ما نقول إن ذلك العبء لن يقوم به إلا هو لا سواه . يكفينا فخراً أن نعامل نظير سيدنا ، وأن نأخذ مكاننا إلى جواره ، حتى على تلة الجلجثة . ولذلك إن كان الطريق يبدو وعراً لأقدامنا ، شاقا علينا ، لنثق أنه نفس الطريق الذى سلكه سيدنا وفادينا .

(ب) الطريق الثانى للمجد كما يراه يسوع ، هو طريق الطاعة . لقد كانت حياته مثال الطاعة الكاملة للآب . وفى طاعته كانت أمجاده . إننا لن نصل إلى أمجادنا ، كرامتنا .. سمونا ، فى السير على هوانا ، ولكن فى عمل إرادة الله . حينما نشق طريقنا بإرادتنا وكما نهوى، نجد فى النهاية الضيق والألم والحزن لأنفسنا ولمن حولنا . ولكن حينما نختار إرادة الله ، ونقبلها بكل اتضاع ، ونتمثلها فى حياتنا ، نصل عن طريق إطاعتها إلى قمة مجدنا . وكلما كانت طاعتنا أعمق وأعظم ، كان مجدنا أسمى وأرفع .

(حـ) الطريق الثالث للوصول إلى المجد ، كما رآه «يسوع» وتمثل عن صدق فى حياته ، يكمن فى شركته العميقة مع الله . فى حياة «يسوع».. فى أعماله . . فى أقواله فى تعاليمه . . فى معجزاته ، استطاع الجميع أن يعرفوا عمق شركته مع الآب السماوى : لقد رأوا فأقروا أنه لا يمكن أن يحيا إنسان الحياة التى يحياها، ما لم يكن قريباً من الله، فى شركة قوية معه . إن مجدنا يتألق بنور أسمى ، حينما نعكس نور الله فى حياتنا . إننا نتمجد ونسمو فى أنظار الآخرين ، حينما يرى الناس فى الخدمة التى نقوم بها ، فى روح المحبة التى نظهرها، والتضحيات التى نقدمها ، إنعكاس محبة الله وخدمته، وتضحيته . وكما كان الأمر مع المسيح ، هكذا نكون أيضاً : لن نصل إلى مجدنا ، إلا إذا أبصر الآخرون حياة الله فينا .

الأمر الثانى الذى نكتشفه بين سطور الفقرة التى أمامنا ، هو أن «يسوع» يريد أن يكون تلاميذه حيث يكون هو فى السماء ، ليروا الأمجاد السماوية التى له . ولعله من أقوى بنود الإيمان المسيحى أننا لا بد وأن نشارك المسيح كل اختباراته . فإن كنا نشترك معه فى صليبه وهوانه ، فلابد أن نشترك أيضاً معه فى أمجاده . وكما يقول رسول الأمم « صادقة هى الكلمة إن كنا

قد متنا معه فسنحيا أيضاً معه . إن كنا نصبر فسنملك أيضاً معه . » (٢ تيموثاوس ٢ : ١١ ، ١٢) . إننا في هذا العالم في أسمى حكمتنا نرى كل شيء منعكساً أمام أنظارنا كما في مرآة سحرية . ولكننا سنبصر كل شيء هناك وجها لوجه . (١ كورنثوس ١٣ : ١٢) .

وما الفرح الذي نختبره في حياتنا الروحية في شركتنا مع الله ، إلا قطرة من أنهار الفرح المذخر لنا هناك . وها هو وعد «يسوع» لنا أننا إن كنا نشترك معه في آلامه .. في هوانه .. في عاره .. في تجاربه .. في صليبه على الأرض ، فإننا لا بد وأن نشترك في أمجاده وانتصاره ، حينما تنتهي رحلتنا على الأرض . وأي وعد أعظم من هذا الوعد ؟

ومن هذه الصلاة قام «يسوع» على التو ، ليلتقي بالغدر والخيانة والمحاكمة والصليب . لقد انتهت سويعات الحديث ، وستأتي ساعات التجربة والموت . ولنذكر أنه قبل أن يطبق ظل الموت بمرارته ، كان حديث «يسوع» لتلاميذه ممتلئا بالفرح ، فائضا بالإشراق والرجاء ، معلنا الأمجاد العتيدة .

ٱلْأَصْحَاحُ ٱلثَّامِنُ عَشَرَ

إلقاءُ الأَيدى فى البستان

قَالَ يَسُوعُ هٰذَا وَخَرَجَ مَعَ تَلَامِيذِهِ إِلَى عَبْرِ وَادِى قِدْرُونَ حَيْثُ كَانَ بُسْتَانٌ دَخَلَهُ هُوَ وَتَلَامِيذُهُ وَكَانَ يَهُوذَا مُسَلِّمُهُ يَعْرِفُ ٱلْمَوْضِعَ . لِأَنَّ يَسُوعَ ٱجْتَمَعَ هُنَاكَ كَثِيراً مَعَ تَلَامِيذِهِ . فَأَخَذَ يَهُوذَا ٱلْجُنْدَ وَخُدَّاماً مِنْ عِنْدِ رُؤَسَاءِ ٱلْكَهَنَةِ وَٱلْفَرِّيسِيِّينَ وَجَاءَ إِلَى هُنَاكَ بِمَشَاعِلَ وَمَصَابِيحَ وَسِلَاحٍ . فَخَرَجَ يَسُوعُ وَهُوَ عَالِمٌ بِكُلِّ مَا يَأْتِى عَلَيْهِ وَقَالَ لَهُمْ مَنْ تَطْلُبُونَ . أَجَابُوهُ يَسُوعَ ٱلنَّاصِرِىَّ . قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ أَنَا هُوَ . وَكَانَ يَهُوذَا مُسَلِّمُهُ أَيْضاً وَاقِفاً مَعَهُمْ . فَلَمَّا قَالَ لَهُمْ إِنِّى أَنَا هُوَ رَجَعُوا إِلَى ٱلْوَرَاءِ وَسَقَطُوا عَلَى ٱلْأَرْضِ . فَسَأَلَهُمْ أَيْضاً مَنْ تَطْلُبُونَ. فَقَالُوا يَسُوعَ ٱلنَّاصِرِىَّ . أَجَابَ يَسُوعُ قَدْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّى أَنَا هُوَ.فَإِنْ كُنْتُمْ تَطْلُبُونَنِى فَدَعُوا هٰؤُلَاءِ يَذْهَبُونَ .

لِيَتِمَّ ٱلْقَوْلُ ٱلَّذِى قَالَهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَعْطَيْتَنِى لَمْ أُهْلِكْ مِنْهُم أَحَداً

ثُمَّ إِنَّ سِمْعَانَ بُطْرُسَ كَانَ مَعَهُ سَيْفٌ فَٱسْتَلَّهُ وَضَرَبَ عَبْدَ رَئِيسِ ٱلْكَهَنَةِ فَقَطَعَ أُذُنَهُ ٱلْيُمْنَى . وَكَانَ ٱسْمُ ٱلْعَبْدِ مَلْخُسَ . فَقَالَ يَسُوعُ لِبُطْرُسَ ٱجْعَلْ سَيْفَكَ فِى ٱلْغِمْدِ . ٱلْكَأْسُ ٱلَّتِى أَعْطَانِى ٱلْآبُ أَلاَ أَشْرَبُهَا .

(يوحنا ١٨ : ١ – ١١)

بعد أن فرغ المسيح من عشائه الأخير مع تلاميذه ، وبعد أن انتهى من حديثه معهم ، وصلاته من أجلهم ، قام مع التلاميذ ليغادر العلية . كانت وجهتهم بستان جثسيمانى . واتجهوا إلى بوابة المدينة . ومن خلالها هبطوا إلى الوادى وعبروا المجرى الصغير لنهر قدرون .

هناك لابد أنهم شاهدوا صورة رمزية تجرى أمام أنظارهم . فقد كان ذلك وقت ذبح حملان العيد . وكانت دماء حملان الفصح ترش على المذبح تقدمة لله . كان عدد الحملان كثيراً جداً . ويروى التاريخ أنه فى فرصة لاحقة ، بعد ثلاثين عاماً من صعود المسيح ، وصل عدد الذبائح التى قدمت فى عيد الفصح ، إلى ما يزيد على ربع مليون رأس من الغنم . ولنا أن نتصور ساحة الهيكل الغارقة فى دماء هذا العدد الهائل[1] من الذبائح .

---

(١) لمن يريد الاستزادة بالتأمل فى صورة من أصدق الصور التى رسمتها ريشة كاتب عن جمعة الآلام والأحداث التى مهدت لها ليقرأ كتاب : « اليوم الذى صلب فيه المسيح » .

ومن المذبح كانت هناك قناة فى الصخر، توصل إلى مجرى نهر قدرون. وخلال هذه القناة كانت تجرى الدماء لتختلط بمياه النهر. وحين كان «يسوع» يعبر المجرى مع تلاميذه، لا بد أن المياه كانت حمراء اللون، ولابد أنه طافت بخاطره صورة دمائه السائلة على تلة الجلجثة.

وبعد أن عبرت الجماعة الصغيرة وادى قدرون، صعدت إلى جبل الزيتون. وفى سفح الجبل كانت هناك ضيعة جتسيمانى أو بستان جتسيمانى. أما ذلك الاسم فمعناه معصرة الزيت، حيث كانوا يحضرون ثمار الزيتون من أشجاره التى تنمو فى الحدائق المجاورة، لتعصر ويستخرج منها الزيت. وكان لأكثر من واحد من أثرياء أورشليم، بستانه الخاص فى تلك البقعة، لأن رقعة المدينة الضيقة، ما كانت لتتسع لذلك، وما كانت تصلح أرضها الصخرية لهذا الغرض، لأن أورشليم تقوم على جبل. زد على ذلك أن هناك موانع شرعية كانت تمنع قيام الحدائق فى المدينة المقدسة. فما كان مسموحاً جلب السماد « النجس » لتلويث الأرض وتنجيسها.

لهذا السبب اختار الأثرياء الأراضى الواقعة خارج دائرة أورشليم، وأقربها سفح جبل الزيتون. وحتى يومنا الحاضر يستطيع السائح المسيحى أن يشاهد بنفسه حديقة على سفح الجبل، يتعهدها الأخوة الفرنسسكان، وفيها تقوم ثمانى شجرات عتيقة من أشجار الزيتون، يقول عنها «ه. ف. مورتون»، إنها أصبحت أكثر شبها بالصخور، منها بالأشجار الحية. فهى عتيقة جداً، وربما يرجع تاريخها إلى ما قبل الفتح الإسلامى لفلسطين. ولكن لا يمكن للمرء أن يصدق، أنها نفس الأشجار التى استظل بها المسيح، لأن «تيطس الرومانى»، فى حصار أورشليم، قام بقطع كل الأشجار، لكشف مشارف المدينة للعمليات الحربية، كما لاستخدامها فى صنع الصلبان التى

كان يقوم بصلب الأسرى من اليهود عليها . يكفى أن نقول إن المماشى المتقاطعة الصاعدة سفح الجبل ، هى التى كانت تطؤها أقدام المخلص .

نقول لعل أحد الأثرياء ممن آمنوا بيسوع ، ومن كانت لهم حدائقهم الخاصة ، قد أعطى «يسوع» مفتاح البستان . وغالبا ما كان «يسوع» يصطحب تلاميذه ليقضى سويعات الليل الهادىء هناك ، حيث السكينة والسلام والطبيعة الحية . ولقد كان «يهوذا» يعرف البستان . وكان يتوقع أن يجد سيده هناك . فطالما كان «يسوع» فى أورشليم ، كان البستان مكانه المفضل ، أو دار أصدقائه فى بيت عنيا . على هذا الأساس ، دبر «يهوذا» خطة للقبض على «يسوع» .

وهناك صورة تدعو للتأمل ، فى القوة التى أرسلت للقبض على «يسوع» . يقول عنها «يوحنا» إنها ثلة من الجند مع خدام رؤساء الكهنة والفريسيين . أما الخدام هنا فهم حرس الهيكل . وحرس الهيكل كانت له صفة الضبطية ، وكان منوطاً به حراسة الهيكل ، وكذلك إلقاء القبض على من يخالف الناموس ....

بقيت لدينا كلمة الجند ، وفى الأصل « سبيرا » . هذه الكلمة تحتمل معان ثلاثة : فهى كلمة يونانية تطلق على كتيبة من جند الرومان . والكتيبة لا تقل عن ستمائة جندى . فإذا كانت الكتيبة إضافية وصل عدد « سبيرا » إلى ما يزيد على ألف من الجند ، ومائتين وأربعين من الفرسان . وفى صورة ثالثة ، كانت الكلمة تستخدم نادراً ، للإشارة إلى فصيلة صغيرة تصل إلى مائتى جندى .

فلو اتجهنا إلى العدد الأصغر من هذه الصور الثلاث ، نستطيع أن

نكون فكرة عن الجمهور الكبير المسلح الذى أرسل للقبض على نجار جليلى أعزل .

ولم يكن من العسير جلب هذا العدد من الجند إلى المدينة المقدسة . أو استدعاؤهم من أماكن بعيدة نظير مدينة قيصرية . فقد كانت قلعة أنطونيا التى تشرف على الهيكل تعج بالجند الرومان ، وخاصة فى أعياد الفصح ، للمحافظة على النظام وإخماد أدنى ظاهرة للتمرد بين الشعب . ولكن أية تحية تعظيم ليسوع المسيح ، وأية صورة تشير إلى قوته ، وبالتالى إلى الخوف منه . لقد أرسلت السلطات جيشاً كاملا للقبض على إنسان واحد . فقد كانت تعرف أنه فى هذا الواحد تكمن قوى معجزية تتحدى البشر والحديد والنار .

إلقاء الأيدى فى البستان

(يوحنا ١٨ : ١ – ١١)

هناك مواقف قليلة فى الكتاب تظهر لنا صفات «يسوع» فى ملء جلالها . وهذا الموقف أحدها .

١ – **فهو يظهر لنا «شجاعة» يسوع** . فى الصورة التى أمامنا تظهر لنا لمحة خفية . فالجند كانوا يحملون المشاعل . ولكن عيد الفصح كان يأتى فى وقت يكون فيه البدر تماما ، حتى يتحول الليل إلى ما يقرب من النهار . فلماذا المشاعل ؟

لقد كانوا يتوقعون أن يجدوا «يسوع» مختبئا فى المغاير .. فى الكهوف .. فى شقوق الصخور ، وهكذا رتبوا أمرهم ، على أن يبحثوا عنه لعله يكون مختفيا عن الأنظار . ولكنهم لدهشتهم ، شاهدوا «يسوع» يقف أمامهم بلحمه

ودمه ويقو لهم « من تطلبون؟» وفى دهشة وتلعثم يجيبون « يسوع الناصرى» فيقول لهم «يسوع» « أنا هو » إن ذاك الذى ظنوه مختبئا فى المغاير .. ذاك الذى اعتقدوا أنهم سيبحثون عنه فى نور المشاعل بين تلافيف الأشجار .. ذاك الذى قالوا فيما بينهم : « سنتعب أنفسنا فى البحث عنه فى منحنيات الصخور» ، يقف أمامهم فى شجاعة نادرة وتحد صارخ . هنا نرى شجاعة «يسوع» فى مواجهة الأزمات. خلال الحرب الأهلية فى أسبانيا،قام الأعداء بمحاصرة إحدى المدن . وكان من رأى البعض أنه لا جدوى من مقاومة أعداء تفوقهم عدة وعدداً ، وألا مناص من الاستسلام .

لكن قائداً شجاعاً ، قام فى وسط جنده وهتف فيهم « من الأفضل لنا أن نموت واقفين على أقدامنا ، من أن نحيا راكعين على ركبنا . لقد اختار «يسوع» وقفة البطل ، ونهاية البطل .

٢ ــ **وهو يظهر لنا سلطان «يسوع»** : فها هو أمامنا وحيد بلا سلاح . وها فى مجابهته جيش كامل مسلح . ولكنه حين يعلن لهم أنه يسوع المسيح، يتراجعون متعثرين،ويسقطون أمامه . فى نظراته كانت القوة والسلطان التى جعلته فى وحدته ،أقوى منهم جميعاً مجتمعين مسلحين ..

٣ ــ **وهو يرينا أن «يسوع» اختار الموت بنفسه**: فقد كان ممكنا له فى ارتباكهم واضطرابهم ،أن ينتهز الفرصة ويجتاز فى وسطهم ،دون أن يستطيع أحدهم إلقاء القبض عليه .

ولقد حدث ذلك فى فرصة سالفة ،حينما أراد اليهود أن يلقوا به فى كفر ناحوم من قمة الجبل المقامة عليه مدينتهم .ولكنه اجتاز فى وسطهم ومضى ، لأن ساعته لم تكن قد جاءت بعد . ولكنه فى هذه الفرصة أعان الأعداء على القبض عليه . لقد اختار الموت .

٤ ــ **وهو يكشف عن محبة«يسوع» : فهو فى هذه الفرصة الحرجة . .** هذه الفرصة الحاسمة . لم يفكر فى نفسه . لقد كان تفكيره مركزاً فى أحبائه . « إن كنتم تريدوننى فدعوا هؤلاء يمضون » هكذا قال للجند . لقد كان تلاميذه هم شغله الشاغل . وكانت عواطفه بهذه الصورة من نحوهم، حتى أنه نسى الخطر المحدق به ، وتركز اهتمامه كله فيما يحيط بهم من أخطار .

هناك أقاصيص تروى عن أعمال البطولة فى الحرب العالمية الثانية،لعل أروعها قصة بطولة « الفريد سد » المرسل فى جزيرة تاراو . فحينما استولى اليابانيون على الجزيرة ألقوا القبض عليه،وعلى عشرين آخرين من جنود نيوزيلندا الذين يكونون حامية الجزيرة .

وأتى اليابانيون بعلم الاتحاد وفرشوه على الأرض، وطلبوا من المرسل أن يسير عليه بقدميه . ولكن المرسل تحاشاه أكثر من مرة،وفى النهاية طواه بين يديه وهو يقبله . وحين اقتاد الأعداء الجميع للأعدام، كان المرسل يشجع الجند بكلمات القوة والتعزية ، وتقدم أمامهم ليلتقى بأول رصاصة تطلق وهو يهتف هتاف الانتصار . لقد كان يفكر فى زملائه أكثر من نفسه .

وهكذا كانت محبة «يسوع» لتلاميذه .

٥ ــ **وهو يبين لنا مدى طاعته الكاملة :** « الكأس التى أعطانى الآب ألا أشربها ؟ » . هذه إرادة الله . وفى هذا الكفاية .

فى القصة شخصية نود أن نشير إليها . بكلمة إنصاف ، هى شخصية « سمعان بطرس » ، نراه يستل سيفه الواحد فى وجه مئات السيوف .

وسوف نرى «سمعان» في فرصة لاحقة، يقوم بدور الجبان .، ولكنه في تلك الساعة كان على استعداد أن يقاسي مائة ميتة في سبيل سيده . فإن كنا نتحدث عن إنكار «بطرس»، وتراجع «بطرس» ، وجبن «بطرس»، علينا أن نتذكر أيضاً شجاعة بطرس في تلك اللحظة الحاسمة .

يسوع أمام حنّان

ثمَّ إنَّ ٱلْجُنْدَ وَٱلْقَائِدَ وَخُدَّامَ ٱلْيَهُودِ قَبَضُوا على يسوعَ وَأَوْثَقُوهُ وَمَضَوْا بِهِ إلَى حَنَّانَ أَوَّلاً لأَنَّهُ كَانَ حَمَا قَيَافَا ٱلَّذي كَانَ رَئِيساً لِلْكَهَنَةِ فِي تِلْكَ ٱلسَّنَةِ . وَكَانَ قَيَافَا هُوَ ٱلَّذي أَشَارَ عَلَى ٱلْيَهُودِ أَنَّهُ خَيْرٌ أَنْ يَمُوتَ إِنْسَانٌ وَاحِدٌ عَنِ ٱلشَّعْبِ

فَسَأَلَ رَئِيسُ ٱلْكَهَنَةِ يَسُوعَ عَنْ تَلَامِيذِهِ وَعَنْ تَعْلِيمِهِ . أَجَابَهُ يَسوعُ أَنَا كَلَّمْتُ ٱلْعَالَمَ عَلَانِيَةً . أَنَا عَلَّمْتُ كُلَّ حِينٍ فِي ٱلْمَجْمَعِ وَفِي ٱلْهَيْكَلِ حَيْثُ يَجْتَمِعُ ٱلْيَهُودُ دَائِماً . وَفِي ٱلْخَفَاءِ لَمْ أَتَكَلَّمْ بِشَيْءٍ . لِمَاذَا تَسْأَلُنِي أَنَا . إِسْأَلِ ٱلَّذِينَ قَدْ سَمِعُوا مَاذَا كَلَّمْتُهُمْ . هُوَذَا هٰؤُلَاءِ يَعْرِفُونَ مَاذَا قُلْتُ أَنَا . وَلَمَّا قَالَ هٰذَا لَطَمَ يَسُوعَ وَاحِدٌ مِنَ ٱلْخُدَّامِ كَانَ وَاقِفاً قَائِلاً أَهٰكَذَا تُجَاوِبُ رَئِيسَ ٱلْكَهَنَةِ . أَجابَهُ يَسُوعُ إِنْ كُنْتُ قَدْ تَكَلَّمْتُ رَدِيّاً

فَٱشْهَدْ عَلَى ٱلرَّدِيِّ وَإِنْ حَسَناً فَلِمَاذَا تَضْرِبُنِي . وَكَانَ حَنَّانُ قَدْ أَرْسَلَهُ مُوثَقاً إِلَى قَيَافَا رَئِيسِ ٱلْكَهَنَةِ

(يوحنا ١٢ : ١٩ — ٢٤)

لكى نحفظ تسلسل القصة ، سوف نتأمل فى إيجاز فى الفقرتين اللتين تتحدثان عن محاكمة «يسوع» أمام «حنان» ، وسوف نضم أيضاً على نفس النمط الفقرتين اللتين تتحدثان عن مأساة «بطرس» .

ويوحنا هو الوحيد الذى يحدثنا عن محاكمة «يسوع» أمام «حنان». وقد كان «حنان» ، بشهادة «إدرشيم»: شخصية رهيبة كريهة خدمه الحظ فى أكثر من موقف. فقد كان القوة الكامنة وراء كرسى الحكم فى أورشليم.

واستمر بنفسه رئيس كهنة تسع سنوات كاملة، من السنة السادسة لميلاد المسيح حتى السنة الخامسة عشرة، وعلى كرسى «موسى» جلس أربعة من أبنائه. أما «قيافا» فقد كان زوج ابنته. هذه حقيقة تستحق التأمل. فقد مرت حقبة طويلة فى تاريخ الأمة اليهودية، كان رئيس الكهنة يجلس فيها على كرسى الرئاسة حتى نهاية العمر، وذلك حينما كان اليهود أحراراً وليسوا تحت نير أجنبى.

ولكن تحت حكم الولاة الرومان، أصبح منصب رئاسة الكهنة فى مهب الريح .. أصبح موضوع مساومة يصل إليه من هو على استعداد أن يدفع أكثر من سواه ، ومن يقبل فى استسلام أن يكون بوقا للرومان ، وسند للوالى . لقد أصبحت رئاسة الكهنوت ميدان رشوة ، ومكايد ، وفساد ومطامع . وعلى من يريد أن يحتل مكانه فى سلام ، ويحيا فى بحبوحة ، أن يدوس ضميره ، ويغمض عينيه ، ولا يستبعد أى طريق يسلكه فى

سبيل الإثراء وابتزاز أموال الشعب . ومحاولة استرضاء الوالى بالهدايا والرشا ، والتأثير فى المواطنين ليكونوا تحت سلطانه فى قياد أعمى .

لا غرابة إذاً أن يروى التاريخ اليهودى الكثير عن الثراء الفاحش الذى وصلت إليه أسرة «قيافا» . ولا غرابة أن تسيطر هذه الأسرة على كرسى رئاسة الكهنوت لمدة طويلة بالدس ، وبتقديم الرشا ، بينما يستمر «حنان» العجوز القوة المسيطرة واليد العاملة فى الخفاء فى كل هذه الفترة .

ولقد كانت لحنان طرقه الملتوية للحصول على المال . حتى أنه ما كان يتورع عن مشاركة التجار فى ساحة الهيكل . ففى ساحة الأمم ، كان يتكدس الباعة من الذين يتاجرون فى الذبائح التى تتطلبها مراسم العبادة . وهم الذين قام يسوع بطردهم . هؤلاء لم يكونوا تجاراً بمعنى الكلمة ، بل كانوا سماسرة محتالين . كان الناموس يطلب مواصفات خاصة فى الذبائح التى تقدم وهى أن تكون فى سن معينة وبلا عيب .

وكان هناك مشرفون يقومون بالتفتيش على الذبائح وفحصها بدقة قبل الذبح وبعده . فإذا تجاسر أحد العابدين وأحضر معه ذبيحة مشتراة من السوق الخارجى ، فلابد أن تكتشف فيها كل العيوب . وعلى المسكين أن يلقى بها لتجار الماشية بأبخس الأثمان ويعود إلى شراء الذبيحة من التاجر المعتمد فى ساحة الهيكل .

هناك كانت الذبائح توسم بميسم الهيكل دلالة على مطابقتها للمواصفات المطلوبة ، وعلى أنها فحصت فحصاً دقيقاً من قبل المختصين .

على هذا الأساس ، كان التجار يغالون فى الأثمان إلى درجة لا يتصورها العقل . فإذا كان زوج الحمام خارج الهيكل لا يزيد ثمنه عما يعادل خمسة

قروش، فإنه فى داخل ساحة الهيكل، كان يصل إلى خمسة وسبعين قرشاً . لقد كانت تجارة الهيكل كلها قائمة على النصب والإحتيال ، والإغتصاب. وكانت سوق الهيكل تعرف باسم « سوق حنان». كانت كلها ملكاً لأسرة رئيس الكهنة . وبهذه الطريقة ، باغتصاب أموال العابدين ، وبالإحتيال باسم الدين ، استطاع «حنان» أن يكدس ثروة كبرى، حتى أن اسم رئيس الكهنة كان بغيضا إلى اليهود أنفسهم .

بل إننا نجد التلمود نفسه يتحدث بالويلات على حنان وأسرته قائلا: « ويل لبيت حنان ! ويل لفحيح الأفاعى ! إنهم رؤساء كهنة . وسلالتهم حفظة الخزانة . وأنسباؤهم سدنة الهيكل ، وخدامهم يضربون الشعب بالعصى ! . » . هكذا كان «حنان» وبيته . وهكذا تحدث عنهم اليهود .

وإننا نستطيع أن نستنتج أن محاكمة «يسوع» على يديه كانت من ترتيبه هو . فيسوع قد هاجمه فى أدق مصالحه ، فهو الذى طرد الباعة من الهيكل وقلب موائد الصيارفة ونادى بالكلمة الخالدة « بيتى بيت الصلاة يدعى وأنتم جعلتموه مغارة لصوص». لقد مس «يسوع» «حنان» فى صميم حياته .. فى جيبه وماله . وكان من الطبيعى أن ينتهز «حنان» الفرصة ليرد ليسوع الصاع صاعين .

وكانت محاكمة «يسوع» أمام «حنان» مهزلة على مسرح العدالة . كان الناموس اليهودى يقضى بألا يوجه أي سؤال أو استجواب للمتهم ، يكون من نتيجته إمساك المتهم بجملة ينطق بها ، وإثبات الذنب عليه . وإننا نستمع إلى المفكر اليهودى المعروف «موسى بن ميمون» يقول «إن ناموسنا لا يوقع عقوبة الموت على إنسان ما على أساس اعترافه هو » . وهكذا كسر «حنان» ناموس العدالة اليهودية حينما وجه أسئلته إلى «يسوع» . ونحن نجد «يسوع» يذكره بهذا الخطأ ،

ويحاول أن يوجهه التوجيه الصحيح فيقول له « لماذا تسألني أنا ؟ إسأل الذين سمعوا مني » . لقد كان السيد يقول بالفعل لرئيس الكهنة : « إتجه في محاكمتك لي إلى الطريق القانوني الصائب . لا تتبع طريقاً ملتوياً . إبحث عن الدليل فيمن سمعوني . إسأل الشهود وافحصهم ما شاء لك الفحص . فهذا هو الطريق الصحيح . ولكن قف عند حدي أنا . فهذا ليس من حقك . » . حينما تحدث «يسوع» هكذا مفحماً رئيس الكهنة، إذا بواحد من الخدم يضربه على وجهه قائلا له : « أهكذا تحاول أن تعلم رئيس الكهنة العظيم ، كيف يقوم بمحاكمة متهم ؟ » فيجيبه «يسوع» في اتضاع : « إن كنت قد تكلمت كلاما يبتعد عن روح القانون فاشهد بذلك . ولكن إن كنت قد تكلمت بالحق فلماذا تضربني » .

إن «يسوع» كان واثقا من أن موازين العدالة لن تقام هناك . لقد أصاب الضرر مصالح «حنان» وأسرته . وعلى ذلك فالحكم لابد وأنه قد صدر من قبل أن تبدأ المحاكمة . حينما يكون الإنسان مندفعا في عماه في طريق خاطىء ، فالموت لمن يحاول أن يعترض طريقه . إنه سيبذل أقصى الجهد ليزيح من أمامه كل من يعترضه ، إن لم يكن بالحق ، بالوسائل القانونية ، فبالطرق الملتوية . والقصة التي يجلس فيها العدو قاضيا ، ويسودها روح الحنق والتعصب ، ونرى فيها الضربات تكال للمتهم قبل النطق بالحكم ، ليست قضية على الإطلاق .

وَكَانَ سِمْعَانُ بُطْرُسُ وَٱلتِّلْمِيذُ ٱلآخَرُ يَتْبَعَانِ يَسُوعَ . وَكَانَ ذٰلِكَ ٱلتِّلْمِيذُ مَعْرُوفاً عِنْدَ رَئِيسِ ٱلْكَهَنَةِ فَدَخَلَ مَعَ يَسُوعَ إِلَى دَارِ رَئِيسِ ٱلْكَهَنَةِ . وَأَمَّا بُطْرُسُ فَكَانَ وَاقِفاً عِنْدَ ٱلْبَابِ خَارِجاً . فَخَرَجَ ٱلتِّلْمِيذُ ٱلآخَرُ ٱلَّذِي كَانَ مَعْرُوفاً عِنْدَ رَئِيسِ ٱلْكَهَنَةِ وَكَلَّمَ ٱلْبَوَّابَةَ فَأَدْخَلَ بُطْرُسَ . فَقَالَتِ ٱلْجَارِيَةُ ٱلْبَوَّابَةُ لِبُطْرُسَ أَلَسْتَ أَنْتَ أَيْضاً مِنْ تَلَامِيذِ هٰذَا ٱلإِنْسَانِ . قَالَ ذَاكَ لَسْتُ أَنَا . وَكَانَ ٱلْعَبِيدُ وَٱلْخُدَّامُ وَاقِفِينَ وَهُمْ قَدْ أَضْرَمُوا جَمْراً . لأَنَّهُ كَانَ بَرْدٌ . وَكَانُوا يَصْطَلُونَ وَكَانَ بُطْرُسُ وَاقِفاً مَعَهُمْ يَصْطَلِي

وَسِمْعَانُ بُطْرُسُ كَانَ وَاقِفاً يَصْطَلِي . فَقَالُوا لَهُ أَلَسْتَ أَنْتَ أَيْضاً مِنْ تَلَامِيذِهِ . فَأَنْكَرَ ذَاكَ وَقَالَ لَسْتُ أَنَا . قَالَ وَاحِدٌ مِنْ عَبِيدِ رَئِيسِ ٱلْكَهَنَةِ وَهُوَ نَسِيبُ

ٱلَّذِى قَطَعَ بُطْرُسُ أُذُنَهُ أَمَا رَأَيْتُكَ أَنَا مَعَهُ فِى ٱلْبُسْتَانِ .
فَأَنْكَرَ بُطْرُسُ أَيْضاً . وَلِلْوَقْتِ صَاحَ ٱلدِّيكُ

(يوحنا ١٨ : ١٥ — ١٨ ، ٢٥ — ٢٧)

حينما هجر التلاميذ معلمهم وهربوا ، لم يقبل «بطرس» أن يفعل نظيرهم. لقد تبع «يسوع» حتى بعد أن ألقى الجند عليه الأيدى ، لأن جاذبية «يسوع» كانت تقيده . وهكذا جاء مع التلميذ الآخر إلى بيت رئيس الكهنة . وكان ذلك التلميذ معروفا هناك . أما التلميذ الآخر فقد تضاربت الآراء عنه لأنه لم يذكر بالإسم . قال البعض إنه تلميذ خارج دائرة التلاميذ المعروفين. وقال آخرون إنه لابد أن يكون إما «نيقوديموس» أو «يوسف الرامى» . وكل من الإثنين كان عضوا فى مجمع السنهدريم ، وكان معروفا لدى رئيس الكهنة . ووصل البعض إلى حد الظن أن ذلك التلميذ قد يكون يهوذا الاسخريوطى نفسه ! . «ويهوذا» من كثرة تردده على دار الرئيس لابد أنه كان معروفا بين دوائر الخدم وأهل البيت ، وهكذا وجد طريقه إلى الداخل بكل سهولة . ولكن لا يمكن أن نصدق الإفتراض الأخير . لأن دور «يهوذا» بعد القبض على «يسوع» كان واضحاً جليا . ولا يمكن أن
ا س» يضع يده فى يد ذلك الخائن ، أو يكون له أدنى تعامل معه .

"قليدية فهو أن ذلك التلميذ الآخر لم يكن سوى يوحنا
ر فضها بسهولة. والسؤال الذى يبرز أمامنا الآن :
يكون معروفا ، ومعروفاً بصداقة
اليهودى ؟ وبأى حق يصل إلى هذا

هناك رأيان يفسران هذه العلاقة بين « يوحنا » وبين بيت رئيس الكهنة .

(ا) فبعيد العصر الرسولى، ظهر كاتب يدعى«بوليكراتس»قام، بكتابة تعليق على بشارة يوحنا وعلى كاتبها التلميذ الحبيب – هذا الكاتب لا يشك لحظة فى أن كاتب البشارة الرابعة هو «يوحنا» وليس سواه . ثم يضيف شيئاً غاية فى الغرابة عن يوحنا فيقول ، إنه كان بمولده من سلالة الكهنوت . وكان يلبس الشعار الكهنوتى ، وهو شريط من ذهب نقشت عليه هذه الكلمات : « قدس للرب» فوق جبهته . وعلى ذلك ليس مستغرباً أن يكون «يوحنا» معروفاً فى دار رئيس الكهنة . .

ولكن من الصعب علينا تصديق هذا الخبر ،لأن البشائر تخبرنا صراحة أن «يوحنا» كان صياداً جليليا ، وكانت له تجارته الناجحة فى هذا المجال .

(ب) الرأى الثانى يرجح أن الصلة بين «يوحنا» وبين بيت رئيس الكهنة جاءت عن طريق التجارة .

فلقد أسلفنا أن «يوحنا» كان يدير تجارة ناجحةمن صيد الأسماك وتمليحها لحفظها . وكانت له مجموعةمن قوارب الصيد والعمال وغير ذلك (مرقس ١ : ٢٠) . أما السمك الطازج فقد كان ترفا غير شائع فى فلسطين . فوسائل النقل غير السريعة ، وحرارة الجو الشديدة لم تكن تتيح للإنسان ، وخاصة فى اليهودية فى الجنوب تناول لحم السمك الطازج الوارد من منطقة نائية كبحر الجليل . أما السمك المملح ، فيمكن حفظه ، وتداوله دون أن يخشى عليه من التلف . وهكذا كان ركنا أساسياً فى الطعام . ومن الجائز أن والد يوحنا كان يوالى ارسال احتياجات بيت رئيس الكهنة مع ابنه من حين لآخر .

فكان «يوحنا» معروفاً هناك . ويبدو أنه يوجد فى التقليد ما يؤيد هذه النظرية . يقول «هـ . ف . مورتون» فى كتابه الذى أشرنا إليه أكثر من مرة ، إنه حتى يومنا الحاضر، توجد فى أورشليم بناية قديمة تستخدم كمقهى يديره العرب . وقد استخدمت فى إقامته أحجار من كنيسة أثرية . ويعتقد الإخوة الفرنسسكان أنه كانت تقوم فى موقع هذه الدار، كنيسة فى نفس البقعة التى يظن أن «زبدى» والد «يوحنا» كان يمتلكها وكان يقيم عليها بيته . وقد كان هذا البيت يضم فرعاً من فروع التجارة الرائجة التى كان مركزها الرئيسى هناك فى الجليل .

ومهما يكن من أمر التفاصيل ، فالخلاصة أن «بطرس» وجد له مكانا فى دار رئيس الكهنة . وهناك وقف يستدفىء وسط الخدم ، لأن الليلة كانت باردة ، وكان ما كان من أمر إنكاره لسيده ثلاث مرات .

هناك أمر يستحق الإشارة : بشأن صياح الديك ، الذى جعله السيد علامة لإنكار بطرس . فقد اعترض البعض بأن الناموس ما كان يبيح تربية الدواجن فى أورشليم ، خوفاً من أن تنجس فضلاتها تراب المدينة . فمن أين أتى ذلك الديك ؟

ولكن قيل إن الرومان كانت لهم طريقتهم فى معرفة الوقت . كانوا يقسمون الليل إلى حراسات أربع . من الساعة السادسة بعد الظهيرة إلى الساعة التاسعة ثم من التاسعة إلى نصف الليل ، ومن نصف الليل إلى الثالثة من صباح اليوم التالى ، ومن الثالثة إلى السادسة أو مطلع الشمس . هذا كله أشبه بنظامنا الحالى فى تقسيم الليل والنهار . كان الحارس يستبدل بآخر حينما تنتهى نوبته . وساعة تغيير النوبات فى الساعة الثالثة . كان ينفخ فى البوق . أما نفخة البوق ، فكانت تعرف فى اللاتينية بكلمة « جالسنيوم » ، وفى اليونانية

« الكترو فونيا »ومعنى الكلمتين واحد : (صياح الديك) . وهكذا قال «يسوع» لتلميذه « قبل أن ينفخ فى البوق بصيحةالديك سوف تنكرنى ثلاث مرات » . لقد كان كل واحد فى أورشليم يعرف صيحة الديك . ويعرف أنها تتم فى الثالثة بعد منتصف الليل . وهكذا انطلق الصوت يهتف فى ظلام تلك الليلة ، فتذكر «بطرس» كلام المسيح .

البطل والجبان

(يوحنا ١٨ : ١٥ — ١٨ ، ٢٥ — ٢٧)

وهكذا أنكر « بطرس » سيده . نقول إنه لا يوجد واحد لقى من الوعاظ والمنابر قدر ما لقى « بطرس ». دائماً نجد الوعاظ اندتهم فى الحديث عن سقوط بطرس وجبن بطرس . ولعله من النافع أن نتذكر بعض ملابسات القصة ..

١ — علينا أن نذكر أن التلاميذ كلهم هربوا عدا «يوحنا» . وجميعهم لم يمدوا أيديهم للدفاع عن سيدهم ساعة القاء الأيدى عليه فى البستان عدا «بطرس» . تأمل فيما فعله « بطرس » . لقد مد يده واستل سيفه . .

استل سيفه وهو يعرف تماما أن فى ذلك الموت المحقق .

استل سيفه فى وجه جيش كامل مسلح . ثم نراه بعد ذلك يتبع الموكب الثائر ليرى ما سوف يتم لسيده .

إن الصورة الأولى صورة إنسان شجاع لا يتراجع فى الأزمات ، تحفظه شجاعته مدافعا عن سيده حينما ترتخى كل الأيدى . . وتدفعه شجاعته إلى السير وراء سيده وهو يعلم المصير الرهيب الذى ينتظره لو اكتشف أمره . لقد تبع سيده حتى إلى دار رئيس الكهنة .. وإلى عرين الأسد دخل غير

هياب ولا وجل . فإن كنا نرى العاصفة تثور عليه فجأة . . وإن كنا نراه يسقط من ثباته فى لحظة من لحظات الغفلة .. وإن كنا نرى التجربة أقوى من أن يجابهها فسقط ، فينبغى ألا ننسى أنه سقط لا لأنه جبان حريص على الحياة ، بل لأنه شجاع اندفع فى الميدان إلى آخر لحظة . لقد كانت سقطته لا سقطة الجبان ، بل سقطة الشجاع .

٢ ــ وعلينا أن نذكر كم أحب بطرس يسوع . ولقد أثبت الامتحان محبته. ففى الوقت الذى هرب فيه الجميع وقف هوإلى جواره . وفى الوقت الذى تخلى فيه الكل عن معلمهم، تبعه هو بعزم وإصرار . لقد كان بطرس «يحب» سيده ولم يشأ أن يتخلى عنه . صحيح أنه سقط . ولكن سقطته حدثت فى ظروف وملابسات دفعته إليها محبته الشديدة لسيده .

٣ ــ وعلينا أن نذكر أيضاً كيف عاد «بطرس» إلى صوابه ورجع إلى مخلصه . لقد كان ممكنا أن يهلك «بطرس». كان ممكنا أن يتأرجح ويهتز فيسقط وينتهى ويكون سقوطه عظيما . إن قصة إنكاره لسيده كان يمكن أن تكون السطور الأخيرة فى قصة حياته . نظير «يهوذا» كان يمكن أن ينهى حياته بيديه، ويكفر عن فعلته بسفك دمه . لقد انتشرت ولا شك قصة إنكاره . والناس تستهويهم على الدوام عثرات الناس . . يجدون لذتهم الكبرى فى الحديث عن سقطات الآخرين . ولعله من المذلنا أن نتصور ما يصوره التقليد... تتصور الناس يقلدون صياح الديك حين يشاهدون «بطرس» سائراً فى الطريق، إمعانا فى السخرية منه . ولكن «بطرس» استلهم عزيمته وعاد إلى نفسه ، لقد عزم أن يستعيد مركزه الأول، حتى ولو اقتضى الأمر أن يبدأ كل شيء من جديد . لقد كان هناك «بطرس» آخر ، فى داخل «بطرس» المهتز الخائر أمام الجارية والخدم ..

إن خلاصة الأمر كله ، أن «بطرس» الحقيقى الذى أعلن ولاءه لسيده فى العلية .. هو الذى مد يده واستل سيفه مدافعاً عن سيده فى نور القمر.. «بطرس» هو الذى تبع سيده لأن قلبه قد ارتبط به برباط الحب، فلم يشأ أن يتركه وحيداً فى محنته..هذا هو «بطرس» الحقيقى . أما «بطرس» المهتز الخائر .. الجبان الذى أنكر سيده ، فلم يكن «بطرس» على الاطلاق . وهذا ما رآه «يسوع »..لقد نظر إلى «بطرس».. نفذ بأبصاره إلى «بطرس» الحقيقى الذى فى الداخل ليوقظه من نومته .إن أروع ما فى «يسوع » هو أنه فى وسط فشلنا .. ضعفنا .. عجزنا، يستطيع أن ينظر فيرى الإنسان الحقيقى فى أعماقنا . إن «يسوع » يفهمنا بالرغم مما نصل إليه فى تهورنا ...يحبنا رغم الظروف التى نخلقها بتصرفنا أو تخلفنا . وتسيطر علينا وتصبح فى بعض الأحيان جزءاً من كياننا .

إنه يحبنا لا بسبب ما نحن عليه، بل بنظرته الثاقبة التى ترى ماسوف نكون عليه .إن محبة «يسوع »العظمى ، أكبر من ضعفنا وعجزنا وعدم أمانتنا . بل محبته ترى الإنسان الحقيقى فينا –ليس فى عدم أمانتنا ، بل فى إخلاصنا: ليس فى هزيمتنا أمام التجربة ، بل فى قيامنا من سقطتنا ، وسعينا الحثيث وراء الصلاح الذى ينادينا ويهيب بنا ويستحثنا حتى فى أحلك ساعاتنا ...

ٱلْأَصْحاحُ ٱلتَّاسِعُ عَشَرَ

يسوع أمام بيلاطس

ثُمَّ جَاءُوا بِيَسُوعَ مِنْ عِنْدِ قَيَافَا إِلَى دَارِ ٱلْوِلَايَةِ. وَكَانَ صُبْحٌ. وَلَمْ يَدْخُلُوا هُمْ إِلَى دَارِ ٱلْوِلَايَةِ لِكَيْ لَايَتَنَجَّسُوا فَيَأْكُلُونَ ٱلْفِصْحَ. فَخَرَجَ بِيلَاطُسُ إِلَيْهِمْ وَقَالَ أَيَّةَ شِكَايَةٍ تُقَدِّمُونَ عَلَى هٰذَا ٱلْإِنْسَانِ. أَجَابُوا وَقَالُوا لَهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ فَاعِلَ شَرٍّ لَمَا كُنَّا قَدْ سَلَّمْنَاهُ إِلَيْكَ. فَقَالَ لَهُمْ بِيلَاطُسُ خُذُوهُ أَنْتُمْ وَٱحْكُمُوا عَلَيْهِ حَسَبَ نَامُوسِكُمْ. فَقَالَ لَهُ ٱلْيَهُودُ لَا يَجُوزُ لَنَا أَنْ نَقْتُلَ أَحَداً. لِيَتِمَّ قَوْلُ يَسُوعَ ٱلَّذِي قَالَهُ مُشِيراً إِلَى أَيَّةِ مِيتَةٍ كَانَ مُزْمِعاً أَنْ يَمُوتَ

ثُمَّ دَخَلَ بِيلَاطُسُ أَيْضاً إِلَى دَارِ ٱلْوِلَايَةِ وَدَعَا يَسُوعَ وَقَالَ لَهُ أَنْتَ مَلِكُ ٱلْيَهُودِ. أَجَابَهُ يَسُوعُ أَمِنْ ذَاتِكَ تَقُولُ هٰذَا أَمْ آخَرُونَ قَالُوا لَكَ عَنِّي. أَجَابَهُ بِيلَاطُسُ

أَلَعَلِّي أَنَا يَهُودِيٌّ . أُمَّتُكَ وَرُؤَسَاءُ ٱلْكَهَنَةِ أَسْلَمُوكَ إِلَيَّ . مَاذَا فَعَلْتَ . أَجَابَ يَسُوعُ مَمْلَكَتِي لَيْسَتْ مِنْ هٰذَا ٱلْعَالَمِ . لَوْ كَانَتْ مَمْلَكَتِي مِنْ هٰذَا ٱلْعَالَمِ لَكَانَ خُدَّامِي يُجَاهِدُونَ لِكَيْ لَا أُسلَّمَ إِلَى ٱلْيَهُودِ . وَلٰكِنِ ٱلْآنَ لَيْسَتْ مَمْلَكَتِي مِنْ هُنَا . فَقَالَ لَهُ بِيلَاطُسُ أَفَأَنْتَ إِذًا مَلِكٌ . أَجَابَ يَسُوعُ أَنْتَ تَقُولُ إِنِّي مَلِكٌ . لِهٰذَا قَدْ وُلِدْتُ أَنَا وَلِهٰذَا قَدْ أَتَيْتُ إِلَى ٱلْعَالَمِ لِأَشْهَدَ لِلْحَقِّ . كُلُّ مَنْ هُوَ مِنَ ٱلْحَقِّ يَسْمَعُ صَوْتِي . قَالَ لَهُ بِيلَاطُسُ مَا هُوَ ٱلْحَقُّ . وَلَمَّا قَالَ هٰذَا خَرَجَ أَيْضاً إِلَى ٱلْيَهُودِ وَقَالَ لَهُمْ أَنَا لَسْتُ أَجِدُ فِيهِ عِلَّةً وَاحِدَةً . وَلَكُمْ عَادَةٌ أَنْ أُطْلِقَ لَكُمْ وَاحِداً فِي ٱلْفِصْحِ . أَفَتُرِيدُونَ أَنْ أُطْلِقَ لَكُمْ مَلِكَ ٱلْيَهُودِ . فَصَرَخُوا أَيْضاً جَمِيعُهُمْ قَائِلِينَ لَيْسَ هٰذَا بَلْ بَارَابَاسَ . وَكَانَ بَارَابَاسُ لِصًّا

فَحِينَئِذٍ أَخَذَ بِيلَاطُسُ يَسُوعَ وَجَلَدَهُ . وَضَفَرَ ٱلْعَسْكَرُ إِكْلِيلاً مِنْ شَوْكٍ وَوَضَعُوهُ عَلَى رَأْسِهِ وَأَلْبَسُوهُ ثَوْبَ أُرْجُوَانٍ . وَكَانُوا يَقُولُونَ ٱلسَّلَامُ يَامَلِكَ ٱلْيَهُودِ وَكَانُوا

يَلْطِمُونَهُ . فَخَرَجَ بِيلاَطُسُ أَيْضاً خَارِجاً وَقَالَ لَهُمْ هَا أَنَا أُخْرِجُهُ إِلَيْكُمْ لِتَعْلَمُوا أَنِّى لَسْتُ أَجِدُ فِيهِ عِلَّةً وَاحِدَةً . فَخَرَجَ يَسُوعُ خَارِجاً وَهُوَ حَامِلٌ إِكْلِيلَ ٱلشَّوْكِ وَثَوْبَ ٱلْأُرْجُوَانِ فَقَالَ لَهُمْ بِيلاَطُسُ هُوَذَا ٱلْإِنْسَانُ . فَلَمَّا رَآهُ رُؤَسَاءُ ٱلْكَهَنَةِ وَٱلْخُدَّامُ صَرَخُوا قَائِلِينَ ٱصْلِبْهُ ٱصْلِبْهُ . قَالَ لَهُمْ بِيلاَطُسُ خُذُوهُ أَنْتُمْ وَٱصْلِبُوهُ لِأَنِّى لَسْتُ أَجِدُ فِيهِ عِلَّةً . أَجَابَهُ ٱلْيَهُودُ لَنَا نَامُوسٌ وَحَسَبَ نَامُوسِنَا يَجِبُ أَنْ يَمُوتَ لِأَنَّهُ جَعَلَ نَفْسَهُ ٱبْنَ ٱللهِ . فَلَمَّا سَمِعَ بِيلاَطُسُ هٰذَا ٱلْقَوْلَ ٱزْدَادَ خَوْفاً . فَدَخَلَ أَيْضاً إِلَى دَارِ ٱلْوِلاَيَةِ وَقَالَ لِيَسُوعَ مِنْ أَيْنَ أَنْتَ . وَأَمَّا يَسُوعُ فَلَمْ يُعْطِهِ جَوَاباً . فَقَالَ لَهُ بِيلاَطُسُ أَمَا تُكَلِّمُنِى . أَلَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّ لِى سُلْطَاناً أَنْ أَصْلِبَكَ وَسُلْطَاناً أَنْ أُطْلِقَكَ . أَجَابَ يَسُوعُ لَمْ يَكُنْ لَكَ عَلَيَّ سُلْطَانٌ ٱلْبَتَّةَ لَوْ لَمْ تَكُنْ قَدْ أُعْطِيتَ مِنْ فَوْقُ . لِذٰلِكَ ٱلَّذِى أَسْلَمَنِى إِلَيْكَ لَهُ خَطِيَّةٌ أَعْظَمُ . مِنْ هٰذَا ٱلْوَقْتِ كَانَ بِيلاَطُسُ يَطْلُبُ أَنْ يُطْلِقَهُ وَلٰكِنَّ ٱلْيَهُودَ كَانُوا يَصْرُخُونَ قَائِلِينَ إِنْ أَطْلَقْتَ هٰذَا

فَلَسْتَ مُحِبًّا لِقَيْصَرَ . كُلُّ مَنْ يَجْعَلُ نَفْسَهُ مَلِكاً يُقَاوِمُ قَيْصَرَ

فَلَمَّا سَمِعَ بِيلاَطُسُ هٰذَا ٱلْقَوْلَ أَخْرَجَ يَسُوعَ وَجَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّ ٱلْوِلاَيَةِ فِي مَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ ٱلْبَلاَطُ وَبِٱلْعِبْرَانِيَّةِ جَبَّاثَا . وَكَانَ ٱسْتِعْدَادُ ٱلْفِصْحِ وَنَحْوُ ٱلسَّاعَةِ ٱلسَّادِسَةِ . فَقَالَ لِلْيَهُودِ هُوَذَا مَلِكُكُمْ . فَصَرَخُوا خُذْهُ خُذْهُ ٱصْلِبْهُ. قَالَ لَهُمْ بِيلاَطُسُ أَأَصْلِبُ مَلِكَكُمْ . أَجَابَ رُؤَسَاءُ ٱلْكَهَنَةِ لَيْسَ لَنَا مَلِكٌ إِلاَّ قَيْصَرُ . فَحِينَئِذٍ أَسْلَمَهُ إِلَيْهِمْ لِيُصْلَبَ

فَأَخَذُوا يَسُوعَ وَمَضَوْا بِهِ .

(يوحنا ١٨ : ٢٨ — ١٩ : ١٦)

هذه أقوى صورة درامية فى سياق قصة محاكمة «يسوع» كما وردت فى البشائر . فإذا حاولنا تقسيمها إلى أجزاء نفقد الصورة روعتها . إن الفقرة الطويلة التى أمامنا ، ينبغى أن نقرأها ككل ، إن كنا نريد أن نصل إلى عمق متضمناتها . وسنركز تأملاتنا فيها فى فصول متتابعة ، موجهين أقصى الإنتباه إلى الصور والشخصيات التى تروح وتجىء أمامنا فى مد وجزر ، على مسرح القصة الخالدة ...

وسنبدأ بالحديث عن اليهود :

فى عصر المسيح كان اليهود خاضعين لسلطان روما . وكانت سياسة الرومان، تتيح لسكان المستعمرات الخاضعة لهم ، قدراً من الحرية والحكم الذاتى . ولكن لم يكن من حق سكان المستعمرات ، تنفيذ حكم الإعدام . لقد كان « حق الجلاد » أوحق السيف ، إيوس جلادى كما كان يسمى ، وقفا على الرومان فقط . وكما يقول التلمود « قبل خراب الهيكل بأربعين عاما ، انتزع من إسرائيل حق الحياة والموت » . أما أول حاكم رومانى على فلسطين فقد كان يدعى «كونونيوس» . ويخبرنا «يوسيفوس» المؤرخ اليهودى الشهير عن تعيينه قائلا « إنه عين واليا ، بأمر «قيصر » ليكون فى يديه سلطان الحياة والموت ، ويتحدث «يوسيفوس» أيضا عن كاهن يدعى « عنانوس » أراد أن ينفذ حكم الإعدام فى البعض من أعدائه .

وحاول عقلاء اليهود أن يثنوه عن عزمه قائلين ، إنه لا يملك الحق فى ذلك ، وتم لهم ما أرادوا . ولكن الوالى عرف بتفاصيل الأمر ، فأمر بعزله من وظيفته لمجرد أنه فكر فى حق ليس له . فى بعض الأحيان نرى ، كما فى حادثة «استفانوس» ، أن اليهود يقومون بأنفسهم بتنفيذ حكم الموت .

ولكن ذلك لم يكن جائزاً شرعاً وقانوناً . وهكذا لم يجد اليهود بداً من إحضار «يسوع » لمحاكمته أمام الوالى الرومانى ، حتى يصدر عليه حكم الموت .

ولو كان لليهود أن ينفذوا بأنفسهم حكم الإعدام . لما كانت لديهم وسيلة سوى الرجم بالأحجار . هذا هو تعليم الناموس « من جدف على اسم الرب فإنه يقتل . يرجمه كل الجماعة رجما . الغريب كالوطنى عندما يجدف ... يقتل » (لاويين ٢٤ : ١٦) .

وكما حدث مع الشهيد استفانوس يكون أول شاهد أدت شهادته إلى

إدانة المتهم هو الذى يمسك أولا بالأحجار ويرجمه قبل الكل .. «يرجمه بالحجارة كل الجماعة خارج المحلة » (عدد ١٥ : ٣٥) .

هذا هو الهدف الأساسى من العدد الثانى والثلاثين ، وهذا العدديقول إن كل ما حدث قد تم حدوثه لكى تتم كلمات «يسوع» التى تنبأ بها عن الطريقة التى سوف يموت بها . لقد قال بالفعل « وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إلى الجميع » (يوحنا ١٢ : ٣٢) . وكلمة ارتفعت بمعنى صلبت .

وعلى ذلك كان لا بد أن يتم موت يسوع بالصلب لا بالرجم . لقد كان من المحتم أن يقاسى الموت بالطريقة الرومانية ، حتى يرفع عن الأرض .

ولقد أراد اليهود من البداية أن يلقوا بتبعة الحكم فى هذه القضية على أكتاف الوالى الرومانى . لقد أرادوا أن يتنحوا بالكلية عن المسئولية حتى يظهروا فى نظر الشعب محايدين لا ذنب لهم ولا جريرة ، وهكذا اتخذوا من بيلاطس الرومانى مخلب القط لتنفيذ أغراضهم .

يسوع أمام بيلاطس

(يوحنا ١٨ : ٢٨ إلى ١٩ : ١٦)

لكن الحديث عن اليهود يطول ، وهناك ما هو أكثر من هذا ...

فنحن إذ نتأمل سياق القصة تبرز أمامنا أكثر من حقيقة .

١ ــ فلقد بدأ الأمر معهم بكراهية «يسوع»، ثم انتهى إلى بغضة قاتلة مجنونة فنحن نصغى فى أصواتهم « اصلبه .. اصلبه » إلى عواء الذئاب الشرسة .

ونستمع فى هتافاتهم « ليس هذا بل باراباس » إلى الصرخات المجنونة القاتلة . لقد تملك جنون الكراهية عقول اليهود ، حتى اندفعوا دون ترو

فى سياق العواطف الثائرة . إن الكراهية نوع من الجنون ، ومتى تملكت قلب إنسان فانه لا يعرف كيف ينظر ، أو يسمع ، أو يفكر . لا شيء فى الوجود يغشي عينى الإنسان ، وقلبه ، وسمعه ، قـدر البغضة ، فلا يرى الطريق القويم ، ولا يميل إلى الرأى الصائب ، ولا يستمع إلى صوت الضمير . إن البغضة شيء رهيب قاتل ، لأنها تذهب بحواس الإنسان ومشاعره وتقديره السليم .

٢ — وهذه البغضة قد أفقدت اليهود القدرة على تقييم الأمور ووزنها الصحيح
لقد كانوا حريصين على ألا يدخلوا بلاط الوالى ، لئلا يتنجسوا فلا يستطيعوا أن يشتركوا فى ممارسات عيد الفصح .

ومع ذلك هاهم يدبرون جريمة قتل ابن الله ! وهاهم يبذلون أقصى الجهد ليصلوا إلى أغراضهم الإجرامية . ولقد كان اليهودى يحتم على صاحبه أن يكون طاهراً شرعيا . وكان الدخول إلى دار الولاية الرومانية يعنى التنجس عن طريقين : الأول كما يقول الناموس الشفاهى ، وهو عند الكتبة والفريسيين يقابل الناموس المكتوب ، ويزيدون فى تقديره والتمسك به ، وهو يقول « **إن مسكن الأمم نجس** » والثانى أن الإعداد لعيد الفصح كان يقتضى تفتيش أرجاء كل البيت بكل دقة وحرص بحثا عن أى نوع من أنواع الخمير ، وتنقية البيت منها . فالخمير رمز الشر . « وعلينا أن نعيد لا بخمير الخبث والشر بل بفطير الإخلاص والحق » . — صورة يستعيرها رسول الأمم من هذا التقليد .

وعلى ذلك فالدخول إلى دار الولاية ينجس صاحبه بصورتين ، لكسره الوصية ، وكذلك لوجود الخمير فى الدار . فإذا حدث هذا ، فاليهودى يصبح نجسا حتى المساء ، وعليه أن يجتاز بعد ذلك فى فرائض خاصة للتطهير حتى يصبح طاهراً .

وها نحن نرى تلك الجماعة المتزمتة المتمسكة بأصول ناموسها وتعاليمها بكل حرص، تندفع كالكلاب المسعورة ، لتلطخ أياديها بدم برىء «نعم لتلطخ أياديها بدم ابن الله، المحبة المتجسدة . وكم من مسيحى مدقق فى الأمور الظاهرية يظن أنه يرضى الله ، وهو يكسر جوهر الوصايا : البر والرحمة والإيمان بل كم من طائفة تدقق كل التدقيق فى التقاليد التافهة . . فى السبوت . . والأعياد . . فى البخور والشموع والصور والتماثيل ، . . . فى رسم الصليب أو وشمه أو رشمه . . فى الإتجاه إلى جهة معينة فى الصلاة ، فى الملابس الكهنوتية ومطابقتها لكل المناسبات ، وعشرات من هذه الأمور وغيرها ، وفى سبيل هذه الطقوس التى هى خارج جوهر المسيحية ، تكسر ناموس المحبة ، وتطعن فى غيرها من الطوائف ، ربما وصل الأمر إلى العداء المسلح ، كما يقول «هـ. ف . مورتون» إن نزع مسمار من المسامير التى تعلق عليها الأيقونات فى كنيسة القيامة فى القدس ، أدى فى وقت من الأوقات إلى اندلاع حرب القرم الشهيرة . إن من أغرب الأمور ، بل من أكثرها إيلاما ، أن التعصب الأعمى يفقد الإنسان القدرة على تقييم الأمور ووزنها ووضعها فى الوضع الصحيح .

٣ — **ولم يتردد اليهود فى اتهامهم ليسوع ، للوصول به إلى أقصى درجات الخطورة حسبما تقتضى الظروف** . فلقد كانت تهمتهم له فى محاكمتهم الخاصة هى التجديف (متى ٢٦ : ٦٥) ، ولكنهم كانوا يعلمون أن «بيلاطس» لن يكترث لمثل هذه التهمة . إنه سيقول لهم إن هذه أمور تختص بناموسكم ، فاحكموا فيها بأنفسكم ، لذلك لابد وأن تتحول تهمة التجديف إلى تهمة أكثر خطورة ، تهمة تمس كيان الأمبراطورية ، فإذا لم يكترث لها الوالى ، فليس أقل من أن يهتم بها ، خوفا من الجالس على عرش القياصرة ، وتبرئة لنفسه ، وإلا سيكون مصيره هو مصير الخيانة ويتهم بممالأة خائن لقيصر . وهكذا أقحموا

اسم «يسوع» فى ميدان السياسة، واتهموه بالثورة والتمرد على نظام الحكم، والعمل على تمهيد الطريق ليصل إلى حكم البلاد. ولقد كانوا يعرفون يقينا، أن اتهامهم هذا، باطل لا أساس له من الصحة. ولكن الحقد لا يتورع عن أى شيء. والحاقد على استعداد أن يحرف الحق للوصول إلى غرضه. وأية قضية هذه تلك التى تقوم على اتهام كاذب! ؟

٤ – وحتى يصلوا إلى هدفهم الدنىء، لم يترجعوا عن أن يتنكروا لكل مبدأ لهم.
ولعل من أغرب الهتافات التى هتفوا بها فى ذلك اليوم قولهم. ليس لنا ملك إلا قيصر. لقد كانت كلمة «صموئيل» فى القديم للشعب أن الله ملكهم ولا ملك لهم سواه (سفر صموئيل الأول ١٢ : ١٢). وحينما قدم التاج للزعيم والقائد المنتصر «جدعون» كان جوابه :

« لا أتسلط أنا عليكم. ولا يتسلط ابنى عليكم. إنما الرب يتسلط عليكم ». (قضاة ٨ : ٢٣)

وحينما فرض الرومان سلطانهم على فلسطين، قاموا بأول تعداد الشعب، حتى يمكنهم تنظيم الضرائب على أساسه. وهذا النظام كان شرعاً معمولا به فى كافة المستعمرات الخاضعة لهم. ولكن اليهود ثاروا ثورة كلفتهم دماء كثيرة، وذلك لسبب واحد. إنهم كانوا يعتبرون أنفسهم تابعين لملك واحد هو الله، خاضعين لسلطان واحد، سلطان الله، وله وحده الإكرام والتعبد والخضوع. فحينما هتف الكهنة للوالى الرومانى، ليس لنا ملك إلا قيصر، كانوا يقومون بأكبر مغالطة مذهلة فى تاريخ شعب وأمة، بل يتقدمون بأغرب تصريح يمكن أن ينادى به يهودى. ولعل «بيلاطس» نظر إليهم فى دهشة وذهول، ولعله استمع إلى حديثهم وهو لا يصدق أذنيه. ولكنه بالطبع أدرك أنهم يلعبون بالورقة الأخيرة لديهم فى سبيل الفوز على خصمهم اللدود.

صورة بغيضة ولا شك، تلك التي تبدو أمامنا. صورة يغلفها الحقد الأسود وتظهر فيها النظرات النارية والأفواه الفاغرة، والأيدي المستعدة للعراك، والهتافات المجنونة. إن اليهود في حقدهم قد تناسوا كل مبادئهم، ونسوا كل شرائعهم، وداسوا على قلوبهم، وتنكروا حتى لإلههم. لا توجد في تاريخ الإنسانية جمعاء، صورة تبدو أقسى وأرهب وألعن، من الصورة التي تبدو أمامنا . . .

يسوع أمام بيلاطس

(يوحنا ١٨ : ٢٨ — ١٩ : ١٦)

والآن دعونا نتأمل في الشخصية الثانية، التي تبدو على مسرح محاكمة «يسوع»: «بيلاطس». خلال فصول الدراما كلها، يبدو دور بيلاطس مليئاً بالمتناقضات، غير واضح للأفهام.

ومن الواضح الجلي، وهناك أكثر من دليل على ذلك، أن «بيلاطس» كان يعرف أن اليهود يزيفون الحقائق، وأن كل اتهاماتهم ليسوع لن تزيد عن كونها سلسلة من الأكاذيب. ومن الواضح أيضاً أن الوالي الروماني تأثر بيسوع كل التأثر، وأيقن تماماً ببراءته، وحاول بكل وسيلة أن ينقذه من أيدي أعدائه، ولكنه استسلم أخيراً لهم فحكم عليه بالموت.

فنحن نراه أولاً، يحاول جاهداً أن يطلق «يسوع» على أساس عادة إطلاق أسير من الأسرى، يختاره اليهود في عيد الفصح، ثم يحاول أن يسترضيهم بتسليم «يسوع» للجلد، ثم يتجه إليهم برجاء أخير. ولكنه لا يحزم أمره، ولا يثبت في عزمه، ويرفض أيضاً قاطعاً أن يستجيب لمطالب اليهود، وينساق في تيارهم. ونحن لن نستطيع أن نصل إلى فهم «بيلاطس»، إلا إذا عرفنا ملخصاً لتاريخ حياته، ومن حسن الحظ، أننا نجد الكثير عنه في كتابات يوستينوس، كما في كتابات «فيلو السكندري».

قبل كل شيء ، علينا أن ندرك الدور الذى كان يقوم به الوالى الرومانى فى بلاد اليهودية . . ولا ضير علينا لو رجعنا إلى الوراء ، لنتتبع خطوات التاريخ من البداية .

فنى العام الرابع قبل ميلاد المسيح (١) انتهت حياة الملك «هيرودس» الكبير ولقد كان «هيرودس» ملكا على فلسطين بجملتها . وبالرغم من الكثير من أخطائه فقد كان فى أكثر من جانب ملكاً عظيما . كان صديقاً للرومان محبوبا لديهم . فلما انتهت حياته ، قسمت مملكته حسب وصيته بين أبنائه الثلاثة ؛ فكان من نصيب « انتيباس » ولاية الجليل وبيرية ، و «فيلبس» صار واليا على باطانية وأورانيتس وتراخونيتس وهى المناطق الجبلية غير المأهولة ، الواقعة جهة الشمال الشرقى ، وبقى لأرخلاوس حكم أدومية واليهودية والسامرة وقد كانت سنه فى ذلك الحين ، لا تتجاوز الثامنة عشرة . أما الرومان فقد أيدوا هذا التقسيم وأقروه .

ولقد سارت الأمور حسنا مع أنتيباس وفيلبس ، ولكن أرخيلاوس كان قاسيا فظاً ، حكم رقعته بكل عنف ، حتى أن اليهود أنفسهم قدموا شكاواهم لقيصر لعزله من الحكم ، وتعيين آخر سواه . ولقد كانوا يأملون أن تضم مقاطعتهم إلى ولاية سورية ، فيكون لهم من اتساع الرقعة ما يعينهم على الحياة فى هدوء بعيداً عن رقابة الوالى وسلطانه . ولقد كانت المستعمرات الرومانية تنقسم إلى قسمين : قسم منها يحتاج إلى كتائب من الجيش الرومانى تعسكر فيها تحت السلطة المباشرة للإمبراطور ، وهذه كانت تعرف باسم المستعمرات الأمبريالية . وقسم آخر يحيا فى هدوء ومسالمة بعيداً عن المتاعب

(١) حسب التقويم الحالى ، هناك خطأ أربع سنوات . بحيث نقول إن المسيح ولد عام ٤ قبل ميلاد المسيح ! !

والإضطربات ، تحت السيطرة المباشرة لمجلس الشيوخ أو السنات الرومانى. وهذه كانت تعرف بالمستعمرات المشيخية أو السناتورية . أما فلسطين فكانت أرض قلاقل واضطرابات تحتاج إلى كتائب من الجيش الرومانى لحفظ النظام فيها . فهى لذلك تحت سلطان الإمبراطور مباشرة . وكانت المستعمرات الشاسعة نظير سورية ، تحكم بواسطة فيصل أو حاكم .

أما المستعمرات الأصغر ، أو مستعمرات الدرجة الثانية ، فقد كان يحكمها وال رومانى. لذلك كان الوالى هو صاحب السلطان العسكرى والحكومى والشرعى على المنطقة ، أى أنه كان يملك سلطة الحكم والقضاء والتنفيذ. كان يقوم بزيارة كل بقعة فى منطقته مرة واحدة على الأقل فى السنة . يستمع إلى شكاوى الشعب ، ويحكم فى قضاياهم ، ويسوى خلافاتهم . وكان يشرف على جمع الضرائب ، لكنه ما كان له الحق فى فرض ضرائب جديدة . وكان يتقاضى راتبه من الخزانة ، ولكنه كان محظوراً عليه أن يتناول أية هدية أو رشوة ، فإذا تجاوز سلطاته كان للشعب الحق فى رفع أمره إلى قيصر .

وهذا النوع الأخير من نظام الحكم ، كان مطبقا فى فلسطين ، فإلى هناك عين «أوغسطوس قيصر» من قبله الوالى الأول عام ٦ للميلاد. أما « بيلاطس » فقد بدأ ولايته عام ٢٩ م واستمر على كرسى الحكم تسع سنوات . ولقد كانت فلسطين كما هو شأنها على الدوام ، منطقة تغلى بالاضطرابات والمشاكل . وكانت تقتضى أن يحكم الوالى بعقل ناضج ويد من حديد . ونحن لا نعرف إلا القليل عن تاريخ «بيلاطس» ، قبل أن يلمع فى أفق السياسة . ولكننا نعتقد أنه كان يمتلك من الحيلة والمقدرة الإدارية ، ما جعل قيصر ، يفضله على سواه فى حكم هذه المنطقة الثائرة ، فلقد كان لفلسطين مركزها الفريد ، لأنها بحسب موقعها الجغرافى ، القنطرة الموصلة بين مصر وسورية .

ولكن «بيلاطس» كحاكم أثبت فشله . فلقد بدا أنه كانت تنقصه روح التعاطف مع اليهود ، والفهم الصادق لنفسيتهم . لقد كان يحتقرهم . ويرى فيهم شعبا بدائيا متخلفا عن ركب الحضارة . متمسكا بأوهامه وتقاليده ، متعلقا بناموسه وشرائعه ، متعجرفا فى غباوته وعنصريته . هكذا كان اليهود فى نظر بيلاطس ، وهناك ثلاثة أحداث شهيرة تثبت ذلك .

أما الحادث الأول فقد وقع فى أول زيارة له لأورشليم . وأورشليم لم تكن مقر الوالى . كانت مدينة قيصرية هى المقر الرئيسى له . ولكن بطبيعة عمله كان يقوم بزيارة كل مدينة وعلى الأخص أورشليم مركز الهيكل والزعامة الدينية . كانت المدينة تكتظ بالحجاج القادمين إليها فى فرص الأعياد ، وعلى وجه التحديد فى عيد الفصح . فكانت مقراً للغش ، والمتاعب ولذلك كان الأمر يقتضى أن يكون برفقته كتائب من الجند الرومانى ، وكانت هذه الكتائب تتخذ من قلعة أنطونيا مقراً لها .

ولقد كان الجند يحملون شعاراتهم معهم . وعلى قمة هذه الشعارات كانت صورة من المعدن لقيصر يظلله النسر الرومانى . كان «قيصر» كما أسلفنا يكرم ويقدم له التعبد كإله . وهذه الصوره المعدنية : كانت فى نظر اليهود لا تقل عن تمثال منحوت ينهى الناموس صراحة عن إكرامه وعبادته أو حتى صنعه .

أما الولاة السابقون ، فقد أوتوا من الحكمة ما جعلهم ينزعون هذه الصور المعدنية ، احتراما لمعتقدات اليهود ، ومنعا للقلاقل والثورات .

أما هو ، فلم يكترث لذلك ، بل أمر الجند أن يدخلوا المدينة المقدسة بكامل عدتهم وزينتهم وشعاراتهم . ولقد حاول كثيرون من شيوخ اليهود أن يبصروه بنتائج عمله . ولكنه رفض بإصرار وعزم ألا يستجيب لما أسماه خرافات اليهود . وهكذا عاد إلى قيصرية تاركا جنوده فى أورشليم .

وتبعته جماهير اليهود إلى هناك . وأحاطوا بقصره خمسة أيام كاملة ليل نهار ، لا يتزحزحون من مكانهم ، وهم يصرخون ويتذللون فى اتضاع . وأخيراً أرسل «بيلاطس» إليهم رسولا يخبرهم أنه على استعداد للقائهم والتفاهم معهم فى مسرح المدينة . وهناك حيث تجمهر اليهود أحاطت الكتائب المسلحة بالمسرح وهدد «بيلاطس» زعماءهم ، بأنهم إن لم يعودوا من حيث أتوا ، فنصيبهم لن يكون أقل من الموت بحد السيف . وعندها مدوا رقابهم فى تحد وأظهروا استعدادهم للموت . ولكن حتى بيلاطس ما كان يستطيع أن يقتل جماعات عزلاء بلا سلاح دون أن يعرض مركزه للخطر كوال . وهكذا لم يجد بدا من الرضوخ لمطالبهم وأمر جنوده بنزع صورة قيصر عن الشعارات وكانت هذه أسوأ بداية يمكن أن يبدأ بها حاكم .

والحادثة الثانية كانت تدور حول أموال الهيكل وهل يمكن استخدامها فى المشاريع العمرانية أم لا . فأورشليم كانت تعانى من مشكلة نقص المياه وكان من رأى بيلاطس أن يعالج المشكلة بعمل قناة حجرية تجرى فيها المياه ، من خارج المدينة إلى داخلها . ومن أين يأتى بالمال اللازم لهذا المشروع النافع ؟ هناك الألوف المؤلفة فى خزانة الهيكل . والتى ترقد فى موضعها بلا فائدة إلا أن تمتد إليها أيدى الكهنة للسلب والنهب . لماذا لا يستخدم هذه الأموال فى مثل هذا العمل ؟ على أن «بيلاطس» لم يتجه إلى استخدام الأموال المقدسة المخصصة للذبائح والتقدمات . لقد اتجه إلى المال المسمى بالقربهن . والذى كان يأتى من مصادر يستحيل معها استخدامه فى الطقوس المقدسة .

ولقد كان مشروع «بيلاطس» حيوياً ضرورياً . مشروع عظيم ولا شك . فالماء لازم كل اللزوم لسكان المدينة . وهو بالحرى أكثر لزوما للهيكل الذى يحتاج إلى التنظيف المستمر من الذبائح اليومية . ولكن اليهود ثاروا على المشروع وتدفقوا فى الطرقات يصخبون ويلعنون .

أما «بيلاطس» فقد ركب رأسه هذه المرة ، وأرسل جنوده متخفين فى ملابس عادية وأسلحتهم مخبأة تحتها . وبإشارة منه تسللوا وسط الجموع الثائرة ، وانقضوا على ضحاياهم كالوحوش ، وذبحوا منهم عدداً ليس بالقليل .

ومرة أخرى زاد «بيلاطس» رصيد الحقد المذخر له فى قلوب اليهود ، وأعطاهم الذريعة لرفع شكاواهم ضده إلى عتاب قيصر .

والحادثة الثالثة ظهر أنها أكثر رداءة بالنسبة لبيلاطس . فنحن نعرف أنه حين كان يقوم بزيارة أورشليم كان ينزل ضيفا على قصر هيرودس القديم . وهناك أمر بصنع مجموعة من الدروع ، التى تعرف بدروع التصويت أو الدعاية ، ونقش عليها اسم «طباريوس قيصر» تكريما لذكرى الإمبراطور . وأمر بتعليقها حول جدران القصر . ولقد أسلفنا أن قيصر كان يكرم كإله . وها هم أولاء يقرأون اسم إله غريب فى قلب مدينة داود ! وثار اليهود وطلبوا من «بيلاطس» أن ينزع الدرع ولكنه رفض بعناد . وأخيرا لم يجدوا بدا من أن يرفعوا شكواهم إلى طباريوس قيصر نفسه الذى استجاب لهم ، وأمر بيلاطس بالرضوخ لمطالبهم .

ولعله من الملذ لنا أن نعرف ، كيف انتهى الأمر مع بيلاطس . حدث هذا بعد سنتين اثنتين من صلب المسيح . ففى السامرة قامت بعثة للتنقيب فى جبل السامرة عن بعض الأوانى الأثرية التى يقال إنها مدفونة هناك وظن بيلاطس أن فى الأمر مؤامرة ، فأرسل جنده وذبحوا أعضاء البعثة . أما سكان السامرة فقد كانوا معروفين بإخلاصهم وهدوئهم . فأرسلوا يشتكون لدى والى سورية الذى رفع شكواهم إلى قيصر . فأرسل قيصر فى طلبه . وفى أثناء ذهابه إلى روما انتهت حياة طباريوس قيصر .

ولا تعرف ماذا تم فى أمر بيلاطس . فمن ذلك الحين اختفى من على مسرح التاريخ إلى النهاية . ويقال إنه عزل وأمر قيصر الجديد بنفيه ...

أمام هذه الصور التاريخية ، عن تطورات العلاقات بين «بيلاطس» وبين اليهود ، نستطيع أن ندرك كيف أحرج اليهود الوالى الرومانى ، ودفعوه إلى أن يسلم «يسوع» للصلب .

لقد قالوا : « إن أطلقت هذا فلست محبا لقيصر ، وكأنى بهم يقولون له بالفعل : « إن صحائفك عند قيصر ليست بيضاء تماما . هناك واقعة سابقة لك لدى البلاط القيصرى . فإن لم تستسلم لنا سوف نرفع أمرك مرة ثانية إلى الامبراطور ، وستكون النتيجة عزلك من الولاية » . لقد دفع «بيلاطس» دفعاً للحكم على «يسوع» لأن غلطاته السابقة لم تدع له مجالا إلى تحدى اليهود هذه المرة أيضا . وهكذا ظهرت أمامه صور ماضيه فى تلك اللحظة الحاسمة . والمفكر العاقل لا يسعه إلا أن يشعر بالأسى من جهة بيلاطس. لقد أراد أن يثبت أقدامه ، ولكن العاصفة كانت أقسى وأشد . لقد أراد أن يتحدى اليهود ، ولكن مركزه ومصيره كانا فى كف القدر ولم يقبل أن يقامر أو يغامر . وهكذا أسلم يسوع للصلب .

يسوع أمام بيلاطس

(يوحنا ١٨ : ٢٨ — ١٩ : ١٦)

رأينا لمحة خاطفة عن تاريخ بيلاطس . والآن دعنا نفحص سلوكه فى محاكمته ليسوع . إنه من البداية لم يكن راغبا فى الحكم عليه . لقد عرف أن «يسوع» برىء . ومع ذلك كان الوالى مقيدا بفعال ماضيه ، فلم يستطع أن يتخلص من حبائله ، فاضطر مرغما إلى إصدار الحكم على إنسان برىء .

١ — ونحن نراه يبدأ بمحاولة التخلي بالكلية عن القضية وإلقاء المسئولية على الآخرين إنه يقول لليهود ، خذوه أنتم واحكموا عليه حسب ناموسكم . لقد حاول أن يتخلص من القضية .. أن يتخلص من «يسوع» . ولكن هيهات .

إن يسوع لابد وأن يجابه كل واحد منا ، كمصير حياتنا وهدفنا الرئيسي . وكثيرا ما نظن أننا نستطيع أن نتخلص من يسوع . كثيرا ما نحاول أن نلقي تبعة عدم خضوعنا له على سوانا . ولكن لا أحد يسأل غيرنا نحن .. ينبغي أن نتعامل بأنفسنا مع «يسوع» .. ونتحمل في ذواتنا تبعة قبوله أو عدم قبوله .

٢ — ونراه يحاول مرة أخرى أن يتخلص من المأزق فينتهز فرصة العيد ليطلق لهم حسب العادة أسيرا يطلبونه ، وقد كان هذا تقليداً جرى عليه في محاولة للتقرب من الشعب . وظن أنه يستطيع أن يغريهم بإطلاق «يسوع» . هذه مرة ثانية يحاول فيها أن يتخلص من مسئولية الحكم عليه واتخاذ قرار بنفسه . ولكن لا أحد سوانا يستطيع أن يقرر ماذا نفعل بيسوع ، وهل نقبله أو نرفضه .

٣ — ثم يحاول طريقا ثالثا يعتقد أنه حل وسط يرضي اليهود ولا يصل به إلى أقصى الشوط ، فيأمر بأن يجلد «يسوع» . ولقد ظن أن الضربات التي ستوضع على «يسوع» ومنظر جسده الدامي سيخفف من حدة عداء اليهود له ، وربما يصل بهم إلى الاكتفاء بهذا القدر من الانتقام . لقد ظن خطأ أنه يستطيع أن يتجنب الحكم بالصلب ، بالحكم بالجلد . ومرة أخرى نقول هذا ما لا يستطيع إنسان أن يفعله . لا نستطيع أن نتصرف بين «يسوع» والعالم في حل وسط . لا نستطيع أن نرضي العالم ونرضي يسوع . لا نستطيع أن نخدم سيدين ، فإما نحن ليسوع ، أو نحن على «يسوع» ، ولا طريق وسط بين هذا وذاك .

٤ ــ وإن كانت هذه الحيل قد فشلت فليتجه إلى الاستعطاف . ليتجه إلى محاولة لمس قلوبهم بمنظر يسوع الدامى . وهكذا يقتاده إليهم ، والدماء لاتزال تقطر من جراحه ، ويهتف فيهم «هذا هو ملككم . هل أصلب ملككم !؟» لقد حاول أن يستثير فيهم حاسيات العطف والشفقة . ولكن عواطف الآخرين لن تنزع عنا المسئولية ، لن تعفينا منها . علينا أن نقرر نحن بأنفسنا لا أن نجعل الآخرين يقومون بذلك عنا . أيها القارىء الكريم إن يسوع يجابهك فى طريق الحياة . وعليك أن تحكم له أو عليه . وفى حكمك له تحكم لنفسك . وفى حكمك عليه تحكم عليها .

ولن يقوم آخر بذلك «ولن يتحمل التبعة سواك» .

ولن يستطيع آخر أن يقرر مصير «يسوع» فى حياتك أنت . عليك أن تقرر بنفسك مصير يسوع بالنسبة لك ، ومصيرك بالنسبة ليسوع ، ولا مناص من ذلك إنك لن تستطيع أن تتخلص من المسئولية الرهيبة ، مسئولية الحياة أو الموت بالنسبة لك .

وهكذا أقر «بيلاطس» أخيرا بهزيمته . وأسلم «يسوع» لأيدى رعاع اليهود ، لأنه لم يجد فى نفسه الشجاعة ، أن يقف بجانب الحق ، ويتحمل مسئوليته .

ولكننا نغفل الكثير فى دراستنا لبيلاطس ، لو أغفلنا جوانب أخرى فى صورته الماثلة أمامنا . .

(ا) **فهناك إشارة إلى روح «بيلاطس» المتعالية** : لقد سأل «يسوع» إن كان هو الملك . وسأله «يسوع» إن كان يقول هذا القول من نفسه أم أن آخرين قالوا له ذلك ؟ ويجيب «بيلاطس» فى غرور «هل أنا يهودى نظيرك ؟ كيف لى أن أعرف شئونكم ، وناموسكم وأموركم الخاصة ؟» لقد أظهر «بيلاطس»

استعلاءه فى أن يزج بنفسه فى غمار تعاليم اليهود وأفكارهم وتقاليدهم وكل ما كان يعتبره خرافات وأساطير ، كان فى استعلاء «بيلاطس» سر فشله ، فلن يستطيع حاكم أن ينجح فى حكمه لشعب، مالم يفهم نفسية ذلك الشعب ويتغلغل فى عقولهم وأفكارهم .

(ب) ويبدو لنا أن فى أعماق «بيلاطس»يكمن الإيمان بالأساطير والأوهام فدفعه هذا إلى طلب المعرفة وحب الإستطلاع وتكرار السؤال بعد السؤال . فهو يحاول أن يعرف من أين جاء «يسوع» ، وبالطبع لم يكن يقصد البلد الأصلى المادى — وحينما سمع أن «يسوع» ابن الله زاد اضطرابه وانزعاجه ، لقد كان «بيلاطس» موسوساً أكثر منه متدينا . وكان يخشى أن تكون فى «يسوع» قوة كافية لا يدركها تصيبه بضرر أعظم من الضرر الذى يمكن أن يحيق به فيما لو وقف إلى جانبه . لقد كان يخشى اليهود ، ويخشى قيصر ، ويخاف أن يفقد الكرسى الذى يجلس عليه . ولكنه كان يخشى بالتالى الأسير الذى يقف أمامه ، فربما كانت الآلهة تحل فيه . إن «بيلاطس» لم يكن له من الشجاعة ما يجعله يتحدى البشر أو يقف فى جانب الله .

(حـ) ولكننا نعتقد أنه فى قلب «بيلاطس» كان يكمن الجوع العميق والشوق الغامر . فحينما قال السيد « لهذا قد أتيت لأشهد للحق » كان جواب «بيلاطس» « وما هو الحق ؟ » .

وهناك أكثر من صورة يمكن أن يتقدم بها إنسان بهذا السؤال . قد يسأله بروح السخرية والتهكم ، وقد خلد هذه الصورة «فرانسس باكون» حينما كتب مفصلا هذا السؤال : « ما هو الحق ؟ هكذا سأل «بيلاطس» ساخرا ، ولم ينتظر جوابا لسؤاله » .

ولكننا نعتقد أن الموقف ، والملابسات ، وصراخ الجماهير ومشاعر بيلاطس نفسه ، ما كانت تتيح له وقتا للسخرية . فهذا السؤال ليس سؤال إنسان ساخر أو عديم الإكتراث . إنه فى موقف جاد حازم . ومأزق لا مجال للسخرية فيه . لقد سأل بيلاطس سؤاله فى ضيق ونفاد صبر . فها هو قد وصل إلى مالم يصل إليه سواه . إنه بمقاييس البشر إنسان ناجح . لقد وصل إلى أعلى المراتب فى خدمة الأمبراطورية الرومانية . . إلى كرسى الولاية فى منطقة حرجة من مناطق الأمبراطورية العريضة ، ولكن كان هناك ما ينقصه . إنه يفتقر إلى جوهر الأشياء . لقد نال من الوجود زينته . . عرضه الزائل . ولكنه بحاجة إلى الجوهر . ها هو قد وصل إلى أهدافه . . . إلى مشتهاه وها أمامه يقف جليلى فقير أعزل ، لم ينل حظاً من العلم نظيره ، ولم يصل إلى مرتبة عليا بين أقرانه ، ولم يحتل مركزاً حكوميا فى بلده ، ولكنه أحس أن ذلك الإنسان البسيط يمتلك الشيء الذى يبحث هو عنه ولا يجده . ومع ذلك لم ينتظر ليسمع الجواب . لقد كان مضطربا مرتبكا .

وربما يكون بيلاطس قد تقدم بسؤاله هذا بروح السخرية ، ولكنها سخرية المرارة واليأس .

هذا هو بيلاطس . لقد جابه شخص المسيح ، فأثار فى نفسه أحاسيس ومشاعر ما كانت موجودة من قبل . لقد فتح عينيه على حقائق أعظم فى الحياة ، فرأى ما ينقصه ، ولقد كان ممكنا أن ينال كل ما يفتقر إليه ، ولكن لم تكن لديه الشجاعة ليتحدى ماضيه ، ويتحدى مستقبله ، ويتحدى الجموع ، ويقف ثابتا إلى جوار يسوع البرىء ، وهكذا ضاعت منه الفرصة إلى الأبد . .

يسوع أمام بيلاطس

(يوحنا ١٨ : ٢٨ — إلى ١٩ : ١٦)

فى الصفحات السالفة تأملنا فى صورة الجماهير التى أحاطت بيسوع أثناء محاكمته . فتأملنا فى الوالى الرومانى ، والظروف التى أحاطت به ودفعته للإستسلام لليهود . والآن نأتى إلى الشخصية الرئيسية فى هذه الدراما — إلى يسوع المسيح نفسه — هنا نرى صورة « يسوع » تميزها أكثر من لمسة فنية رائعة . .

١ — **قبل كل شىء لا يوجد إنسان يقرأ القصة المماثلة أمامنا إلا ويقر بجلال يسوع وسموه** . هنا نرى الحاكم يمثل فى قفص الأتهام ، والأسير يتخذ مكان القضاء . إن يسوع المتهم يقف ليدين بيلاطس الوالى . لقد تعامل بيلاطس بروح الإحتقار مع أكثر من واحد من اليهود . ولكن لم يتصرف هكذا مع يسوع — إننا إذ نقرأ القصة التى أمامنا ، لا يسعنا إلا أن نقر بأن يسوع هو الذى يقف على الأرض الصلبة ، وأن بيلاطس هو الذى تهتز الأرض تحت قدميه . إن يسوع يملك موقفه ، أما بيلاطس فهو يتخبط فى حيرة ، فى قضية أقحم فيها ولا يدرى لها بداية ولا نهاية . إن جلال يسوع لم يشع بسناء يخطف الأبصار قدر ما نراه هنا أمام البشر يحاكم فى قفص الإتهام .

٢ — **وهنا نسمع يسوع يتحدث إلينا بكل صراحة عن ملكوته** . وملكوته ليس ملكوتا ماديا . إنه ليس من هذه الأرض وإلا كان أتباعه يجاهدون حتى لا يسلم سيدهم للأعداء . ولقد كان الجو مكهربا فى أورشليم ، وعلى الأخص فى فرصة تجمع القريب والبعيد فى المدينة المقدسة ، شأن عيد الفصح . وكان الرومان يعلمون ذلك . ولهذا السبب كانوا يرسلون قوات إضافية إلى

أورشليم . ولكننا نقول استناداً إلى حقائق تاريخية ثابتة أن مجموع أفراد العسكر الذين كانوا تحت إمرة بيلاطس فى كافة ربوع فلسطين ما كان يزيد عن ثلاثة آلاف جندى . وكان لا بد أن تبقى حامية منهم فى قيصرية حيث مقر الوالى . وجزء آخر كان لا بد وأن يعسكر فى السامرة لحفظ النظام هناك بحيث لايتبقى من هؤلاء وأولئك أكثر من بضع مئات يرافقون بيلاطس فى زيارته لأورشليم أثناء فرصة العيد . فلو أراد يسوع أن يثير شغباً ويرفع لواء التمرد والعصيان . . لو أراد أن يستدعى أتباعه ، فتبرز إلى الوجود الأحقاد الكامنة فى الصدور لتسعى لتحقيق الأحلام العريضة . . . . لو أراد أن يقود ثورة مسلحة ضد الرومان لتم له ذلك بكل سهولة ، ولكان النجاح حليفه وخاصة فى أورشليم فى عيد الفصح — هذا إذا لم نضع فى اعتبارنا قوة يسوع المعجزية التى عبر عنها بقوله أنه يستطيع أن يستدعى إثنى عشر جيشا من الملائكة للوقوف فى صفه ، إنه جاء ليبسط سلطانه على الوجود بأسره ؛ إلا أنه أكد للوالى أيضا أن ملكوته لا يبنى على سلطان القوة والسلاح ، ولكن على المحبة . . على قلوب البشر . إنه لم يقل لبيلاطس بأنه لم يأت ليفرض سلطانه . ولكن قال بأن الطريق الذى سيتبعه طريق جديد . . إنه طريق المحبة .

٣ — وهنا يخبرنا يسوع عن الهدف الرئيسى الذى من أجله جاء إلى العالم . ويقول لهذا جئت إلى العالم لأشهد بالحق . لقد جاء ليشهد بالحق عن البشر ، وجاء ليشهد بالحق عن الحياة .

إن عهد الصور والرموز وأنصاف الحق قد ذهب للأبد . لقد حان الوقت ليعرف العالم الحق جليا واضحا فى ملء قوته . لا يوجد طريق وسط فإما أن يقبل الإنسان الحق أو يرفضه . والمسيح هو الحق .

٤ – وهنا نرى صورة من شجاعة يسوع الجسدية البطولية ، فلقد أمر الوالى جنوده فقاموا بتنفيذ حكم الجلد عليه .

وكانت طريقة الجلد أن يربط الإنسان إلى عامود قصير : بحيث يصبح ظهره العارى منحنيا . أما السياط فقد كانت من سيور من جلد مقواة بقطع من الرصاص والعظام المسننة، فإذا نزلت على الجسد تمزقه فى خطوط متراصة . قليلون هم الذين كانوا يتحملون عذاب الجلد ويبقون أحياء . فمعظم الضحايا كان يموت تحت الجلدات . والبعض كان يفقد عقله . ولكن يسوع بقى ثابتا للنهاية دون أن تصعد منه أنة واحدة .

ويقتاده بيلاطس للشعب وهو غارق فى دمائه . ويشير إليه قائلا: «هوذا الإنسان». وهنا نرى يوحنا يقدم لنا إحدى الكلمات التى تحمل معنيين ولقد كان هدفه إيقاظ روح العطف فى قلوب الجماهير ، فيقول لهم وهو يشير إلى يسوع . .

« هوذا الإنسان . . أنظروا إلى جسده الدامى . .

تطلعوا إلى ما وصل إليه من ألم وشقاء . ألا يكفيكم هذا ؟ . . ألا يشبع قلوبكم ؟ هل تصرون بعد كل هذا أن تدفعوه إلى الموت ؟ » . ولكن حتى فى محاولته استعطاف الجماهير . . حتى فى نغمته التى تبدو فى روح التأثر والألم ، نستطيع أن نكتشف صورة جديدة . . . نستطيع أن نصغى إلى نغمة مخالفة ، نستطيع أن نرى بريق الدهشة يشع من أنظاره ، والإعجاب يملأ قلبه وعقله . إن الكلمة التى استخدمها بيلاطس « هوذا الإنسان » ترد فى الأصل اليونانى على هذه الصورة « هو أنثروبوس » وهى تطلق على إنسان بشرى عادى . ولكن لم يمض وقت طويل حتى كانت نفس الكلمة، يستخدمها مفكرو الأغريق، للدلالة على الإنسان الإلهى . الإنسان

المثالى . . الإنسان الكامل . . مثال الرجولة . إننا مهما قلنا عن يسوع . . مهما تحدثنا عنه أو لم نتحدث .

فإن بطولته تبدو أمامنا منقطعة النظير .

هنا أمامنا الرجل . . الرجل الكامل .

يسوع أمام بيلاطس

(يوحنا ١٨ : ٢٨ إلى ١٩ : ٥٦)

٥ — ومرة أخرى نرى فى محاكمة يسوع وفى حكم الموت عليه، ترتيب الله السابق. مرة واحدة نستمع إلى بيلاطس يلجأ لتهديد يسوع . وهو ليس تهديداً بقدر ماهو إنذار أو تحذير . فبيلاطس يحذر يسوع بأن لديه السلطان أن يطلق سراحه أو أن يصلبه .

ويسوع يجيبه بأنه لا سلطان له عليه بالمرة لو لم يكن قد أعطى من الله . إن أعجب ما فى قصة موت يسوع ، أن بطلها من البداية إلى النهاية : لايظهر أمامنا وكأنه أخذ على غرة . . . وكأن الظروف هى التى أحاطت به فجأة وتحكمت فى مصيره . وكأنه دفع دفعا إلى الصليب والموت . إن القصة تنفى ذلك . إن يسوع لم يكن ضحية كيد خفى انتهى إلى اغتياله . إنه من البداية إلى النهاية، سيد الموقف ، يسير بخطوات ثابتة إلى هدف محدد هو الصليب .

٦ — وهنا يرسم لنا يوحنا بريشته لمسة رائعة رهيبة لصمت يسوع . فهو يصل إلى حد أنه يرفض فيه الإجابة على أسئلة الوالى المتلاحقة .

هناك مواقف أخرى آثر فيها رب المجد الصمت . فنحن نراه صامتا أمام رئيس الكهنة (راجع إنجيل متى ٢٦ : ٦٣ ، ومرقس ١٥ : ٥) .

ونراه يصمت فى جلال وإباء أمام هيرودس (لو ٢٣ : ٩)، ونراه يلزم الصمت أيضاً إزاء اتهامات اليهود التى وجهت إليه أمام بيلاطس (متى ٢٧ : ١٤ مرقس ١٥ : ٥) .

وفى بعض الأحيان نختبر شيئاً نظير هذا . . فقد تجمعنا الظروف مع فرد أو جماعة . ويدور بيننا نقاش حول موضوع من المواضيع . وأخيراً نكتشف أننا ندور فى حلقة مفرغة ، وأنه لاجدوى من استمرار النقاش فنصمت . إنهم لا يشاركوننا الرأى ، وليسوا على استعداد أن يسلموا بالحق الذى نتمسك به . إننا لا نفهمهم وهم بالتالى لا يفهموننا ، وكأننا وهم نتكلم بلغات مختلفة متباينة . إن مقاييسنا تغاير مقاييسهم . ومثلنا تختلف عن مثلهم ، وأفكارهم تنأى بعيداً عن أفكارنا .

هذا يحدث بالفعل حينما تكون هناك فجوة روحية عميقة فاصلة . فجوة لا يمكن أن نعبرها إليهم ، ولا يمكن أن يتجاوزوها إلينا .

وهكذا كان يسوع أمام بيلاطس . . وهكذا اضطر يسوع إلى الصمت أمام بيلاطس .

شىء رهيب حقا أن يصمت يسوع ، شىء رهيب أن يهمل يسوع إنسانا فيؤثر الصمت أمامه . إن هذا معناه أن حالته قد أثبتت فشلا ذريعا أمام طبيب النفوس . . . أنه لم يعد هناك أدنى أمل فيه . وأن يسوع قد نفض يديه منه للأبد . هذا يعنى أن ذلك الإنسان قد احتمى بحصن كبريائه وغروره وذاتيته، بحيث لم يعد هناك رجاء فى الوصول إلى أعماق كيانه . ويالها من صورة تعيسة مبكية .

٧ ـــ وفى قصة المحاكمة أيضاً كما تصورها لنا البشارة الرابعة : نستطيع أن نرى مواقف درامية نلمس فيها السخرية اللاذعة كما أظهرها أكثر من مرة قلم البشير يوحنا .

فالمشهد يختتم بالوالى وهو يخرج يسوع خارجاً . إلى الموضع الذى يقال له البلاط ، وبالعبرانية جباثا ، وربما سمى كذلك إشارة إلى مربعات البلاط المرمرى التى كانت تغطى أرضيته . وهناك يتخذ بيلاطس مكانه على كرسى القضاء . أما ذلك الكرسى فقد كان يعرف بلقب « البيما » حيث يصدر الحاكم أحكامه النهائية . والفعل « جلس » وفى الأصل « كاتزيين » ، يحتمل أن يعنى أمرين . . يحتمل أن يعنى أن يجلس الإنسان بنفسه ، أو أن يجلس سواه . وربما ، ولو أن هذا الاحتمال بعيد ، أجلس بيلاطس يسوع فى مكان القضاء ، وهو لابس ثوبه القرمزى ، ثوب السخرية ، وعلى رأسه إكليل الشوك ، والدماء تقطر من جبينه ، ربما قام بيلاطس بإجلاس يسوع فى مكانه ، وإمعاناً فى الهزء من اليهود ، أشار إليه وهو يقول « أأصلب ملككم ؟ » . ويقول إنجيل بطرس ، وهو أحد الأناجيل غير القانونية ، أن بيلاطس أجلس يسوع فى كرسى القضاء ، وهو يقول « أحكم بالحق ياملك إسرائيل ! ! » . ويقول يوستينوس الشهيد إنهم أجلسوا يسوع على كرسى الحكم وقالوا له : « أحكم لنا » .

ربما يكون هدف بيلاطس السخرية من اليهود ، فى إظهار ملكهم بهذه الصورة ، وربما يكون هدفه السخرية من يسوع . ولكن ما أروع ما انقلبت هذه الصورة الساخرة لترسم لنا نبوة عظمى ، وحقاً مجيداً ، إن ما قصده هزءاً وسخرية كان الحق بعينه . ويوما ما ، سينظر أولئك الذين سخروا منه إلى يسوع عينه ، وهو يجلس على كرسى القضاء ليدين الشعوب .

وهكذا نرى فى هذه المحاكمة المسرحية جلال يسوع . نرى شجاعته، نرى قبوله للموت الرهيب بكل ثبات .. نرى تسليمه لإرادة الآب .. ونرى صورة ساخرة درامية، تنقلب إلى نبوة ، وترسم لنا حقيقة عظمى . أن يسوع لم يكن ملكيا . أكثر منه ، وهو يرتدى الثوب القرمزى ، ولم يكن رب التاج ، أكثر منه ، وهو مكلل بأكليل الشوك .

يسوع وبيلاطس

(يوحنا ١٨ : ٢٠ إلى ١٩ : ١٦)

تأملنا فى الشخصيات الرئيسية فى محاكمة يسوع . فهناك اليهود بأحقادهم ، وهناك بيلاطس بماضيه الذى يقيده ويتحكم فى تصرفاته ؛ وهناك يسوع بجلاله ومجده الملكى . ولكن هناك شخصيات جانبية قامت بدورها الثانوى على مسرح المحاكمة . ونحن نريد أن نفرد لها بعض السطور : ..

١ ــ **فهناك جند الرومان :** وحينما أسلم إليهم يسوع ليجلدوه، انتهزوا الفرصة ليشبعوا نفسياتهم السمجة الفظة بالسخرية منه قدر المستطاع . فهو ملك . إذا لنبحث له عن ثوب ملكى يليق به . وتاج يتوج رأسه . أما الثوب فقد وجدوه فى رداء قرمزى قديم ، لعله كان يستخدم فى المسارح للأدوار التمثيلية . أما التاج ، فقد اكتشفوه فى أعواد نبات شوكى يكثر فوق تلال فلسطين ، ضفروا منه إكليلا وتوجوه به . أما العرش فقد أحضروا كرسيا وأجلسوه عليه . أما الصولجان ، فكان عوداً من الغاب . وكانوا يمرون أمامه ساجدين ساخرين هاتفين : « السلام ياملك » . ثم يلطمونه على وجهه : لقد كانوا يلعبون لعبة سخيفة كانت سائدة فى القديم .

يحدثنا المفكر فيلو عن صورة قريبة الشبه جدا من هذه ، كان يلعبها رعاع

الإسكندرية قديما فيقول : « هناك إنسان معتوه يدعى كاراباس ، كان مصابا بنوع من الجنون الهادىء . هذا المعتوه اعتاد أن يذرع طرقات المدينة ليلا ونهاراً ، وهو يسير على غير هدى مجرداً من ثيابه كما ولدته أمه ، وقد أحاط به الصبية والكسالى يضايقونه ويحصبونه بالحصى .

وأحياناً كانوا يتخذونه هدف ألعابهم . وحدث أنهم دفعوه يوماً إلى الجمناز يوم أو الملعب . وأجلسوه على مكان عال حتى يراه الجميع . ثم أتوا بسلخة من لحاء الشجر ، وصنعوا منها غطاء لرأسه ، وبطنفسة عتيقة أحاطوا جسده . أما الصولجان ، فقد وجدوه فى عود من أعواد البردى ملقى فى الطريق ، أخذوه ووضعوه فى يمينه . وبعد أن كملت زينته كملك فى مسرحية ساخرة أسرعت مجموعة من الشبان تحمل العصى الطويلة ، لتصطف عن يمينه وعن يساره وكأنها حرس الشرف . ثم تقدمت البقية الواحد بعد الآخر ، أحدهم يقدم له شكواه ، والآخر يسأله العفو عن إساءة أو جرم وكأنه يحكم فى مصائر شعبه . ثم هتف الجميع أمامه قائلين « مارين » ، وهى اللفظة السورية لكلمة ملك ، نفس الصورة التى تبدو أمامنا فى معاملة الجند الرومان ليسوع .

وبالرغم من كل هذا نقول ، إن دورهم كان ثانويا . وأنهم رغم فظاظتهم وقسوتهم ، أقل الكل مسئولية وجرما . فهم لايدرون ماذا يفعلون . أمامهم أسير يهودى تدينه أمته ، ويطالب إخوته بدمه فمن يدرى ؟ لعه قد ارتكب معصية أو جريمة يستحق من أجلها الموت . إن معظم أولئك الجند أتى من أماكن بعيدة كمدينة قيصرية وغيرها ، ولم يسمع قط عن يسوع . لقد كان الأسير الماثل أمامهم ، واحداً من الأسرى الذين يقدمون إلى المحاكمة بين الحين والحين ، ويتم فيهم تنفيذ حكم الموت . وكانوا يجدون متنفساً لأحقادهم الكامنة ضد اليهود ، فى السخرية منهم .

وهنا نرى إحدى الصور الدرامية الساخرة ، التي يقصد البشر بتصويرها أكثر من صورتها الحالية . لقد انقلب الموقف الساخر إلى حقيقة ساخرة . لقد صنع الجند من يسوع صورة كاريكاتورية للملك . وبهذا أقروا بملكه العظيم ، الشامل . فوراء السخرية كان الحق العظيم الأبدى .

يسوع أمام بيلاطس

(يوحنا ١٨ : ٢٨ - ١٩ : ١٦)

٢ — وأخيرا لم يبق على خشبة المسرح ، صورة جديرة بالتأمل ، عدا شخصية باراباس ويوحنا لا يخبرنا إلا القليل عن باراباس . وعن عادة إطلاق أحد الأسرى أو السجناء فى عيد الفصح ، لا نعرف شيئا أكثر مما تخبرنا به البشائر ، والبشائر الثلاث الأخرى ، تقدم لنا لمسات قليلة أخرى للصورة . فإذا جمعنا هذه وتلك ، نستطيع أن نعرف أن باراباس كان أسيرا أثيرا لدى الشعب ، وأنه كان من قطاع الطرق . وأنه اشترك فى فتنة وشغب فى المدينة ، وأنه ارتكب جريمة قتل . (راجع متى ٢٧ : ١٥ — ٢٦ ، مرقس ١٥ : ٦ — ١٥ ، لوقا ٢٣ : ٦٧ — ٢٥ ، أعمال الرسل ٣ : ١٤) .

أما لقب باراباس ، فهو يستحق التأمل . فهناك احتمالان لما يعنيه هذا اللقب . فقد يكون مكونا من مقطعين « بار » ومعناه ابن و « آبا » ومعناه أب ، فهو « ابن أبيه » . وربما يعنى الاسم « بار بان » أو ابن المعلم الجد . وليس بعيدا أن يكون باراباس ابن واحد من الأحبار المعروفين ، انحرف عن التعليم ، وضل طريقه . أو ربما يكون ابن واحد من الذين اختلطت فى أعماقهم روح الثورة والتمرد بالأحلام الوطنية ، فأصبح فى نظر الشعب زعيما ، شأنه شأن « روبين هود » الثائر ، الذى كان يعيش مع رجاله فى الغابة ،

معتمدا على ما يجمعه من الأثرياء بالرضى أو التهديد ، حتى أصبح شخصية معروفة نسجت حولها الأساطير فى الأدب الإنكليزى .

ومن المهم لدينا ، ألا نرى فى باراباس صورة لص منازل أو نشال فى الطريق العام . لقد كان قاطع طريق ، يجمع حوله أتباعه ، ويجنح إلى المناطق الجبلية . وإحدى الكلمات الواردة عنه فى الأصل « لستس » تعنى هذا . وربما كان ميدان عمله طريق أريحا الجبلى بمنحنياته الكثيرة ومغاوره . وربما كان المسيح يقصده فى مثله الشهير ، عن السامرى الصالح .

بل لعله ارتفع فى نظر الشعب ، كما أشرنا ، إلى مقام الزعيم الوطنى الثائر ، من طائفة الغيورين ، الذين أقسموا أن يحرروا بلادهم من نير الرومان ، بكل وسيلة من الوسائل ، بالسيف ، بالنار ، بالسلب ، بالنهب ، بالقتل .

فهو لم يكن مجرما رخيصا . لقد كانت مغامراته ، تحيطه بهالة من الاحترام والتقدير فى نظر الشعب .

ولكن هناك ما هو أكثر من هذا عن اسم باراباس . فهو على ما يبدو ليس اسما أصيلا ، إنه اسم ثان . لقد كان لقبا له كما لقب سمعان بلقب بطرس . وهناك نسخ قديمة من العهد القديم كالسريانية ، واليونانية ، والأرمينية تعطى باراباس لقب « باراباس يسوع » . هذا ليس بعيد الاحتمال لأن اسم يسوع كان شائعا فى ذلك الوقت . إن يسوع هو الترجمة اليونانية للاسم العبرى يشوع . إن كان الأمر كذلك يكون هتاف الجماهير على هذا النحو .. « ليس يسوع الناصرى ، بل يسوع باراباس » . هتاف له رنين .

ولقد كان اختيار الجماهير اختياراً أبدياً . كان باراباس رجل القوة والبطش والدماء .. الرجل الذى اختار طريق العنف للوصول إلى مطامعه . أما يسوع الناصرى، فقد كان إنسان المحبة والعطف الذى لا نصيب للعنف فى قلبه ، والذى أسس ملكوته فى قلوب الناس . ومن المؤسف أن نقول : إن العالم كله منذ بداية التاريخ حتى نهاية الدهر : ما زال يسير فى ركاب باراباس . . ما زال يؤمن بالعنف .. والبطش .. والنار .. وبسفك الدماء للوصول إلى أغراضه . ولم يعرف بعد طريق يسوع الناصرى .

أما ما حدث لباراباس بعد ذلك ، فلا أحد يعرف[1] .

ولكن الكاتبة الروائية مارى كوريللى تقدم لنا صورة خيالية رائعة ليست بعيدة الاحتمال . فهو يسير فى موكب الصليب . ويشاهد يسوع الناصرى يرفع فى المكان الذى كان ينبغى أن يرفع هو فيه . . فى فيهتف فى انكسار « إن قلبى ينكسر معك أنا المجرم الخاطىء » . بعد هذا يشرق عليه النور شيئا فشيئا . حتى يصل إلى صبح اليقين والإيمان الكامل ، فيهتف باسم يسوع الناصرى . ويحقد عليه رئيس الكهنة ، فيدبر له مؤامرة تنتهى بالقبض عليه ، وإلقائه فى السجن رهن المحاكمة وفى صباح اليوم المعين لمحاكمته ، يفتح السجان باب الزنزانة ليجده جثة هامدة .

لقد كان فى التقاء صورة يسوع مع باراباس فى يوم المحاكمة التاريخية أكثر من مادة للتأمل ، وأكثر من مادة للوعظ والتبشير .. إنه نور الصبح ، يلتقى وجها لوجه مع ظلام الليل الرهيب .

---

(١) للاستمتاع بلمسات رومانتيكية رائعة يستطيع القارىء أن يراجع قصة « باراباس » للمعرب .

لم تكن هناك فى العالم القديم ميتة أقسى ولا أشنع من ميتة الصليب . فقد كان الوقت الذى يستغرقه المصلوب حتى تنتهى حياته ، طويلا بالنسبة لأية ميتة أخرى ، وكان العذاب قاسيا . بل إن الرومان أنفسهم كانوا ينظرون إلى ميتة الصليب برعب ورهبة . يقول «شيشرون» خطيب الرومان إن الصلب هو ألعن الميتات قسوة ووحشية . ويتحدث عنه تاكتوس فيقول إنه موت لا يعبر عنه بالكلمات .

ولقد بدأ الصلب كطريقة للإعدام بين الفرس . كانت الأرض مقدسة طاهرة ، أطهر من أن تنتجس بجسد مجرم أو قاتل . ولذلك كانوا يعلقون المجرم فى الهواء ، مسمرين إياه على الصليب . ويتركونه يموت هناك ، وتقوم الطيور الجارحة والنسور بعد ذلك بنهش لحمه . وعن الفرس انتقل إلى أهل قرطاجة . ومن القرطاجيين انتقل إلى الرومان .

ولكن الصلب ما كان عقوبة تسرى على أى رومانى ، مهما ارتكب من جرائم . لقد كان عقاب العبيد ، وعقاب سكان المستعمرات . فما كان المجتمع الرومانى يتصور رومانيا معلقا على الصليب . يقول شيشرون : « إنه لجرم أن يقيد مواطن رومانى .. وجرم أكبر أن يجلد .. وجرم أشد شناعة أن تزهق روحه . فكم بالحرى أن يعلق على صليب ؟ . إن عملا مثل هذا لا يمكن أن تصفه كلمات . لأنه لا توجد كلمات يوصف بها »

هذا هو الموت . والموت الذى كان أقسى ما يخشاه إنسان فى العالم القديم .. موت سكان المستعمرات ، والمجرمين والعبيد . هو الموت الذى قاساه يسوع .

ولقد كان روتين الصلب واحدا لا يتغير . فبعد أن تثبت إدانة المتهم

ينطق القاضي بالحكم الرهيب : « إبس آد كروسيم » — مصيرك إلى الصليب وفى الحال يبدأ موكب الصليب ، فلا فترة تفصل بين الحكم والتنفيذ .

كان يحيط بالمتهم أربعة من الجند، وهو يحمل صليبه فى طريقه للموت . وغالباً ما كان يجلد قبل تنفيذ الحكم .

فإذا انتهت عملية الجلد ، وما أقساها ، حمل صليبه وأسنده الجنود، وهو سائر على قدميه وعلى ظهره الحمل الرهيب . وأمامه كان يسير ضابط يحمل لافتة، سطرت عليها الجريمة التى انتهت به إلى الإعدام . أما موكب الصليب، فقد كان ينبغى أن يمر فى أكبر عدد ممكن من طرقات المدينة . لسببين . . السبب الأول ، كان الاعتبار والتخويف لكل من تسول له نفسه الخروج على القانون . وقد كانت الصورة المهينة والمصير الرهيب، ورؤية أكبر عدد ممكن من الناس للمحكوم عليه ، رادعاً لكثيرين ليتجنبوا مصيره ، ووازعاً للخضوع والاستسلام .

ولكن كان هناك سبب آخر رحيم : أنه قد يكون هناك شاهد فى صف المتهم لم يأخذ خبراً بالحكم عليه فيتقدم للدفاع عنه وربما انتهى ذلك إلى تخفيف الحكم عليه .

ولقد كان مكان الإعدام خارج أورشليم، فى موضع يقال له « مكان الجمجمة » وبالعبرانية « جلجثة » وباللاتينية « كلفارى» ومنها انتقلت إلى الإنكليزية . وكان الناموس يحتم أن يكون مكان الإعدام خارج المدينة، لأنه لا ينبغى أن يدق الصليب ، وينفذ الحكم على الأرض المقدسة .

ونحن لا نستطيع على وجه التحديد أن نعرف الموضع . هناك أكثر من سبب تقدم به المؤرخون لتحديد المكان الذى يلقب بالجمجمة

والسبب الذى من أجله أطلق هذا الإسم عليها . هناك تقليد قديم يقول إن جمجمة آدم مدفونة فى هذا الموضع لذلك أطلق عليه هذا اللقب . واقتراح آخر يقول إن جماجم الذين حكم عليهم بالموت من أجيال طويلة كانت تنتشر هناك، لكن هذا بعيد الاحتمال، لأن القانون الرومانى، بالرغم من انه كان يسمح بترك المصلوبين معرضين للشمس والهواء لتنتهى حياتهم بالجوع والعطش وتلوث الجروح، وقد يستغرق ذلك أياماً ، إلا أن القانون اليهودى، كان يحتم ألا تغرب الشمس على المصلوبين . بل ينبغى أن تنتهى حياتهم ، وتدفن أجسادهم قبل حلول المساء ـ بحسب القانون الرومانى كانت تلقى الجثث لتلتهمها الطيور الجارحة ،والوحوش الكاسرة والكلاب المسعورة . ولكن هذا كان محرماً بحسب الناموس اليهودى . وأية بقعة فى اليهودية، ما كان يمكن أن تترك فيها جماجم مكشوفة فى العراء .

من المنطقى جداً أن نسلم بما اقترحه البعض ، أن تلة الجلجثة ،أخذت لقبها الشهير ، بسبب منظرها الذى يشبه الجمجمة . ولقد كان اسماً على مسمى .

وهكذا سار «يسوع» فى طريق الآلام حاملا صليبه ، بقدميه العاريتين المنزفتين ، وظهره الذى تنزف دماؤه ، ورأسه المكلل بالشوك ، إلى ساحة الموت الرهيب .

فى الطريق إلى الصليب

فَخَرَجَ وَهُوَ حَامِلٌ صَلِيبَهُ إِلَى ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِى يُقَالُ لَهُ مَوْضِعُ ٱلْجُمْجُمَةِ وَيُقَالُ لَهُ بِٱلْعِبْرَانِيَّةِ جُلْجُثَةُ حَيْثُ صَلَبُوا ٱثْنَيْنِ آخَرَيْنِ مَعَهُ مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَا وَيَسُوعُ فِى ٱلْوَسْطِ

وَكَتَبَ بِيلَاطُسُ عِنْوَاناً وَوَضَعَهُ عَلَى ٱلصَّلِيبِ. وَكَانَ مَكْتُوباً يَسُوعُ ٱلنَّاصِرِيُّ مَلِكُ ٱلْيَهُودِ. فَقَرَأَ هٰذَا ٱلْعِنْوَانَ كَثِيرُونَ مِنَ ٱلْيَهُودِ لِأَنَّ ٱلْمَكَانَ ٱلَّذِى صُلِبَ فِيهِ يَسُوعُ كَانَ قَرِيباً مِنَ ٱلْمَدِينَةِ. وَكَانَ مَكْتُوباً بِٱلْعِبْرَانِيَّةِ وَٱلْيُونَانِيَّةِ وَٱللَّاتِينِيَّةِ. فَقَالَ رُؤَسَاءُ كَهَنَةِ ٱلْيَهُودِ لِبِيلَاطُسَ لَا تَكْتُبْ مَلِكُ ٱلْيَهُودِ بَلْ إِنَّ ذَاكَ قَالَ أَنَا مَلِكُ ٱلْيَهُودِ. أَجَابَ بِيلَاطُسُ مَا كَتَبْتُ قَدْ كَتَبْتُ.

(يوحنا ١٩ : ١٧ - ٢٢)

فى هذه الفقرة أمران يجدر بنا ملاحظتهما ..

أما الأمر الأول، فيختص بنص الجريمة كما أثبت فوق الصليب . لقد كان مكتوباً بلغات ثلاث : العبرية لغة اليهود ، واليونانية لغة التجارة

والمعاملات ، واللاتينية، لغة السلطات الرومانية. هذه اللغات الرئيسية الثلاث، ترمز لحضارات ثلاث ، وأمم ثلاث . وكل من هذه الأمم ، كان لها دورها الذى لعبته على مسرح التاريخ ، ونصيبها الذى أسهمت به فى توجيه الفكر الإنسانى . أما اليونان فقد أرهفوا مشاعر الإنسانية للتأمل فى جمال المادة، وجمال الفكر على السواء ، أما الرومان فقد علموا العالم أصول الشرائع ، وأساس الحكم الصائب ، أما أمة العبرانيين فقد قدمت للإنسان الدين الحق ، وعبادة الإله الواحد .

وهذه المفاهيم كلها وجدت فى يسوع .

ففى يسوع تجسم جمال الله ، وفكر الله ..

وفيه تمثل جمال ناموس الله ، وملكوت الله ..

وفيه تمثل دين الله ، وطريق الله .. .

إن كل مجهودات البشرية وسعيها الدائب للوصول إلى الكمال، قد وجدت تحقيقها فى يسوع ، جميل أن تجد اللغات الثلاث ، بل الحضارات الثلاث، بل الأمم الثلاث التى ترمز للعلم أجمع، تنادى به ملكا ، وتكتب هذا وترفعه وتعلنه على رؤوس الأشهاد .

ومما لا شك فيه، أن بيلاطس قصد بالذات أن يذل اليهود ويكسر كبرياءهم ، حينما وضع ذلك العنوان على تلك الصورة فوق صليب يسوع. لقد هتفوا على التو :

إنه لا ملك لهم سوى قيصر . لقد رفضوا أن يكون يسوع ملكا عليهم. وإذا بالوالى بروح السخرية ، يضع الأمور فى وضعها الصحيح . فتثور

ثائرة زعماء اليهود ، ويدقون بابه طالبين أن ينزع اللافتة التى ثبتها على الصليب ، أو أن يغير كلماتها . أما هو ، فيرفض بإباء ويقول «ما كتبت قد كتبت». هل نرى فى هذا الموقف إنسانا يفيق لنفسه ؟ هل نرى فيه موقف إنسان نادم على تخاذله ، فهو يريد أن يعوض عما جبن فيه وضعف؟ هل نرى فيه صورة لبيلاطس العنيد، الذى لا يلين لتهديد ؟ إن بيلاطس هذا عينه ، هو الذى انحنى أمام العاصفة ، ولم يجسر أن يقاوم ثائرة اليهود على يسوع . لقد وقف متأرجحاً بين هل يصلبه أو يطلقه . . . هل يرضى اليهود أم يرضى ضميره . وأخيراً داس على ضميره واستسلم . لقد بدا ثابتاً حينما كتب ، تهمة المصلوب ، ومهتزاً أمام قرار الصليب !

هذه صورة من المتناقضات العجيبة، التى قد تبدو فى حياتنا . إننا كثيراً ما نتشبث بأمور قد لا تهمنا فى كثير ، ونضعف فى مواقف أخرى غاية فى الأهمية بالنسبة لنا ولغيرنا . كثيراً ما تتحجر أقدامنا ، ولا نريد أن نتزحزح قيد شعرة عن تفاهات لا قيمة لها ، ونستسلم فى تخاذل لتصرف نكسر فيه أسمى نواميس الحياة .. لو كان بيلاطس أظهر مثل هذا العناد والتشبث فى الحكم على يسوع ... لو كان قد وقف ثابتاً أمام ثائرة أعدائه ، لحسب فى التاريخ ضمن الأبطال العظماء . ولكنه حين ضعف فى المواقف الكبرى ، وتمسك كطفل عنيد بموقفه فى الأمور الأصغر ، جلل اسمه العار . ولقد كان بيلاطس الرجل الذى أفاق لنفسه أخيراً ، ولكن بعد أن غرقت السفينة ، وضاع كل شىء من يديه .

ما أحوجنا أن نحترز لأنفسنا من مثل هذا المصير ؟

ما أحوجنا إلى أن نثبت أقدامنا فى طريق الواجب ، ونقف إلى جوار الحق مهما هبت علينا العواصف والأعاصير .. ما أحوجنا إلى تقدير الأمور تقديراً صائباً ووضع أهم الأشياء فى رأس القائمة ؟

ثُمَّ إِنَّ ٱلْعَسْكَرَ لَمَّا كَانُوا قَدْ صَلَبُوا يَسُوعَ أَخَذُوا ثِيَابَهُ وَجَعَلُوهَا أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ لِكُلِّ عَسْكَرِيٍّ قِسْماً . وَأَخَذُوا ٱلْقَمِيصَ أَيْضاً . وَكَانَ ٱلْقَمِيصُ بِغَيْرِ خِيَاطَةٍ مَنْسُوجاً كُلُّهُ مِنْ فَوْقُ . فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لَا نَشُقُّهُ بَلْ نَقْتَرِعُ عَلَيْهِ لِمَنْ يَكُونُ . لِيَتِمَّ ٱلْكِتَابُ ٱلْقَائِلُ ٱقْتَسَمُوا ثِيَابِي بَيْنَهُمْ وَعَلَى لِبَاسِي أَلْقَوْا قُرْعَةً . هٰذَا فَعَلَهُ ٱلْعَسْكَرُ

(يوحنا ١٩ : ٢٢ - ٢٤)

رأينا مما سبق أن المتهم كان يساق إلى مكان الإعدام ، محوطا بأربعة من العسكر . ولقد كانت ثياب المتهم من نصيب الذين تقع عليهم نوبة العمل فى ذلك اليوم .

وكان لباس اليهودى يتكون من خمسة أنواع من الثياب . فهناك الأحذية ، والعمامة ، والمنطقة ، والثوب الداخلى ، والرداء الخارجى — خمسة أشياء وأربعة من الجند . فكانوا يقامرون لتوزيع الحاجيات ، ليأخذ كل نصيبه ، وما تبقى كانوا يقترعون عليه . وهكذا بعد أن أخذ كل واحد من العسكر نصيبه ، بقى اللباس الداخلى منسوجا كله بدون

خياطة . فمحاولة تمزيقه إلى قطع أربع كان يجعله بلا منفعة . وهكذا اقترعوا عليه لمن يكون — صورة تبدو غريبة منفرة فى مشهد الموت والدماء وعويل النساء .

هناك أمور كثيرة نستخلصها من الصورة الماثلة أمامنا ..

١ — يتساءل الواحد هل هناك مشابهة بين أولئك الجند الذين يلقون بالزهر فى توقع المجهول ، وبين ما عمله يسوع ؟ لقد كان الجند مقامرين ، وكان يسوع مغامرا . ونكاد نقول إن هناك أكثر من وجه شبه بين المقامرة والمغامرة . ففى كلا الحالتين يلقى الإنسان بكل ما لديه فى سبيل توقع ربح أعظم . لقد وضع يسوع حياته وكل ماله على مذبح الإخلاص والطاعة للآب ... أكاد أقول قامر بحياته على الصليب . لقد كان الصليب آخر شوط لعبه فى مغامرته أو مقامرته ، ودفع فيه حياته ليكسب رضى الآب ، بل ليربح العالم كله ...

وللشاعر ستدرت كنيدى سطور بهذا المعنى يقول فيها :

« وراقبوه قابعين عند أقدام الصليب ...

« فى ذلك اليوم الرهيب ...

« يلقون زهرهم يقامرون فى صخب !

« وهو على الصليب ...

« يكابد الموت الكئيب ...

« يدفع عنا ديننا حتى نهاية الحياة ..

« دين الذنوب والآثام .

« وفى سبيلنا يقامر بكل ماله !

« حياته ودمه ،

« ألقى بها كالزهر فوق مسرح الآلام

« ليبعد الآثام .

« وقبل أن تغرب شمس ذلك اليوم الرهيب

« تتوج التلال بالشعاع القرمزى ،

« أدرك صاحب الصليب

« بأنه كسب الشوط الأخير

« بموته على الصليب !

وأنت أيها المؤمن بالمسيح ، عليك أن تعرف أنك دعيت لتكون مقامراً. فعليك بأن تلقى بذاتك ، وكيانك ، وكل مالك على مذبح التكريس ، لتكسب رضى الله ، ومحبته ، وأمجاده ، وخدمته .

٢ – ولا توجد صورة نظير هذه تصور لنا موقف العالم من المسيح . فالمشهد رهيب .. حزين .. دام . يسوع على الصليب ، والتأوهات تتصاعد من صدره . والدماء تقطر من جسده . والنسوة يبكين وينحن . والتلميذ الحبيب يحاول أن يعزيهن . وفى وسط هذه الصورة التى يحيطها إطار أسود ، يبدو الجنود بلباسهم العسكرى ، وخوذاتهم اللامعة ، وقد أسندوا سيوفهم إلى جوارهم ، وجلسوا على الأرض الصخرية ، وراحوا يقامرون ويسخرون ويقهقهون .

استوحى أحد الرسامين من هذا المشهد صورة معبرة ، يصور فيها يسوع مرفوعاً على الصليب ، مثقوب اليدين والقدمين ، دامى الجبين ،

منكس الرأس ، يتطلع فى حزن إلى الجموع فى إحدى مدننا العصرية ، أما الجماهير فهى تتزاحم ، وتتصارع ، بالأيدى والمناكب ، وعيونها إلى الأرض ، لاتكلف نفسها وسعاً ، أن ترفع أنظارها إلى المصلوب ، وتحت الصورة يكتب الرسام هذه الكلمات مستقاة من مراثى إرميا . « أما إليكم يا جميع عابرى الطريق ، تطلعوا وانظروا إن كان حزن مثل حزنى » (مراثى ١ : ١٢) .

إن جوهر المأساة يكمن ليس فى عداوة العالم ليسوع ، بل فى عدم اهتمام العالم بيسوع ... فى سلبيته الكاملة نحوه ، تلك السلبية التى تدفعه إلى عدم الاكتراث بمحبة الله .

٣ ــ وهناك أمران آخران يجدر بنا ملاحظتهما فى هذه الصورة ، هناك تقليد قديم يقول إن القميص أو الثوب الداخلى الذى اقترع عليه الجند لمن يكون ، نسجته العذراء المباركة نفسها وقدمته هدية لابنها الحبيب عند خروجه للخدمة . إن كان هذا التقليد صحيحاً ، ومن المرجح أنه صحيح ، فقد جرت العادة أن تقوم الأمهات اليهوديات ، بتقديم مثل هذه الهدية ، وعلى الأخص عندما يبدأ الابن حياته العملية ، إن كان هذا صحيحاً ، فإنه يضيف لمسة أخرى حزينة ، لصورة أولئك الجند الذين يقترعون على هدية أم لابنها فى غير اكتراث لمشاعرها .

٤ ــ هناك لمسة أخرى تبدو خفية غير واضحة . فذلك القميص يتحدث عنه البشير ، أنه كان منسوجاً كله بغير خياطة قطعة واحدة من أعلاه إلى أسفله . هذا الوصف ينطبق بالتمام على الثوب الداخلى المنسوج من كتان ، الذى كان يرتديه رئيس الكهنة . دعنا نذكر شيئاً عن وظيفة رئيس الكهنة . إن أهم شىء كان يقوم به ، هو أن يكون قنطرة العبور بين الإنسان وإلهه .

وكلمة كاهن في اللاتينية «بونتكس» معناها مقيم القنطرة أو بانيها ، إن وظيفة الكاهن أن يبنى قنطرة العبور بين الإنسان وبين الله .

ونحن لا ننكر أن الكاهن فى القديم كان وسيطاً بين الله والإنسان . ولكن لم تتمثل تلك الوساطة فى أسمى وأكمل صورها ، كما تمثلت فى يسوع المسيح . لم توجد قنطرة عبور بين الإنسانية وبين إلهها قدر ما كان المسيح ؛ فهو قنطرتنا ... وسيطنا .. رئيس كهنتنا الأكمل ، الذى بواسطته نصل إلى الله ، وفيه يتنازل الله لنا .

هنا نرى معنيين للصورة الواحدة ، كما اعتاد يوحنا أن يقدم لنا ذلك : معنى ظاهراً سطحياً ، ومعنى آخر ، أكثر عمقاً وخصوبة ودلالة . إن يوحنا حينما تحدث عن القميص الداخلى المصنوع من كتان ، المنسوج كله بدون خياطة من أعلاه إلى نهايته ، لم يكن يصف نوعاً من الثياب فحسب ، بل كان يريد أن يوجهنا إلى أن يسوع هو وسيطنا ، ورئيس كهنتنا الأعظم الذى يفتح الطريق أمامنا إلى الآب السماوى ، ونجد فيه الرضى والقبول والباب المفتوح .

٥ — وأخيراً نرى فى اقتسام الثياب ، والاقتراع على القميص أو الرداء إتماماً للنبوة القديمة ، فهو يرجع بنا إلى قول المرنم . . « يقتسمون ثيابى بينهم ، وعلى لباسى يقترعون » (مزمور ٢٢ : ١٨) .

محبة ابن

وَكَانَتْ وَاقِفَاتٍ عِنْدَ صَلِيبِ يَسُوعَ أُمُّهُ وَأُخْتُ أُمِّهِ مَرْيَمُ زَوْجَةُ كِلُوبَا وَمَرْيَمُ ٱلْمَجْدَلِيَّةُ . فَلَمَّا رَأَى يَسُوعُ أُمَّهُ وَٱلتِّلْمِيذَ ٱلَّذِي كَانَ يُحِبُّهُ وَاقِفاً قَالَ لِأُمِّهِ يَاٱمْرَأَةُ هُوَذَا ٱبْنُكِ . ثُمَّ قَالَ لِلتِّلْمِيذِ هُوَذَا أُمُّكَ . وَمِنْ تِلْكَ ٱلسَّاعَةِ أَخَذَهَا ٱلتِّلْمِيذُ إِلَى خَاصَّتِهِ

(يوحنا ١٩ : ٢٥ - ٢٧)

على أن يسوع لم يكن وحيداً فى لحظاته الأخيرة ، فعند صليبه كانت النسوة الأربع اللائى أحببنه ، ولقد رجح بعض المفسرين أنه فى تلك العصور ما كانت النساء بذات أهمية كبرى ، فكان يسمح لهن بالأقتراب من المحكوم عليهم بالموت ، دون أن يلحظ أحد ذلك أو يهتم به ، وهكذا لم يكن هناك من خطر على المريمات ، فى اقترابهن من صليب يسوع . هذا تفسير ضعيف ربما لايطابق تماما الحقيقة . فليس من المغفول ألا تهتم السلطات بأولئك الذين يقتربون من مذنب خطير ، أدانته الدولة وأصدرت عليه الحكم بموت الصليب وهو فى ساعات تنفيذ الحكم . فربما كان فى وجودهم ما يعطل تنفيذ حكم الموت ، وربما أعدوا العدة لاختطاف المصلوب قبل موته . إن وجود المريمات لم يكن بسبب أنهن بلا قيمة فلم يلحظهن أحد . إن سر وجودهن هو المحبة الكاملة التى لا تحسب حساباً للخطر .. المحبة التى تطرح الخوف إلى خارج .

وحينما نتأملهن ، نرى مجموعة غريبة متناقضة . وعدا مريم زوجة كلوبا التى لا نعرف عنها الكثير ، نستطيع أن نعرف شيئا عن الثلاثة الأخريات ..

١ ــ **فهناك العذراء المباركة المطوبة أم يسوع** . ولعلها لم تدرك شيئاً من كل ما يجرى أمامها ، لقد كانت مغلفة فى أحزانها ، حزينة على وحيدها : ويذوب قلبها أسى على النهاية المرة التى انتهى إليها . ولكنها لم تكن تفهم لماذا سارت الأمور هكذا مع يسوع ، فإن مريم لم تستطع أن تفهم ولكنها استطاعت أن تحب . . .

لقد كان وجودها أمراً طبيعياً كأم بجوار ابنها فى ساعاته الأخيرة ، قد يكون يسوع مجرماً فى عرف السلطات .

« لكنه ابنها وكفى ...

» يقول رديار كبلنج .

« لو علقونى فوق تلة المات .

« أماه ، يا أماه ... أنت لى .

« حبك لى بطيلة الحياة .

« لو أغرقونى وسط البحار .

« أماه ، يا أماه ... أنت لى .

« فدمك يهمى بلا انتظار .

« أماه ، يا أماه ... أنت لى .

« إذا مرضت ــ نفسى والجسد .

« يغمرنى حبك للأبد ...

« أماه ، يا أماه ... أنت لى .

إن محبة الأمومة . . المحبة الغامرة الفائضة المثالية تتمثل فى محبة الأم العذراء لابنها على الصليب .

٢ — وكانت هناك أخت أم يسوع . وفى بشارة يوحنا لا يذكر البشير اسمها — ولكننا لو درسنا القرينة الواردة فى (مرقس ١٥ : ٤٠ ، متى ٢٧ : ٥٦) نعرف أن اسمها سالومه أم ابنى زبدى يعقوب ويوحنا . ومن الأمور الغريبة التى نعرفها عن سالومه ، أن السيد اتجه إليها يوما بقول قاس موبخ . فلقد أتت إليه فى وقت من الأوقات . وطلبت طلبة خاصة لابنيها فى ملكوته العتيد . (متى ٢٠ : ٣٠) ، فإذا بيسوع يخبرها أنها ترفع ناظريها إلى قمة لاتدرى الصعوبات التى تعترضها فى الوصول إليها . فدونها صبغة ينبغى أن يصطبغ بها ولداها ، ودونها كأس ينبغى أن يتجرعاها حتى النهاية . لقد أخجلها يسوع أمام التلاميذ و مع ذلك جاءت عند الصليب . إن وجود سالومة له أكثر من دلالة بالنسبة لها ، وله أكثر من دلالة بالنسبة ليسوع ، إنه يظهر لنا أنها كانت تملك الروح الوديعة المتضعة التى تقبل التوبيخ دون أن يقلل هذا ذرة من محبتها ، وهو يظهر لنا أن يسوع قد يضطر أن يوبخ إنسانا بحيث أن محبته تشع حتى من كلمات توبيخه . إن وجود سالومة درس لنا فى كيف نعطى ، وكيف نأخذ ، كيف نقبل الإنذار بروح المحبة ، ولا يقلل هذا من محبتنا .

٣ — وهناك كانت مريم المجدلية . وكل ما نعرفه عن المجدلية أن يسوع أخرج منها سبعة شياطين ، (مرقس ١٦ : ٩ ، لوقا ٨ : ٢) ، إن فاتنة مجدل ذات التاريخ القديم والماضى الكئيب ، لا يمكن أن تنسى ما صنعه يسوع لها — لقد أنقذتها محبته ، ولذلك لم يكن غريباً « أن يفيض قلبها وعواطفها بمحبتها العميقة التى لا تخمد نيرانها ، وكأنى بها صار شعارها « كيف أنسى ذاك الذى أحبنى ! » .

وفى هذه الفقرة نرى لمسة من أجمل اللمسات التى تذخر بها قصة الإنجيل، فحينما يلمح يسوع أمه ، لم يستطع إلا أن يفكر فى الأيام القادمة الحزينة ، التى تنتظرها . وهناك إلى جوارها ، يشاهد يوحنا الحبيب ، وهو ابن خالته ، والتلميذ الذى كان يسوع يحبه ، فيستودع أمه لعنايته ، حتى يرعاها فى وحدتها ووحشتها . . . ويستودع يوحنا لرعايتها وعنايتها .

إن يسوع فى آلامه المرة ، فى النزع . . يسوع وهو يحمل على كتفيه خطايا البشرية ، ويحدد بموته مصيرها وخلاصها . . يسوع وهو يصارع الشيطان وقوات الشر ، فى معركته الأخيرة الرهيبة . . يسوع وهو يرى احتجاب وجه الآب عنه ، وينسحق قلبه بسبب ذلك . . . يسوع فى تلك الساعة الحاسمة ، يفكر فى أمه ، فى وحدتها ، ومصيرها بعد أن يتركها . إنه لم ينس الواجبات البنوية ، ولم يغب عن ناظريه منظر الأسرة والبيت ، إنه يفكر فى آلام الآخرين وأحزانهم ، أكثر مما يفكر فى آلامه وأحزانه .

نهاية ظافرة

بَعْدَ هٰذَا رَأَى يَسُوعُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ قَدْ كَمَلَ فَلِكَيْ يَتِمَّ ٱلْكِتَابُ قَالَ أَنَا عَطْشَانُ . وَكَانَ إِنَاءٌ مَوْضُوعاً مَمْلُوًّا خَلاً . فَمَلأُوا إِسْفَنِجَةً مِنَ ٱلْخَلِّ وَوَضَعُوهَا عَلَى زُوفَا وَقَدَّمُوهَا إِلَى فَمِهِ . فَلَمَّا أَخَذَ يَسُوعُ ٱلْخَلَّ قَالَ قَدْ أُكْمِلَ. وَنَكَّسَ رَأْسَهُ وَأَسْلَمَ ٱلرُّوحَ

(يوحنا ١٩ : ٢٨ — ٣٠)

هنا فى هذه الفقرة ، نأتى وجها لوجه أمام حقيقتين عن يسوع . .

١ — الحقيقة الأولى تظهر لنا آلام يسوع الجسدية . . فلقد عرف يسوع على الصليب مرارة العطش ، ونيرانه . — حينما كان يوحنا يكتب بشارته حوالى عام ١٠٠ بعد ميلاد يسوع ، ظهرت بدعة جديدة فى مجال الفكر الدينى والفلسفى، تعرف بالغنوسية ، وهى كلمة تعنى أصحاب المعرفة كما أطلقوا ذلك على أنفسهم .

وكان أحد أركان تعاليم الغنوسيين أن الروح كلها صلاح وخير ، وأن الجسد أو المادة منبع الشر .

وعلى أساس هذا الإيمان وصلوا إلى استنتاجات عديدة ، أحدها أن

الله الذى هو روح مطلق ، لا يمكن أن يتخذ لنفسه جسداً . . لا يمكن أن يولد بجسد لأنه لا اتفاق بين الروح والجسد . . لا لقاء بين منبع الخير ومنبع الشر . وهكذا نادوا ، بأن «يسوع» لم يكن له الجسد الحقيقى نظيرنا . لقد كان له شبه الجسد ، فيه تحدد مظهر الإله الروح وأصبح مرئياً للعيون . وعلى سبيل المثال قالوا ، إن يسوع حين كان يسير على الأرض ما كان يترك آثاراً لخطواته ، لأنه روح وجوهر فى جسد أشبه بصورة الأشباح . ثم نادوا بأن الله أسمى من أن يتألم وهكذا لم يشعر يسوع على الصليب بمرارة الألم . بل كان اختبار يسوع على الصليب دون ألم فعلى .

لقد كان الغنوسيون يظنون أنهم بهذا يكرمون الله وينزهونه عن أن يلد أو يولد أو يكون له كفواً أحد ، أو يتألم أو يقاسى مثلما نتألم نحن ونقاسى ، أو يجتاز فى اختبارنا الذى نجتازه . ولكن حقيقة الأمر أنهم كانوا بهذا يحطمون كيان يسوع ، ورسالته ، وهدفه . فإذا كان ليسوع أن يفتدى البشر ، فلابد وأن يصبح إنساناً ، لا بد وأن يهبط إلى مستوانا ، حتى يرفعنا إلى مستواه . . لا بد وأن يذوق مرارة أخطائنا وعقوبتها ، حتى ينقذنا من أخطائنا . لا بد أن يصير هو ما نحن عليه حتى نصير نحن ما هو عليه . لهذا السبب يؤكد يوحنا حقيقة عطش يسوع ، كصورة من آلامه الجسدية التى كابدها وعاناها وقاسى منها أكثر ما قاساه . إن يوحنا يؤكد لنا بهذا إنسانية يسوع . . رجولية يسوع . . حقيقة آلام يسوع .

٢ — الحقيقة الثانية تواجهنا بنصرة يسوع السرمدية حينما نقارن ما جاء بالبشائر بصدد صليب يسوع ، نجد حقيقة عظمى تظهر أمامنا . فالبشائر الثلاث التوافقية ، لاتخبرنا بأن يسوع قال « قد أكمل » ثم نكس رأسه وأسلم الروح . (متى ٢٧ : ١ — ٥ ، مرقس ١٥ : ٣٧ ، لوقا ٢٣ : ٤٦) .

ولكنها تخبرنا أن يسوع صرخ عند موته بصوت عظيم . ولكن يوحنا هو الوحيد الذى يخبرنا أن كلمات يسوع الأخيرة على الصليب كانت « قد أكمل » والتفسير الذى يفسر هذا التناقض الظاهرى هو أن كلمة « قد أكمل» كانت هى الصرخة العظيمة التى أسلم بها المخلص الروح . إنها بعينها صرخته المرتفعة . الجملة « قد أكمل » هى فى الأصل اليونانى مكونة من كلمة واحدة : « تيتلستاى » وقد كانت هى الكلمة التى نادى بها بصوت عظيم . إنه لم يهمس بها بانكسار من يجتاز وادى الهزيمة . لقد هتف بها بفرحة من كسب الإنتصار . لقد كان يسوع محطما على الصليب ، لكنه فى تحطمه كسب المعركة وانتصر على العدو . .

والجملة الأخيرة فى الفقرة التى أمامنا تظهر لنا ذلك بأكثر وضوح . فالبشير يقول إن يسوع قد نكس رأسه . و فى الأصل أسند رأسه ، كمتعب يسند رأسه على وسادة بعد رحلة شاقة مرة . إن المعركة بالنسبة ليسوع قد انتهت . . انتهت بالانتصار ، لقد عرف فرحة الانتصار ، وهتف هتاف الفوز ، واختبر راحة من أكمل واجبه وأدى رسالته ، واختبر الاكتفاء والسلام .

أمران آخران ينبغى ألا تفوتنا ملاحظتهما فى هذه الفقرة ، الأول أن صرخة « أنا عطشان » يرجع بها يوحنا إلى أصلها فى العهد القديم . . إلى المزمور التاسع والستين والعدد الحادى والعشرين من هذا المزمور حيث يرد القول « يجعلون فى طعامى علقما ، وفى عطشى يسقوننى خلا » .

إن آلام يسوع قد وردت بروح النبوة على لسان الأنبياء القدامى قبل وقوعها بمئات السنين . . والأمر الثانى ، نلاحظ فيه صورة للمعانى الخفية التى تتكرر بين سطور البشارة . يقول البشير إنهم ملأوا الإسفنجة خلا ،

ورفعوها على عود من أعواد نبات الزوفا إلى شفتى المصلوب. ولقد اعترض بعضالبن تبأبات الزوفا، وهو عشب لا يزيد فى ارتفاع عوده عن قدمين ، لا يصلح لأن يحمل شيئاً . وأن الكلمة ربما تكون ترجمة خاطئة لرمح أو حربة . ولكننا نعتقد أن يوحنا كتب عن الزوفا ، وهو يقصد بالفعل نبات الزوفا .

حينما نعود مئات السنين إلى الوراء ، إلى أول ليلة فصح فى تاريخ الأمة اليهودية ، حينما كان إسرائيل على وشك الخروج من مصر أرض العبودية ، نذكر كيف أن ملاك الرب كان مزمعاً أن يطوف فى الليل فى أرض مصر حاملا سيفه المهلك ليقتل الأبكار . ونذكر أيضاً كيف أن الرب أوصى شعبه المختار أن تذبح كل أسرة حمل الفصح ، وترش دمه على العتبة العليا والقائمتين حتى إذا رأى ملاك الموت علامة الدم ، يعبر عنها ولا يمسها بضرر . وكانت الوصية على هذا النحو . . « وخذوا باقة زوفا ، واغمسوها فى الدم فى الطست ومسوا العتبة العليا والقائمتين بالدم الذى فى الطست وأنتم لا يخرج أحد منكم من باب بيته إلى الصباح .

فإن الرب يجتاز ليضرب المصريين ، فحين يرى الدم على العتبة العليا والقائمتين، يعبر الرب عن الباب ، ولا يدع المهلك يدخل بيوتكم ليضرب » (خروج ٢١ : ٢٢ ، ٢٣) لقد كان فى الدم سر النجاة لشعب الرب ، وفى دم يسوع ، أساس الخلاص والنجاة من الخطية ومن الغضب الإلهى . إن مجرد ذكر نبات الزوفا ، كان يرجع بخيال اليهودى إلى دم حمل الفصح . . حمل النجاة . وهكذا يريد البشير أن يوجه أنظارنا بهذه اللفتة الخفية إلى ما نادى به يوحنا المعمدان فى مستهل إرسالية يسوع حينما هتف وهو يشير إليه « هوذا حمل الله الذى يرفع خطية العالم » (يوحنا ١ : ٢٩) .

الماءُ والدم

ثُمَّ إذْ كَانَ ٱسْتِعْدَادُ فَلِكَيْ لَاتَبْقَى ٱلْأَجْسَادُ عَلَى ٱلصَّلِيبِ فِي ٱلسَّبْتِ لِأَنَّ يَوْمَ ذٰلِكَ ٱلسَّبْتِ كَانَ عَظِيماًسَأَلَ ٱلْيَهُودُ بِيلَاطُسَ أَنْ تُكْسَرسِيقَانُهُمْ وَيُرْفَعُوا . فَأَتَى ٱلْعَسْكَرُ وَكَسَرُوا سَاقَيِ ٱلْأَوَّلِ وَٱلْآخَرِ ٱلْمَصْلُوبِ مَعَهُ . وَأَمَّا يَسُوعُ فَلَمَّا جَاءُوا إِلَيْهِ لَمْ يَكْسِرُوا سَاقَيْهِ لِأَنَّهُمْ رَأَوْهُ قَدْ مَاتَ . لٰكِنَّ وَاحِداً مِنَ ٱلْعَسْكَرِ طَعَنَ جَنْبَهُ بِحَرْبَةٍ وَلِلْوَقْتِ خَرَجَ دَمٌ وَمَاءٌ . وَٱلَّذِي عَايَنَ شَهِدَ وَشَهَادَتُهُ حَقٌّ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ لِتُؤْمِنُوا أَنْتُمْ . لِأَنَّ هٰذَا كَانَ لِيَتِمَّ ٱلْكِتَابُ ٱلْقَائِلُ عَظْمٌ لَايُكْسَرُمِنْهُ . وَأَيْضاً يَقُولُ كِتَابٌ آخَرُ سَيَنْظُرُونَ إِلَى ٱلَّذِي طَعَنُوهُ

(يوحنا ١٩ : ٣١ - ٣٧)

بخصوص عقوبة الصلب ، نستطيع أن نقول إن اليهود إلى حد ما ، كانوا أكثر رحمة من الرومان— فحين يكون الصلب تحت إشراف الرومان ، كانوا يتركون المصلوب ليموت ببطء على صليبه ؛ حتى ولو استغرق الأمر أياماً .

فقد يكون المصلوب قوى البنية ، فيبقى أياماً معرضاً لحرارة الشمس فى النهار ، وقسوة البرد فى الليل ، والجوع يعذبه ، والعطش المحرق يجففه ، وجراحه من أثر الجلد والمسامير الصدئة تتقيح وتتعفن ، والذباب والحشرات تجد فيها مرتعاً خصيباً ، لقد كان الصلب فترة رهيبة مرة قاسية ، ولا غرابة أن يخبرنا المؤرخون أن كثيرين من المصلوبين ، كانوا يفقدون عقولهم ، ويموتون وهم يهرفون ..

فإذا انتهت حياة الضحية التعسة ، كانوا يلقون بالجثة للكلاب المسعورة ، والطيور الجارحة ، دون أن يقوموا بدفنها .

ولكن القانون اليهودى ما كان يبيح مثل هذا الموت الوحشى . ونحن نقرأ فى سفر التثنية الأصحاح الحادى والعشرين ، والعددين الثانى والعشرين والثالث والعشرين « إذا كان على إنسان خطية حقها الموت فقتل وعلقته على خشبة ، فلا تبت جثته على الخشبة بل تدفنه فى ذلك اليوم ، لأن المعلق ملعون من الله ، فلا تنجس أرضك التى يعطيك الرب إلهك نصيباً » . وفى سفر المشنا ناموس الكتبة نقرأ « كل من يترك جثة لتبقى ليلة ، يتعدى الوصية » ، ولقد أعد السنهدريم عدته لذلك ، فكانت هناك مقبرتان لمن لا يدفنون فى قبور آبائهم . وعند صلب يسوع ، كانت الفرصة مساء سبت الفصح . وكان الأمر يقتضى عدم بقاء الجثث دون دفن ، لأن ذلك السبت كان عظيما عند اليهود .

ولقد كان اليهود يتبعون طريقة بدائية لإنهاء حياة المصلوبين . كانوا يقومون بكسر سيقانهم مراراً حتى يموتوا .

وهكذا كان تصرفهم مع اللصين اللذين صلبا مع يسوع :

ولكن يسوع كان قد أسلم الروح ، فأعفى من تلك الرحمة الوحشية أو الضربة الرحيمة كما كانوا يلقبونها .

ويرى البشير فى ذلك التصرف أيضاً ، إتماماً للنبوة القديمة القائلة « عظم منه لا يكسر » (عدد ٩ : ١٢) بل إن حمل الفصح نفسه ماكانت تكسر عظامه . كانوا يأكلون لحمه مشوياً على أعشاب مرة دون أن يكسر عظم منه . وهنا نرى إشارة أخرى إلى أن يسوع هو حمل الفصح الإلهى الذى يرفع خطية العالم .

ثم تتبع ذلك حادثة غريبة . فبعد أن رأى الجند أن «يسوع» قد مات ، تقدم واحد منهم ورفع رمحه ،وطعن به الجسد ، ولعله فعل ذلك ليتأكد أن المصلوب قد انتهت حياته بالفعل ، وللوقت سال دم وماء . ويعلق البشير أهمية خاصة على هذا الحادث ، فهو إتمام لنبوة قديمة نادى بها زكريا قديماً فى نبواته ، فى الأصحاح الثانى عشر والعدد العاشر .. وينظرون إلى الذى طعنوه .. ثم يضيف الكاتب أنه شهد بعينيه هذه الواقعة ويؤكد صدقها وصحتها .

قبل كل شىء دعنا نصور لأنفسنا ما حدث .

ونحن لا نستطيع أن نفهم بالضبط من أين أتى الدم والماء ، ولكن من المحتمل جداً أن الظروف الإستثنائية الأليمة التى اجتازها يسوع ، قد أدت إلى انفجار جدار القلب .

إننا نعرف أن الميت لايدمى ، فالدم يتجمد فى عروقه ، ولكن يسوع اجتاز فى آلام نفسية وجسدية مروعة ؛ فضلا عن الإرهاق الذى عاناه فى جثسيمانى فى الليلة السابقة ، والسهر المتواصل ، والمحاكمات المضلة المذلة ، كل هذه كان لها أثرها فى انكسار قلبه الكريم ؛ ولقد وردت النبوة عنه على

لسان كاتب المزمور التاسع والستين والعدد العشرين « العار كسر قلبى » ، يقول علماء التشريح . إن انفجار جدار القلب يؤدى إلى تدفق الدم واختزانه خلف الحجاب الحاجز . وسرعان مايتخثر إلى كتلة دموية ، منكمشاً عن المصل أو السيرم الذى يحيط به . فحين اخترق الرمح جنب المسيح . مزقت الطعنة الحجاب الحاجز ، فسال الدم ومعه المصل المائى . وهناك رأى آخر يقول : إن سن الرمح وصل إلى القلب نفسه ، فمزق الغشاء الخارجى الذى يحوى الماء ونفذ إلى حجرات القلب ، فتدفق الدم والماء .

وسواء كان هذا أو ذاك ، لماذا يصر البشير على تأكيد هذه الحقيقة ؟ ربما كان ذلك لسببين ..

١ ــ السبب الأول ، أن يوحنا كما أسلفنا كتب بشارته فى وقت ظهرت فيه بدعة الغنوسيين.
وهو بذلك يريد أن يؤكد أن يسوع كان إنساناً حقيقياً ، وأن جسده كان جسداً فعلياً . هذا هو رد البشير على أولئك الذين ينادون بشبه الجسد . أو الجسد الشبح .. وهذا أصدق دليل على أن يسوع كان عظماً من عظمنا . ولحماً من لحمنا .

٢ ــ ولكن بالنسبة ليوحنا ، كان هناك فى ذلك الحادث ماهو أكثر من إثبات ناسوت المسيح . لقد رأى فى ذلك رمزاً لسرين عظيمين من أسرار الكنيسة . أحدهما يبنى على الماء ونعنى به سر المعمودية ، والآخر يقوم على أساس الدم ، سر العشاء الرمزى أوكما يلقب بالعشاء الربانى . فالكأس التى تحوى النبيذ الأحمر ترمز للدم ، إن ماء المعمودية هو العلامة والرمز ، لنعمة الله المطهرة فى يسوع المسيح ، أما النبيذ فى فريضة التناول فهو رمز لدم المسيح الذى يسفك عن كثيرين لمغفرة الخطايا ، إن الماء والدم اللذين سالا من جنب

يسوع المطعون هما إشارة إلى رمز الغسل فى فريضة المعمودية ، ورمز الدم المطهر الذى نتناوله فى صورة النبيذ فى عشاء الرب . لقد رأى يوحنا في تلك الحادثة علامة ورمزاً وإشارة إلى عملية تطهير الحياة بنعمة المسيح ، وعملية غفران الخطايا بالدم المقدس .

أشواك وزهور في بستان الجلجثة (١)

« وكان فى الموضع الذى صلب فيه بستان .. »

(يوحنا ١٩ : ٤١)

ولن يضيرنا أن نقف وقفة تأملية أخرى أمام آية من الآيات الذاخرة التى تذخر بها البشارة الرابعة ، فالبشير يصور لنا الموضع الذى قاسى فيه يسوع الموت فى صورة بستان – بستان فى موضع الموت . إشراقة الحياة أمام غروبها . صورة رائعة تجمع المتناقضات .

كان الوقت بداية الربيع . ولا ريب أن البستان كان يزدهر بالزهور المتفتحة . ولا ريب أنه عن قرب منه ، بين شقوق الصخر ، كانت تنمو الأشواك . وليس ببعيد أن الأشواك التى ضفر منها الإكليل الذى توج به يسوع ، أخذت من هناك . فلم تكن الجلجثة تبعد كثيراً عن دار الولاية . وأمام هذه الأشواك والزهور ، نريد أن تكون لنا وقفة تأملية ، ففيها أكثر من رمز يشير إلى حقائق عظمى .

١ – ولعل أول الرموز التى تشير إليها الأشواك ، أنها تذكرنا بقساوة البشرية . هنا نقف وجهاً لوجه أمام الجريمة الأعظم فى تاريخ البشرية –

---

(١) هذا التأمل للمعرب

جريمة صلب يسوع ، لقد جاء ابن الله إلى خاصته ، وخاصته لم تقبله — برسالة المحبة ، برسالة الخدمة ، برسالة السلام ، برسالة الرجاء ، جاء إلى أمته . أما هم فكما قال لهم رسول الختان : « طلبتم أن يوهب لكم رجل قاتل ورئيس الحياة قتلتموه » (سفر الأعمال ٣ : ١٤ ، ١٥) ألا تنطبق عليهم المرثاة التي رفعها السيد عند اقترابه من أورشليم ؟ « يا أورشليم ، يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها » (متى ٢٣ : ٣٧) إن تلة الجلجثة تنادي بأعلى صوت معلنة قساوة قلب الإنسان .

٢ — الرمز الثاني الذي ترمز إليه الأشواك ، هو مرارة الخطية . هنا الأساس وراء القسوة والصليب والدماء . هنا الأساس خلف هتاف الجماهير ليس هذا بل باراباس . وكما يقول البشير « النور جاء إلى العالم » والنور يوبخ .. يكشف .. يعلن . لذلك لا غرابة إن « أحب الناس الظلمة أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة . لأن كل من يفعل السيئات يبغض النور ولا يقبل إلى النور لئلا توبخ أعماله » لا غرابة أن يحاول الناس إطفاء النور . إن إنسان الخطيئة لابد وأن يهرب من إله القداسة ، لابد وأن يخشاه ، فإذا لم يكن بد من مواجهته ، تحول الخوف إلى عداوة ، وهجوم .

لماذا رفضت الجموع « يسوع » ، وهتفت باسم « باراباس » ؟ ألم يكن « يسوع » معبود الجماهير الذي هتفت له ، أوصنا . مبارك الملك الآتي باسم الرب .. (لوقا ١٩ : ٣٨) ؟ فلماذا تنمروا له بعد ذلك ؟ السبب أن الأمر اختلط عليهم في البداية ، لقد توقعوا أن يروا مثال . باراباس في « يسوع » ، فلما خاب ظنهم ، ارتدوا إلى مثالهم الحقيقي ، إن « باراباس » معبودهم منذ البداية ، وليس يسوع ، حقاً ما أقسى خطيئة الإنسان !

هناك قصة من أحداث الثورة الفرنسية تدور حول جماعة من الثائرين

هاجمت أحد النبلاء . وفى ساحة البيت ، رأى زعيم الجماعة صورة كبرى للعذراء المباركة . ووقف برهة فى تردد ، ثم ما لبث أن جثا أمام الصورة إلى الجدار وهو يقول : الآن أستطيع أن أفعل ما أريد .

وهذا ما حدث ليسوع . لقد كان صورة الله .. مجد الله .. قداسة الله .. محبة الله .. نور الله المعلن للبشرية . لذلك لم يكن من بد أن تهاجم الإنسانية ، التى تعيش فى ظلامها .. فى شرها .. فى حقدها .. هذا النور الكاشف الموبخ .

٣ — الرمز الثالث الذى نراه فى أشواك بستان الجلجثة يشير إلى العدالة الإلهية وليس هناك دليل أقوى من هذا الدليل الذى أمامنا ، يعلن لنا عدالة الله وبغضه للخطية . فالآب المحب لا يشفق على الإبن الحبيب ، لأنه قبل بأن يقف فى دائرة الخطية ، ويحمل وزرها وشناعتها ، وكما يقول النبى قديماً « استيقظ ياسيف على راعى ورجل رفقتى » ، إننا نقلل من سمو مقياس الله ، لأن مقاييسنا قاصرة ، ولكن إله القداسة ، لا يمكن أن يتهاون مع الخطية . وصليب يسوع أصدق دليل على ذلك .

٤ — وهذه الأشواك تشير إلى النهاية الحتمية . إن تلة الجلجثة هى تلة الموت فى صورتها فهى على شكل جمجمة ، فيما جعلت له ، فقد أصبحت ميدانا للإعدام ، فى القبور المتراصة إلى جانبها المنحدر ، فى الصلبان التى تغرز فى أرضها ، فى الدماء التى تلطخها . إن كل ما فى الجلجثة ، يشير إلى النهاية الحتمية للبشر . فقد وضع للناس أن يموتوا مرة ، وكما يقول « إغناطيوس ليولا » « لكل سؤال فى الحياة نستطيع أن نجيب بكلمة « ربما » إلا سؤال واحد : هل سأموت ؟ ما أقسى حتمية الموت فى حياة الإنسان ؟

يقول البشير : فى الموضع حيث صلب يسوع بستان . وما أقسى الأشواك التى تحيط بهذا البستان ، والتى تعلنها لنا تلة الجلجثة ، بصورها الرهيبة .

أشواك وزهور فى بستان الجلجثة

(يوحنا ١٩ : ٤١)

ولكن هناك من الجانب الآخر زهور يانعة متفتحة على تلة الجلجثة.. زهور ترمز إلى أكثر من حقيقة .. هناك تقليد يهودى يقول ، إن الله أرسل إلى العالم بعد سقوط الخليقة ملاكين ، الواحد إسمه ملاك النقمة ، والثانى ملاك النعمة . فحيثما زرع الأول شوكاً أنبت الثانى فى الشوك ورداً ؛ وحيثما زمجر الأول بغضب فأرعدت السماء ، وتصبب السيل ، رسم الثانى قوس قزح على صفحة السحاب الأسود .

وقد تكون النقمة تمثلت فى عهد الناموس ، عهد سيناء بضبابه ، وبروقه ، ورعوده ، ونيرانه . ولكن النعمة تمثلت فى عهد النعمة . . فى إشراق رب النعمة فى شخص المسيح المبارك .

على تلة الجلجثة صدمتنا الأشواك فمزقتنا . وعلى تلة الجلجثة أيضاً جابهتنا الزهور اليانعة فأحيت فينا ميت الرجاء ..

١ — **فهناك وردة الفداء :** وهى وردة حمراء بلون الدم . لأنها من دم المسيح نبتت ، وفى دمه ترعرعت وتفتحت . « الذى فيه لنا الفداء بدمه غفران الخطايا » . فما كان لنا أن نفتدى من ماضى الخطية ، وسلطانها ، ولعنتها ، ، وأبديتها ، لولا فداء المسيح الذى تم على صليب الجلجثة .

هناك قصة خيالية لأوسكار وايلد، خلاصتها أن أميرا اشتاق أن تكون له وردة . وكان الفصل شتاء . وكان للأمير صديق : بلبل جميل . فذهب البلبل إلى شجرة الورد التى لا تملك إلا الأوراق ، وأسر إليها بطلب الأمير . وطلبت الشجرة منه أن يأتى فى ظلام الليل ، ويلصق صدره بأحد أشواكها وطار البلبل إليها . ونفذت الشوكة إلى قلبه . وراح يغرد ويغرد ، والشوكة منغرسة فى قلبه، تمتص منه دماء الحياة . واستمر على هذا النحو حتى بذل آخر قطرة من دمه فسقط جثة هامدة . بينما انتفخت الشوكة وتفتحت عن وردة حمراء يانعة .

هنا نرى صورة لما قدمه يسوع للبشرية على تلة الجلجثة ، لقد نفذت شوكة الخطية إلى صدره ، ومزقت قلبه . لكنه قدم للبشرية بديلا عنها ، وردة الفداء المباركة .

٢ — وهناك بنفسج الصفاء : وسلام الله لابد وأن يأتى بعد فداء الله . إن الإبن الذى نال الفداء بدم المسيح ، وتحرر من لعنة الخطية وقصاصها، لابد وأن يختبر سلام الله الذى يفوق كل عقل . لقد زالت الغيوم ، وانقشعت السحب ، وأشرقت شمس البر والشفاء فى أجنحتها . « يرفع الرب وجهه عليك ويمنحك سلاما » .

٣ — وإلى جوار هذه تنمو زنبقة النقاء : زهور الزنابق البيضاء تشير على الدوام إلى القداسة . إلى النقاوة . ونقاوتنا وقداستنا هى فى ذاك الذى صار لنا من الله براً وقداسة وفداء .

وفى الصليب تقدم إلينا المسيح ببره الكامل ليستر عرينا . وكما قال أحد القديسين القدامى ، لقد تعرى بالكلية على الصليب ليكسونا بثوب بره .

٤ — وهناك زهرة رابعة إسمها نرجس العزاء : وأى عزاء لنا فى آلامنا . وتجاربنا . وأمراضنا ، وأحزاننا . إلا أن نتمثل حبيبنا يسوع ، وقد سار قبلنا فى وادى الدموع والألم . وعرف تجاربنا وضيقاتنا ؟ « لأنه فيما هو قد تألم مجربا يقدر أن يعين المجربين » .

٥ — وهناك آخر الكل زهرة الرجاء : وقد تكون هذه الزهرة كامنة لم تتفتح بعد فى تلة الدماء والصليب والموت . ولكن بعد يومين اثنين ، شقت طريقها لتستقبل أشعة الشمس . وبظهورها أصبح لنا ملء الرجاء فى الإنتصار على الموت والهاوية .

والآن تعال أيها العزيز لمن فداك ، وقدم له الأشواك التى بين يديك ، إنه على استعداد أن يتحمل لعنّتها ومرارتها ليعطيك ورود الفداء ، والنقاء والرجاء ، والحياة الأفضل . هل تأتى إليه ؟

الهدايا الأخيرة ليسوع

ثُمَّ إِنَّ يُوسُفَ ٱلَّذِي مِنَ ٱلرَّامَةِ وَهُوَ تِلْمِيذُ يَسُوعَ وَلٰكِنْ خُفْيَةً لِسَبَبِ ٱلْخَوْفِ مِنَ ٱلْيَهُودِ سَأَلَ بِيلَاطُسَ أَنْ يَأْخُذَ جَسَدَ يَسُوعَ . فَأَذِنَ بِيلَاطُسُ فَجَاءَ وَأَخَذَ جَسَدَ يَسُوعَ . وَجَاءَ أَيْضاً نِيقُودِيمُوسُ ٱلَّذِي أَتَى أَوَّلاً إِلَى يَسُوعَ لَيْلاً وَهُوَ حَامِلٌ مَزِيجَ مُرٍّ وَعُودٍ نَحْوَ مِئَةِ مَناً . فَأَخَذَا جَسَدَ يَسُوعَ وَلَفَّاهُ بِأَكْفَانٍ مَعَ ٱلْأَطْيَابِ كَمَا لِلْيَهُودِ عَادَةٌ أَنْ يُكَفِّنُوا .

فَهُنَاكَ وَضَعَا يَسُوعَ لِسَبَبِ ٱسْتِعْدَادِ ٱلْيَهُودِ لِأَنَّ ٱلْقَبْرَ كَانَ قَرِيباً

(يوحنا ١٩ : ٣٨ – ٤٠)

وهكذا أسلم «يسوع» الروح على صليب الجلجثة . واقتضى الأمر العمل بسرعة على إنزال الجسد عن الصليب ، وإعداده للدفن ، حيث أن السبت كان قريبا ، ولا ينبغي القيام بأي عمل في السبت ، فكم بالحرى تداول جسد الميت. ولكن اعترضت الأمر مشكلة، فجميع الذين حول يسوع فقراء

لا تمكنهم مواردهم الضئيلة من أن يقوموا بتكاليف الحنوط ، وقد كان غاليا ، والدفن ، ولم تكن هناك مقبرة خاصة — هنا يتقدم اثنان لينقذا الموقف .

وأول الإثنين كان «يوسف الرامى» ، فقد كانت له مقبرة منحوتة فى الصخر ، كان إنساناً عظيماً ، وعضواً فى مجلس السنهدريم . وكان تلميذاً ليسوع ، ولكن خفية بسبب الخوف من اليهود . والثانى « نيقوديموس » . ولقد جرت العادة حينذاك ، كما لا تزال سارية الآن ، أن يلف جسد الميت بكتان أبيض مشبع بالأطياب ، الحنوط . وهكذا أحضر «نيقوديموس» معه ما يكفى لهذه المناسبة ويزيد .

لقد قدم «يوسف الرامى» القبر ، وقدم «نيقوديموس» الثوب الذى يلبسه الضيف الجديد ساكن القبر .

وفى هذه الفقرة نلمس المأساة ، كما نرى الأمجاد يلتقيان معاً ...

١ — فهناك عنصر المأساة : لقد كان «نيقوديموس» ، كما كان «يوسف الرامى» تلميذين ليسوع فى الخفاء . وكانا عضوين فى مجمع السنهدريم مجمع اليهود الأعلى ، الذى يضم ممثلين من كبار الفريسيين ، والكهنة ، والذى حوكم المسيح أمام أعضائه . فإما أن نفترض أن « يوسف الرامى » وزميله اعتذرا عن الحضور ، أو أن نقول إنهما لزما الصمت طيلة المحاكمة . وكم كانت تكون لفتة عظيمة لو ارتفع صوت واحد بين الأصوات الثائرة المعادية مدافعاً عن «يسوع» . وكم كان الفارق يبدو كبيرا لو تطلع يسوع فرأى وسط أمواج الحقد والعداء ، وجها واحداً يشع بالمحبة والإخلاص ! ولكن الخوف تملك قلب « نيقوديموس» كما ساد على «يوسف الرامى» ، فنكسا رأسيهما ولم ينطقا بكلمة .

حتى أتت فرصة موت« يسوع » ، فظهر الإثنان ليكرما جسد صديق انتهت حياته !

صورة مؤسفة ولا شك !

لكن ألا يحدث معنا أن نتنكر لواحد من معارفنا فى الحياة ، ثم يدفعنا الندم إلى إكرامه بعد الوفاة ؟ كم كانت كلمة طيبة ، أو وقفة شجاعة إلى جوار «يسوع» فى محنته أفضل من حنوط غالى الثمن ، وأكفان ثمينة ، وقبر يليق بجسد ملك ؟ إن زهرة واحدة تقدم فى الحياة ، أفضل من عشرات « الكورونات » النفيسة التى تلقى على قبر ميت . . . كلمة واحدة من كلمات المحبة والشكر والمشاركة العطوفة ، أفضل من المراثى البليغة والقصائد الرنانة التى نهتف بها أمام نعش يضم الجسد الساكن .

٢ – **ولكن هناك تكمن الأمجاد** : إن موت يسوع قد صنع ليوسف ، ولنيقوديموس مالم تصنعه حياة «يسوع». فما أن أسلم «يسوع» الروح على الصليب ، حتى تبددت المخاوف ، وأسرع الاثنان إلى دار الوالى يطلبان الجسد، ليقدما له الإكرام الواجب . لقد انتهى عهد الجبن ، والخوف ، والتردد ، والحكمة الجسدية . والتوارى خلف جدار الحرص والحذر . إن جميع الذين دفعهم الخوف إلى التستر عن العيون فى حياة «يسوع» قد وقفوا إلى جواره ، وأعلنوا اسمه ، ونادوا به ، بعد أن انتهت حياته بالجسد ، نعم لقد تنبأ السيد قبيل موته بالنبوة القائلة « وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إلى الجميع » (يوحنا ١٢ : ٣٢) . ولم تمض ساعة واحدة بعد موته على الصليب ، إلا وتحققت تلك النبوة . ربما يكون «نيقوديموس» قد شعر بالمرارة والألم ، لتغيبه أو صمته عن الدفاع عن « يسوع » . ولكن

الصليب عمل عمله فى أعماق كيانه . وهكذا عرف كيف يطرح الخوف إلى خارج .

إن جاذبية الصليب عملت عملها فيه . والمعجزة تمت فى أعماقه . وقوة الصليب حولت الخائر المتردد الخائف ، إلى بطل شجاع ، لم يتردد فى السير فى طريق الواجب ، والوقوف إلى جانب معلم الأجيال .

وَفِي أَوَّلِ ٱلْأُسْبُوعِ جَاءَتْ مَرْيَمُ ٱلْمَجْدَلِيَّةُ إِلَى ٱلْقَبْرِ بَاكِراً وَٱلظَّلَامُ بَاقٍ فَنَظَرَتِ ٱلْحَجَرَ مَرْفُوعاً عَنِ ٱلْقَبْرِ . فَرَكَضَتْ وَجَاءَت إِلَى سِمْعَانَ بُطْرُسَ وَإِلَى ٱلتِّلْمِيذِ ٱلْآخَرِ ٱلَّذِي كَانَ يَسُوعُ يُحِبُّهُ وَقَالَتْ لَهُمَا أَخَذُوا ٱلسَّيِّدَ مِنَ ٱلْقَبْرِ وَلَسْنَا نَعْلَمُ أَيْنَ وَضَعُوهُ . فَخَرَجَ بُطْرُسُ وَٱلتِّلْمِيذُ ٱلْآخَرُ وَأَتَيَا إِلَى ٱلْقَبْرِ . وَكَانَ ٱلْاثْنَانِ يَرْكُضَانِ مَعاً . فَسَبَقَ ٱلتِّلْمِيذُ ٱلْآخَرُ بُطْرُسَ وَجَاءَ أَوَّلاً إِلَى ٱلْقَبْرِ وَٱنْحَنَى فَنَظَرَ ٱلْأَكْفَانَ مَوْضُوعَةً وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَدْخُلْ . ثُمَّ جَاءَ سِمْعَانُ بُطْرُسُ يَتْبَعُهُ وَدَخَلَ ٱلْقَبْرَ وَنَظَرَ ٱلْأَكْفَانَ مَوْضُوعَةً وَٱلْمَنْدِيلُ ٱلَّذِي كَانَ عَلَى رَأْسِهِ لَيْسَ مَوْضُوعاً مَعَ ٱلْأَكْفَانِ بَلْ مَلْفُوفاً فِي مَوْضِعٍ وَحْدَهُ . فَحِينَئِذٍ دَخَلَ أَيْضاً ٱلتِّلْمِيذُ ٱلْآخَرُ ٱلَّذِي جَاءَ أَوَّلاً إِلَى ٱلْقَبْرِ وَرَأَى فَآمَنَ .

لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا بَعْدُ يَعْرِفُونَ ٱلْكِتَابَ أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَقُومَ مِنَ ٱلْأَمْوَاتِ . فَمَضَى ٱلتِّلْمِيذَانِ أَيْضاً إِلَى مَوْضِعِهِمَا

(يوحنا ٢٠ : ١ - ١٠)

لا نجانب الصواب إن قلنا إن واحداً من التلاميذ أو البشر الذين عاصروا السيد لم يحب يسوع ، قدر ما أحبته مريم المجدلية . يخبرنا البشير لوقا أن السيد أخرج منها شياطين الخطية .

لقد صنع معها عملا عجيبا . ولذلك لا يمكن أن تنسى ما قدمه لها . إن التقليد يخبرنا أن تاريخ «مريم المجدلية» كان عفنا ملطخا بالآثام حين ظهر يسوع في حياتها ، فغفر لها وطهرها ، وقبلها في مراحمه .

ولقد جرت العادة بين اليهود ، أن يقوموا بزيارة قبر الميت ، لمدة ثلاثة أيام متتالية ، من يوم دفنه لأنهم كانوا يعتقدون أنه لمدة ثلاثة أيام كاملة تحوم روح الإنسان حول الجسد ، منتظرة عند باب القبر . حتى إذا هل اليوم الرابع ، تضل الطريق ولا تستطيع أن تتعرف على الجسد ، لأن عوامل الفساد تكون قد دبت فيه ، وغيرت سحنته .

وهكذا تغادر المكان أسيفة حزينة . ولم يستطع واحد من أصدقاء يسوع ، سواء من النسوة أم من التلاميذ ، أن يقوم بالزيارة التقليدية للقبر في يوم السبت . فقد كان هذا كسرا للناموس . وهكذا لم تجد «مريم المجدلية» بدا من الإنتظار على أحر من الجمر ، حتى تمر ساعات السبت . وفي فجر الأحد هبت مسرعة . والكلمة المترجمة باكرا هي في الأصل « بروى » وهي التعبير العلمي عن آخر حراسة ، من الحراسات الأربع التي يقسم لها الليل .

من الساعة الثالثة بعد منتصف الليل حتى الساعة السادسة . كان الظلام باقياً حين أتت المجدلية إلى القبر فلم تستطع الإنتظار .

وحين أتت إلى القبر ، أصابتها الدهشة البالغة ، فما كانت للمقابر فى القديم أبواب تغلق . لقد كان لها مجرى محفور أمام مدخلها ، وهذا المجرى كان يدحرج فيه حجر مستدير كحجر الرحى يغلق المدخل تماما .

ويخبرنا البشير متى ، أن السلطات اليهودية قامت بختم القبر ، حتى لا يقوم إنسان بتحريك الحجر وإزاحته (متى ٢٧ : ٦٦) .

وهكذا وقفت «مريم المجدلية» أمام القبر فى دهشة عظمى ، وهى تسأل نفسها من الذى امتدت يداه ، وقام بإزاحة الحجر من موضعه . ولعل خواطر شتى قد جالت بفكرها . ولعلها ظنت أن اليهود لم يكتفوا بقتل حبيبها على صليب العار ، فامتدت أيديهم إلى الجسد الساكن فى القبر ، للتمثيل به أشنع تمثيل . أو لعلها ظنت أن أيدى اللصوص أو العابثين قد امتدت إلى المكان ظنا منهم أن فيه ما يستحق السلب .

وكانت لحظة رهيبة لسيدة عزلاء ، تقف وسط المقابر فى رهبة ظلمة ما قبل الفجر ، وأمامها قبر مفتوح قد خلا من ساكنه . وهكذا رجعت مسرعة لتلتقى ببطرس ويوحنا . إن مريم مثال المحبة الذاهلة ، مثال الحب العنيد الواثق ، الذى يظل يحب ويحب ، ولا ينطفى لهيب محبته حتى لو هبت أعاصير المتاعب والشكوك . . حتى لو جابهتها ظروف لا تفهمها أو تصل إلى إدراكها . وهذا هو الحب الذى يصل إلى الأمجاد فى خاتمة المطاف .

الاكتشافُ الاعظم

(يوحنا ٢٠ : ١ – ١٠)

من اللمحات المشرقة فى هذه الفقرة ، أن بطرس استمر كما هو قائد جماعة الرسل ، ورائدها ، فإليه ذهبت المجدلية فى محنتها وحيرتها . إنه يحتل مركز الصدارة بالرغم من ضعفه وإنكاره لسيده ، ولابد أن قصته مع الخدم فى ساحة رئيس الكهنة ، قد وصلت إلى أكثر من أذن ، وتناقلها أكثر من فم . إننا كثيرا ما نتحدث عن ضعف بطرس .. عن جبنه .. عن بطرس المهتز المتأرجح كموجة البحر المهتزة المتأرجحة . وقد كان ممكنا أن حادثة مرة مذلة مثل إنكاره للسيد ، تقضى على مستقبله كتلميذ ، وتجعله ينزوى بعيدا فى ظلال الخزى والندامة . ولكن يبدو أن معدن بطرس كان من نوع صلب لا يلين . فها نحن نراه برغم سقطته يقوم على قدميه ، وينفض عنه الغبار ، ويدوس ضعفه وجبنه ، ويستعيد إشراقة الثقة والزعامة مرة أخرى . . . نعم لابد وأنه كان فى شخص بطرس ، ما يميزه عن الإنسان العادى ، حتى نرى إخوته يحنون له الرؤوس مرة أخرى . إن ضعف «بطرس» وانكاره ، كثيرا ما يطغى فى أنظارنا على جلاله ، وأصالة معدنه ، وقوة شخصيته ، وكونه ولد ليحتل مركز الزعامة والريادة بين الآخرين .. إلى « بطرس» هذا ومعه «يوحنا» الحبيب» ، ذهبت المجدلية ، وسرعان ما أسرع ثلاثتهم إلى القبر مسرعين . ونحن نتخيلهم وهم يتسابقون فى لهفة وشوق .

وفى هذا السباق المضنى ، استطاع « يوحنا » ، ويبدو أنه كان شابا صغير السن ، لأنه عاش حتى جاوز نهاية القرن الأول ، استطاع أن يسبق «بطرس» ويصل إلى القبر . وهكذا انحنى ، ونظر الأكفان موضوعة وجسد «يسوع» ليس هناك . ولكنه اكتفى بذلك .

أما بطرس ، فقد دخل إلى القبر ،وفحص المكان بدقة . وهو فى دهشة وذهول . وعند ذاك بدأ يوحنا يقلب الأمر من كافة نواحيه . فلو كان لصوص المقابر هم الذين قاموا بهذا العمل ، لما تركوا الأكفان فى موضعها ؟ وما قيمة جسد الميت بالنسبة لهم ؟ ثم إذا كانوا قد اهتموا بسرقة الجسد فكيف استطاعوا ذلك دون فك الأكفان ، وبعثرتها ؟ إن الكفن بقى كما هو ملفوفا بعناية . وكأنما سحب جسد « يسوع » منه ، كما تسحب القدم من الجورب . والكلمة فى الأصل تظر الأكفان موضوعة كما هى ، نعنى بلفاتها وطياتها دون أن تفك طية واحدة منها — الأكفان تحتل موضع الجسد أما والمنديل أو الفوطة التى لثم بها وجه الميت ، فطوى فى مكانه ، وكأنه يلتف حول الرأس كما كان — صورة غريبة ولا شك تدعو للخوف والرهبة والذهول. فكأنما جسد «يسوع» قد تبخر كالأثير من وسط اللفائف ! وفى هذه الصورة المعجزية التى لا تقبل التأويل ، تحقق التلميذ الحبيب ما حدث ، فآمن . إن يوحنا لم يبن إيمانه على ما جاء فى الكتب من نبوات ، أو على ما قاله «يسوع» من تصريحات . لقد تحقق من قيامة سيده من الأموات ، عن طريق ما رآه بعينيه ، ولمسه بيديه .

وفى القصة التى أمامنا ، نرى لمسة رائعة للدور الذى تقوم به المحبة . فمريم التى أحبت سيدها كثيرا ، هى التى تسرع أولا إلى القبر والظلام باق ، ولعلها لم تذق طعم النوم طيلة اليومين السابقين . ويوحنا الحبيب ، التلميذ الذى كان «يسوع» يحبه ، هو الذى آمن أولا بقيامة « يسوع » .

لقد كانت المجدلية أول سيدة تؤمن بقيامة «يسوع» وكان «يوحنا» أول رجل يشاركها هذا الإيمان الحى ، لقد كانت المحبة هى النور الذى أشرق فى العينين لترى الحقيقة ، والنور الذى بدد ظلام القلب ، فأدرك كل شىء .

وهنا نلمس ناموساً عظيما من نواميس الحياة . فى أى عمل نقوم به لا نستطيع أن نترجم أفكار الآخرين ، إن لم تكن بيننا وبينهم رابطة من التعاطف .

لا يوجد محاضر يستطيع أن يلقى خطابا عن إنسان ما ، لا يحس نحوه بالعطف أو المحبة ، لا يستطيع موسيقار أن يقود أفراد مجموعته ، لتعزف أوبرا لمؤلف عظيم ، لا يشعر بالحب من نحوه . إن المحبة هى أعظم مترجم يهضم أفكار الآخرين ويقدمها للناس . المحبة هى التى تغوص إلى الأعماق لتكتشف لآلىء الحق ، فى الوقت الذى يتخبط فيه المنطق على الشاطىء ... المحبة هى التى تحقق معنى الأشياء التى يعجز البحث عن الوصول إليها .

يقال إن رساما ناشئا ، رسم صورة ليسوع ، وتقدم بها للفنان الكبير « دوريه » لينقدها . وفى بادىء الأمر لم يشأ أن يجرح مشاعره . لكنه لما ألح عليه وضع تقريره عن الصورة فى كلمة واحدة . « إنك لا تحب موضوع صورتك ، وإلا استطعت أن ترسمه أفضل من ذلك » .

إننا لا نستطيع أن نفهم « يسوع » ، أو نعين الآخرين على فهمه ما لم نأت أولا بقلوبنا وعقولنا . . . بمشاعرنا وأفكارنا . . بعواطفنا ومنطقنا ونسلم الكل بين يديه ، ليستنير بنوره ويهتدى بإشراقه ..

أَمَّا مَرْيَمُ فَكَانَتْ وَاقِفَةً عِنْدَ ٱلْقَبْرِ خَارِجاً تَبْكِي. وَفِيمَا هِيَ تَبْكِي ٱنْحَنَتْ إِلَى ٱلْقَبْرِ فَنَظَرَتْ مَلَاكَيْنِ بِثِيَابٍ بِيضٍ جَالِسَيْنِ وَاحِداً عِنْدَ ٱلرَّأْسِ وَٱلْآخَرَ عِنْدَ ٱلرِّجْلَيْنِ حَيْثُ كَانَ جَسَدُ يَسُوعَ مَوْضُوعاً. فَقَالَا لَهَا يَا ٱمْرَأَةُ لِمَاذَا تَبْكِينَ. قَالَتْ لَهُمَا إِنَّهُمْ أَخَذُوا سَيِّدِي وَلَسْتُ أَعْلَمُ أَيْنَ وَضَعُوهُ. وَلَمَّا قَالَتْ هٰذَا ٱلْتَفَتَتْ إِلَى ٱلْوَرَاءِ فَنَظَرَتْ يَسُوعَ وَاقِفاً وَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ يَسُوعُ. قَالَ لَهَا يَسُوعُ يَا ٱمْرَأَةُ لِمَاذَا تَبْكِينَ. مَنْ تَطْلُبِينَ. فَظَنَّتْ تِلْكَ أَنَّهُ ٱلْبُسْتَانِيُّ فَقَالَتْ لَهُ يَا سَيِّدُ إِنْ كُنْتَ أَنْتَ قَدْ حَمَلْتَهُ فَقُلْ لِي أَيْنَ وَضَعْتَهُ وَأَنَا آخُذُهُ. قَالَ لَهَا يَسُوعُ يَامَرْيَمُ. فَٱلْتَفَتَتْ تِلْكَ وَقَالَتْ لَهُ رَبُّونِي ٱلَّذِي تَفْسِيرُهُ يَامُعَلِّمُ. قَالَ لَهَا يَسُوعُ لَا تَلْمَسِينِي لِأَنِّي لَمْ أَصْعَدْ بَعْدُ إِلَى أَبِي. وَلٰكِنِ ٱذْهَبِي إِلَى إِخْوَتِي وَقُولِي لَهُمْ

إِنِّى أَصْعَدُ إِلَى أَبِى وَأَبِيكُم وَإِلٰهِى وَإِلٰهِكُمْ . فَجَاءَتْ مَرْيَمُ ٱلْمَجْدَلِيَّةُ وَأَخْبَرَتِ ٱلتَّلَامِيذَ أَنَّهَا رَأَتِ ٱلرَّبَّ وَأَنَّهُ قَالَ لَهَا هٰذَا

(يوحنا ٢٠ : ١١ – ١٨)

تحدث أحدهم عن هذه القصة كصورة أدبية، فوضع لها عنوانا فى هاتين الكلمتين : « المعرفة الأعظم » . ولقد قدر للمجدلية أن تكون أول من اكتحلت عيناه برؤية المخلص . إن كل سطر فى القصة ترصعه جواهر محبتها – فقد أتت مسرعة إلى القبر والظلام باق . وحينما تكتشف عدم وجود الجسد ، تجرى مسرعة إلى بطرس ويوحنا . وفى تسابق التلميذين إلى القبر يبدو أنها لم تستطع اللحاق بهما ، فأسرعت تجر قدميها جهد المستطاع وحين وصلت ثانية إلى القبر ، كان الإثنان قد غادرا المكان ، فوقفت وحيدة هناك تبكى . وليس هناك ما يدعونا إلى أن نتحدث عن السبب الذى من أجله لم تعرف «يسوع» . فقد «حشت» الدموع عينيها . وحديثها مع من ظنت أنه البستانى ، يهتف بأصداء محبتها الصادقة . « إن كنت أنت قد أخذته فقل لى أين وضعته » . إنها لم تستطع أن تنطق بالاسم العزيز على قلبها ، فصدمة الحزن ما تزال تذهلها . بل لم تنطق بالاسم المبارك ، ظناً منها أن كل واحد فى الوجود ، لا بد وأن يعرفه . لقد كان «يسوع» يحتل عقلها وقلبها ، حتى أنه لم يعد هناك مكان لآخر .

ثم تأمل قولها « وأنا أذهب لآخذه » . وكيف بك «يامريم» تستطيعين ذلك فى ضعف قواك ؟ وإلى أين ستأخذين الجسد ، وأين تذهبين به ؟ وعيون الجند ، والسلطات الرومانية ، واليهود – كيف ستفلتين من كل

هؤلاء ؟ إنها لم تحسب حساباً لكل هذا . لقد كانت رغبتها الواحدة أن تسكب ينبوع قلبها ، وحبها ، دموعاً ثخينة على جسد حبيبها الذى فقدته . ولم تنتظر لتسمع جواباً ممن تحدثه ، فأدارت ظهرها له ، وأسرعت للقبر مرة أخرى .

ثم نستمع إلى نداء «يسوع» فى قوله « يامريم » . وجوابها الصارخ باللهفة والشوق : « ربونى ... يامعلم » وهى كلمة لا تفترق عن كلمة ربى فى الآرامية ..

ولو عدنا لنتأمل لماذا لم تعرف مريم يسوع ، فإننا نرى سببين :

١ — فهى لم تعرفه بسبب الدموع .. لقد أعمت الدموع عينيها فلم تره ولم تستطع أن تميزه . إننا حينما نفقد عزيزاً لنا ، حبيباً لقلوبنا ، فإن الحزن يكسر القلب ، والدموع تغشى العينين . ولكن ينبغى ألا تفوتنا حقيقة هامة : إن حزننا ينبع من أنانيتنا ، فهو فى جوهره حزن أنانى. فنحن نفكر فى وحدتنا ، وخسارتنا المادية ، أو المعنوية ، وتخلفنا عن تحقيق ما كنا نأمله . إننا لا نبكى على الميت ، بقدر ما نبكى على الأحياء . . لا نبكى على من مضى واستراح وأصبح فى رحاب الرفيق الأعلى، وانتهت أيام جهاده ومتاعبه ، أو على حد تعبير الكاتب انتهى من حمى الحياة : نحن نبكى على أنفسنا وهذا أمر طبيعى . . . علينا فى أوقات الحزن ، ألا ندع الدموع تعمينا عن حقيقة الأمجاد ، بل خلال الدموع ، لنر لمحات مشرقة من أشعة المجد .

٢ — ولم تتعرف على يسوع لأنها كانت تصر على الدوام أن توجه أنظارها إلى الاتجاه الخاطىء . لقد كانت متعلقة بالقبر مربوطة باتجاهه . لا تنفك تدير ظهرها ليسوع لتسرع إلى هناك .

وهنا نرى أيضا صورة لما يحدث معنا فى أحزاننا . إن قلوبنا تتعلق بالقبر .. بمن نظنه قد أصبح سجين القبر ، أو نزيله . ولكن ينبغى أن نرفع أنظارنا عن كل هذا . إن أحباءنا ليسوا هناك . . إن باب القبر لا يغلق عليهم . قد تكون أجسادهم هناك . . . أجسادهم المحطمة البالية . لكن الجسد ليس هو الإنسان . . الجسد ليس هو جوهر الإنسان . إن الروح هى الجوهر الحقيقى . وهذه الروح تكون فى أسمى درجات انطلاقها . وتمتعها ، وإشراقها ، حينما تخلع عنها ثوب الجسد البالى . إنها تصبح وجها لوجه ، فى رفقة «يسوع» فى أمجاد الإله الحى .

حينما تواجهنا أحزاننا ، علينا أن نواجهها ، ليس بالعينين اللتين تعميهما الدموع ، بل بالأنظار المستنيرة بإشراقة النور ، الأنظار التى تخترق السحابة السوداء ، لتبصر أمجاد الشمس المشرقة . ينبغى ألا يحبس القبر عيوننا ، وقلوبنا ، فتتركز مشاعرنا هناك ، ويستولى التراب على أحاسيسنا ، ونشعر بأن آمالنا ، ورجاءنا ، ومستقبلنا قد أصبح رهن الثرى مع حبيبنا الذى أهلنا عليه التراب .

فى كتاب بعنوان « جلجثة كل إنسان » يحدثنا الكاتب[1] ، وهو خادم دين ، عن خدمة جنازة قام بها لأسرة لا يعرف أفرادها من الدين غير اسمه يقول « بعد أن أودعنا الميت فى مرقده الأخير ، اندفعت إبنته إلى جانب القبر الذى لم يغلق بعد ، وهتفت صارخة « وداعا للأبد يا أبى . هذه هى نهاية من لا رجاء لهم » .

ينبغى علينا أن نهتف للراقدين ! إذا كانت لنا حقا نعمة الرجاء المسيحى

---

(1) Alan Walker

ينبغي أن نهتف لأحبائنا الراقدين : « إلى اللقاء — حتى نلتقي مرة أخرى في عالم أفضل » .

المناداة بالأخبار السارة

(يوحنا ٢٠ : ١١ – ٢٨)

هنالك صعوبة واحدة تجابهنا في هذه الفقرة . فحين يلتقي يسوع بالمجدلية وتعرفه ، تندفع نحوه تريد أن تقبل قدميه ، فيصدها السيد بالقول « لا تلمسيني لأني لم أصعد بعد إلى أبي » . وإننا نجده في فرصة ظهوره للتلاميذ في العلية يدعو توما قائلا له « هات أصبعك إلى هنا وأبصر يدى . هات يديك وضعها في جنبي » (يوحنا ٢٠ : ٢٧) . وفي بشارة لوقا في الأصحاح الرابع والعشرين العدد التاسع والثلاثين نجد أن يسوع يدعو تلاميذه الخائفين المرتعبين قائلا لهم : « ما بالكم مضطربين ولماذا تخطر أفكار في قلوبكم أنظروا يدى ورجلي إني أنا هو . جسوني وانظروا فإن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لي . وحين قال هذا أراهم يديه ورجليه » . وفي سياق الحديث عن قيامة « يسوع » يقول « البشير متى » عن لقاء « يسوع » مع المريمتين في فرصة لاحقة — وكانت إحداهما المجدلية — بأنهما « تقدمتا وأمسكتا بقدميه وسجدتا له » (متى ٢٨ : ٩) . ولكن يبدو أن « يوحنا » يعقد الأمور حينما نستمع إلى صوت السيد من خلال سطور قصة القيامة يقول للمجدلية « لا تلمسيني لأني لم أصعد بعد إلى أبي » . وكأني بلمسه محظور قبل صعوده إلى الآب ، ومباح بعد صعوده . ترى ماذا يعني السيد بهذا القول ؟ .

لا يوجد تفسير نستطيع أن نقول إنه مقنع تماماً . ولكننا سنعرض لبعض الآراء ..

١ — فهناك من اتجه إلى تفسير روحى . فيسوع يريد بحديثه هذا ، أن ينبه المجدلية إلى خطئها — لا تلمسينى بمعنى لا تتعلقى بى . ولو كانت هذه لمسة من يريد أن يتيقن من حقيقة قيامة المسيح بجسد فعلى : فإنه يسمح لها بذلك . ولكن تصرفها كان يدل على أنها تريد أن تترجم عن حبها فى صورة عاطفية جسدية . وكأنى بيسوع يقول لها إن وقت الصلات الجسدية قد ولى وانتهى » « وإن كنا قد عرفنا المسيح حسب الجسد ، ولكن الآن لا نعرفه أيضاً » كما يقول رسول الأمم — كأنى به يقصد أن يوجهها إلى الصلة الروحية ، والتى ستكون صلة الأجيال والعصور إلى نهاية الدهور . سوف تكون صلتهم به عن طريق الروح القدس ! وليس عن طريق اللمس والبصر والسمع . فقبل القيامة كان يعيش معهم بالجسد ، ومن الآن فصاعداً سوف تكون صلتهم به صلة الروح . وليس المهم أن تتلاقى الحواس : فالروح بالروح تستطيع أن تتلاقى — هذا تفسير جليل ، ولكنه لا يلقى الضوء الكافى على معنى الكلمة هنا .

٢—وهناك من يتمسك بالقول إن الكلمة فى اليونانية هى ترجمة محرفة عن الآرامية . ويسوع كان يكلم المجدلية باللغة الآرامية وليس اليونانية . وماقدمه يوحنا البشير هو ترجمة لحديث « يسوع » إلى اللغة اليونانية . لقد نادى هؤلاء أن حقيقة ما نطق به « يسوع » كان على هذا النحو : « لا تلمسينى . ولكن قبل أن أصعد لأبى ، إذهبى وقولى لأخوتى ... » وكأنى به يقول لها « لاداعى لإضاعة الوقت فى التعبد لى فى فرحة اكتشافك الجديد السعيد . ولكن إذهبى وانقلى هذه الأخبار السارة لبقية التلاميذ » .

بل إن الصيغة فى اللغة اليونانية ، تشير إلى النهى المستمر . وكان ينبغى أن تترجم على هذا النحو .. « كفى عن لمسى » . وكأنما يقول لها يسوع :

«لماذا تستمرين فى التعلق بى على هذه الصورة ولا تحسبين حساباً للوقت ؛ ولا للمسئولية الملقاة عليك. لن يمضى وقت طويل حتى أعود إلى الآب إذهبى ونادى بالبشارة السارة للتلاميذ ؛ فإنى أريد أن ألتقى بهم سريعاً» . لقد كان هذا أمراً لمريم بأن تترك يسوع ؛ وألا تستمر فى التعلق به ، وأن تمضى للمناداة بالأخبار المفرحة للآخرين . وهذا ما عملته «مريم» . .

٣ — ولكن فئة أخرى اتجهت إلى محاولة ثالثة لتفسير كلمة لا تلمسينى ، فقال أصحابها إن أقوى ظاهرة ترافق ظهور يسوع لتلاميذه . هو الرعب الذى يطغى عليهم . وهذا يؤكده كتبة البشائر الثلاث الأولى . «البشير متى» يصور لنا يسوع وهو يقول لتلاميذه «لا تخافوا» (متى ٢٨ . ١٠) . فإذا أتينا إلى « مرقس » (١٦ : ٨) نجده يصور لنا المريمتين وقد هربتا من القبر ؛ لأن الرعدة والحيرة أخذتاهما . وفى بشارة لوقا (٢٤ : ٥) نشاهدهن « خائفات ومنكسات وجوههن إلى الأرض » .

ولكننا لا نجد إشارة إلى مثل هذا الخوف فى قصة «البشير يوحنا» . وعلى ذلك يعتقد البعض أن ناقلى الأسفار المقدسة ، أخطأوا فى نقل الكلمة التى ترجمت « لا تلمسينى » فهى فى الأصل الآرامى تشبه إلى حد كبير كلمة لا تخافى (كلمة لا تلمسينى Me Aptou وكلمة لاتخافى MePtoou). فيكون قول يسوع للمجدلية « لاتخافى . إنى لم أترككم بعد وأصعد إلى أبى . إنى مازلت معكم حتى الساعة » .

وإننا نترك هذه الآراء كلها ، لفطنة القارىء الكريم . لينتقى منها مايشاء. ومهما يكن من أمر ، فإن المجدلية أطاعت الأمر الكريم ، وأسرعت تخبر التلاميذ بما حدث من قيامة يسوع ، وما هو عتيد أن يحدث من أنه فى طريقه للآب وكانت بشارتها تتركز فى أنها رأت الرب .

وفى بشارة «مريم المجدلية» نرى جوهر المسيحية الحقة ، فالمسيحى الحقيقى هو الذى يستطيع أن ينادى للآخرين قائلا « لقد رأيت الرب ، إن المسيحية ليس معناها أن نعرف الكثير عن «يسوع » ، إنها تعنى أن نعرفه هو . إنها لا تعنى أننا نقدر أن نجادل الآخرين عن «يسوع » ونقنعهم ، بل بالحرى تعنى أننا التقينا بيسوع ، وأن اختبارنا يؤكد لنا ، أنه حى فى حياتنا وكياننا .

تكليف المسيح

وَلَمَّا كَانَتْ عَشِيَّةُ ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَهُوَ أَوَّلُ ٱلْأُسْبُوعِ وَكَانَتِ ٱلْأَبْوَابُ مُغَلَّقَةً حَيْثُ كَانَ ٱلتَّلَامِيذُ مُجْتَمِعِينَ لِسَبَبِ ٱلْخَوْفِ مِنَ ٱلْيَهُودِ جَاءَ يَسُوعُ وَوَقَفَ فِي ٱلْوَسْطِ وَقَالَ لَهُمْ سَلَامٌ لَكُمْ . وَلَمَّا قَالَ هٰذَا أَرَاهُمْ يَدَيْهِ وَجَنْبَهُ . فَفَرِحَ ٱلتَّلَامِيذُ إِذْ رَأَوُا ٱلرَّبَّ . فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ أَيْضاً سَلَامٌ لَكُمْ . كَمَا أَرْسَلَنِي ٱلْآبُ أُرْسِلُكُمْ أَنَا . وَلَمَّا قَالَ هٰذَا نَفَخَ وَقَالَ لَهُمُ ٱقْبَلُوا ٱلرُّوحَ ٱلْقُدُسَ . مَنْ غَفَرْتُمْ خَطَايَاهُ تُغْفَرُ لَهُ . وَمَنْ أَمْسَكْتُمْ خَطَايَاهُ أُمْسِكَتْ

(يوحنا ٢٠ : ١٩ – ٢٣)

من المحتمل جدا أن التلاميذ ظلوا يجتمعون فى العلية التى اجتمعوا فيها مع سيدهم لتناول العشاء الأخير .

ولكنهم كانوا يجتمعون هناك فى خوف ورهبة . كانوا يعرفون مرارة عداوة اليهود . لقد تآمر اليهود على «يسوع» وأفلحت مؤامراتهم . وقد يأتى عليهم الدور بعد ذلك . وهكذا كانوا يجتمعون معاً فى رعب وهم يتسمعون

أقل خطوة على درجات السلم . ويتوقعون بين لحظة وأخرى ، أن يسمعوا قرعات الجند على الباب ليلقوا عليهم الأيادى . وبينما كانوا مجتمعين فى خوف ورعب ، ظهر «يسوع» فى وسطهم ، والأبواب مغلقة كما هى ، وابتدرهم بالتحية الشرقية المعروفة : «سلام لكم» شالوم الياقيم . وهذه التحية تعنى أكثر من «ليتكم تجنبون شر المتاعب . إنها تعنى «ياليت الإله يهبكم كل ما هو طيب» . وبعد ذلك تقدم إليهم بالتكليف الذى لا ينبغى أن يفوت الكنيسة خلال العصور ..

١ — «إنه يقول لهم : كما أرسلنى الآب أرسلكم أنا» هنا نجد ، كما يقول وستكوت «منهاج الكنيسة» ودليلها .. وهذا التكليف يعنى أموراً ثلاثة ..

(ا) فهو يعنى أن يسوع المسيح بحاجة إلى كنيسته . هذا يفسر ما نادى به رسول الأمم بعد ذلك بأن الكنيسة جسد المسيح . (الرسالة إلى أهل أفسس ١ : ٢٣ ، الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس ١٢ : ١٢) لقد أتى يسوع برسالة عظمى للبشرية جمعاء . وها هو على وشك الصعود إلى الآب . لكن هذه الرسالة ، لا بد وأن تبلغ هدفها . وكيف يكون ذلك إلا عن طريق الكنيسة .

ينبغى أن تكون الكنيسة البوق الذى يبوق فيه روح الله برسالة المسيح المباركة ، ينبغى أن تكون فما ليسوع يتحدث فيه للناس ، قدمين ليسوع يسعى بهما للبحث عن الحمل الضال ، يدين ليسوع يتمم بهما العمل الذى أعطاه الآب . إن المشعل ينبغى أن يرتفع عاليا فى أرض الظلمة وظلال الموت . ولا سبيل لذلك بعد صعود السيد لأمجاده ، إلا عن طريق الكنيسة

ولن يصل إنجيل المسيح إلى كافة أرجاء المعمورة ، ما لم تحمله أيدى الكنيسة ، وتقدمه للبعيد والقريب ، وعلى ذلك ، فأول ما يعنيه هذا التكليف أن يسوع يعتمد كل الاعتماد على عمل روح الله بواسطة الكنيسة .

(ب) وهو يعنى أن الكنيسة فى مسيس الحاجة ليسوع . إن المرسل بحاجة إلى من يرسله ، وبحاجة إلى الرسالة التى يحملها ، وبحاجة إلى القوة التى تؤيده والسلطان الذى يؤكد رسالته ، إنه فى أشد الحاجة لمن يرجع إليه حين تتأزم الأمور وتواجهه المتاعب .

وعلى ذلك فلا غنى للكنيسة عن «يسوع » ، فبدونه لا رسالة لها ، وبدون قوته ونعمته وتأييده وسلطانه لا فعالية لها ، وبدون إرشاده ومعونته ، لا نور لها ، ولا إرشاد .

(ح) وهو يعنى أن ارسال يسوع للكنيسة وتكليفه إياها بالعمل ، يوازى ارسال الآب للابن ، وتكليفه إياه بالرسالة التى قدمها ، وأطاع حتى الموت فى سبيل إتمامها. ولا يوجد باحث حقيقى فى البشائر ، يخفى عليه ، أن الصلة بين الآب والابن كما صورها لنا البشير الرابع ، تعتمد كل الاعتماد على طاعة يسوع الكاملة للآب وخضوعه الكامل لمشيئته ، ومحبته الأمينة له . إن يسوع لم يصبح بحق رسول الله ، إلا بتقديم حياته ذبيحة طيعة لخدمة الآب ومحبته وإتمام مشيئته . وعلى نفس القياس نقول إن كنيسة المسيح لن تصبح كفواً لأن تكون رسول المسيح ، وأداة حية لإتمام رسالة المسيح ، إلا حينما تحبه بحق ، وتطيعه بكل خضوع . إن الكنيسة لا ينبغى أن تخرج إلى العالم لتقدم رسالتها هى ، ينبغى أن تخرج إلى العالم لتقدم رسالة المسيح ، إن الكنيسة تفشل حينما تحاول أن تحل مشاكل العالم بحكمتها ومقدرتها ... تفشل حينما تتخلى عن الخضوع لإرادة المسيح وإرشاده ...

٢ — نلاحظ أيضا أن المسيح نفخ فى تلاميذه ، وقال لهم اقبلوا الروح

القدس. ومما لا شك فيه . أن هناك مشابهة أكيدة بين هذه الصورة . وما ورد عن قصة الخلق فى القديم . فحين خلق الله آدم ورد القول « وجبل الرب الإله آدم ترابا من الأرض ونفخ فى أنفه نسمة حياة ، فصار آدم نفساً حية » (تكوين ٢ : ٧) .

وتتكرر الصورة أيضا فى القصة الواردة فى سفر نبوات حزقيال فى الأصحاح السابع والثلاثين عن وادى العظام اليابسة ، حين هتف صوت السيد الرب « هلم ياروح من الرياح الأربع ، وهب على هؤلاء القتلى ليحيوا » (حزقيال ٣٧ : ٩) إن حلول روح الله فى مكان ما ، معناه الخلق الجديد ... معناه البعث من الموت إلى الحياة . ألا يشبه هذا أيضا الصورة التى وردت فى السطور الأولى من قصة خلق العالم ، حين كانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة « وروح الله يرف على وجه المياه » ؟

حين يأتى روح الله إلى الكنيسة .. حين يهب روح الله على الكنيسة .. حين ينفخ يسوع روح الحياة فى الكنيسة تنتعش انتعاش الحياة ، وتهب من رقادها ، لتعمل عملا مباركا لمجد المسيح ..

٣ ــ ثم يقول السيد « من غفرتم خطاياه غفرت له ومن أمسكتم خطاياه أمسكت ..» هذا قول مقدس ، ينبغى أن نحرص كل الحرص على تفهم معناه الحقيقى .

قبل كل شىء ، ينبغى أن نقرر أنه لا يوجد إنسان يستطيع أن يغفر خطايا إنسان. هذا أمر واضح منطقى لا يحتاج إلى جدال لكن هناك أمرا آخر أكيدا هو أن يسوع قد أعطى لكنيسته الامتياز الكبير أن تعلن للناس، وتقدم للبشر رسالة غفران الله .

ولنفرض أن شخصا أتى الينا برسالة من شخص آخر فإن تقديرنا لقيمة هذه الرسالة ، يتوقف على صلة حامل الرسالة بمن أرسلها الينا — إن كان واحد بأتى معلنا ومفسرا ومقدما فكر آخر ، فإننا . نعلم أن قيمة هذا التفسير أو التعليم تتوقف على صلة هذا الإنسان بذلك المفكر الذى يقدم تعليمه . فالرسل هم اول من يمتلك الحق لتقديم رسالة المسيح للبشر ، لأنهم أول من عرف «يسوع» المعرفة الحقيقية ، فاذا اكتشفوا حياة التوبة فى إنسان ، فإن لهم الحق فى أن يعلنوا غفران المسيح له ، وعلى النقيض من ذلك إن اكتشفوا فى حياة إنسان ما ، تحجر القلب ، واستهتار التصرفات ، وكبرياء الذات والانسياق وراء الشهوات ، فإن لهم الحق أيضا فى (حرمان) ذلك الإنسان أو إعلان أنه لا غفران له ولا قبول ، ما لم يرجع بالتوبة والندامة عن طرقه الرديئة هذا هو المفهوم الحقيقى لهذه الآية ..

فهى لا تعنى مطلقا وأبدا ، أن لإنسان ما ، أو لكائن ما مهما سمت رتبته الكهنوتية ، ومهما ارتفع فى درجات القداسة والاقتراب من الله ، لا تعنى أن لذلك الإنسان ، السلطان ، لمغفرة الخطايا أو لإمساكها . وهذه هى الصخرة التى اصطدم بها اليهود فى حادثة شفاء المفلوج ، حينما قال المسيح له : «ثق يابنى مغفورة لك خطاياك» . فقالوا فيما بينهم «إنه يتكلم بتجاديف لأنه من يستطيع أن يغفر الخطايا إلا الله وحده» . وقد كانوا على حق ، ولكن رب الغفران ، أراد أن يوجههم إلى حقيقة أن ابن الإنسان له السلطان لمغفرة الخطايا ، لأنه الله الذى ظهر فى الجسد .

إن كل مايقصده «يسوع» بقوله هذا لتلاميذه ، أن لهم السلطان لتحذير الإنسان الخاطىء من أن خطاياه ثابتة عليه ، لن تزاح عنه ، ولن تغفر له ،

طالما استمر فى عناده ؛ وبالتالى لهم السلطان ، للتأكيد للإنسان التائب بأن خطاياه مغفورة له، وأن السماء قد قبلت توبته، وأن باب المراحم الإلهية قد فتح أمامه ، وأن حمل الخطية قد رفع عنه .

وهذا هو حق الكنيسة وامتيازها على مر العصور .

إقناع ٱلمتشكك

أَمَّا تُومَا وَاحِدٌ مِنْ ٱلْٱثْنَيْ عَشَرَ ٱلَّذِي يُقَالُ لَهُ ٱلتَّوْأَمُ فَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ حِينَ جَاءَ يَسُوعُ . فَقَالَ لَهُ ٱلتَّلاَمِيذُ ٱلْآخَرُونَ قَدْ رَأَيْنَا ٱلرَّبَّ . فَقَالَ لَهُمْ إِنْ لَمْ أُبْصِرْ فِي يَدَيْهِ أَثَرَ ٱلْمَسَامِيرِ وَأَضَعْ إِصْبِعِي فِي أَثَرِ ٱلْمَسَامِيرِ وَأَضَعْ يَدِي فِي جَنْبِهِ لَا أُومِنْ

وَبَعْدَ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ كَانَ تَلاَمِيذُهُ أَيْضاً دَاخِلاً وَتُومَا مَعَهُمْ . فَجَاءَ يَسُوعُ وَٱلْأَبْوَابُ مُغَلَّقَةٌ وَوَقَفَ فِي ٱلْوَسَطِ وَقَالَ سَلاَمٌ لَكُمْ . ثُمَّ قَالَ لِتُومَاهَاتِ إِصْبَعَكَ إِلَى هُنَا وَأَبْصِرْ يَدَيَّ وَهَاتِ يَدَكَ وَضَعْهَا فِي جَنْبِي وَلَاتَكُنْ غَيْرَ مُؤْمِنٍ بَلْ مُؤْمِناً . أَجَابَ تُومَا وَقَالَ لَهُ رَبِّي وَإِلٰهِي . قَالَ لَهُ يَسُوعُ لِأَنَّكَ رَأَيْتَنِي يَاتُومَا آمَنْتَ . طُوبَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَرَوْا

(يوحنا ٢٠ : ٢٤ — ٢٩)

لقد كان الصليب بالنسبة لتوما ، كما توقعه ، فحينما عزم « يسوع » على الذهاب إلى بيت عنيا فى فرصة مرض لعازر ، كان إحساس « توما » لنذهب نحن أيضاً لنموت معه » (يوحنا ١١ : ١٦) ، أى لنذهب ولو كان فى ذلك موتنا .

كلمة شجاعة ولكنها تنطوى على روح التشاؤم .

ولقد كان «توما» يحب «يسوع »حقاً، لقد كان يحبه إلى حد أنه لم يحجم عن مرافقته إلى بيت عنيا القريبة من أورشليم ، رغم يقينه بأن هناك الموت المحقق . لقد كان مبدؤه : لنذهب معه ولو إلى الموت ، هذه هى المحبة الصادقة.

وحدث ما توقعه « توما »، ونجحت مكيدة اليهود ، وأسلم« يسوع » لحكم الموت . وانتهت القصة الكبرى برقاده فى القبر الصخرى البارد المعتم ، ولم يكن حزن« توما » نظير حزن « بطرس» الذى يبكى ويعول على رؤوس الأشهاد . لقد كان حزنه حزناً إنطوائياً .. حزن الفيلسوف المفكر المتأمل ، وما كان يرغب بعد أن ختمت حياة سيده هذه الخاتمة الدموية ، ما كان يرغب إلا أن يتركه الآخرون ليحيا منطوياً ، منزوياً ، بعيداً ، فى آلامه يجتر أحزانه على انفراد .

وهكذا هجر اجتماعات التلاميذ، حتى أنه لم يكن هناك ، حينما ظهر يسوع لهم فى العلية ، وبالطبع بعث إليه التلاميذ من يخبره بالحدث الكبير ، ولكن تفكيره الذى كان يعتمد أكثر ما يعتمد على المنطق والحس ، ما كان ليدع له مجالا أن يصدق ، أن سيده الذى رآه مصلوباً ، وشاهده ميتاً منكسراً ، وأوسد فى حضن الصخر جسداً جامداً، وختم عليه باب القبر ، واصطف الحراس حوله مدججين بالسلاح ، قد عاد إلى الحياة ، إن هذا مستحيل فى عرف المنطق والأحداث ، بل هو

مستحيل فى نظرة التلميذ الحزين المتشائم الذى قبع فى صومعة أحزانه لا يبغى عنها بديلا .

وهكذا جاء جوابه قاسياً ، ولكنه يحمل المنطق العلمى التجريبى ، « إن لم أبصر فى يديه آثار المسامير ، وأضع أصبعى فى أثر المسامير ، وأضع يدى فى جنبه لا أومن » (لاحظ أنه لا يذكر هنا أثر المسامير فى قدميه ، وهو خطأ يقع فيه الرسامون حينما يصورون مسماراً كبيراً يخترق القدمين الموضوعتين الواحدة فوق الأخرى ، ذلك لأن القدمين كانتا تربطان بالحبال إلى قائم الصليب دون أن تسمرا) ، ومر أسبوع طويل ، وفى أول الأسبوع التالى كان التلاميذ مجتمعين معاً فى العلية ، وكان « توما » معهم ، وجاء « يسوع » ووقف فى الوسط وقال لهم سلام لكم ، وفى هدوء ، تقدم السيد من تلميذه المتشكك كاشفاً أسرار قلبه ، مكرراً نفس الكلمات التى رددها قبل ذلك ، داعياً إياه ليصل إلى الإيمان عن طريق التجربة والاختبار ، وأمام تلك المحبة الغامرة ، وذلك الإتضاع الفائض ذاب قلب « توما » فى أعماقه ، وخر على ركبتيه ساجداً وهو يهتف لمسيحه « ربى وإلهى » ، ويقول له السيد « لأنك رأيتنى ياتوما آمنت ، طوبى للذين آمنوا ولم يروا » . لقد كان فى حديثه هذا إشارة إلى أجيال الأجيال التى ستأتى حتى نهاية الدهر ، فتؤمن بيسوع وتحبه ، وتتعلق به ، وتتعبد له ، دون أن تراه رؤية العين .

وخلال سطور القصة ، نستطيع أن نرى ملامح شخصية « توما » .

١ — لقد ارتكب توما خطأ كبيراً حينما أهمل شركة القديسين وانزوى بعيداً منطوياً على نفسه ، لقد اتجه إلى الوحدة بديلا عن الاجتماع ، ولأنه لم يكن مع إخوته ، فاتته أول فرصة لظهور المسيح ، إننا نخسر الكثير حينما نعزل

أنفسنا عن المؤمنين ،ونهمل اجتماعات القديسين، إن اختبارات كثيرة يمكن أن نختبرها هناك، ولكننا لن نصل إليها فى خلوتنا ، وما أحوجنا فى ظروفنا المتنوعة أن نسعى إلى إخوتنا ، إن كثيرين فى أحزانهم ، يلزمون بيوتهم ، ويرفضون الذهاب إلى الكنيسة ، وأين نجد التعزية إن لم يكن فى اجتماعات المؤمنين ؟ وكيف نهرب الحزن والتنهد ، مالم نتقابل وجهاً لوجه مع ذاك الذى يسكب بلسم التعزيات فى كأس أحزاننا ؟

٢ - ولكن توما كان يمتلك فضيلتين : فهو رجل صادق مع نفسه،وصادق مع الآخرين . إنه رفض أن يغالط نفسه . فهو لايصمت متظاهراً بالتصديق فى وقت لايجد فيه من الأدلة ما يدعوه إلى التصديق. وهو لا يوهم الآخرين بغير الحقيقة ،، إن أمانة «توما» لا تدارى ولا ترائى ، ولا تنكر الشكوك الثائرة فى أعماقها . إنه ليس كأتباع بعض الطوائف ، الذين يؤمنون بالعقيدة لأنها عقيدتهم وكفى ، ويتمسكون بها ،ويدافعون عنها ، دون أن يعرفوا مضمونها ، أو يدركوا سبباً لذلك ، إن « توما » يريد أن يصل إلى يقين الإيمان ، وله الحق فى ذلك ، وكما يقول « تنيسون » ..

« إن الإيمان الحى يحيا فى الشك الأمين ..

« أكثر مما يحيا فى نصف العقائد السائدة ..

هناك إيمان يصل إلى منتهاه فى الإنسان الذى يصر على أن يلمس كل شىء ويتأكد متيقناً منه ، أكثر من الإنسان الذى يردد ماسمعه دون أن يفهمه أو يؤمن به . إنه الشك الذى يصل بصاحبه إلى نور اليقين ..

٣ - الفضيلة الثانية أن توما حينما يلوح له شاطىء الإيمان لايتراجع عن أن يندفع بكل قوته ، فهو يصل فى إيمانه إلى أقصى الطرف النقيض من شكه . وهكذا نستمع إليه يهتف « ربى وإلهى » ، لا حل وسط عند « توما »،

فإما أن يؤمن أولا يؤمن على الإطلاق ، ومتى آمن فهو يصل فى إيمانه إلى أبعد الحدود . إنه لا يمسك بالعصا من وسطها . وإذا كان يتمسك بالشك ، فنى سبيل أن يصل إلى أقصى اليقين . ومتى وصل إليه ، أسلم نفسه وكيانه وعقله فى فرحة هذا اليقين المبارك ، إن المسيحية لا تربى الجهل ، ولا تحترمه ، بل على النقيض من ذلك تقدر مجهودات أى مفكر متزن صادق ، يسعى باحثاً منقباً محارباً شكوكه ، حتى يصل إلى يقين الإيمان ، بأن يسوع المسيح رب .. إن مثل هذا الإيمان ، هو بلا شك أفضل بكثير من الإيمان المبنى على عدم التفكير ، وعدم البحث ..

توما فى الأيام التالية

(يوحنا ٢٠ : ٢٤ – ٢٩)

ونحن لا نعلم علم اليقين ماحدث لتوما بعد ذلك . ولكن هناك كتاب ضمن كتب الأبوكريفا . يعرف بسفر أعمال « توما » يتضمن الكثير من الأقاصيص المبنية على تقاليد خيالية ، والتى ربما يكون لها بعض الأساس التاريخى من الصحة . وفى هذه نستطيع أن نلمس ملامح شخصية « توما » بكل وضوح .

فبعد صعود المسيح ، قسم التلاميذ رقعة العالم بين أنفسهم إلى ميادين تبشيرية ، يقوم كل واحد منهم بنشر بشارة الإنجيل فى ربوعها . وكانت الهند من نصيب «توما » . هذا يبدو أمراً مؤكداً ، لأن الكنيسة فى جنوب الهند ، والتى تعرف باسم الكنيسة التوماوية ، ترجع بأصلها إلى «توما الرسول» كمؤسسها . فهو أول من قام ببث الدعوة المسيحية هناك . ويقال إن «توما» رفض الذهاب إلى الهند فى بادىء الأمر ، فقد كان يخشى السفر الطويل . بل إنه خشى

أيضاً صعوبات التخاطب مع قوم لايعرف لغتهم ، ولايعرفون لغته . « وكيف لى أذهب إلى الهنود منادياً بكلمة الحق » هكذا قال « وأنا أتكلم العبرية ؟ .. وفى تلك الليلة ظهر له «يسوع» وخاطبه بالقول « لاتخف ياتوما تكفيك نعمتى . إذهب إلى الهند وبشر بالكلمة » .

ولكن يبدو أن طبيعة العناد كانت لا تزال تسيطر فى أعماقه ، وهكذا يعترض قائلا : « إلى أى مكان تريدنى أن أذهب ياسيدى ، أنا على استعداد أن أذهب ، عدا بلاد الهند » .

وحدث أن تاجراً من بلاد الهند يدعى «عبانيس» ، قدم إلى أورشليم مرسلا من قبل الملك «جوندافرس» ملك البلاد فيبحث بين اليهود عن نجار ماهر ، وقد كانت مهنة «توما» النجارة ، فظهر «يسوع» لهذا المدعو «عبانيس» بصورة مرئية فى سوق أورشليم ، وقال له « هل تريد أن تشترى عبداً يحترف التجارة ؟ .. فأجاب الرجل بالإيجاب فقال له « يسوع » « لدى عبد نجار وأنا أريد أن أبيعه لك »[1] ، ثم أشار إلى «توما» الذى تصادف وجوده فى المكان فى ذلك الوقت ، وهكذا تمت الصفقة ، وقبض «يسوع» الثمن ، وأعطى الرجل الهندى صك الملكية على هذا النحو .. « أنا يسوع بن يوسف النجار ، أقر وأعترف أننى بعت عبدى المسمى توما إلى عبانيس التاجر الموفد من قبل جوندافرس ملك الهند . » وبعد أن وقع «يسوع» على الصك اصطحب التاجر إلى حيث يقف «توما» . وسأل التاجر توما « هل هذا سيدك ؟ » فأجاب « حقاً هو سيدى » ، فقال التاجر « لقد اشتريتك منه » ولم ينطق « توما »

---

(١) يلاحظ القارىء سماجة القصص الموضوعة وبعدها عن روح الكتاب . فكيف يتحدث السيد عن تلميذه ملقبا إياه بالعبد ، متصرفا معه تصرف السيد بعبده ، وهو الذى قال بفمه الطاهر « لا أعود أسميكم عبيداً لأن العبد لا يعلم ما يعمل سيده ، لكنى سميتكم أحباء ! » وكيف به يرغم تلميذا على خدمته بهذه الخديعة ! . (المعرب) .

بكلمة ، وفى الصباح قام توما مبكراً . وبعد أن تلى صلواته ، اتجه إلى يسوع وقال ..

« لتكن مشيئتك ياسيدى يسوع . سوف أذهب حيث تريد » .

وتستمر القصة لتروى لنا كيف أن الملك الهندى أمر توما بأن يبنى له قصراً ، وأجابه توما أنه يستطيع ذلك . فأعطاه الملك المال الكافى ليشترى ما يلزمه من مواد البناء ، وليقوم بسداد نفقات العمال . فاذا بتوما يوزع كل هذا على الفقراء ، وهو يخبر الملك يوماً بعد يوم ، أن القصر على وشك الإتمام . وفى نهاية الأمر أرسل يستدعيه وسأله قائلا « أين القصر الذى وعدتنى بإتمامه ؟ ..

فأجاب توما « لقد أقمته » « ومتى أذهب لأراه ؟ . وجاء جواب التلميذ « إنك لن تشاهده فى هذه الحياة . ولكن بعد أن تفارق هذه الدنيا ستراه ». وفى بادىء الأمر استشاط الملك غيظاً ، وكان توما فى خطر فقدان حياته ، ولكن التلميذ بحكمته استطاع أن يوجه الملك إلى الحياة الأفضل ، فربحه للمسيح ، وهكذا دخلت المسيحية إلى الهند .

من هذه القصة ، كما من تصرف توما السابق فى مواجهة حقيقة قيامة المسيح ، نستطيع أن نصل إلى استنتاج صادق عن «توما » ، فالإيمان لم يكن شيئاً سهلا بالنسبة له ، والطاعة لم تكن ميسورة . لقد كان من صنف الرجال الذين لا يصلون إلى الإيمان إلا عن طريق الإختبار والتجربة ، لقد كان يحسب لكل خطوة حسابها ، ولكنه متى وصل إلى اليقين ، فإنه يذهب فى إيمانه إلى أبعد الحدود . إن إيماناً نظير إيمان «توما » هو ولا شك أفضل من الإيمان التقليدى المتوارث ،الذى يقبله الإنسان عن غير معرفة أو فحص ، وطاعة مثل طاعة «توما»هى أفضل من الإنسياق العاطفى المندفع ،الذى لا يحسب حساباً للكلفة ،فإذا هبت العواصف وصدمته سقط وانهار،وأضحى حطاماً ولم يعد له وجود .

هدف ٱلبشارة

وَآيَاتٍ أُخَرَ كَثِيرَةً صَنَعَ يَسُوعُ قُدَّامَ تَلاَمِيذِهِ لَمْ تُكْتَبْ فِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ . وَأَمَّا هٰذِهِ فَقَدْ كُتِبَتْ لِتُؤْمِنُوا أَنَّ يَسُوعَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللهِ وَلِكَيْ تَكُونَ لَكُمْ إِذَاآمَنْتُمْ حَيٰوةٌ بِٱسْمِهِ

(يوحنا ٢٠ : ٣٠-٣١)

هذه الفقرة تشكل خاتمة طبيعية للبشارة ، ويبدو أن الأصحاح الحادى والعشرين هو ملحق لها . . ولا توجد فقرة فى البشائر بجملتها ، تلخص هدف بشائر الإنجيل كلها ، كما تفعل هذه الفقرة .

١ ــ فمن الجلى أن البشائر الأربعة ، لا تدعى على الإطلاق أنها قدمت تاريخاً كاملا مفصلا لحياة «يسوع» ، وتعاليمه ، ومعجزاته . وهى فى سرد الأحداث لا تتبع حتى الترتيب الزمنى ، إنها تنتخب عينات بارزة من تلك الأحداث والمعجزات والتعاليم ، ولكنها لا تقدم تقريراً كاملا يلم بكل الحواشى والنواصى ، ويرسم صورة كاملة بكل دقائقها وتفاصيلها . إنها فقط تعطينا الأحداث المثالية التى تظهر لنا ما كانه «يسوع» ، وما كان يعمله .

٢ ــ من الواضح أكثر من هذا أن البشائر لم يقصد بها أن تقدم صوراً من أكثر من جانب لحياة «يسوع» ، إن الهدف منها هو تقديم الدعوة للآخرين

ليقبلوا «يسوع» مخلصاً وسيداً ورباً. إن هدف البشائر لا أن تقدم معلومات، بل أن تقدم للناس الحياة الأفضل، لا أن تملأ عقولهم بحقائق عن «يسوع»، بل أن تجتذبهم ليؤمنوا بيسوع ويختبروه، ويكون فى إيمانهم واختبارهم الحياة المجيدة، إن الهدف الأسمى للإنجيل فى مجموعه، هو أن يقدم لنا يسوع: فى إطار فريد، يجعلنا نثق بأن ذاك الذى كان على هذه الصورة فى حياته وصفاته وتعاليمه ومعجزاته، وفدائه، ليس أقل من مسيح الله الحى، الذى نجد سر الحياة الحقيقية فى إيماننا به.

وعلى ذلك، فإذا اتجهنا إلى بشائر الإنجيل كتاريخ للمسيح، وسرد لأحداث حياته، فإن الهدف الأعظم يفوتنا. ينبغى أن ندرس الإنجيل لا بعين المؤرخ الذى يبحث عن دلالات الأحداث وأزمانها واتجاهاتها، ولكن بقلب المحتاج المتلهف الباحث عن رب الحياة.

الأصحاح الحادى والعشرون

بالرغم من أن هذا الأصحاح يشكل إضافة للإنجيل الذى يبدو من الفقرة السابقة أنه وصل إلى تمامه، إلا أننا سنحاول أن ندرسه نفس الدراسة التأملية. وعلى نفس النمط الذى رأينا فيه «يوحنا» يهدف إلى معنيين فى سرده للأحداث، أو عرضه لبعض الأقوال: المعنى الواضح الظاهرى، والمعنى الروحى الخفى الأعمق، سنحاول أن نكتشف لماذا أضيف هذا الأصحاح إلى البشارة الرابعة.

المسيح المقام

بَعْدَ هٰذَا أَظْهَرَ أَيْضاً يَسُوعُ نَفْسَهُ لِلتَّلَامِيذِ عَلَى بَحْرِ طَبَرِيَّةَ . ظَهَرَ هٰكَذَا . كَانَ سِمْعَانُ بُطْرُسُ وَتُومَا ٱلَّذِي يُقَالُ لَهُ ٱلتَّوْأَمُ وَنَثَنَائِيلُ ٱلَّذِي مِنْ قَانَا ٱلْجَلِيلِ وَٱبْنَا زَبْدِي وَٱثْنَانِ آخَرَانِ مِنْ تَلَامِيذِهِ مَعَ بَعْضِهِمْ . قَالَ لَهُمْ سِمْعَانُ بُطْرُسُ أَنَا أَذْهَبُ لِأَتَصَيَّدَ . قَالُوا لَهُ نَذْهَبُ نَحْنُ أَيْضاً مَعَكَ . فَخَرَجُوا وَدَخَلُوا ٱلسَّفِينَةَ لِلْوَقْتِ وَفِي تِلْكَ ٱللَّيْلَةِ لَمْ يُمْسِكُوا شَيْئاً . وَلَمَّا كَانَ ٱلصُّبْحُ وَقَفَ يَسُوعُ عَلَى ٱلشَّاطِئِ . وَلٰكِنَّ ٱلتَّلَامِيذَ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ يَسُوعُ . فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ يَاغِلْمَانُ أَلَعَلَّ عِنْدَكُمْ إِدَاماً . أَجَابُوهُ لَا . فَقَالَ لَهُمْ أَلْقُوا ٱلشَّبَكَةَ إِلَى جَانِبِ ٱلسَّفِينَةِ ٱلْأَيْمَنِ فَتَجِدُوا . فَأَلْقَوْا وَلَمْ يَعُودُوا يَقْدِرُونَ أَنْ يَجْذِبُوهَا مِنْ كَثْرَةِ ٱلسَّمَكِ . فَقَالَ ذٰلِكَ ٱلتِّلْمِيذُ ٱلَّذِي كَانَ يَسُوعُ يُحِبُّهُ لِبُطْرُسَ هُوَ ٱلرَّبُّ . فَلَمَّا سَمِعَ سِمْعَانُ بُطْرُسُ أَنَّهُ

ٱلرَّبُّ ٱتَّزَرَ بِثَوْبِهِ لأَنَّهُ كَانَ عُرْيَاناً وَأَلْقَى نَفْسَهُ فِي ٱلْبَحْرِ . وَأَمَّا ٱلتَّلاَمِيذُ ٱلآخَرُونَ فَجَاءُوا بِٱلسَّفِينَةِ لأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا بَعِيدِينَ عَنِ ٱلأَرْضِ إِلاَّ نَحْوَ مِئَتَيْ ذِرَاعٍ وَهُمْ يَجُرُّونَ شَبَكَةَ ٱلسَّمَكِ . فَلَمَّا خَرَجُوا إِلَى ٱلأَرْضِ نَظَرُوا جَمْراً مَوْضُوعاً وَسَمَكاً مَوْضُوعاً عَلَيْهِ وَخُبْزاً . قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ قَدِّمُوا مِنَ ٱلسَّمَكِ ٱلَّذِي أَمْسَكْتُمُ ٱلآنَ . فَصَعِدَ سِمْعَانُ بُطْرُسُ وَجَذَبَ ٱلشَّبَكَةَ إِلَى ٱلأَرْضِ مُمْتَلِئَةً سَمَكاً كَبِيراً مِئَةً وَثَلاَثاً وَخَمْسِينَ . وَمَعْ هٰذِهِ ٱلْكَثْرَةِ لَمْ تَتَخَرَّقِ ٱلشَّبَكَةُ . قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ هَلُمُّوا تَغَدَّوْا . وَلَمْ يَجْسُرْ أَحَدٌ مِنَ ٱلتَّلاَمِيذِ أَنْ يَسْأَلَهُ مَنْ أَنْتَ إِذْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلرَّبُّ . ثُمَّ جَاءَ يَسُوعُ وَأَخَذَ ٱلْخُبْزَ وَأَعْطَاهُمْ وَكَذٰلِكَ ٱلسَّمَكَ . هٰذِهِ مَرَّةٌ ثَالِثَةٌ ظَهَرَ يَسُوعُ لِتَلاَمِيذِهِ بَعْدَمَا قَامَ مِنَ ٱلأَمْوَاتِ

(يوحنا ٢١ : ١ – ١٤)

هذه القصة هي واحدة من الأدلة الناصعة القوية، على أن« يوحنا »الحبيب هو كاتب البشاره الرابعة . فهو يعرف خفايا بحر الجليل ، والسمك ،والشباك وموعد الصيد . وهو يعرف أن أفضل وقت للصيد هو سويعات الليل الساكن.

يحدثنا «و . م . طومسون» فى كتابه الشهير «الأرض والكتاب» عن صيد الليل فيقول : «هناك بعض أنواع الصيد تتم أثناء الليل . وما أجمل أن يشاهد الناظر قارباً ينساب على صفحة المياه السوداء فى حالك الظلام ، وفى مقدمته أحد البحارة وقد أمسك شعلة متوهجة تنير صفحة المياه . وعلى الجانبين يقف الرجال وقد أمسكوا بشباكهم وحرابهم على استعداد أن يستخدموها متى لحوا الأسماك الكبيرة تمرق تحت القارب . وفى الصباح تشاهد الصيادين عائدين بأعصاب مرهقة من العمل المضنى طيلة الليل ، والقوارب محملة بالصيد الثمين» وعن «مورتون» فى كتابه التصويرى الرائع «فى خطوات السيد المسيح» نقرأ كيف أنه شاهد اثنين من الصيادين على شاطىء بحر الجليل ، أما أحدهم ، فقد خاض المياه حاملا شباكه ليلقيها فى العمق القريب ، ثم يجذبها بعد برهة ليجدها فارغة كما هى . فيعيد الكرة تلو الكرة دون جدوى . يقول الكاتب «كان منظراً رائعاً أن أتأمله وهو يلقى الشباك ، كانت الشباك بين يديه تنفرد فى لحظات إلى مايشبه الخيمة العريضة ، ثم لا تلبث أن تغوص فى المياه بأطرافها المثقلة بقطع الرصاص.

«وأخيراً جاء صوت زميله من الشاطىء هاتفاً له : ألق الشبكة إلى الجانب الأيسر ! ، وأطاع الصياد النصيحة ، فاذا به يجتذبها غاصة بالسمك الحى المتلوى فى محاولته الإفلات من خيوط الشباك» .

صورة تبدو قريبة الشبه جداً مما عمله يسوع فى هذه الفقرة التى أمامنا.

كان الوقت لا يزال مظلماً فى الفجر الباكر ، حينما ظهر «يسوع» لتلاميذه على شاطىء البحر . كانوا متعبين مرهقين من ليلة طويلة فاشلة فى الصيد ، وجاءت نصيحة «يسوع» لهم ، وتمت المعجزة ، ولم يعودوا يقدرون أن يجتذبوا الشباك من كثرة السمك ، كان التلاميذ فى القارب ، ولكن واحداً

فقط ، التلميذ الذى كان «يسوع» يحبه ، استطاع أن يرى فى المعجزة ، والصوت ، والشبح الواقف على الشاطىء مغلفاً فى غبش الفجر : صورة المخلص وليس سواه . وأسر «يوحنا» لبطرس بالحقيقة ، ولما عرف «بطرس» أنه الرب ، اتزر لأنه كان عرياناً ، وقفز فى الماء لأن الشاطىء لم يكن بعيداً — لاحظ حركة «بطرس» فى الاتزار أو التستر . لقد كان الناموس اليهودى يعتبر التحية عملا دينياً ، وحين يقوم المرء بعمل دينى شأن ذلك شأن الصلاة ، عليه أن يلبس ثوبه ، وهكذا حين عرف «بطرس» أن الماثل على الشاطىء ليس سوى «يسوع» ، وأراد أن يكون الأول فى تحيته ، أسرع ليتستر بثوبه لأنه كان عرياناً ..

حقيقة القيامة

(يوحنا ٢١ : ١ — ١٤)

والآن نأتى إلى الحديث عن الهدف الحقيقى لإضافة هذا الأصحاح للبشارة الرابعة ، ألا وهو إثبات حقيقة قيامة المسيح ، وتأكيدها بالبرهان تلو البرهان ، فهناك من قال إننا لا ينبغى أن نعول كثيراً على شهادة سيدة ترى إنساناً فى الظلام ، فيقول لها إنه الرب فتصدقه ، وخاصة ، وقد كانت حواسها مضطربة من طول السهر والحزن والإرهاق ، وهناك من حاول أن يشكك فى حادثتى ظهور « يسوع » لتلاميذه المجتمعين فى العلية ، على أساس أن الحواس المضطربة ، تتخيل كل شىء ، وتصدق كل شىء ، وهناك من قال إن ظهور «يسوع» ليس فى صورة جسمية ، ولكن فى صورة شبح مرئى . إلى غير هذه الآراء التى تخرج عن دائرة هذه الصفحات [1] ولقد كان أحد أهداف البشارة الرابعة ، كما أسلفنا ، إثبات أن يسوع ليس شبحاً ولا صورة ،

---

(١) الذى يريد الاستزادة ليرجع إلى كتاب « من دحرج الحجر ! للأستاذ حبيب سعيد .

ولا روحاً ، بل شخصاً حقيقيا ، وأن القيامة كانت بالجسد ، وإن كان الجسد المعجزى ، وأن القبر كان بالفعل فارغاً وأن ذلك الجسد المعجزى المقام ، الذى كانت له إمكانيات عظمى ، يحمل نفس آثار المسامير ، وطعنة الحربة ، وله أيضاً خاصيات الجسد العادى .

ولكن القصة هنا ، تأخذنا إلى ماهو أبعد من هذا ، إن شبحاً مرئياً لا يمكن أن يشعل الجمر ، ويشوى السمك ... لا يمكن أن يقدم وجبة شهية ويشترك مع التلاميذ فى تناولها .. ومع ذلك ، فيسوع المقام استطاع أن يقوم بكل هذا ، وحينما يتحدث «يوحنا» عن ظهور السيد للتلاميذ فى العلية رغم الأبواب المغلقة ، نجده يقول «وأراهم يديه وجنبه» (يوحنا ٢٠ : ٢٠) إشارة إلى قيامة فعلية بالجسد .

يقول «القديس أغناطيوس» فى رسالته إلى أهل سميرنا ، متحدثاً بأكثر وضوح وتأكيد « إنى أعرف وأومن أن السيد كان فى الجسد فى حياته ، وبعد قيامته . وحين جاء لبطرس وجماعة التلاميذ قال لهم : خذوا جسونى وانظروا إننى لست شبحاً بلا جسد . وحالما لمسوه آمنوا وصدقوا وأيقنوا بوجود جسده الفعلى ، ودمه ... وبعد قيامته أكل وشرب معهم كمن هو بالجسد ..

إن أول أهداف الأصحاح الحادى والعشرين من البشارة الرابعة ، هو تأكيد حقيقة قيامة الرب يسوع من الأموات بالجسد ، فالقيامة لم تكن رؤيا أملاها خيال مضطرب ، أو رؤيا من العالم الآخر ، أو شبحاً أو روحاً ظهر فى شبه الجسد ، لقد كان يسوع نفسه هو الذى ظهر فعلا للتلاميذ ، يسوع الذى داس الموت ، وانتصر عليه ، وعاد فى ملء القوة والسلطان .

عمومية إرسالية الكنيسة

(يوحنا ١٢ : ١ - ١٤)

ولكن هذا الأصحاح يقدم لنا حقاً عظيماً ثانياً فى صورة رمزية ، إن كل سطر ، وكل كلمة ، وكل حرف فى البشارة الرابعة ، زاخر فياض بالمعانى ولذلك فيحق لنا أن نتساءل ، ماهو السر فى أن يذكر «يوحنا» عدد السمك الذى اصطاده التلاميذ فى فجر ذلك اليوم ؟ لماذا يذكر البشير أن عدد السمك كان مائة وثلاثة وخمسين ؟

يقول البعض إن السر فى عدد السمك ، كان ليأخذ كل واحد من الشركاء نصيبه . فقد كان هناك أكثر من واحد فى قارب الصيد ، وكان يلزم إزاء ذلك العدد الكبير ، أن يقوم من اشتركوا فى الصيد بعده .

ولكننا إذا ذكرنا أن من عادة يوحنا ، تقديم الحقائق الروحية الخفية تحت ستار صور مادية ، فينبغى أن نتوقع شيئاً وراء ذكر هذا الرقم الفردى. وهكذا حاول كثيرون منذ بداية العصر الرسولى ، تقديم اقتراحاتهم عن مدلول المئة والثلاثة والخمسين .

١ - يقول البابا «كيرلس الاسكندرى» أن عدد ١٥٣ يتكون من مجموعات ثلاث : المجموعة الأولى عدد مائة وهذا رمز إلى ملء الأمم . فهذا العدد على حد تعبيره هو رمز الكمال ، وفى مثل المسيح عن الخروف الضال ، حدد عدد الخراف عند الراعى بمئة (متى ١٨ : ١٢) وأيضاً فى مثل الزارع يتحدث عن الأرض الخصبة بالقول إنها تعطى ثمراً يصل إلى المئة ، وهكذا فإن هذا العدد يرمز إلى كمال ملء الأمم ، فى اجتذابهم لحظيرة المسيح .

والعدد الثانى هو الخمسون ، وهو يرمز إلى البقية التى تخلص من إسرائيل . « وإن كان عدد إسرائيل كرمل البحر فالبقية تخلص » .

والعدد الثالث رقم ثلاثة . وهو يرمز إلى الثالوث الأقدس الآب والإبن والروح القدس ، الممجد فى ملء الأمم ، وخلاص البقية الباقية فى إسرائيل .

٢ — وللقديس « أوغسطينوس » رأى آخر ، وهو مبنى كذلك على الافتراض والتخمين ، فهو يبدأ بدراسة مدلول بعض الأرقام ، ويطبقها على هذا العدد الذى أمامنا ، فرقم ١٠ يشير إلى الناموس لأنه يحوى الوصايا العشر ، ورقم ٧ يرمز للنعمة لأن مواهب الروح سبعة ، فإذا أضفنا عدد ١٠ إلى عدد سبعة نصل إلى مجموع ١٧ .

وإذا قمنا بجمع الأرقام ١+٢+٣+٤+٥ الخ حتى عدد ١٧ فان حصيلة المجموع تصل بنا إلى العدد ١٥٣ وعلى ذلك فالعدد ١٥٣ يشير إلى مجموع من يأتون ليسوع المسيح سواء من اليهود أم من الأمم ، تحت الناموس ، أو فى تدبير النعمة .

٣ — ولكن القديس إيرونيموس له تفسير أكثر بساطة ، فهو يقول إن مياه البحر تحوى مائة وثلاثة وخمسين نوعاً مختلفاً من الأسماك ، وعلى ذلك فحصيلة الصيد كله تضم كل نوع من أنواع السمك ، فالرقم رقم تنبوئى يشير إلى أنه لابد وأن يأتى الوقت الذى فيه تصبح كل الممالك للرب ولمسيحه .

ولكننا نلاحظ أمراً آخر ، إن هذا العدد الوافر الكبير ، ضمته شبكة واحدة لاغير ، وبالرغم من هذا لم تتمزق الشبكة . فهى رمز للكنيسة ، ففى الكنيسة متسع لكل الأمم والشعوب والممالك : إن الكنيسة على استعداد أن تقبل الجميع وتفتح ذراعيها للجميع .

إن يوحنا يخبرنا فى هذه الفقرة بطريقته الخاصة الحكيمة، أن الكنيسة فيها من الرحابة ما يكفى لأن تضم فى أحضانها كل شعب وأمة وقبيلة ولسان . إنه يخبرنا عن عمومية الكنيسة وشمول إرساليتها . إن أحضانها أحضان جامعة شأنها فى ذلك شأن محبة الله التى ظهرت لنا فى يسوع المسيح .

وهذا يقودنا إلى السبب الثانى الذى من أجله أضيف هذا الأصحاح لبشارة وصلت إلى ختامها .

لاحظ أن بطرس هو الذى قام بجذب « الشبكة » إلى الشاطىء

(يوحنا ٢٠ : ١١)

راعى رعية المسيح

فَبَعْدَمَا تَغَدَّوْا قَالَ يَسوعُ لِسِمْعَانَ بُطْرُس يَاسِمْعَانَ بْنَ يُونَا أَتُحِبُّنِي أَكْثَرَ مِنْ هؤُلَاءِ . قَالَ لَهُ نَعَمْ يَارَبُّ أَنْتَ تَعْلَمُ أَنِّى أُحِبُّكَ . قَالَ لَهُ ٱرْعَ خِرَافِى قَالَ لَهُ أَيْضاً ثَانِيَةً يَاسِمْعَانُ بْنَ يُونَا أَتُحِبُّنِي . قَالَ لَهُ نَعَمْ يَارَبُّ أَنْت تَعْلَمُ أَنِّى أُحِبُّكَ . قَالَ لَهُ ٱرْعَ غَنَمِى . قَالَ لَهُ ثَالِثَةً ياسِمْعَانُ بْنَ يُونَا أَتُحِبُّنِي . فَحَزِنَ بُطْرُس لأَنَّهُ قَالَ لَهُ ثَالِثَةً أَتُحِبُّنِي فَقَالَ لَهُ يَارَبُّ أَنْتَ تَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ . أَنْتَ تَعْرِفُ أَنِّى أُحِبُّكَ . قَالَ لَهُ يَسُوعُ ٱرْعَ غَنَمِى . اَلْحَقَّ اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكَ لَمَّا كُنْتَ أَكْثَرَ حَدَاثَةً كُنْت تُمَنْطِقُ ذَاتَكَ وَتَمْشِى حَيْثُ تَشَاءُ . وَلٰكِنْ مَتَى شِخْتَ فَإِنَّكَ تَمُدُّ

يَدَيْكَ وَآخَرُ يُمَنْطِقُكَ وَيَحْمِلُكَ حَيْثُ لَا تَشَاءُ . قَالَ هٰذَا مُشِيراً إِلَى أَيَّةِ مِيتَةٍ كَانَ مُزْمِعاً أَنْ يُمَجِّدَ ٱللهَ بِهَا . وَلَمَّا قَالَ هٰذَا قَالَ لَهُ ٱتْبَعْنِي .

(يوحنا - ٢١ : ١٥-١٩)

أمامنا صورة لابد وأنها تركت طابعها الذى لا يمحى فى نفسية « بطرس » وفى مخيلته ..

١ - قبل كل شيء دعنا نلاحظ السؤال الذى تقدم به « يسوع » لتلميذه . ياسمعان بن يونا ، أتحبنى أكثر من هؤلاء ؟ وحسبما يشير مفهوم الكلمة فى الأصل هناك احتمالان ، وكلاهما معقول منطقى ..

(١) ربما كان « يسوع » يشير بيده إلى القارب ومعداته ، والشبك المكتنز بالصيد وهو يوجه سؤاله لتلميذه : أتحبنى أكثر من هذه؟ هل أنت على استعداد أن تضحى بكل خططك المادية ، أحلامك الجسدية .. مطامعك فى تجارة رابحة ومكاسب وفيرة ؟ هل أنت على استعداد أن تترك هذه كلها فى سبيل خدمتى وعملى وربح النفوس ؟ هل أنت على استعداد أن تترك الراحة ، والمال ، والبيت الهادىء ، والحياة الناعمة ، وتعتنق الفاقة والجوع والاضطهاد والعار والمتاعب فى سبيلى ؟ لقد كان هذا تحديا لبطرس ليصل إلى قراره الأخير الحازم ولتكون هذه الساعة نقطة ختام وانتهاء ، كما هى نقطة بدء وانطلاق . نقطة ختام لحياته الماضية ، كما نقطة بداية لحياته الجديدة فى خدمة المسيح ورعية المسيح

(ب) وقد يكون يسوع أشار بيده إلى بقية التلاميذ المحيطين به وقال لبطرس ياسمعان بن يونا أتحبنى أكثر من اخوتى هؤلاء ؟ ولعله أراد أن يذكره بالليلة التى هتف فيها أمام سيده « وإن شك فيك الجميع فانا لا أشك أبدا ...

ولو اضطررت أن أموت معك لا أنكرك (متى ٢٦ : ٣٣) لعله أراد أن يذكره برفق ، كيف أنه فى ساعة سابقة اعتمد على نفسه ، وظن أنه يستطيع

بمقدرته أن يقف فى وجه العاصفة، لكن الشجاعة خانته، هذا المعنى الثانى هو الذى يبدو أكثر احتمالا، لأن «بطرس» فى جوابه للسيد لايشير إلى مقارنة بينه وبين الأشياء المادية بل يقول بكل اتضاع (أنت تعلم أنى أحبك).

٢ - الأمر الثانى نلاحظ فيه تكرار يسوع لنفس السؤال. لقد كرره ثلاث مرات، وهناك سبب لهذا التكرار لقد أنكر «بطرس» سيده ثلاث مرات لذلك أراد أن يذكره بسقطته المثلثة، كما أراد أن يعطيه الفرصة لتأكيد محبته لسيده بعدد المرات التى أكد فيها إنكاره له. لقد كانت هذه لفتة موبخة كما كانت لفتة رحيمة أعطى فيها «يسوع» تلميذه الفرصة ليمحو ذكرى الإنكار المثلث بإعلان مثلث لمحبته..

٣ - نلاحظ أيضا ما قدمته تلك المحبة لبطرس.

(ا) لقد أعطته المحبة مجالا للخدمة. إن كنت تحبنى حقا، إن كنت تعلن محبتك أمام الآخرين.. فأمامك الدليل الصادق.. أمامك المجال لإثبات تلك المحبة.. ابذل نفسك فى رعاية غنمى.. إرع حملانى. اننا نستطيع أن نثبت محبتنا ليسوع، بمحبتنا لشعب «يسوع» وقطيعه. إن محبة السيد أعظم امتياز لنا فى الوجود، لكنها تتضمن أعظم مسئولية.

(ب) وأعطته المحبة صليباً. فنحن نستمع إلى السيد يقول له «لما كنت أكثر حداثة كنت تمنطق ذاتك وتمشى حيث تشاء، ولكن متى شخت فإنك تمد يديك وآخر يمنطقك ويحملك حيث لا تشاء».. نعم لقد أتى عليه الوقت الذى مد فيه يديه ليسمر على الصليب، ودفع إلى طريق ما كان يختاره ويرضاه.. لقد أتى الوقت الذى استشهد فيه «بطرس» فى مدينة روما، وختم على شهادته لسيده بشهادته بدمه... لقد أتى الوقت الذى سمر فيه على الصليب منكس الرأس، لأنه حسب نفسه غير مستأهل أن يصلب مثل سيده، لقد أتت المحبة لبطرس بامتياز، وقدمت له

خدمة ، كما أعطته صليباً ، إن المحبة تتضمن المسئولية ، وتتضمن التضحية. فإذا كنا نحب يسوع حقاً ، فعلينا أن نعمل عمل «يسوع» ، ونقوم بخدمة «يسوع» ، ونحمل صليب «يسوع» .

لذلك لم يكن عبثاً أن يضيف البشير هذا الأصحاح الأخير . ولم يكن بلا جدوى أن يسجل فى أصحاحه هذا الحدث ، لقد سجله ليعلن أن «بطرس» هو راعى رعية المسيح ، كثيراً ما يلذ للبعض – وهذا كان شأن الكنيسة منذ أقدم العصور – أن يعقدوا مقارنة فيمن هو الأعظم بين تلاميذ المسيح ، فهناك من قال إنه «يوحنا الحبيب» لأنه رفع البشرية إلى قمم الشركة الحية مع الله ، بأجنحة أفكاره الروحية السامية ، وهناك من قال إنه «بولس» رسول الأمم ، لأنه راح يذرع الدنيا ، ويجابه المخاطر ، ويتحمل المشاق ، فى سبيل رفع لواء للمسيح ، ولكن هذا الأصحاح يرفع بطرس رسول الختان وسط القمم الرفيعة ، ويفسح له مكاناً هناك هناك ، فقد لا تكون له موهبة «يوحنا» ، ونظرته الروحية الثاقبة ، وقلمه النارى ، وأفكاره المجنحة ، وقد لا تكون له المقدرة على قطع المسافات وسط الوعور والجبال والغابات ، وخوض الأنهار ، ومجابهة أخطار البحار ، ومواجهة الوحوش الآدمية فى سبيل نشر الدعوة المسيحية ، ولكن يكفيه أن الرب قد وهبه التكليف المجيد بأن يكون راعى رعية المسيح .

وهنا نستطيع أن نجد طريقاً نسير فى إثر خطواته ، فقد لا تكون لنا موهبة يوحنا ، وقد لا نستطيع أن نتمثل ببولس فى غيرته وخدمته ، ولكن كل واحد منا يستطيع أن يصبح راعياً ولو فى دائرة أسرته .. يستطيع أن يرعى أبناءه وأفراد أسرته من الضلال والانحراف ، يستطيع أن يطعمهم كل حين بطعام الكلمة الإلهية الحية ..

الشهادة للمسيح

فَالْتَفَتَ بُطْرُسُ وَنَظَرَ ٱلتِّلْمِيذَ ٱلَّذِي كَانَ يَسُوعُ يُحِبهُ يَتْبَعُهُ وَهُوَ أَيْضاً ٱلَّذِي ٱتَّكَأَ عَلَى صَدْرِهِ وَقْتَ ٱلْعَشَاءِ وَقَالَ يَاسَيِّدُ مَنْ هُوَ ٱلَّذِي يُسَلِّمُكَ . فَلَمَّا رَأَى بُطْرُسُ هٰذَا قَالَ لِيَسُوعَ يَارَبُّ وَهٰذَا مَالَهُ . قَالَ لَهُ يَسُوعُ إِنْ كُنْتُ أَشَاءُ أَنَّهُ يَبْقَى حَتَّى أَجِيءَ فَمَاذَا لَكَ . ٱتْبَعْنِي أَنْتَ. فَذَاعَ هٰذَا ٱلْقَوْلُ بَيْنَ ٱلإِخْوَةِ إِنَّ ذٰلِكَ ٱلتِّلْمِيذَ لَايَمُوتُ. وَلٰكِنْ لَمْ يَقُلْ لَهُ يَسُوعُ إِنَّهُ لَايَمُوتُ . بَلْ إِنْ كُنْتُ أَشَاءُ أَنَّهُ يَبْقَى حَتَّى أَجِيءَ فَمَاذَا لَكَ

هٰذَا هُوَ ٱلتِّلْمِيذُ ٱلَّذِي يَشْهَدُ بِهٰذَا وَكَتَبَ هٰذَا . وَنَعْلَمُ أَنَّ شَهَادَتَهُ حَق وَأَشْيَاءُ أُخَرُ كَثِيرَةٌ صَنَعَهَا يَسُوعُ إِنْ كُتِبَتْ وَاحِدَةً وَاحِدَةً فَلَسْتُ أَظُنُّ أَنَّ ٱلْعَالَمَ نَفْسَهُ يَسَعُ ٱلْكُتُبَ ٱلْمَكْتُوبَةَ .

آمِينَ

(يوحنا ٢١ : ٢٠-٢٤)

هذه الفقرة تظهر لنا أن «يوحنا» لابد أنه امتد به العمر إلى سن متقدمة للغاية ، لقد وصلت به السن إلى الحد الذى قيل فيه إنه لن يذوق الموت حتى يرى «يسوع» فى مجيئه للعالم ثانية ، وكما أن الفقرة السالفة قدمت لبطرس مكانته ومركزه وتكليفه بالعمل ، فإن الفقرة حددت ليوحنا أيضاً مكانه ، لقد كانت وظيفة «يوحنا» أن يكون شاهداً للمسيح ، ولعل جمهور الكنيسة كان يلذ له أن يعقد المقارنة بين ما قام به رسل المسيح فى حقل الخدمة ، لعله تحدث عن «بولس» ، كمن قطع البرارى والوعور ، ووصل إلى نهاية الوجود ورفع مشعل الإنجيل فى أكثر من بلد ، ولعله تحدث عن «بطرس» كمن قام برعاية الكنيسة الأم فى ربوع اليهودية ، ولكن أكثر من واحد كان يتساءل : وماهو مركز «يوحنا» ؟ لقد استمر يحيا فى ربوع مدينة أفسس ، حتى بلغ من العمر أقصاه أو أقساه . وقيل إن قدماه عجزتا عن حمل جسده فكانوا يحملونه ، ترى ماذا كان عمله فى الكنيسة الأولى ؟ — هنا الجواب : قد نتحدث عن «بولس» فنقول إنه بطل المسيح ، أما «يوحنا» فنستطيع أن نسميه شاهد المسيح : إنه شاهد عيان للأحداث التى ينادى بها ، فهو وحده الذى يستطيع أن يقول « الذى كان من البدء » ... الذى سمعناه .. الذى رأيناه بعيوننا .. الذى شاهدناه ولمسته أيدينا .

وحتى يومنا الحاضر ، فإن الاختبار المسيحى هو أعظم الأدلة على صدق المسيحية ، فالمسيحى هو الذى يستطيع أن يشهد قائلا « إننى أعرف المسيح ، لأنى اختبرته فى حياتى » وهكذا فى ختام البشارة ، يقدم لنا الوحى صورتين مميزتين للكنيسة الرسولية ، الأولى صورة «بطرس» والثانية صورة «يوحنا» ، ولكل أعطى السيد وظيفته الخاصة ، لقد كانت وظيفة بطرس أن يرعى رعية المسيح ، وأن يختم حياته وخدمته بدمه ، وكانت وظيفة «يوحنا» أن يشهد لقصة حياة المسيح ، وأن تتقدم به العمر فى شهادته الحية الخالدة

ويغمض عينيه في سلام ، هذا لن يجعل منهما شخصيتين متنافستين ، أو صورتين تخلو بينهما المقارنة في الكرامة والخدمة ، فليس هذا أعظم ، ولا ذاك أقل ، إنهما خادمان متآزران يكمل أحدهما الآخر ، ولا تستغني خدمة الواحد عن خدمة الثاني ، دع هذا يخدم في مجاله ، ودع ذاك يخدم في دائرته ، كما قسم السيد لكل واحد عمله ، إن «يسوع» يقول لبطرس « دع عنك التطلع إلى سواك اهتم أنت بعملك ، اتبعني أنت ... ينبغي أن يكون هذا شعارنا ، ينبغي ألا نقارن أنفسنا بالآخرين ، أو نقيس أنفسنا على سوانا ، ينبغي أن نضع نصب أعيننا المقياس الأسمى الذي وضعه لنا السيد ، والخدمة التي كلفنا بها ، فمجدنا ليس في مقارنة أنفسنا بغيرنا ، بل في وصولنا إلى المقياس الأسمى الذي وضعه لنا السيد ، وقيامنا بالواجب الذي كلفنا به ..

المسيح غير المحدود

« وأشياء أخر كثيرة صنع «يسوع» ...

(يوحنا ٢١ : ٢٥)

في هذا الأصحاح الأخير يتقدم كاتب البشارة الرابعة بحقائق عظمى للكنيسة ، فهو يذكرها بحقيقة قيامة الرب يسوع من بين الأموات ، وهو يذكرها بعمومية رسالتها وشمولها للعالم أجمع ، وهو يصدر أمامها مايؤكد أن بطرس ويوحنا ليسا متنافسين في مجال الخدمة والكرامة ، بل أن بطرس هو الراعي الكبير ، ويوحنا هو الشاهد الكبير .

وهكذا يأتي البشير إلى ختام بشارته ، وإذ يمسك بالقلم ليكتب الكلمات الختامية ، يسطع عليه نور المسيح ، وجلال المسيح ، وأمجاد المسيح ، فتبهر هذه كلها نظره ، فيهتف لقارئيه : « ومهما تحدثنا ، ومهما أطلنا ، ومهما حاولنا ، فكيف بنا نستطيع أن نصل إلى أعماق المسيح ؟ إنه المحيط

الخضم الزاخر ، الذى يخفى فى باطنه كنوزاً تجل عن الوصف ، مهما عرفنا عنه ، فلم نعرف إلا النذر اليسير ، ومهما ذكرنا من معجزاته ، فما هذه إلا قطرات من مياه البحار ، ومهما وقفنا فاغرى الأفواه ، أمام ما اختبرناه من عظمته وسموه ، وجلاله ، فهناك فى ذلك المذخر فيه كل كنوز الحكمة والعلم والأمجاد ، مايثير دهشتنا ، وعجبنا ، أكثر ، ويبهر أنظارنا أكثر فأكثر .. إن كلمات البشر تعجز عن أن تصف المسيح ، وكتب البشر لا تكفى لكى تحوى المسيح ، وهكذا يختم التلميذ الحبيب بشارته الرائعة المجيدة ، بالحديث عن المسيح كلى النصرة .. المسيح كلى القدرة .. المسيح غير المحدود فى نعمته وأمجاده ..